مقدمة

فى الأدب الإسلامى المقارن

تأليف

دكتور الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم الهيئ

جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



الناشر :

عين للدراســـات والبحوث الانســانية والاجتماعيــة

ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

٦ شارع يوسف فهمي ـ اسباتس ـ الهرم ـ تليفون: ٣٨٥١٢٧٦

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

● كلمة فى البدء

سألنى طالب ذات يوم عن المسميات الجديدة التى شاعت ، وأصبحت كما لو كانت شيئا مسلما به : الطب الإسلامى ، والعلم الإسلامى ، والكيمياء الإسلامية ، وغيرها . وكان ردّى : كل ما شأنه العقل ، ويتخذ مناهجه من التجريب والاستقراء لايختلف تطبيقا بسبب الدين أو العرف أو الوطن ، ومن ثم فان التسمية خاطئة ، ولا مكان لها ، إلا إذا أردنا تاريخ هذه العلوم فى الإسلام وإسهاماته فيها ، وهى إضافات واسهامات أفاد منها غير المسلمين أيضا ، ولكن : هناك العالم المسلم ، والطبيب المسلم ، والمهندس المسلم وغيرهم دون شك أى ، الإنسان الذى يمارس ماعرف من علم ، فيرعى قواعد الإسلام خلقا وسلوكا.

غير أن الأمر فيما يتصل بالأدب مختلف تماما ، لأنه إبداع مصدره الوجدان ، وهو يتأثر وينفعل بقضايا فى مقدمتها الدين ، بل إن النقد الحديث بدأ رحلته بكتاب للناقدة الفرنسية مدام دى ستال (١٧٦٦ - ١٨١٧) عنوانه " الأدب فى علاقاته بالنظم الاجتماعية " وتدور فكرته حول تأثير الدين والعادات والشرائع فى الأدب ، وتأثير الدين فى الأدب الحق يأتى عفويا غير مقصود ، وفنا غير مباشر ، وإنما يحكم حركة الروح فى أعماق صاحبه فلا تتوجه لغير الخير

لكن من الخطأ ، فى مفهوم الأدب المقارن على الأقل ، أن نفهم من الأدب الإسلامى ماكتبه عرب حول قضايا إسلامية ، وإنما هو الذى أبدعه مسلمون أيّان كانوا ، وأياً كانت لغتهم ، فقد انتشر الإسلام فى مناطق مترامية الأطراف ، تختلف مناخا وأعراقا ، ويتباين أهلوها لونا وحضارة ، فوحد الإسلام بين قلوبهم وأقام بينهم رابطة فكرية أقوى من أية رابطة أخرى ، وأذاب قدرا كبيرا من التباين الفكرى الذى يباعد بين الجماعات ، ووحد مصادر ثقافتهم الأساسية ، وبالتالى فإن ردّ أفعالهم تجاه مشكلات الحياة يجىء متقاربا إن لم يكن واحدا .

الإسلام دين شامل ، له موقف من كل قضايا الحياة ، ومع الزمن نمت ثقافته وتضخمت ، إلى جانب العلوم الدينية الخالصة ، تنصح الراعي وتوجهه ، وتوقظ الرعية وتهديها ، فنشأ من ذلك أدب إسلامى المحتوى ، يأخذ فى كل بيئة لونا ، ويكتسى مع كل حضارة زيا ، ويتشكل فى كل عصر بما يلائمه ، ودعامته الأولى الصدق بجانبيه الواقعى والفنى ، ومن هنافإن الأدب الإسلامى الحق يجىء قمة

فى بابه ، وشاهدنا على ذلك أدب الصوفية العظام ، جاء خيالهم خصبا عميقا ، ويصدرون فى فلسفتهم عما تطمئن إليه قلوبهم ، ويحلقون به كما يشاءون ، فالقلب خارج عن ولاية الفقيه كما يقول الإمام الغزالى ، وصنعوا من المعجزات ، ومن الإسراء والمعراج أدبا بديعا ، تجاوزوا به النصوص القرآنية ، ومرويات السنة الصحيحة ، وهم فى حركتهم شرقا وغربا لايعترفون بالحدود السياسية أو القومية أو اللغوية ، وتجد للطريقة الواحدة أتباعا فى أقصى الشرق الأسيوى ، وفى جبال الأطلس المغربى ، وفى أعماق أفريقيا ، وفى وسط البلقان ، ويحرك هذه الجموع كلها شيخ يقيم منزويا فى زاوية من الصحراء ، يوجه الأتباع بالأوراد والأذكار والأخبار والأشعار .

وبداهة فإن أتباع كل طريقة لونوا هذه الأقاصيص بألوان محلية زاهية ، وأضافوا إليها توابل لاذعة ، دخلت أدبهم الرفيع والشعبى ، وازدهر فى العالم الإسلامى الواسع العريض مايمكن أن نسميه مثلا بأدب الآخرة ، يجرى الخيال بمبدعيه إلى ما لانهاية ، وفى كل الحالات لايجيء الاحتفاء الأدبى بهذه المناسبة واجدا ، من قصائد تلقى ، أو ملاحم تنظم ، أو مسرحيات تمثل ، وإنما تمزج كل جماعة إسلامية بينه وبين عاداتها الموروثة ، وهكذا نلتقى مثلا بقصة استشهاد الحسين واضحة فى الآداب الإسلامية المختلفة ، وتأخذ فى كل واحد منها شكلا متميزا فى التعبير والمضمون .

الأدب الإسلامى غنى ثرى ، ونقاط اللقاء بين ألوانه كثيرة ، والمشابهات وفيرة ، والعناية بها لاتقف عند المتعة بها ، وإنما سوف تقدم لنا ملامح صادقة عن الشعوب المختلفة التى اتخذت الإسلام دينا ، فنرى كيف تكون نظرتها للشيء الواحد ، ونضع يدنا على الخصائص المشتركة بيننا ، فنقوى مجالات التلاقى ، ونذيب عوامل الفرقة ، وليس أصدق من الأدب ، حين يكتبه مسلم ، فى تصوير الشعوب الإسلامية .

● ● ●

من بديهيات الأدب المقارن أنه يقسم الآداب بحسب اللغة التى كتب فيها ، فهناك الأدب العربى ، وهو كل ما كتب فى اللغة العربية ، على أى أرض ، ومهما كانت جنسية كاتبه السياسية ، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الأدب الفارسى ، أو التركى ، أو الأوردى ، وغيرها من الآداب ، ولاتجرى المقارنة

بمفهومها العلمى إلا بين أدبين كل منهما ينتمى للغة تختلف عن لغة الأدب الآخر ، ومن هنا فلا مقارنة بين أى أديب عربى وآخر مهما اختلفت جنسيتهما السياسية أو اتفقت ، وإنما تجرى مثل هذه المقارنات عادة فى نطاق الاسم القديم الذى عرفت به : الموازنات ، وغايتها جمالية خالصة ، أو تربوية عملية ، وكلتاهما تختلف عن غايات الأدب المقارن .

هناك مجال واسع وعريض وممكن ، ويدخل فى نطاق الأدب المقارن ، وينتظر الباحثين ، تغفله غير واعين به ، والواعون به فى العالم المتقدم لايهدوننا إليه ، وأعنى به الأدب الإسلامى المقارن . وإذا كان منظرو الأدب المقارن يتجاوزون الغاية الجمالية وهى ليست هدفه الأول ، ويرونه علما مفيدا ، يهدف إلى اجتثاث العصبيات الإقليمية والقومية ، أو التخفيف من غلوائها فى أضعف الحالات ، فان الإسلام دينا يجعل من الفكر الإسلامى الوشيجة الأقوى ، والرابطة الأقوى والأسمى التى تنهض عليها دعائم الدولة الإسلامية ، وبهذا سبق الإسلام الأدب المقارن فى غايته ، وسوف يجد فيه وسيلة أدبية مثمرة ، يحقق بها بعض مايرنو إليه من السمو بالمشاعر الإنسانية فوق اللون والجنس واللغة .

• • •

لاترمى هذه الدراسة إلى استقصاء نقط التلاقى بين الآداب الإسلامية ذات اللغات المختلفة ، والتى تصلح مجالا للأدب المقارن ، ذلك شىء فوق طاقتى ، وبحسبى أن أقدم المثل ، وأن أبرز الظواهر المشتركة ، وحتى المختلفة ، لتكون مجالا بينا للتأثير الإيجابى فى الأولى ، والعكسى فى الثانية ، ذلك أن الأدب مستوعب بطبيعته ، واللغات الإسلامية كثيرة ، والجانب الأكبر منها يملك أدبا ثريا عريقا .

ويزيد من صعوبة الأمر أننا نعرف من تاريخ أوربا وتطور الحضارة فيها ، وصراع شعوبها ، وقيام الأسر الحاكمة وسقوطها ، وتفصيلات حروبها مالانعرفه عن بقية العالم الإسلامى . وصحيح أننا بعد أن ملكنا إرادتنا إلى حد ما حاولنا أن نتعرف إلى تاريخنا العربى ، فى صلاته مع بقية العالم ، لكن الدراسة لاتسير فى مختلف بلدانه على طريق سوى ، هناك من الحكام من يخشى الحقائق ومن يتقوقع على نفسه لأن حظه من التاريخ متواضع فى فترة من فترات حياته ، ومن يدفع به تضخم الذات إلى الدوران حول نفسه ، وإنكار دور الاخرين .

أما شعوب العالم الإسلامى فمعرفتنا بها لاشيء ، فنحن لانعرف شيئا عن تاريخ إيران ، أو أفغانستان ، أو باكستان ، أو إندونيسيا ، أو النيجر ، أو نيجيريا ، أو زنجبار ، أو غينيا ، أو تركيا ، وكلها دول إسلامية ، وغيرها كثير ، أما آدابها ، فلاتعرف منها إلاّ قشورا ، وبداهة لايدخل معنا المتخصصون وهم قلة فى هذا الحكم ، ولم نقف بالأمر عند هذا الحد ، فإن الجهلة ، والذين درسوا التاريخ فى الغرب ، شوهوا تاريخ تركيا وإيران ، ولايزالون يفعلون ، ويتحاملون على الشيعة ، رغم عظمة دورهم الإسلامى ، إبداعاً وتاريخا وعلماً وفقها ، وحفاظا على الإسلام نفسه .

ومن هنا جاءت محاولة تتبع تاريخ انتشار الإسلام ، والإلمام بتاريخ هذه الدول فى عجالة ، ونحن نعرض لأدبها ، لتتضح خطوط الأدب وما أثر فيه ، ولكننا وقفنا بدراسة الأدب عند تاريخه شعرا ونثرا ، فاذا كانت للأديب اهتمامات خارج هذا الحقل لم نقف عندها ، وإن كنا نشير إليها أحيانا لأن المقام يقتضيها ، دون تفصيل أو إطناب ، واهتممت بكل الأدباء ، لأن الأدب المقارن لايقف عند أدباء الطبقة الأولى ، وإنما يُولى أهمية أيضا ، لأولئك المجهولين فى أوطانهم ، من أدباء المستويات الأخرى ، وحتى من هم دون أى مستوى . وأعترف أننى ، والأدب وتاريخه ، ودراسة الأدب المقارن ، هوايتى وحرفتى ، لم أكن أدرك أن الآداب الإسلامية تنطوى على كل هذا القدر من الرونق والبهاء ، ومن التشابه فى الظواهر ، وتقارب الحركات ، والأخذ والعطاء فيما بينها ، ظاهرا أحيانا ، وخفيا فى كثير من الأحيان .

أظنها المحاولة الأولى ، ولم تسبق على هذا النحو الذى جاءت فيه ، فقد نظرت إلى الأدب الإسلامى كلاً لا إلى أدب واحد أو اثنين أو ثلاثة ، ولم نتناول جوانب جزئية فيه ، وإنما عرضت لكل أدب كلا ، وامتدت بالظواهر المشتركة فى كل الآداب التى وجدت فيها . وكان وراء تناول هذه الآداب كلها فى شيءمن الإيجاز الشافى أننى وجدت غير المتخصصين يجهلونها تماما ، ومن يعرفون شيئا منها يجهلون الأدب العربى . فكانت المحاولة على النحو الذى تراها عليه.

أعترف أن الغاية كانت ضخمة ، وأكبر من جهدى فردا ، ولكن انتظار أن نجد الفريق ، أو المؤسسة التى تضطلع بهذا العمل الملح والضرورى ، ربما يجعلها بعيدة عن التناول عشرات الأعوام القادمة ، فارتأيت أن أقوم بهذا الجهد المتواضع

وفي الحركة بركة ، ولأن تضيء شمعة خير من أن تلعن الظلام ألف مرة ، أمهد بها أمتارا فى الطريق لمن يأتى بعدى ، وأثير فى خيال الدارسين شيئا من المغامرة حتى ولو شاب عملي بعض المزالق ، فالبشر خطاءون .

فى هذا الكتاب ماهو من جهدى خالصا ، وهو الأكثر ، وماكنت فيه عالة على غيرى ، وهو الأقل ، فقد ارتويت فى الأدب التركى من مصادر أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصرى ، ولم ألق فى دراسة الأدب الفارسى أى عناء ، لأن المدرسة الفارسية المصرية عريقة ومزدهرة ، وجهدها يغطى كل الاتجاهات أبحاثا وترجمة ، واعتمدت فى دراسة الآداب الإسلامية الأفريقية على مؤلفات ألمانية مترجمة إلى اللغة الإسبانية ، وكانت مصادرى فى الإدب الإندونيسى فرنسية ، وفى الأوردى عربية وإنجليزية ، واعتمدت فى الأدب الألبانى على كتاب الدكتور محمدموفاكو ، وهذه المصادر كلها أوردتها بأسمائها فى آخر الكتاب .

ولفت نظرى أن الآداب الإسلامية التى لا أحسن لغتها ، وليس لها مصادر فى العربية ، أو لم أتوصل إليها فى القاهرة ، ورجعت فيها إلى المصادر الأجنبية على اختلافها ، عانيت من هذه المصادر تحيزا ظاهرا ، وتحيفا على أدباء المسلمين بإهمالهم كلية ، أو المرور بهم سريعا ، على حين إذا وقعوا على أديب من ديانة أخرى فى هذا البلد المسلم ، أعطى من الاهتمام والإبراز ، والمزيد من المعلومات فوق مايستحق .

• • •

وتبقى كلمة أخيرة .

هذا الكتاب يجمّع ولا يفرّق ، فالمذاهب الإسلامية كلها عنده واحدة ، يجب أن تلتقى عندما اتفقت عليه ، ويرحم بعضها بعضا فيما اختلفت فيه ، لأنها كلها تواجه عدوا واحدا يتربص بها ، والاختلاف فرقة ، والفرقة قاصمة ، وسوف ندفع ثمنها جميعا .

آن لنا أن نلتقى جميعا على الخير ، وأن يعرف بعضنا بعضا على نحو أفضل ، وألاّ نعير سمعنا إلى مايثير العداوة والبغضاء فى صفوفنا ، وألاّ نقف فى التاريخ عندما يفرق ويوهن ، وألا نهتم بأدب التفرقة ، وإنما نبرز كل مامن شأنه أن يجمع ويقوى ويوحّد .

لئن مد الله فى العمر ، وواتت الصحة ، فمثل هذا العمل يحتاج إلى عمل آخر مواز له ، يقدم نصوصا أدبية مختلفة ، فى موضوعات متقاربة ، من آداب كل البلاد الإسلامية ، مترجمة إلى اللغة العربية ، وإلى كل اللغات الإسلامية الأخرى .

الرؤية فى هذا الكتاب متكاملة ، لاتغنى فيها قراءة فصل عن آخر ، لأن بعضها يضىء بعضا ، لاتعرف الأدب الإسلامى فى منطقة إلا إذا عرفت كيف انتشر الإسلام فيها ، ولن تحسن مقارنة قضية أدبية بأخرى إلا إذا وضعت كل واحدة منها فى نطاق الأدب الذى تنتمى إليه .

وبعد ،

فما خططت سطرا إلا تمنيت رغبة فى الإجادة ، وسعيا إلى الكمال ، أنى عدت فعاودت النظر فيه ، وحتى لاتصبح هذه الرغبة ترددا معوقا ، أتغلب عليها مؤمنا أننى ماتركت من جهدى شيئا ، وأن مافيه من زلل ثمة متسع فى الطبعات القادمة لكى أعود إليه . فإن وجده القارىء كما يتمنى ، فذلك من فضل الله ، وإن وقع فيه على سهو ، أو خطأ ، أو تقصير ، فليغفر ذلك لكاتبه ، وليعاونه إذا استطاع . فما أردت إلاّ الخير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الطاهر أحمد مكى

القاهرة : ٢٧ رمضان ١٤١٤ هـ
٩ مارس ١٩٩٤ م

٣ شارع مصدق – الدقى
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٦١٣٣٠٦

انتشار الإسلام

لم يكد الرسول عليه الصلاة والسلام يلحق بالرفيق الأعلى فى يوم الإثنين ١٢من ربيع الأول ، فى العام العاشر من الهجرة ، الموافق ٨من يونيه ٦٣٢م ، حتى وقع الهرج والاضطراب بين المسلمين ، وتوقفت عن التحرك حملة كان الرسول قد أعدها بقيادة أسامة بن زيد لتغزومشارف الشام ، ولم يكن الإسلام ساعتها قد تجاوز فى امتداده قلب الجزيرة العربية حتى إلى أطارفها ، وعارض بعض المسلمين فى إنقاذها خوفا ، ولكن الخليفة الجديد أبا بكر حسم الموقف بإصراره : " لاأرد قضاء قضى به رسول الله ، ولو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبى " .

كانت هذه الحملة تأديبية فيما يبدو ، ولا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثة آلاف ، وغايتها الثأر لاستشهاد الرسول الذى أرسله النبى إلى الأمير الغسانى فى بصرى، وفيها قتل أسامة ، وتولى القيادة خالد بن الوليد فعاد ببقية الجيش المحطم إلى المدينة .

ولم يكد أبوبكر ينتهى من فرض سلطة الحكومة المركزيةعلى شبه الجزيرة فيما عُرف بحروب الردة حتى وجه أول حملة قوية إلى الشام قوامها ثلاث فرق ، عدة كل فرقة ثلاثة آلاف ، وعلى رأس كل فرقة قائد ، وهم : عمرو بن العاص ، ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، فاذا تطلب الأمر عملا متحدا يصبح عمراً قائد الجيش كله . وفى ذلك الوقت كان خالد بن الوليد يعمل فى العراق على رأس خمس مئة ممن تدربوا فى حروب الردة ، فتلقى أمرا من أبى بكر بأن يسارع إلى نجدة زملائه على الحدود الشمالية ، وقبل أن يتحرك خالد إلى الغرب، كان قد استولى على الحيرة ، وترك عليها حليفه المثنى بن حارثة ، وكانت أول مدينة يكسبها خارج حدوده .

كانت رحلة خالد عبر الصحراء مثار قضايا تاريخية ،جغرافية ، فقد اختلف المؤرخون حول الطرق التى سلكها ، والتواريخ التى بدأ فيها ، وعلى أية حال وصل الشام ، وظهر فى مفاجأة مسرحية فى مؤخرة الجيش البيزنطى ، فى المنطقة المجاورة لدمشق ، بعد رحلة استمرت ثمانية عشر يوما ، وبعد مناوشات صغيرة نجح فى الاتصال ببقية القوات العربية ، وأصبح الطريق أمامها مفتوحا إلى كل فلسطين بعد انتصارها الباهر فى موقعة أجنادين فى ٣٠يولية ٦٣٤م ، ولما التقت القوات انعقدت القيادة العليا لخالد على الجيش المتحد ، فبدأ زحفه ، واستولى على عدد من المدن الفلسطينية فى طريقه دون مقاومة كبيرة ، وأصبح أمامه الطريق إلى عاصمة الشام مفتوحا ، بعد أن شتّت شمل العدو فى مرج الصفر فى ٢٥فبراير ٦٣٥م ، وبعد أسبوعين وقف خالد أمام أبواب المدينة التى تشتهر فى الروايات بأنها من أقدم مدن الدنيا ، وسلمت له بعد حصار دام ستة أشهر ، وسوف تصبح عاصمة الإمبراطورية الإسلامية فيما بعد ، وسقطت كل من بعلبك وحمص وحماه ، وغيرها من البلدان ، الواحدة تلو الأخرى كأنها دمى أطفال ، وخرج أهل شيْزر ، المدينة التى ذكرها امرؤ القيس فى قصيدته التى عرض فيها لرحلته إلى القسطنطينية ، لمقابلة الجيش الفاتح مبتهجين ،،معهم المغنون والضاربون على الدف .

على أن المعركة الحاسمة بين المسلمين والبيزنطيين كانت فى ٢٠أغسطس ٦٣٦م ، حيث التقى الجيشان ، الأوّلون فى خمسة وعشرين ألفا والآخرون فى خمسين ألفا بقيادة تيودور أخى هرقل ، فى وادى اليرموك بعد مناوشات عديدة، وكان يوما حارا ، انعقدت فيه سحب من الغبار الذى أذرته الرياح ، في بقعة من أشد بقاع العالم قيظا ، وقد أحسنت القيادة العربية تخيره مجالا للنزال دون شك ولم تجد جهود الجنود البيزنطيين ، تساعدهم تراتيل الكهنة وصلواتهم وإشهار الصلبان ، أى نفع أمام الهجوم المرعب لأبناء الصحراء ، وكانت النتيجة أن الذين أفلتوا من الذبح فى ساحة القتال من البيزنطيين وأجرائهم من الأرمن والعرب ،

سقطوا بلارحمة فى قاع النهر ، والقلة التى استطاعت أن تعبره وتهرب استؤصلت تماما على الجانب الآخر ، وخرّ تيودور نفسه صريعا ، واستحال الجيش الإمبراطوري إلى غوغاء هاربة لاتلوى على شئ .

وهكذا تقرر مصير سوريا ، وأصبحت منذ هذه اللحظة ، وإلى الأبد ، عربية إسلامية ، وكان إقبال الناس على الإسلام كبيرا ، وينقل البلاذرى المؤرخ عبارة عن أهل حمص تصور مشاعر أهل الشام الأصليين حيال المسلمين الفاتحين : "لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ".

كانت السرعة التى تم بها الاستيلاء على إقليم ذى أهمية استراتيجية عظيمة، وانتزاعه من أعظم أباطرة ذلك العصر ، من العوامل التى اكسبت دولة الإسلام الناهضة حديثا نفوذا هائلاً فى أعين العالم ، وجعلت المسلمين أنفسهم علي ثقة من الغد الذى ينتظرهم ومما يخبئه لهم القدر .

● الإسلام فى أفريقيا :

وما كان للعرب وقد ملكوا سوريا أن يجهلوا موقع مصر الاستراتيجي ، فانتهز عمرو بن العاص فرصة وجود الخليفة عمر فى بيت المقدس ، وكان يعرف مصر جيدا ، مدنها ومسالكها ، إذ جاءها عدة مرات فى رحلات تجارية زمن الجاهلية ، واقترح عليه قيادة حملة إلى بلاد الفراعنة ، ولكن عمر عندما عاد إلي المدينة واستشار كبار الصحابة أوضحوا له ما تنطوى عليه الحملة من خطر ومجازفة ، فبعث برسول يوقف تقدم الحملة . وتقول الرواية إن رسالة الخليفة وصلت عمراً قبيل عبوره الحدود المصرية الفلسطينية ، فتوجس منها ، وفى ذاكرته تعليمات عمر السابقة " إن أدركك كتابى وأمرتك بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره " ، فلم يفتح الكتاب حتى وصل العريش فى ديسمبر ٦٣٩م .

كان عمرو قرشيا فى الخامسة والأربعين من عمره ، فصيحا داهية ، يفيض حماسة وميلا إلى الجهاد ، وسلك مع أربعة الآلاف راكب الذين صحبوه نفس الطريق المعروف علي طول الشاطئ ، والذى وطئته أقدام قمبيز والإسكندر وأنطيوكس والعائلة المقدسة من قبل ، ونابليون وإبراهيم الكبير وجمال باشا من بعد ، إنه الطريق الدولى العظيم الذى كان يربط بين كل مراكز الحضارة العامة فى العالم القديم .

وتقدم عمرو إلى الداخل بعد مقاومة غير قوية فى الطريق حتى وقف أمام حصن بابليون القوى ، الواقع قبالة جزيرة الروضة ، وأسرع قيرس ، أو المقوقس فى العربية ، إلى الحصن ومعه كبار القواد والجند ، وتصف لنا الكلمات التى نقلها إليه رسوله وقع هذا الفتح عليهم :

" رأينا قوما الموت إلى أحدهم أحب من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، وليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، وإنما جلوسهم علي التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم ..."

وقد تلقى الجيش الإسلامى مددا بقيادة الزبير بن العوام الصحابى الشهير ، لتصبح جملته عشرة آلاف جندى ، وظل يحاصر بابليون سبعة أشهر ونجح أخيرا فى ردم جزء من الخندق ، وتسوّر الجدران على سلّم ، وفاجأ الحرس البيزنطى والحامية ، ورنّت صيحة الجنود المسلمين عالية : " الله أكبر ! " ، وتردد صداها فى أبهاء الحصن الذى سلم فى ٦ أبريل ٦٤١م .

وجاء مدد جديد لتبلغ عدة الجيش عشرين ألفا ، ووجد عمرو نفسه على مرأى من مدينة الإسكندرية ذات صباح ، يحملق فى سلسلة الأبراج والأسوار التى كانت تحمى عاصمة مصر يومها ، وأشهر ثغورها ، وتبدو منيعة لاتقهر ، وفى أحد جوانبها يشمخ السرابيوم ، وكان يضم يوما معبد السرابيوم ومكتبة

الإسكندرية العظيمة ، وفى الجانب الآخر تلوح كتدرائية القديس مرقس الجميلة وكانت يوما معبدا فرعونيا يحمل اسم قيصرلون ، بدأته كليوباترا تخليدا لذكرى يوليوس قيصر وأتمه أغسطس ، وأبعد من ذلك إلى الغرب تبدو المسلّتان الحمروان من الجرانيت الأسوانى ، وتنسبان إلى كليوباترا أيضا ، ولكنهما فى الحقيقة من عمل تحتمس الثالث (حوالى ١٤٥٠ق.م) ، وإحداهما الآن تزين رصيف التيمس في لندن والأخرى ميدان " سنترال بارك " في نيويورك . وفى المؤخرة تشمخ منارة " فاروس " فى السماء تعكس أشعة الشمس فى النهار ، ونارها بالليل ، وكانت تعتبر بحق إحدى عجائب الدنيا السبع .

كانت الإسكندرية تفخر بحامية تبلغ الخمسين ألفا ، ويدعمها أسطول بيزنطى قوى يتخذ منها قاعدته ، والفاتحون المسلمون أقل عددا وعدة ، ومع ذلك استسلمت المدينة أخيرا صلحاً ، بمعاهدة عقدها عمرو في حصن بابليون فى ٨ نوفمبر ٦٤١ ، وتعهد فيها قيرس بأن يدفع الجزية دينارين عن كل بالغ ، وضريبة الأرض تدفع عينا ، وألا يسمح للجيش البيزنطى بالعودة ، وصدق الإمبراطور قنستانز على المعاهدة ، ومعها انتقلت أجمل مقاطعات الإمبراطورية البيزنطية إلى أيدى المسلمين .

وأبلغ عمرو نبأ فتح الإسكندرية إلى الخليفة عمر فى كلمات بسيطة : "إنى فتحت مدينة لاأصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى يدفعون الجزية ، وأربع مئة ملهى للملوك ". وقد أكرم الخليفة رسول قائده فقدم له خبزا وتمرا ، ثم أقام فى مسجد النبى صلاة شكر بسيطة ولكنها خاشعة وقورة .

يرجع النجاح السريع الذى أحرزه الجيش الإسلامى إلى ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى لإدارته الظالمة ، وحقده المرير على رجال الدين المسيحيين ، ويخبرنا ابن عبد الحكم المتوفى ٢٥٧ هـ - ٨٧١م ، والذى روى لنا أقدم وصف وصلنا عن فتح مصر ، أن أسقف الإسكندرية نصح سكان

مصر الأقباط ألا يقاوموا الفاتحين ، ويبدو أن استجابتهم له كانت واسعة ، ذلك أن السواد الأعظم من السكان المسيحيين كانوا من اليعاقبة ، فلقوا معاملة مجحفة من أتباع الكنيسة الملكانية الرسمية التابعة للبلاط في بيزنطة ، فكان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم ، وهرب كثيرون منهم نجاة بحياتهم ، وأخفى بعضهم عقيدته الحقيقية ، وحاول هرقل إمبراطور بيزنطة أن يمنع أسلوب العبادة القبطية ، المصرية إن شئت ، على امتداد سنوات بواسطة قيرس عامله على مصر ، وتطلق عليه الروايات الوطنية المتأخرة لقب عدو المسيح بسبب اضطهاده القاسي لأبناء الكنيسة القبطية .

أما الفتح الإسلامي فقد منح القبط ، وهو الاسم الذي يطلق على المسيحيين اليعاقبة في مصر ،حياة ملؤها الحرية الدينية ، ولم ينعموا بها قبل ذلك على امتداد قرن من الزمان ، وليس هناك شاهد واحد يدل علي أن دخول الأقباط في الدين الإسلامي على نطاق واسع كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم تسامح المسلمين، وقد اعتنق كثيرون منهم الإسلام حتى قبل أن يتم الفتح ، وكانت الإسكندرية لاتزال محاصرة تقاوم الفاتحين . ويرى توماس و. أرنولد : " إن سرعة انتشار الإسلام الأولى من الفتح الإسلامي ترجع إلى عجز المسيحية دينا ، وعدم صلاحيتها للبقاء ، أكثر مما يرجع إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهالي إلى اعتناق الإسلام " . [١]

ترك فتح مصر المقاطعات البيزنطية التي إلى الغرب من مصر دون حماية ، وفي الوقت نفسه تطلبت حماية الإسكندرية فتح تلك المقاطعات ، فاتجه إليها عمرو بسرعته التي يمتاز بها ، على رأس فرسانه ، لكي يحمي مؤخرته واحتل برقة دون أية مقاومة ، ودانت له قبائل البربر في طرابلس ، وتوغل خَلَفَه عبد الله بن سعد حتى أخضع جزءا من إفريقية ، ودفعت له قرطاجنة حاضرتها الجزية .

ثم بدأ المسلمون يتحركون جنوب مصر نحو بلاد النوبة ، وهي لمراعيها أكثر شبها ببلاد العرب ، وأشد ملاءمة لأساليب الحياة البدوية ، وكان العرب حتى قبل الإسلام

١ - توماس وأرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، ص ٩٤ ، القاهرة ١٩٤٧ .

يتدفقون على مصر فى جماعات قليلة أحيانا وبكثرة أحيانا أخرى ، وتمتد هجرتهم إلى السودان فى حالات عديدة ، وقد صعب على عبد الله بن سعد إخضاع النوبيين فعقد معهم معاهدة صلح عام ٦٥٢م ، وبقيت مملكتهم مسيحية، وعاصمتها دنقلة وسكانها خليط من الليبيين والسود ، وظلت حاجزا يحول دون تقدم الإسلام جنوبا لعدة قرون .

غير أن القرن التاسع الميلادى شهد جماعات عربية كبيرة أخذت تنزح إلى بلاد النوبة ، وزاد عدد القاطنين منهم على ضفاف النيل الأزرق ، وتضخمت ثرواتهم ، حتى أنهم التمسوا فى القرن العاشر الإذن ببناء مسجد لهم فى سوبة ، على بعد ١٢ميلا تقريبا من الخرطوم الحديثة ، عاصمة المملكة النوبية ، وسوف تبلغ هذه الهجرات غايتها فى القرن الثالث عشر ، وبخاصة قبيلة جهينة ، وتزاوجوا من نساء هذه البلاد ، واندمجوا مع أهلها ، ونجحوا فى كسر شوكة الأمراء النوبيين، ويخبرنا ابن بطوطة ، وزار هذه البلاد فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، أن النوبيين فى وقته هذا لما يزالوا على المسيحية ، رغم أن ملك دنقلة ، المدينة الرئيسية فى بلاد النوبة ، كان قد دخل فى الإسلام . ومالبث الإسلام أن انتشر فى بلاد النوبة على أيدى التجار وغيرهم من المسلمين الذين كانوا يترددون عليها، إلى جانب أن الحياة الروحية فى الكنيسة النوبية كانت قد انحدرت إلى الدرك الأسفل ، فوجدوا فى الدين الإسلامى ما يشفى غليلهم ، ويروى ظمأهم الروحى .

ولم تعرف سواحل البحر الأحمر الجنوبية ، وكانت إذ ذاك تكون جزءا من الحبشة ، إلا هجرات عربية قبل الإسلام ، وبعده لم تكن هناك حتى القرن العاشر الميلادى إلاّ أسر إسلامية قليلة العدد تقيم فى مدن الحبشة الساحلية . وفى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى شق أحد الدعاة ، ويدعى أبا عبد الله محمدا طريقه إلى الحبشة داعيا إلى الإسلام فلمّا تجمع حوله مئتى ألف شخص هجم بهم على حاكم أمهرة ، واشتبك معه فى معارك كثيرة ، وحينئذ اتخذ الملك سيف أرعد،

وحكم من ١٣٤٢ إلى ١٣٧٠م ، تدابير انتقامية صارمة ضد المسلمين فى مملكته ، وأصدر قرارا باعدام كل من يأبى الدخول فى المسيحية أونفيه من البلاد ، فعم الاضطراب البلاد ، وأفسح ذلك المجال أمام القبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل كى تسود المنطقة الساحلية بأجمعها ، وأن تطرد الأحباش إلى المناطق الداخلية .

ومع ذلك ، ورغم العون الذى قدمه البرتغاليون لملوك الحبشة فى حروبهم ضد المسلمين لم يتوقف تقدم الإسلام ، ويقص علينا رحالة برتغالى عاش فى القرن السابع عشر أن المسلمين كانوا فى ذلك الوقت منبثين فى جميع أنحاء الحبشة، وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان ، وساعد عدم وجود حكومة مركزية قوية على ظهور أمراء مستقلين تعاطف كثير منهم مع الإسلام تعاطفا شديدا ، دون أن يسلموا ، ظاهرا على الأقل ، لأن قانون الدولة الأساسى كان يشترط المسيحية فى الأمراء ، فأدى ذلك إلى تظاهر بعض المسلمين بالتحول إلى المسيحية حتى يصبحوا من طبقة الأشراف ويعينوا حكاما على الولايات المسيحية ، وبعدها يستخدمون نفوذهم فى نشر الإسلام ، وساعدهم على هذا تفوق المسلمين أدبيا وثقافيا واجتماعيا إذا ماقورنوا بأهل الحبشة المسيحيين .

ولاحظ ربيل خلال رحلاته فى بلاد الحبشة أن المناصب التى تتطلب فى شاغلها الأمانة الكاملة ، والثقة المطلقة ، يختارون لها دائما أحد المسلمين ، وعقد الكاتب موازنة بين أتباع الديانتين فقال : المسلمون أكثر حيوية ونشاطا ، ويلتزمون بتعليم أبنائهم القراءة والكتابة ، أما أبناء المسيحيون فلا يتعلمونها إلاّ إذا أزمعوا القيام بأعمال الكهنوت ، ويفسر لنا تفوّق المسلمين حضاريا ما أحرزه الإسلام من تقدم مستمر فى بلاد الحبشة .

ونلتقى هنا بقصة سوف تتكرر فى أماكن أخرى ، بصورة مختلفة ، ذلك أن زعيم إحدى القبائل الحبشية ويدعى جاوج رفض المسيحية واعتنق الإسلام ، اعتقادا منه أن هذا الدين يورث الحظ الحسن ، وطول العمر ، وطلب من قسيسه

أن يحطم تابوت العهد ، فأجابه هذا بأنه لايجرؤ وسوف يصيبه الشر إن مس التابوت بأذى ، فأمسك جاوج بفأسه وأهوى عليه فهشّمه قطعا ، وتوقع له القسيس الهلاك الفورى فلمّا لم يصبه شئ أسلم القسيس فى الحال ، وكذلك بقية أفراد القبيلة .

ولم يتوقف تحول الجموع الحبشية إلى الإسلام ، وامتدت جذوره بعيدا فى تربة الحبشة ، ويملك أتباعه ناصية التجارة والحرف الصغيرة بأنواعها ، ونعموا بأملاك واسعة ، وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق هامة ، وظفروا بنفوذ قوى على جمهرة الشعب ، مما أثار الفزع عند المسيحيين الأوروبيين ، وكانت أوروبا فى أوج عصرها الاستعمارى ، فقد رأوا فى الإسلام خطرا كبيرا على مصالحهم الدنيوية ، فبدأوا يدسون له بين القبائل ، ويكيدون له عند الزعماء والحاكمين .

وهكذا عقد الملك جون مجمعا كنسيا فى عام ١٨٧٨ ، نادى به حَكَما أعلى فى المسائل الدينية ، وقرر وجوب الاقتصار على دين واحد فى كل المملكة ، وأعطى المسيحيين على اختلاف طوائفهم ، ما عدا اليعاقبة مهلة عامين ، ليتفقوا فى العقيدة مع كنيسة البلاد ، وألزم المسلمين بأن يتنصروا خلال ثلاثة أعوام ، والوثنيين خلال خمسة ، وأنذر الموظفين المسلمين بأن يختاروا بين التعميد أو التخلى عن مناصبهم فى فترة لاتزيد عن ثلاثة شهور . وكان هذا التنصير الإجبارى فيما يقول المؤرخون الأوروبيون عديم الأثر ، فقد تظاهر المسلمون بالقبول ، وظلوا فى الخفاء على الولاء لدينهم القديم ، إلى جانب أن مرسوم التنصير الإجبارى انصب على الرجال ولم يشر إلى النساء فلم يتعرضن للملاحقة ولعبن دورا عظيما فى نشر الإسلام فى هذه البلاد ، وأدي هذا العمل إلي زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين تجاه الدين المسيحى .

ولم يتوقف ملوك الحبشة عن الاستعانة بملوك أوروبا المسيحيين فى التضييق على المسلمين وإفقارهم وحصرهم وتجهيلهم وعزلهم عن بقية إخوانهم فى العالم الإسلامى ، ومالبثت إيطاليا وفرنسا وإنجلترا أن زحفت بنفسها على المدن

الإسلامية الكبرى علي السواحل واحتلتها ، وأعطتها أسماء خاصة بها : الصومال الإيطالى ، والصومال الإنجليزى ، والصومال الفرنسى ، وأمدت ملك الحبشة ، قبل أن تغزوها إيطاليا ، بالخبراء والمستشارين ، فأصدر قراره بمنع المسلمين من ممارسة أى نشاط دينى يهدف إلى نشر تعاليم الإسلام ، وحظر بناء المساجد وإقامة المعاهد والمدارس الإسلامية ، وهدم أكبر مسجد فى هرر وأقام على أرضه كنيسة ، ومنع المسلمين من أى اتصال خارج البلاد ، أو إقامة جمعيات دينية ، أو امتلاك أرض زاراعية تزيد على خمسة هكتارات ، ونزع بقية ممتلكاتهم ، ووزعها على الأديرة ، حتى أصبحت ميزانية الكنيسة تعدل ثلث ميزانية الدولة ، وهكذا أصبح الفلاحون المسلمون بلا أرض ، فاضطروا إلى العمل عند الإقطاعيين المسيحيين بأجور زهيدة لاتسد رمق حياتهم . وخلال ذلك تدفقت البعثات التنصيرية الأوروبية والأمريكية مزودة بالغذاء والدواء ، فأقامت المستشفيات ، وفتحت المدارس ، على حين أغلقت المناطق المسيحية أمام أى تبشير إسلامى .

وفى مطلع هذا القرن لعب هيلاسلاسى الإمبراطور المخلوع أخطر دور وأقساه ، فزاد من اضطهاد رعاياه المسلمين رغم أنهم يمثلون ٦٥٪ من مجموع شعبه ، واعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية لايحق لهم أن يتولوا أى وظيفة عالية في الإدارة أو الشرطة أو الجيش ، ومنع قبول أبنائهم فى المعاهد العليا مدنية وعسكرية ، وحظر الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية الإسلامية رسميا ، ودخول المطبوعات الإسلامية قرآنا وكتبا وصحافة ، والاشتراك فى أية مؤتمرات إسلامية أو دولية ، وكان يفخر بأنه سوف يقضى على الإسلام نهائيا فى بلاده ما امتدت به الحياة ! .

ورغم أن الحكومة العسكرية التي أطاحت به فى فبراير ١٩٧٤ ترفع راية الاشتراكية إلاّ أن واقع المسلمين لم يتغير عمليا كثيرا عما كان عليه ، رغم حرص المسلمين الشديد على أن تكون لهم ثقافتهم الإسلامية ، وعلى تعلم اللغة

العربية، لأنهم فى الواقع فقراء ماديا ، ومدارسهم متخلفة منهجيا ، والمسلمون خارج الحبشة فى شغل عنهم بهمومهم أو مباذلهم ، ويتمثل الأمل المضئ في أرتيريا ، وضمتها الحبشة إليها قسرا ، وبارك العالم المسيحى فى أوروبا وأمريكا هذا الاغتصاب وأهلها رغم ضعف إمكاناتهم يقاتلون بشراسة من أجل استقلال بلادهم ، ويحققون انتصارات هائلة ، ورغم كل مايلقاه النظام الحبشى من تأييد ودعم أوروبى وأمريكى .

غير أن النظام الحبشى الشيوعى سرعان ماتهاوى ، وهرب رئيس الحكومة منجستو هيلا مريام ، واندلعت الثورات بين القبائل المختلة ، وتحسن وضع المسلمين كثيرا ، وحقق الأريتريون استقلال بلادهم ، واعترفت بهم هيئة الأمم ، وشعوب العالم ، ولكن الغرب والصهيونية يعملان جاهدين على خنق قوة الإسلام هناك، ودفعا إلى الصفوف الأولى بحزب مسيحى صغير ، فى بلد أكثر من ٨٠٪ من سكانه مسلمين ، واختاروا منه رئيس الدولة ، ووضعوا فى يده كل السلطات ، ولأنه ربيب أسياده فهو لايخفى عداءه للعروبة والإسلام ، وبقاؤه رهن باستمرار الصحوة الإسلامية واستمرارها ويقظتها ، وتنبهها لما يجرى هناك .

وتسرب الإسلام إلى شرق أفريقيا مع الزيدية ، وجاءوها فى أعداد كبيرة هربا من الاضطهاد ، أو رغبة فى التجارة ، وكونوا عددا من المدن العربية على طول الساحل الشرقى ، من خليج عدن حتى مدار الجدى . وقام التجار المسلمون من العرب والأجناس الأخرى بدور رائع فى نشر الإسلام ،فهم يجمعون بين التجارة والتبشير ، وساعدتهم مهنتهم على تقوية صلتهم بالسكان الوثنيين ، وتنفى عنهم كل مايمكن أن يتهموا به من نوايا شريرة . وعندما يدخل التاجر المسلم قرية وثنية سرعان ما يلفت إليه الأنظار بنظافته ، وكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات صلاته وعبادته ، إلى جانب ما يتحلى به من سمو عقلى وخلقى يفرض على الوثنيين احترامه ، والثقة فيه ، وفى الوقت نفسه يبدي رغبته واستعداده فى أن يعاونهم ، وأن يعلّمهم ماعنده دون مقابل .

في الجانب الغربي من أفريقيا ووسطها ، ويطلق عليه بعض كتاب العرب القدامى اسم السودان ، قامت ممالك وولايات كثيرة في مختلف الأزمان ، وتتفاوت في كبرها وسطوتها باختلاف الملوك والأمراء الذين حكموها ، وكانت مملكة غانا القديمة أقدم الممالك التي قامت في هذه المنطقة ، وكان البربر ، فيما يبدو ، أول من حمل الإسلام إليها ، ويذكر لنا أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك ، وهو جغرافي أندلسي من القرن الحادي عشر الميلادي : أن "غانة مدينتان سهليتان ، إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون ، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا ،أحدها يجتمعون فيه ، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون ، وفيها فقهاء وحملة علم ... ومدينة الملك علي ستة أميال من هذه المدينة وتسمى بالغابة ، والمساكن بينهما متصلة ، ومبانيها بالحجارة وخشب السنط ... وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين ، وعلى مقربة من مجلس حكم الملك " .

وقد دخل الإسلام غانة سلما عن طريق التجارة والدعاة ، ثم انتشر أكثر بعد استيلاء المرابطين عليها عام ١٠٧٦م ، إذ كان المرابطون يرسلون العلماء بين القبائل السودانية لبث العقيدة الصحيحة ، وتركت الثقافة الإسلامية العربية أثرها في حكومة غانة قبل دخول المرابطين ، فقد كان المسلمون وحدهم يعرفون القراءة والكتابة ، ويتولون الإدارات المختلفة ، ومنهم تراجمة الملك وصاحب بيت ماله ، وأكثر وزرائه .

ودخل الإسلام في زمن مبكر أيضا مملكة سنغاي القديمة ، وأسلم ملكها زاكسي عام ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩م ، وتسمى مسلم دام ، وفي القرن نفسه تأسست مدينتان قَدّر لهما أن تلعبا فيما بعد دورا هاما في نشر الإسلام جنوب الصحراء، وهما : مدينة جني ، وتأسست عام ٤٣٥ هـ - ١٠٤٣م ، وأصبحت مركزا تجاريا هاما ، وأسلم ملكها حول نهاية القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وحذا السكان حذوه ، وقد هدم قصره وأقام على أنقاضه مسجدا عظيما .

وكانت تنبكت المدينة الأخرى ، وتأسست قريبا من نهاية القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وأصبحت محطا هاما للقوافل التى تتاجر مع الشمال ، واشتهرت إلى جانب التجارة بأنها مدينة إسلامية منذ أن خط أول بيت فيها ، " ما دنستها عبادة الأوثان ، ولاسَجد على أديمها قط لغير الرحمن " ، ثم أصبحت فيما بعد مركزا هاما للتعليم الإسلامى والتقوى ، وتوافد عليها الطلاب والعلماء فى جموع كبيرة ، مدفوعين بما كانوا يلقونه من تشجيع ورعاية ، وقد أثنى ابن بطوطة ، وزار هذه البلاد فى أواسط القرن الرابع عشر ، على الزنوج لحماستهم فى أداء عبادتهم وفى حفظ القرآن ودراسته ، وفى يوم الجمعة إذا لم يبكر الإنسان إلى المسجد لايجد أين يصلى .

وكانت مالى أقوى ولاية فى السودان الغربى ، وعلا أمرها حين فتحت قبائل المندنجو غانة ، وكان هؤلاء من أكثر زنوج أفريقيا مدنية وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام ، ومن أنشط الدعاة إلى نشر الإسلام بين الجماعات المجاورة لهم ، وهم الذين عرَفوا قبائل الهوسا به ، فلعب هؤلاء الدور نفسه ، وكانوا أيضا أصحاب نشاط وذكاء ، وأكسبتهم مهارتهم التجارية الفائقة نفوذا كبيرا بين شتى القبائل التى اتصلوا بها ، وأصبحت لغتهم لغة التجارة فى السودان الغربى ، وحملوا معهم الدعوة الإسلامية أنى حلوا ، ومن ساحل غينيا حتى القاهرة .

ومن مصر انتشر الإسلام حتى دخل كانم ،فى القرن الحادى عشر ، وأول من اعتنقه من ملوكها همى جلمى (١٠٨٥ - ١٠٩٧م) وسمىّ نفسه بعد إسلامه محمدا ، وأسلمت على يده مملكته كلها . وبعد أن اعتنقت الإسلام أصبحت دولة ذات أهمية كبرى ، وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر وبلاد النوبة .

وفى هذا الجانب من أفريقية لعبت الطرق الصوفية ، وبخاصة القادرية والتيجانية ، دورا بالغ الأهمية ، وعلى أيديهم سرعان ماتطور الدخول فى الإسلام من حالات فردية إلى جماعات ، وبعضهم كانوا يذهبون إلى الأزهر فى

القاهرة ، أو القيروان فى تونس ، أو فاس فى المغرب ، ليبقوا أعواما يدرسون ، ثم يعودون إلى بلادهم مزودين بالمعارف التي تعينهم على نشر عقيدتهم ، وكانت أداتهم الأولى ، كما هى اداة التجار من قبل ، أن يكونوا قدوة لغيرهم ، وأن يتسامحوا مع جيرانهم من غير المسلمين .

● فارس وماوراءها :

إذا تتبعنا انتشار الإسلام شرقا إلى أواسط آسيا وجب أن نرجع إلى عهد الفتوح الإسلامية الأولى ، إذ لم يكد ينتصف القرن السابع الميلادى حتى كانت الأسرة الساسانية قد سقطت ، ودخلت فى حوزة المسلمين الإمبراطورية الفارسية الشاسعة ، التى ناهضت روما وبيزنطة طوال أربعة قرون ، وحين تشتت شمل الجيوش الفارسية لم يلق المسلمون من الشعب الفارسى مقاومة تذكر ، فقد عانى فى أواخر الحكم الساسانى ضروبا من الاستبدادا أغضبت الأهلين ، وجعلتهم يضمرون لحكامهم الكراهية والبغضاء .

وقد أدى ترحيب الفرس بالإسلام إلى انتشاره بسرعة مذهلة ، وارتبطوا سياسيا بالدين الجديد حين تزوج الحسين بن على من شاهبانو إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية ، ورأى الفرس فى أولادهما ورثة ملوكهم الأقدمين وورثة تقاليدهم القومية ، وهو ما يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلى من جهة ، وظهور التشيع هناك اتجاها قويا ، وسائدا فيما بعد ، من جهة أخرى .

ولايستطيع أحد القول بأن إقبال الفرس على الإسلام كان وراءه ضغط ، أو أن الناس حملوا عليه بالقوة ، وكان عدد الذين اعتنقوا الإسلام فى السنين الأولى كبيرا ، وأقبل عليه المثقفون والأدباء ، فأسلم مهيار الديلمى الشاعر ، وكان من عبدة النار ، على يد الشريف الرضى ، وفى الوقت نفسه اعتنق الإسلام جد الجغرافى الشهير ابن خرداذبة وكان من أتباع المذهب المانوى .

وكان نهر جيحون يمثل الخط التقليدى الفاصل بين الشعوب المتكلمة بالفارسية والشعوب المتكلمة بالتركية ، أو بين الفرس والطورانيين إذا شئت ، وفى عهد

الوليد بن عبد الملك عبره المسلمون ، وثبتوا أقدامهم فيما وراءه ، ونجح قتيبة بن مسلم فى أن يستولى على بلخ وبخارى ، وعندما وصل إلى سمرقند وجد أصناما كثيرة يعتقد عبدتها أن من يثير حنقها يتعرض للموت ، فلم يأبه لهذه الخرافات، وبدأ إحراقها فى الحال ، ولما لم يصبه مكروه أقبل عدد كبير من الناس على اعتناق الإسلام .

وفتح المسلمون في عام ٧٥١م بلاد الشاش ، أو طشقند ، إلي الشمال الشرقى من سمرقند ، وبذلك انطوت بلاد ماوراء النهر فى العالم الإسلامى الذى اتصل بعنصر جديد ، وثقافة جديدة بالنسبة إليه ، ونعنى بهم المغول . وأصبحت بخارى وسمرقند وبقية مقاطعة خوارزم مهد الإسلام ، مركز الثقافة العربية فى آسيا الوسطى .

وفي الوقت نفسه كان محمد بن القاسم ، وهو ابن أخى الحجاج ، يتقدم شرقا ، ويواصل تقدمه فى المنطقة المعروفة الآن باسم بلوخستان ، وأخضع السند ، ونيرون ، ومكانها حيدر أباد الحديثة ، ثم وصل البنجاب ، ووجد فيها كلها معابد وتماثيل بوذية ، وبدأ أول اتصال بين الإسلام والبوذية الهندية .

وفى جنوب الهند أقبل الدعاة ، وبدأ الهنادكة يعتنقون الإسلام ، ومنها عبر إلى جزر تلديف وملديف فى خليج البنغال ، وأهلها الآن كلهم مسلمون ، ويدين الإسلام بانتشاره هناك للتجار من العرب والفرس الذين استوطنوا هذه البلاد ، وصاهروا أهلها ، ومهدوا السبيل لنشر الدعوة الإسلامية فى نشاط وقوة . وقد لقى الدعاة أعظم النجاح فى البنغال بخاصة ، وكثر عدد الذين دخلوا فى الدين الجديد ، وفيه تأسست دولة إسلامية لأول مرة ، وساعد استمرار الحكم الإسلامى فيها مدة طويلة علي انتشار الإسلام حولها .

وفي القرن التاسع عشر الميلادى نشطت حركة الدعوة إلى الإسلام فى البنغال نشاطا ملحوظا ، وبتأثير من الحركة الوهابية الإصلاحية انتشر الدعاة فى هذه المنطقة ليطهروها من بقايا العقائد الهندوكية ، ويوقظوا الحماسة الدينية بين أهلها ، وينشروا العقيدة الإسلامية بين غير المسلمين .

إن الإقبال العظيم من الهنود على الإسلام ولما يتوقف يعود في مجمله إلى أن المساواة بين البشر مبدأ أساسي وجوهري في الإسلام ، على حين يوجد التفاوت الطبقي والعنصري الصارخ بين أتباع الديانات الأخرى ، فوجدت الطبقات المنبوذة من الهندوك والبراهمة والسيخ وبقية الطوائف الأخرى ملاذا في الإسلام ، يحمي إنسانيتهم ، ويرتفع بهم إلى أعلى مقام آدمي .

ويمثل المسلمون الغالبية العظمى بين سكان كشمير ، ولايعرف أحد متى بدأ الإسلام يدخل هذه المنطقة ، ويقال أن أول ملك مسلم لها ، يدعى صدر الدين (أو شمس الدين) يدين بدخوله الإسلام إلي أحد الدراويش ، وكان ذلك في مستهل القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم تقدم الإسلام في أواخر القرن بوصول أحد الفارين من همذان ، ويدعى سيد علي الهمذاني ، لأنه أثار سخط تيمور . وصحبه سبع مئة ، وأسسوا أماكن للنسك في جميع أرجاء البلاد ، وحول نهاية القرن الخامس عشر قدم إليها أحد دعاة المذهب الشيعي في العراق ، ويدعى مير شمس الدين ، واستطاع بمعاونة تلاميذه أن يظفر بعدد كبير من الذين دخلوا الإسلام في كشمير.

ودخل الإسلام الصين أول مادخلها مع التجار الذين كانوا يسلكون الطريق البحري القديم ، ولو أن الشائع بينهم أن أول من دعاإلى الإسلام في بلادهم أحد أخوال النبي ، وكانوا يعظمون قبره المشهور في كانتون ، غير أن هذه القصة ليس لها سند تاريخي ، وربما نبتت في زمن متأخر ، لكي يربطوا تاريخ الدين في بلادهم بعصر النبوة ما أمكن .

لقد جاء المسلمون إلى الصين تجارا أو صناعا أو جنودا ، وجئ بآخرين أسرى حرب ، واستقر عدد كبير منهم في هذه البلاد بصفة دائمة ، وكونوا جالية كبيرة مزدهرة ، وتزوجوا من صينيات ، وتقلّد بعض المسلمين مناصب رفيعة تحت إمرة حكام المغول ، من أهمها القيام على بيت مال الدولة ، وتقدير الضرائب المفروضة على الصينيين . وكان المسلمون الأغنياء يشترون الأطفال الوثنيين في زمن المجاعات ليربوهم على الإسلام ، واشتروا حتى أطفال المسيحيين الذين قُتل

آباؤهم فى الحروب ونشأوهم على الإسلام .

يميل المسلمون فى الصين إلى أن يعيشوا فى قرى مستقلة ، وفى أحياء منفصلة داخل المدن الكبرى ، ولايسمحون لأى شخص لايذهب إلى المسجد أن يقيم بينهم ، ولايظهرون من شعائر دينهم ما يضايق جيرانهم أو يثير تعصب بقية مواطنيهم ، ويأتون فى حياتهم العادية ما هو شائع من التقاليد والعادات ما دام لاينافى عقيدتهم ، ويتزيّون على الطريقة الصينية ، ويلبسون العمامة فى المسجد ويتجنبون بناء مآذن عالية لمساجدهم ، ويبنونها وفقا للمعمار الصينى ، ولمّا كان القانون فى الصين الإمبراطورية يفرض أن يوضع فى كل الأمكنة العامة ، بما فيها المساجد ، لوحا منقوشا عليه : " عاش الإمبراطور الخالد " ، وعلى الناس أن يسجدوا أمامه طبقا للعادة الصينية المتبعة ، فقد احتال المسلمون على التخلص من ذلك إرضاء لضمائرهم ، وتفاديا من الوقوع فى الوثنية .

لقد نجح المسلمون فى ألاّ يأخذ تدينهم مظهر المعارض لدين الدولة فنجحوا فى تجنب الكراهية التى كان ينظر بها الصينيون إلى أصحاب الديانات التى يرونها أجنبية كاليهودية و المسيحية ، وكانت الحكومة الصينية من جانبها تعطى المسلمين من رعاياها دائما ، عدا أوقات الثورات والفتن ، نفس الحقوق والامتيازات التى كان ينعم بها سائر أفراد الشعب ، فلا تغلق فى وجوههم وظيفة من وظائف الدولة : حكاما للولايات ، وقوادا للجيش ، وقضاة ووزراء ، ويتمتعون بثقة الحكام واحترام الشعب .

وكانوا أيضا رجال أعمال أذكياء وتجارا ناجحين ، ويهتمون بالنواحى القومية فى وطنهم ، ولم يكن مباحا لهم التبشير بدينهم فى الطرقات ومسموحا به للبروتستانت ، ومع ذلك لم يدعوا أية فرصة تسنح لهم كى يزيدوا من عدد طائفتهم ، وكان الضباط يهدون من يستطيعون من جنودهم إلى الإسلام ، ويستخدم أصحاب المناصب المسلمين سلطتهم فى الظفر بمزيد من المسلمين . و فى لحظة من القرن التاسع عشر خشى كثيرون أن يكتسح الإسلام الصين كلها ، وعبر

عن ذلك كاتب روسى فى كتاب هام عن الإسلام فى الصين ، وصدر عام ١٨٦٧ ، يقول : أن الإسلام مهيأ لأن يصبح الدين القومى للإمبراطورية الصينية ، وأن يقلب الأوضاع السياسية في العالم الشرقى رأسا على عقب . وهى نبوءة لماّ تتحقق ، فقد كان أعداء الإسلام من الذكاء والكثرة والاتحاد فيما بينهم لكى يحولوا دون أن تأخذ هذه النبوءة طريقها إلى الوجود . وقد أدت المذابح التى صحبت الثورات الوثنية وقمعها إلى تناقص عدد المسلمين ملايين الأنفس ، ولو أن الحكومات أعطت المسلمين حرية التبشير بدينهم ، وهى حرية توقفت على التأكيد فى الصين الشيوعية شأن بقية الدعوات الأخرى ، غير أن التضييق فى السنوات الأخيرة بدأ يخف ، ويأخذ شكلا ناعما .

وفى جهود لاتعرف الملل واصل الدعاة المسلمون مع التجارة نشر الإسلام فى جزر الهند دون عون من أحد ، ورغم صعاب لاحد لها ، وكانت التجارة بين الجزيرة العربية وسيلان (سيريلانكا الآن) والصين تلقى رواجا كبيرا ، وفى أواسط القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى ، كانت توجد جالية عربية كبيرة العدد فى كانتون فى الصين وظلوا سادة التجار حتى قدوم البرتغاليين . وإليهم يرجع انتشار الإسلام فى سومطرة ، وتصاهروا إلى سكان البلاد بعد أن استقروا فى مراكز التجارة .

وقد شهدت سومطرة نهضة دينية فى مستهل القرن التاسع عشر ،قام بها ثلاثة من الذين حجوا إلى مكة ، وتأثروا أثناء وجودهم هناك بالحركة الوهابية ، وحين عادوا اضطلعوا بعبء إشاعة مبادئ الإصلاح بين مواطنيهم ، وبثوا فيهم حياة دينية أكثر صفاء ، وأشد نقاء وغيرة ، وهى حركة أتت عليها الحكومة الهولندية حين استعمرت هذه المناطق .

ولم يفد المسلمون إلى الفلبين غزاة كما فعل الإسبان الكاثوليك فى القرن السادس عشر ، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام ، ولم يدعوا لأنفسهم حقوقا أزيد مما يتمتع به السكان الأصليين ، ومع أنهم كانوا تجارا

فقد استخدموا نفوذهم الشخصى ومواهبهم فى نشر الإسلام لافى تنمية ثرواتهم .

وليس لدينا أخبار مفصلة عن تاريخ تحول شبه جزيرة الملايو إلى الإسلام ، ولكننا نجد فى أماكن كثيرة أضرحة دعاة العرب الذين كانوا أول من بشّر بالإسلام بين سكانها فيما يظن ، وتلقى الناس تعظيما عاليا ، وأدت بهم معاشرة العرب الطويلة ، والاحتكاك الدائم بمسلمى ساحل الهند الشرقى ، إلى أن يصبحوا مسلمين طيبين شديدى التمسك بفروض دينهم ، واشتهروا بأنهم خير من يقتدى به بين مسلمى الأرخبيل .

ولعب التجار بخاصة دورا عظيما فى كسب قلوب الأهلين فهم يتكلمون لغتهم، وينتحلون أخلاقهم وعاداتهم ، ويرفقون فى نشر معارف دينهم ، وامتزجوا تدريجا فى عامة الشعب ، واستخدموا تفوقهم العقلى والحضارى فى إقناع الآخرين ، وكانوا على جانب عظيم من الحكمة والرويّة .

وإلى جانب التجار كان هناك الدعاة المحترفون ، من الفقهاء والقضاة والحجاج، وقد بذلت الحكومة الهولندية حين كانت تستعمر تلك البلاد جهودا كبيرة فى عزل مسلميها عن بقية العالم الإسلامى ، فحالت دون ذهاب الطلاب إلى الدراسة فى مصر ، ودون ذهاب الناس إلى الحج ، فكان لايجوز لإنسان أن يحج إلاّ إذا حصل على جواز سفر ، ولا يحصل على هذا الجواز إلا مقابل مبلغ كبير من المال لايستطيعه غير القليليين .

ورغم أن التغلغل الهولندى لم يقف عند حد ، ورغم الصراع المرير بين الهولنديين والمسلمين ، واتخذ طابعا دينيا وقوميا ، ورغم تأليب شيوخ "العادات" [1] والحكام غير المسلمين ضد المسلمين ، فقد واصل الإسلام تقدمه بلاتوقف ، وأصبح الإسلام قوة مؤثرة فى حياة المسلمين اجتماعيا وفكريا ، ويعترف الهولنديون أنفسهم بأن الإسلام منح حتى الفلاحين البسطاء شعورا بقيمة

١- هم الذين يطبقون قانون العادات على المجتمعات الأندونيسية وأريد به أعن يكون بديلا للشريعة الإسلامية .

الفرد ، وإحساسا بتضامن الجماعة ، فى مواجهة نوائب الدهر وحوائج الحياة، وأنهم أعضاء فى جماعة متماسكة ، يؤكدها ويقويها الحج إلى الديار المقدسة فى مكة والمدينة ، ولم يكد يهل القرن التاسع الهجرى حتى كانت أندونيسيا برمتها تقريبا دولة إسلامية .

● فى أوروبا :

دخل الإسلام أوروبا لأول مرة من طرفها الغربى الجنوبى ، أعنى شبه جزيرة إيبيريا ، عام ٧١١م ، واستقر فيها تسعة قرون كاملة ، وأزهر حضـارة عظيمـة الأثر والخطر ، وكانت وراء عصر النهضة الأوروبية ، وتميزت بين ألوان الحضارة الإسلامية المختلفة بمذاق خاص . واجتاح المسلمون فى أعوامهم الأولى جنوب فرنسا حى بلغوا أربونة ، وصار رباطهم على نهر ردونة ، غير أنهم مالبثوا أن عادوا إلى داخل شبه جزيرة إيبيريا نفسها ، واسقرت حدودهم الدائمة عند ما عّرف بالثغر الأعلى وعاصمته سرقسطة .

وقد أقبل الناس على الإسلام فى أعداد كبيرة، لأسباب عديدة ، اجتماعية واقتصادية ، وإلى الدين نفسه فى الأعم الأغلب ، والذين آثروا البقاء كاثوليكا لم يلحقهم أذى ، وحملوا فى المصادر العربية اسم " نصارى العجم " أو " نصارى الذمة " أو " أهل الكتاب " على حين تطلق عليهم المصادر الأوربية واللاتينية اسم " المستعربون Mozarabes " وبلغ التعايش حد أن يعقد الأساقفة مجامعهم الدينية فى حرية كاملة ، وظلت دولة الإسلام قائمة إلى أن سلمها ملك غرناطة ، أبو عبد الله الصغير ، إلى ملك أرغون وملكة قشتالة ، فرناندو وإيزابيل ، فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، خيانة منه ومن وزرائه لا قوة من أعدائهم ، وظل المسلمون بعد ذلك في وطنهم رعايا من الدرجة الثالثة ، يعانون أقسى ألوان الملاحقة والاضطهاد والعذاب ، وأشد أنواع التنكيل والارهاب ، وأكرهوا على اعتناق الكاثوليكية ، وأقيمت محاكم التفتيش الشهيرة لاجتثاثهم نهائيا ، ثم صدر قرار طردهم كليةً من إسبانيا عام ١٦١٣م . وقُتل منهم مئات الألوف خلال

عملية الطرد الجماعية هذه ، يقول القس بليدا الدومنيكانى إنه قَتل ثلاثة أرباع من جلوا من المسلمين فى طريقهم إلى الهجرة ، ومئة ألف من قافلة واحدة كانت تضم مئة وأربعين ألفا ،وهم طريقهم إلي تونس .

وبلغ الإسلام جزيرة صقلية ، وكان احتكاك الإسلام بها منذ أعوامه الأولى ، فقد هاجمها الأسطول الإسلامى فى خلافة عثمان بعد موقعة ذات الصوارى ٣٤هـ = ٦٥٤م ، وغزاها عبد الله بن قيس الفزارى من قبل معاوية بن حديج الكندى ، وذهب إلها عبد الله بن قيس يستطلع حالها عام ٤٥ هـ = ٦٦٥م ، وبدأ والى تونس يرنو إليها ، ويستطلع أمرها بالسرايا ، إلى أن استقر فيها المسلمون على يد أسد بن الفرات عام ٢١٢هـ = ٨٢٧م ، أرسله إليها زيادة الله بن الأغلب ،

وامتد نفوذ الإسلام بعدها إلى ولايات جنوبى إيطاليا ، مثل تارنتو ونابولى وسالرن وبارة ، وبلغ حتى أرياض مدينة روما نفسها .

دان معظم أهل صقلية بالإسلام ، ويروى الرحالة الذين زاروا الجزيرة من عرب وأوربيين أن المدينة كانت عامرة بالجوامع والمساجد ، وفى بالرم العاصمة وحدها نيِّف وثلاثة مئة مسجد ، وفى مدينة البيضاء مئتا مسجد ، ويعلِّق الرحالة ابن حوقل على هذا الخبر فيقول : " ولم أر مثل هذه العدة فى بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولاسمعت به ".

وعندما استولى النورمانديون على صقلية سنة ٤٨٢ = ١٠٩٠م كان فيها أربعة عناصر : الروم والمسلمون واللومبارديون واليهود ، وكل عنصر يتكلم لغته، ويخضع لقوانين البلد ، وظلت الأوامر الملكية تصدر باللغة العربية إلى جانب اللغتين اللاتينية واليونانية [١] . وبقى فيها المسلمون بعد سقوطها زمنا ، وظل تأثيرهم على الحضارة متواصلا ، ومع الزمن تعرضوا دينيا لاضطهاد شديد ، وأكرهوا على اعتناق الكاثوليكية ، وكانت صقلية وإسبانيا الاستثناء الوحيد فى قاعدة تقرر : " متى بلغ الإسلام بلدا استقر فيه إلى الأبد " .

١ – انظر نص المنشور فى : فون شاك ، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، ص ٩٩ ، ط ٢ ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

وابتداء من القرن الخامس عشر سوف يضطلع الأتراك العثمانيون بدور باهر في نشر الإسلام في أوروبا ، ونسمع بهم لأول مرة في بداية القرن الثالث عشر عندما هربوا من وجه المغول في عدد يقرب من خمسين ألفا ، ثم قدموا النجدة سلطان قونية ، فأقطعهم ولاية في الشمال الغربي من آسيا الصغرى مكافأة لهم على خدماتهم ضد المغول والإغريق ، وكانت هذه الولاية نواة الدولة العثمانية المقبلة ، التي أخذت تتوسع أول الأمر باندماج الولايات الصغيرة التي كان الأتراك السلجوقيين قد تقسموها فيما بينهم ، ثم عبر الأتراك إلى أوروبا ،

وأخذوا يضمون دولها إلى ملكهم واحدة بعد أخرى ، إلى أن توقفت انتصاراتهم المطردة أمام أبواب فيينا عام ١٦٨٣ .

لقداستولوا على بلغاريا ومقدونية وتساليا ، وتراقية و ألبانيا و البوسنة والصرب والمجر وجزيرة كريت ، وأصبح بحر إيجة إسلاميا .

وحين استولى محمد الثاني على القسطنطينية حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة عام ١٤٥٣م ، وأقر النظام فيها ، أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية ، وحمى رعاياه المسيحيين ، وترك للكهنة امتيازاتهم القديمة التي كانوا يتمتعون بها ، والتصرف في القضايا الشخصية لتابعيهم ، وهكذا أصبح القساوسة أتراكا أكثر منهم قساوسة ينتمون للإغريق وآثر المسيحيون في الدولة العثمانية سيادة السلطان على أية سيادة أوسلطة مسيحية ، ولقي العثمانيون في بقاع كثيرة من إمبراطوريتهم ترحيبا من الإغريق واعتبروهم مخلّصين لهم من حكم الفرنجة ،وأهل البندقية الظالم المستبد فقد صيّر هؤلاء الشعب في حالة من العبودية يرثى لها ، بادخالهم نظام الإقطاع في اليونان ، كما كانوا مكروهين من رعاياهم لأنهم يختلفون عنهم في اللغة والجنس والعقيدة .

وقد رأى الأتراك أن أعظم خير يقدمونه لأي فرد هو أن يهدوه إلى الإسلام ، ويكرمون من يدخل فيه طوعا في حفلات شعبية ، فيمتطي المسلم الجديد حصانا،

ويطوفون به شوارع المدينة وهم فى نشوة النصر ، ويكرمونه ويمدونه بما يعينه على الحياة الكريمة ، وفى نفوسهم غيرة قوية على الإسلام ، وهم يبتهلون إلى الله فى صلاتهم كل يوم أن يهدى الآخرين إلى الإسلام على أيديهم .

ومع أن المسلمين نجحوا فى فتح كريت وصقلية فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، فاقتربوا من مدخل البحر الأدرياتيكى ، وسيطروا عليه فترة من الزمن ، وتمكنوا من تثبيت وضعهم فى جنوبى إيطاليا ، كما أسسوا إمارة عربية إسلامية حول مدينة بارى على الساحل الغربى للأدرياتيكى ، والتفتوا أخيرا إلى الساحل الشرقى حيث يعيش الألبانيون ، وتمكن الأسطول الإسلامى من عدة مدن على هذا الشاطئ إلا أنه اضطر إلى التراجع بعد فشل الحصار الطويل على مدينة راغوزة (دوبرفنيك الحالية) عام ٨٦٦ ، وبعد التراجع بقى المسلمون يعودون بأسطولهم إلى هذا الشاطئ من حين لآخر حتى القرن الحادى عشر الميلادى حين قاموا من صقلية بآخر هجوم على البوابة الغربية للبلقان ، وكان على هذه البوابة أن تبقى مغلقة حتى يفتحها المسلمون العثمانيون بعد ذلك بثلاثة قرون .

مع الانتشار العثمانى فى أوروبا تعرف الألبانيون على الإسلام لأول مرة ، وهم من أقدم العناصر فى أوروبا وأرقاها ، وانتشر الإسلام بينهم فى بطء أولا ، على أيدى الأهالى أنفسهم ، ودون أى ضغط خارجى ، ولانكاد نبلغ مطلع القرن السابع عشر حتى يبلغ تدهور الحياة الدينية المسيحية غايته فى ألبانيا ، مما يفتح الباب عريضا واسعا أمام الإسلام ، فيدخل فيه خلال ثلاثين عاما فحسب (١٦٢٠ - ١٦٥٠) ما يقرب من ثلاث مئة ألف ألبانى .

كانت ألبانيا الأمة الأوروبية الوحيدة التى يكون فيها المسلمون غالبية ، وكان لهم فى الدولة العثمانية حضور واضح ، جنودا متمرسين ، وقادة عظاما ، وأمراء بحر مرموقين ، وانتشروا فى العالم العربى فى مصر والشام بخاصة ، وامتزجوا بأهله ، وحملوا اسم " الارناؤوط " ، وكان محمد على الكبير باعث النهضة

الحديثة فى مصر جنديا ألبانيا ، إلى جانب عدد آخر من الولاة المصلحين ، وقواد البحر العظام .

ويدأ انتشار الإسلام بين الصربيين (فى يوغوسلافيا الآن) بعد موقعة كوسوفو عام ١٣٨٩ مباشرة ، فقد اعتنق عدد من أشراف الإقطاعيين القدامى الإسلام بمحض إرادتهم ، وأصبحوا من أشد الدعاة تحمسا للدين الجديد ، وأغرت الدولة العثمانية أهالى البوسنة باعتناق الإسلام ، وسمحت لكل من يسلم أن يحتفظ بأرضه وممتلكاته ، وأعفت إقطاعاتهم من الضرائب واحتفظ المسلمون البوسنيون بقوميتهم ، وظل السواد الأعظم منهم يحمل أسماء صربية ، ويتكلمون بلغتهم الوطنية ، وفى الوقت نفسه أظهروا غيرة شديدة على دينهم الجديد ، واحتلوا بفضل شجاعتهم مكانة سامية فى عاصمة الخلافة ، وأصبح كثيرون منهم موضع ثقة الدولة فى مناصب الحكومة الهامة .

وكانت جزيرة كريت آخر منطقة بلغها الإسلام على يد العثمانيين ، فقد استولوا عليها من جمهورية البندقية عام ١٦٦٩م وكان قد سبق لمجموعة من المسلمين الأندلسيين الثائرين أن استولوا عليها فى القرن التاسع الميلادى ، بعد أن طردوا من وطنهم ، فلجأوا إلى الإسكندرية ، ولكنهم أخرجوا منها بعد أن أثاروا فيها القلاقل والاضطرابات ، فاتجهوا إلى جزيرة كريت واستولوا عليها ، وظلت تحت سلطانهم قرابة قرن من الزمان ، من ٨٢٥ إلى ٩٦١م ، وخلال هذه الفترة أصبح كل سكان الجزيرة مسلمين ، وعندما ماعادت إليها الدولة الرومانية ، أكرهت الناس على الارتداد عن الإسلام ولم يكن معترفا بغير المسيحية دينا .

وبعد الفتح العثمانى مباشرة دخلت جموع كبيرة من أهلها فى الإسلام ، وفى مدة لاتزيد على قرن من الزمان كان نصف السكان من المسلمين ، موزعين على أرض الجزيرة كلها ، فى المدن والقرى و الجبال ، فى الشواطئ والمناطق الداخلية على السواء ، وظلوا يتكلمون اللغة اليونانية مسلمين ومسيحيين .

أما المسلمون البلغار الذين يعيشون على ضفاف نهر الفولجا وقريبا منه

فاسلامهم أقدم من قيام الدولة العثمانية نفسها ، ويرجع الفضل فيه إلى التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون فى الفراء وسائر السلع الأخرى التى يحصلون عليها من البلاد الشمالية ، ونعرف أن الخليفة العباسى المقتدر (٩٠٨ هـ - ٩٣٢م) أرسل إليهم من يقوم بتعليمهم مبادئ الإسلام وشعائره .

● ● ●

إن قصة انتشار الإسلام كاملة لم تكتب بعد ، وفيها صفحات كثيرة بيضاء نيرة ، من التسامح والود مع الآخرين ، وصفحات أشد روعة عن الجنود المجهولين الذين حملوا الإسلام إلى أماكن سحيقة وهمجية ، وإلى شعوب بدائية ومتخلفة ، فارتفعوا بمستواها حياة وفكرا ، ودفعوا لتحقيق هذه الغايات النبيلة من راحتهم ومالهم وصحتهم ، وحياتهم فى كثير من الأحيان ، ولقد أتينا فى الصفحات السابقة على الخطوط العريضة ، بقدر ما تسمح به الظروف ، وتتطلبه طبيعة البحث ، ولكن الأمر فى حاجة إلى جهود أكبر ، تتجاوز طاقة الفرد الواحد ، وتتطلب تضافر القوى الإسلامية مجتمعة .

كذلك لم يكتب بعد ، لاتفصيلا ولا فى إيجاز ، تاريخ المعاناة والملاحقة ، والتعذيب و الإبادة ، التى تعرض لها المسلمون أقليات ، أو أغلبية حين غَلبوا على أمرهم ، فى أمكنة كثيرة ، أوضحها استئصالهم كلية فى إسبانيا وصقلية وكريت ومالطة ، لا لشئ إلا لأنهم مسلمون .

● الثابت والمتغير فى الحضارة الإسلامية :

شغل الإسلام - كما رأينا - منطقة مترامية الأطراف ، تضم فى جنباتها كيانات سياسية واجتماعية متنوعة ، ويختلف أهلوها ألوانا وعروقا ونظما وتقاليد وعادات ، واحترم كل ما وجده وأبقاه مادام لايصطدم مع العقيدة الإسلامية وأحكام الشريعة الأساسية ، وترك مقاليد الحكم فى هذا البلاد لأهلها يقول الدكتور إ . ولموت بليدن ، وهو زنجى من الولايات المتحدة ، اضطهدوه فى

وطنه بسبب لونه ، ولم يستطع أن يكمل دراسته ، فسافر إلى ليبيريا فى أفريقيا ، والتحق بإحدى المدارس الكنسية ، وتخرج فيها ، وتولى عدة مناصب ثقافية وسياسية ، ورحل إلى الشرق عام ١٨٦٩ لدراسة اللغة العربية ، وجمع المخطوطات ، وزار مصر وسوريا ، وكتب عدة مقالات عن الإسلام والمسيحية نشرها فى فترات مختلفة ، ثم جمعها فى كتاب بعنوان : "Christantiy , Islam and Negro Race المسيحية والإسلام والعنصر الزنجى " ، ونشر فى لندن عام ١٨٨٨م ، يقول :

" لقد جاءت تعاليم المسيحية إلى الأفريقى باعتباره عبدا ، أو على الأقل بوصفه خاضعا محكوما ، فعلمت الزنجى وبنوه من بعده ، بجانب تعاليم المسيحية ، أنه جنس منحط ، عديم الأهلية والكفاءة ، وأنه دون معلميه وحكامه من البيض " و " لقد دهم المستعمر الأوروبى الوطنيين الأفريقيين وأجبرهم على اعتناق المسيحية بمختلف وسائل القهر والإغراء ، واستولى على بلادهم بالعسف والتفرقة ، وأنزلهم دون منازل الإنسانية " ، ولهذا بات أغلب المثقفين من الزنوج يتطلع إلى اليوم الذى يختفى فيه أثر الرجل الأوروبى ، وهى حالة أوجزها مثل من جواتيمالا فيما يتصل بحالة الهنود الحمر ، يقول : " قالوا لنا : أغمضوا أعينكم حين تصلون وأغمضناها ، وعندما فتحناها وجدنا بين أيدينا الإنجيل وبين أيديهم أرضنا ".

وبينما يشعر أى إنسان مسلم أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه وعن مجتمعه ، فإنه مع الأوروبى الأبيض يظل حائرا ، فهو لاينتمى إلى ماضيه ، وليس مقبولا عند الأوروبى ،وحرم من الثقافة المعقولة ، والحقوق الإنسانية الطبيعية المتاحة للمسيحى الأبيض ، على حين أن المسلمين جميعا سواسية فى الحقوق دون نظر إلى لون أو جنس .

فى الإسلام حقائق ثابتة لاتتغير ، ولاتختلف باختلاف الأزمنة والبيئات ، وتتصل بالعقيدة ، وحدانية الله ، ومثلها الشعائر الأساسية التى تعتبر من أركان

الإسلام أو القيم الخلقية العليا التى لاتختلف عليها الفطرة السليمة ، الثابتة بنص صريح ، قطعى الدلالة ، من القرآن أو السنة الصحيحة .

وهناك ما يتصل بأمور الحياة نفسها ، الأسرة والمعاملات والعقوبات ، والأنظمة السياسية والإدارية والعلاقات الدولية ، وهى التى يفصل أحكامها الفقه الإسلامى بمختلف مذاهبه ، وهى ذات مستويين ، مستوى يمثل الثبات والدوام ، ويتعلق بالأسس والمبادئ والأحكام العامة ، وجاءت به نصوص قطعية الدلالة ، لاتختلف فيها الأفهام ولاتتعدد الاجتهادات ، ولايؤثر فيها تغير الزمان والمكان .

وأما المستوى الثانى فمنطقة الأحكام الظنية ثبوتا أو دلالة ، وهى مفتوحة أمام الاجتهاد والاختلاف والفهم ، وتشمل معظم أحكام الفقه ، ذلك لأن الشرع لم ينص على كل شئ . وإنما ترك مساحة واسعة فى الحياة ، خالية من أى نص ملزم، ويسميها الفقهاء " منطقة العفو " ، أخذا من حديث " ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وماسكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئا " . وهذه المنطقة مجال الاجتهاد ، بين مضيق وموسع ، ومن يستخدم القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح أو مراعاة العرف والعادة وغيرها ، وكلها مما يتأثر بما حولها ، وبخاصة أن مبدأ تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال والعرف ، مقرر منذ أيام الإسلام الأولى ، ويتجلى واضحا فى موقف عمر بن الخطاب من المؤلفة قلوبهم ، ومن تقسيم الأرض المفتوحة ، ومن طلاق الثلاث وغيرها . وكان عمر بن عبد العزيز ، خامس الخلفاء الراشدين ، يقول : " تحدث للناس أقضية (أى أحكام) بقدر ما أحدثوا من أمور " .

إذا كانت أمور الدين مرجعها الله بما أوحى إلى رسوله ، فان الثقافة من صنع الإنسان ميلا وهوى ودربة ، وترتبط بالزمان والمكان وحدودهما ، وتتكون تبعا لهما ، وتخضع لكل المؤثرات الإنسانية من المزاج الفردى والموروث الجماعى ،

والبيئة المحيطة ، والضواغط الخارجية ، من تربية أصيلة أو ثقافة وافدة ، ومن هنا فان كل شعب إسلامي استوعب الدين ، خارج نطاق الثوابت والمناطق المغلقة حسب ما لديه من مستوى الفهم والإدراك والاستيعاب ، وطبقه حسب حاجياته المادية ومتطلباته الروحية وما يلائمها .

وهنا توزعت المذاهب الفقهية على البلاد الإسلامية ، فاختار كل بلد مذهبا ، وبدهي أن الاختيار في البدء ، ثم الشيوع والانتشار والثبات من بعد ، لم يجئ صدفة أو اعتباطا ، وإنما كانت وراءه عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية ، كوقوع مذهب في بلد على طريق القوافل التجارية ، أو الذاهبة إلى الحج ، أو الحرم النبوي في المدينة ، حيث موطن الإمام مالك ، أو المرور بالقاهرة وفيها استقر علماء المالكية ، فأخذ صعيد مصر وشمال أفريقيا بهذا المذهب ، على حين آثر المترددون على بغداد مذهب الإمام أبي حنيفة ، وانتشر المذهب المالكي في الأندلس لأن أمراء بني أمية احتضنوا علماءه ، دون أن يحملوا الناس عليه ، وجعلوه مرد القضاء والفتوى ، فظل المذهب السائد فيها حتى آخر يوم ، لأنه وافق هوى في مزاج الأندلسيين . واختار العثمانيون المذهب الحنفي ، ودعمته الدولة ، لأنه لايرى القرشية شرطا في الخلافة ، وانتشر المذهب الشيعي في أماكن متفرقة من العالم الإسلامي ، في إيران ، وباكستان ، والعراق واليمن ، ولبنان ، وما وراء النهر وغيرها ، وهكذا ..

تعاورت العالم الإسلامي ، قوة حية متطورة ، نامية ومتحركة ، عوامل التجمع والتفكك ، والصعود والهبوط على امتداد تاريخه الطويل ، تدعم الأولى الثوابت الإسلامية ، ويؤكدها مفهوم الإسلام للدولة ، فالمسلمون أمة واحدة فوق أية تجزئات سياسية أو قبلية أو عرقية أو مذهبية ، وهو ما يتيح للأدباء والعلماء والمفكرين أن ينتقلوا من مكان إلى آخر ، وأن يقيموا حيث يشاءون في سهولة ويسر ، وأن يلقوا من يحبون من العلماء ، ويقرأوا ما يميلون إليه من الكتب ، ويغشوا ما يرضون من مجالس العلم ، فنحن نلتقي - مثلا - بسراج الدين عمر

بن إسحاق (ت ٧٧٣ = ١٣٧١م)الملقب بسراج الهند ، يتعلم فى دهلى ، ويسافر إلى الحجاز ، ويجئ القاهرة ، وفيها يتقلد منصب قاضى القضاة لفترة طويلة. ويهاجر ابن الدمامينى الإسكندرى (ت٨٢٧ = ١٤٢٤م) ، من أئمة النحو والمعاجم والفقه والعلوم الإسلامية إلى الهند ، فيجد ترحيبا فى الكجرات ، وذاعت شهرته العلمية ، وشغل بالتأليف جنبا إلى جنب مع التدريس ، ونال مكانة رفيعة لدى أمراء الدكن وكجرات ، وتوفى فى مدينة كلبركة الشهيرة بحيدر أباء الدكن ، ودفن فيها . وغير هذين العالمين كثيرون ...

ومن جانب آخر ، ثمة عوامل غير أساسية في الأعم الأغلب ، جعلت مسيرة كل شعب تأخذ شكلا مختلفا ، وتكتسى طابعا متميزا ، بفعل العوامل الجغرافية والمحلية والعادات والتقاليد الموروثة ، والضرابة في القدم والتمكن فى كثير من الأحيان ، وتنضح آثارها فى إبداع كل شعب وفكره وفنونه ، فكانت هناك خصائص فارقة فى إسبانيا وشمال أفريقيا وغربها ، وفى غربى آسيا ، وشبه القارة الهندية وأندونيسيا ، وأراضى السهوب الممتدة من جنوب روسيا إلى تخوم الصين ، رغم أن الثقافة فى أى بلد منها فرع من الثقافة الإسلامية السائدة ، وتلتقى كلها عند عدد من الطوابع الإسلامية المشتركة التى يمكن تبينها بسهولة . ونقاط التلاقى والاختلاف هذه حين تظهر فى الأدب ، تصبح مجالا واسعا لمقارنة عظيمة ، تفسر كل ظاهرة وتردها إلى أسبابها .

اللغات الإسلامية وآدابها

من الأصول المقررة في الأدب المقارن ، على نحو ما أوضحنا تفصيلا في كتابنا " الأدب المقارن : أصوله وتطوره ومناهجه " ، أن المقارنة لاتكون إلا بين أدبين ، أو أكثر ، ينتميان إلى لغتين مختلفتين ، سواء تطابقت الحدود اللغوية مع الحدود السياسية أم اختلفت ، وسواء كان متكلموها يعتنقون دينا واحدا أم أديانا متعددة ، فاللغة أولا وأخيرا هي نقطة البدء ومناط التقدير ، ومن ثمّ فليس من الأدب المقارن في شئ أن نوازن بين شاعرين عربيين ، أو كاتبين فارسيين ، أوغيرهما ، وإنما هي ضروب من الموازنة تأتي لغايات جمالية أو تربوية ، وكلها نافعة في تربية الذوق ، أو تقييم النص ، أو تفسير مهابط الجمال فيه ، ولكنها ليست أدبا مقارنا .

وحتى لايلتبس الأمر على الباحث في الآداب لإسلامية مقارنا ، رأيت من الضروري أن نقف قليلا عند لغات الأمم الإسلامية الكبرى وآدابها في إيجاز شاف ، مكتفين بالخطوط العامة ، ليعرف الباحث من أين يبدأ ، وبداهة فإن اللغات التي يتكلمها المسلمون عديدة ، وتمتد امتداد الإسلام نفسه ، وليس بوسع واحد ، ولاحتى جماعة محدودة ، أن تأتي عليها كلها ، وإنما بناط ذلك بالمؤسسات العلمية الإسلامية الكبرى ، وهي عاجزة حتى الآن عن عمل أي شئ نافع في هذا المجل . فنحن لانملك حتى الساعة موسوعة إسلامية كاملة ترجع إليها ، خلا تلك التي صنعها الأوروبيون لغاياتهم ، جزاهم الله عن عملهم خيرا رغم كل ما قد يؤخذ عليها ، وليس لدينا تاريخ متكامل للعالم الإسلامي في حاضره ، ولااللغات التي يتكلمها المسلمون ، وعلى الباحث أن يحفر الصخر بقلمه وظفره ، ليتوصل في نهاية الطريق إلى بعض الحقائق المضنية ، ولكنها قليلة الكفاية لمن يرغب في الاستزادة .

ولكن شيئا خير من لاشئ ، ومن هنا فما أقدمه هنا بداية تتطلع إلى المزيد تكملة وتوثيقا وعمقا ، وأبدأ بالحديث عن أم اللغات الإسلامية ، وأعني بها : اللغة العربية وآدابها .

اللغة العربية وآدابها

● اللغة :

كان ظهور الإسلام بعيد الأثر فى حياة اللغة العربية على نحو لم تعرفه من قبل ، ومع نزول القرآن الكريم باللغة العربية تأكدت الرابطة الإلهية بينها وبين الدين الجديد ، وأصبحت لغة دين وحضارة ، ومضت مع الإسلام أيان اتجه ، وصارت لغة الدولة ووعاء الثقافة فى كل العالم الإسلامى ، واستقرت فى معظم الأقاليم التى بلغتها مع الإسلام إلى الأبد ، وانسحبت بآخرة من بعضها الآخر ، وربطت بين كل أجزاء الدولة الإسلامية برباط وثيق ، وحين استردت بعض اللغات الإسلامية مكانتها ، فازدهرت بفعل الحكام أو السياسة ، ظلت العربية إلى جوارها لغة الدين والمباحث الإسلامية .

لقد جعل الإسلام من الفصحى نموذجا يحتذى ، وتكفلت جهود العلماء فى مجال النحو والصرف ومعانى المفردات والأصوات بالإبقاء على صورتها الأولى ، أو على صورة قريبة منها إذا شئنا الدقة .

هذا النفوذ الذى بلغته العربية فى مناطق كانت تستوطنها لغات أخرى ماكان يمكن أن يحدث دون أن تتعرض هى نفسها لتأثير وتغيير ، ومهما تباينت هذه العلاقات الجديدة ، فلم تكن هناك حدود فاصلة بين الفاتحين المسلمين والشعوب التى خضعت للإسلام ، فتركت الفارسية فى عربية البصرة المتكلمة ملامح واضحة ، وتلاقت فى الكوفة الآرامية والفارسية والعربية ، حيث يتلاقى سيل التجار والصنّاع وغيرهم ، ويكونون مع أسرى الحرب ، وكان عددهم كبيرا ، أغلبية مؤثرة وصارت الفارسية لغة التفاهم بينهم زمنا .

وبينما كان تأثير الفارسية فى عربية العراق كبيرا ، وكثرت الألفاظ الفارسية فى العربية الفصحى ، وأخذت إيقاعا عربيا كان أثر القبطية فى مصر ضئيلا،أو معدوما ويرده بعض الباحثين إلى أن مصر لم ترزق فى ذلك الوقت عالما فى قامة

الجاحظ يلتفت إلى لغة الطبقات الوسطى والدنيا بين سكان المدن ، ويلقى ضوءا على العلاقات اللغوية فى الفسطاط القديمة ، وهى فيما أظن لم تكن تختلف كثيرا عما كان عليه الحال فى البصرة والكوفة ، ولو أن ذلك لايحول دون القول بأن عملية التعريب تمت في مصر بصورة أسرع وأعمق مما كان عليه الحال فى العراق ، وهو أمر يمكن أن يَعزى إلى عدة أسباب فى مقدمتها : أن مصر القبطية كانت فى وهدة الانحدار سياسيا وحضاريا وثقافيا فلم تكن تملك من وسائل المناعة مايهبها قوة المقاومة والتماسك ، ولامن التراث العريق الذى عرفته مصر العظيمة فى عهودها الفرعونية ما يعينها على المواجهة والثبات ، إلى جانب ما ألمحنا إليه قبلا من أن الناس أقبلوا على الإسلام أفواجا هائلة ، فرجحت كفة العربية فى القرن الثالث الهجرى ، وتراجعت القبطية إلى سهول الريف وجزر لغوية منعزلة فى الصعيد ، ثم تلاشت تماما فى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى .

لقد تميزت العربية بأنها لغة دين عظيم ، وفيها نزل القرآن الكريم ، وهو يختلف عن غيره من الكتب السماوية ، لأن المسلم لايشعر بأنه يقرأه إلا إذا كان في لغته العربية ، أما الترجمة فهى مجرد شرح وتفسير للإفهام فحسب ، ولايتذوق المرء معها حلاوته نصا ، ولايدرك إعجازه بلاغة ، ومن هنا تحرص جمهرة المسلمين على أن ترفق النص العربى بترجماته على الهامش ، أو فى صفحة مقابلة ، أو بين السطور ، ويرى أغلب الفقهاء أن الصلاة يجب أن تؤدى بالعربية فما من مسلم إذن إلا ويعرف شيئا منها .

وهكذا أصبحت العربية فى شعور أى مسلم ، أيّا كانت لغته الأصلية ، جزءا لاينفصل من حقيقة الإسلام نفسه ، ولم يفكر الفرس الذين بلغوا منزلة عالية فى الخلافة العباسية فى أول عهودها فى أن يرفعوا إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة ، ولا فى فارس نفسها ، وكان يجب أن يمضى قرن كامل من الزمان بعد قبل أن تَبعث الفارسية لغة أدب وحياة . ولم يستطع الشعوبيون الذين ادعوا

تفوق غير الشعوب العربية أن ينتقصوا من مكانة العربية ، ولم يفكر ابن المقفع ولا بشار بن برد ، ويأتيان فى طليعة الأدب العربى ، وأصولهما فارسية ، وينزعان إلى الشعوب بقوة ، فى استخدام لغتهما الأصلية في إبداعهما ، وإنما اعتمدا على اللغة العربية ، واتخذاها وسيلة تعبير ، فكان الأول ناثرا متميزا ، والثانى شاعرا فذا .

أدى انتقال العربية من البداوة إلى الحضارة ، وتغلغل غير العرب فى مناطق الأدب ، إلى تلاشى الطابع القديم ، وحل مكانه أسلوب منمق مهذّب ، وسرعان ما فرضت هذه اللغة السهلة المنسكبة الواضحة سلطانها على الجميع ، فاحتذاها الكتّاب ، وأصبحت لغة الأدب عند المثقفين فى العالم الإسلامى ، دون تمييز بين جنس وآخر ، ولا بين لغة أصلية أو لهجة وطنية ، حيث الشعوب والأقوام فى الدولة الإسلامية العظمى أخلاط من البشر يموج بعضها فى بعض ، ولم تقف قواعدها المحكمة من نحو وصرف وإعراب واشتقاق وبناء فى وجه تيارات التجديد ، وجاءت فى جانب منها على الأقل صدى للغات الوطنية التى امحت ، ولكن بقية منها تخلّفت فى أعماق أهلها، أو بقيت جزرا منعزلة فى طائفة أو طبقة أو مهنة ، أو مكانا قصياً ، ولماّ تتوقف عن التطور ، ولاتزال قابلة للتجديد دون أن يبتعد بها هذا عن أصولها ، أو تفقد هويتها الأولى ، والفضل أولا وأخيرا يعود إلى القرآن الكريم .

أصبحت العربية فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى لغة الأدب الوحيدة على امتداد العالم الإسلامى كله ، مهما كانت أصول أهله ، وأسهمت كل الأقاليم ، مهما تناءت فى بناء صرح الأدب العربى بنشاط عظيم ، ولم تستطع الفواصل السياسية أن تصبح عقبة أمام انتقال الأدباء والعلماء والشعراء فأبو على القالى نشأ فى أرمينية ، وتأدّب فى بغداد ، وعلّم وألّف فى الأندلس ، والخوارزمى ، المتوفى ٣٨٣ هـ ، غادر العراق وخدم سيف الدولة في حلب ، والبلعمّى فى بخارى ، والميكالى فى نيسابور ، والشار فى سجستان ، والصاحب

فى أصفهان ، وعضد الدولة فى شيراز ، وطوّف بديع الزمان الهمذانى فى خراسان وسجستان وأفغانستان ، وكانت حياة المتنبى قاسما مشتركا بين العراق والشام ومصر وفارس .

هذه الحياة المتجولة المغامرة كانت شيئا مألوفا ومطردا ، وأحدثت نشاطا عظيما فى تبادل الأفكار والآراء وانتشار المذاهب ، واحتفظ للغة الأدب بطابعها الفصيح ، ويشير المقدسى وهو رحالة من القرن الرابع الهجرى ، واهتم كثيرا بالظواهر اللغوية إلى أن أسمى درجات العربية كانت فى فارس ، لأن الناس هناك يبذلون جهدا عظيما فى دراستها ، " فهم يتكلفونها تكلّفا ، ويتعلمونها تلقفا " .

وقد نجم عن انتشار اللغة العربية ثراء إمكاناتها فى التعبير عن شتى الأغراض والمعانى والأفكار ، وارتقاؤها فى الأخيلة والأساليب والتعبير ، واستطاعت أن تجلو المعانى الدقيقة التى تطلبها ارتقاء العلوم والفنون ، وأن تستخدم الحجج العقلية والبراهين الفلسفية ، وتجردت ألفاظ كثيرة من معانيها القديمة ، وأصبحت تدل على معان جديدة ، خاصة بالعبادات أو السياسة أو الحرب أو مصطلحات العلوم والفنون ، واقتبس العرب إلى جانبها للأغراض نفسها ألفاظا من لغات أخرى كالفارسية بخاصة ، ثم السريانية واليونانية ، بعد أن عرّبوها وصقلوها بمناهج اللسان العربي .

● ● ●

أنزلت الأمم الإسلامية كلها اللغة العربية منزلة سامية ، لأنها لغة القرآن والسنة ، المصدرين الأساسيين للتشريع الإسلامى ، والذين لايتكلمونها يحفظون القرآن أو أجزاء منه لأداء عبادتهم ، وكثيرا مايعرفونها إلى جانب لغتهم الأصلية

انتشرت اللغة العربية فى أفريقيا في جنوب الصحراء فى زمن مبكر جدا ، وحتى قبل أن يبلغها الإسلام ، حملها التجار معهم ، وأذاعوها فى نطاق محدود

قد لايتجاوز الأسواق الرئيسية في المدن الكبرى ، ولكنه هام ومؤثر ، فلما جاء الإسلام ثبت أقدامها ، فظهرت المدارس القرآنية ، واهتم بها المجتمع الأفريقي ، يرسل إليها الأطفال بنين وبنات ، ولم تكن تختلف تقريبا عن بقية المدارس الشبيهة بها فى أى بلد إسلامى ، فطرق التدريس تقليدية ، وتتمتع بحرية واسعة وفى استطاعة أى إنسان أن يفتح مدرسة أو كُتّابا أو خلوة أو مصرية ، ومدلولها جميعا واحد ، وإن اختلفت الأسماء حسب البلد الذى تقام فيه هذه المؤسسة التربوية البدائية ، يقيمها أهل الحى ابتغاء مرضاة الله ، وقد نجد تشجيعا من الدولة ، وكان كبار رجال الدولة علماء وأساتذة ، ويجعلون من بيوتهم مدارس يتوافد عليها الراغبون فى العلم . ويبدأ الكُتاَب غالبا بأن يبدأ المعلّم بالتدريس لأبناء عشيرته وأصحابه ، ثم يقبل كل من يجئ إليه ، وخلال حفظ القرآن يتعلم الأطفال شيئا من لغاتهم المحلية قراءة وكتابة .

وقد بلغت العربية فى جنوب الصحراء مبلغا عظيما ، وأصبحت اللغة الرسمية في نيجيريا علي امتداد القرن التاسع عشر الميلادى ، وعرفت عددا من الشعراء المجيدين ، والكتاّب الناثرين والمؤلفين ، وكان هذا الشعر موضع دراسة جادة فى الجامعات المصرية .

غير أن العربية تأثرت بعض الشئ بعوامل البيئة المختلفة ، فأصاب نطقها بعض التحريف ، تبعا لصعوبة نطق أصواتها أو سهولتها . فهناك أصوات توجد فى لغة الهوسا ، ولايجدون أية صعوبة فى نطقها وهى : أ ب ت ج د ر ز ش ك ل م ن ه و لا ى . وهناك حروف عربية توجد فى لغة الهوسا ولكنها تنطق بطريقة مختلفة ، هى : ط غ ف ق ، وحروف عربية لا توجد فى الهوسا أصلا ، وهى : ث ح خ ذ ض ظ ع ص .

وفى هذه المجموعة الأخيرة يقع الخطأ كثيرا لصعوبة نطقها ، أولعدم التعود عليها ، إلى جانب الأخطاء الفاشية عن تقارب بعض الأصوات فى مخارجها ، ويشترك فيها الأفريقى مع غيره ممن يتكلم العربية ، ،والخطأ فى النطق يؤدى إلى

الخطأ فى الإملاء ، وبخاصة فى المدارس ، فهم ينطقون الثاء سينا ، والذال زايا والصاد سينا ، كما يفعل العامة وأنصاف المثقفين فى بعض أنحاء الوطن العربى والحاء عندهم تصير هاء ، وتصبح الخاء كافا أو هاء ، والضاد لاما أو دالا أو راء والعين همزة .

وثمة ظاهرة أخرى تتعلق بالنطق ، وعند من يتكلمون الهوسا بخاصة ، هى تحريك أواخر الكلمات العربية كلها ، فى الوصل والوقف على السواء ، لأن ألفاظ الهوسا تنتهى دائما بحرف لين ، ومن هنا فهم يحركونها حتى ولو كانت أسماء ، يقولون : محمدو ، وأحمدو ، وشيخو بدل : محمد و أحمد وشيخ .

وكذلك تركت لغة الهوسا، ولها خصائصها النحوية والتركيبية ، أثرها فى اللغة العربية ، فتركيب الجملة فى الهوسا يخضع - مثلا - لقاعدة ثابتة لاتتغير ، ولايمكن الخروج عليها وهو : الفاعل ، فالفعل فالمفعول . ومن هنا فالذين يكتبون بالعربية منهم يكثرون من استخدام الجمل الأسمية لأنها أقرب إلى لغتهم الأم ، ومن استخدام حروف الجر فى غير موضعها أو استبدالها بحروف أخرى ، أولا يؤتى بها مع أن القاعدة العربية تتطلبها .

وتسود اللغة العربية بين غالبية المسلمين فى الحبشة ، وحافظوا عليها محافظة شديدة باعتبارها لغة القرآن ، واستطاعوا فيما قبل القرن العشرين أن يقيموا بينهم وبين الدول الإسلامية المجاورة روابط ثقافية واقتصادية وثيقة كاليمن والسودان والحجاز ، ومع مصر بخاصة ، وقد ضم الأزهر رواقا شهيرا يسمى رواق الجبرتية ،كان مخصصا للطلاب القادمين من شرق أفريقيا بعامة ، وللطلاب الأحباش بخاصة ، وكثير من الأحباش الذين درسوا فى الأزهر عادوا إلى بلادهم وتولوا المناصب الدينية من قضاء وإفتاء ، وكانوا موضع إكبار وإجلال من مواطنيهم .

وقد عمل الاستعمار الأوروبى بقوة على منع انتشار اللغة العربية ، وفى التهوين من شأنها فى كل المناطق التى خضعت له مباشرة ، أو مارس عليها

نفوذا كبيرا ، كما فى جنوب السودان ، وأحيانا يحملون على اللغة العربية ، ويتهمونها بأنها ليست لغة علم ، وأن ألفاظها لن تمدّ متكلميها ومستخدميها بالكلمات التى تتطلبها الحضارة الحديثة ، وأنه خير للدولة الأفريقية التى لاتسود فيها العربية سيادة كاملة أن تستعير لها لغة أوروبية تتخذها لغة رسمية . ومن جانب آخر عمل على تجميد تدريس اللغة العربية ، والعودة به القهقرى إلى عصور التخلف ، ولم يتح للقائمين عليه أن يتقدموا أو يصيبوا شيئا من طرق التدريس الحديثة ، ومع ذلك أهمل فى الوقت نفسه المدارس القرآنية ، ودفع بها إلى الانكماش والتلاشى .

لكنها مظاهر ارتبطت على أية حال بالاستعمار ، والأمل أن تختفى فى عهد الاستقلال ، وقد بدأت فعلا نيجيريا فى الاهتمام باللغة العربية اهتماما عظيما ، والمطلوب من الشعوب العربية أن تعاونها وغيرها ، ولو فنيا ، فى هذا المجال .

● ● ●

فاذا اتجهنا إلى الشرق الأسيوى فان معلوماتنا عن انتشار اللغة العربية فى العصور الأولى محدودة للغاية ، فقد تبعت الإسلام ، وكانت وراءه على بعد خطوات من وصوله دائما ، واهتم المؤرخون - كما هى العادة - بالأحداث العسكرية إن وجدت ، أو مظاهر الإسلام فى البلاد التى بلغها ، وقلما يعنون بالمراحل التى قطعتها اللغة العربية فى انتشارها وصراعها وانتصاراتها ، وتجئ أفكارنا حول هذه القضية معتمدة أساسا على إشارات قليلة متناثرة فى كتب التراجم والطبقات والتاريخ .

كان الدين الإسلامى أساس التعليم ، وكان هذا بدوره يرتكز على اللغة العربية ، ويذكر الرحالة ابن جبير ، المتوفى عام ٦١٤ = ١٣١٧ ، أنه شاهد الأطفال فى الهند يحفظون القرآن الكريم ، ويتعلمون الخط من خلال الشعر والأمثال العربية ، ولايستخدمون الأيات القرآنية فى تدريب الصبية عليه ، احتراما لكلام الله . وهكذا حفظت اللغة العربية الفصحى ، رغم أنها لم تكن

لغة البلاد ولا لغة الحكومة ، وكانت الكتب المتصلة بالتفسير والحديث والفقه والعقائد والتصوف باللغة العربية ، وبخاصة أنها لم تكن ترجمت إلى الفرنسية حتى ذلك الوقت . ومن جانب آخر قدم لنا شبه الجزيرة الهندية كوكبة عظيمة من كبار العلماء فى مجالات اللغة العربية و العلوم الإسلامية المختلفة .

ونلتقى بها فى سومطرة وجاوة وقد كتب بها الكثير من شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الإسلامية الجميلة على شكل نباتات وأزهار مكوّنة من تداخل الكلام، وتستخدم التاريخ الهجرى ، ودوّن على بعضها أبيات من الشعر العربى ، فقد حمل شاهد قبر يعقوب ابن عم الملك الكامل ، وكان داعية أسلم على يده كثيرون من أهل سومطرة الغربية ، وتوفى عام ٦٣٠ = ١٢٣٢ ، البيت التالى :

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها   لكان رسول الله حياً وباقيا

ووجد منقوشا على قبر الملك الصالح المتوفى عام ٦٩٦ = ١٢٩٦ ، الأبيات التالية ، وهى لأبى العتاهية :

إنمـــا الدنيـــا فنـاء   ليس للدنيـــا ثبـــوت
إنمـــا الدنيـــا كبـــيت   نســـجته العنكبـــوت
ولقد يكفيـك منهـــــا   أيهـــا الطـالب قـــوت
ليس إلاّ من قليـــلٍ   كل من فيـها يمـــوت

وكان يمكن لازدهار العربية أن يمضى قدما فى هذا الجانب من آسيا ، وما كان ممكنا أن تقف فى طريقها اللهجات المحلية وهى عديدة ، وغير ذات حضارة أو ثقافة ، ولكن سيطرة الأوروبيين من برتغاليين وإنجليز وهولنديين وفرنسيين على الطرق البحرية ، وسيطرة الروح الصليبى على حياتهم وتصرفاتهم أوقف تبادل المعرفة والعلوم بين الشرق الأسيوى والبلاد العربية ، فضلا عن محاربتهم الإسلام ووسائله وثقافته هناك ، ومن بينها اللغة العربية بطبيعة الحال ، ثم ضعف العالم العربى ، وبخاصة مصر ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وظهور

الأتراك العثمانيين قوة عالمية تقود مصائر الإسلام ، وكان الإسلام دينا يعنيهم حقا ، أما اللغة العربية فلم يكن يهمهم أمرها إلا قليلا أو لاشئ .

● الأدب العربى :

شاهد قبر يعود إلى القرن الرابع الميلادى ، وكُتب فى حروف نبطية ، أقدم ما وصلنا من اللغة العربية التى نتكلمها الآن ، وفيها نَظم الشعر الجاهلى ، ونزل القرآن الكريم ، أما الشواهد التى تعود إلى القرن السادس الميلادى فتعاصر ازدهارا شعريا لاسبيل إلى إنكاره ، وليست هناك مبررات علمية للشك فيه ، ولو أن هذا الشعر دُوِّن فيما بعد ، وأصابه شئ من التحريف أو النحل ، شأن كل الآداب التى ظِلت تروى شفاها زمنا طويلا .

وهذا التراث العظيم لعرب الجاهلية ربما ما كان وصلنا على النحو الذى جاء فيه ، ثراء ودقة وتنوعا ، لولا الإسلام ، فهو الذى حمل العرب تاريخيا وثقافيا إلى الصفوف الأولى من العالم المعروف يومها ، واتخذ من العربية لغة العقيدة الجديدة ، وسيلة التعبير عن الحضارة الناشئة .

كان الزهو القومى من جانب ، وتفسير لغويات القرآن والاستعانة فى ذلك بالشعر من جانب آخر ، وراء قيام العرب بتدوين أقدم الشعر ، وتسجيل ظروفه ، واللحظات التاريخية التى ارتبطت به ، وحمل الإسلام معه اللغة العربية حيث مضى ، وقضت على اللغات المتكلمة فى البلاد التى فتحها فى زمن يسير ، فأتت على الثقافة اللاتينية فى شمال أفريقيا و إسبانيا ، وعلى الإغريقية والقبطية فى مصر ، والإغريقية والسريانية فى سوريا و العراق ، والفارسية فى العراق وإيران . وفى الوقت نفسه تمثلت العربية خير ما فى هذا الحضارات ، واستقر الإسلام عقيدة ، والعربية لغة ، فى أغلب المناطق المفتوحة إلى الأبد ، وأصبحت العربية على امتداد القرن الثامن الميلادى اللغة الرسمية لكل الدولة الإسلامية ، من الإطلنطى حتى آسيا الصغرى ، وعبر الزمن خسر الإسلام إسبانيا، وانحسرت العربية عن إيران ، وقد واصل الإسلام زحفه فيما بعد القرن

العاشر الميلادى منتصرا فيما وراء إيران شرقا وشمالا ، لكن العربية لم تستطع أن تواكبه فى انتصاراته ، وأن تظل لغته الوحيدة ، وإنما واكبتها لغتان سوف تلعبان دورا هاما فى نشر الإسلام ، وسوف يكون لهما دور فى لغته ، وهما : الفارسية والتركية ، ومع ذلك ظلت قاعدة اللغة العربية الأساسية من المغرب حتى إيران ثابتة ووطيدة ، رغم الجزر اللغوية الصغيرة التى تناثرت هنا أو هناك .

لكن عالمية اللغة العربية أداة تعبير لم تحدث دفعة واحدة ، وخلال قرن كامل من الزمان بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام عام ٦٣٢م ، أو خلال ما ندعوه بالعصر الأموى إذا شئت (٦٦٠ - ٧٥٠م) أخذ الأدب العربى طابعا قوميا ، فالقرآن درة العربية ، وتطور الشعر فى الجزيرة العربية وخارجها ، وخطى النثر الأولى يقوم بها أناس ينحدرون من أصول عربية خالصة إجمالاً، رغم الموالى الذين عرفتهم الحياة العربية فى تلك الأيام .

وكان مجئ العباسيين فى القرن الثامن الميلادى على حساب الأرستقراطية العربية اجتماعيا وسياسيا ، فاختفى احتكارها للحياة الأدبية ، وبدأت الشعوب التى أسلمت تأخذ بحظ وافر من الحياة الفكرية فى المجتمع الجديد ، فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، غير أنهم فى ممارستهم هذه كانوا يحملون ذكرياتهم الثقافية القديمة ، وربما خالطهم الزهو أحيانا فانتخوا بأنهم ليسوا عربا ، ولكن حتى هذا كانوا يعبرون عنه بالعربية ، وكثيرون من الذين تعود أصولهم البعيدة إلى الفرس أو الإغريق أو القوط أو اللاتين ، لم يعودوا مجرد مواطنين عاديين ، وإنما سوف نلتقى بهم أساتذة كبارا ، فى مقدمة أعلام الحضارة الإسلامية العالمية ، وإن عبروا عن ذلك بالعربية وحدها ، فأبو نواس كان فارسيا ، ومثله ابن المقفع محيى النثر العربى ، وسيبويه كما يهدى إليه اسمه وهو من أكبر النحاة ، وابن سينا الفليسوف ، وكان البيرونى العالم من أصل إغريقى ، ومثله ابن الرومى الشاعر ، وياقوت الجغرافى ومؤرخ الأدب ، وكان ابن حزم الإمام والعالم والأديب غير عربى ، ومثله الزجال العظيم الفاجر ابن

قزمان ، وغير هؤلاء كثيرون .

وقد ترك الإسلام بصماته قوية واضحة فيهم جميعا ، وتمثلوا كلهم اللغة العربية بعمق ، أو تمثلتهم هى فأنستهم لغتهم الأم ، وانمحى كل انتماء غير إسلامى فى أعماقهم ، فكلهم مواطنون مسلمون طيبون ، يرون فى العربية أداة تعبير عن مشاعرهم وأفكارهم ، وكان انبعاث الفارسية لغة وطنية فى آخر القرن العاشر الميلادى ، وأول القرن الذى يليه ، بعد أن أتت عليها العربية قبل ذلك بقرنين من الزمان ، الاستثناء الوحيد فى هذه القاعدة ، انبعث فى الشعر أولا ، ثم النثر الفنى والتاريخ ، وانتهى الحال بالانفصال نهائيا بين الأدبين العربى والفارسى ، دون أن يعنى ذلك تحرر أىّ منهما من التأثيرات المتبادلة ، وظل تأثير العربية قويا بلا حدود ، وبخاصة فى المجال الفقهى والتشريعى .

فى العصر الأموى يمكن أن نتحدث عن أدب عربى خالص ، ولايمكن أن نقول الشئ نفسه عن العصر العباسى، فقد أصبح الأدب العربى عالميا ، وانفتحت مجالات البحث والإبداع والتجديد واسعة عريضة لتسع كل الأذواق والعقليات ، وشتى مجلات الفكر والعلم ، مما لايعنينا هنا باستثناء الأدب ، وسوف نكتفى باشارات هادية تعين من يريد أن يواصل الطريق .

إن ضعف الخلافة وتمزقها تدريجا ، وتفتت الوحدة السياسية الإسلامية ، وقيام أسر مالكة صغيرة فى مناطق مختلفة ، ترتبط بالخلافة شكلا ، وتتبعها اسماً فى الغالب ، وتراجع العنصر العربى أمام الفرس والترك فى الشرق لم يقف عائقا فى طريق وحدة الثقافة والفن والعلم وتطورها ، وهذه القرون الخمسة تمثل العصر الذهبى للأدب العربى ، وإنما جاءت أزمة العروبة الكبرى فى القرن الثالث عشر ، فقد شهد هذا القرن إعصار المغول المدمر ، وسقوط الخلافة فى المشرق ، وانحسار الإسلام فى إسبانيا فى مملكة غرناطة الصغيرة المحاصرة بالأعداء من كل جانب ، وإذا كان تحكما أن نرد جمود الفكر إلى الأسباب الخارجية وحدها ، فمن الصعب أيضا أن نربط بداية السقوط الثقافى العميق بهذه الأزمة ، وبخاصة الجوانب

الأدبية والعلمية ، وبدأت تجتاح العالم العربى ، ومعها بدأت مرحلة الاحتضار ، وظل راقدا فيها طوال خمسة قرون ، أى إلى مطلع القرن التاسع عشر حين بدأت بواكير النهضة فى مصر ، ومع ذلك فان هذا العصر يقدم شخصية تفوق وحدها جل الذين سبقوه ، بأصالتها المبدعة ، وفكرها الثاقب ، وأعنى به ابن خلدون العظيم ، المؤرخ وفيلسوف التاريخ ، وعالم الاجتماع ، وكان نسيج وحده فى صحراء ممتدة من الجدب الفكرى والاحتضار الروحى الكامل لفّت تلك القرون .

كل هذا الأدب ، من الشعر الجاهلى فى القرن الخامس الميلادى حتى أيامنا هذه ، يستخدم أساسا لغة واحدة ووحيدة ، محتفظة على نحو لامثيل له فى التاريخ بقواعدها ومعجمها ، بطريقة لايمكن أن يقال معها أن نثر اليوم أو قصائده تمضى بعيدا عما كانت عليه من ألف ونصف ألف من الأعوام أو يزيد .

● **الشعر الجاهلى :**

لقد أدهشت النقاد لغة الشعر الجاهلى الواحدة السوية ، قديما وحديثا ، وأتعبت النحاة وهم يهرولون هنا وهناك كى يلتقطوا خصائصها ، ولا يفسر هذه الروعة القول بأنها تعرضت للصقل فيما بعد ، والأقرب أنه كانت هناك وراء اللهجات القبلية لغة أدبية مشتركة، ربما كانت لهجة مجموعة من القبائل متشابهة ، تلك التى التقت فى صحراء نجد فى القرن الخامس الميلادى تحت زعامة قبيلة كندة ،وإلى هذه المجموعة ينتمى أقدم الشعراء العظام وأشهرهم فى الجاهلية ، والنموذج الأعلى لها لغة القرآن الكريم وفى ظله تطور الأدب العربى ، على أننا يجب ألا نبالغ فى الفرق بين اللهجات واللغة الأدبية ، فان هذه لم تكن تبتعد عن تلك إلا بمقدار ما يبتعد أدب أى لغة فى أية حضارة عن لهجتها العامية .

كان الشعر الجاهلى صادقا فى التعبير عن المجتمع العربى قبل أن يعطيه الإسلام عقيدة خالصة ووجهة جديدة ، عن حضره وبدوه ، فى سلمه وحربه ، ويعودأقدمه كما أومأنا من قبل إلى نهاية القرن الخامس الميلادى ، وهو الذى

قيل في حرب البسوس أو قبلها بقليل ، ونلتقى به كاملا فى بنائه وصوره وعروضه ، مما يشى بأن بدايته تعود إلى قرون عديدة خلت ، لأن هذا الوزن الدقيق ، واللغة المحكمة ، والتصوير البارع ، لايمكن أن يكون بداية ، ولابد أنه خضع لقانون النشوء والارتقاء ، ومر فيها بأطوار اضطرب خلالها وزنا ولغة قبل أن يبلغ هذا الحد من الكمال .

وقد ظل الشعر يروى شفاها جيلا بعد جيل إلى بداية عصر التدوين فى مطلع العصر العباسى ، وخضع فى مرحلة انتقاله من الأذن إلى العين ، ومن الفم إلى الورق ، إلى ما يخضع له كل نص أدبى فى أى مكان أو أية لغة ، تبعا لضعف الذاكرة أو قوتها ، واستجابة لعوامل أخرى سياسية ودينية وقبلية أو ذوقية وجمالية خالصة ، وبخاصة أن بعض الرواة كان سئ السمعة ، وبعضهم الآخر ليس دائما فوق مستوى الشبهات ، ولكن ذلك لايمس الجانب الأكبر الذى وصلنا منه فى شئ .

ويلفت النظر كثرة ما صدر عن الشعرء في هذه الحقبة القصيرة ، إذ هو نتاج أقل من قرن ونصف القرن من الزمان ، من شعراء جلهم لم يبرح الجزيرة العربية ، وقلة رحلت وخالطت المدنية الفارسية فى الحيرة ، أو البيزنطية فى الشام ، أو هما معا ، وتأثرت بكلتيهما ، وكانت جمهرة هؤلاء الشعراء من الوثنيين ، وقلة منهم من اليهود أو النصارى ، وليس فى شعر هؤلاء إلا آثار باهتة لما كانوا يؤمنون به.

وكان شعر المعلقات على اختلاف فى عددها وأصحابها وقصائدها أروع ما خلفه لنا هذا العصر ، وإلى جانبهم الشعراء الصعاليك ، فقراء يعيشون على السلب والنهب ، كالشنفرى وتأبط شرا ، وجاءت قصائدهم صدى أمينا لحياتهم نفسها ، يصفون البيداء والانتقام والمغامرات وسرعة العدو ، والصحراءومسالكها، وغير ذلك مما تقتضيه حياتهم .

وقد ذهب كل شاعر بجانب من الشهرة والإجادة ، فكان امرؤ القيس فى شبابه

بهجا محبا للمتع واللذائذ ، مجرورا محبطا فى أخريات حياته ، وعنترة فارسا مغوارا ، والشنفرى عداء بدويا صعلوكا ، وعدى بن زيد هادئا متأملا ، وعبيد بن الأبرص صرخة ألم عالية ، والخنساء مطحونة بين الأسى والثورة ، والبكاء والإعجاب ، وكان النابغة شاعر البلاط والسياسة والاعتذار ، وذهب الأعشى بالغزل والطبيعة والخمر . إنها أصوات متفردة ، لكل واحد منها مذاقه المتميز ، فى نطاق القصيدة الجاهلية ، وإيقاعها المتشابه .

وموضوعات الشعر الجاهلى ثابتة ، ومحددة تقريبا ، حتى عندما تمس الجانب الإنسانى ، فهى تدور حول الحب والموت والطبيعة والإنسان ، ولاتوجد فيه شخصية نسائية لها وجود حقيقى رغم الحديث الطويل عن الحب ، وإنما هى صور خيالية رسمها الشعراء فنا فى إصرار عجيب ، وهم يعبرون فى حماسة أكبر عن مشاعر القبيلة وأخوة الدم ، يمدحون الأبطال ، ويبكون القتلى ، وترسم لنا قصائدهم سلبا فى الرثاء وإيجابا فى المدح صورة دقيقة للفضائل العربية السامية كما يحبونها ويقدرونها .

يشعر العربى الجاهلى بالعالم المرئى فى قوة ، وفيه ركز بصره ، ومن هنا شغل الوصف مساحة واسعة من شعره ، وبتأثير منه فى كل ما أتى بعده من شعر ، وهو فى بعض جوانبه أكثر تمثيلا ودقة وتصويرا من غيره ، وصوره فى الأعم الأغلب منها بصرية ، وكثيرا ما تجئ الملاحظات متشابهة ، ومشتركة بين أكثر من شاعر ، ففى الطبيعة يدور حول الليل ونجومه ، والشمس وسطوعها ، والنهار القائظ ، والرحيل تحت السحب المرعبة ، أو الأمطار الكاسحة ، والواحات المخضرة ، وقليلا ما التفتوا إلى شروق الشمس أو غروبها .

واسترعى اهتمامهم من الحيوان وحشيا أو مستأنسا الحصان والغزال والحمارالوحشى ، والبقرة الوحشية ، ومن الطير القطا والنعامة ، والجمل قبل هذا كله ، ووصفوه تفصيلا ، واستغرق وصفه جانبا كبيرا من شعر الوصف فى القصيدة الجاهلية ، وكان اهتمامهم بالأسد قليلا ، ومثله الذئب والثعلب والحية ،

ويبدو أن بيئات معينة هى التى التفتت إلى الحيوانات الأخرى ، واختص الهذليون بوصف عالم النحل دون بقية شعراء الجاهلية .

وتتضمن القصيدة الواحدة عدة موضوعات ، يعرض الشاعر لبعضها عجلا ، وللبعض الآخر متأنيا : المقدمة الطللية حيث يشبب بالمرأة ويصف جمالها ، ويقف حيث حلت ، يبكى الدمن والآثار الدوارس ، ويصف فرسه أو ناقته التى يرحل عليها ، سرعتها ونعومة سيرها ، ويشبهها بما يعرف من حيوانات وحشية ، وقد يصف ما مر عليه من جبال ووهاد ، وسهل وحزن ، ثم ينتقل إلى غرضه من القصيدة ، فخرا أو هجاء أو وصفا أو غيرها ، دون أن يكلف نفسه عناء الربط بين أجزائها المختلفة ، والأشياء التى تسبق الغرض قد لاتكون حقيقية ، وإنما هى فى الأعم الأغلب من مخيلة الشاعر وتصويره ، يلونها كما يتطلب فنه ، وتكمن قيمته شاعرا فى مدى إجادتها .

كان رجال البلاغة والنقاد القدامى يعتبرون الشعر الجاهلى نموذجا لايعلى عليه لغة وفنا وقواعد وتصويرا ، ومع الاعتراف بجمال القصيدة الجاهلية وأهميتها نلحظ أن الأحكام العامة تؤدى إلى الخطأ ، وهو ما لحظه بعض النقاد القدامى أنفسهم .

● عصر صدر الإسلام :

مع الإسلام تغيرت أشياء كثيرة ، فقد جاء الدين الجديد بتعاليم تغاير العقلية الجاهلية ، وترسم للحياة مثلا غير تلك التى عاشوها ، فلا فخر بالأنساب أو الأموال أو البنين ، وإنما بالعمل الصالح وحده ، ولا قتال بين قبيلة وقبيلة ، وإنما بين الإسلام والكفر ، وأولئك وهؤلاء ينتمون إلى قبائل متعددة ، ولهذا أخذ الشعر لونا جديدا ، فهو يعتز بالدين الجديد ، وإن لم ينس القديم تماما ، لأن العرب لم يستطيعوا أن يتخلوا عن موروثهم دفعة واحدة .

وتوقف الشعر هنيهة لأن دواعيه القديمة فقدت تأثيرها ، ولم تتكون بعد

الدواعي الجديدة التى تتفق مع الإسلام ، ومن هنا كان الشعراء المخضرمون أقوى شعرا فى جاهليتهم عنهم فى إسلامهم ، وشارك كبارهم فى الفتوحات الإسلامية على أيامهم ، مثل متمم بن نويرة ، وأبى محجن الثقفى ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، وأبى ذؤيب الهذلى ،وهذا الأخير قاتل في الصفوف الأولى فى فتوحات مصر وليبيا وتونس ، ولكن ديوانه الصغير ، واكتُشف أخيرا ، لايعكس شيئا من هذا ، وتدور قصائده حول رثائه لأبنائه الخمسة الذين اغتالهم الطاعون ، وترسم لوحات جيدة للحمار الوحشى ، والمحارب الشجاع ، وتجئ فى بناء جاهلى قوى ، ولاتعكس أى صدى إسلامى . ويستحيل علينا الآن أن نميز فى كثير من الأحيان اعتمادا على الشعر وحده ، دون العودة إلى المصادر التاريخية ما إذا كان الشاعر جاهليا أو ينتمى إلى عصر صدر الإسلام .

إن الإسلام ، وهو ثورة روحية وفكرية عظيمة ، لم يغير فى أعماق هؤلاء الشعراء غير القليل ، وأظهرت القصيدة الجاهلية كم هى عميقة البعد فى روح الشعب العربى ، ولكن من المؤكد أيضا أنها فارقت فى العصر الإسلامى كثيرا من مظاهرها الوثنية القديمة .

حتى إذا بدأ عصر الفتوحات فى زمن الخلفاء الراشدين نشأ ما يمكن أن نسميه شعر الفتوح ، ولكن ما يتحدث عنها لايتجاوز أبياتا مرتجلة ، فى مناسبات معينة ، من أناس مغمورين ، أكثر منه عند الشعراء المحترفين .

وتمثل النثر فى هذا العصر كأقوى ما يمكن فى القرآن الكريم ، فهو كتاب أدبى بقدر ما هو دينى ، إذ هو آية فى البلاغة ، لايجرى على وزن الشعر ، وليس سجعا بالمعنى الدقيق ، وسميت أواخر اياته فواصل عوضا عن القافية فى الشعر أو الحروف المتحدة فى السجع ، أو بتعبير ابن خلدون : " أما القرآن وإن كان من المنثور إلا إنه خارج عن الوصفين ، وليس يُسمى مطلقا ولامسجعا ، بل تفصيل آيات تنتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولاقافية

ويسمى آخر الآيات منها فواصل ، إذا ليست أسجاعا ولاهى قوافى ... " .
ويراعى القرآن هذه الفواصل فيؤثر تأثيرا بليغا ، وفيها لايسير على قواعد السجع المألوفة من التزام تساوى الفقرتين ، فقد تكون إحداهما قصيرة والأخرى طويلة ، وأحيانا لاتتحد الحروف الختامية .

وتتنوع أساليب القرآن بين لين وشدة ، وترغيب وترهيب ، وعد ووعيد ، انسجاما مع السيرة النبوية ، وتوافقا مع حال المسلمين والمشركين فى أوقات نزول الآيات ، ويتجلى ذلك واضحا إذا أمعنا النظر فيه حسب ما روى من ترتيب النزول ، وهو يختلف عما رَتب به المصحف ، فهناك الآيات التى نزلت بمكة ، والآيات التى نزلت بالمدينة ، والأولى محورها تأييد الرسالة ، والدعوة إلى التوحيد ، ومحاربة الشرك والأوثان ،إثبات البعث ، وأما الآيات المدنية فاحتوت أصول الأحكام من عبادات ومعاملات ، وتشمل الشريع الدينى من صوم وحج وزكاة ، والاجتماعى من زواج وطلاق وميراث ، والسياسى فى قتال من يناهض الدعوة ، ويقف فى طريق الإسلام .

ويتميز القرآن في العهد المكى بقصة الإسراء والمعراج وكثير من قصص الأنبياء ، مثل إبراهيم ويوسف وموسى ومريم وعيسى ، وقصصا نصرانية كقصة أهل الكهف ، وفيها يعنى بمواضع العظة والعبرة أكثر مما يعنى بذكر الأشخاص والتواريخ .

وقد تدفق العرب على البلاد التى فتحوها ، ووقفوا على عوالم جديدة ، وحضارات كانوا يجهلونها أو لايعرفون عنها غير القليل ، فاستفادوا منها ، وأقبلوا عليها نهمين ، و تمثلوها تدريجا ، وغيّر ذلك من طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية نفسها ، فقد جاءت الفتوح بالمال والموالى والإماء من الفرس والروم وغيرهما ، وتجاورت فى مكة والمدينة حياة الدين والزهد والعلم وحياة الترف والغناء والموسيقا ، وهو اتجاه سوف يعمق ويتأكد خلال العصر الأموى .

• العصر الأموى :

مع قيام الخلافة الأموية انتقل مركز الثقل السياسى إلى دمشق ، ومعها بدأ عصر جديد من ازدهار الحياة الثقافية ذو طابع خاص ، ويجئ فنيا فى منطقة وسط بين الجاهلية والإسلام .

أطلق المستشرق الألمانى الكبير فلهوزن على العصر الأموى فى دراسته عنه اسم " الرايخ العربى " ، فقد ثبّت الأمويون فى السنوات التى حكموها ، وقاربت التسعين ، مكانة الشعب العربى ، وهو الطليعة الإسلامية ، فوحدوه سياسيا ، وأقاموا له دولة ، وقادوه فى توسعه الثقافى ، واستقبل الخلفاء الشعراء فى بلاطهم ، وأفسحوا لهم صدورهم ، وسخوا عليهم فى العطاء ودفعوهم إلى التفاخر والتهاجى ، وازدهر شعر المناسبات دينية وسياسية ، ولأن العرب الذين مضوا مع الفتوح استقروا فى الأمصار المفتوحة ضعف شأن الشعر فى الجزيرة العربية ، باستثناء مكة والمدينة ، وسكن فحوله الذين احتذوا عمود الشعر الجاهلى العراق ، وتدفقت فى شرايينه دماء جديدة قوية واتسع مجال القول أمام الشعراء على نحو لم يعرفوه من قبل .

وإذا كان الإسلام دين ودولة فأى شعر سياسى لابد أن يمس الدين من قريب أو بعيد ، والعكس صحيح أيضا ، ومن ثم فنحن نلتقى بالعنصرين ممتزجين طوال العصر الأموى ، باستثناء فن الهجاء والصراع القبلى ، فقد ظل كلاهما جاهلى الطابع والأفكار ، وفيهما أبدع عدد من كبار الشعراء الأمويين . وفيما عدا هذين الموضوعين فان الجميع من أمويين وشيعة وعباسيين ، ومرجئة ومعتزلة وخوارج ، خلطوا فى مواقفهم بين المفاهيم العقيدية والمواقف السياسية والمبادئ الدينية ، وانعكست الحياة فى كتب التاريخ نفسها ، يأتى به المؤرخون شاهدا على الأحداث التى يوردونها ، وهى أشعار يمكن فى ضوئها كتابة التاريخ الأموى فى خطوطه العريضة ، بما فيها الفتوحات الإسلامية شرقا ، والصراع مع الخوارج، والحركات المناهضة للعرب إجمالاً أو الأمويين بخاصة .

غالبا ليست هناك سمات فنية عالية فى القصيدة الدينية ، لاعند الكميت ولاكثير عزة ولا السيد الحميرى ، فيما صوّروه عن الإمام المختفى " عند نبعين من عسل وماء " ، ولا الحوار بين المرجئة ، وعلى رأسهم ثابت بن قطنة الشاعر الشجاع الرقيق ، والشهير بمغامراته ضد الترك فى آسيا الوسطى ، وبين خصومهم ، ولكن إذا اردنا أن نجد أصواتا شعرية عالية وراقية فى هذا الجانب فعلينا أن نلتمسها عند الخوارج ، هؤلاء المسلمون الأتقياء الذين ارتفعوا بالشعر إلى مرتبة الملاحم البطولية ، وتجاوزوا به الحدود الإنسانية ، فقد اتصفوا بأخلاق صلبة ، ومفهوم بالغ الديموقراطية لنظام الحكم فى الإسلام ، ولم تتوقف ثوراتهم نضالاً عما يؤمنون به فى الفترة الى تعرض لها فى الجزيرة العربية والشام والعراق، وفى حالات كثيرة كان النصر إلى جانبهم ، وقاموا بمغامرات جسور لايكاد العقل يصدقها .

وهم أصحاب مثل عليا لا يتسامحون فيها ، وعلى استعداد لأن يضحوا بالغالى فى سبيل انتصارها ،وأبطال يحتقرون الموت ، واختلط ذلك عندهم بقسوة بالغة ، وهم عرب فى جملتهم ، زهادا ومحاربين وشعراء ، وقد ضاع أغلب شعرهم ، وما بقى منه يعكس حياة روحية عميقة ، وحبا وتعطشا إلى الشهادة ، وتبدو لنا أشعارهم كما لو كتبت بالدم ، وترتفع فنيا فوق أية قصائد سياسية أو دينية عرفها العصر الأموى .

وكان عمد العصر الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل ، يختلفون أشخاصا ومزاجا ويلتقون علاقات ومناخاً ، من خلال التنافس بينهم أدبيا واجتماعيا ، واختلف القدماء : أيهم أفضل ؟ ولم ينته المحدثون فيهم إلى رأى ، وقد اشتهروا بالنقائض ، وعبرها تتناثر الإشارات إلى الأحداث والقبائل والأمجاد والمفاخر والنقائض والهزائم ، والحروب والأيام ، وإذا كانت القيمة الفنية فى الجوانب التاريخية متواضعة ، فانها فى البقية لاتعوزها دقة الوصف ، ولا بلاغة القول ، ولا البراعة فى التصوير .

وعرف العصر الأموى قصيدة الغزل المستقلة ، ولم يعرفها الشعر الجاهلى خارج النسيب الذى يرد فى المقدمات الطللية إلاّ قليلا ، فيما يَنسب إلى المرقش وابن عجلان ، وأما فى عصرنا هذا فأصبحت أصيلة ، وبعامة نحن معها بازاء شخصيات حقيقية ، أسرعت إليها الأسطورة مجملة ومغيرة ملامحها الحقيقة : قيس ولبنى وعروة وعفراء ، وليلى والمجنون ، وكان لقصة هذا صدى عميق فى الأدبين الفارسى والتركى ، ربما أوسع من الأدب العربى .

كان الجديد فى قصيدة الغزل الأموية استقلالها الذاتى ، ومع أن من الصعب الحكم على المقطعات التى وصلتنا فى كتب المختارات ما إذا كانت مستقلة أو منتزعة من قصائد أطول غير غزلية ، لكن المثل الذى يقدمه عمر بن أبى ربيعة ، ووصلنا ديوانه كاملا ، كاف للبرهنة على هذا الجديد ، ولو أن هذا الاستقلال لايعنى أن هؤلاء الشعراء تخلوا عن الغزل التقليدى فى مقدمات قصائدهم الأخرى .

يمكن التمييز بين لونين فى قصيدة الغزل الأموية : الحب البدوى والحب الحضرى ، وكلاهما ولد فى ظروف اجتماعية تختلف عن الأخرى ، ويمثل كلّ جانب شعراء عديدون . فالأولى ، وهى صحراوية ، أكثر وفاء لموروث الشعر الجاهلى ، فهى تعكس العلاقة بين الجنسين فى إطار الحياة البدوية ولكن الجديد فيها فكرة الحب نفسها : عنف العاطفة ، وعفة التعبير ، والتذلل أمام الحبيبة ، والوقوع فى دائرة التناقض والصراع والألم ، ويمثل شعراء بنى عذرة هذا الاتجاه ، وينسب إليهم فيقال : الحب العذرى ، وفى مقدمتهم جميل بثينة ، ومع أننا لانعرف غير القليل عن حياته ، لكن حب بثينة خلده ، وأكسبه شهرة باقية ، نموذجا للعاشق الكامل ، ومثله ذو الرمة وآخرون ، وهؤلاء الشعراء بعامة ، وليس خيرهم فحسب ، هجروا اللغة القديمة ، إلى أخرى أكثر بساطة وسهولة .

لكن قصائد الحب ليست وقفا على البادية وحدها ، فقد ازدهرت القصيدة الغزلية فى البيئة الحضرية أيضا ، فالى جوار الحياة العلمية الجادة والدينية

الخاشعة ، في مكة والمدينة ، قامت حياة أخرى لاهية مصدرها الثراء والبطالة ، وعمادها الجوارى والغناء والموسيقا ، وإليها استسلم عشاق الحياة وطلاب اللذائذ. فأفرزت غزلا له طابعه الخاص ، خصوصية تعود في جانب منها إلى ذاتية قائليه القوية ، وفي جانب آخر إلى المناخ الذى أحاط به ، وباستثناء عمربن أبي ربيعة فلا نعرف للآخرين غير فقرات متناثرة وردت في كتاب الأغانى ، ولكنها كافية لتحديد خصائص هذه المدرسة .

يأتى عمر بن أبى ربيعة في مقدمة شعراء المدرسة الحضرية ، وهو يقف فى الطرف المقابل من الاتجاه العذرى ، يتبع الحُسْن أينما كان ، ولا يقتصر على واحدة ، وكان قرشيا جميلا لاهيا ينتسب فى أسرة عريقة ، وتعرض لأشهر نساء العرب وأجملهن على أيامه ، وكثيرات منهن أعجبن بتغزله، ورأين فى شعره إعلانا عن جمالهن ، والغوانى يغرهن الثناء ، وقصر أغلبه عليهن .

ليس عمر حار العاطفة في غزلياته ، ولا يأخذ الأمور في جدية ، وإنما هى مغامرات غزل يدور حول نفسه ، وشديد الإحساس بها ، يصورها فى لغة بسيطة، وسهلة التناول ، بعيدة عن التقعر ، أمر غير معهود في قصائد هذه المرحلة ، وعَمق طريقة القص التى ابتدعها امرؤ القيس قبله ، وجاء حوارها رائعا فى لغة أقرب ما تكون إلى الحديث العادى .

وكانت الخمريات قد قطعت شرطا أكبر من شعر الغزل فى تحررها من القديم ، منذ الجاهلية مع عدى بن زيد ، وفى عصر صدر الإسلام مع أبى محجن الثقفى ، وتلقت دفعة قوية على يد الوليد بن يزيد ، وسوف تبلغ أوجها فى العصر العباسى على يد أبى نواس ، وقد فشل الوليد سياسيا ولكنه قدّم فى مجال الخمريات والغزل شعرا يتسم بالحداثة ، ففيه عفوية وتكثيف وتركيز وقصر ، فى إيقاع سريع قليل الاستخدام على أيامه ، فى القصيدة الرسمية على الأقل .

لقد سجل العصر الأموى لحظة حاسمة فى تطور القصيدة العربية ، فى الشكل وتنوع المحتوى ، ومهد ذلك لحركة التجديد التي سوف تزدهر فى العصر العباسى

وتعوّد جانب من النقاد أن يردها إلى تأثير العنصر الفارسى وثقافته فحسب ، والحق أن بداياته تعود إلى آخر العصر الأموى ، وفيه تشكلت أصولها ، مهما تكن الروابط الأجنبية التى أسهمت فى ذلك فيما بعد .

وفي العصر الأموى تشكل النثر بخاصة ، وعلى نحو واضح ، ولو أن الشائع أن ذلك يعود إلى العصر العباسى ، ومرد ذلك فيما أرى أن قليلا من الأعمال التى تمت فى هذا العصر ، وأكاد أقول لاشئ ، وصلتنا مستقلة ، ولكن يجب ألا ننسي أن الناثر العربى الأول ، أو الذى كتب فى العربية على أقل تقدير ، والذى نلتقى به فى العصر العباسى ، كابن المقفع أو ابن اسحاق ، وكلاهما من أصل فارسى ، أو أبومخنف ، وهو عربى قح ، بدأوا نشاطهم الثقافى فى نهاية العصر الأموى .

لم ينشأ النثر العربى إذن فى ظلال العباسيين ومواليهم ، وإنما وجدت بذوره الأولى ، فضلا عن القرآن الكريم الذى يعود إلى عصر الرسول ، في العصر الأموى ، ولو أن تفصيلاته لم تتميز خلال هذا العصر القصير نسبيا ، غير أن أحدا لاينكر أن العرب تركوا فيه بصماتهم واضحة ، وجاءت آثارهم أصيلة في تاريخ الأمم ، وقد تجلى أثر ابن إسحاق واضحا بعد ذلك بستين عاما فى أعمال ابن هشام ، وابن مخنف فى أعمال الطبرى ، والذى احتفظ له بجانب من مؤلفاته، ومن لايتذكر شخصية أبى الأسود الدؤلي نصف الأسطورية بوصفه واضع النحو العربى ، وعبد الحميد بن يحيى كاتب آخر خليفة أموى ، والزهرى المحدّث، ومن يعرف هذا لابد أن يعترف أن العرب في العصر الأموى قطعوا شوطا كبيرا فى تطوير نثرهم ، قبل أن يبدأ عصر النهضة في الإسلام ،أى العصر العباسى ، وأعطى هذا الفن انتشارا بلاحد ، ولمعانا بلا حدود .

● العصر العباسى :

استمرت الخلافة العباسية ما يقرب من خمسة قرون ، والخليفة الأول فحسب استطاع أن يحتفظ بوحدة الدولة الإسلامية كاملة ، فقد انفصل الأندلس وجانب

من المغرب مبكرا ، منذ البداية تقريبا ، وتوالى بعده سقوط الأطراف ، مقاطعة وراء أخرى ، وابتداء من القرن العاشر إنحصرت سلطة الخليفة السياسية فى العراق ، وخلال القرون الثلاثة التالية للقرن العاشر أصبحت الخلافة رمزا فحسب وبسطت الأسر الأجنبية التى قامت فى العراق ، إيرانية أو تركية ، حمايتها على الخلافة ، وقبلها كان عبد الرحمن الناصر الأمير الأموى فى الأندلس قد انتزع لنفسه لقب خليفة في الربع الأول من القرن العاشر الميلادى ، وكان الفاطميون فى مصر قد سبقوه إلى الشئ نفسه ، وظلت خلافة الفاطميين قائمة حتى القرن الثانى عشر ، ولم يحل ذلك دون تطلع بقية العالم الإسلامى إلى العاصمة العباسية بوصفها مستقر القيادة الدينية . وقريبا من منتصف القرن الثالث عشر محا المغول بقايا خلفاء الرشيد ، وحولوا بغداد العظيمة إلى مدينة إقليمية بائسة ، وهكذا انتهى عصر تاريخى من أزهى عصور الإسلام ، وأخصبها وأمجدها علي امتداد كل العصر الوسيط .

فى البدء ، وحتى القرن الحادى عشر تقريبا ، تركزت الثقافةفي العراق ، مع إشعاعات مضيئة فى مصر والأندلس والشام وإيران ومقاطعات أخرى فى اسيا الوسطى ، ثم أخذت هذه المقاطعات تزدهر ذاتيا ، وقل التأثير العراقى خلال مرحلة احتضار الخلافة وقد طالت .

لم تكن الحضارة العباسية عربية خالصة ، ولو أن عددا من خيرة أعلامها كانوا عربا أقحاحا ، فقد امتدت على أرض واسعة ، وورثت حضارات عريقة ، وضمت شعوبا مختلفة ، أسهمت فيها بالتساوى ، وأضافت إليها من ثقافتها القديمة ، وأعطتها طابعاً عالميا ، وبعض هؤلاء العلماء غير العرب ، كالبيرونى مثلا ، دافعوا عن اللغة العربية بقوة ، وعن استخدامها لغة رسمية ، وعن عظمة الثقافة الجديدة، ولم تكن موضع شك في نفوسهم ، فقد كان القرآن ومكانته وعظمته في العقول والقلوب تحجب عن العربية أي نقد يمكن أن يوجّه إليها ، وأى تهوين من شأنها ، ومن جانب آخر أوضحت العربية قدرتها الفائقة على

التعبير الجيد الواضح عن شتى المشاعر والأحاسيس والأفكار .

خمسة قرون من التاريخ الأدبي مترامية الأطراف مكانا ، وفي مجتمع لم يكن أميا يعتمد على الأذن ، وإنما قارئا أداته العين ، ويستخدم القلم على أوسع نطاق ، فكان نتاجه ثريا ومتنوعا ، مما يحول دون عرض هذه المادة كاملا ، أو قريبا من الكمال ، حتى لو اقتصرنا على الأدب بمفهومه الخاص ، واستبعدنا العلوم التطبيقية والبحتة ، وعلوما أخرى تربطها بالأدب وشائج من القربى ، من النحو واللغة العربية والفقه والحديث والفلسفة والتوحيد وغيرها ، رغم أن جوانب كثيرة فيها جديرة بالنظر والتقدير والاعتبار .

● ● ●

شهد العصر العباسي أقوى الجهود لتجديد الشعر العربي ، ولو أن فجرها يعود إلى نهاية العصر الأموى ، وتأكدت الحركة مع منتصف القرن الثامن الميلادى فى مجتمع المدينة المختلط يصطخب حول الخلافة في بغداد ، وأسهم فيها العرب الأقحاح والموالى ، والفرس من بين هؤلاء بخاصة ، ويجئ أبو نواس (ت ٨١٤ م) فى مقدمة المجددين فى هذا العصر ، ويعرفه قراء ألف ليلة وليلة من الشخصيات التى تتردد على بلاط هارون الرشيد ، والأشعار التي تنسب إليه فى هذا الكتاب بعضها من صنيع شعراء جاءوا بعده وضعوها على لسانه ، ولو أنه تاريخيا كان ممن يترددون على بلاط الرشيد وابنه الأمين من بعده .

ويجب أن نعترف أنه يملك موهبة شاعر حق ، وهو مع عمر بن أبي ربيعة خير شاعرين أنجبتهما العربية فى تلك الأيام ، وهو من الأهواز فى خوزستان ، فارسى الأصل ، ولكن إقامته فى الصحراء أولا ، ثم في البصرة فيمابعد ، صقلت عربيته ومكّنته من كل أسرارها ، وفي بغداد مضى مع لذاذاته إلى غايتها ، وأبدع شعرا متميزا ، ويضم ديوانه قصائد تقليدية ، وأخرى ذات طابع محدث ، فى الوصف والغزل والخمر بخاصة ،وفي هذه بلغ قدرا من الجودة لايُعلى عليه ، وهو فى غزله ماجن يقف في الجانب الآخر لامن الغزل العذرى فحسب ، وإنما من

الغزل الحسى العف أيضا .

وإذا كان عمر بن أبى ربيعة درج على أن يجرى حواره الحى مع جميلات مكة فان أبا نواس يصنع الشئ نفسه ، بأسلوب مختلف ، مع السقاة من الذميين ، يهودا أو مسيحيين أو مجوسا ، وهى محاولات بلغت فنيا حد الروعة معه ، ووقفت عنده .

والشاعر الذى بلغ ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذاك آثام عاد في أواخر حياته زاهد نقيا ، مؤملا فى عفو الله ، على نحو ما صنع الشاعر الألمانى بعد ذلك بألف عام ، هل كان صادقا أم منافقا ؟ أم أنه مجرد تقليد أدبى ؟ لا أحد يمكن أن يقطع بشئ ، ولكن من المؤكد أنه كان قمة حتى فى زهدياته ، هذه التى جاءت متأخرة !

وشاعر آخر كبير ومجدد أيضا ، وفارسى الأصل ، كثير الفخر بجدوده ، وهو بشار بن برد (ت ٧٨٤ م) ،وهو أقدم المجددين زمنا ، لأن طلائعه الشعرية تعود إلى أواخر العصر الأموى ، وكان الخليفة الشاعر الوليد بن يزيد معجبا بشعره ، وقد جاء بشار صورة صادقة لعصره تهتكا وتحضرا وزندقة ، حتى قالوا: " لم يبق غَزِل ولا غزلة في البصرة إلاّ ويروى شعر بشار ، ولانائحة ولا مغنية إلا و تتكسب به ، ولاذو شرف إلاّ ويهابه ويخشى معرة لسانه ".

إن خصائص حركة التجديد توجد فى الجانب الأكبر من خير شعره : واقعية متحررة ، ولغة ثرية بالألفاظ الجارية ، والحوار اليومى ، ومشاهد الحياة فى المدينة ، وهو على النقيض من أبى نواس ، وكان هذا شاعر خالصا ، تختلط قصائده بعناصر ثقافية عديدة ، وفكرية وفلسفية ، ودينية ، لقد كان بشار كفيفا وسبق أبا العلاء المعرى ، محنة وعواصف فكرية يموج بها المناخ الجديد ، من البدع الدينية ، والفرق الكلامية ، والزندقة ، ومعتزلة ومانوية ، وذهب ضحية الأحقاد الشخصية والتعصب الدينى فى عهد الخليفة المهدى .

وعرفت أيام هارون الرشيد العظيمة شاعرين آخرين غزلين : مسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف، وحمل الأول منهما لقب صريع الغوانى ، ومع ذلك فهو فى خمرياته أفضل منه فى الغزل ، فقد كان فى هذا عالة على الغزل الأموى فهو ليس أصيلا فنيا في غزله ، وقد عنى بلفظه ، وأمعن في البديع ، وحرص على الجرس الموسيقى ، ووقف الثانى شعره علي غزله فى رقة وعذوبة ، وهو في العباسيين صنو عمر بن أبى ربيعة بين الأمويين ، وإن أفاد من تقدم عصره ، ففاق صنوه الأموى رقة لفظ وعذوبة معنى ، ورقى ذوق ، وتوليد معانى ، واقترب بهذا كله من معنى " الحب المهذب " ، وتغنى الرجال والنساء بأشعاره فى حفلات القصور والوقورة ، وأورد لنا الإمام ابن حزم ، الأديب والشاعر والفقيه و المؤرخ ، فى رسالته الرائعة عن الحب : " طوق الحمامة فى الألفة والألاف " أبياتا له تغنت بها فتاة هاوية ، كانت تجيد الموسيقا فى حفلة أقيمت فى قصرهم [1] بعد موت العباس بقرنين ونصف من الزمان ، وفي الوقت نفسه أخذ طريقه إلى الأدب الشعبى أيضا ، فأنشد شعره أبطال ألف ليلة وليلة مثلا لشعر الحب العفيف ، ويمكن أن نقع على أصداء منه أيضا فى القصائد البروفنسالية التى تغنى بها شعراء التروبادور فى جنوب فرنسا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، وعند أندادهم فى بقية البلاد الأوروبية فى العصر نفسه وفيما تلاه .

ولكن الحياة العباسية لم تكن كلها لاهية ، ولاشعراؤها كلهم دعاة استمتاع بالحياة فكان هناك من يعزف لحن الزهد واحتقار الدنيا والتذكير بالموت ، ويندد بغرور الإنسان وأوهامه ومطامعه ، فى شخص أبى العتاهية ، وكان معاصرالأبى نواس ، ولا نجد لشعره نظيرا من قبل ، إذا استثنينا إشارات عابرةفي شعر قس بن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت ، وربما راد مواعظ الحسن البصرى ونهل منها وهو يذكر غواياته وغرامياته السابقة فى الحياة ، وقد تخلى عنها عندما نضج

---

١ - طوق الحمامة ، ص ١٤٤ ، ط ٥ ، تحقيق د. الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ .

سنا ، واعتقل نفسه فى نطاق تأمل الموت ونهايته المحتومة ، ويصبح الحديث عن الهرم عنده " فكرة ملحة " ، ويحث على العمل الصالح فى الدنيا ، يصحب الإنسان فى رحلته إلى الآخرة ، دون أن يلح على فكرة الحب الإلهى كما يفعل الصوفية ، ويسوق أفكاره فى صياغة سهلة أقرب إلى النثر ، يفهمه العامة والخاصة على السواء ، وهو دون رفاقه خيالا وتصويرا ، ولكن الشهرة جاءته من ناحية موضوعه وحسن توليده ، ويكثر فى شعره من الحكم والأمثال ، ولكن أرجوزته الطويلة فيهما ، ويقال أنها تضمنت أربعة آلاف مثل ، لم يصلنا منها إلاّ القليل .

وتميز إلي جوار هؤلاء ابن الرومى ، وكان قليل الحظ فى عصره ، ولكن النقد الحديث أنصفه ، وهو ينحدر من أصول بيزنطية من جهة الأب وفارسية من جهة الأم ، وعاش حياته فقيرا ممرورا ناقما لعدم الاعتراف به فنيا ، مما أكسبه قدرة على ملاحظة النقائص الإنسانية ، وحدة فى التحليل النفسى ، واستعدادا للاعتراف الذاتى ، وقدرة فائقة على السخرية والوصف ، وفاق رفاقه فى إجادة التصوير وإثارة الضحك ، وجرى على سبيل معاصريه فى سائر فنون الشعر ولكنه فاقهم فى الهجاء وأكثر هجائه شخصى لمن حجب عنه عطاءه أو أساء إليه ، أو تخيله أضمر له سوءا ، وسوف ينتفع أبو العلاء بنهجه ولكنه نقله إلى هجاء المجتمع فى عيوبه ، والإنسان فى جوهره ، والطوائف فى جملتها .

كان لابن الرومى أسلوبه الخاص به ، يولّد المعانى حتى لايبقى فيها لمن يأتى بعده شيئا ، وبعض الموضوعات التى طرقها الشعر قبله على استحياء أفاض القول فيها : الشيب والشباب وأهوال البحر والسحاب والبرق والرياح ، والمياه والجنان والألوان والأصوات والمغنيات ، وسوء الحظ ، وحياة الطبقة العُليا والدنيا المعاصره له ، والأحداث المأساوية التي شهدها النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، والتنافس بين المثقفين ، والصراع الأدبى ، والفتن السياسية ، مما يجعل من ديوانه وثيقة هامة ، إلى جانب قيمته الفنية ، وكانت قصيدته فى رثاء

البصرة حين اقتحمها الزنج شيئا جديدا فى أيامه ، وإن سبقه قبل ذلك بثمانين عاما عمرو بن عبد الملك الوراق ، وأبو يعقوب الخريمى فبكيا بغداد حين اقتحمها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون وأباحها جنوده فاستحالت أطلالاً ، وكل ذلك فى نظم سهل تقرأه فكأنك تقرأ نثرا مقض ، ولا تعكس قصائده شيئا من ثقافة يونانية ، وإن تبدّت أصوله فى مزاجه وطبعه .

ولمع فى عالم الشعر الخليفة المنكود الحظ عبد الله بن المعتز ، ومنتش بالثقافة العالمية على أيامه أبدع شعرا جديدا ، وكان منظرا له وجامعا ، وترك ديوانا يعكس ، مثل كثيرين من معاصريه ، تجربته الخاصة من جانب ، والحياة اليومية حوله من جانب آخر ، وفى أشعاره متغزلا أو بهجا أو راثيا أو واصفا يستمد صوره من بيئته المترفة ، ومعانيه مما توحى به الحياة المتحضرة ، ومقطعاته فى الوصف تعكس ذكاء عاليا ، وأحيانا عبقرية فذة ، ومعه بدأ فن الأراجيز التاريخية ، أنشأها فى أربع مئة بيت يمدح بها الخليفة المعتضد ، ولكنه ضمنها معايب زمنه ، وفساد الحكم على أيامه ، وسوف تحتذى فى أمكنة أخرى من العالم الإسلامى ، وبخاصة فى الأندلس على يد يحيى الغزال وتمام بن علقمة ، وابن عبد ربه ، وأبو طالب عبد الجبار ، وإلى هذه الأراجيز الأندلسية التاريخية يـرد المستشرق الإسبانى الكبير خوليان ريبيرا نشأة فن الملاحم فى الأدب الإسبانى .[1]

●●●

من مناخ يعتبر إقليميا بالنسبة إلى بغداد جاء شعراء الكلاسية الجديدة ، جاءوا من الشام ، دون أن يختلفوا جوهريا مع المجددين ، بل على النقيض ، كانوا هم أنفسهم يحسون أنهم مجددين ، وهكذا اعتبرهم معاصروهم أيضا ، ربما لأنهم طبقوا الأسلوب البلاغى الجديد وأسرفوا فيه ، والحق أنهم عادوا إلى القديم فى اللغة وبناء القصيدة والأفكار ، وأضافوا إليها جديدا من الخيال والأمثال ،

---

١ - انظر الفصل الخاص بالتأثيرات العربية فى كتابنا ملحمة السيد ، ط ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

وقام الثنائي أبو تمام والبحتري بارساء حجر الأساس ، وجاء المتنبي شاعر العرب الأكبر فارتفع بالبناء وأتمه ، وقضوا على فتوحات المدرسة البغدادية .

لقد واصل أبو تمام والبحتري رحلتهما رفيقين حتى بعد الموت ، لأسباب داخلية وخارجية ، فكلاهما شامي من قبيلة طيئ ، ولو أن انتساب أبي تمام مجرد فرض أو تصور ، لأن أصله مسيحي فيما يبدو ، وكلاهما كان مغرما بالشعر القديم ، وجمّاع مختارات ، وعاش كلاهما زمناً طويلا في بغداد ، مدحا خلفائها، ومع ذلك فهما يختلفان في بعض الخصائص الذاتية ، وبعضهم يرى أن أبا تمام مختارا أفضل منه شاعرا مبدعا ، والحق أن حماسته مجموعة متميزة ومختارة من الشعر العربي القديم ، أنجزها باحساس جمالي بالغ وذوق أدبي رفيع.[1] أما في إبداعه فهو شاحب ومنمق ومتعب وغامض ، وسبق المتنبي في صعوباته دون أن تكون له فضائله ، وقصيدته في فتح عمورية تظهر أسلوبا كاملا ومتمكنا على طريقة المتنبي .

وأما البحتري فهو أكثر بساطة وأناقة ، وتتمتع حماسته بشهرة أقل ، مع أنها منتخبات قيمة ، وفيها يحتل الشعر الإسلامي مكانة أوسع ، ولديوانه أهمية أكبر ، لأنه يعكس سيراً ومناخا ، فقد وصف قصور الخلفاء وحدائقهم والبحيرات الصناعية وقوارب النزهة والمتعة في بلاط الخليفة ، واحتفى بالمتوكل حياً وبكاه ميتا ، وشهد مأساة موته رأي العين . وملتصقا بالواقع أحيا شعر الأطلال ، حين زار بقايا قصر كسرى ، وهو أثر ساساني عظيم لاتزال بقاياه قائمة قرب بغداد حتى يومنا ، وقصيدته فيه من خير ما أبدع . وإجمالاً يمثل البحتري الشاعر الفطري في عصر الثقافة العربية ، فهو يطلق نفسه على سجيتها ، لا ينحرف بها عن مجراها الطبيعي للتقيد بسنن أو قوانين ، ولا يكلفها التعمق في أي شئ ، فلا منطق في التفكير ولا تعقيد في البديع ، وإنما ألفاظ منتخبة بعناية ومهارة ، يسيرة على الإجمال ، بعيدة عن الإغراب ، تملأ الفم ، وتقرع الأذن ، وتبعث

١- انظر دراستنا عنه في كتابنا : دراسة في مصادر الأدب العربي ، ط ٧ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ .

موسيقا شجية ، حتى دعاه بعض النقاد " قينة الشعراء " ، وقال عنه ابن الأثير: " أراد البحترى أن يشعر فغنى " .

وكان أبو فراس الحمدانى صوتا صادقا وانفعالا عظيما وتجربة حية فى عالم الشعر ، قاله فطرة وأراده عربيا أن يكون سجل مغامراته ومشاعره ، فتغزل واشتاق ورثا ووصف وافتخر ، وكانت رومياته أروع ما نظم .

ولد فى الموصل ، وقتل أبوه وهو فى الثالثة ، وكفلته أمه ، ونشأ فى بلاط ابن عمه سيف الدولة أمير حلب ، واشترك فى الحرب ضد البيزنطيين ، وأسر مرتين ، وحمل فى الثانية إلى القسطنطينية ، وأبطأ عليه ابن عمه فى افتدائه ، فربما كان يخاف طموحه ، ومن سجنه توالت قصائده إلى سيف الدولة وأمه وأصدقائه ، وسجل فيها ما يعيش فيه ويجرى عليه ويعتمل فى أعماقه ، من أحوال الأسْر القاسية ، وما يشعر به من الأسى ، وما كان فيه وما أمسى ، دون أن تنسى نفسه عزتها وأنفتها وتجلدها ودون أن يفقد اعتزازه بشجاعته وأرومته وإبائه عربيا .

ولكن هذا الصوت الفذ لايمكن أن يصنع وحده ، لقلة إبداعه وقصر حياته ، مدرسة مستقلة يكون جوهرها ، فيما أرى ، الصدق والعفوية ، وهو مايميز شعره عن غيره فى المقام الأول ، وأما فى جانبه الشكلى ، لغة وأسلوبا ، فقد ظل يتحرك فى نطاق الاتجاه الكلاسى الجديد .

ثم تصل إلى قمتين فى العصر العباسى يكفيه فخرا أنهما عاشا فيه : المتنبى وأبى العلاء المعرى .

وتفسير عبقريتهما وسرها ، واتجاههما و مناحيه ، يتطلب منا إطلالة موجزة على واقع الحياة حولهما ، فكلاهما جاء وقد انحلت الدولة العباسية ، وتهاوت أركان الإمبراطورية الإسلامية ، وسقطت هيبة الخلافة ، وتناثرت دويلات مستقلة : بنو بويه فى بغداد ، والإخشيديون فى مصر والشام ، والفاطميون فى أفريقية

أولا ، وفى مصر أخيرا ، والأمويون فى الأندلس ، والقرامطة فى البحرين ، والديلم فى جرجان ، والبريدى فى واسط ، والحمدانيون فى حلب ، وفسدت الحالة الاقتصادية ، وساءت الحالة الاجتماعية ، وعم المكر والخداع والظلم ، واندلعت الثورات ، وتجرأ البيزنطيون على المسلمين فأخذوا يهاجمون بلادهم الكرة بعد الكرة ، وكثر الثائرون من العلويين والخوارج ، وغارات الأعراب ، وتقوّى الشيعة فى المشرق وعظمت آمالهم فى قيام الخلافة الشيعية بنهوض الفاطميين فى مصر، وعاث القرامطة فسادا ، فلا تكاد تخلو سنة من غارة لهم على بلد من البلدان ، وكانت الدنيا لمن غلب .

وداخل العقيدة وهن كثير ، ورأى الناس الدين أروج التجارات ، يستغله الطاغى والثائر ، ويتسلح به الباغى والتاجر ، وأصحاب المصالح الدنيوية وطلاب الثراء ، وتقلب هؤلاء بين كل الفرق ، يرتدون ثوب البواعظ والمشفق والمتحمس والداعية ، يعرضون فى كل سوق ما يروج فيه .

ومع ذلك كان القرن العاشر فكريا من أزهى عصور العربية نضوج فكر ورقى عقل ، فقد كان يقطف ثمار جهود خلت فى كل فروع المعرفة والعلم ، من الفلسفة والأدب والفن ، فقد انتهى العرب من ترجمة ما يعنيهم من الثقافات الأجنبية ، يونانية فى المقام الأول ، أوفارسية أو هندية ، وأقبل طلاب العلم على تمثل هذه الثقافة الجديدة ، والمشاركة فى المجهود العقلى المترجم ، ينقدونه ويرتبونه ويقتبسونه ويضيفون إليه ، وتنافس الأمراء فى رعاية العلماء واجتذابهم ، فتعددت عواصم العلم والأدب ، واشتهرت بخارى وجرجان وغزنة وحلب والقاهرة والإسكندرية وقرطبة وبغداد والكوفة والبصرة ، واتسعت العقول للمذاهب الفلسفية والصوفية ، وغلب على اللغة المرونة والاتزان .

وفى مجال الأدب سوف تبلغ الكلاسية الجديدة أوجها ، وقد حرصت على بناء القصيدة القديمة ، ولكنها تحررت فى نطاقه من أشياء كثيرة ، وبخاصة عند الكبار منهم ، موضوعات وأفكارا وصورا ، وسقط الصغار منهم فى تقليد

شائن، وأبدعت شعرا لما يكن معروفا أو طرقه السابقون علي استحياء ، كالشعر الصوفى والنزعة الفلسفية ، وأدى اضطرب الأحوال إلى كثرة الشكوى ، وذم الدهر ، وما عرف فنيا باسم الدهريات .

وبين ازدهار الفكر وانحطاط الحياة فى الجوانب الأخرى عاش الشاعران الكبيران ممزقين ، وتفجرت أحاسيسهما شعرا عظيماً .

● المتنبى وأبو العلاء :

أسبقهما أبوالطيب المتنبى ، ولد فى الكوفة من أصل متواضع عام ٩٠٥م ، ومات بطريقة عنيفة أثناء رحلة له قرب بغداد عام ٩٦٥م ، وبين التاريخين قضى سحابة حياته يركض وراء الآمال العظام ، باسلا جبارا يرى الحياة صراعا عنيفا ، والدنيا لمن غلب ، فكان صبورا ثابت العزم ، يقدس القوة ، لاتهزه معاكسات الدهر ، أنوفا مترفعا عن كل ما ترتاح إليه النفوس الصغيرة ، فما تذلل لحبيب ، ولا ارتاح لمجالسة النساء ، أو معاقرة الخمر ، ودون غيره من شعراء عصره ، ما عرف الشذوذ ولا تغزل فى الغلمان ، واحتقر اللذات الحقيرة ، ولم يشغل نفسه بغير معالى الأمور .

غير أن طموحه كان مفرطا ، وآماله فوق طاقته ، فظل ممزقا بين الآمال الواسعة والإحباطات المريرة ، وإذا كل شئ غير موات له ،فأكسبه ذلك تمردا متشائما ، وشعورا بالاضطهاد وحدة فى المزاج ، فكان عنيفا يرفض المسامحة ولا يحسن المداراة .

جمع المتنبى بين البداوة والحضارة ، أخذ من الأولى صفاء اللغة وقوة الأسلوب، ومن الثانية مستحدثات الحضارة ، وعاش خير سنى حياته فى حلب إلى جانب سيف الدولة ، وجاء مصر أيام كافور الإخشيدى ، وانتهى به المطاف إلى فارس وبغداد ، ووجد الناس فى شعره على أيامه ، وبعدها على التأكيد ، كل ما يبتغون ، يستوى فى ذلك الثائرون والطامحون والفاشلون والمتحمسون ،

والناقمون على الدنيا والحكام و عامة الناس .

أوتى المتنبى عبقرية خصبة ، غذتها الثقافات المختلفة التى كانت شائعة فى عصره ، وتوفرت له تجارب وملاحظات واسعة حصّلها من الدرس أو الحياة أو التجارب ، ورزق عقلا قويا قديرا على اكتشاف المعانى السامية ، يومض للحظة فيقع على عوالم جديدة وافرة الثراء ، إلى عاطفة مرهفة سريعة التأثر ، بعيدة الغور ، كثيرة التقلب ، عرفت نشوة الأمل والفوز ، وألم الخيبة والإحباط ، ومرارة الفشل والقهر ، وأتاح لها كل ذلك أن تعبر عن عواطف النفس البشرية فى أعمق أبعادها الإنسانية ، وتركت أثرها الجمالى فى شعره ، فشغل بالواقع الجدى عن بهرج الصناعة اللفظية والإحالات السخيفة ، وضروب الإغراب والغلو وتميز أسلوبه بالحرارة والقوة ، والاستعارة الرائعة والتشبيه البليغ المحكم ، والصدق فى التعبير ، فلا يقول إلاّ مايحس ، ولا يصف من الأحداث إلاّ ما شاهد وحتى فى شعره الوجدانى ترفّع عن العواطف الرخوة ، والأنات الناعمة ، يعكس نفسا قوية ، طالما كتمت آلامها وكظمت أحزانها ، وكانت حكمه من بين أروع شعره ، فقد تعدى فيها الفردية ، وارتقى بها إلى مستوى العواطف الإنسانية الشاملة ، وضمنها خلاصة آلامه واختياراته وعواطفه .

وجاء خيال المتنبى جبارا محلقا أبدا ، مغرما بكل جليل يبهر النفس والعين، واقعى لا يعمد إلى الرؤى ولا يعرف الأحلام ، حديد البصر لا يلتقط من الأشكال إلا ما كان مدهشا ، ولا من المشاهد إلا ما كان جليلا ، وجعله التوتر الدائم والقلق المتوالى يقظا دوما ، مندفعا أبدا ، بعيدا عن الترهل والخمول والجمود ، ائتلف العقل والعاطفة والخيال فى أكثر ما أبدع ، فجاء شعره معجزا على حد تعبير أبى العلاء .

وقد أعرض ما استطاع عن الأساليب الشائعة التى تهافت عليها الشعراء قبله ، واتخذوها قوالب يفرغون فيها قرائحهم ، وتجنب ما استطاع طرائق الصناعة والتنميق ، وابتكر لنفسه قوالب ذاتيه حية ، تنسجم فيها معانيه وعواطفه

وصوره ، واعتمد القوة والتكثيف فى تراكيبه على نحو لايجاريه فيه شاعر آخر ، فهو يضمن الألفاظ القليلة دنيا من المعانى النادرة ، وتوخى الجمل المتينة ، والألفاظ القوية ، والحروف الضخمة ، تقرع الأذن ، وتشد الانتباه ، ويقتضى نطقها جهدا كذلك ، وتطلب القوافى الشديدة غالبا ، فجاءت موسيقاه تمثل العنف والقوة وجلبة الحرب ، وصخب التقاتل ، ولها جلجلة مدوية تمتد تموجاتها فى النفس بعد قراءة شعره ، وعبر عن المثل الأعلى للمروءة العربية ، وكان يتدفق فى قنوات مغايرة ، على يد عناصر أخرى غير عربية ، فتوهج من جديد مفهومه العربى الدقيق .

يقول ابن رشيق القيروانى :" ... ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس"، وما اختلف الناس علماء ونقادا ولغويين وشعراء ومتأدبين ، كما اختلفوا حول أبى الطيب ، فى أيامه وبعدها وفى عصرنا الذى نحياه ، وما أثر شاعر فيمن بعده ، كما أثر فيها هذا الشاعر الذى جاء إلى الحياة ذات يوم طفلا مغمورا ، فى حى متواضع من الكوفة ، ومن أسرة أشد تواضعا وضرب أروع الأمثال لكبرياء الفنان .

والثانى منهما أبو العلاء المعرى .

ولد فى معرة النعمان بين حمص وحلب عام ٣٦٣ = ٩٧٣م ، وفيها توفى عام ٤٤٩ = ١٠٥٨ ، وقد أصيب بالعمى منذ أعوامه الأولى ، ولكن ذلك لم يقعد به عن طلب العلم فى مدينته ، وعن الرحلة إليه فى حلب وبغداد وأنطاكية ، حتى وهذه الأخيرة فى يد البيزنطيين ، فحصل من ذلك الشئ الكثير فى مجالاته المختلفة ، فكان عالما نحويا وبلاغيا وعروضيا ولغويا وفقيها وشاعرا ومفكرا ، وعلى اطلاع واسع بالتاريخ والأخبار والملل والنحل والفرق ، ووعى من الفلسفة الشائعة على أيامه قدرا كبيرا ، حتى قال فيه التبريزى :" ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى " . ويهمنا هنا نشاطه شاعرا.

كان أبو العلاء يجمع إلى توقد الذهن قوة الحافظة ، وإلى رقة القلب دقة

الشعور ، وإلى سرعة الانفعال شدة الحياء ، وإلى عصبية المزاج كثرة التقلب والشكوى ، وإلى كراهية الدنيا حب العزلة والانفراد ، ووراء ذلك كله طابع المجتمع الذى أومأنا إليه من قبل ، وأثر العاهة التى أطفأت نور عينيه طفلا .

أبدع أبو العلاء عالما جديدا فى دنيا الشعر ، بدأه محتذيا نهج سابقيه ، فمدح وفخر ورثا وتغزل ، وتجلى ذلك واضحا فى ديوانه الأول " سقط الزند " ، ويحتوى أكثر من ثلاثة آلاف بيت من الشعر ، وكان هو الذى اختار له العنوان ، وهو، أول شاعر فيما أعلم يختار بنفسه عناوين لدواوين شعره ، وسماه بذلك لأن السقط أول نار تخرج من الزند ، فشبه شعره الأول به ، ورتبه بنفسه ، ولكنه لم يتبع فيه ترتيبا تاريخيا ولا فنيا .

فلما تضج اختط لنفسه وجهة جديدة يمثلها ديوانه اللزوميات ، أو " لزوم مالايلزم " وهو ديوان شعر كبير رتبه على حسب حروف المعجم ، ويقول فى مقدمته :" وهو مائة وثلاثة عشر فصلا ، لكل حرف أربعة فصول ، وهى على حسب حالات الروى من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الألف وحدها فلها فصل واحد لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت فى الفصل بالقطعة الواحدة أو بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف ". والأوزان فى كل فصل مرتبة حسب ترتيب الدوائر والأبحر عند العروضيين ، فالبحر الطويل في الفصل مقدم على غيره ، والمتقارب مؤخر عن غيره ، والأبحر بينهما على ترتيبها ، دون أن يعنى هذا أن الشاعر استوفى فى كل فصل كل الأبحر ، وإنما يلتزم الترتيب فيما يوجد من أوزان فى الفصل الواحد . ويحتوى هذا الديوان نحو أحد عشر ألف بيت ، وشعره مقطعات ، تجئ أحيانا فى بيتين أو ثلاثة ، وسماه " لزوم ما لا يلزم " لأنه التزم فى الروى حرفا إذا غُيِّر لم يكن مخلاً بالنظم .

سار أبو العلاء فى هذا الديوان على نهجين كان فيهما أولاً : نقد الحياة الاجتماعية حوله ، وتأملات ذاتية عن القدر والوحى والجنة والله والإنسان ، وباختصار المشكلات الصوفية الكبرى على أيامه أو قبلها .

لكن عبثا نبحث عنده عن منهج منطقى متناسق واضح ، أو مذهب فلسفى محدد ، وإنما هى تأملات فى الكون ترجع إلى مالقى من أحداث واكتسب من تجارب ، انتهت عنده ، كما انتهت عند كثيرين غيره إلى أفكار عامة ، وفكرة الإله الواحد تغلب عليه ، ولكنه حائر في التفاصيل والشعائر ، يؤمن بسلطان العقل ويرتاب فى النقل ، وساخط علي رجال الدين ، وجاء هذا فى شعره ممزوجا بعواطفه ، واتسعت له الحياة الثقافية يومها فلم يضطهده أحد ولم يلاحق ، ووصلنا ما قاله كاملا ، رغم أنه عاش في مجتمع تحكمه تقاليد صارمة متوارثة

ويرى مارون عبود فى كتابه " زوبعة الدهور " أن " اللزوميات " ذات اتجاه فاطمى ، وأن أبا العلاء المعرى صور فيه للناس شخصية الحاكم بأمر الله وخصاله من حيث لايدرون . يقول : " الفاطمية مذهب فلسفى ، وقد أصبح أبو العلاء فيما أثبت وقرر فى اللزوميات أنه شيخها الأعظم وإمامها الباقى ، فهو لم يدع شيئا يعنى " المستجيب " لهذه الدعوة إلا ذكره له وفنده ، وهو لا يقرر القضية مرة ومرتين بل يعالجها فى كل أبواب الكتاب " . ويرى أيضا أن التناقض فى آراء أبى العلاء ما هو إلا سخرية أو " تقية فى عصر كانت فيه كلمة " علم الأوائل تقضى على الرجل " . ويعتقد مارون عبود أيضا أن أبا العلاء لم يسافر إلى بغداد إلا لأجل التمكن من مذهبه .

غير أن التقية لا تفسر وحدها التناقض والحيرة اللذين يحفل بهما شعر المعرى وفكره ، إلى جانب أن أبا العلاء تناول كل شئ فى حرية ، وعبر عن رأيه صراحة، كما لم يحدث ذلك من قبل ، وتقبل منه المجتمع كل ما قال ، وبعضه كان خطيرا ويصطدم بالعقيدة الإسلامية الرشيدة تماما . ويمكن تعليل هذا التردد بأن أبا العلاء عقل كبير لايملك زمام الذاكرة والمثابرة دائما وحينما يريد ، فيتعمق فيما يقرأ أو يسمع من آراء مختلفة ومذاهب متباينة ، إلي عاطفة قوية يطوى عليها جناحيه ، وتوتر يملك عليه داخله ، فيستجيب لانفعال اللحظة دون أن يمحص أو

يدقق ، باسطا كليات المتنبي الفلسفية ، متناولا آراء المعتزلة و الفاطمية ، جادا تارة ، وهازلا أخرى ، ومغرقا في الحيرة والتشاؤم ، زاهدا ساخطا على الدنيا ، برما بالعالم لا يرى فيه إلا شرا مستطيرا ، فجاءت فلسفته أمشاجا متنوعة تعكس كل هذه الجوانب .

لغة أبي العلاء صعبة غالبا ، وأسلوبه ملتو غامض ، وربما كان ذلك مقصودا منه حذرا وحيطة ، وجماليات أشعاره إجمالا أدنى قيمة من أفكارها وبكل أصالة فكره ونبل تعاسته ليس شاعرا فردا ، ولكن الذين يملون صقل المجددين وأناقتهم ويتعبون من بلاغة الكلاسيين الجدد وتحليقهم ، يجدون دائما في شعره الجاف الغامض القلق غذاءً حيويا لعقولهم وأفكارهم ومشاعرهم أيضا .

● ● ●

ولكن الحياة ليست رقيا مصفى دائما ، وليست الحضارة كلها فنونا مصقولة ، وإنما هناك " الفضلات " ، ولن ينتهي العصر العباسي قبل أن يشهد مولد شاعرين وقفا حياتهما على المجون بأصرح لفظ وأفحشه ، وهما : ابن حجاج (ت٣٩١ هـ) وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ) ، وأقبل عامة الناس على شعرهما ، وراج ديواناهما ، فقد كانا يغذيان الميول الهابطة في تلك الفترة من حياة الدولة الإسلامية .

ومن جانب آخر فان الحديث عن المجون والزندقة والشعوبية لايعني أن هذه الصفات كانت تغلب على العصر العباسي ، وأنها الرائجة فيه ، فالحق أن ذلك كان وقفا على أفراد بعينهم ، لا يمثلون الأغلبية المسلمة الفاضلة ، الساخطة على المجان والشعوبية والملحدين ، وكانت المساجد عامرة بالعباد والنساك والوعاظ ، والمدن الكبرى نافقة بالعلماء والفقهاء والمحدثين و الزهاد والمتصوفة ، ونظم كثير من هؤلاء الشعر يعبرون به عن حبهم لله ، وإن ظل شعراء الصوفية العرب دون صوفية الفرس في هذا المجال ، نوعاً وعدداً وتوترا .

لم يكن عدد هؤلاء الشعراء المتصوفة قليلا ، ولهم شعر لابأس به فى المحبة الإلهية وما يصحبها من وجد وشوق ، ونكتفى بالرشارة إلى اثنين منهم بلغا قدرا عاليا في هذا المجال ، ويسيران فى طريقين مختلفين لا يلتقيان ، أى أنهما يمثلان مذهبين أساسيين فى الاتجاهات الصوفية الكثيرة العدد ، وهما :

- **الحلاج وابن الفارض :**

والأول منهما فارسي الأصل ، كان جده مجوسيا ثم أسلم وأقواله وأشعاره تحمل كثيرا من الغموض والإبهام ، ومن ثم اختلفت الآراء فى شخصه وتصوفه اختلافا عظيما ، فبعضهم يرتفع به إلى عالم الولاية ، وآخرون يهبطون به إلى قرارة الكفر ، وعلى أية حال فقد لقى الله فى بغداد شهيد أفكاره عام ٣٠٩ هـ = ٩٢٢م ، سَجن ثم جلد ثم صلب ، وقَطعت يداه ورجلاه وحَزّ رأسه ، ونُصب يومين على جسر بغداد ، ثم حملت جثته إلى خراسان فطيف به هناك ، ثم أحرقت بعد ذلك ، وألقى برمادها فى نهر دجلة ، ورغم ذلك ظلت ذكراه خالدة على مر الأجيال بين متصوفة العرب و الفرس والترك ، وبقايا شعره الصوفى ، وجمعها المستشرق الفرنسى ماسينيون جيدة فنيا ، وعبر خلالها عن تجربة دينية فريدة فى عالم المتصوفة ، فى تصوير قوى .

والثانى وهو ابن الفارض ، أشهر من الأول شاعرا ودونه فى مجال التنظير الصوفى ، وقد ولد فى القاهرة عام ٥٧٦ هـ ، وفيها توفى عام ٦٣٢ هـ ، وقد انحاز إلى التصوف شابا ، وانفرد للعبادة والتأمل والتجرد ، وأوى إلى " وادى المستضعفين " فى جبل المقطم ، ثم قصد مكة وجاور فيها نحوا من خمسة عشر عاما ، وهناك كملت مواهبه الروحية ونضجت شاعريته ، ولمّا عاد إلى مصر أضحى مناط التقدير والتكريم .

عَرف ابن الفارض برقة المشاعر ، وكان يهتز لكل مشاهد الجمال شكلا أم صوتا ، ويحب الطبيعة ويهوى أوديتها ، ويميل إلى التقشف مترفعا عن حطام الدنيا ، محبا سخيا كثير الخير طيب المعشر .

وقد خلَف لنا ديوان شعر من أشهر دواوين الشعر على صغره حجمه ، وتوفر كثيرون على شرحه ، وتوزعهم مذهبان فى فهمه : مَن وقفوا عند ظاهر اللفظ ، وادعوا أن حبه أرضى مادى ، ومن وقف على معانيه الحقيقية التى وراء ظاهره ، وربطها بأسرار نفس صاحبه المتجردة ، وفسروه تفسيرا صوفيا . ويضم الديوان مقطعات كثيرة تصلح للتغنى بها ، واشتهر من بين قصائده اثنتان : الميمية ، ومطلعها :

شربْنا على ذكر الحبيب مُدامةً سَكرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرمَ

والتائية الكبرى، تمييزا لها عن الصغرى ، وتسمى " نظم السلوك " ، وجاءت فى ٧٦٠ بيتا ، ومطلعها :

سقتنى حُمياً الحبِّ راحةُ مقلتى وكأسى مُحياً عن الحسْنِ جَلتِ

وفى الميمية يتغنى بخمرة الوحدة الإلهية ، وبالشكر الروحى ، وضمن التائية تجاربه الروحية ، فكانت نشيد وَجد ، ومعرضا للصراع المستمر بين الخير والشر، والفوز بالجمال المطلق ، متجليا فى كل ما هو جميل فى الطبيعة والإنسان.

يعد ابن الفارض بين الصوفية شاعر الحب ، ودُعى " سلطان العاشقين " ، وحبه يسمو على المادة وينفلت من قيودها ، ويستسلم للحب الإلهى استسلاما كاملا ، وقد تضيق البحور والقوافى وتقصر الألفاظ عن تصوير وهجه الداخلى كاملا فيطيل القصائد ، ويكرر الألفاظ والمعانى ، ويسوق الكثير من ألوان البديع ، ومن الاستفهام والتعجب والقسم والأمر والنهى ، ويهمل قواعد اللغة أحيانا ، أو يقع فى غموض يؤدى إليه بعد أشاراته وتعسفه فى الصناعة ، ولكنه مع ذلك يهتم بالموسيقا اهتماما كبيرا ، فهو يتغنى بشعره ، ويوقعه على أوتار مشاعره ، يألف البحور اللينة ، والألفاظ المتآلفة ، لتسهم كلها فى أضفاء موسيقا عذبة على أشعاره ، تألفها أذن السامع وتستجيب لها سريعا .

● ● ●

فى تلك الفترة من حياة الدولة الإسلامية كان الشعر فى العراق والشام قبلته العالم الإسلامى كله ، يحتذيه المتأدبون فى مصر والمغرب والأندلس ، وسائر أقطار الدولة ، ولا يعكس فى أى مكان طابعا إقليميا متميزا ، أو يفسح المجال لفنون مخترعة ، أو أوزان مبتكرة ، اقتضتها طبيعة الإقليم ، وظل بناء القصيدة قويا شامخا يدور حوله المبدعون ، يطورونه ، ويحتالون على تجديده ، لكن أحدا لم يخرج على أوزانه أو قوالبه أو قوافيه .

ومع ذلك فلأسباب عاطفية وتاريخية وفنية يستحق الشعر فى الأندلس وقفة خاصة به .

● الأدب الأندلسى :

لم يرتبط الأندلس ، بالمشرق سياسيا إلا نصف قرن من الزمان ثم استقل ، ولكن الاستقلال لايعنى أية قطيعة ثقافية ، لأن الحضارة الإسلامية كما أومأنا من قبل واحدة فى جوهرها ، مع ظلال محلية لاتخرج بها عن هذه الوحدة . والحق أيضا أنه لم تكن هناك حدود سياسية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ويمكن أن تقوم عليها حدود فكرية أيضا .ومن هنا فان أدب المشرق وعلمه وثقافته واصلت امتدادها بلا توقف حتى بلغت الأندلس ، ولكن هذا لم يكد يستقل ذاتيا حتى أخذ يكيف ما يتلقى حسب مناخه ومتطلباته .

والشعر الأندلسى أوضح دليل على هذا التنوع من جانب ، وعلى الارتباط والتوحد من جانب آخر ، فقد أعطاه المشرق لغته الأدبية وبناءه التقليدى ، وعروضه وقوافيه وأسلوبه وموضوعاته الأساسية ، وحتى تجاربه فى التطور ، منذ حركة التجديد فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وقبلهما لم تكن هناك حياة أدبية فى الأندلس، إلى الكلاسية الجديدة التى ثبت المتنبى دعائمها فى القرن العاشر ، وتلقى الأندلس ذلك كله وتمثله واستخدمه مطمئنا ، وطوّره علي نحو يرضى مزاجه ، ثم أضاف إليه شيئا ابتدعه ، وكان خروجا كاملا على التقاليد الشعرية ، وأعنى بذلك الموشحات ، وهو نوع سوف يكون الأب الشرعى للشعر

الغنائي الأوروبي .

كان الشعر الأندلسي ، في ملامحه العامة ، يتحرك أسلوبيا في نطاق المثل الفني للمجددين ، وتأخرت الكلاسية الجديدة في الوصول إليه ، وكان صداها باهتا لأسباب تاريخية ، والذين حملوا لقب المتنبي في الأندلس حملوه لأسباب ثقافية تاريخية وليست أسلوبية ، وربما وجدنا ، استثناء ، من يوقع تجاربه الذاتية على ألحان كلاسية ، كابن زيدون في غرامياته مع ولادة ، أو ابن حمديس الصقلي في حنينه لوطنه ، غير أننا نحتاط ونقرر أن جانبا كبيرا من الشعر الأندلسي لم يصلنا في دواوين كما حدث مع ابن زيدون وابن هاني وابن خفاجة وابن الزقاق وابن دراج ، وآخرين قليلين ، وإنما في مقطعات مختارة تتضمنها كتب المنتخبات مثل : الذخيرة وقلائد العقيان ورايات المبرزين والبديع في وصف الربيع ، وهي المصادر الأندلسية الرئيسية في معرفتنا بالشعر الأندلسي .

كان الشعر الأندلسي خلال عصر الإمارة صدى خافتا لما كان يتردد في المشرق من شعر ، ونمّى هذه التبعية كثرة الذاهبين إلى المشرق طلبا للعلم ، وكثرة الوافدين على الأندلس من العلماء وما يحملونه من ضروب العلم والفن والحضارة وبلغ هذا أوجه مع قدوم زرياب الموسيقي ، فقد حمل معه فيضا من الأنغام المشرقية ، تأصلت وأثرت في الشعر العربي نفسه ، وأصبحت أساسا للموسيقا الأندلسية فيما بعد .

ومع قيام الخلافة الأموية في الأندلس على يد عبد الرحمن الناصر عام ٣١٧هـ = ٩٢٩م ، بلغ الشعر الأندلسي سمته الجمالي كاملا ، ووجدنا في طليعة شعرائه ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ = ٩٣٩) ، وبهر القلوب بمدائحه ، ولكنه اشتهر بعقده أكثر مما اشتهر بشعره ، وابن هاني (ت ٣٦٢ = ٩٧٢) ، وكان داعية سياسيا للفاطميين ، وأعطى أعظم نتاجه خارج الأندلس ، فقد لحق بالمعز لدين الله الفاطمي في رحلته إلى القاهرة ، ولقي حتفه في ظروف مأسوية غامضة وهو في الطريق ، وكان المعري يشبه شعره بأنه " رحى تطحن قرونا " ، وابن دراج

القسطلى (ت ٤٢١ = ١٠٣٠) وكان شاعرا عسير الفهم ، والشاعر الرقيق مروان الملقب بالأمير الطليق ، وآخرون كثيرون ذكر ابن حزم كثرة منهم فى رسالته عن فضائل أهل الأندلس .

ومع نهاية الربع الأول من القرن الحادى عشر أفل نجم بنى أمية بين لهيب "الفتنة " ، وتهاوت مكانة قرطبة النبيلة فى السياسة وفى الأدب أيضا ، وتناثرت الدولة الواحدة إلى بلاطات عديدة صغيرة ، فى كل منها أمير ، لايكاد سلطانه يتخطى حدود بلده ، وهن أمرهم وأضعفهم الترف والبذخ ، وعرفوا باسم "ملوك الطوائف " ، وهى مرحلة ازدهر فيها الشعر الأندلسى كما لم يكن كذلك يوما ، فقد تنافس الأمراء فى أن يجعلوا من عواصمهم مراكز ثقافة وفن ، ومهابط حياة اجتماعية راقية ، وأن يجذبوا إليهم كبار الشعراء ، فاشتد الطلب على هؤلاء ، ومضوا يقطعون الأندلس طولاً وعرضا ، وينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلات ، ويحضرون مجالس الحكام ، وتدرج أسماؤهم فى الدواوين ، وتقرر لهم الأرزاق ، وتخلع عليهم الألقاب ، ورب قصيدة أو مقطوعة تبلغ بصاحبها درجة الوزارة .

وقد ازدهر الشعر فى إشبيليه أيام بنى عباد بخاصة ، وكان أفراد الأسرة الحاكمة محاربين وشعراء أيضا ، ورعاة ممتازين للشعر والفن ، وتجسيدا حيا لأورع لحظاته سعادة ، وكان المعتمد شاعرا مرموقا ، واختلفت عليه لحظات من البهجة والحزن ، ومن المجد والتعاسة ، افتتح المدائن ، ومات نفر من أبنائه بين سمعه وبصره أثناء حروبه ، وقتل بيده أقرب أصحابه إلى نفسه عقابا له على خيانته ، ولم يكن بالطبع شاعرا محترفا ، وجاءت أشعاره صورة لنفسه ، ويمكن من خلالها كتابة سيرته .

ثم تغيرت الدنيا ، وخلف الأيام البهجة حرب مستمرة مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وحين ثقلت عليه وطأتها استدعى المرابطين من المغرب لعونه ، ودفع ومعه الأندلس كله ثمن انتصار المسلمين فى واقعة الزلاقة ، وشارك فيها

محاربا ، وقاتل فى بطولة خارقة ، فقد عرشه وفقد الأندلس استقلاله ، وانتهت الأيام بالمعتمد سجينامع أسرته فى أغمات ، عند سفح جبال الأطلس ، وكتب بنفسه شاهده على قبره ، وبعد ثلاثة قرون سوف يزوره آخر شخصية عظيمة فى إسبانيا الإسلامية : الوزير لسان الدين بن الخطيب ، يأسى له ، وينشد فوق قبره شعرا .

حول المعتمد ، خلال لحظاته السعيدة وبعض أيامه التعسة أيضا ، التفت كوكبة من الشعراء منهم : ابن عمار صديق المعتمد ، وكان شخصية قوية ، وحياته سلسلة من المغامرات المحزنة ، طموحا فى السياسة ، أسلوبى النزعة فى الشعر ، وانتهت حياته قتيلا بيد أميره ، وابن اللبانة ، وكان روحا عذبة رقيقة ، واشتهر بوفائه للمعتمد بعد نكبته ، وترك لنا أعظم القصائد إثارة عن سقوط بنى عباد ، ووصف رحلة المعتمد المبكية إلى المغرب فى نغم شاج صادق حزين ، وعبد الجليل بن وهبون المرسى ، وكان شاعر بلاط مصقولا ، وبعض شعراء صقلية المهاجرين ، مثل أبى العرب وابن حمديس ، والتمسا فى إشبيلية الملاذ والعزاء عن وطنهم السليب.

وكان ابن الحداد وزيرا فى المرية ، وترددت على الألسن قصائده الغزلية فى صبية نصرانية " ذهبت بلبه كل مذهب " ، وأبو اسحاق الإلبيرى فقيها شاعرا زاهدا فى غرناطة ، وقف بحسم ضد طغيان اليهود ونفوذهم في المدينة ، ودفعت قصيدته النونية أهل غرناطة للثورة عليهم ، وتجريدهم من كل ما كانوا يملكون مالاً وسلطة ، وامتاز مواطنه السميسر بين شعراء عصره بالسخريةاللاذعة ، والرفض الحاسم للأحوال الجائرة على زيامه ، وكان بنو القبطورنة ، طلحة وعبد العزيز وعلى ، ينشدون شعرا عذبا ، وتتردد فى أبياتهم نفحات من الأبيقورية الحزينة .

وعاش ابن زيدون فى هذا العصر ، وهو أعظم شاعر كلاسى جديد فى الأندلس، وكانت قرطبة مولده ، وبكى شابا على أطلالها ومواضع أنسها التى

عبثت بها يد الزمان ، ثم انتجع إشبيلية وعاش فى رعاية بنى عباد ، وتغنى فى شعره بحب أميرة شاعرة أيضا ، ولادة بنت المستكفى ، هجرته آخر الأمر ، فمضى يشكو آلام الهجران ومرارة الحرمان ، فى شعر لازلنا نجد فيه حتى يومنا متاعا حقيقيا ، وبخاصة نونيته الشهيرة ، فهى تحمل الكثير من حرارة الصدق ، ودفء التجربة ، ومعاناة التوتر ، ومثلها قليل فى خضم الأشعار التى كانت تهتم بالأسلوب أولا .

وخلال فترة الانتقال من العصر الأموى إلى الطوائف نلتقى بشخصيتين عظيمتين من أظهر أعلام الأندلس : ابن شهيد وابن حزم ، وكانا صديقين ودودين ، وقُدّر لكليهما أن يرى بعينيه سقوط الخلافة الأموية ، وأن يشهد الفترة المحزنة التى صاحبت هذا السقوط ، وأن يبكى فى شعره ونثره ما أصاب قرطبة من خراب ودمار ، وعرف كل منهما كيف يعرض علينا أصالة النفس الأموية ونبلها خلال أخطر الأزمات التى مرت بها إسبانيا الإسلامية فى تاريخها .

كان ابن شهيد شاعرا وناقدا ، لم يصبح الأدب فى يده حرفة ، وما كانت به حاجة إلى هذا ، فقد نشأ فى بيت عريق ، وتتراءى فى شعره لمحات ذات وقع حديث ، وخلّف لنا " رسالة التوابع والزوابع " ، وهى رحلة خيالية قام بها شاعر إلى وادى الجنة ، وتعرض للأذى من ملوك الطوائف ، ثم ألم به داء عضال عانى مرارته فى صبر المؤمن ورضى المتصوف ، ولقى الله فى ٤٢٧ هـ = ١٠٣٥م .

وتعتبر حياة ابن حزم تعبيرا عن حياة الأندلس على أيامه . كان شابا أنيقا من المجتمع الأموى الرفيع ، دخل ميدان السياسة ولمّا يزل شابا ، وعانى أو صاب النفى ، وانتهى به المطاف مفكرا عضب اللسان ، وجواب آفاق ينازل العلماء والفقهاء ، وتعاطى الشعر شابا ، وضمّن كثيرا منه كتابه " طوق الحمامة " ، وهو رسالة رائعة عن الحب والمحبين ، ويبدو طاقة زهر أريجة من الأقاصيص ومقطعات الشعر ، وتحليل الحب خلقيا ونفسيا ، وسط مؤلفاته الأخرى الجادة والصارمة ، فى مجال العقائد والتاريخ والأديان والجدل ، وفيه يمزج بين النثر الراقى فى سجع

عفوى ، وأخبار متصلة بحياته ، وتتناثر أشعاره عبر صفحات الكتاب كله وتنم عن عاطفة حارة مشبوبة ، وينهج فيه نهجاً إنسانيا معتدلا ، ليس بالعذرى ولا الفاجر ، ونال هذا الكتاب حظوة واسعة ، وبخاصة فى العالم الأوروبى ، وتُرجم إلى معظم لغاته .

● ● ●

وتحت حكم المرابطين عانى الشعر من شلل قاس ، بدا وكأنه يلفظ آخر أنفاسه وانطوى على نفسه إلى حين ، وانصرف نفر من الأدباء إلى تخليد كنوزه وصيانتها من الضياع ، فألف ابن بسام " الذخيرة " ، وابن خاقان " قلائد العقبان" ، بيد أننا لا يصح أن نبالغ ، كما فعل المستسشرق الهولندى دوزى مدفوعا بكراهيته لرجال الدين أيا كانوا ، وكل ما هناك أن الشعراء تدافعوا كما هى عادتهم حول السيد الجديد ، وحظه من تذوق زهور الكلاسية العربية ، أو حتى فهمها محدود ، وعلى أية حال فان خلفاء يوسف بن تاشفين وعماله لم يتركوا الشعلة تنطفئ ، وحفلت دواوين إنشائهم بالناثرين والكتّاب ممن تخلفوا عن عصر الطوائف ، إلى جانب أن عصر المرابطين فى الأندلس كان قصيرا قريبا من نصف قرن أو نحوه ، والمشرق فى انهيار متصل ولم يعدله من تأثير على الأندلس إلا قليلا .

ويبدو أن المسافة بين اللغة المكتوبة واللغة المتكلمة قد اتسعت بقوة ، وهبط الذوق العام ، ومالت عناصره إلى كل ماهو شعبى وسوقى خال من الحشمة والوقار ، ومن ثم عرف هذا العصر الهجاء اللاذع والسخرية العنيفة ، والمجان من الشعراء وكبار الزجالين أيضا . وفى الطرف المقابل لهذا الاتجاه نلتقى بأعظم شاعرين تغنيا بابداعهما فى هذا العصر وهما : ابن خفاجة وابن اخته ابن الزقاق.

كلاهما من جزيرة شقْر فى بلسنية ، وكانت لهما أسباب موصولة بالجيل الذى سبقهما ، وقد طار صيت ابن خفاجة بما أنشأ من الشعر فى وصف الحدائق والرياض حتى لقب بالجنّان ، وتفيض روضياته عذوبة وجمالا ، وظلت طريقته ،

وأخذت اسمه ، محتذاة حتى أواخر أيام الإسلام فى إسبانيا .

وكان ابن الزقاق وصاف طبيعة أيضا ، ويرجع تميزه إلى براعته فى تجديد الصورة الشعرية ، وصبها فى قوالب جديدة بعد أن ملّ الناس التشبيهات القديمة لكثرة استعمالها .

وفى هذا العصر ذاعت رائية ابن عبدون الرائعة فى رثاء بنى الأفطس أمراء بطليوس وقد أزاحهم المرابطون ، وتشبث نفر آخر من الشعراء بأذيال الزمن المولى يحاولون أن يمدوا أجله على غير جدوى ، فهم يتنقلون بين المقاطعات يحاولون أن يتكسبوا بشعرهم ، وأن يسترجعوا أيام الصلات التى ولت مع الأمس الدابر فلم يغن عنهم ذلك شيئا ، فعبروا عن خيبة أملهم فى أبيات مجهدة تنم عن حزن عميق . ومن بين هؤلاء الأعمى التطيلى ، وابن بقى ، وخلّف لنا هذا طائفة من أبدع أبيات النسيب ، وآخرون ...

وقد تمتع الأندلس خلال عصر الموحدين بالأمان والهدوء ، وفى ظل نظام جديد قام على رعايته خلفاء الموحدين فى حكمة وتعقل ، وفيه بلغت العلوم ذروتها ، إنه عصر ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زهر وابن البيطار ، وواصل الشعراء إنشادهم ، وحفلت دواوين الموحدين فى الأندلس والمغرب بالموهوبين من الأندلسيين شعراء وكتابا ، أمثال الرصافى وصفوان بن إدريس ، وتألق فى سماء غرناطة كوكبة من الشاعرات ، منهن حفصة الركونية التى أعادت إلى الأذهان ذكرى الرميكية والمعتمد وولادة وابن زيدون ، بما كان بينها وبين أبى جعفر بن سعيد من هوى موصول ، وحازت إشبيلية قصب السبق بين مدائن الأندلس فى كثرة عدد الشعراء ، وعلى رأسهم ابن سهل الإسرائيلى آخر شاعر أندلسى وصف نهر الوادى الكبير .

ثم تغشى الأندلس فى أواخر أيام الموحدين موجة من التشاؤم ، فبدأ أعلامه يغادرونه إلى غير رجعة ، حاملين زادا حافلا من المعارف ينشرونها فى أقطار نائية ، وتميز من بينهم الششترى وابن عربى ، ونقلا إلى المشرق ما كان يفيض به

قلبهما من حرارة الشوق الإلهى وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة ، واستقر بعضهم فى تونس عند الحفصيين كحازم القرطاجنى وابن الأبار وعلى بن سعيد المغربى ، وهذا الأخير انتقل إلى مصر بعد تونس ، وهو وابن الأبار كانا مسك الختام لهذا العصر الحافل بالشعر والعلوم فى تاريخ الثقافة الأندلسية .

● ● ●

في العصر الغرناطى أطلعت سماء الشعر الأندلسى علمين ممتازين ، ولم يكن مصدر امتيازهما شيئا جديدا أتيا به ،وإنما استطاعا أن يرددا أصداء الماضى المولى فى نغم نادر الجمال والروعة ، أولهما الوزير لسان الدين بن الخطيب ، وكان كاتبا مكثرا وأديبا بليغا ، وشاعرا مقتدرا ، وقدر له أن يختم حوليات الأندلس المجيدة أروع ختام وأعظمه فى النفس وقعا ، وثانيهما ابن زمرك ، وكان وزيرا وتلميذاً لابن الخطيب ، وهو آخر وتر رجع أنغام ابن خفاجة ، وعاصرهما ابن خاتمة ، وهو شاعر متميز أيضا ، ووصلنا ديوانه كاملا ، وإن كان دون صاحبيه كثرة وجودة وتنوعا ، وأبو البقاء الرندى ، وفرضت نونيته الشهيرة فى رثاء المدن الأندلسية الهاوية فى يد النصارى نفسها على ذاكرة الزمان ، لما تميزت به من صدق العاطفة ، وعذوبة الموسيقا ، وتركت أثرا واضحا فى الشعر الذى جاء بعدها عربيا وإسبانيا ، وكان هناك شعراء آخرون أدنى مستوى .

لقد أوفى الإسلام فى الأندلس على غايته إبداعا ، وصافح بهذه النهاية مطالع النهضة الأوروبية ، وجاءت كتابات ابن خلدون العظيم إرهاصا بهذا التحول ، وهو أندلسى من إشبيلية ، هاجرت أسرته إلى تونس ،واستقر هو أخيرا فى القاهرة ، وسفر للأندلسيين عند ملوك النصارى ، وللمصريين عند تيمور لنك ، وعنده يلتقى عالمان : عالم تميل عنه الشمس ، وآخر تشرق عليه مبشرة بفجر جديد .

● ● ●

في صقلية عاش الإسلام أكثر من قرنين ونصف ، وواصلت الثقافة العربية

وجودها بعد رحيله قرابة قرن أو يزيد تحت حكم النورمانديين المستنيرين ، وارتبطت فى مجال العلم بمصر وشمال أفريقيا ، وفى دنيا الشعر بالأندلس ، ووصلنا ديوان شعر ضخم لشاعر صقلى كبير ، أمضى الشطر الأكبر من حياته بين المغرب والأندلس : ابن حمديس الصقلى ، وفارق وطنه ولمّا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره عندما غزاه النورمانديون ، ولم يعد إليه مرة أخرى أبدا ، ولكنه احتفظ له على الدوام بحنين لا ينفد ، وعبر عن هذا فى شعر موجع حزين .

وقد عاش ابن حمديس خير أيامه لاجئا عند المعتمد بن عباد ، قبل سقوط دولته ، وبعدها عاد ضائعا بين أمراء شمال أفريقيا ، ويبدو أنه أنهى أيامه فى أرض أندلسية ، فقد توفى فى جزيرة ميورقة ، ودفن فيها إلى جانب ابن اللبانة .

وثمة أشعار لشعراء صقليين آخرين ، وكتابا أو موظفين أو حتى من أمراء الجزيرة ، مبعثرة فى كتب المختارات العامة ، كالخريدة للعماد الأصفهانى ، أو حتى التى وقفها أصحابها على شعراء صقلية كالدرة الخطيرة لابن القطاع ، وكثيرون منهم رحلوا عن وطنهم عندما سقط فى يد النصارى إلى الأندلس أو المغرب القريب وإلى تونس بخاصة ، ومع القرن الثالث عشر احتضرت الثقافة العربية فى صقلية ، فى عهد أواخر النورمانديين ، ويلفت النظر أمران : أن أفضل القصائد العربية التى وصلتنا لا تعود إلى العصر الإسلامى ، وإنما إلى العصر النورماندى الذى تلاه ، وأنه لم يصلنا من موشحات الصقليين وأزجالهم شئ ، وليس هناك دليل على أنهم أبدعوا فى هذين النوعين .

● النثر فى العصر العباسى :

في العصر العباسي بلغ فن النثر ذروته فى زمن قصير ، وبخاصة فيما بين منتصف القرن التاسع ونهاية العاشر ، وكما فى الشعر كان العراق مصدر هذه النهضة ، ففيه عاش الناثرون الأكثر قدما ، ولو أن تطور الحياة فيما بعد سوف يقود على نحو ما ألمحنا سابقا إلى لامركزية الثقافة أيضا .

فى هذا العصر واصل عبد الحميد الكاتب رسالته ، وانضم إليه ابن المقفع ، وهو فارسى أيضا ، ويفوق زميله فى فى سعة ثقافته ، وكثرة إنتاجه ، وأسلوبه أميل إلى الإيجاز ، وأقرب إلى القصد فى السجع والبديع ، وأكثر حِكَما وأمثالاً، وأميل إلى التقسيم المنطقى فى التعبير ، وأسهم فى الترجمة من الفارسية إلى العربية ، فترجم كليلة ودمنة ، وأعمالاً أخرى أصيلة من الثقافة الساسانية ، من بينها " خدنامه " ، أى كتاب التاريخ الملكى ، وشئ من الأساطير الفارسية فيما قبل التاريخ ، ولو أن أياً من هذه ، ماعدا كليلة ودمنة ، لم يصلنا . وألف الأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة ، وهى نصائح موجهة إلى الحاكم عن أفضل الوسائل لاختيار معاونيه وممارسة سلطاته ، ولم يكن أديبا فحسب ، وإنما كان روحا قلقا ، ومهتما بالمشكلات التى تصطخب فى عصره . ومنذ هذه اللحظة سوف يصبح النثر العربى ، وكان متعبا فى بداياته الأولى ، مقنعا وسلسا وصالحا للتعبير عن كل ألوان الفكر وظلاله .

حتى إذا أتى الجاحظ ، وكان عربى الدم والفكر ،وعاش حياة قاربت التسعين أمضاها بين البصرة وبغداد ، أصبح إمام الناثرين دون منازع ، فوضع قواعد النثر الفنى علما ، وطبقه عملا ، وكان متنوع الثقافة واسعها ، دينية وكلامية وفلسفية وأدبية ، وكاد بتآليفه المتنوعة أن يمس كل موضوع فى عصره ، ويمزج فى عرضه بين الفكاهة الحلوة والاستطراد المريح ، والمزاوجة الجميلة ، وخير ما يمثل كل هذه الاتجاهات كتابه الحيوان .

كان الجاحظ يثير اهتمام القدامى والمحدثين دائما ، بوفرة إنتاجه ، وندرة مواده ، وحدة ملاحظاته ، وخفة دمه ، وكان ثابت بن قرة العالم المشهور يقول : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : عمر بن الخطاب ، والحسن البصرى ، والجاحظ . وقد أثر فيمن أتى بعده من الكتّاب تأثيرا بليغا ، موضوعات وأسلوبا ، وتجلى ذلك واضحا فى تلميذه الفكرى مفكر بغداد وأديبها : أبو حيان التوحيدى .

عاش التوحيدى حياة قاسية ، ضائعا بين بلاط وبلاط ، يرعبه البؤس وعدم فهم الأقوياء له ، وأضفت التعاسة على أعماله إيقاعا حزينا ومتشائما على النقيض من بشاشة أستاذه الجاحظ ومزاحه ، وكان إحساسه بالواقع قويا ، فأضفى على كتاباته أهمية فلسفية ودينية وتاريخية وثقافية ، وقدم لنا صورة دقيقة عن القضايا التى كانت موضع الحوار فى منتديات بغداد ، أصيلة أو وافدة دفع بها المترجمون والمعلقون على الفلسفة اليونانية ، فجاء صنو الجاحظ مرآة صافية للحياة الثقافية على أيامه ، وقد شارك فى هذا الحوار ، ورسم صورا ساخرة لبعض الشخصيات التى عرفها مؤكدا على ملامحها الحسية ، وكان قاسيا فى بعضها ، وبذلك سبق فن الكاريكاتير الساخر ، وبعده بألف عام تقريبا سوف يحتذى نهجه أديب مصرى هو عبد العزيز البشرى فى كتابه " المرآة " ، وإن جاء دون التوحيدى فنا واقتدارا .

ثم خلف هؤلاء قوم ابتعدوا عن المزاوجة ، واقتربوا من السجع الكامل تدريجا إلى أن أصبح هذا مدرسة على رأسها ابن العميد ، ومن رجالها أبو اسحاق الصابى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى والحريرى ، وتنمقوا فيه ، وأثقلوه بالبديع ، وقد يأتى الكتاب كله مسجوعا ، وشمل ذلك الكتب الرسمية والإخوانيات وغيرها إلا فى القليل ، ودخلتها أفانين من الصناعة والحيل ليست من الأدب فى شئ ، كأن يقرأ الكتاب من آخره إلى أوله ، أو إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتابا ، وإذا عكست سطوره مخالفةً كان جوابا ، وكتاب يخلو من الراء المتصلة أو الدال المنفصلة ، أو إذا فُسر على وجه كان مدحا وعلى وجه آخر كان ذماً ، أوكتاب كله حروف معجمة أو كله حروف مهملة ، إلى غير ذلك من الألغاز .

وقد رد ابن خلدون هذه الظاهرة إلى فقر الكتّاب فى المعانى ، وغلبة العجمة على الألسنة ، " وقصورهم عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكتاب المرسل لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساخ خطوبه، وولعوا بهذا

السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك " .

وقد عرف الأدب العربى القصة منذ أزمانه الأولى ، تجئ مستقلة وبعيدة عن أية غاية خلقية أو تربوية وعن أى تأثير أجنبى ، وإنما عفويا شأن كل الثقافات البدائية تقريبا ، وتجئ فى العصر الجاهلى خليطا من الشعر والنثر ، ومن الحقيقة والخيال ، وتدور حول الشجاعة والكرم والمغامرات العاطفية ، والكراهية والثأر والغارات ، وسوف تثرى هذه القصة وتتنوع تدريجا مع اتساع الدولة ، وتمازج العناصر والثقافات المختلفة ، فقد قدمت كل جماعة أسلمت أو خضعت للإسلام قصصها ، فكان بين الناس قصص يعود إلى أصول هندية وفارسية ويونانية ومصرية ، يقص باللغة العربية ، ثم جُمع ودُوِّن ، واتخذ شكلين متمايزين : شعبى يحكى بلسان العامة ، أو فى لغة قريبة الشبه من اللغة الشعبية ، وعلى رأسه " ألف ليلة وليلة " ، وإلى جوارها قصص أخرى ضاع أكثرها . وقصص يكتب للخاصة فى لغة أدبية راقية ، مثل مقامات بديع الزمان أو الحريرى ، أو يترجم مثل كليلة ودمنة ، وسنعرض لهذه الأنواع فى دراسة كلية مستقلة تشمل الآداب الإسلامية كلها .

* * *

على أن المرء لا يستطيع أن يمر عجلا بشخصية ذات أثر بالغ فى تطور القصة العربية ، وقلّما يعرض لها المؤرخون والنقاد والمحدثون ، وأعنى بها شخصية التنوخى ، وهو من البصرة ، وأمضى حياته كلها فى عراق القرن العاشر ، وتولى منصب القضاء فى عدة مدن ، ونسى التاريخ مناصبه ولم يعد يذكره إلا قصاصا وندين له بعملين هامين هما : نشوار المحاضرة ، والفرج بعد الشدة ، وتعوز الأول منهما دقة التنظيم ، والثانى وهو الأشهر تتحرك أقاصيصه حول المساعدة الإلهية تجئ منقذة فى اللحظة المناسبة ، ولقد سبقه فى ذلك ابن أبى دنيا المتوفى ٨٩٤م ولكن كتابى التنوخى أتيا على كل ماسبقهما ، فقد عرف القاضى الذكى كيف

يضفى الوحدة على مادته ، انتقاء وتجميعا وربما أيضا إعادة تحرير ، وفيهما - كما فى أى أدب قصصى - تبهت الحدود الفاصلة بين ما هو حقيقى وما هو خيالى ، وتبدو الأحداث كما لو كانت قد وقعت فعلا ، وعاشها أصحابها وعانوها ، ولعلها فى جانب منها كذلك ، ولكن ما يهمنا هو الجانب الخيالى ، ويجئ متناسقا ومتوترا ، ويتراوح بين الحكاية الحقيقية والمغامرة المأسوية أو المضحكة ، والقصة البوليسية ، وتاريخ العصر على امتداده ، وما أكثر مآسيه ! ، يقدم للمؤلف مادة وفيرة ، ومن ثم كانت إلى جانب قيمتها الفنية وثيقة قيمة للعادات والتقاليد وملامح الحياة العامة والخاصة في ذلك القرن .

ويجئ الشابستى المتوفى ١٠٠٨م ، كاتب الخليفة الفاطمى العزيز ، فى مؤلفه " الديارات " امتدادا للتنوخى فى كتابيه ، وقصصه واقعى ملتقط من الحياة المعاصرة له ، أو من الماضى القريب ، ويقودنا فيه عبر أديرة العراق ومصر ، لا بوصفها أمكنة عبادة وتقى وإنما مهابط سهرات ممتعة ، ولقاءات ماجنة ، حيث يلتقى الفنانون من كل الطبقات ، وتتخلله حكايات عن الطبقة العليا فى مجتمع الخلافة ، وهو أكثر متعة ، وربما أقرب إلى الصدق ، من المشاهد التى يحفل بها كتاب ألف ليلة وليلة .

● ● ●

ويسجل القرن الثالث عشر أعنف أزمة مرت بالعروبة والإسلام ، فقد تناثرت الدولة ، وانفصلت الأطراف عن القلب ، وقامت الممالك المستقلة هناك أو هناك ، صغيرة تارة وقوية تارة أخرى ، وظلت الدول الواقعة على شاطئ البحر الأبيض موضع تهديد أوروبا . وفى الغرب تأكد الزحف النصرانى على الأندلس ، وبدأت المدن الكبرى تتساقط أمام جحافله وقد أبطأ بسقوطه المرابطون قليلا ، ثم الموحدون من بعد ، وخلف هؤلاء أقوام فى المغرب ، ودول غفلت عن المصيبة فى المشرق ، فاذا بالإسلام وقد اجتث من الأندلس نهائيا .

ثم جاء الأتراك العثمانيون وأرعبوا أوروبا ، ولكن العروبة قوة خالقة ،

سياسيا وثقافيا ، لم تَعاف من ضعفها ، وبدأت مرحلة احتضار طويلة ، بلغت غايتها فى مطلع القرن السادس عشر حين أخضعت الإمبراطورية العثمانية البلاد التى كانت مهد الثقافة العربية وموئلها : الجزيرة العربية ، والشام والعراق ومصر وحكمت هذه الشعوب على امتداد أربعة قرون كانت أبهى عصور التاريخ العثمانى .

إن العصر العظيم للثقافة العربية فى العصور الوسطى قد انتهى ! .

ومنذ نهاية القرن الثالث عشر وحتى مطلع التاسع عشر ، كانت أوروبا تندفع فى طريق النهضة لتستقر فى العصر الحديث ، على حين انكمش العالم العربى على نفسه ، يلملم أشلاءه ، ويجتر ماضيه الثقافى ، دون أن يضيف إليه جديداً.

وأوضح ملامح عصر الاحتضار فى مجالات الأدب شعراء تنقص معظمهم الأصالة الفنية وجمهرة عريضة من الموسوعيين الكبار فى الأدب واللغة والتراجم والتاريخ والجغرافيا ، تجمع أو توجز ، وتشرح أو تعلق ، واحتفظت لنا بالكثير من القديم وقلما أضافت إليه جديدا .

وقد غلب على شعراء هذا العصر التقليد الواضح ، وغرقوا فى التنميق اللفظى ، وأولعوا بالتورية ، ونظموا الألغاز والأحاجى ، والتزموا مالايلزم ، وشاعت المدائح النبوية كما لم تكنه يوما ، وبرز من شعرائه الشاب الظريف وله غزل رقيق ، وبزهم البوصيرى جميعا بتقواه الدينية ، وقصائده الصوفية ، ومدائحه النبوية ، وامتازت هذه بالرصانة والجزالة ، وحسن استعمال البديع . وصفى الدين الحلى ويعد فى طليعة شعراء هذاالعهد ، وأغرم بالبديع ، ونظم القصائد التى تجمع أنواعه وتعرف بالبديعيات ، وينزع إلى هجر العويص من الألفاظ ، واستعمال السهل السائغ ، وكان ابن نباته ينازعه الزعامة الشعرية ، وإن غلب عليه التشكى ، وعلى معانيه التكرار ، وعلى أسلوبه الصناعة اللفظية وغير هؤلاء : ابن الوردى ، وابن معتوق ، والتلعفرى ، والوراق ، وابن حجة الحموى ، وعائشة الباعونية ، وعبد الغنى النابلسى ، وعبد الله الشبراوى .

● ● ●

وفى هذاالعصر أخذ خيال الظل شكلا أدبيا ، وهو من أصل صينى ، وأرجح أنه دخل مصر فى أيام الفاطميين فى القرن العاشر الميلادى ، أو قبله بقليل ، وسوف يشير إليه ابن حزم صراحة ، وهو أندلسى من القرن الحادى عشر ، وكان جل الفنانين في الأندلس من المصريين ، وأصبح يتمتع فى هذه القرون باقبال شديد ، وارتبط به اسم الطبيب المصرى ابن دانيال ، المتوفى ١٣١٠م ، والذى تدين له بثلاث مسرحيات وصلتنا فى لغة أدبية تتخللها مقاطع فى اللغة العامية، وهى : طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، والمتيم . وتتضمن مشاهد مسرحية خفيفة ، ليست بذات قيمة فنية عالية ، ولكنها بالغة الأهمية لندرة شكلها الأدبى ، والواقعية اللاذعة فى بعض مشاهدها الملتقطة من جوانب الحياة الشعبية فى مصر ، على نحو ما نجدها فى ألف ليلة وليلة : عشاق وثرثارون وصياع وسماسرة فى السوق وفى الشارع ، ولكن هذه الفكرة لم تتطور ، وكان يمكن أن تصبح المنطلق نحو فن مسرحي راق فى الأدب العربى الوسيط ، ولم تجد محاولة ابن دانيال ما تستحقه من تقدير ، ذلك أن العامة ألفوا الأشكال العامية فى الفن ، وكان الارتقاء بهم إلى مستوى الفصحى أو الفن الأرقى فى تلك الأيام صعبا ، على حين تركها الأدباء والنقاد جانبا ، ورأوا فيها شيئا لايليق بالأدب العالى .

● ● ●

هكذا كان الأدب العربى فى أيامه الأخيرة التى سبقت القرن التاسع عشر ، راكدا يخلو من الحياة ، ويتلهى بالأزجال والألغاز والأحاجى ، ويعكس صورة مجتمع منطو على نفسه ، لايشعر بحركة الدنيا حوله ، والتقدم الذى تحرزه فى مجالات العلم والأدب والفن ، وسيبقى كذلك إلى أن تتهاوى الحواجز العالية التى تعز له عن العالم ، وكانت فى البداية فى مصر ، مع محمد على الكبير ، فى مطلع القرن التاسع عشر ، حين اتصلت مصر بحركة الحياة المتدفقة فى أوروبا، فتأملت وفكرت وقررت ، ومضت تبنى نفسها فى شتى مجالات الحياة ،

مادية وفكرية والشرق من ورائها ...

● ● ●

وتبقى كلمة ..

" إن العربية الفصحى تدين حتى يومنا بمركزها العالمى أساسيا لهذه الحقيقة الثابتة ، وهى أنها قد قامت فى جميع البلاد العربية ، وغيرها من الأقاليم الداخلة فى المحيط الإسلامى ، رمزا لغويا لوحدة العالم الإسلامى ثقافة ومدنية . وبَرْهن جبروت التراث العربى الخالد التالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر . وإذا صدقت البوادر ، ولم تخطئ الدلائل ، فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد من حيث هى لغة المدنية الإسلامية ، ما بقيت هناك مدينة إسلامية "

الفقرة السابقة للمستشرق الألمانى يوهان فك ، فى كتابه " العربية : دراسة فى اللغة واللهجات والأساليب " ، ولن أزيد عليها شيئا ، وحسبنا به شاهدا محايدا ! .

رحلة الخط العربى
بين اللغات الإسلامية

جاء انتشار الخط تاليا لانتشار اللغة العربية ، وأوسع مساحة منها ، لأن الشعوب التى اعتنقت الإسلام واحتفظت فى الوقت نفسه بلغاتها الأصلية ، أو عادت إليها ثانية فيما بعد ، وأفادت من تقدم الحضارة الإسلامية ، أخذت تستخدم الحرف العربى فى تدوين لغاتها ، ولعل اللغة الفارسية أول من أقدم على هذه الخطوة ، إذ لم تكن لها أبجدية خاصة بها ، وإنما استخدمت الخط المسمارى قديما ، ووصلتنا منه بعض نقوش لم يبق منها سوى كلمات مفردة ، من حروف ساكنة ، لاتقدم مفهوما صوتيا واضحا . وفيما بعد ، خلال فترة اللغة البهلوية ، استخدمت حروفا مأخوذةمن اللغة الأرامية ، وفيها كتب مانى كتابه الشهير " شابور " ، وأهداه إلى الملك شابور الأول ، وفيها أيضا كتب الساسانيون نقوشهم ، وضربوا نقودهم ، وما وصلنا من هذه قليل أيضا .

فلما انتشر الإسلام فى ربوع فارس وصحبته العربية ، هجر الناس البهلوية وحروفها ، لأن الدولة زالت ، والديانة الزرديشتية انتهت ، وتسارع الفرس إلى تعلم العربية وإتقانها أولا ، ثم كتابة الفارسية بالخط العربى بدل الحروف البهلوية، مع زيادة حروف معينة اقتضتها طبيعة الأصوات الزائدة فى اللغة الدرية أو الفارسية الجديدة.

ولما وصل الإسلام إلى السند ، واختلط المسلمون بأهلها ، وظهرت اللغة الأوردية إلى الوجود ، بدأ الهنود يكتبونها بالخط الديوناكرى ، على حين أخذ المسلمون يكتبونها بالخط القارى (أو الكارى) ، ولم يكن فى مقدور الخط الديوناكرى استيعاب الأصوات العربية والفارسية ، وتمثل جانبا كبيرا فى اللغة الأوردية . وثمة لغات أخرى فى شبه القارة الهندية الباكستانية تكتب فى الحرف العربى ، وهى : البنجابية والسندية والبلوتشبه والبوشتو والكشميرية ، والسنديون يفضلون خط النسخ ، بينما تكتب الأوردية فى الصورة الخط الفارسى

فى هذه اللغات كلها تعرض الخط العربى لتغيرات نظرية اقتضتها طبيعة تطور اللغات نفسها ، مع إضافة بعض الحروف الجديدة للتعبير عن الأصوات الزائدة ، وهى قضية قديمة كان الجاحظ أول من تنبه لها ، ولحظ أن الأبجدية العربية غير كافية لتصوير الكلمات فى منطقة خوزستان . ومن بعده بقرون أبدى ابن خلدون الملاحظة نفسها حين عرضت له الأسماء البربرية واللاتينية ، ووجد الحروف العربية قاصرة عن رسم أصواتها . ولما كانت المطبعة العربية عُرفت متأخرة ، والاعتماد على الكتابة باليد ، يخطها النساخ تبعا لقدراتهم ، وطبقا لما يسمعونه ، فتجئ التاء مكان الطاء ، والهاء مكان الحاء ، أو العكس ، تزعم شعراء الأوردية حركة إصلاحية عام ١٧٤٠م ، دعت إلى تصحيح الإملاء وطريقة الكتابة ، إلى جانب تصحيح الأساليب والتراكيب اللغوية . ولم يكن شيوع الحرف العربى وقفا على اللغات التى يتكلمها المسلمون فحسب ، ذلك أن بعض الهنود كانوا يكتبون اللغة السنسكريتية بحروف عربية أيضا ، على حين أن بعض المسلمين كتبوا الأوردية بالحروف الديوناكرية .

حاولت الهند ، وتحاول الآن ، أن تقضى على الخط العربى واللغة الأوردية على السواء ، ففرضت الجمود والتخلف على المؤسسات الإسلامية ، وأمسكت عن تقديم أى عون لها ، مثل ما فعلوا مع الجامعة الإسلامية الحزينة فى دهلى ، وجامعة عليكرة المشهورة ، ومكتبة دانش محل ، أى قصر العلم ، فى لكهنو ، وكلها ذات تاريخ حافل عريق . ولعب غاندى دورا ذكيا فى الدعوة إلى تجاوز الأوردية وترك الخط العربى ، متخفيا وراء العلمانية ومبدأ المساواة . وإذا كانت الأوردية لغة قد تأصلت ، وثبتت أقدامها ، وأثبتت قدرتها وكفاءتها ، ولاسبيل إلى اجتثاثها أو إضعافها ، فان الخط العربى لايزال يواجه هجوما ضاريا .

شن الأدباء والكتاب الهنود حملة ضارية ومكثفة للقضاء على الحروف العربية، والدعوة إلى استخدام الحروف اللاتينية أو الدوناكرية لكتابة اللغة الأوردية ، وألفوا فى ذلك الكتب لإقناع المسلمين باستخدام الخط الديوناكرى ،

فألف كيان جند كتابه " لسانى مطالعة " ، أى قراءات فى علم اللغة ، وكتبه بالأوردية مباشرة ، وطبعته الحكومة الهندية على نفقها ، ووزعته على أوسع نطاق بسعر زهيد ، ومجانا فى أغلب الأحيان . وفيه ينكر أن تكون هناك لغة أوردية مستقلة، لأن اللغة الهندية تعبر فى الأصل عن جميع سكان شبه القارة الهندية ، وأنها تكتب بثلاثة طرق : بالخط الديوناكرى ، وهى الهندية الراقية ، وبالخط الفارسى العربى وهى الأوردية ، وبالخط اللاتينى وتعنى الأوردية أيضا ، واستخدام هذا الخط محدود .

ثم يتحدث إلى مسلمى الهند ، ويعلنهم : إن الحفاظ على الخط العربى للحفاظ على وحدة المشاعر مع العالم الإسلامى أمر لاترتضيه الأغلبية فى شبه القارة الهندية ، وأن معظم اللغات الأفريقية استغنت عن الخط العربى ، واتجهت إلى كتابة لغتها بحروف لاتينية ، ومثلها تركيا . كما أن الخط العربى فيما يزعم لم تعد له القوة السابقة نفسها ، وأن معظم البلاد الإسلامية كالملايو وأندونيسيا بدأت تستخدم الحروف اللاتينية ،ويستنتج من هذا أن الحروف العربية فقدت مكانتها العالمية والإسلامية إلى حد كبير .

ويبلغ به الانفعال قمته ، فيرى أن الفرق بين حرفى ت و ث نقطة واحدة ، وهذا يتعب العين ، ونسى أن التفرقة بين الحروف الهندية لاتتعب العين فحسب ، بل تصيبها بالعمى ، وينتهى من هجومه مؤكدا : " لامكان للحروف العربية الفارسية فى الهند ، ولايمكن تعضيد فكرة هذه الحروف من أى جانب سوى أنها تعبر عن العواطف الإسلامية ، وهذه العواطف إن دلت على شئ فانما تدل على قصر النظر وضيق العقل ... "

إلى هذا الحد يضيق هندوكى بالحرف العربى !

ويمضى فى الطريق نفسه هندوكى آخر ، سنيتى كمار جنزجى ، من علماء اللغة ، يهاجم الخط العربى فى مثل ضراوة صاحبه ، ويؤلف فى هذا أكثر من كتاب ، أهمها هندى آريانى أور هندى "، أى الهندية الآرية والهندية ، وترجمه

إلى إلى الأوردية عتيق أحمد صديقى ،ولأنه يمثل هجوما على اللغة الأوردية والخط الذى تكتب به طبعته الحكومة الهندية على نفقاتها ، ووزعته على نطاق واسع ، ويثمن زهيد .

تقاوم الحكومة الهندية استخدام الحرف العربى علانية ، وتحول دون كتابة أسماء المحلات والإعلانات به ، والمسافر فى الهند لايطالعه الخط العربى الذى تكتب به الأوردية طوال البلاد وعرضها إلا فى أماكن محدودة للغاية : حول المسجد الجامع فى دهلى ، ولفتات المكتبات التى تبيع بقايا الكتب الأوردية ، ويشعر الزائر أن هذا الخط يلفظ آخر أنفاسه ، ومعه المكتبات أيضا !

وقد استعمل الأفغان الخط العربى لكتابة لهجتهم " الباميرية " ، وزادوا على الحروف العربية بعض الحروف الخاصة حتى تكون وافية بصوتيات لهجتهم ، وكتب به البلوخستانيون لغتهم ، وبخاصة ما اتصل منها بالكتب الدينية ، وفى الهند يكتب أهل كشمير بالحروف العربية ، رغم ضغوط الاستعمار الهندى وفيه كتب أهل أرخبيل الملايو من المسلمين لغتهم " الملقية " ، ومثلهم فعل أهل جاوة والمسلمون من سكان الفلبين .

لم تكن للغات الأفريقية أبجديات خاصة بهاء ، وعرفت عالم الحرف مع الإسلام والعرب ، فاتخذت من الخط العربى وسيلة لتقييد لغتها ، ووجدت الكتابة العربية أعظم رواج لها فى مدغشقر ، التى ساد فيها الإسلام مبكرا ، ولكثرة التجار العرب الوافدين على الجزيرة ، ولايقتصر الخط العربى هناك على اللغة العربية وهى معروفة ، ولاعلى السواحلية وهى شائعة ، وإنما كان مستخدما فى تدوين اللهجات المحلية أيضا .

وظلت السواحلية ، وتستخدم فى شرق أفريقيا كله ، تُكتب بالحرف العربى حتى مطلع القرن التاسع عشر ، حين وفد إلى هناك المنطقة المنصّر الألمانى لودفيج كراف طليعة الاستعمار الألمانى فى هذه المنطقة كما هى العادة والخطة : يجئ الداعى إلى المسيحية أولا ، ويتلوه التاجر لاستثمارها ثانيا ، ثم الجندى

لحراستهما أخيرا ، فأخذ يحث الناس على كتابة السواحلية بالأحرف اللاتينية ، ليوهن الصلات القائمة بينها وبين اللغة العربية أولا ، ويضعف الإسلام ثانيا ، ويؤكد للمسيحية فى نهاية المطاف ، ويتلوه رأس المال فالجيوش . وكان شديد التحمس لفكرته هذه ، وقد ترجم إنجيل لوقا إلى اللغة السواحلية ، وكتبه فى حروف لاتينية عام ١٨٤٥م ، وأعطاه عنوانا :" Taf siri " ، والكلمة عربية كما ترى ، ونشره عام ١٨٨١ ، ثم تبعه تلميذه شتير steere فنشر كتابه " مختصر اللغة السواحلية المتكلمة فى زنجبار " ، وحكايات سواحلية ، وكلاهما فى الحرف اللاتينى أيضا .

وعندما وصل الاستعمار إلى المنطقة حمل الناس حملا على ترك الخط العربى، والأخذ بالكتابة اللاتينية ، فتراجع عنه كثيرون ، واتخذوا من هذه أداة كتابة ، وتمسكت بالحرف العربى بقية أصرت على استعماله ، فهو الحرف الذى كُتب به القرآن الكريم ، وأما الحرف اللاتينى فيذكرهم بأيام التنصير القاسية ، وعصور الاستعمار البغيضة ، وتسلُّط الرجل الأبيض على أرزاقهم ومقدراتهم .

وظلت الصومالية غير مكتوبة إلى وقت قريب ، وعندما استعمر الأوروبيون الصومال ، الفرنسيون والإيطاليون والإنجليز ، بعد أن سبقهم إليه المنصرون والمكتشفون ، أخذوا فى عزل الشعب الصومالى المسلم عن جيرانه من العرب والمسلمين ، بانسائه اللغة العربية التى يتكلمها ، وجعله يكتب لغته الأفريقية فى حروف لاتينية ، ولما استقل الصومال بعد عام ١٩٥٠ ، وكانت مصر وراء استقلاله إقليميا ودوليا وتمويلا ، طرح الصوماليون مشكلة أبجديتهم من جديد وشهدت الساحة عدة تيارات :

تيار وراءه الحبشة يدعو إلى كتابة اللغة الصومالية بالحروف العثمانية ، نسبة إلى مبتكرها عثمان يوسف كنديد ، وهى تشبه حروف اللغة الأمهرية التى تستخدمها الحبشة ، وتكتب من الشمال إلى اليمين وتتكون كالعربية من تسعة وعشرين حرفا ، وتشبهها فى ترتيب الحروف ، ووجود حروف مد للحركات

الطويلة ، وأقيمت فى مقديشيو العاصمة عدة مدارس لتعليم الصومالية بهذه الحروف ، ولكن الحركة ضعفت أثناء القتال الضارى مع الحبشة من أجل استرداد إقليم أوجادين ، وهو صومالى أصلا ، وسكانه مسلمون ، ولكن الاستعمار اقتطعه من الوطن الأم وضمه إلى الحبشة ، إلى جانب أن نظام هيلاسلاسى نفسه سقط ، وسقط من بعده نظام مريام هيلامنجستو ، واندلاع الثورات القبلية فى مختلف الأقاليم ، وانشغال الحبشة بأمورهاالداخلية ، وتوقفت المدارس .

وينادى عملاء الاستعمار والكنيسة ، وهم الأدق تخطيطا ، والأكثر تنظيما ، والأعلى صوتا ، بكتابة الصومالية بالحروف اللاتينية ، ويجدون دعما قويا من الدول التى استعمرت الصومال بأقسامه المتعددة ، وقطعوا فى ذلك شوطا كبيرا، وكتبوا نصوصا صومالية عديدة بالحرف اللاتينى ، وفى عام١٩٦٦ أصدر صومالى يدعى شرى جامع مجلة أطلق عليها اسم " إفتنكا أقنتا " ، أى ضوء المعرفة ، بحروف لاتينية ، وكان يصدرها مرتين فى الشهر ، ثم أصبحت شهرية ، ثم توقفت . ولكن الدعوة نفسها ، وإن خفت صوتها ، لاتزال تجد من يتبناها .

أما التيار الأكثر عددا ويضم جمهرة المثقفين فينادى بكتابتها بالحروف التى كُتب فيها القرآن الكريم ، وتبنى المحاولة أفراد متحمسون فى الربع الأول من هذا القرن ، منهم الشيخ قاسم البراوى . وفى عام ١٩٦٢ قام إبراهيم حاشى باصدار كتاب أسماه " الصومالية بلغة القرآن " ، واستخدم فيه الحروف العربية ، ومتأثرا ببعض المحاولات التى عرض لها مجمع اللغة العربية فى القاهرة وكان لها صداها فى الصحافة الأدبية فى تلك الأيام ، استبدل الحركات بحروف ، فالكسرة تمثلها الياء ، والألف تمثل الفتحة ، والضمة تمثل الواو .

ويلفت النظر أن محاولة حمل الشعب الصومالى على كتابة لغته بحروف لاتينية ، لاتستهدف الحرف العربى فحسب ، وإنما اللغة العربية نفسها ، لأن هناك كثيرين يتحدثون بها ، ثم الإسلام بعد القضاء على الحرف العربى واللغة العربية . وبعد تحرر الصومال ، ودخوله عضوا فى الجامعة العربية أخذت المشكلة

وجهة أخرى ، لم يعد الحرف هو القضية الأولى ، وإنما اللغة العربية نفسها هى التى يجب أن تستحوذ على الاهتمام كله ، شعبيا ورسميا ، عربيا وإسلاميا ، وحين تسود اللغة العربية ، وهو أمر ليس ببعيد مع شئ من التنظيم والمنهجية والمثابرة ، يومها سوف تموت الدعوة إلى كتابة الصومالية بالحروف اللاتينية من نفسها ، وتصبح غير ذات موضوع .

وعرف الأحباش الخط العربى ، ودونوا فيه لغاتهم ولهجاتهم المختلفة ، لاسيما في الجنوب حيث يستخدم السكان اللهجة الأمهرية واللغة الهررية ، وشاع الخط العربى من قديم بين القبائل الكوشية التى تنتشر فى الحبشة وجنوب النوبة . وكان الخط العربى مستخدما بين شعوب أفريقيا الوسطى ، والرابطة التى تجمع بينهم فى شئون التجارة ، والتفاهم فى كثير من أمور الحياة وكانت مالى إلى ما قبل الاستعمار الفرنسى تتخذ العربية لغة ، ولهم خصائص معينة فى نطق حروفها ، وطريقتهم فى الخط طريقة المغاربة ، على حد تعبير القلقشندى فى صبح الأعشى ، وبعد الاستعمار أصبحت الفرنسية هى لغة الإدارة ، وبعضهم حاول فى غير منهج ، وبمبادرة شخصية ، أن يسجل لهجاتهم المحلية بالخط العربى .

وتستخدم الهوسا ، ومعظم اللهجات المحلية فى نيجيريا ، الحرف العربى فى الكتابة منذ زمن بعيد ، ويستخدمون الرسم المغربى ، إلى أن أنشئت المدرسة العربية فى كنو عام ١٩٤٧ ، فبدأ استخدام الرسم الحديث السائد فى حروف الطباعة ، لأن الذين كانوا يتولون التدريس فيها استقدمهم المستعمر من السودان ثم انتشر هذا الرسم فى بقية المدارس ، وأصبح المستخدم الآن فى جل المدارس الحديثة .

غير أن المدارس القرآنية ، والحلقات العلمية لاتزال تستخدم الرسم المغربى ، ولاتزال المصاحف تكتب بهذه الطريقة ، ومن خصائص كتابة المصاحف عندهم أن علامات المد وأواخر الايات ترسم بمداد أحمر حتى لاتختلط بألفاظ القرآن الأصلية

ويعجمون الفاء والقاف على الطريقة المغربية ، الفاء نقطة واحدة من أسفل ، والقاف نقطة واحدة من أعلى ، بمداد أسود فى الغالب ، وهناك من يستخدم المداد الأحمر فى إعجام هذه الحروف وغيرها ، ومن يرسمون حرف الياء فى آخر الكلمة هكذا > ، مثل الذ > ، ويتبعون الترتيب الهجائى المشرقى ، وكانت المدارس القرآنية والحلقات العلمية تستخدم الترتيب المغربى إلى وقت قريب .

كانت العربية لغة الدولة الرسمية فى نيجيريا قبل الاستعمار البريطانى ، وكان الناس إلى جانب ذلك يكتبون ويتعلمون لهجاتهم المحلية فى الحرف العربى إلا أن الاستعمار البريطانى بدأ منذ عام ١٩٠٩ ينشئ لونا من المدارس البدائية للتعليم ، القصد منها محاربة اللغة العربية والحرف العربى ، إذ جعل التعليم فيها بلغة الهوسا مكتوبة بالحرف اللاتينى ، وجعل الإنجليزية اللغة الرسمية ،ما عدا المحاكم الشرعية فقد واصلت استخدام اللغة العربية والخط العربى حتى يومنا هذا .

عند كتابة لغة الهوسا بحروف عربية تعرض لحالات ثلاث : حروف عربية لها ما يقابلها فى لغة الهوسا ، وهى سبعة عشر حرفا : أ ب ت ج د ر ز س ش ك ل م ن ه و لا ى . وحروف عربية توجد فى لغة الهوسا ، ولكنها تُنطق بطريقة مختلفة عن الطريقة العربية ، وهى : ط غ ف ق . وحروف لا توجد فى لغة الهوسا إطلاقا وهى : ث ح خ ذ ض ظ ع ص . وثمة لهجات أفريقية أخرى فى نيجيريا تُكتب ، أو كانت ، بالحرف العربى ، وأهمها : البريا والأبو .

بدأ الأتراك يستخدمون الحرف العربى منذ أن اتخذوا الإسلام دينا ، فقد أحبوا دينهم وكل ما يرتبط به ، وآثروا الخط الذى كتب فيه القرآن الكريم على غيره من الخطوط ، وتركوا الحروف السابقة على الإسلام . والتركية لغة ليست وقفا على تركيا المعاصرة وحدها ، وإنما يتكلمها جانب كبير من شعوب ما وراء النهر، ما كان منها تحت الحكم السوفيتى أيام صولته ، تركستان والقوقاز وأذربيجان ، واستقل الآن أو انضم إلى دول الكومنولث الجديد ، أو لايزال خاضعا للاحتلال

الصينى ، ولو أنها تختلف لهجة من منطقة إلى أخرى ، ويعتبرون لهجة اسطنبول هى الفصحى التى يجب أن تحتذى .

ولما تولى كمال أتاتورك السلطة فى البلاد عام ١٩٢٣ ألغى الدولة العثمانية من الوجود ، والخلافة الإسلامية من على الأرض ، واتجه بالشعب التركى إلى الغرب ، وجعل مثله الأعلى أن يصبح غربيا ، وكان هذا هدفه من كل الإجراءات التى اتخذها ، وأثبتت الأيام فشلها كلها ، وتعود تركيا الدولة إلى الإسلام اليوم ببطء ولكن فى ثبات ويقين ، أما الشعب فلم يتزعزع إيمانه بدينه لحظة واحدة . ويهمنا هنا ما قام به إزاء الحرف العربى الذى كانت تكتب فيه اللغة التركية ، فقد أنشأ مجمع اللغة التركية وجعل مهمته تنقية التركية من الألفاظ العربية واستبدالها بكلمات تركية منحوتة من أصول بادت ، ولم يعد يستخدمها أحد ، أو استبدالها بمصطلحات من اللغات الأوروبية ، وبخاصة الفرنسية ، ثم أمر بالغاء الحروف العربية ، واستبدالها بالحروف اللاتينية ، وهى خطوة عزلت الأجيال الحديثة عن تراثها المكتوب بالخط العربى ، وكان لها أثرها العملى فى عزل الأتراك عن بقية المتحدثين بهذه اللغة فى بلاد ما وراء النهر ، وبخاصة بعد التطورات السياسية الجديدة .

إن الحرف العربى لم يكن يربط الأتراك بالعرب والمسلمين فحسب ، وإنما كان يجمع بينهم وبين بقية الأتراك الأخرين أيضا .

ما قام به كمال أتاتورك فى تركيا تولاه الاتحاد السوفيتى يوم كان فى تركستان ، وهى منطقة واسعة ذات ثقافة إسلامية عريقة ، تتكلم التركية ، وتكتبها بالخط العربى ، فأصدرت الحكومة السوفيتية عام ١٩٢٤ قرار بالغاء الحرف العربى على أن تحل مكانه الأبجدية اللاتينية ، مضافا إليها بعض الحروف الروسية ، والتخلص من كل الكتب المطبوعة بحروف عربية . وفى عام ١٩٤٠ صدر قرار بالغاء الحروف اللاتينية ، على أن تحل مكانها الحروف الروسية ، على أن تحرق الكتب التى بالحرف اللاتينى .

كان وراء إلغاء الحرف العربى وحَمْل المسلمين على الخط الروسى غايات أبعد من مجرّد الكتابة ، لأن اتخاذ الأخير وسيلة للكتابة سوف يعزل المسلمين عن التراث الإسلامى ، وهو رائع وعظيم وجله بالخط العربى ، ويفتح الباب أمام تسرب الكثير من ألفاظ اللغة الروسية ومصطلحاتها وتعبيراتها وحتى روحها إلى اللغة التركية التى يتحدثها أهل تركستان ، ويبدو ذلك واضحا من أن الأمر لم يتوقف عند إلغاء الحرف العربى وحده ، وإنما صاحبه إلغاء الكلمات والمصطلحات العربية ، وبخاصة التقنية والسياسية والأدبية ، وإحلال الروسية محلها .

ويمكن أن يقال الشئ نفسه عن تركستان الشرقية التى تحتلها الصينى ، فقد اغتالت هذه الحرف العربى رسميا عام ١٩٥٦ ، وأحلت مكانه الحرف الروسى حين كانت العلاقات بين الدولتين حميمة وثيقة ، فلما توترت فيما بعد صدر قرار عام ١٩٦٠ بتجريم استخدام الحرف الروسى ، واستخدام أبجدية جديدة أساسها الحرف الصينى والحرف اللاتينى .. وإحلال المصطلحات الصينيةبدل العربية أو الروسية ، غير أن الأمور بدأت تتحسن الآن ، وأخذت قبضة الدولة الخانقة تخف بعض الشئ .

● الأبجدية الألبانية والحرف العربى :

تستحق التجربة الألبانية فيما يتعلق باتخاذ الحرف العربى أداة لكتابة اللغة الألبانية وقفة مستأنية ومستقلة لدواع شتى منها :

● أنها تكشف أهمية أن يكتب الآخرون لغتهم فى حروف أبجديتك ، ذلك يعنى بداهة مزيدا من العلاقات القوية بين من أعطى ومن أخذ ، فى مجال الأدب والفكر والثقافة ، والناس فى نهاية المطاف . وفى التجربة الألبانية التى سوف نعرض لها ، يتجلى واضحا أن الصراع لم يكن حول مجرد أن ترسم اللغة الألبانية بالحروف العربية أو غيرها ، وإنما اتخذ فى الحال طابعا سياسيا ، وهو ما يمكن أن نقوله ، أو نتصوره ، أو ندركه ، عن الصراع بين الحرف العربى وغيره فى

مناطق أخرى من العالم ، وإن لم تتوفر بين أيدينا الوثائق والشواهد والمواد .

● أن العالم العربى أولا ، والعالم الإسلامى آخرا ، لا يعطى الأمر أية أهمية ، جهلا بقيمته ، وغفلة عن خطورته ، رغم أن الحرف العربى ينحسر كل يوم عن أبجديات كانت تكتب به ، وهكذا تتساقط الأبجديات العربية واحدة وراء أخرى دون أن تجد من يدعمها ، ويدافع عنها ، ويعرف بقيمتها ، ويدرك واعيا دورها الثقافى والسياسى والاقتصادى ، وهى قضايا متشابكة ومتداخلة ، وواهم أو جاهل من يتصور أنه يمكن الفصل بينها .

● أن الحرف العربى فى ألبانيا ظل يقاوم اقصاءه بضراوة وقوة على امتداد عدة قرون ، وكان الألبان يدافعون عنه وحدهم فى غالب الأحيان ، ثم انهارت مقاومتهم ودفاعاتهم حين تألبت عليهم أوروبا كلها من جانب ، وأضعف شوكتهم تخلى الأتراك عن الحرف العربى من جانب آخر ، وغفلة العرب وبقية المسلمين عن القضية ، فتراجع الحرف العربى فى بلادهم ، ثم استسلم أخيرا وسلم موقعه للحرف اللاتينى ، وإن لم يضع صداه إلى الأبد ، والعودة إليه صعبة ، ولكنها ليست مستحيلة .

● أن القضية تتكرر الآن على نحو أو بآخر ، فى بلاد انهزم فيها الحرف العربى وثانية على وشك أن يستسلم ، وثالثة الصراع فيها على أشده ، كما هو الحال فى الصومال مثلا فلعل فى هذا نذيرا وتذكيرا ، ودعوة إلى الوقوف إلى جانب الذين يقاومون ولما يستسلموا . والجميع يدركون الآن أهمية الوحدة الثقافية ، والحرف الذى تكتب به اللغة يأتى في مقدمتها أهمية ، وأول من شعر به رئيس جمهورية تركيا حين زار الجمهوريات الإسلامية فيما وراء النهر ، التى استقلت بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، وهى تتحدث التركية ، ولكنها أرغمت على أن تكتبها بالحرف الروسى ، بعد أن كانت تكتبها فى الحرف العربى ، وفى وطنه يكتبونها بالحرف اللاتينى بعد أن تخلوا عن الحرف العربى أيضا ، فلم يفهموه ، رغم أن اللغة أصلها وحد ، فقد باعد بينها اختلاف الحرف الذى تكتب فيه كل

أبجدية ، وهو اختلاف لا يقف عند حد رسم الحروف ، وإنما يتدخل فى تشكيل العقل والفكر أيضا .[١]

منذ البدء ارتبطت الأبجدية الألبانية بالدين ، ففى المرحلة التى سبقت انتشار الإسلام كان ألبان الشمال من الكاثوليك ، فاعتمدوا الابجدية اللاتينية ، واشتهرت بمرور الزمن باسم الأبجدية الكاثوليكية ، على عادة الفاتيكان فى وصف أى شئ عظيم أو هام بأنه كاثوليكى ، وأول كتاب ألبانى فى حروف لاتينية كان للقس الكاثوليكى جون بوزركو ، وطبع فى روما عام ١٥٥٥م ، وهو عن " الصلاة " . أما ألبان الجنوب فمن الأرثوذكس ، وكانوا متأثرين بالطبيعة بالثقافة اليونانية ، فكتب مثقفوهم لغتهم الألبانية فى الأبجدية اليونانية .

مع انتشار الإسلام فى ألبانيا ، وبلغ الذروة فى القرن السابع عشر ، تراجعت الكتابة بالأبجدية اليونانية واللاتينية ، وأدى التعمق فى الثقافة العربية الإسلامية وتمثلها جيدا إلى أن يتحول أغلب الألبانيين إلى كتابة لغتهم بالحروف العربية ، وأبقت الأقليات غير الإسلامية على أبجديتها فى الشمال والجنوب . ويعود أقدم النصوص الألبانية المكتوبة بالحروف العربية إلى عام ١٧٢٥م ، فى شكل موشحة شعرية حول القهوة ، من سبعة عشر دورا ، ويلمح الشاعر إلى أنه كتب القصيدة فى شيخوخته، مما يعنى أن بداية الكتابة بالحرف العربى سبقت ذلك بكثير ، ثم أخذت دائرة الكتابة بالحرف العربى تتسع وتشمل اهتمامات جديدة ، من الشعر إلى وضع المعاجم والترجمة من اللغات الأخرى ، العربية والفارسية والتركية ، ومع ذلك بقيت دون نظام أبجدى موحد يعتمد عليه الجميع مما أدى إلى شئ من الاختلاف فى بعض الحروف ، ومن هنا قام الشاعر شميمى شكودرا بأول محاولة لتحديد أبجدية اللغة الألبانية على أساس الحروف العربية ،

---

١ - اعتمدت فيما يتصل بألبانيا على كتاب الدكتور محمد موفاكو عن الثقافة الألبانية فى الأبجدية العربية "،الذى صدر فى سلسلة عالم المعرفة الكويتية ، ومقالات أخرى نشرتها فى مجلة العربى " الكويتية أيضا .

أوضحها في مقدمة قاموسه الشعرى الألبانى التركى الذى انتهى منه عام ١٨٣٥م ، وتقوم على خمسة وأربعين حرفا ، على حين أن الأبجدية الحالية تضم ستة وثلاثين فقط ، ويرجع ذلك إلى أنه أضاف بعض الصوامت العربية : ض ط ظ ع ص ح خ ، ليستطيع كتابة المفردات العربية التى دخلت اللغة الألبانية .

ومن بعده جاء الشاعر داود يوريتشى ، فاهتم بالموضوع ، ونشر أول كتاب أبجدى للغة الألبانية فى استنبول عام ١٨٦١م ، ووضع عدة كتب لتسهيل تعلمها فى الأبجدية العربية . ووضع العالم والكاتب الالبانى المعروف هوجا تحسين أبجدية يعود تاريخها إلى عام ١٨٧٧ ، ولكنها لم تصل إلى أيدينا . وبعد سنتين ، أى فى عام ١٨٧٩ ، وضع العالم والشاعر على أولشيناكو أبجدية عربيةأخرى للغة الألبانية ، ونشر فيها كتابه " ترجمة المولود على لسان الأرناؤط" ، الذى طُبع فى استنبول فى السنة نفسها . وحاول الألبان المهاجرون إلى سوريا أن يصنعوا للغتهم أبجدية عربية.

فى مطلع هذا القرن ازداد الاهتمام للوصول إلى أبجدية عربية حاسمة ونهائية للغة الألبانية ، وتحمس لهذا الغرض الكاتب رجب فوكا مفتى مدينة مناستير ، وكان أفضل علماء عصره ، وصدرت أبجديته فى كتاب صغير عام ١٩١٠ ، وتتألف من أربعة وأربعين حرفا ، مع تمرينات على استخدام هذه الأبجدية ، وطبع منها فى استنبول عشرة آلاف نسخة ، ويبدو أنها لقيت رواجا هائلا ، لأنها طبعت للمرة الثانية خلال السنة نفسها . وقد استفاد صاحبها من التراث الألبانى المكتوب بحروف عربية ، ومن خبرته الواسعة ، معتمدا مبدأ " حرف لكل صوت"، وبهذا أصبح من الممكن قراءة اللغة الألبانية بسهولة . وكانت المشكلة فى كثرة عدد الحروف فى مواجهة الأبجدية اللاتينية التى تضم ستة وثلاثين . وجاءت الزيادة من إضافة بعض الصوامت العربية الصميمة ، وهى : ح خ ص ض ط ظ ع ، والتى تفتقدها الأبجدية المنافسة ، وكانت هذه الصوامت العربية الصميمة تُستعمل عند المثقفين الألبان المسلمين نتيجة وجود المفردات العربية

الكثيرة فى اللغة الألبانية . ولها أهمية أخرى ، لأنها تدل على إلحاق بعض الاصوات العربية الصميمة إلى اللغة الألبانية ، وبعدها صدرت عدة كتب فيها .

جاءت الأبجدية الجديدة فى لحظة حاسمة ، مليئة بالصراع والحوار المسلح ، بين أنصار هذه الأبجدية جهة ، والأبجدية اللاتينية من جهة أخرى ، ووضح هذا الصراع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، مع نمو الحركة القومية عند الألبان ، فارتبط موضوع الأبجدية بفكرة النهضة القومية ، وحاجة الألبانيين إلى تواصل ثقافى قومى يحول دونه استخدام الأبجديات المختلفة ، وبلغ عددها فى تلك الآونة سبع عشرة أبجدية ، مما أدى إلى خلق دوائر ثقافية متعددة ومتنوعة ، ومن هنا تفجرت حركة قومية ألبانية تدعو إلى أبجدية موحدة ، وكان الاهتمام يدور أساسا حول الأبجدية العربية الشائعة بين المسلمين وبين عدة أبجديات لاتينية أخرى ، وتطور التنافس بين أنصار هذه الأبجديات إلى صراع سياسى بين التشريق ودعاة التغريب ، وتجاوز الأمر الساحة الألبانية ، وبدأت القوى الأجنبية تلعب دورها ، علانية عبر دعم أحد الأطراف .

كان الاتجاه إلى الأبجدية العربية قويا ، فهى أبجدية المسلمين ، وهم الأغلبية فلجأت القوى الخارجية إلى بث الفرقة بينهم ، وجعلت منهم سنة وبكتاشيين [1] أى شيعة ، ودفعت كل طائفة لتواجه الأخرى . وفى البدء كان الآباء البكتاشيون من أنصار الأبجدية العربية ، ولكنهم تراجعوا عنها لأن الاتجاه القومى طغى على نشاط هذه الطائفة فى المناطق الالبانية ، وقاموا بدور كبير فى الحركة القومية التى كانت تدعو إلى أبجدية جديدة تعتمد على الحروف اللاتينية ، حينئذ بدأت الأبجدية العربية تتراجع ، لأن الطريقة البكتاشية تتمتع بنفوذ كبير ، وصحب هذا التراجع دعوة إلى تنقية اللغة الألبانية من مفردات العربية .

تخلى الآباء البكتاشيون عن الأبجدية العربية ، وأيدوا الأبجدية الالبانية

١ - البكتاشية طريقة صوفية ذات نظام خاص ، أسسها الحاج بكتاش ولى (١٢٠٩ - ١٢٧١م) ، وإليه تنسب وشاعت فى مصر وتركيا ، إلى أن قضى عليها مصطفى كمال فى تركيا ، ومنعت فى مصر بعد عام ١٩٥٢ .

اللاتينية الجديدة التى صدرت فى استنبول عام ١٨٧٩ ، ودعمتها تكاياهم المنتشرة في المناطق الألبانية ، ومعهم الشخصيات القومية . ولكن الأبجدية العربية لم تتلاش تماما ، وظل المثقفون من أهل السنة يستخدمونها ، وتمتعت بنفوذ كبير بين أهل الشمال لأن غالبيتهم سنيين . ولسوء الحظ أدى قرار الإدارة العثمانية بمنع التعليم باللغة الألبانية فى العصر الحميدى إلى عدم نشر الكتب بالأبجدية العربية ، على حين تمتعت أبجدية استنبول اللاتينية بحرص دعاتها على نشر الكتب المدرسية فيها ، وتوزيعها بعيدا عن رقابة الدولة بطريقة أو بأخرى ، فى المناطق الألبانية .

فى نهاية القرن التاسع عشر بدأ التنافس بين النمسا وإيطاليا واضحا ، فى محاولة كل منها دعم نفوذها فى ألبانيا عن طريق الثقافة ، تمهيدا لاستعمارها حين تواتى الفرصة ، فأخذت كلتاهما تبنى المدارس ، وتعلم اللغة الالبانية فى الأبجدية اللاتينية ، كسبا لثقة المواطنين ، فأقبل عليها الأهالى ، لأن الإدارة العثمانية كانت تمنع المدارس الرسمية من تعليم اللغة الألبانية وكانت بالأبجدية العربية .

مع مطلع القرن العشرين دخل الاهتمام بالأبجدية الألبانية منعطفا سياسيا متوترا . ذلك أن الألبان أسهموا بدور كبير فى جمعية" الاتحاد والترقى " ، وفى الإعداد للانقلاب العسكرى الذى أزاح السلطان عبد الحميد الثانى عن العرش ، وكان تفاؤلهم بالعهد الجديد كبيرا فيما يتعلق بحقوقهم القومية ، وعلى رأسها حق التعليم باللغة الألبانية . وفى البدء استجاب النظام الجديد فى استنبول لبعض المطالب الألبانية ، وبخاصة ما يتعلق منها باللغة ، مما أثارموجه من الحماسة فى المناطق الألبانية المختلفة ، وهو بطبيعة الحال يرتبط بموضوع الأبجدية وهكذا فرضت القضية نفسها على الواقع بقوة ، لأن كل مدرسة كانت تعلم الألبانية فى أبجدية تختلف عن أبجدية المدرسة الأخرى ، ولم يتدخل النظام الجديد بداية فى هذا الأمر ، لأنه كان مهتما بتثبيت سلطانه ، غير أنه واجه

القضية عندما أدرك أبعادها السياسية .

فى عام ١٩٠٨ دعا " الاتحاد " إلى مؤتمر قومى عقد فى مدينة المناستير فى نوفمبر ١٩٠٨ ، بمشاركة خمس وثلاثين شخصية تمثل الجماعات والروابط الألبانية المختلفة فى الداخل والخارج ، وفيه بدا بوضوح أن الأبجدية العربية هى الخاسرة ، لأن الأغلبية لم تكن متعاطفة معها ، ولم توضع حتى على جدول الأعمال ، وإنما كانت المفاضلة بين ثلاث أبجديات تعتمد على الحرف اللاتينى ، ولما لم ينته الخلاف حولها إلى حل تقرر الأخذ باثنتين منها ، " أبجدية استنبول " وتعتمد أساسا على الحروف اللاتينية ، أو الاعتماد على الأبجدية اللاتينية فحسب ، وهى التى تكتب بها اللغة الألبانية الآن .

وهى نتيجة طبيعية ، لأن ممثلى الجنوب كانوا أغلبية ، على حين أن الشمال السنى ، وهو الذى يتعاطف مع الأبجدية العربية ، كان يمثل الثلث فحسب ، وغاب عن المؤتمر ممثلو المدن الكبيرة ، وهم الذين يدعمون الأبجدية العربية بقوة ، ومن جانب آخر ، كانت أغلبية المشاركين من المسيحيين ، ولهم تسعة وعشرون صوتا ، وليس لهم بالأبجدية العربية صلة ، وللمسلمين وهم أغلبية الشعب عشرون صوتا فحسب ، واللجنة التى انتخبت لتتخذ القرار كانت مؤلفة من أحد عشر عضوا ، سبعة من المسيحيين وأربعة من المسلمين .

أخيرا أدركت الإدارة العثمانية أن تطبيق هذا القرار سوف يؤدى إلى أوربة الألبان على نحو ما ، ويوما ما يؤدى بهم إلى الانفصال عن الخلافة العثمانية ، فخرجت عن حيادها ، وأوعزت بمؤتمر آخر انعقد فى يولية فى مدينة ديبرا ، حضره جمع غفير من مثقفى السنة ، كتابا وقضاة وعلماء ورجال إفتاء ، طالب باتخاذ الأبجدية العربية ، ولكن الأقلية المدعومة خارجيا تمسكت بالأبجدية اللاتينية ، والقرار الوحيد الذى اتفقوا عليه كان فصل المدارس الألبانية عن الكنائس المسيحية ، ولكنه أحدث تحولا كبيرا وهاما لصالح الأبجدية العربية ، ولهذا تقرر الدعوة إلى مؤتمر آخر فى شهر مارس فى مدينة المناستير نفسها ليحسم الأمر ،

وانتهى المؤتمر إلى تشكيل مجلس خاص من الألبان البارزين ، يأخذ على عاتقه تطبيق الأبجدية العربية فى " الأدب وفى المدارس الألبانية ".

وخرج الاهتمام بالموضوع إلى الشارع ، وإلى صفحات المجلات المختلفة ، واشتد الحوار والصراع ، وتمثلت حجة أنصار الأبجدية العربية فى أنهم يدافعون عن قضية تتعلق بالدين والشرق ، ويدفعون عن الوطن خطر التغرب ، وأن المسألة لاتتعلق بهم وحدهم ، وإنما تهم العالم الإسلامى كله ، وليس للألبانيين أن ينفصلوا عن القاعدة العريضة ، والأبجدية اللاتينية رمز للشكل الغربى فى الكتابة ، ومرتبطة بمرض تقليد الحياة الأوروبية ، وهى مدعومة من النمسا وإيطاليا ، وكلتاهما طامعة فى ألبانيا أو أقاليم منها ، وأخيرا فهذا رأى الأغلبية ولن تتخلى عن أبجديتها لتقبل أبجدية الأقلية .

وكانت حجة دعاة الأبجدية اللاتينية أن التمسك بالأبجدية العربية يعنى تراجع ألبانيا ثقافيا إلى مستوى التخلف الذى تعيشه الشعوب التى تكتب بها ، وأن استخدامها على امتداد خمسة قرون أدى إلى تخلف البلاد (لم تكن ألبانيا أكثر تخلفا مما عليه الآن بعد استخدام الأبجدية اللاتينية) ، وأن تعلم الأبجدية العربية صعب ، وأن وحدة الشعب ، وتجاوز الانقسام ، يعنى أن تقبل الأغلبية برأى الأقلية (لاحظ أن شيئا من هذا يتردد الآن فى مصر) ! .

انتقل هذا الحوار إلى صفحات الصحف ، وشارك فيه رجل الشارع ، وقامت مظاهرات التأييد للأبجدية العربية فى عدد كبير من المدن ، وفى الوقت نفسه تظاهر الكاثوليك ضدها فى المدن التى يكثر عددهم فيها ، وتأييدا للأبجدية اللاتينية . وفى ٤مارس ١٩١٠ تشكل فى استنبول " محفل المعارف الألبانى "، شارك فيه العلماء ، وبعض النواب العرب فى مجلس المبعوثان ، وآلاف الألبانيين فى عاصمة الخلافة ، وتعاهدوا على رفض استخدام الحروف اللاتينية فى اللغة الألبانية .

كانت الاجتماعات والمظاهرات تنتهى عادة بتوجيه البرقيات والمطالب إلى

الإدارة المحلية أو الحكومة فى استنبول العاصمة ، وكان على هذه أن تحدد موقفها . ولم يقف رجال الدين من هذه القضية موقفا مترددا ولامتخاذلا ، ولم يلوذوا بالصمت ، وجاءت المبادرة من شيخ الإسلام نفسه ، فأرسل كتابا إلى رجال الإفتاء فى المناطق الألبانية بمنع استخدام الحروف اللاتينية أبجدية للغة الألبانية وفى التعليم ، وكان هذا رأى الحكومة أيضا ، فأغلقت المدارس المتحمسة للأبجدية اللاتينية ، وسرحت بعض الموظفين الذين كانوا يعملون لصالحها . غير أن هؤلاء ، ومن ورائهم الفاتيكان والقوى الخارجية الكارهة للإسلام ، أثاروا الدنيا وأصموها صراخا وشكوى من الطائفية والتمييز فى المعاملة ، ولأن الخلافة كانت تمر بأضعف حالاتها تراجعت الدولة فى قرارها ، وسمحت للمدارس الراغبة فى استخدام الأبجدية اللاتينية أن تواصل التدريس بها ، على حين بقى المسلمون السنة والأدراة على موقفهما من تبنى الأبجدية العربية .

غير أن الأحداث السياسية سارت على نحو مغاير تماما فقد هزمت القوات العثمانية فى حرب البلقان أمام القوات البلقانية المتحالفة (الصرب والجبل الأسود وبلغاريا واليونان) وتخلت الخلافة العثمانية عن المناطق الشاسعة التى كانت تتبعها فى تلك البلاد ، واحتلت القوات البلقانية ألبانيا ، وبدأت بتصفية حساباتها دمويا مع الألبانيين فى وحشية غير معهودة ، ذبحا واغتصابا وتدميرا وتخريبا . ولم يستسلم الألبانيون ، ولكنهم تجمعوا وأعلنوا استقلالهم فى المدينة الوحيدة التى بقيت لهم خارج الاحتلال ، وكانت النمسا تدعمهم كراهية فى الدول البلقانية . وأخيرا وافقت الدول الكبرى على إعلان ألبانيا " إمارة محايدة تحت رقابة الدول الكبرى " ، على أن تقطع كل صلاتها بالدول العثمانية ، فأصدرت القوانين التى تفصل الحقوق المدنية عن الشريعة الإسلامية ، وفك الارتباط بين الهيئة الإسلامية فى ألبانيا وشيخ الإسلام فى ستنبول ، وإلغاء الأبجدية العربية.

قاوم الألبانيون هذه التغيرات بقوة ، وتزعم الشيخ موسى كاظمى مفتى تيرانا ثورة عارمة ، أثارت كل أعداء الإسلام حولهم، فاندفعت القوات اليونانية من

الجنوب ، والصربية من الشمال ، وأعملوا فى الألبانيين القتل والذبح من جديد ، على نحو ما يجرى فى البوسنة والهرسك الآن تماما ، واعتقلوا زعماء الثورة وأعدموهم جميعا ، وعلى رأسهم الشيخ موسى كاظمى ، وبطبيعة الحال كانت نهاية الثورة نهاية الأبجدية العربية ، ولو أنها واصلت حياتها بعد ذلك زمنا مع الألبان الذين ضموهم إلى دول أخرى ، ويبلغ عددهم نصف الشعب الألبانى ، كاليونان نفسها ، أو إلى يوغوسلافيا سابقا . فقد استمر هؤلاء يكتبون بها حتى بعد الحرب العاطية الثانية ، وهو واقع فرضته عليهم السياسية نفسها ، لأنهم فى تبعيتهم الجديدة حرموا من أية حقوق قومية أو ثقافية ، ومنعوا من استخدام اللغة الألبانية ، وتركوا فى حالة تخلف كاملة لدفعهم إلى الهجرة ، فلم يبق أمامهم إلا أن ينكبوا على ماتوارثوه من أيام الخلافة العثمانية المجيدة ، وهو فى معظمه بالأبجدية العربية فظل التدريس بها فى المدارس القليلة النادرة التى سمح لهم بها ، وفى تكايا الطرق الصوفية ، وكانت المواد تتكون من القرآن الكريم واللغة العربية والخط العربى ، والحديث والفقه والعقائد والأدب العربى . وفى هذا المناخ واصل الألبان فى المناطق اليونانية واليوغوسلافية الكتابة بالأبجدية العربية ، وانضم إليهم الشعراء من أساتذة وخريجى المدارس الدينية القليلة التى بقيت ، إلى جانب مشايخ الطرق الصوفية ودراويشها ، وكانت تكاياهم غنية بالمخطوطات والكتب الشرقية ، عربية وفارسية وتركية ، وفى هذه المرحلة ، واستمرت حتى مطلع الأربعينيات ، اقتصرت كتابة الشعر فى اللغة الألبانية على الأبجدية العربية .

خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) اجتاحت القوات الألمانية يوغوسلافيا عام ١٩٤١ ، وأعادت تنظيمها على أساس قومى ، فضمت الألبانيين فى إقليم كوسوفا ومقدونيا اليوغوسلافية إلى ألبانيا ، وبذلك عادت هذه المناطق إلى الوطن الأم ، وكان طبيعيا أن تعنى الدولة بهؤلاء العائدين ، فأنشأت لهم المدارس المختلفة ، وكانوا محرومين منها ، ومن دراسة لغتهم ، ولأن

الدولة تبنت الأبجدية اللاتينية فقد جرى التعليم بها ، ونشأ فى هذه المناطق أول جيل يكتب الألبانية باللاتينية .

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وهزيمة الألمان والإيطاليين ، أعيد رسم خريطة البلقان من جديد ، فرد المنتصرون إلى يوغوسلافيا المناطق الألبانية التى كانت معها من قبل ، وأصبحت هذه دولة شيوعية يجئ الإيمان الطبقى فيها قبل التعصب القومى ، ومن ثم تركوا للألبان أن يتكلموا لغتهم وأن يتعلموها ، ولأنهم بدأوا أيام كانوا يمثلون جزءا من ألبانيا الكبرى بالأبجدية اللاتينية ، فقد واصلوا السير فى نفس الطريق ، وبذلك تراجعت الأبجدية العربية فى هذه المناطق أيضا ، وأكد هذا التراجع إغلاق المدارس الدينية ، ولم يبق منها غير مدرسة "علاء الدين" وتأخر افتتاحها حتى نوفمبر من عام ١٩٥١ . ومع ذلك يمكن القول أن الكتابة بالأبجدية العربية استمرت حتى بداية الستينيات ، إلى أن اختفى الجيل الأخير من الشعراء الذين تمرسوا بالكتابة فيها ، ثم أغلقت هذه الصفحة المضيئة من الكفاح بوفاة آخر شاعر فى يوغوسلافيا السابقة ، يكتب الشعر الألبانى بالحروف العربية وهو الشيخ فيصل جلال الدين غوتا .

غير أن الألبان الذين كانوا يعيشون خارج البلقان ، متحررين من ضغوط الاستعمار ومن التعصب الدينى ، فى تركيا وسوريا ، ويبلغ عددهم أكثر من مليونين ، أو مايوازى عدد سكان ألبانيا نفسها فى الوقت الحاضر ، استمروا يستخدمون الأحرف العربية فى كتابة لغتهم الألبانية ، وآخر كتاب بها يحمل عنوان " منظومة المولود، في فضل الموجود، بلسان الآرنؤد" للشاعر زين الله آوزيشار، نظمة في دمشق، وصدرت طبعتة الأولي في آنقرة عام ١٩٧٠م.

ولم يقف الخط العربي عند الألبان، وإنما استخدمه آيضا المسلمون في اليونان وبلغاريا وروسيا البيضاء ، والبوسنة، واسخدمه البوسنيون علس نطاق واسع، ولأطول زمن، رغم الظروف التي مر بها الشعب البوسنى، ولم يتوقف عند استخدام الخط العربي إلا حينما آكره على ذلك خلال المرحلة الشيوعية، وخلال

هذة الفترة، من القرن السابع عشر حتي منتصف القرن العشرين، اتخذوه وسيلة لتقييد إبداعهم وأفكارهم ، إلي جانب ما ابدعوه في اللغة العربية نفسها.

● الإسبانية فى حروف عربية

كانت الإسبانية اللغة الوحيدة ذات الأصل اللاتينى التى كُتبت في حروف عربية، وكانت البداية مع الموريسكيين، وربما قبلهم بقليل، والموريسكيون Los Morisios اسم يطلق علي من تخلف من مسلمي الأندلس فى إسبانيا بعد سقوط دولة الإسلام هناك في ٢يناير١٩٤٢م، وأكرهوا رغم المعاهدات على اعتناق الكاثوليكية، واستجاب كثيرون منهم ظاهرا تحت ضواغط مرعبة وقاهرة، ثم مُنعوا من التحدث باللغة العربية، أوالكتابة فيها، وألزموهم أن يتحدثوا باللغة القشتالية (=الإسبانية) ، فأخذوا يطالبون بتأجيل تنفيذ هذا القرار الأخير عاما وراء عام،عن طريق الالتماس والترجي طورا، ومقابل دفع رشاو عالية يدفعونها للإمبراطور شارل الأول، وحين نفدت أموالهم لم يكن أمامهم غيرأن يطيعوا وأن ينفذوا القرار، فتكلموا القشتالية، ولكنهم كتبوها فى حروف عربية ، استجابة لشئ فى أعماقهم يرتبط بماضيهم على التأكيد ، وتعمية على ملاحقيهم ، وأطلقوا على هذا اللون من الكتابة الأدب العجمى Aljamiado ، أو الخميادو كما ينطق فى الإسبانية ، وانتشر هذا التعبير بين المستشرقين ، ومع الزمن أصبح هذا الاسم يطلق على كل أدب أوروبى كُتب بالحروف العربية ، وانتهت التجربة فى إسبانيا عام ١٦١٣ بطرد الموريسكيين ، أى المسلمين من وطنهم إسبانيا .

ظل هذا الأدب مجهولا لايعرف عنه إلا القليل جدا ، ولم يتوصل العلماء إلى الكشف عن سره وحل رموزه تماما إلا فى منتصف القرن الماضى ، اعتمادا على القليل من مخطوطات هذه الكتابة ، حين انهار بيت فى قرية المونستير دى لاسييرا Almonacid de la Sierra ، مركز المنية ، محافظة سرقسطة ، شمال شرقى إسبانيا ، فى خريف عام ١٨٨٤م ، ووجدوا فى غرفة خفية بين طابقين مجموعة كبيرة من المخطوطات ، جيدة الحفظ ، رائعة التجليد ، عربية الخط ،

إسبانية اللغة ، ظلت مختفية على امتداد ثلاثة قرون ، دون أن يعرفها أحد ، أو يتوصل إلى اكتشافها مخلوق .

لم يتبين العمال الذين يقومون بهدم المنزل ، وتمتعوا بقدر عظيم من الجهل ، أية أهمية لهذه الكتب المسطورة فى حروف عربية ، فتركوها تلقى مصيرها بين الانقاض ضياعا وتمزيقا ، ولم يعيروها أية أهمية ، وتركوها لمن يريد أن يحمل منها ما يشاء ، ومزق الصبيان منها أكثر من ثمانين مجلدا ، وأسلموها للنيران لتمدهم بشئ من الدفء يقاومون به قسوة الزمهرير . وحدث أن مر بهم أحد القسس الذين يعملون فى مدارس الكنيسة فى سرقسطة ، فاشترى منها مجلدين رائعى التجليد ، مما شجع العمال على عدم تمزيق ما يخرجونه منها من تحت الأنقاض ، وأن يجمعوا منها ما كان بين أيدى الصبيان يعبثون به .

وعندما سمع مراسل أكاديمية التاريخ فى سرقسطة توجه إلى المكان فى الحال ، واشترى جانبا كبيرا مما لم يُحرق أو يُمزق بعد من هذه المخطوطات . ولم يعرف أحد بالدقة عدد المخطوطات التى عثر عليها ، ولا التى ضاعت أو أحرقت أو أنقذت ، لأن الذين أدركوا أهميتها من العابرين والسكان أستحوذوا عليها لأنفسهم دون أن يقولوا لأحد شيئا ، وحين عاد القسيس للمرة الثانية حصل على خمسة وعشرين مخطوطا ، وعرف أن عدد ما أنقذوه يبلغ مئة وأربعين مخطوطا ، خمسون فقط من بينها كاملة ، والبقية ناقصة ، واستغرق فك طلاسمها كلها سبعة وعشرين ، قامت بها جمعية نشر الدراسات ، وانتهت إلى معرفة محتواها تفصيلا ، ونشرت عنها تقريرا كاملا فى يونيه ١٩١٠م .

انتهى دارسو هذه المجموعة إلى أنها لم تكن لعالم يحسن اختيار كتبه ، وإنما هى لموريسكى فقير ، راع أو تاجر ، خبأها هروبا من محاكم التفتيش ، وحرصا عليها لأزمنة قادمة ، تضم حكايات رعاة أو تجار من مدينة سالم أو المونستير وأمكنة أخرى فى أرغون ، ولكنه على التأكيد ينحدر من أسرة فقهاء وعلماء ، بعضهم كان يعنى بفن المعمار ، إلى جانب كتب الفقه والعبادات ، وترجمة

لمؤلفات عربية سابقة على سقوط دولة الإسلام ، وتكون هذه المجموعة أكبر مجموعة لمؤلفات باللغة الإسبانية كُتبت فى الخط العربى .

مع فك طلاسمها ، والقدرة على رد المكتوبة بحروف عربية إلى أصولها الإسبانية ، أمكن معرفة محتواها ، وأصبحت مصدرا هاما لتصوير الحالة الشعورية لهؤلاء المسلمين المقهورين على امتداد مئة عام أو يزيد ، ومع أن قيمتها الأدبية محدودة ، لكن قيمتها التاريخية بالغة الأهمية ، وأيقظت بين الإسبان أنفسهم ، والمهتمين بتاريخ إسبانيا الإسلامية من الأوروبيين رغبة قوية فى درسها ، فأخذوا يعقدون المؤتمرات حولها ، ويجعلون منها محورا ثابتا للدراسات العليا فى شتى الجامعات ! .

● قيمة الحرف العربى جماليا :

على أن الشعوب الإسلامية التى اتخذت الحرف العربى وسيلة لتقييد لغتها وأدبها ، لم تقف به عند هذا الحد الضرورى ، وإنما جعلته مركبا لغايات جمالية أبعد ، وبخاصة عند بعض الأقوام ، التى رأت فى بعض الأزمنة ، أن تصوير الكائنات أمر غير محبب إليها . والحق أن كراهية التصوير هذه ظاهرة سامية ، كانت توجد عند عرب الجاهلية شأن غيرهم من الساميين ، وفى التوراة ، فى الوصايا العشر من سفر الخروج : " لاتصنع لك تمثالا منحوتا ، ولاصورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لاتسجد لهن ولاتعبدهن ، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور " ، ولهذا فان المسلمين من غير الساميين كانوا أقل تشددا فى موقفهم من التصوير ، كالمصريين والإيرانيين ، والسلاجقة ، والمغول ، والترك .

تجلت عبقرية المسلمين فى تجويد الخط العربى وتنويعه ، وجعله فنا ساميا وزخرفة أخاذة ، وحفظت لنا كتب التاريخ أسماء عدد كبير من هؤلاء المجودين فى كل اللغات ، وبعضهم كابن مقلة بلغ رتبة الوزارة فى وطنه ، وبداهة جاء التجويد على مراحل ، وتم فى مراكز متعددة . وإذا كان الاعتناء به بدأ فى

الحجاز فى عصر النبوة لتدوين القرآن الكريم ، فقد كانت الكوفة أول مراكز تجويده ، وتقلته من شكله البدائى إلى الخط ذى الزوايا ، وفيه كُتبت المصاحف الأولى ، وإلى الكوفة يُنسب ، ومع الزمن أخذ أشكالا متعددة تناسب المادة التى يكتب عليها .

وشهدت نهاية الدولة الأموية خطاطا عبقريا يدعى قطرب المحرر ، كان أكتب أهل زمانه ، خرج على قيود الخط الكوفى ، وفتح مجال التطوير والاستنباط أمام الخطاطين فأتوا بأشكال جديدة متعددة ، وسوف يبلغ التطوير والتجميل قمته فى العصر العباسى ، وبظهور خط النسخ انسحب الخط الكوفى من ميدان الكتابة الاجتماعية ، وأصبح مقصورا على المساجد والمحاريب وزخرفة المصاحف، ويكتب حلية أو رغبة فى العودة إلى الماضى البعيد .

ويمضى التطوير والتجميل بلا توقف ولانهاية ، يخضع لخيال الخطاط وإبداعه فحسب ، ولانكاد نبلغ القرن الخامس الهجرى حتى نجد ابن البواب (ت ٤١٣ هـ = ١٠٢٢م) من كبار الفنانين رساما وخطاطا ، وكان يطلق عليه وعلى رفاقه اسم " المزوقون " ، وترك لنا رسالة فى الخط لم يبق منها غير المقدمة ، وفيهم ألف المقريزى كتابه " ضوء النبراس ، وأنس الجلاس ، فى أخبار المزوقين من الناس " ،وأغلب الظن أنه ضاع ولم يصلنا . وازدهر الخط فى مصر الفاطمية على نحو غير معهود من قبل ، واشتهرت مدرسة الفسطاط ، وبقيت عامرة حتى عصر المماليك ، وكغيرها أحلت خط النسخ محل الكوفى حتى على المبانى وفى النقوش ، وكتب القلقشندى فى مؤلفه العظيم " صبح الأعشى " أدق دراسة وأوسعها عن الخط العربى ، قواعد وتاريخا ومدارس وأصولا .

وعرف الغرب الإسلامى أنواعا من الخطوط تطورت عن الخط الكوفى القديم ، بدأ فى القيروان ونسب إليها ، وأصابه فيها شئ من التطور ، ثم انتقل إلى الأندلس ونسب إلى قرطبة العاصمة أو الأندلس نفسها ، وأخذت حروفه أشكالا مقوسة ، بينما كانت حروف القيروانى مستطيلة ، ولايبعد الخط المغربى ، أو

الذى يكتبون به فى السنغال والبلاد الأفريقية المجاورة له ، عن صورة هذا الخط إلا قليلا ، وتلتقى كلها فى أن نقطة الفاء واحدة من أسفل ونقطة القاف واحدة من أعلى .

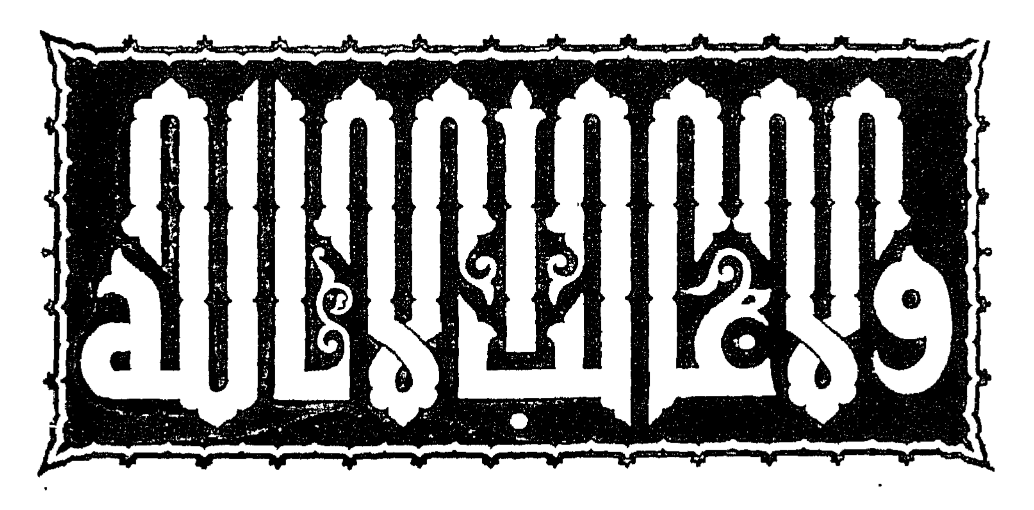
وما إن اتخذ الإيرانيون الخط العربى حتى تفننوا فيه ، وأبدعوا خطا ينسب إليهم ، وهو الخط الفارسى ، ويتميز بالرشاقة والوضوح ، وفيه كتبوا تراثهم كله شعرا ونثرا ، وأبدعوا ألوانا أخرى ، وبرعوا فى تذهيب المخطوطات ، وهم أساتذة الأتراك فى هذا المجال ، وكانت منزلة المذهب تلى منزلة الخطاط ، وكثير منهم كانوا يجمعون بين الأمرين ، وارتبطت صناعة التذهيب بفن الخط ، حتى أن دراسة الخط تتطلب ، لكى تكون مثمرة ، أن يعرف الباحث هذا الفن التكميلى .

وكانت المدرسة التركية فى الخط العربى أطول باعا بحكم علاقتها بمصر ، فقد أخذت عنها خط الثلث والثلثين ، وأخذت عن السلاجقة خط النسخ ، وسارت فيهما سيرتها الخاصة ، ونضجا على يد خطاطيها ، ثم أضافت إليهما خطين جديدين من إبداعها ، وهما : خط الرقعة و الخط الديوانى ، ثم خطى : الإجازة والهمايونى ، والأول منهما جمع بين النسخ والثلث ، والثانى مولد من الإيرانى ، وانفرد العثمانيون بخط الطغراء ، وتتوج به الأوامر السلطانية ، وهو فى الأصل توقيع سلطانى ، ولروعة الخط التركى فان معظم المصاحف التى بين أيدينا لخطاطين من الترك ، وعلى رأسهم حمد الله بن الشيخ مصطفى (ت ٩٣٦ = هـ) والحافظ عثمان ، وهو الأبعد شهرة ، ومصحفه الأكثر رواجا ، وتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى . وبقية بلاد المشرق إما أن تكتب على النمط الفارسى أو التركى .

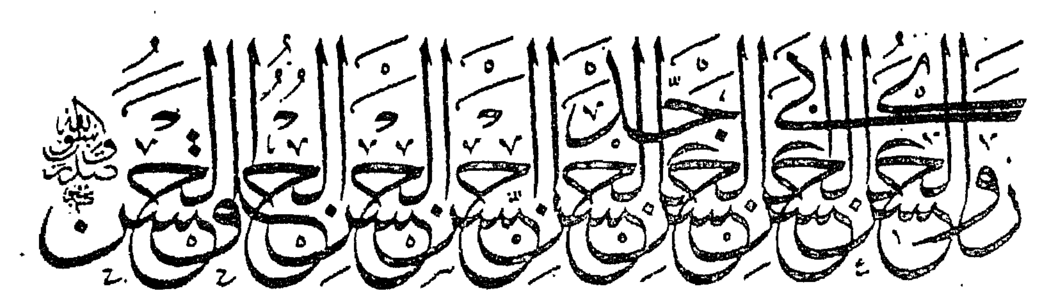
تجاوز الخط مرحلة الوسيلة ، واستقل فناً جماليا ، وثمة جوهر مشترك بين الفنون كلها ، لأن هناك شروطا عامة بدونها لاتكون التجربة ممكنة ولاتصبح فنا ، وقاسما مشتركا أعظم فى إبداع فنى أو تجربة إنسانية . وما من شك فى أن الفنون تتراسل فيما بينها ، ولكن هذه العلاقات ليست تأثيرات جلية تبدأ من نقطة معينة ، وإنما واقع معقد من صلات جدلية تعمل من طرفيها ، من فن إلى آخر ، وقد تتغير جذريا ضمن الفن الذى تنتقل إليه ، وإذن فمجال المقارنة بين

الخط فنا ناضجا وبقية الفنون الأخرى من معمار وزخرفة وشعر قائمة ، ولو أن المتابعة هنا تتطلب ثقافة وعمقا وجهدا ومثابرة .

ما سبق يتجلى " في وحدة النسق Symmetry " الذى تنتهى به الوحدات الزخرفية ، حيث يبدو هذا النسق ظاهرا ظهور الإفريز الخارجى الذى تنتهى عنده كل وحدة ، وهو متحقق بوجه عام فى الشرائط التى تحاط بها وحدات الزخارف ، ولكنه أكثر فى صور الخط العربى ، التى اتجه كثير منها ، وبخاصة الكوفى ، إلى تحقيق غايات التجميل التشكيلى على نحو شديد الإتقان ، وأن الخط النسخى العادى لايخلو منها "[١] كما يتجلى ذلك فى الشكلين الآتيين :



من نقوش الحمراء فى غرناطة
خط كوفى يتحقق فيه توافق نسقى Symmetry فى النهايات العليا للتشكيل



خط ديوانى ، من التراث التركى ، يتحقق فيه التوافق النسقى فى النهايات السفلى والعليا للتشكيل

١ - د.نبيل رشاد نوفل ، العلاقات التصويرية بين الشعر العربى والفن الإسلامى ، ص ١٤٤ ،الإسكندرية ١٩٩٣ .

ويقابل ذلك لون من الشعر ازدهر فى المشرق فى العصر العباسى ، وعرفه الأندلس متأخرا ، وسماه أبو هلال العسكرى وأسامة بن منقذ " التطريز " ، "وهو أن يقع فى أبيات متوالية كلمات متساوية فى الوزن فيكون منها كالطراز من الثوب " ، وامتدحه ابن طباطبا لأنه " يجلو الهم ويشحذ الفهم " .

يقول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

وكأنّ طعـــــمَ مدامـــــة جبليـــةٍ بالمسك ، والكافور ، والريحـانِ

شنبٌ عليـــه قلائدٌ منظومـــــةٌ بـــالدرّ ، والياقــوت ، والمرجـان

ويقول ابن الرومى (ت ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م) وأسرف فى استخدام الألفاظ بقصد الزينة الخالصة :

أموركمُ بنى خـاقان عنـــــــدى عَجـابٌ فى عجـابٍ فى عجـابِ

قرونٌ فى رءوسٍ فى وجـــــوه صلابٌ فى صـلابٍ فى صـلابِ

هجرتكمُ وهجركـــمُ ورأيـــى صـوابٌ فى صوابٍ فى صـــوابِ

ولكن البحترى (ت ٢٨٤هـ = ٨٩٧ م) زاد فى مساحة الإفريز الزخرفى ، يقول :

يعلو السماء ثلاثةٌ فى أرضها إفضـــاله ، وجَداه ، والإنعـــامُ

وثلاثـــــةٌ تغشاك مهمـا نلتـه إرفـــــاده ، والمنّ ، والإكـــرام

وثلاثةٌ قد جـــانبت أخلاقـه : قَوْل البَذا ، والزور ، والآثـــام

وثلاثة فى العزم من أفعالـــه : تدبيــــره ، والنقض والإبــــرام

وصنع الحريرى (ت ٥١٦هـ = ١١٢٢م) من أبيات المقامات توافقا نسقيا يشمل بدايات الأبيات ونهاياتها ، فيما يشبه زخارف الخط العربى ، باستخدام حرفى اللهمزة والسين ، فى أولها ، والسين والألف اللينة فى آخرها ، كما أنها صالحة للقراءة من الجانبين :

أسْ أرمـــــلاً إذا عـــــرا وارعَ إذا المــــرءَ أســــا

أسنـدْ أخـــــــا نباهةٍ　　أبنْ إخـــــــاء دنســـــا

أسلْ جنابَ غـــــــاشم　　مشـــــاغبٍ إن جلســــا

أسرْ إذا هب مـــــــرا　　وارم به إذا رســــــا

أسكـــنْ تقـــــــو فعسى　　يَسعفَ وقتٌ نكســــا [١]

ويقول أبو البقاء الرندى (ت ٦٨٤ هـ= ١٢٨٥م) فى مقدمة قصيدة مدحية يصفها ابن الخطيب بأنها ذات نزعة غريبة وسبق بها غيره :

يا طلعةَ الشمسِ إلاّ أنه قمــــر　　أمـــا هواك فـــلا يبقى ولايذر

كيف التخلص من عينيك لى ومتى　　وفيهــما القاتلان : الغنج والحور

وكيف يسلى فـــؤاد عن صبابته　　ولو نهى الناهيـان : الشيب والكبر

أنت المنى والمنايا فيك قد جمعت　　وعندك الحالتـان : النفع والضرر

ولى مـن الشوق مالا دواء لـــه　　ومنك لى الشافيان : القرب والنظر

وفى وصالك ما أبقى بـــه رمقى　　لو ساعد المسعدان : الذكر والقدر

وكان طيفَ خيال منك يقنعنـــى　　لو يذهب المانعان : الدمع والسهر

ياناَبيا لم يكن إلا ليملكـــنى　　مـن بعده المهلكان : الغمُّ والغِيَر

يا غبت إلاّ وغاب الجنس أجمعــه　　واستوحش المؤنسان : السمع والبصر

بما تكن ضلوعى فى هواك بمـــن　　يعنو له الساجدان : النجم والشجر

أدرك بقية نفسٍ لست مدركـــها　　إذا مضى الهاديـان : العين والأثر

وغنى عن الذكر أن المقارنة بين الأدب وبقية الفنون لاتتطلب اختلاف اللغة ، لأن لغتها مختلفة بطبيعة الحال .

---

١ - المصدر السابق ، والمصادر المذكورة هناك .

تبقى كلمة أخيرة ندفع بها دعاوى ظالمة عن تعقيد الخط العربى وصعوبته ، وجاءت من رجل غير عربى ولا مسلم ، وأعنى به المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا (ت ١٩٣٤ م) ، فقد تناول فى دراسة ممتعة " الكتب وعشاق المكتبات فى الأندلس " ، وترجمناها كاملة مع دراسة له عن التعليم ، ونشرناها فى كتاب حمل عنوان " التربية الإسلامية فى الأندلس : أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية "، وكان وراء هذا البحث جلاء حقيقة مئات الألوف من الكتب التى أرسلها الكاردينال ثيسنيروس إلى النيران فى حفل بهيج أقامه فى ميدان الرملة فى غرناطة بعد سقوط دولة الإسلام هناك ، وأنكر الخجلون من هذا العمل القبيح والشنيع أن يكون عند المسلمين الأندلسيين هذا القدر الهائل من الكتب ، فبرهن ريبيرا على صدق هذه الظاهرة ، وردها إلى أن العرب والمسلمين يملكون أبجدية لانظير لها ، لاتشبهها فى طابعها العملى لا الأبجدية اللاتينية ولا الإغريقية ، فهى الوحيدة التى يمكن أن تكتب فيها الكلمات بنصف حروفها اعتمادا على فطنة القارئ ، فهى ليست فى حاجة دائمة إلى كتابة الشكل ، وهو يمثل نصف حروف الكلمة تقريبا ، مما لايمكن أن يحدث فى أية أبجدية أخرى ، ومن هنا فان كتابه كلمة محمد فى حروف لاتينية Muhammed ، تستغرق وقتا أطول ، ومسافة أبعد ، مما تتطلبه كتابتها فى حروف عربية ، وإذا أعطينا لذلك نموذجا تجريديا قلنا إن الكلمة فى العربية تشغل هذه المساحة ـــــ ، على حين أنها فى اللاتينية تتطلب ثلاثة أو أربعة أمثالها أو ـــــــــــــــــــــ ، ومعنى هذا أن ناسخ الكتب فى اللغة العربية ، وبالأجر نفسه ، يستطيع أن ينتج أربعة أمثال ما يقوم به مثيله فى الحروف اللاتينية ، ولهذا الغرض كان الكتاب العربى أرخص نسخاً وثمنا من الكتاب الذى فى حروف لاتينية أربع مرات ، ولهذا شاع امتلاكه واستخدامه على نحو لايتصوره الأوروبيون .

اللغة الفارسية وآدابها

● اللغة :

تجئ بين اللغات الإسلامية تالية فى الأهمية للغة العربية ، لامن حيث العراقة أو الثراء اللغوى والأدبى ، أو كثرة المتكلمين بها ، ولكن من حيث أن العربية لغة القرآن ، بها نزل الوحى ، وفيها تقام الصلوات .

وليس من غايتنا هنا أن نتتبع الفارسية فى أصولها البعيدة ، ولا فى توزعها إلى لهجات عديدة ، ثم امتزاجها فى واحدة ، وإنما تعنينا منذ أصبحت إيران دولة إسلامية ، بعد أن انتصر المسلمون فى معركة نهاوند الحاسمة على آخر ملوك الساسانيين ، فدخل الفرس فى دين الله أفواجا ، واتخذوا العربية لسانا ، واكتسحت العربيةُ الفارسيةَ فى زمن وجيز لايعرف له التاريخ مثيلا فى صراع اللغات ، وكان وراء هذا الإقبال العظيم قوة عقيدتهم ، وحسْن إسلامهم ، وسَهل عليهم الأمر سهولةُ العربية واتساعها ، وصلاحيتها للتعبير عن مستحدثات الحياة فى يسر . وأخذ العلماء الفرس يؤلفون بالعربية ، ويترجمون إليها خير ما فى تراثهم ، وعرفنا منهم أعلاما عظاما فى كل فروع الأدب العربى ، شعره ونثره .

بداهة لم يتخل الفرس عن تقاليدهم وأعرافهم التى لاتتعارض مع الإسلام ، وأصبحوا فيها قدوة لغيرهم ، بدأت الألفاظ الفارسية التى تعبر عن محتوى حضارى ، وليس لها مقابل فى العربية ، تأخذ طريقها إلى هذه اللغة ، أمثال : اسطوانة ، وجوهر ، والطنبور والبربط ، والصولجان ، والخوان ، وغيرها . وأورد الخليل بن أحمد فى معجمه " العين " تسعين لفظا فارسيا دخلت اللغة العربية ، وظل ديوان الخراج حتى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى ، فى خلافة عبد الملك بن مروان ، يستخدم اللغة الفارسية .

غير أن مد اللغة العربية كان يبلغ أطراف الدولة واهنا ، فضلا عن ضعف السلطة المركزية ، وكثرة الاضطرابات ، ثم جاءت الدولة العباسية ، وفيها لعب الفرس دورا بالغ الأهمية في نشأتها ودعمها وحياتها السياسية والعسكرية ، رغم مأساة البرامكة ، ولم تتوقف إسهاماتهم العلمية والأدبية ، وأدت الحركات الانفصالية إلى قيام عدة دويلات إسلامية ، تدين اسما بالولاء للخلافة ، ولكنها مستقلة في واقع الأمر ، وكان على رأس بعضها حكام عظام من الفرس ، أمثال الصفاريين والسامانيين وبنى بويه والغزنويين ، وكان هؤلاء جميعا مسلمين أولا ، ومحبين للغة العربية ثانيا ، غير أنهم لم يتخذوا من لغات أسلافهم موقفا عدائيا .

وهكذا بدأت الفارسية تظهر من جديد ، فى استحياء على ألسنة الشعراء والكتاب ، وقد عانت خلال القرون الثلاثة التى تلت الفتح الإسلامى تطورا عميقا ، فتخلصت من علاقات الإعراب القديمة ، ونما معجمها اللغوى ، ولانملك معلومات وافية عن حركة البعث هذه ، غير أننا نعرف بعض ملامحها المميزة ، فقد أصبحت تكتب بالخط العربى ، ودخلتها ألفاظ عربية كثيرة ، وعجز شاعر كالفردوسى عن التحرر من هذه الألفاظ حين حاول أن يكتب " الشاهنامة " بالفارسية الخالصة ، ووجدها فى نهاية المطاف ، على غير وعى منه ولارغبة ، تضم ألفاظا عربية كثيرة .

هذه الفارسية الحديثة هى الآن لغة إيران وأفغانستان ، وعدة جمهوريات فيما وراء النهر ، وهى التى تعنينا ، وقد أصبحت لغة الحديث والكتابة فى فارس خلال الألف عام الماضية ، وأثرتها مواد لم تكن فى الأصل منها ، ولكنها أصبحت محكمة الاتصال ببناء اللغة ، وتغذت خلال رحلتها الطويلة بلغات ولهجات حولها ، وقريبة منها . ودخلتها مباشرة أو عن طريق العربية ألفاظ آرامية ، ويونانية ، ولاتينية .

ويذكر المقدسى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، المتوفى ٣٧٥ هـ= ٩٥٥م ،

فى كتابه " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " أن اللغة الفارسية كانت تسود ثغر " صحار " في التجارة والمعاملة ، وفى جدة وعدن ، لأن أكثر أهلها من الفرس ، بيدمأن العربية هى لغة الكتابة والتفاهم . ووصف حال اللغة فى خوزستان فقال إنهم يمزجون بين الفارسية والعربية ، إذ يحسنون اللغتين ، وأحسن ما تراهم يتكلمون الفارسية حتى ينتقلوا إلى العربية .

ومع أنه إذا التقت لغتان فى لسان واحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها ، على حد تعبير الجاحظ ، إلاَ أن هناك من الأدباء من شذ علي هذه القاعدة ، فكان موسى بن سيار الأسوارى من أعاجيب الدنيا ، فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ،.يأخذ مجلسه المشهور به ، فيجلس العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى الناس بأى لسان هو أبين .

وقد رفع الحكم السلجوقى فى الجانب الشرقى من دولة الإسلام من شأن اللغة الفارسية ، فجعلها لسان سدة الملك ، ولغة الدبلوماسية والعلاقات الدولية ، وترجمان الثقافة العالية والأدب الرفيع ، ولو أن العربية ظلت إلى جوارها لغة الدين والفلسفة .

ونشر الإسلام اللغة الفارسية فى شبه القارة الهندية وربوع الشرق الأقصى ، وبخاصة فى العصر الغزنوى (٣٥١ - ٥٨٢ هـ) ، وهناك طغت على اللغات المحلية ، وأصبحت هى المتداولة ، ومن تأثرها بالبيئة المحلية أنجبت لغات أخرى كالأوردية ولغة البشتو فى باكستان وأفغانستان . وتم أعظم إنجاز فى مجال تقوية الروابط الثقافية بين المسلمين والهنادكة على يد السلطان زين العابدين ملك كشمير ، فقد اتخذ الفارسية لغة ثقافية مشتركة فى كشمير ، وأوعز بترجمة الكثير من الكتب الهندية إلى اللغة الفارسية .

وحين سيطر الإنجليز على شبه القارة الهندية ألغوا استخدام الفارسية لغة

رسمية ، لأنها لغة الحكومة الإسلامية فيما يرون ، ورمز الإمبراطورية المغولية ، وشجعوا الهندية لتقف ندا للأوردية ، ولإشاعة الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، وبدأوا فى نشر الإنجليزية واتخاذها لغة رسمية طوال إقامتهم هناك مستعمرين مسيطرين .

ولم تكن روائع الأدب الفارسى قاصرة على الفرس وحدهم ، وإنما كان يتغنى بكثير منها فى مصر وتركيا وغيرهما من البلاد الإسلامية ، وخلال العصر العثمانى شاعت الفارسية فى أرض الخلافة لغة ثانية بعد التركية ، وبخاصة بين المثقفين ،أبناء الطبقة العليا ، وكانت مقررة على تلاميذ المدارس الحديثة ، وشغل سعدى وحافظ الشيرازى وغيرهما من أدباء الفرس مكانة عالية فى الأدب التركى ، ولم تكن مكانة عمر الخيام فى الأدبين العربى والتركى بأقل مما هى عليه فى الأدب الفارسى .

وعرفت مصر الشاهنامة للبندارى منذ القرن السابع الهجرى ، وازدادت عناية المصريين بعد ذلك بالتراث الفارسى ، تشهد بذلك الطبعة الأنيقة لكتاب "كلستان سعدى " وشرحه لسودى ، وغيرهما مما أخرجته مطبعة بولاق الأميرية منذ أكثر من مئة وخمسين عاما ، ونعرف لمحمود سامى البارودى ، ولعائشة التيمورية ، وهما من شعراء النصف الثانى من القرن الماضى ، قصائد فى اللغة الفارسية ، وفى أيامنا فان أقسام اللغات الشرقية ، والفارسية فى مقدمتها ، تجد من الجامعات المصرية عناية ، ونشاطا لايهدأ فى دراسة هذا الأدب وترجمة روائعه .

كان الأدب العربى منهلا ثرا للأدب الفارسى فى نشأته وتطوره ، يرتاده ويرتوى منه ، ويتمثل ثماره ، فينضج بها إبداعه ، ويحتذيه فى الصياغة الفنية من مجاز واستعارة ، ولم تكن قواعد البلاغة الفارسية تختلف عن نظريتها فى العربية قواعد ومصطلحات ، وبعض الكتب كان يستمد شواهده وتطبيقاته من الكلام العربى والفارسى على السواء ، مثل كتاب " حدائق السحر فى دقائق

الشعر " لرشيد الدين الوطواط ، وهو أحد بلغاء اللسانين ، وجمع بين أصله العربي وموطنه الإيراني ، ومن شعراء الفرس من كان ينظم باللغتين العربية والفارسية ، وقد بين لنا نظامى العروضى فى كتابه " جهار مقالة " ، وهو أول كتاب يؤرخ للأدب الفارسي ، منهج أدباء الفرس فى درس الأدب فقال :

" ... وكلام الكاتب لايأخذ درجة عالية حتى يأخذ من كل علم نصيبا ، ومن كل أستاذ نكتة ، ويسمع من كل حكيم لطيفة ، ويقتبس من كل أدب طرفة ، فينبغى أن يعتاد قراءة كلام رب العزة ،وأخبار المصطفى ، وآثار الصحابة ، وأمثال العرب ، وكلمات المعجم ، ومطالعة كتب السلف ، والنظر فى صحف الخلف ، مثل ترسل الصاحب والصابى وقابوس ، وألفاظ الحمادى والإمامى وقدامة بن جعفر ، ومقامات البديع والحريرى وحميد ، وتوقيعات البلعمى وأحمد بن الحسن (الميمندى) ، وأبى نصر الكندرىّ ، ورسائل محمد عبده ، وعبد الحميد ، وسيد الرؤساء ، ومجالس محمد بن منصور وابن عبادى ، وابن النسّابة العلوى ، ومن دواوين العرب ديوان المتنبى ، والأبيووردى ، والغزىّ . ومن شعر العجم شعر الأزرقى ، ومثنوى الفارسى ، ومدائح العنصرى ... "

لم تكن الدولة الفارسية الإسلامية بمستوى واحد فى رعاية الأدب الفارسى عند نشأته إذ تأثرت كل منها بثقافتها ، وبالظروف السياسية التى أحاطت بها ، وبعدها عن مركز الخلافة أو قربها منه ، وبعراقة أمرائها أو ضعتهم ، فبنو طاهر فى خراسان لم يكن لهم عناية بالأدب الفارسى ، ولا اعتقاد فى اللغة الفارسية ، لأن مؤسسها طاهر بن الحسين الخراسانى كان قائد الخليفة المأمون وموضع ثقته ، وينحدر من سلالة أحد العبيد الفرس ، أعور يحسن استعمال السيف بكلتا يديه، فلقبه المأمون بذوى اليمينين . وكان موقف الصفاريين فى سجستان قريبا من هذا لأن مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار عمل فى بدء حياته نحاسًا ، وقاطع طريق ، فأعجب والى الخليفة بفروسيته وقدرته فعهد إليه برآسة جنده ، ثم خلف سيده فى حكم المقاطعة ، وكانت تشمل فارس وأطرافا من الهند .

• الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) :

أسسها نصر بن أحمد ، وهو ابن لحفيد سامان الذى ينتمى فيما يقول البيرونى، إلى بهرام جوبين ، وشمل حكمها سجستان وكرمان وجرجان والرى وطبرستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر ، وأصبحت بخارى عاصمتها ، وأصبحت سمرقند من بين مدنها تضاهى بغداد فى العلوم والفنون ، ولبعدها عن مركز الحضارة الإسلامية والأدب العربى ، وامتداد زمنها ، واعتزاز أمرائها بانتسابهم إلى قدامى الفرس ، حموا الأدب الفارسى الناشىء ورعوه ، وسمعوا المدائح به ، ونظم بعض أمرائهم شعرا بالفارسية ، ونبغ عدد من شعراء الفرس على أيامهم ، وأورد لنا صاحب كتاب " لب الألباب " أسماء سبعة وسبعين شاعرا فارسيا عاشوا فى ذلك العصر ، من بينهم أبو شكور البلخى ، وهو من طلائع أصحاب المثنويات ، وأبو مؤيد البلخى ، وسبق الفردوسى فى نظم قصة " يوسف وزليخا " وأبو الحسن شهيد البلخى ، وتمتع بأوسع شهرة بين معاصريه ، وقال الشعر فى فنونه المختلفة ، وكانت له دراية باللغتين العربية والفارسية . وبدأت الفارسية تشارك اللغة العربية بعض المشاركة فيما استقلت به هذه من قبل .

وإذا تتبعنا كبار شعراء العصر السامانى وجدنا الردوكى السمرقندى ، أبو عبد الله جعفر بن محمد (ت ٣٢٩ هـ) أول شاعر كبير مشهور ، تفوق فى فنون الشعر المختلفة ، من قصائد ورباعيات ومثنويات وقطع غزليات ، وجاء فى فن القصيدة إماما ، موفقا فى اختيار ألفاظه ، يتخير معانيه ويدقق فيها ، ويحمل بين جنبيه قلبا قويا ، وفكرا ناضجا ، يواجه بهما نوائب الزمان وحدثانه ، ومع ذلك ، تعكس أشعاره الجميلة ، وحياته الطويلة ، إحساسا غامرا بالسعادة ، ولم تفقده إصابته بالعمى فى أواخر حياته خفة روحه ، ولم تذهب باطمئنانه ، وكان إلى جانب الشعر يجيد الموسيقا ، خبيرا بالأنغام ، يعزف على الربابة . ونظم كليلة ودمنة عن ترجمة بن المقفع ، وفقدت منظومته ، ولكن وصلت منها نبذ فى كتاب " فرهنك أسدى طوسى " ، وفى كتاب " تحفة الملوك " . ويبالغ النقاد فى

تقدير شعره ، وبلغت أشعاره مئة دفتر فيما يقولون ، لم يصلنا منها غير القليل، وبعض هذا القليل ينسب إلى قطران التبريزى .

وكان الدقيقى الطوسى ، أبو منصور محمد آخر شاعر كبير فى العصر السامانى ، وله غزليات وقصائد ومدائح ، وشهر بالشاهنامة التى شرع ينظمها بأمر من نوح بن منصور ، ولم يتمها ، فقد قتل فى ريعان شبابه ، ولعله الذى وجه الفردوسى إلى هذا العمل فيما بعد . وبلغت أبيات " شاهنامة الدقيقى " ألف بيت ، وهو ما صرح به الفردوسى ، وقد ضمنها شاهنامته .

وقد ارتقى النثر فى العصر السامانى على نحو ماارتقى الشعر أيضا ، ونفقت سوق التأليف ، وبعض مؤلفات هذا العصر ضاعت ، وبعضها وصلنا ، مثل ترجمة تاريخ الطبرى وقام بها أبو على محمد البلعمى ، ونقله إلى الفارسية فى حدود عام ٣٥٢ هـ بأمر من الأمير منصور بن نوح ، وتعد الترجمة مثلا طيبا للنثر الخالى من الصنعة والتكلف ، ونموذجا لطريقة الكتابة فى عصره . وفى هذا العصر قام نخبة من علماء ما وراء النهر بترجمة تفسير الطبرى ، بأمر من الأمير منصور أيضا ، وكتاب " الأبنية عن حقائق الأدوية " لأبى منصور الموفق الهروى وهو فى أسماء الأدوية المختلفة ، وخواصها ، والعلاج . وإلى هذا العصر يُرجع العلماء نسخة خطية من ترجمة القرآن وتفسيره إلى اللغة الفارسية .

ويعرف العصر السامانى عددا من الإيرانيين أتقنوا العربية ، وألفوا فيها ، كابن قتيبة والطبرى والدينورى ، وحمزة الأصفهانى ، ومحمد بن زكريا الرازى، وإسحق الموصلى ، وأبو معشر البلخى ، لأن السامانيين رغم احتفائهم بالأدب الفارسى كانوا يميلون كثيرا إلى تشجيع الأدب العربى أيضا .

● **بنو بويه والزياريون :**

قامت دولة بنى بويه (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ) على مقربة من العراق العربى ، وادعى أبوشجاع بويه جد الأسرة انتسابه فى ملوك ساسان القدماء ليكتسب

نفوذا ، وكان زعيما لقبيلة من هواة الحرب مؤلفة فى أغلبها من الديالمة ، سكان الجبال الذين يقطنون المنطقة الواقعة إلى الشاطئ الجنوبى من بحر الخزر (قزوين)، وسبق أن خدموا السامانيين .

وبعد أن وطد البويهيون حكمهم جعلوا شيراز عاصمة لهم.، وبسطوا نفوذهم على العراق ، وعنوا ببغداد العاصمة تجميلا وترقية ، فأنشأوا بها مشفى شهيرا كان يعمل فيه أربعة وعشرون طبيبا ، وهم بمثابة هيئة تدريس فى كلية طب ، ودارا للرصد احتذاء بدار الحكمة التى أنشأها الخليفة المأمون ، ومجمعا علميا ضمت مكتبته عشرة آلاف مجلد ، كان أبو العلاء المعرى من بين المترددين عليها حين جاء يطلب العلم فى بغداد ، وفى أيامهم ازدهرت جماعة إخوان الصفا .

ومع ذلك ، كان أدبها عربيا خالصا ، وفى عضد الدولة منهم قال المتنبى بعضا من خير شعره ، وأهداه بعض العلماء مؤلفاتهم كأبى على الفارسى ، فقد أهداه كتابه " الإيضاح " . وكان وزراؤها من حماة الأدب العربى وقادته ، كابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وكانت إقامة الأخير بين الرى وأصفهان .

وكان ملوك الدولة الزيارية في طبرستان (٣١٦ - ٤٧٠ هـ) ينتسبون إلى الملك قباذ من ملوك الفرس القدامى ، وفصلهم موقعهم فى هذا الأقليم الساحلى عن مجرى الحوادث والحضارة التى كانت تسود العالم الإسلامى ، فاتخذوا أسماء فارسية مثل قابوس ومنوجهر وكيكاوس ، وعنوا بالأدب الفارسى ، وقصدهم بعض شعراء الفرس ، ولكن قابوس رأس هذه الدولة كان كاتبا فى العربية أيضا.

● الغزنويون (٣٥١ - ٥٧٩ هـ) :

كان من بين العبيد الأتراك الذين حباهم السامانيون بعطفهم ، وقلدوهم وظائف عالية ، واحد يدعى " البتكين " ، وبدأ حياته فى الحرس الخاص ، ثم تقلد رئاسته ثم رقى حاكما على خراسان ، ولما دب الشقاق بينه وبين الأمير انصرف إلى الحدود الشرقية ، واستولى على غزنة فى بلاد الأفغان ، وأسس مملكة مستقلة

اتسعت على يد خلفائه من بعدهحتى ضمت أفغانستان والبنجاب وبشاور ، وجزءا من السند ، وخراسان والرى وأصفهان .

واشتهر محمود سبكتكين (٩٩٩ - ١٠٣٠ م) من بين أعضاء هذه الأسرة ، فعلى أيامه فَتحت الهند ، وهو أحد الأوائل فى التاريخ الإسلامى الذى حمل لقب " الغازى " ، وأسس فى عاصمته مكتبة ومجمعا علميا ، وأصبح بلاطه مهبط الشعراء وأهل العلم ، على نحو ما كان عليه بلاط الحمدانيين فى حلب ، وبنى عباد فى إشبيلية ، ولم يقتصر النشاط الثقافى على العاصمة وحدها ، وإنما شمل مدنا أخرى مثل : بخارى وسمرقند وطبرستان والرى وأصفهان وغيرها .

قامت الدولة الغزنوية بعد أن ازدهر الشعر الفارسى ، ولم يتعصب ملوكها للفارسية لأنهم أتراك ، ومع ذلك قصدها كثير من شعراء الفارسية ، وأثر عن السلطان محمود وابنه محمد شعر فى اللغة الفارسية. وقد شهد هذا العصر نوابغ كثيرين فى الأدب والعلم ولكن عظمة الدولة الغزنوية اقترنت بشهرة الفردوسى ، إذ كان محور العصر ، فنظم الشاهنامة بعد أن سبقه إليها آخرون ولم يكملوها ، ومضى فيها حتى النهاية .

يعد العنصرى ، أبو القاسم حسن (٣٥٠ - ٤٣١ هـ) من أعلام هذا العصر وهو أصلا من مدينة بلخ ، وكان أبوه يحترف التجارة ، ومارسها الابن أيضا ، وفى أحد أسفاره غصبه قطاع الطريق ثروته فانصرف إلى طلب العلم ، واكتسب شهرة واسعة ، وبلغ منزلة رفيعة ، وجمع فى مجلس السلطان محمود بين منصب النديم ومنصب الشاعر ، وأجزل له العطاء ، ولقبه ملك الشعراء ، ومحور أشعاره يدور حول قصائده ، وأغلبها فى مدح السلطان محمود ، وأخيه نصر ، وابنه السلطان مسعود ، وفيها يسجل أعمالهم وفتوحاتهم .

وهى فى مجملها من عيون قصائده ، وضمنها أرق المعانى وأجودها ، وأبدع فى اختيار كلماتها ، وطريقته فى قصائده - غالبا - أن يبدأ بمقدمة فى وصف الطبيعة ، ثم يشرع فى الغزل والتشبيب ثم ينتقل إلى المديح . والعنصرى يجيد

الغزل ، وفضل السبق فى هذا للردوكى ، وله مهارة فى فن المثنويات ، ويقال إنه أول من نظم " وامق وعذراء " ومثنويات أخرى ، وله ديوان قصائد يقال إنه كان يضم فى الأصل ثلاثة آلاف بيت .

وكان العسجدى ، عبد العزيز بن منصور المروزى (ت ٤٣١) معاصرا للعنصرى ، ولم يصلنا من شعره إلا قصائده فى مدح السلطان محمود ، وله مثنويات وردت فى كتب الطبقات ، وينسبون إليه ديوان شعر يضم ثلاثة الاف بيت ، لم يصلنا منها إلا القليل .

ومن كبار الشعراء فى عهد السلطان محمد ، أبو الحسن على بن جولوغ ، واسم تخلصه فرخى (ت ٤٢٩) ، وهو صاحب ذوق وقريحة ، وصوت جميل ، ويحسن العزف على الرباب ، ويجيد فنون الشعر ، والقصيدة من بينها بخاصة ، وعمل بالفلاحة قبل أن يتصل بالسلطان وأجمل قصائده التى أنشدها فى عهد الغزنويين يمدح السلطان محمودا وأبناءه وأخاه ووزراءه وندماءه . وكالعنصرى يستهل أغلب قصائده ومدائحه بوصف بدائع الطبيعة ، وله مقدرة ممتازة فى الغزل ومهارة فائقة فى اختيار المعانى وانتقاء الألفاظ والتصوير ، ويتجنب التكلف والتعقيد ، ويغلب على شعره البساطة ، ويتضمن ديوانه أكثر من تسعة آلاف بيت ، وإلى جانب القصائد نظم الغزل والقطع والموشح ، وألف فيه " ترجمان البلاغة " ، ضاع ولم يصلنا ، غير أن رشيد الدين الوطواط رآه ، وأفاد منه فى كتابه " حدائق السحر " .

وكان منوجهرى ، أبو النجم أحمد (ت ٤٣٢) شاعرا معروفا فى عصر السلطان مسعود ، ووقف أغلب قصائده على مدحه ووزرائه وأمراء دولته ، اطلع على شعر الأقدمين ، والعرب من بينهم بخاصة ، يتجلى ذلك فى شعره ، ويذكر فى ديوانه أسماء عدد منهم ، عربا وإيرانيين ، ويقتبس من شعرهم ، خصوصا فى قصائده التى مدح بها العنصرى ، وكان منوجهرى يدعوه أستاذه . وقد تبحر فى اللغة العربية ، ولم يقتصر كغيره على الاقتباس منها معنى وأسلوبا ، وإنما

استعمل الألفاظ الغريبة والتراكيب النادرة . ولم يخرج فى شعره عن المألوف ، فهو يبدؤه غالبا بوصف الطبيعة والغزل ، مع دقة الوصف ، واختيار اللفظ المناسب ، وقد ألف الطبيعة ، فأكثر من وصف الرياض والورود والأشجار ونغمات الطيور ، وقل أن نجد ديوانا فارسيا يرد فيه هذا القدر من أسماء الثمار والزهور والطيور . ويعتبر ممن ابتكروا " المسمط " ، وله إلى جانب مهارته فى الشعر دراية بعلوم الدين والطب والنحو .

وعرف العصر الغزنوى عددا من العلماء والأدباء الكبار ، أمثال بديع الزمان الهمذانى ، وكانت له محاورات ومناظرات مع علماء عصره ، وأبى بكر الخوارزمى ، وابن مسكويه ، وكان زرادشتيا ثم اسلم ، وبرع فى التاريخ ، وابن سينا ، وهو أشهر من أن يُعرف به ، والثعالبى ، والبيرونى محمد بن أحمد ، وُلد ناحية خوارزم ، وأمضى صدر حياته فى بخارى ، وخدم شمس المعالى قابوس حاكم جرجان ، وعاش فى كنفه أياما ، ثم اتصل بالسلطان محمود ، وصحبه فى أسفاره إلى الهند ، حيث اطلع على أحوال أهلها ، وألم باللغة الهندية ، وترك لنا مؤلفات ذات أهمية عظمى ، وإن لم تأخذ حظها من الدرس والتحليل . وهى : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، وتحقيق ما للهند من مقولة ، والتفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، وقانون مسعودى ، ومؤلفات كل هؤلاء كانت بالعربية ، رغم أن مؤلفيها من الفرس ، وأن بعضهم كان يعرف الفارسية أو يجيدها .

ولكن أبا الفضل البيقى تميز بأن أغلب مؤلفاته بالفارسية ، وظل على ديوان الرسائل فى عهد الغزنويين تسعة عشر عاما ، وله تاريخ مطول فى أحوال سلاطينهم ، فى ثلاثة مجلدات ، ضاع اثنان منها ، وبقى واحد ، وكتبه فى لغة فارسية عالية .

● الفردوسى :

كان قمة هذا العصر ، وكل عصر سبقه ، ولذلك خصصته بفقرة خاصة .

ولد أبو القاسم فى قرية باز من نواحى طبران بالقرب من طوس ، إحدى مدن خراسان ، وتقع مكان مدينة مشهد الحالية ، عام ٣٢٩ على الأرجح ، وتوفى عام ٤١١ أو ٤١٦ . وكان من أصحاب الضياع والعقار ، وانخرط شابا فى سلك رجال الأدب ، واندمج بين علماء زمانه فاتسع اطلاعه ، وعمقت معرفته بالأخبار والقصص والحكايات ، ما اتصل منها بتاريخ إيران قبل الإسلام بخاصة ، تروى شفاها ، أو تسجلها بعض الكتب ، مثل كتاب " خداى نامه " ، وترجمه ابن المقفع من البهلوية إلى العربية بعنوان : " تاريخ ملوك إيران " . وأقدم جماعة من الشعراء على كتابة الشاهنامة نظما ونثرا ، كالمسعودى المروزى ، وأبى المؤيد البلخى ، وأبى على البلخى ، والدقيقى ، وهى محاولات ذهبت كلها ، ولم يبق منها سوى ما كتبه الدقيقى .

بدأ الفردوسى بنظم شاهنامته بعد الدقيقى ، وتقول الرواية إنه رأى الدقيقى فى نومه ، فطلب إليه هذا أن يثبت الألف بيت التى له فى شاهنامته ، وهو ما قام به الفردوسى فعلا ، وقد شرع فى نظمها عام ٣٧٠ وأتمها سنة ٤٠٠ ، كما أنه رجع إلى شاهنامة محمد بن عبد الرازق الطوسى ،وحصل عليهامن أحد أصدقائه.

تبلغ الشاهنامة نحو ستين ألف بيت ، وتنظم أشعارها قصص الملوك والأمراء وحروب الأبطال ،وجاءت كلها فى بحر المتقارب ، وهو أحسن الأوزان وأنسبها لشعر الملاحم والقصص باللغة الفارسية . وتضمنت أشعاره أمثالا وأخلاقيات ونصحا ومواعظ ، فى عبارة قوية ، وبخاصة عندما يعرض لبطل مهزوم ، أو قتل حاكم ظالم ، أو تدمير مملكة ، أو هزيمة جيش ، فانه يستخلص من ذلك العبر . وفيها عرض بافاضة لتاريخ إيران فى القديم ، آلهتهم وعباداتها ، وأبطالهم وفرسانهم ونظمهم ، وتجلت قدرة الفردوسى على نظم القصص الطويلة ، ومهارته فى ترتيب المعانى ، والسلاسة المحكمة ، وفى بعض أقسامها الشهيرة بخاصة ، كالمقدمة وقصة رستم وسهراب وهزيمة يزدجرد أمام المسلمين.

لم يقصد الفردوسى بنظم الشاهنامة طلب المال ، فقد كان ميسورا ، ولايعكس شعره إحساسا بفقر أو حاجة ، ويعرف قدر نفسه وأدبه جيدا ، وقد وجد التشجيع علي نظمها من كثيرين من علماء عصره وعظمائه ، غير أن الأيام قلبت له ظهر المجن فى أواخر حياته ، فحين استبدت به الشيخوخة ذهب سلطانه ، وأصابه اليأس ، وألحت عليه الأحزان ، فحمل شهنامته وطاف بها أمراء عصره ، فلم تحظ عندهم بما كان يؤمل ، ولم يجد منهم لقاء كريما ، ولم يمنحه أحد مكافأة سخية علي عمل بذل فيه نحو ثلاثين عاما .

أورد دولة شاه في كتابه " تذكرة الشعراء " قصة تقول إن الشعراء الثلاثة : العنصرى والعسجدى والفرخى كانوا يتحدثون يوما فى إحدى الرياض فى مدينة غزنة ، فقصدهم غريب قادم من نيسابور يريد أن يلتحق بمجلسهم ، فاعترضه العنصرى ، وقد هاله فضول هذا الغريب القروى وقال له :

- إننا شعراء الملك ، ولايدخل فى زمرتنا إلاّ شاعر ، فان شئت أن تلحق بجماعتنا فما عليك إلاّ أن تجزينا بشطرة رابعة لثلاث شطرات من الشعر ، سيقول كل واحد منا واحدة منها ، فأذعن الفردوسى لهذا الاختبار ، وعمد العنصرى إلى اختيار قافية صعبة ، يسهل بها تقفية ثلاث شطرات وتستعصى بها الرابعة ، فقال مبتدئا :

جون عارض توماه نباشد روشن

ومعناها : أن القمر لايضئ كنور وجهك في بهائه

ثم ثنى العسجدى :

ماننلرخت كل نبود در كِلشن

ومعناها : وفي بهاء وجناتك لايكون الورد فى رياضه .

ثم أعقبه الفرخي :

مز كَانت كَذر همى كند در جوشن .

ومعناها : وأهدابك تنفذ من الجواشن الثقيلة

وأقبلت نوبة الفردوسى فقال الشطرة الاتية ، وفيها إشارة إلى قصة غير مشهورة فى أساطير ملوك الفرس الأقدمين :

مانند سنان كَيو در جنكَك يشن .

عند ذلك طلب الشعراء الثلاثة إلى الفردوسى أن يشرح لهم القصة ففعل ، وأبدى كثيرا من الخبرةبأساطير إيران القديمة . وأخبر العنصرى مولاه السلطان محمود بأنه عثر على شاعر قمين بأن يكمل نظم الملحمة الوطنية التى بدأها الدقيقى لأحد ملوك السامانيين ، وأتم منها ألف بيت ولكن الموت اخترمه ، فاغتاله غلام تركى من غلمانه ، وبذلك قضى على هذا الشاعر التعس الموهوب . ولكن بعض المؤرخين لا يرتضى القصة بحجة أن أقدم كتّاب التراجم الفارسية لم يشيروا إليها .

أعطى الفردوسى الشاهنامة لكاتبه على ديلم فنسخها في سبعة مجلدات ، وحملها الفردوسى إلي غزنة مستصحبا راويته أبادلف ، وتولى الوزير الميمندى أبو القاسم أحمد بن الحسين ، تقديمها إلى السلطان محمود الذى سر بها سرورا عظيما ، لكن أعداء الوزير كادوا له حين استشارهم السلطان فى مقدار العطاء ، وقالوا : حسبه عشرون ألف درهم ، وهذا المبلغ كثير عليه لأنه رافضى ومعتزلى فغضب الفردوسى غضبا شديدا ، وذهب إلى الحمام فاغتسل ثم خرج فشرب "فقاعا "[1] ، وقسم النقود بين صاحب الحمام وبائع الفقاع ، وفر هاربا من مدينة غزنة ليلا ، لأنه يعرف قسوة السلطان محمود .

وتقول الرواية إن السلطان محمود فى طريق عودته من الهند مر بغزنة ،

---

١ - نوع مسكر من الشراب كالجعة .

وحدث ما ذكره بالشاعر ، فأسف على ماكان منه فى حقه ، وأمر وزيره الميمندى بأن يصله بستين ألف دينار ، تحملها إليه فى طوس الإبل السلطانية ، ومر رجالى أن يسألوه المعذرة .

ومضت سنوات ست ، والوزير مشغول بهذا الأمر حتى استطاع تنفيذه ، ووصل العطاء سالما إلى ناحية طبران ، فلما دخلت الإبل من باب " روديار " كانت جنازة الفردوسى تخرج من باب " رزان " ، وكان فى طبران فى ذلك الوقت خطيب متعصب ، رفض أن تَحمل الجنازة إلى مقابر المسلمين ، لأن صاحبها فيما يزعم كان رافضيا ، ولم يفلح الناس فى إقناعه ، وكانت للفردوسى حديقة فدفن فيها وفيما بعد ، فى الاحتفال الألفى بمولده أقامت له الحكومة الإيرانية مقبرة فخيمة تليق بمكانته .

تأثر الفردوسى بسابقيه وأفاد منهم ، ولكنه فاقهم جميعا ، واحتذاه كثيرون جاءوا بعده ، أمثال : حمد الله المستوفى ، ؤأحمد التبريزى ، والقاسمى ، وفتح على خان صبا ، من شعراء الفارسية فى الهند . ورغم أن الفردوسى حاول ما أمكنه أن يتحاشى فيها الألفاظ العربية ، فمن الخطأ القول بأنها لاتضم شيئا منها لأن كثيرا من الألفاظ العربية قد تأصل بطريقة يستحيل معها أن يتحاشاها، ويبلغ عدد الألفاظ العربية فيها ٥٪ من مجموع كلماتها .

يجمع النقاد الشرقيون والغربيون على الإعجاب الشديد بهذه الملحمة الهائلة ، ماعدا المستشرق الكبير إدوارد جرانفيل براون فهو لايشاركهم حماستهم فى كتابه " تاريخ الأدب فى إيران " ، ويرى أنها " لا يمكن أن ترقى إلى مستوى المعلقات العربية ، ورغم أنها المثال والقالب اللذان احتذاهما شعراء الملاحم فى أراضى الإسلام قاطبة ، إلاّ أنه لايمكن من ناحية الجمال والعاطفة والذوق الفنى مقارنتها بأجود الأشعار التعليمية أو الروائية أو الغزلية التى قالها شعراء الفرس " ، ثم يضيف : " ولعل إخفاقى فى تذوق الشاهنامة ناشئ من نقص طبيعى فى حسى يجعلنى أمج أشعار الملاحم بعامة " . ومن نافلة القول الإشارة إلى أن الشاهنامة

ترجمت إلى كل اللغات الحية ، ومن بينها اللغة العربية .

ونظم الفردوسى قصة " يوسف وزليخا " ، استجابة لرغبة أحد أفراد حاشيته المرموقين ، أبو على حسن الموفق ، وكان الشاعر الطوسى قد نظمها فى ذلك التاريخ ، ونظمها جماعة قبله منهم أبو المؤيد البلخى ، والبختيارى الأهوازى ، وقد ضاعت منظومتاهما ، ووصلتنا منظومة الفردوسى ، مع اختلاف بين النسخ فى عدد أبياتها ، فهى تتراوح بين ستة آلاف وتسعة آلاف بيت . واحتذاه آخرون جاءوا بعده ، أمثال : عبد الرحمن جامى ، ونظامى الهروى ، وشوكت . ولاتقع هذه المنظومة موقع الرضا من النقاد الفرس ، ويرون أن الفردوسى نظمها بعد أن غاض شبابه ، وذوى عنفوانه ، وانحطم قلبه ، بسبب النكد الذى استولى عليه لنظمه الشاهنامة ، ويرون أيضا أنه صاغها فى وزن الملحمة وأسلوبها ، وهما لايصلحان لنظم القصص الرومانسية .

وعلاوة على هاتين المنظومتين له عدد غير قليل من الغزليات والرباعيات حفظتها لنا كتب التراجم والمختارات .

● عصر السلاجقة :

حين ظهر الأتراك السلاجقة فى أفق التاريخ الإسلامى فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى لم يكن الخليفة فى بغداد يقبض إلاّ على خيال من سلطته السابقة ، فقد مزقت الحركات الانفصالية الدولة الإسلامية الكبرى : الأمويون فى الأندلس ، والفاطميون فى مصر وشمال أفريقيا ، وشمالى الشام وأعالى العراق فى يد زعماء مشاغبين نجحوا فى تأسيس دول خاصة بهم ، وفارس وما وراء النهر ، وما يليها إلى الشرق والجنوب ، موزعة بين البويهيين والغزنويين ، أو خاضعة لأمراء صغار مختلفين يتربص كل واحد منهم بالآخر ، والفوضى السياسية والحربية تضرب أطنابها فى كل مكان ، وخيل للناس أن العالم الإسلامى قد دالت دولته .

في وسط هذا الاضطراب ظهر زعيم يسمى سلجوق بن دقاق ، دخل إلى المعمعة حوالى ٩٥٦م ، على رأس قبيلة من الأتراك الغز ، جاءوا من برارى التركستان ، ونزلوا أولا حول بخارى ، حيث اعتنقوا الإسلام على مذهب أهل السنة ، ثم اتجهوا إلى خراسان ، وغلبوا الغزنويين فى مرو أولا ، وفى نيسابور أخيرا ، وسرعان ما ضموا إلى ممتلكاتهم بلخ وجرجان وطبرستان وخوارزم والرى وهمدان وأصفهان ، وتصدع البيت البويهى أمام تفوقهم ، وفى ١٨ ديسمبر ١٠٥٥م وقف طغرل بك على رأس جماعة من قبائل التركمان يطرق أبواب بغداد فبارحها البساسيرى القائد التركى وحاكمها العسكرى ، بينما أحسن الخليفة القائم استقبال الفاتح السلجوقى ، مما قوّى موقف حكومةالسلاجقة ، وأصبحت من أقوى الدول التى سبقتها سلطانا .

تعتبر عصور طغرل بك (١٠٣٧ - ١٠٦٣م) وابن أخيه وخلفه ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢م) وألب معناها الأسد البطل ، وملكشاه بن ألب (١٠٧٢- ١٠٩٢) أزهى عصور النفوذ السلجوقى فى الشرق الإسلامى ، فبدأت قبائل الترك الجديدة تنضم إلى السلاجقة ، ووسع هؤلاء نفوذهم فى كل النواحى ، حتى أصبح غربى آسيا يكون دولة إسلامية موحدة ، وعاد إلى الإسلام بهاؤه ، وإلى جيوشه هيبتها ، وبفضلهم قوى الإسلام فى صراعه من أجل السيادة العالمية ، واستطاع فى أسوأ ساعاته السياسية أن يكسب انتصارا عظيما من انتصاراته الحاسمة ، فقد كان السلاجقة أول من كسب من المسلمين أرضا ثابتة فى بلاد الروم ، وأخذوا يستعمرون هضاب آسيا الصغرى التى أصبحت من ذلك الحين جزءا من " دار الإسلام " ، ووضعوا أساس تتريك آسيا الصغرى ، وسوف يقومون بدور هام فى صد تقدم الصليبيين فى حملتهم الأولى .

وصل النفوذ السلجوقى إلى أقصاه فى عهد ملكشاه ، ولم يكن هذا حاكما لإمبراطورية مترامية الأطراف فحسب ، وإنما كان مصلحا عظيما ، أمر بتعبيد الطرق ، وإنشاء المساجد ، وترميم الأسوار ، وشق الترع ، وإنشاء الخانات فى

طريق الحج إلى مكة ، وأصبحت الطرق على أيامه آمنة ، تستطيع القافلة الواحدة من رجل أو اثنين ، أن تسافر بسلام دون حاجة إلى حراسة خاصة من بلاد ما وراء النهر حتى تبلغ الحجاز .

وكان نظام الملك ، أبو على الحسن بن اسحاق ، الوزير الفارسى الذائع الصيت العقل المدبر خلال حكم ألب أرسلان وملكشاه ، وهو أحد الدرر اللامعة فى سماء التاريخ الإسلامى ، ثقافة وعلما وتدبيرا ، وقد ألف كتاب " سياسة نامة " يعالج فيه فن الحكم ، ولكن خصومه الحاقدين أثاروا عليه ملكشاه ، فحدث له ولأسرته ما حدث للبرامكة من قبل ، فقد رفعوا للسلطان أن أقرباء نظام الملك يتحيفون الناس فأرسل إليه متهكما : هل يقنع بمنصب الوزارة أو يعتبر نفسه شريكا له فى الملك ؟ ثم أخبره بأن أقرباءه لايقنعون بالمناصب العالية ، وإنما يظهرون الكثير من التبجح والرعونة ، مما لايمكن الإغضاء عنه ، فاستاء الوزير من هذه الكلمات ورد عليه فى جفاء : " إن الذى وضع التاج على رأسك قد وضع القلنسوة على رأسى ... " وعبارات أخرى خشنة نقلها بعض الحاضرين إلى السلطان ، فعزله . ولم يعش بعد ذلك طويلا ، فقد تربص به شاب ديلمى ، تزيى فى زى مسكين ، وطعنه بخنجر طعنة قاتلة ، وكان هذا المسكين المزيف عضوا فى جماعة "الحشاشين " الذين تجمعوا فى ذلك الوقت حول الحسن بن الصباح ، وحزن الناس لمقتله حزنا عظيما ، وقيلت فيه مراثى بليغة باللغتين العربية والفارسية .

كان اهتمام السلاجقة بالآداب الفارسية أكثر من غيرهم ، لأن الأدب الفارسى نضج فى هذه الفترة ، وعرف شعراء مشهورين وعلماء معروفين على مستوى العالم الإسلامى كله ، ولم يكتف سلاطين هذه الأسرة برعاية الأدباء والعلماء فحسب ، وإنما اتخذوا وزراءهم منهم ، كعميد الملك الكندرى ، وكان يتشيع للفرس ، ونظام الملك الطوسى ، وكان أميل للعرب ، وأسسوا مدارس عالية فى بغداد ونيسابور وجهات أخرى حملت اسم " النظامية " ، واختاروا نخبة من خيرة علماء العصر للتدريس فيها ، على رأسهم الإمام الغزالى .

من شعراء العصر السلجوقي النابهين الأسدى ، أبو نصر على بن أحمد (ت٤٦٥ = ١٠٧٣م) ، وله شهنامة على نسق شهنامة الفردوسى ، وإن كان دونه ، ولقى في نظمها مشقة ، لكنه أتمها أخيرا فى تسعة آلاف بيت عام ٤٥٨ وألف " لغت فرس " ، وهو معجم لغوى يشرح الكلمات الفارسية المهجورة ، ويستشهد على شرحه بما قاله الشعراء الأقدمون ، وبعض هؤلاء لم نكن نعرف عنهم شيئا من قبل ، وعرض فيه أيضا لسيرة ثمانين شاعرا ممن استشهد بهم ، فحفظ لنا كثيرا من أشعارهم التى ضاعت أصولها ، مثل كليلة ودمنة للرودكى ، ويلفت النظر أنه تجاهل ناصر خسرو فى معجمه ، كما تجاهله عوفى من قبل .

ومن أعلام هذا العصر الشاعر الرحالة ناصر خسرو (ت ٤٨١ هـ) ، ولد فى قباديان من أعمال بلخ ، واشتغل بتحصيل العلوم شابا ، وبحث فى الأديان والعقائد ، ودرس أشعار الفرس والعرب ، ثم التحق بخدمة السلاجقة وصار كاتب ديوانهم ، ورحل كثيرا ، واستغرقت رحلته سبع سنوات كاملة ، من ٤٣٧ إلى٤٤٤ ، سافر خلالها إلى الهند وأفغانستان وتركستان و آسيا الصغرى و الحجاز ومصر وسوريا ، تمكن خلالها من أداء فريضة الحج خمس مرات ، عاد فى نهايتها من الحجاز إلى وطنه ، مارا بتهامة واليمن والإحساء والقطيف والبصرة ، ومرو وأرّجان وأصفهان .

وأمضى من هذه السنوات ثلاثا فى مصر ، استطاع خلالها أن يتحقق من عظمة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وما اتصف به من عدل وإدارة وحكمة . وأثمرت رحلاته هذه كتابه العظيم " سفر نامه "وألفه بعد عودته ، ووصف فيه أغلب المدن التي رآها ، والأشخاص العظام الذين لقيهم ،والتزم جانب الحرص فيما يتصل بالمسائل الدينية ، لأنه كتبه للعامة فيما يبدو ، ومع ذلك فمن الواضح أنه لايشك مطلقا فى صحة نسب الفاطميين ، شديد التحمس لهم لإدارتهم البارعة ، وما حققوه من ثروات طائلة ، وما ضمنوه لرعاياهم من سعادة سابغة وأمن شامل . وأجاد فى وصف القاهرة ، جوامعها وحاراتها وحدائقها

ومبانيها ، وأخباره عن الإدارة الفاطمية بالغة الأهمية من الوجهة التاريخية ، وأعجب بنظام الجيش وترتيبه ، وانتظام رواتب الجند ، فأحس الأهلون بالأمن والطمأنينة ، وسلامة أموالهم من غارة الجند عليها ، ولم يكن التجار فى حاجة إلى غلق أبواب حوانيتهم أو مخازنهم ، ولايخشون وقيعة الجواسيس والغمازين ، لأنهم يثقون فى أن السلطان لايظلم أحدا ولايطمع فى مال أحد .[١] واختلط بأئمة الإسماعيلية ، وتبحر فى مذهبهم ، ولما عاد إلى وطنه نهض يدعو الناس إليه ، واختلف مع علماء عصره حول دعوته هذه ، وناهضه أمراء السلاجقة ففر من وجههم ، وظل يتنقل متخفيا من مدينة إلى أخرى ، وأثمر اختفاؤه كتابه "زاد المسافرين " ، وهو إثبات عقائد الإسماعلية ، إلى أبحاث فلسفية أخرى ، وانتهى به المطاف إلى يمكَان من أعمال بدخشان ، حيث آثر العزلة إلى أن توفى .

كان ناصر خسرو شاعرا مجيدا ، ونظم جميع قصائد ديوانه بعد أن بلغ الخمسين ، واستعمل فيه المهجور من الألفاظ الفارسية ، والشاذ من الصيغ النحوية ، ويبلغ حوالى ثلاثين ألف بيت من الشعر ضاع جلها ، ولم يتبق غير اثنى عشر ألفا ، تختلط فيها المسائل الفلسفية والدينية ، والدعوة إلى الإيمان واحتقار ماديات الحياة ،والإعراض عن زخرفها ، والرياضة الروحية ، والتقوى ، والتجرد عن الظاهر إلى الباطن ، وأن طريق العلم أقوم الطرق لمعرفة الحقيقة ، وكثيرا ما يحث فى قصائده على فضيلة العلم والنظر ، ليس علما مستقلا عن الدين والإيمان ، وإنما متصل بالعقيدة وثمرة لها ، وتختلط فيه بعض الأفكار الصوفية عن " الكشف " و" الإلهام " و " ما وراء العالم الظاهرى ".

والديوان ملئ بالإشارات التاريخية الإسلامية والفارسية القديمة ، والجغرافية ، وبعض الأسماء اليونانية ، وأصحاب المذاهب الإسلامية ، وشعراء الفرس والعرب وآراؤه الدينية والفلسفية مصورة أبدع تصوير فى ديوانه ، ويمكن القول بأنها

---

١ - ترجم الدكتور يحيى الخشاب كتاب " سفر نامه " إلى اللغة العربية .

أفكار إسماعيلية ، وأنه يتكأ على التأويل من مذهبهم فى فهم القرآن الكريم . وفيه يحتقر المنافقين والمخادعين ، وينضح ديوانه علما وحماسة دينية ، وشجاعة منقطعة النظير ، لاتلتقى بها عند أى شاعر فارسى آخر .

وثمة كتب أخرى تنسب إلى ناصر خسرو ، بعضها لمأ يطبع ، والآخر موضع شك ، ويهمنا من بينها مثنويته " روشنائى نامه " أى كتاب الضياء ، وهى فى ٥٧٩ بيتا ، فى بحر الهزج المسدس ، وأتم تأليفها خلال إقامته فى القاهرة ، فى عيد الأضحى سنة ٤٤٠ = ١٠٤٩م . وهى تعرض لجملة من المسائل المتصلة بما وراء الطبيعة والمتعلقة بنشأة الكون . والمثنوية الأخرى " سعادة نامة " ، وتعرض لمبادئ الأخلاق العملية ، وكلتاهما لاتبلغان فنا مبلغ القصائد الموجودة فى الديوان .

● شعراء الصوفية :

فى هذا العصر ارتقت الصوفية ، واعتنقها جماعة من الشيوخ والشعراء . وليس هنا المكان الذى نعرض فيه لنشأة التصوف فى إيران وروافدها ، وإنما بحسبنا أن نلمح إلى لونين متميزين فيه : لون يدعو إلى الإعراض عن الدنيا والرياضة الروحية ، وقتل الشهوات ، والقناعة ، وترجيح الفقر ، واكتساء الصوف ، ولون آخر يركز على السلوك والجد والطلب ، وطى مراحل الإخلاص والعبادة والتواضع ، والإيثاروخدمة الغير ، والسكوت ورياضة النفس والمحبة واكتساب المعرفة وبلوغ مقام العشق الإلهى ، والفناء فى الوجود ، والقيام بأوامر الله ، والاجتهاد بلا منة ، والخدمة بلا رياء .

والصوفى الكامل هو الذى يطوى مراحل التقليد والتوسل إلى أن ينتهى منها ويقطع إلى الحقيقة طريق الكشف والتذكر والرياضة ، ويجعل قلبه مستقر العشق والمحبة والتجلى ، ويسمو بفكره من العالم السفلى إلى مقام العالم العلوى ، ويجلى مرآة الضمير حتى يرى الله فى نفسه ويبلغ إليه المعرفة ، وأن يجعل فكره وقوله وفعله فى سبيل الوصول إلى الحقيقة .

تجلت عقائد الصوفية بأجلى مظاهرها عند الشعراء والكتاب المتصوفة من الإيرانيين ، ونضحت فى آثارهم المنظومة والمنثورة ، وتجلت قوية فى أحاسيسهم الدقيقة ، وعباراتهم الرقيقة، ويعكس الشعر الصوفى فى اللغة الفارسية تدرج التصوف نفسه من العبادة والزهد والخوف الشديد من الجزاء إلى المعرفة والمحبة ، ثم إلى مرحلة الفناء الأخير ، ويعبر عن ذلك فى صور لاتعد ، تتأرجح بين الحقيقة و المجاز ، والوضوح والخفاء ، وكثر حديثهم عن الحبيب والوجه والطرة والعين ، والخمر والكأس والساقى ، حتى صار لهم لغة خاصة يعرفون هم ما يريدون بها . ولكنهم إلى جوار هذا صوروا الأحاسيس الإنسانية فى أرقى صورها والنفس الإنسانية فى نزعاتها المختلفة ، من سعادة وشقاء ، وحب وبغض وسمو وإسفاف ، وفى نزعاتها إلى عالمها ، وإلى الله مبدئها ومنتهاها .

كان من أبرز هؤلاء الشعراء :

بابا طاهر المقلب بالعريان (ت ٣٥٧ = هـ) ، وهو من همدان ، عاش معتكفا مغمورا ، وما نعرفه عن حياته قليل جدا ، واختلف مؤرخو الأدب فى تحديد زمنه اختلافا شديدا ، وقد اتخذ الصوفية بعده من تواضعه منهجا للسالكين ، ولكن شهرته شاعرا شغلت أواسط القرن الخامس الهجرى ، ويعد من شعراء الصوفية الممتازين ، وقصائده تهز القلوب ، وله رسائل بالعربية والفارسية تشرح عقائد المتصوفة فى العلم والمعرفة وعبادة الله ، وفى الوجود والمحبة الإلهية، فى جمل قصيرة مؤثرة .

كانت رباعياته الجميلة وآثاره الصوفية وراء شهرته ، وكتبها فى لهجة خاصة وتفترق عن الرباعيات المعروفة من حيث الوزن ، فقد جاءت فى بحر الهزج المسدس المحذوف ، فتتكرر " مفاعلين " ست مرات فى البيت الواحد ، ولكن التفعيلة الثالثة والسادسة تقتضب إلى " مفاعل " أو " فعولن " ، وتقترب فى ألفاظها من لهجة الريّ ، وتقارب ما يعرف فى الكتب القديمة بالفهلويات ، وهى فى مجموعها بسيطة ، لاتبلغ من حيث الصياغة اللفظية أو المعنوية مبلغ

الرباعيات التى كتبها فنانون عظام أمثال عمر الخيام ، ولكنها مؤثرة ، يدعو فيها الشاعر إلى العزلة والوحدة والتقشف ، كما تبدو فيها الشكوى والشوق الباطنى ، وتوفى بابا طاهر فى همدان ودفن بها .

وكان أبو سعيد بن أبى الخير (ت ٤٤٠ = هـ) معاصرا للفردوسى وابن سينا. ولد في مَهْنة من نواحى خاوران فى خراسان ، وقصر شعره على التصوف فلم ينظم فى غيره ، فهو أول شاعر صوفى خالص فى الإسلام كله لا فى الأدب الفارسى وحده ، واختار الرباعيات مركبا للتعبير عن أفكاره ، وجعلها وسيلة صالحة لأداء الأفكار الدينية والصوفية والفلسفية ، تتركز فيها ، وتصدر عنها ، جميع التجليات الرائعة ، وأول من أضفى على الرموز والتعبيرات الصوفية هذا الجمال الزاهر ، وهذا الخيال القاهر ، اللذين عرفهما الشعر الصوفى منذ ذلك الزمان .

كانت حياته خالية من الأحداث ، وأمضاها كما يقول الصوفية فى عالم الأرواح ، ولهذا يختلف عن سائر الكتاب والشعراء الآخرين ، وقد التقى أبو سعيد بابن سينا ، وعندما انفض مجلسهما قال أبو سعيد لابن سينا : " إننى أدرك ماتعرفه ... " فرد ابن سينا : " وأنا أعرف ما تدركه ... " ولعمرى إنهما جملتان قصيرتان توضحان فى إيجاز الفرق بين المتصوف والفيلسوف !

تحمل رباعيات أبى سعيد جميع خصائص التصوف الفارسى وتعابيره ، وأجمع على اتباعها شعراء الصوفية من فرس وأتراك وهنود . وهو لايكتفى بأن يجعل الله قادرا قاهرا فحسب وإنما هو المصدر الوحيد للكون والجمال ، وتسود فى رباعياته فكرة التسامح ، وهى التى تجعل جميع المذاهب تمثل الحق تمثيلا يتفاوت قليلا أو كثيرا ، ولكنها تعترف جميعا بأن " طرق الله كعدد أنفاس بنى آدم "

ومن شعرائهم فى تلك الفترة عبد الله الأنصارى الهروى (ت ٤٨١ = ١٠٨٨)، يتصل نسبه بأبى أيوب الأنصارى ، ولكنه ولد فى هراة وأمضى حياته فى إيران ، عاصر ألب أرسلان ووزيره نظام الملك ، واندمج فى سلك الشعراء

الذين ينظمون بالفارسية ، وله فيها نثر فصيح ، وألف فى العربية " ذم الكلام " و"منازل السائرين " وفى الفارسية : " كتاب الأسرار " و " زاد العارفين " و"كتاب الأسرار " و " كنز السالكين " و " تهذيب طبقات الصوفية للسلمى " ، و" أنيس المريدين وشمس المجالس "، وهو عبارة عن قصة " يوسف وزليخا " كتبها نثرا ، وله قطع فصيحة جميلة فى كتابه " المناجاة " ، أنشأها فى عبارة فارسية مسجوعة ، واشتهرت بأنها نموذج من مشاعره القلبية تبدو فيها قوة إيمانه . وهو أول استخدم السجع فى النثر فى اللغة الفارسية .

ولكن سنائى ، أبو المجد مجدود بن آدم (ت ٥٤٥ هـ) يعد أول الشعراء المتصوفين الثلاثة العظام ممن كتبوا المثنويات ، وثانيهم فريد الدين العطار ، وثالثهم جلال الدين الرومى ، وهذا الأخير أعظم الثلاثة شأنا .

ينسب سنائى إلى غزنة أو بلخ ، وجاء إلى الحياة فى آخر القرن الخامس الهجرى ، واتصل فى صدر حياته بالغزنويين ، ومدح بعضا من سلاطينهم ، كما التقى بالعلماء والشعراء على أيامه ، وحج وتجول فى أغلب مدن خراسان ، واندمج فى حلقات الدراويش ، وعاشر رؤساء الصوفية ، واكتسب من مذاهبهم ، فصرفه ذلك عن السلاطين ومدحهم والتقرب إليهم ، واختار الاعتكاف وقرض الشعر الصوفى ، وبلغ ديوانه ثلاثين ألف بيت ما بين قصائد وغزليات ورباعيات وترجيعات ، ولم يصلنا منها غير اثنى عشر ألف بيت .

وله عدة مثنويات فى التصوف مثل : " حديقة الحقيقة " و " طريق التحقيق"، و " سير العباد إلى المعاد " ، و " كتاب الغريب " ، و" كتاب الأعمال " و "كتاب العشق " ، و " كتاب العقل " ، ومحورها الدعوة إلى توحيد الله ، ومدح الرسول والأولياء والزهد فى الدنيا ، والإعراض عن الظاهر ، والرجوع إلى الباطن ، وترك الغرور . ومثنوى " الحديقة " أشهر مؤلفاته وأكثرها انتشارا ، وأتمه عام ٥٢٥ ويضم أحد عشر ألف بيت ، وتتصل بالأخلاق أكثر مما تتصل بالتصوف الخالص، وكسره على عشرة أبواب ، ويتخذ فى كل باب طريقة الحكاية والمثل ، ويجمع

بين المعرفة والبلاغة وقوة السبك ، وأثر بقوة فى الشعراء المتصوفة الذين جاءوا بعده ، وأشعار الديوان تفضل أشعار الحديقة ، حتى أن المرء ليشك أن مؤلفهاواحد .

وثانى شعراء الصوفية الكبار الشيخ فريد الدين العطار ، ولد فى نيسابور آخر عصر السلاجقة الكبار ، واختلف فى تاريخ وفاته اختلافا شديدا ، وأكبر الظن أنه توفى فى أواخر العقد الثالث من القرن السابع الهجرى . وذهب فى صباه إلى مشهد ، ولزم ضريح الإمام الرضا زمنا ، وبعد ذلك أكثر من الترحال إلى شمالى إيران وما وراء النهر والهند والعراق ودمشق ومصر وحج ، وعاشر فى تلك المدة شيوخ الصوفية ، وأنتظم فى سلك دروسهم ، واكتسب من نفحاتهم الروحية ، وبخاصة نجم الدين كبرى . وأمضى تسعة وثلاثين عاما من حياته يجمع أشعارهم وأقوالهم ، ولم يلوث موهبته الشعرية ، فيما يقول عن نفسه ، بانشاء المدائح ، ويروى فى " أشترنامه " ، أى كتاب الجمل ، أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى أحد أحلامه ، وأن النبى باركه ، كما حدث ذلك من قبل لابن عربى وابن القارض .

تراث فريد العطار الذى يَنسب إليه كثير ، وعدد مؤلفاته فما يقال يساوى عدد سور القرآن الكريم ، أى ١١٤ مؤلفا ، وعلى أية حال فيما بقى منها لايتجاوز الثلاثين ، وبعض هذا ليس فى متناول الباحثين ، وإنما وردت عنه إشارات فى مؤلفات أخرى ، وأهم هذه المؤلفات :

● منطق الطير ، وهى التى ضمنت لمؤلفها الصيت والخلود ، منظومة مثنوية رمزية ، فى ٤٦٠٠ بيت فى بحر الرمل ، وموضوعها بحث الطيور عن الطائر المعروف بالعنقاء ، ويسميه الفرس " سيمرغ " ، والطيور هنا ترمز إلى السالكين من أهل الصوفية ، وترمز العنقاء إلى الله الحق ، وتبدأ المنظومة بجملة من المدائح بعد حمد الله ، فتمدح الرسول والخلفاء الراشدين الأربعة ، وتشغل هذه قرابة ست مئة بيت ، وتبدأ الحكاية فى البيت ٥٩٣ ، وتشتمل على خمسة

وأربعين مقاله تنتهى بخاتمة . وتبدأ القصة بتوجيه الخطاب والترحيب بثلاثة عشر طائرا ينعقد بهم المجلس ، ويقررون أنه لابد لهم أن يخضعوا أنفسهم لواحد منهم يجعلونه مرشدا أثناء بحثهم عن العنقاء حتى يوفقوا فى العثور عليها ، ويختارون الهند ، الذى يأخذ فى مخاطبتهم بحديث طويل ، ينتهى بتجلى العنقاء وظهورها .

● بند نامه ، أى كتاب النصيحة ، وهو منظومة خلقية دينية موجزة ، مليئة بالمواعظ ، وطبع أكثر من مرة ، وترجم إلى العربية والتركية .

● مظهر العجائب ، وهى مثنوية فى مدح الإمام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، والأئمة من بعده ، هى تشى بميول شيعية واضحة ، كما جاء أسلوبها أضعف مما عليه أسلوب الكاتب فى مؤلفاته الأخرى . وقد اعتبره أحد الفقهاء المتعصبين رافضيا ، وأثار عليه العامة ، حتى ضاقت به الحياة ، فرحل إلى مكة حيث ألف كتابه الأخير :

● لسان الغيب ، وهو مثنوية حملت أرق أحاسيسه فى فترته التى اعتكف فيها ، فجاء أسلوبها يحمل وهن شاعر كتبها وقد تقدم به العمر وقارب الفناء .

وغير هذه ترك عددا من المؤلفات المنظومة والمنثورة ، وبعض المثنويات ، مثل: " إلهى نامه " " وأسرار نامه " و " مصيبت نامه " ، و " خسرو نامه " ، و"تذكرة الأولياء " ، وهى فى مجملها تشرح عقائد الصوفية ، وتبسط أحوالها ومقاماتها، وقد أثرت أفكاره هذه فيمن جاء بعده ، واتخذه الصوفية نموذجا ، وتوفى فى سن متقدمة .

يجئ جلال الدين الرومى (ت ٦٧٢ = ١٢٧٣م) قبل موضعه بقليل لأنه ثالث الشعراء الصوفية العظام الذين عرضنا لاثنين منهم قبله ، فاقتضى السياق أن أقدمه ، ولعل فى معاصرته لفخر الدين العطار ، ومقابلته له ما يبرر هذا الصنيع ، وإن كان تاريخيا ينتمى لعصر المغول والتيموريين .

ولد في مدينة بلخ ٦٠٤ = ١٢٠٧م ، ونسب إلى بلاد الروم لأنه قضى الشطر الأكبر من حياته في آسيا الصغرى ، وكان أبوه بهاء الدين ولد من عظماء الصوفية ومشايخهم ، وأدت به جرأته ونفوذه وشهرته إلى أن يصطدم بخوارزم شاه ، فاضطر إلى الهجرة ، وسار حتى اجتاز مدينة نيسابور ، وفيها زار الشيخ فريد الدين العطار ، الذي احتضن الطفل جلال الدين ، وكان في الخامسة ، فدعا له ، وباركه ، وبشره بمستقبل عظيم ، وأهداه منظومته " أسرار نامه " ، ثم رحل الأب وابنه إلى بغداد في طريقهما إلى الحج ، وبعده ذهب إلى ملطية حيث أقاموا أربع سنوات ، وبعدها مضوا إلى مدينة لارندة ، التي تعرف الآن باسم قرمان فأقاموا بها سبع سنوات ، ثم علاء الدين كيقباد ، وفيها استقروا ، وبها توفى بهاء الدين والدجلال عام ٦٢٨ = ١٢٣١م .

حين بلغ جلال الدين إحدى وعشرين سنة ، وهو في لاندره ، تزوج جوهر خاتون ابنة لالا شرف الدين السمرقندى ، وأنجبت له ولديه علاء الدين ، وبهاء الدين سلطان ولد ، ونال هذا شهرة عريضة لأنه صاحب أول منظومة وصلتنا من الأشعار التركية الغربية ، وهي " رباب نامه " ، وتضم ١٥٦ بيتا ، وقد فقد جلال الدين الرومي زوجته الأولى ، فتزوج ثانية ، ورزق من هذه بولد وبنت .

تعلم جلال الدين وتربى على يد أبيه ، وبعد وفاة الوالد رحل إلى حلب ودمشق طلبا للعلم و التحصيل ، والتقى هناك بالشيخ برهان الدين الحسيني الترمذي أحد تلاميذ أبيه ، ودرس عليه أسرار الطريقة ، وبعد أن اكتسب خبرة في العلوم والرياضة الروحية عاد إلى قونية ونهض فيها بالتعليم والتدريس كما كان أبوه من قبل .

ثم هبط قونية شمس الدين محمد بن على التبريزى ، وهو شيخ عظيم من شيوخ الصوفية ، يحمل نفسا متوهجة ، وله قوة جذابة وبيان ساحر ، " شخصية غامضة ، تضوى لحظة قصيرة على مسرح الحياة ، ثم تختفى فجأة وفي سرعة فائقة "، ويصفه المستشرق الإنجليزى نيكلسون بأنه " كان أميا إلى حد ما ،

ولكنه يمتاز بحماسة روحية شديدة ، مصدرها الفكرة التى استولت عليه فجعلته يتخيل أنه مبعوث العناية الإلهية ، واستطاع بواسطتها أن يسيطر على من قدم عليه أو دخل مجلسه ، وهو من هذه الناحية ، ومن نواح أخرى تتصل بحبه المتقد ، وفقره المدقع ، وموته العنيف ، شبيه كل الشبه بسقراط ، فكلاهما استطاع أن يفرض نفسه على أذكياء الناس بقدرته على تصوير أفكارهم البسيطة فى تعبير فنى رائع ، وكلاهما استطاع أن يكشف لنا عن خطل العلوم الظاهرة ، وعن شدة حاجتنا إلى التثقف والتنور ، وعن قيمة الحب فى حياتنا ، وأن الانفعالات الشاردة ، والتحديات الجاهلة للقوانين الإنسانية ، إنما تؤدى إلى فقد " الاتزان العقلى " و " السمو الأخلاقى " ، وهما مقياس التميز بين الحكيم والمريد ".

تعرف جلال الدين إلى هذه الشخصية الغامضة فى مدينة قونية فى شهر رجب ٦٤٢= ديسمبر ١٢٤٤م ، وكان قبل ذلك قد رآه فى دمشق دون أن يتحدث معه وسمع عن أخباره الكثير ، فلما لقيه رأى فى وجهه بارقة العشق ، وطلب الحقيقة فاتخذ منه قائدا روحيا . وكان شمس الدين جريئا فى مهاجمة معتقدات العامة ، فثاروا عليه ، وقتلوه جهرة ، وجرح دفاعا عنه علاء الدين الابن الاكبر لمولانا جلال الدين ، وظل يعانى من الآلام حتى أسلم روحه ، فقرر جلال الدين تخليدا لذكرى صديقه القتيل وشيخه أن يرتدى أتباعه الزى المولوى ،[١] وأن يسيروا على نهج أتباعه فى الذكر والغناء .

نظم مولانا جلال الدين " المثنوى المعنوى " فى بحر الرمل ، فى ستة وعشرين ألف بيت ، تحتويها ستة مجلدات ، وهناك مجلد سابع ينسب إليه أيضا ولكنه منتحل ، صدر كل جزء منها بمقدمة منثورة ، ثلاث منها عربية ، ويتضمن حكايات منظومة متسلسلة ، تحوى مسائل دينية صوفية ، فى لغة سهلة ، متخذا

---

١ - يتكون هذا الزى من قلنسوة طويلة مصنوعة من اللباد البنى ، ومن العباءة السوداء الفضفاضة ، وهو زى كان يرتديه دراويش المولوية إلى أن ألغى هذا النظام فى تركيا ثم فى مصر من بعد .

من منظومات الصوفية السابقين عليه نماذج احتذاها ، وهو فيها معلم ، متفاوت الأسلوب ، يفسر آية أو يشرح حديثا ، أو يضرب مثلا ، ينصح ويعظ ، وينتقل بتلاميذه من فن إلى فن ، وكل هذا موصول بذكر الله والفناء فيه ، وهو قوى البيان ، واسع الخيال ، رائع التصوير ، يورد المعنى الواحد فى صور مختلفة ، ويسوق المثل إثر المثل ، وقلبه مفعم بالحب الإلهى ، مستغرق فيه ، وكل فكر يؤدى إليه ، وقد يستطرد أحيانا على طريقة كليلة ودمنة ، وتتخلل المنظومة أحيانا أبيات أو أشطار أبيات عربية .

ولجلال الدين مصنفات أخرى منها مجموعة غزليات أسماها " ديوان شمس تبريز " باسم أستاذه فى التصوف وصديقه شمس الدين التبريزى ، وهو قصائد مختلفة ، فى قواف متنوعة ، وموضوع متقارب ، يدور حول العشق والفناء وغيرهما من المعانى السامية ، وهو فى ستة وأربعين ألف بيت ، جاءت نموذجا من الذوق الرفيع ، ومظهرا من مظاهر الحب الإلهى ، تدفع من يقرؤها أو يسمعها إلى السمو بنفسه من عالم الماديات إلى عالم الروحانيات .

وله كتاب منثور يسمى " فيه ما فيه " ، يدور حول موضوعات ذات طبيعة صوفية .

وتأثيرات جلال الدين فى أتباعه ورواده ومقلديه لاحد لها ، وقد طوفت شهرته بأركان الدنيا ، وترجمت أشعاره إلى كثير من اللغات ، وثمة شروح كثيرة للمثنوى بالفارسية والتركية .

توفى مولانا جلال الدين فى قونية عام ٦٧٢ = ١٢٧٣م ، ودفن فى نفس الضريح الذى ضم رفات والده ، وكان علاء الدين كيقباذ السلجوقى سلطان قونية قد شيده له عام ٦٢٨ = ١٢٣١م .

● الشعراء الأربعة الكبار :

ونخصهم بحديث مستقل لأن النقاد الإيرانيين يرونهم من كبار شعراء القصيدة

الفارسية ، وقد لايكون مكانهم التاريخى هنا ، ولكنهم ينتمون إلى الفترة الأخيرة من الدولة السلجوقية ، وهم ليسوا متعاصرين بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما جمعنا بينهم لأن الموازنة تزيد مكانتهم وضوحا .

أقدم هؤلاء الشعراء وأشهرهم الأنورى (ت ٥٨٧ هـ تقريبا) ، ولد فى قرية مهنه من أبيورد ، فى صحراء خاوران بخراسان ، ولانعرف شيئا عن صباه ، وكل ما تشير إليه كتب التراجم أنه كان فى شبابه جادا فى طلب العلم ، ودرس فى المدرسة المنصورية فى طوس ، حيث قضى سنوات شقية يلفها الفقر والإملاق . ويغض من شأن الشعر ، فى الوقت الذى يملك فيه الموهبة الشعرية ، والقدرة على إنشاد الشعر ، وتوزعت نفسه بين ما يمليه عليه استعداده وما تقتضيه منه صناعته ، وظل حائرا مترددا بين أن يقنع بنصيب العالم من الفقر أو أن يركن إلى النفاق الذى تضطره إليه حياة القصور والملوك .

وذات يوم ، فيما تقول الرواية ، مر بباب المدرسة رجل جليل الهيئة ، يمتطى صهوة جواد ، ويتبعه خدم وحشم ، فسأل عنه الأنورى ، فقيل له : إنه شاعر ... ، فقال : سبحان الله ، أهكذا أظل فقيرا مسكينا ، وقد بلغت من العلم نهايته ، ويكون هو غنيا مع ما يُعرف من هوان أمر الشعر ؟ .. لأجعلن الشعر شغلى بعد اليوم ، ولو أنه أقل مراتبى وأهون ما حصلت " .

وفى هذه الليلة أنشأ قصيدته المعروفة فى مدح السلطان سنجر ، وفى الصباح تقدم بها إلى السلطان ، وأنشده أياها فاستحسنها ، وسأله عن الجزاء الذى يريد وهل بفضل الالتحاق بخدمته أم الحصول على عطاء مالى ؟ فقبل الأنورى الأرض بين يديه ، وقال بيته المشهور وترجمته :

هذه أعتابك .. ولا ملجأ لى فى العالم إلاّ هذه الأعتاب .

وهذا بابك .. ولامعتصم لرأسى إلاّ فى هذا الجناب .

عند ذلك أمر له سنجر براتب شهرى ، وخلعة طيبة ، ثم اصطحبه معه إلى

مدينة مرو .

ولما هجم الأتراك الغز على السلاجقة عام ٥٤٥ = ١١٥٤م ، وغلبوا السلطان سنجر وأسروه ، وخربوا بلاد خراسان ، وشاهد الأنورى ذلك ، تملكه الرعب والفزع، وقد رأى بعينيه فظائع المهاجمين ، فكتب رائعته " دموع خراسان " ، وهى من أجمل قصائد الشعر الفارسى ، لأنها تصور أعمق العواطف وأنبلها ، فى أجمل العبارات وأجملها ، ومع أنها جاءت فى بحر من أبطأ البحور موسيقا ، لكنه أكثرها مهابة واتزانا ، وتضم ٧٣ بيتاً ، وتفتح المجال للمقارنة بين رثاء المدن وبكائها فى الأدبيين العربى والفارسى ، وربما آداب إسلامية أخرى .

تنقل الأنورى فى أغلب مدن خراسان ، وأقام مدة فى بلخ ، ولم ينس أهلها هجاؤه لهم فى قصيدة " خر نامه " أى " رسالة الحمير " ، فعاملوه بقسوة وكادوا يفتكون به . ويرى مؤرخو الأدب الفارسى أن القصيدة من عمل الشاعر فتوحى بتحريض من الشاعر سوزنى ، أو من عمل هذا الأخير نفسه ، وتعمد نسبتها إلى الأنورى للإيقاع به .

كان الأنورى يزعم لنفسه المعرفة بعلوم الفلك ، فأذاع أن الكواكب السبعة سوف تجتمع فى عام ٥٨١ = ١١٨٥م ، فتؤدى إلى هبوب العواصف ، وهدم المنازل ، فذعر الناس لهذا الخبر ، وجلوا عن منازلهم ، وفروا إلى الصحراء ، ثم جاء الموعد المرتقب ، فاذا الهواء معتدل ، لم تتحرك ورقة من مكانها ، فازدراه الناس ، فترك مرو ونيسابور ، واعتزل الحياة فى بلخ ، وترك قرض الشعر .

يعد الأنورى أعظم شعراء القصيدة ، ومع أن كبارا آخرين سبقوه فى هذا الفن، إلاّ أن اللغة الفارسية واتته أكثر ، فقد نضجت على أيامه فأجاد توظيفها ، وكان ممن يُشهد له بطول الباع فى العربية والفارسية ، ولم يكن شعره وجدانيا خالصا ، وإنما ضمنه معارف عصره من علوم وفلسفة ورياضة وفلك ، وفيه يتردد الكثير من أسماء الشعراء العرب أمثال : الأخطل وجرير والأعشى وحسان بن ثابت والبحترى وأبو نواس وبديع الزمان والحريرى ، إلى جانب أسماء أخرى لشعراء

فارسيين .

ويرى النقاد أن سعة اطلاعه ، ووفرة تحصيله ، جنت على شعره أيضا ، فجاءت قصائده متكلفة ، معقدة ، تحتاج معانيها وتراكيبها إلى شروح وتفسير ، ولكن ذلك لايحول دون القول بأن جانبا منها يقدم نماذج جميلة للشعر العاطفى الرقيق ، وأن له غزليات رقيقة وهجاء قويا .

وثانى الأربعة الخاقانى (ت ٥٩٥ = ١١٨٥م) واسمه فضل الدين إبراهيم على الشيروانى ، ولد فى كَنجة ، وتعرف الآن باسم إليزافتبول ، ويرى بعضهم أن مسقط رأسه شروان ، وكان أبوه تاجرا ، وأمه مسيحية نسطورية أسلمت ، وجده نسّاجا وعمه طبيبا ، وفقد الخاقانى أباه صبيا ، فعاش فى كنف عمه وتحت رعايته ،وإليه يرجع الفضل فى تأديبه وتثقيفه ، علمه مبادئ العلوم واللغة العربية والطب والنجوم والفلسفة . وكان محبا للسفر ، فذهب إلى الرى وتبريز ، وتجول فى العراق وأصفهان ، وذهب إلى مكة أكثر من مرة ، ونظم فى سفره الأول، سنة ٥٥١ ، مثنويه المعروف بتحفة العراقيين ، ويضم أشعاره الدينية ، وجانبا من حياته وما عاناه فى أسفاره .

يعد الخاقانى من شعراء الدرجة الأولى فى القصائد ، وفى منظوماته تشبيهات جميلة ، وأوصاف لطيفة ، وعبارات جيدة ، وسار على نهج المتقدمين ، واتخذ من سنائى نموذجا ، ولكنه جاء بمعان جديدة ، وأساليب مبتكرة ، وراعى العبارات البديعية ، واقتبس ما وجده منها لائقا ، وزين بها قصائده ، وكان يتعسّف أحيانا ويتكلف ، فجاء بعض معانية خفيا ، وبعض أشعاره معقدا ، يحتاج إلى شروح وتفسيرات .

وإلى جانب قصائده فى مدح سلاطين السلاجقة أظهر استعداد خاصا فى الغزل فأنشأ كثيرا من الغزليات والرباعيات والمثنويات . أوضحها " تحفة العراقين " ، وجملة من القصائد العربية .

وكان النظامى الكَنجوى ، الحكيم أبو محمد إلياس بن المؤيد النظامى (ت٥٩٩ = ١٢٠٣م) ثالث الشعراء النابهين ، وأستاذ الشعر المثنوى الرومانسي، وبرز على كل الشعراء فيه ،فاكتسب شهرة عريضة خلدت ذكره فى إيران وفى تركيا أيضا .

ولد فى كَنجة ، وأهلها من أتباع المذهب السنى ، وبينهم علماء كثيرون فتأثر بهم فى شبابه ، وأنفق الجزء الأكبر من حياته فى مسقط رأسه ، ولم يفارقه إلا مرة واحدة رحل فيها إلى تبريز ، ويعترف النقاد بأنه شاعر موهوب ، نادر الذكاء، كثير الإنتاج ، وكان ذا طبع رقيق وأسلوب لطيف ، وتميز بورع حقيقى حماه من التعصب والتزمت والجمود ، وكان مستقلا برأيه ، شديد الحرص على كرامته ، ظريفا وديعا ، محبا لأولاده ، زوجا عاشقا لزوجه ، لا يحتسى الخمر ، على النقيض من كثيرين من شعراء عصره . وقد مدح بعض السلاطين الذين أعزوا جانبه ، وإن لم يغمروه كثيرا بعطائهم ، فلم يسرف فى المدح ، ولم يتملق رضاهم ، ولم يحن هامته أمام أعتابهم ، وسلك فى الشعر مسلكا حرا ، واعتكف فى أواخر حياته ، وزهد فى الكلام المصطنع ، ونعرف من شعره أنه بلغ منزلة رفيعة فى العلوم ، وبخاصة فى الفلك .

ينسب إليه ديوان شعر لم يصلنا ، ونقلت عنه كتب التذاكر أبياتا وقطعا متفرقات ، وكذلك الشأن فى قصة ويس ورامين التى تنسب إليه .

ترجع شهرة النظامى وعلو منزلته إلى منظوماته الخمس ، وتسمى " خمسة نظامى " ، نظمها على نسق المثنويات وتضم ثمانية وعشرين ألف بيت ، وهى على النحو التالى :

● مخزن الأسرار ، وهى أقصرها ، فى الزهد والتقوى والتصوف ، وتشمل كثيرا من الحكايات على أسلوب " حديقة الحقيقة " لسنائى ، ومقدمات فى المناجاة والحمد ، تعقبها عشرون مقالة ، كل واحدة منها تتعلق بموضوع فقهى أو أخلاقى ، يعرضه ثم يدعمه ويصوره بعد ذلك بحكاية ، وجاءت فى ألف ومئتى

بيت ، من بحر السريع .

● خسرو وشيرين وهى قصة ترجع أحداثها إلى العصر الساسانى ، ويجرى فيها على نسق الفردوسى من ناحية الموضوع والصياغة، وموضوعها مخاطرات كسرى برويز ، وغرامه بمعشوقته الجميلة شيرين ، ونهاية منافسه التعس فرهاد ، واعتمد على المصادر التى اعتمد عليها الفردوسى ، أو على مصادر أخرى شبيهة لكنه ابتعد فيها عن الدراسة الموضوعية ، وساقها لنا فى قصة غرامية ، على عكس الفردوسى الذى جعلها حماسية ، واستعاض فى صياغتها عن البحر المتقارب الذى خصصه الاستعمال للشعر الحماسى بالهزج المسدس المحذوف ، وتبلغ أبياتها سبعة آلاف بيت .

● ليلى والمجنون ، قصة عاطفية ، مكانها بلاد العرب ، وتجرى بين شخصين عاديين من عرب الصحراء ، البطل والفتاة المعشوقة ، ولكن نظامى أضفى عليهامسحة فارسية ، واختار لها وزن الهزج المسدس الأخرب المقبوض المحذوف ، وتشمل على أكثر من أربعة آلاف بيت .

● هفت بيكر ، أو بهرام نامه ، أى الصور السبع أو كتاب بهرام كَوز ، وتسميتها بهرام نامه أظهر فى الدلالة على موضوعها ، لأن الصور السبع التى ذكرت فيها ليست إلاّ موضوعا واحدا من موضوعات القصة ، وربما سميت به لأنه أهم موضوع فيها . وجاءت فى قريب من خمسة آلاف بيت ، على وزن فاعلاتن ، مفاعلن ، فعلان .

● إسكندر نامه ، وهى المثنوية الخامسة والأخيرة ، وهى قسمان : " إقبال نامه" ، أى كتاب الإقبال ، و " حرد نامه " أى كتاب العقل ، ومجموع أبياتها عشرة آلاف بيت ، جاءت فى بحر المتقارب ، وهو الوزن الذى كتب فيه أكثر القصص الشعبى .

آخر الشعراء الأربعة الكبار فى هذا العصر ظهير الفاريابى

(ت٥٩٨=١٢٠١م) . وهو أقل زملائه السابقين شهرة ، وُلد فى فارياب من أعمال بلخ ، ونال شهرة عريضة فى العراق لأنه تمتع برعاية خاصة من حاكم أذربيجان الأتابك نصرة الدين أبى بكر . فى شبابه حصّل العلوم ، وقرض الشعر ومارس الأدب ، واكتسب خبرة فى علوم النجوم بخاصة ، وساح فى نواحى إيران . وفى أواخر حياته ضاق بمدائحه فاعتزل عيشة الملوك والقصور ، وقنع مثل كثيرين غيره بعيشة الاعتكاف والتعبد فى تبريز ، إلى أن أدركته الوفاة .

يضم ديوانه ثلاثة آلاف بيت ، موزعة بين القصائد والمقطعات والغزليات والرباعيات . وتجرى أشعاره على نمط واحد من القصيد المهذب المصقول الذى امتاز به شعراء المديح من الفرس ، وتجئ فى مقدمة قصائده تلك التى عارض بها قصائد الأنورى والخاقانى ، وهما من شعراء عصره .

● شعراء آخرون :

ويعد أبو منصور قطران التبريزى (ت ٤٦٥ هـ) من مشاهير الشعراء فى العصر السلجوقى ، وأمضى حياته فى تبريز مسقط رأسه ، لم يتجاوزها إلاّ فى رحلة إلى أذربيجان ، وقد لقيه ناصر خسرو حين مر بتبريز ، وبقى معه مدة .

اختص قطران بمدح أمراء تبريز ، واشتهرت قصيدته التى نظمها فى زلزال تبريز عام ٤٣٤، ويعد فى الطبقة الأولى من أصحاب القصائد ، وأجاد فى وصف فصول السنة والمناظر الطبيعية ، وكان يجنح إلى الصناعة اللفظية من جناس وسجع وترصيع ، وأمتاز بنظم القصائد ذات القافيتين (وأسميها أنا القافية الصدى ، وسوف أدرسها مستقلة فى مكان آخر) ، وحاول آخرون أن يقلدوه فيها، ولكن قلة فحسب استطاعت أن تتفوق عليه هذا المضمار . ويضم ديوانه حوالى عشرة آلاف بيت .

أما مسعود بن سعد (ت ٥١٥ = ١١٢١م) فينسب إلى العصرين الغزنوى والسلجوقى ، وأصله من همدان ، ولكنه ولد فى لاهور ، وكانت أسرته ميسورة

الحال ، ذات أملاك وعقارات ، وعمل أبوه فى خدمة الغزنويين ، واتصل بهم مسعود فى شبابه ، ولازم السلطان فى حروبه فاشتهر وبلغ مرتبة عالية ، ولكن السلطان أساء الظن به فأودعه وبعض ندمائه السجن . وعندما حاول الفرار والذهاب إلى غزنة للشكوى من السلطان قبض عليه ، وأودع قلعة سوودهك ، فأمضى فيها سبع سنوات ، وثلاثا أخرى فى قلعة ناى ، ولما أطلق سراحه عاد إلى الهند ، وعاش فى أملاكه وعقاراته . ثم عينه الأمير حاكما على إحدى نواحى لاهور ، وما أسرع ما غضب عليه الأمير أبو نصر ، وسجنه فى قلعة مرنج مرتين ، ظل فيهما قرابة ثمانى سنوات .

أمضى مسعود ثمانية عشر عاما من زهرة حياته فى السجن ، ولما استرد حريته كانت الشيخوخة قد أدركته ، فزهد فى خدمة الملوك وأمضى بقية عمره معتزلا .

أنشأ مسعود قصائد كثيرة فى مدح سلاطين الغزنويين ورجال حكومتهم ، مقتديا بالعنصرى ، وازدانت قصائده بوصف الطبيعة ، وضمن بعضها شكواه وآلمه من الزمان ، وندب حظه ووحدته وأسره ، وكانت قصائد السجن أروع من قصائد المديح ، وكشف فيها عن قوة استعداده ، وقليل من شعراء الفارسية من بلغ فى هذا المجال مبلغه " من القوة والتأثير ، ويقول صاحب " جهار مقالة " إنه يحس عند قراءتها " بأن شعره يقف على جسده ، وأن الدموع تجرى فى مآقيه ، لما اشتملت عليه من فصاحه ورقة " وهو فى هذا يلتقى مع أبى فراس الحمدانى ، وبقى له ديوان شعر يبلغ ثمانية عشر ألف بيت ، وأشعار عربية أخرى .

ويجئ عمر الخيام (توفى قبل ٥٣٠ هـ) قمة الشعراء فى العصر السلجوقى ولد بنيسابور ، وطاف بخراسان وطوس وبلخ وبخارى ومرو حتى بلغ بغدادا ، وزار الحجاز . وإلى جانب شاعريته كان عالما جليلا ، له محاجات مع علماء عصره وسلاطينه ، أمثال : الغزالى وملكشاه ونظام الملك ، وتمتع بمكانة خاصة فى المجالس السلطانية والعلمية والأدبية ، وتميز فى أغلب علوم عصره من فلك

وطب وحكمة ، ولكن شهرته تقوم على رباعياته التى نظمها فيما يقال ليفرج عن نفسه بعد طول البحث فى مسائل النجوم ، وأبحاث الطب وغوامض الحكمة .

وشاب حياته الكثير من القصص الخيالية البعيدة عن الحقائق التاريخية ، ولعل بعضها وُضع لتفسير الرباعيات ، ومع ذلك يمكن القول أنه يلتقى مع أبى العلاء المعرى فى بعض النواحى من حياته ، فكلاهما احتار وتردد وتفلسف .

ومع آخرين سبقوه أمثال : شهيد البلخى ، وأبى شكور البلخى ، والرودكى وأبى سعيد ، لكن الخيام فاقهم جمالا ولطفا وتأثيرا وروعة ، وعباراته القصيرة ذات معان كبيرة ، وتختلف رباعياته عددا من مخطوطة إلى أخرى ، وجانب منها ينسب إلى شعراء آخرين ، وتتراوح فى الدواوين المختلفة ، خطية ومطبوعة بين ٧٦٠ و ١٢٠٠ ، وترجمت إلى اللغة العربية عشرات المرات فى مصر والعراق ، وهى إلى جانب إبداعات إسلامية أخرى قليلة . حظيت برفقة ألوان أخرى من الفن فزينت باللوحات الجميلة المستقاة منها ، ولحنها كبار الموسيقيين . وغناها أعظم المغنيين ، وتأتى أم كلثوم المصرية فى مقدمتهم جميعا .

ومن شعراء العصر السلجوقى محمد بن عبد الملك البرهانى ، المتخلّص مُعزى (٥٤٢ = ١١٤٧م) . ولد فى نيسابور ، وكان أبوه شاعرا فى عهد ألب أرسلان، وتمنى له أبوه عند موته أن يكون من المقربين إلى ملكشاه ، وهى مكانة لم يبلغها إلا بعد زمن ، حين خرج السلطان لرؤية هلال رمضان فرآه ، وكان معزى حاضرا فقال على البديهة رباعية سر الملك منها ، فوهب الشاعر جوادا ، ثم ما لبث أن ضاعف عليه إنعاماته وزاد فى راتبه ، وأمر أن يسمى الأمير معزى نسبة إلى السلطان نفسه ، لأن لقبه معز الدنيا والدين ، وهكذا علت مكانة الشاعر ، ولما توفى ملكشاه وخلفه السلطان سنجر أصبح أمير الشعراء فى البلاط ، فأثرى وأصبح صاحب خدم وحشم ، وكانت وفاته مفجعة وحزينة ، فقد قتله سهم انفلت خطأ من قوس سنجر عندما كان يقوم بالرماية .

تبلغ أشعار معزى خمسة عشر ألف بيت من الشعر ، ولكن ديوانه الذى وصلنا

يضم ثمانية آلاف ، بين قصيدة وغزلية ومقطوعة ورباعية ، وفى قصائده امتدح ملكشاه وسنجر ووزراءهما ، ونظام الملك من بينهم بخاصة ، وبعضا من مشاهير عصره ، واقتفى فى قصائده آثار العنصرى والفرخى .

يصف صاحب " جهار مقاله " المعزى بأنه " من أعذب شعراء الفرس قولا وأجملهم إنشادا ، وأن شعره بلغ أوج الروعة والكمال ، وامتاز بالفصاحة وشدة الأسر " . ويقول عوفى فى كتابه " لباب الألباب " : " إن ثلاثة من الشعراء استطاعوا فى ثلاث دول متوالية أن يبلغوا مراتب العز و الإقبال مما لم يتيسر لغيرهم : رودكَى فى عهد السامانيين ، وعنصرى فى عهد الغزنويين ، والمعزى فى عهد السلاجقة " . وفى شعره نجد سائر أنواع التشبيهات الأصيلة المبتكرة التى أصبحت فيما بعد مبتذلة ومألوفة لدى سائر من يدرس الأشعار الفارسية .

وكان رشيد الدين الوطواط (ت ٥٧٨ = ١١٨٢م) محمد بن عبد الجليل العمرى نسبة إلى الخليفة عمر ، شاعرا يعمل بالكتابة أيضا ، ولذلك غلب عليه لقب الكاتب ، وألف بالإضافة إلى أشعاره طائفة من الكتب أهمها :

● صد كلمه : أو الكلمات المئة من أقوال الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقد شرحها وفسرها باللغة الفارسية . ولهذا الكتاب تسميتان أخريان : " نثر اللآلى من كلام أمير المؤمنين على "، أو مطلوب كل طالب من كلام على بن أبى طالب".

● حدائق السحر ، وهو كتاب شهير جدا فى البلاغة الفارسية والشعر الفارسى ويبدو أنه اعتمد فى وضعه على كتاب " ترجمان البلاغة " للفرخى ، وهو مفقود ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب المجملة فى علوم الشعر الفارسية . وقد ترجمه الدكتور إبراهيم أمين الشواربى إلى اللغة العربية ونشره فى القاهرة عام ١٣٦٤ = ١٩٤٥م .

يوجد كثير من الأخبار المتصلة برشيد الوطواط فى كتاب الجوينى عن تاريخ

المغول ، المعروف باسم " تاريخ جهانكَشا " ، وخصوصا فى الجزء الثانى منه المتعلق بتاريخ ملوك خوارزم .

يشتمل ديوان الوطواط على خمسة عشر ألف بيت من الشعر ، يغلب عليها التكلف والصناعة البديعية ، وكان مغرما بصناعة الترصيع بخاصة ، وادعى أن أحدا غيره لم يسبقه ، بين شعراء الفارسية أو العربية ، إلى إنشاء قصيدة كاملة دخلها الترصيع فى سائر أبياتها . وتمتاز قصائده بعامة بأنها من نوع الفخريات والمبالغات التى اعتادها شعراء المديح فى هذا الوقت . ولكن شهرته فى الحقيقة لاتعود إلى هذه القصائد ، وإنما مرجعها الأول والأخير كتابه " حدائق السحر " ، وإلى جملة من الأبيات التى تفسر لنا بعض الوقائع التاريخية .

وثمة شعراء آخرين أشهرهم الأزرقى (توفى قبل ٤٦٥ هـ) أبو بكر زين الدين ، وهو ولد إسماعيل الهروى الذى اختفى الفردوسى فى بيته عندما حنق عليه السلطان محمود الغزنوى ، وترجع شهرته إلى مؤلف يشك فى نسبته إليه ، وإلى رباعية قيلت فى مناسبة ، وبفضلهما فاز برعاية الأمير طغانشاه وحمايته . وهو من شعراء القصائد والمدائح ، ويجئ فى المرتبة التالية للمعزى الذى كان يصغره سنا ويفوقه شهرة . ولكن المدائح مهما قيل فى أمرها ، وعرفان أصحابها بالجميل ، لاتهم الأجيال المتعاقبة بقدر ما يهمها الشعر الذى يمس العواطف بعامة وهو الذى يبقى فى ذاكرة الزمن مهما قدم به العهد ، ومن هنا فان شعراء المديح أصبحوا مجرد أسماء لايعرف عنها القارئ غير المتخصص إلا شيئا قليلا أو لاشئ على الإطلاق ، ومن هنا بقى ديوانه معدوما أو نادر الوجود .

ويبرر ذكر أديب صابر (ت ٥٤٢ = ١١٤٧م) هنا أنه ورشيد الدين الوطواط تهاجيا فى قسوة وفحش على نحو ما فعل جرير والفرزدق فى العربية من قبل ، وكان لكل واحد منهما معجبوه ، فالأنورى والخاقانى معجبان بأديب صابر ، ويفضله الأنورى على سنائى . ولانعرف من حياته غير القليل ، فهو من ترمذ ، وأمضى جل حياته فى مرو ، واتصلت علاقاته بأكثر من شاعر ، فمدح عمادى

وفتوحى وذم الشاعر شمالى . وكانت نهايته فاجعة ، فقد أمر السلطان " أ تسز " باغراقه فى نهر جيجون حين ساءت العلاقة بينهما ، بعد أن مدحه الشاعر طويلا.

وإذا كان يقال أن خلفاء بنى أمية فى دمشق أذكوا نيران الفتنة بين شعراء النقائض ، فقد كان الحال كذلك مع شعراء القصور فى إيران ، لأن الملوك والأمراء وجدوا فى هذه الأشعار المنبعثة من فورات الغضب والغيظ مجالاً واسعا للمتعة والتسلية ، وفى بعض الأحيان كانوا يحرضون عليها علانية ، ولم يكن الحال وقفا على أديب صابر ورشيد الدين الوطواط ، وإنما كان كذلك بين هذا الأخير والشاعر عمق البخارى .

واشتهر السوزنى محمد بن على (ت ٥٦٩ = ١١٧٣م) من مدينة " نسف " أو سمرقند ، بقول الهزليات ، وبرع فيها أثناء شبابه ، وكانت أشعاره لاذعة حتى بالنسبة لأهل زمانه والوسط الذى عاش فيها ، وعف مؤرخو الأدب الفارسى عن ذكر شئ منها ، ورآها بعضهم " مليئة بالحكمة " ، ولو أن من الخير أن " يقصر عنان البيان عن إيراد أمثلتها " . وكان حميد الجوهرى من خصوم السوزنى وتبادلا جملة من المعارضات بينهما .

وكان جمال الدين الأصفهانى (ت ٥٨٨ = م) من المعروفين فى العراق بين أصحاب القصائد والغزليات ، وله شهرة عريضة فى عصره ، وجاء شعره خاليا من التعقيد والتكلف ، وبقيت له فى فنون القصيدة والغزل والترجيع بند والقطع أشعار نفيسة ، وأشهر قصائده ما قاله فى زوال العالم وعدم الوفاء .

وعاصره مجير الدين البيلقانى (ت ٥٩٤ هـ) من نواحى أران شمالى أذربيجان ، وتتلمذ على الخاقانى فى مستهل حياته ، ولم تدم العلاقة بينهما طويلا ، لأن مجير الدين حين سمع أن أستاذه قدم أصفهان فى طريقه إلى مكة أنشد قصيدة فى ذم أهل أصفهان ، ودسها عليه ، واجتهد فى أن يصرف الناس عنه ويبغضهم فيه ، فنظم الخاقانى قصيدة شهيرة فى مدح أهلها ليبرئ بها نفسه مما دس عليه . وكان مجير يجيد فنى القصيدة والغزل .

وشهد أبو الفرج الرونى (ت ٥٢٥) عصرى الغزنويين والسلجوقيين ، ومسقط رأسه رونة من أعمال لاهور وتميز بقريحة وقادة وأسلوب رقيق ، وتشهد له قصائده بمقدرة فائقة . وعُرف السيد أحمد الغزنوى (ت ٥٥٤ = ١١٥٨م) بأنه من الوعاظ المشهورين ، يحضره آلاف الناس لسماع مواعظه ، كما كان رقيق الطبع فى قرض الشعر ، ويبلغ ديوانه خمسة آلاف بيت .

وكان عبد الواسع الجبلى (ت ٥٥٥ = ١١٥٩م) ، ويدعى الجبلى لأنه من غرجستان ، يقرض الشعر فى القصائد والغزليات ، ويعنى فيه بالصناعة اللفظية والبديع أكثر مما يعنى بالمعاني ، وهو من ذوى البلاغتين ، الفارسية والعربية ، وله شعر ملمع . وعاصره المختارى الغزنوى ، سراج الدين عثمان بن محمد (ت٥٥٤ = ١١٥٨م) ويعد أستاذا فى قرض جميع فنون الشعر ، وله ترجيعات جيدة ، ويبلغ ديوانه قرابة ثمانية آلاف بيت ، ونظم قصة " شهريار نامه " ، أى كتاب الملك ، نحا فيها نحو الفردوسى ، وقصة " شهريار بن برزو بن سهراب " ، حفيد رستم ، وأمضى فى نظمها ثلاث سنوات . واشتهر عمعق البخارى (ت٥٤٣ = ١١٤٨م) شاعرا فى بلاد ما وراء النهر ، ونال لقب أمير الشعراء ، وعمّر طويلا ، وله شعر جيد اختار له أخف الأوزان .

وإلى جوار هؤلاء كثيرون من صغار الشعراء ، ذكرهم محمد عوفى فى كتابه "اللباب " ، وآخرون غيرهم ، نمر بهم عجلين ، وسوف نتوقف فى فقرة خاصة عند أول شاعرة فارسية :

● **مهستى :**

لانعرف من أمرها إلا قليلا ، ومازال اسمها وضبطه واشتقاقه موضع خلاف . أحيانا يضبطونها بكسر الميم وسكون الهاء وكسر السين ، وأحيانا بكسر الميم وفتح الهاء وسكون السين ، وثالثة بفتح الميم وسكون الهاء وفتح السين . ويبدو أنها كانت طروبة النزعة ، مرحة النفس ، وقد استخدمت الرباعى فى أكثر أقوالها ، واستطاعت أن تحوز رضا السلطان سنجر ، وحسن قبولها عنده .

ويذكرون أن علاقة قوية كانت تجمعها إلى الشاعر تاج الدين أحمد بن الخطيب الكَنجوى ، وأورد المؤرخون جملة من الرباعيات التى تبودلت بينهما ، ورباعيتين أخريين وجهتهما إلى جزار شاب كانت تعشقه وتهيم به .

● عصر المغول والتيموريين :

بعد موت ملكشاه استعرت الحروب الداخلية بين أبنائه ، وأضعفت الاضطرابات العنيفة السلطة المركزية ، وتصدعت الأسرة الحاكمة ، وقامت فى الأطارف حكومات شبه مستقلة ، وفى الوقت نفسه كان المغول بقيادة جنكيز خان على خيولهم السريعة وبما يحملون من أقواس غريبة ، يثيرون الفزع والخراب أينما حلوا ، وتهاوت أمام حركتهم كل مراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى ، وتركوا كل مكان عامر صحراء بلقعا ، وخرائب متراكمة ، يستوى فى ذلك القصور الفخيمة ودور الكتب العظيمة ، والمساجد والأضرحة ، ومن نجا بروحه من العلماء فر إلى جهات أخرى ، وتغلب الجهل والفوضى على العلم والنظام . لقد اكتسح المؤسس لأكبر إمبراطورية شهدها العالم على أيامه كل شئ فى طريقه ، وهز حتى الأعماق كل البلاد التى مر بها ، من الصين إلى بحر الأدرياتيك ، واجتاح أجزاء من روسيا ، واخترق أواسط أوروبا ، ولم يمنعه من اكتساح أوروبا الغربية إلا موت ابنه وخلفه عام ١٢٤١م .

استولى المغول على ايران ، وأسسوا أسرة الإيلخانيين وكان هولاكو أول حاكم منهم ، وغازان أول سلطان من المغول اعتنق الإسلام ، ثم جاء التيموريون من بعدهم ، وهم من ذوى قرابتهم ، وأسسوا سلطانهم فى إيران أيضا ، وظلوا يحكمونها حتى أوائل القرن العاشر الهجرى ، حين قامت الدولة الصفوية .

لكن القوم تخلوا عن طبيعة الغزو بعد أن اعتنقوا الإسلام ، وأخذوا يجلون العلماء ويرعونهم ، ويتخذون منهم الوزراء ، وكان التيموريون بالذات وراء رواج الأدب الفارسى فى شبه الجزيرة الهندية ، كما أصبح الشعراء الفرس موضع التقدير فى تركيا .

وكما كان عليه الحال فى الأدب العربى فى هذا العصر ، شاعت الصناعة أيضا فى الأدب الفارسى ، وبخاصة فى النثر منه ، وفقد السلاسة والجمال ، وشغل الكتّاب بالألفاظ ، وأسرفوا فى الاستعارة والمجاز ، وأطنبوا فى القول ، واكثروا من العبارات الغريبة ، والتشبيهات المستحيلة ، والمبالغات الممقوتة ، وهى ظاهرة لم تنج منها حتى المؤلفات التاريخية .

أما الشعر فأصبح نموذجا عاليا وصادقا لما يجب أن يكون عليه الشعر الصوفى ، فنلتقى فيه بأرق المعانى وأجملها ، وأرق الأبيات موسيقا وأروعها تصويرا ، وعرف عددا من الشعراء الصوفية الكبار ، كان بعضهم امتدادا للعصر السابق ، ويبدو أن ذلك كان رد الفعل لشيوع الطغاة ، وهروب أصحاب الأحاسيس المرهفة إلى الحياة الروحية ، والتأملات الباطنية ، والرياضة الصوفية ، يستعيضون بالهدوء والاستقرار وصفاء النفس عن الفوضى والاضطراب . وفى هذا العصر دخل الفارسية عديد من الألفاظ المغولية والتركية.

● السعدى (ت ٦٩١ هـ= ١٢٩١م) :

اسمه بالكامل مشرف الدين بن مصلح الدين بن مصلح الدين عبد الله ، ولد فى شيراز فى تاريخ مختلف فيه ، وتوفى وقد جاوز المئة من عمره ، وينتمى لأسرة من العلماء ، ذات شهرة واسعة فى العلوم الدينية بخاصة . وفقد أباه فى سن مبكرة ، فأرسله الأتابك سعد الدين زنكى إلى بغداد لإتمام علومه ، ولعله ارتاح إلى هذا لما كان يعم فارس على أيامه من فتن وفوضى وحروب واضطرابات ومن هنا كان تخلصه " سعدى " من اسم هذا الحاكم تكريماله.

كانت بغداد يومها دار العلم ، ومجمع العلماء ، من كل لون ومذهب ونحلة ، وفيها التقى بالصوفى الشهير السهروردى ، وتأثر به ، وتحدث عنه فى كتابه "بوستان " ، ووصفه بالصلاح والتقوى وحب الناس ، كما التقى بأبى الفرج الجوزى وأفاد من علمه ، وإجمالاً فان إقامته فى بغداد تركت فى نفسيته شابا تأثيرا لاحد له . وبعد سنوات عاد إلى إيران ، وقد تعرضت لهجمات المغول ، ولم

تنج منها ولاشيراز نفسها ، فأثر ذلك فيه ، ورغب أن يطوف العالم ويجوب أرجائه ، فذهب إلى بلخ والبنجاب وكجرات واليمن وبغداد ودمشق والحبشة ، وبلغ المغرب ، وأقام مدة في الشام ، وربما زار أيضا كا شغر وتركشتان والهند ، وزار مكة عدة مرات ، وامتدت سياحاته بين ثلاثين وأربعين عاما ، قام بها في زى الدراويش ، وسلك جميع الطرق ، واختلط بكافة الناس ، من كل طبقات المجتمع، عليا ودنيا ، علماء وعواما ، وصوفية وسنيين ، ملاحدة وبراهمة .

وبعد هذا السفر الطويل عاد من جديد إلى شيراز مزودا بالخبرة والأفكار الناضجة ، فوجدها تحت حكم الأتابك أبى بكر بن سعد ، ومعه لقى البسطة فى الرزق والأمان فى الحياة ، مما أتاح له الوقت أن يصنّف ، فألف ذخائر المعارف ونفيس الآداب ، واستطاع بعد سنة أن ينشر مثنويته " بوستان " أو " سعدى نامه"، وقدم الكتاب باسم الأتابك أبى بكر ، ونهج فيه منهجا راقيا ، رقة قصص ، وجودة نصائح ، وسلاسة شعر ،وجاء فى عشرة أبواب من بحر المتقارب. وبعده بعام ألف " كَلستان " ، وهو أجود ما كتب فى النثر الفارسى ، وأسلوبه يطابق عنوانه ، ويعنى " منبت الورد " ، ويضم بين دفتيه أجمل العبارات الفارسية، وفيه تنتظم القصص والأمثلة والحكم والنصائح الأخلاقية والاجتماعية حتى ليمكن القول إنه شعر منثور أو نثر خال من الحشو والزوائد . وكلاهما خال من التعقيد والكلمات النابية ، والعبارات المتنافرة ، وهما مترجمان إلى سائر لغات العالم الكبرى ، بما فيها اللغة العربية .

يمثل السعدى الشخصية الفارسية المتزنة ، التى تعنى بالدين والدنيا فى الوقت الواحد ، دون جور على أىّ منهما ، فالى جانب مكانته الأدبية الممتازة اندمج فى حلقات الصوفية ، وأصبح له بينهم مقام ممتاز ، غير أنه لم يكن من أولئك الذين نفضوا أيديهم من شئون الحياة ، ولم يعتزل ، وإنما عاش حياة معتدلة ، أخذ من الصوفية لطف أفكارهم ، وإشراق نفوسهم ، وكان يعتبر الزهد والتواضع والاجتهاد والهمة والمساعدة زينة الحياة الدنيا . ومن هنا جاءت كتاباته

ترضى كل الأذواق : الرفيع والوضيع ، والمهذب والخليع ، والموقر والرقيع ، وتلتقى على صفحاتها خير المناظر وأطيبها ، وشر الصور وأقبحها ، ولهذا ظلت حية متوهجة رغم القرون السبعة التى مرت عليها .

وإلى جانب هذين المؤلفين فان للسعد مؤلفات أخرى أهمها ديوان شعره ، ويضم كثيرا من القصائد والقطع والغزليات والترجيع بند (= الموشحات) والرباعيات ، وأبياتا مفردة ، وهزليات ، أى أشعارا عابثة ، وغزلياته كثيرة ، ولايقل فيها جودة عن أى شاعر فارسى آخر ، ضمنها أرق أحاسيسه فى روح صوفية ، جامعا بين فصاحة اللفظ ولطف المعنى ، وجاءت من قبيل السهل الممتنع ، وبلغ بهذا الفن درجة رفيعة فاق فيها ما بلغه آخرون فى فن القصيد . وله قصائد ملمعة ، وأخرى عربية متوسطة ، ورسائل منثورة تضم ثلاث مقالات خليعة بشكل لايتصور ولذلك تَسمى الخبيثات .

كان تأثير السعدى أدبيا وأخلاقيا بلا حدود ، فى إيران وخارجها ، وظل موضع التقدير والإعجاب على الدوام ، وأخذ جماعة من الشعراء فى عصره ، ومن بعده، يقلدونه ويحتذون خطاه .

بقى أن نشير إلى أنهم ينسبون إلى سعدى أنه أول من أنشدا شعرا باللغة الهندوستانية أو الأوردية التى تعلم أصولها أثناء رحلاته فى شبه الجزيرة الهندية، وبعض الفهلويات ، أى القصائد المنظومة فى إحدى اللهجات الفارسية ، ولكن هناك من يرى أنها محاولات قام بها غيره ونسبها إليه .

● **شعراء آخرون :**

وعرف هذا العصر شعراء آخرين ، أمثال كمال الدين إسماعيل الأصفهانى ، وكان مداحا مثل أبيه ، وذهب طعمة لأسياف المغول عام ٦٣٥ = ١٢٣٧م . وهمام التبريزى (ت ٧١٣ هـ) ، وهو من أدباء أذربيجان وشعرائها المشهورين ، ماهرا فى فن الغزل بخاصة ، وتتبع آثار السعدى ، وينتظم ديوانه قرابة ألفى

بيت من الشعر ، وتوفى فى تبريز . ومن مواطنيه ركن الدين أوحدى المراغى (ت٨٢٧ هـ) ويبدو من آثاره أنه كان ضليعا فى علوم الدين والتصوف ، وبلغت شهرته غايتها ، ويشتمل ديوانه على قصائد ومراث وغزليات وموشحات ورباعيات ، وغزلياته قوية مؤثرة .ومن منظوماته مثنويه " ده نامه "، ويسمى كذلك منطق العشاق ، ومثنوى آخر يسمى " جام جم " أى كأس جميشد، ويعد أهم مؤلفاته ، ويتضمن خمسة آلاف بيت من الشعر ، ومعظمه فى شرح المعانى الصوفية والفضائل الإنسانية .

وينتمى إلى هذا العصر خواجو الكرمانى ، كمال الدين أبو العطاء محمود (ت٧٥٣ هـ) ، ولد فى كرمان حيث حصل العلم أولا ، ثم سافر بعد ذلك ، واندمج مع أشخاص مختلفين ثقافة ، وطوائف متباينة ، فاكتسب خبرة عظيمة بالحياة والأحياء .مدح أمراء عصره ، وشيوخه ، وله غزليات جميلة ، تشهد له بحسن الذوق وجودة القريحة ، وكانت موضع تقدير كبار الشعراء على أيامه ، وعلى رأسهم حافظ الشيرازى .

له ديوان وخمسة مثنويات ، احتذى فيها الشاعر النظامى ، وهى : " هماى وهمايون " ، وهى قصة فى العشق ، فى بحر المتقارب ، نظمها وهو فى بغداد . " وكَل و توروز " ، أى الورد والربيع ، وهو فى العشق ،على نهج " خسرو وشيرين" للنظامى ، وهو من حيث السلاسة والجودة أفضل مثنوياته . و " كمال نامه " ، وهو مثنوى صوفى على نهج " هفت بيكر " . و " روضة الأنوار " ، ونظمه على نسق " مخزن الأسرار " للنظامى ، ويقع فى عشرين مقالة ، ويتضمن حكايات صوفية ودينية وأخلاقية . و"كَوهر نامه " على نسق " خسرو وشيرين "، وهى قصة فى الأخلاق والتصوف .

ثم نلتقى بابن يمين (ت ٧٦٩ هـ) ولد فى قصبة فريومد من ولاية جوين بخراسان ، وكان أبوه يمين الدين الطغرائى من الشعراء أيضا ، وجرت بين الابن وأبيه معارضات شعرية ، وقل بين شعراء إيران من تعرض مثله لحوادث الأيام ،

وتقلبات الزمان ، واضطهد كما اضطهد ، وظل ينتقل هاربا من مكان إلى مكان، ووجد نفسه راضيا أم كارها فى أعماق خلافات عصره ، فعرف السجن والأسر ، إلى أن انتهى به المطاف إلى مسقط رأسه حيث توفى .

لكل ما مر به جاء شعره قويا ناضجا ، رغم أنه كان فى مدح السلاطين ، وله إلى جوار ذلك قطع جيدة فى الأخلاق وشئون الاجتماع ، ويعتز الأدب الفارسى على أيامه بقطعه نادرة يدعو فيها إلى السعى وحب العمل وكسب القوت بالجهد والعرق ، والترغيب والتجارة والزراعة ، وكان هو نفسه من أصحاب الأملاك ، والكثير من قطعه يدعو إلى القناعة وعزة النفس .

وكان سلمان الساوجى (ت ٧٧٨ هـ) ، من ساوة ، ووقف شعره على امتداد أربعين عاما يمدح الجلاتريين أو السلاطين الأيلكانيين ، وهو إما مسافر أو مقيم بين بغداد وتبريز ، وشاهد فى حياته ما شاهد من التدمير ، غير أن جماعة الجلاتيين أغدقوا عليه صلاتهم فكان له أملاك وعقارات ، وبلغ منزلة رفيعة بين شعراء القصيدة ، وربما آخر المشهورين منهم ، وفوق ذلك كانت له منزلة فى الغزل والتشبيب ، وبلغ فيهما منزلة رفيعة ، كما برز فى التركيب بند ، والقطع والمثنويات والرباعيات بجانب إجادته فنى القصيدة والغزل .

وكان أستاذا فى العروض ، ولم يغفل المعانى الصوفية ، ونظم مثنويين فى العشق ، أحدهما " جنشيد وخورشيد " ، والآخر " فراقنامه " ، أى قصة الفراق ، ونالت شهرة واسعة ، والأشعار التى وصف فيها إقامته فى بغداد ، ومشاهداته فيها ، وما أحدثه دجلة ومياهه وجمال منظره فى نفسه ، وقل أن يوجد لها مثيل فى الأدب الإيرانى . وفى أخريات حياته اعتزل فى بلدته ساوة ، وأمضى بقية عمره رهين الوحدة مشتت الفكر .

● حافظ الشيرازى (ت ٧٩١ هـ) :

شمس الدين محمد الحافظ ، ويلقب " لسان الغيب " ، ولد فى شيراز ،

وحصل علوم عصره ومعارفه فى مسقط رأسه حتى بلغ فى العلوم منزلة رفيعة ، درس خير الآداب ، وأشهر دواوين العرب ، وحفظ القرآن ، وجمع بذوقه الصوفى اللطيف بين الفلسفة والتدين .

حفل عصره بالكثير من العلماء والكتاب والشعراء رغم كثرة الثورات والانقلابات ، فساعد هذا على تكوينه ، وعلى النقيض من مواطنه السعدى لم يبرح شيراز إلا مرتين فى سفرة قصيرة ، إلى ميناء هرمز ومدينة يزد ، ويلفت النظر أن هذا الشاعر الذى اكتوى قلبه على فراق ابن له فى ميعة الصبا ، وبكاه بأرق الأشعار ، لم تحرك نفسه الفواجع الدموية التى حلت بايران طولا وعرضا ، ولم تنج منها شيراز نفسها ، وشاهد بعينيه قتل الملوك وفناء الأسر ، والصراع العنيف بين أبناء الأسرة الواحدة ، وهى ظاهرة يردها بعضهم إلى تصوفه العميق الصادق ، وبعده عن شواغل العالم ، وكأن ما يجرى تافه لاأهمية له ، فهو يرنو ببصره إلى وحدة الكون ، وإلى عالم المعنى .

مدح حافظ كثيرين من أمراء عصره ، ولكنه لم يبالغ فى مدحهم ، ولم يتردد فى أن يسدى النصح إليهم أحيانا ، وقد سما بأفكاره الصوفية فبلغ بها منزلة عالية ، وأدى المعانى التى طرقها السابقون مفصلة فى قصائد وغزليات قصيرة أحسن أداء ، وبلغ من العمق فى التصوف حدا مكنه أن يستخدم كل قصيدة من قصائده ، أو غزلية من غزلياته ، فى أى موضوع من موضوعاتها ، بيتا أو أبياتا صوفية يوردها ضمن أبياتها وكان ذلك من أظهر خواص شعره . وكان تصوفه حقيقيا ، ابتعد عن النفاق ، وازدرى الخداع ، وتألم للصراع العنيف على المشكلات التافهة ، والخلافات السطحية ، ومظاهر الرياء والكذب ، ولم يبلغ شاعر إيرانى مبلغه فى هذا الجانب . وثانيهما :

● **عبد الرحمن الجامى (ت ٨٩٨ هـ) :**

يلقب نور الدين ، وتخلص بجامى نسبة إلى جام من ولاية خراسان ، وإليها ينتسب ، أو نسبة إلى شيخ الإسلام أحمد الجامى . وفى صباه ذهب صحبة أبيه

إلى هراة ثم إلى سمرقند ، وفيهما درس علوم الدين والتاريخ والأدب وعلوم التصوف بخاصة ، واستمر يكتسب العلوم والفضائل ويقطع طريق الرياضة الروحية ، ويرتقي في مراتب الصوفية ، إلى أن اندمج في سلك رؤساء الطريقة النقشبندية . وسافر كثيرا وأدى فريضة الحج ، وعاد عن طريق دمشق وتبريز ، ومضى إلى هراة ، وخلال رحلته اصطدم به جمع من أهل بغداد ، وبالغوا في عداوته ، فخرج من المدينة حسيرا .

بدأت شهرة الجامي مبكرة ، قدره الجميع ، واحترمه الملوك والأمراء على قلة مديحه لهم ، وأحلوه في مجالسهم مكانا عليا ، وآثر في أواخر حياته ترك الشعر، والاشتغال بالمسائل العلمية الدينية .

كان الجامي أكبر شاعر وأديب في القرن التاسع الهجرى ، وآخر شعراء المتصوفة والمشهورين في إيران ، ولم تقتصر شهرته على الشعر ، وإنما تجاوزته إلى فروع أخرى من علوم الدين والأدب والتاريخ . ويبدو من أشعاره أنه اقتفى آثار سابقيه ، والصوفية من بينهم بخاصة ، وبالنظامي على نحو أخص ، وبالسعدى وحافظ والخاقاني في الغزل .

من آثاره المنظومة ديوان شعر يتضمن قصائد وغزليات ومراثي وموشحات ومثنويات ورباعيات ، وقسم ديوانه إلى : فاتحة الشباب ، وواسطة العقد ، وخاتمة الحياة ، وجرى في هذا مجرى الأمير خسرو . وله ملمعات بين هذه الأشعار مما يعني أنه كان على معرفة جيدة باللغة العربية . ونظم على نسق " خمسة نظامى " سبع مثنويات بعنوان " هفت أورنك " أي السموات السبع ، وهي :

" سلسلة الذهب " في المسائل الفلسفية " والدينية والأخلاقية ، يوردها في حكايات وأمثلة . و" سلامان وأبسال " ، وهي قصة قديمة . و" تحفة الأحرار " وهو مثنوى صوفي ديني على وزن مخزن الأسرار للنظامي ، ويتضمن اثنتي عشرة مقالة . و " سبحة الأبرار " وهو في الأفكار الدينية والصوفية ، و" يوسف وزليخا " ، وهو أشهر مثنوياته ، على نهج " خسرو وشيرين " للنظامي . و" ليلى

والمجنون " على نهج " ليلى والمجنون للنظامى أيضا ، ويضم مثنويه هذا ٣٧٦٠ بيتا ، و " خرد نامه سكندرى " ، أى قصة العقل للإسكندر ، وهو على نهج "إسكندر نامه " للنظامى .

ويلاحظ فى هذه المثنويات أن الشاعر قد تتبع النظامى وقلده فى منهجه وطريقته ، غير أن شعره أحيانا أكثر بساطة وأرق موسيقا من شعر النظامى.وإلى جوار الشعر كان للجامى مؤلفات منثورة ، دينية ولغوية وتاريخية ، وليس هنا مكان تناولها .

● **العصر الصفوى والقاجارى :**

كان تيمور لنك مؤسس أسرة التيموريين رجلا باطشا ، أزال كل الأسر التى كانت تتقاسم إيران ، واستمر أولاده من بعده يحكمون مدة مئة سنة تقريبا، لكنهم لم يبلغوا سطوته فنالهم الضعف تدريجا ، واستردت الأسر القديمة سلطانها وظهرت أسر جديدة ، وخلال ذلك ظهر شاب قوى شجاع يدعى إسماعيل من أحفاد الشيخ صفى الدين الأردبيلى الذى تنسب إليه أسرة الصفويين .

تولى إسماعيل السلطنة فى تبريز عام (٩٠٥ هـ) وأسس أسرة الصفويين ، وبسط سلطانه فى مدة وجيزة على كل إيران ، وامتد حكم أسرته قرابة مئة وأربعين عاما ، لكن ملوكها المتأخرين لم يبلغوا ما بلغه السابقون منهم قوة وخبرة ودراية ، فهجم الأفغان على إيران ، واحتلوا أصفهان واتخذوها عاصمة لهم.

ثم ظهر نادر شاه الأفشارى فطرد الأفغان ،وأزال سلطان الصفويين ، وجلس على العرش عام ١١٤٨ ، وأسس دولة الأفشاريين ، وامتد ملكة من بغداد حتى دهلى ، بما فى ذلك إيران نفسها ، ولكن سرعان ما انتهى دورهم ، إذ غلبهم كريم خان الزندى ، ثم ظهر القاجاريون وهزموا الزنديين ، وفى عام ١١٩٣هـ جلس على العرش محمد خان القاجارى ، وخلص إيران من تنازع الطوائف ، وامتد حكم أسرته قرابة مئة وخمسين عاما .

بين هذا المد والجزر تمثل فترة تاريخ الصفويين والقاجاريين أهمية خاصة . لقد جعل الصفويون التشيع مذهبا رسميا لإيران فارتقى النثر ، والنظم الدينى ، ونهض الشعراء يمدحون الأنبياء والأولياء بدل الملوك ، واجتهد العلماء فى جمع الأخبار والآثار الدينية ، وشرح الفقه والحديث ، وقامت حركة ترجمة واسعة لنقل ما ألف من قبل بالعربية إلى اللغة الفارسية . ومع ذلك ، انحط الأدب نتيجة عوامل التخريب التى صاحبت العصر المغولى والتيمورى ، ولم يجد الغزل والتصوف رعاية من ملوك الصفويين فأعرض الشعراء عنهما ، وضعف النظم والنثر وفقد الأسلوب الفارسى البساطة والرونق ، وكثر فيه استخدام العبارات المعقدة ، وعمته الصناعة المبتذلة ، وانصرف الشاعر أو الكاتب إلى التشبيهات والجناس والاستعارات الغامضة ، والأفكار الغريبة ، والمعانى البعيدة ، وحمل لواء هذا الاتجاه الشعراء والكتاب والمؤلفون فى إيران وشبه الجزيرة الهندية ، وتميزوا فى الأسلوب ، وصاروا طلائع نوع منه اشتهر بالأسلوب الهندى فيما بعد، ذلك لأن الأدباء الهنود غالوا فيه أكثر من الإيرانيين ، ولو أن العصر لم يخل من شعراء جيدين فى إيران وشبه الجزيرة الهندية على السواء .

فى هذا العصر ازداد نفوذ اللغة الفارسية فى شبه الجزيرة الهندية ، وتأدب كثيرون من أبنائها بالفارسية ، وقرضوا فيها الشعر ، ونفقت أشعار كبار الشعراء الإيرانيين ، أمثال : الفردوسى والسعدى وحافظ الشيرازى والجامى ، وقصد شبه الجزيرة الهندية جماعة من شعراء إيران وعلمائها فوجدوا احتراما وتقديرا ، وحولهم التفت جماعات من الشعراء والكتاب والمؤرخين ، تتخذ من الفارسية أداة تعبير ، وتركت اللغة الفارسية أثرا واضحا فى اللغة الأوردية ، إحدى اللغات المتكلمة هناك .

واهتم سلاطين الهند بنقل الكتب والقصص الهندية المشهورة إلى الفارسية ، من العلوم والقصص والأساطير والملاحم ، مثل مهابهارتا وراميانا . وكان للأدباء الهنود الذين اتخذوا الفارسية لغة تراكيب جديدة ، ومعانى مستحدثة ، وألفاظا

واستعمالات خاصة ، لم تكن مما يستعمل فى إيران .

كما اتجه الأدب الفارسى إلى آسيا الصغرى ، وبلاد الدولة العثمانية ، وراج فى عهد الدولة الصفوية بخاصة ، وكان قد سلك طريقه إليها من قبل سلاطين سلاجقة الروم . وفى عهد المغول أسرع إليها جماعة كثيرة من المؤلفين والعلماء والشعراء والمتصوفة ، أمثال : السهرودى ونجم الدين الرازى ، ومولانا جلال الدين الرومى وغيرهم ، فعملوا على نشر الفارسية وآدابها ، وكان سلطان ولد ، ابن جلال الدين الرومى أحد بناة الأدب العثمانى ، ولمدة طويلة اتخذوا من مثنويه " ولد نامه " أنموذجا يحتذونه .

ولم يقتصر شعراء العثمانيين وكتابهم فى نظمهم بالتركية على احتذاء طريقة الإيرانيين ، ألفاظا وتراكيب ومعانى ، أو تقليد شعراء التصوف ، وإنما نظموا كذلك شعرا بالفارسية . وكان كبار الشعراء ، أمثال : فيضى وعرفى وصائب والجامى ، يجيدون اللغتين ، ولهم تأثير قوى فى الأدب التركى ، ونعرف أن لسلاطين آل عثمان دراية ممتازة بالفارسية وآدابها ، وبعضهم كان ينظم الشعر باللغة الفارسية .

من أشهر شعراء العصر الصفوى محتشم الكاشانى (ت ٩٩٦ هـ)، ومع أنه كان فى شبابه شاعرا غزلا رقيقا ، ومداحا متمكنا ، إلا أنه مال فيما بعد إلى الشعر الدينى الذى يذكر بالكوارث التى أصابت أهل البيت ، فاشتهر وعرف بأنه أجود شاعر يقول المرثيه فى إيران ، وأوضح مراثيه " هفت بند " .

وأمضى هاتف الأصفهانى (ت ١١٩٨ هـ) أشهر شاعر فى عصر الأفشاريين والزنديين حياته بين أصفهان وقم وكاشان ، وكان يعرف العربية وينسبون له شعرا عربيا ، ويتكون ديوانه من قصائد وغزليات وقطع ورباعيات . وتميزت قدرته فى فن الغزل ، واشتهر أكثر بنظم الموشحات فى التصوف ، وقد بطش الصوفويون بالمتصوفة ، ولكنهم لم يقضوا على الأدب الصوفى . وكان ابنه محمد سحاب (ت ١٢٢٢ هـ) شاعرا مجيدا أيضا .

وأبدع محمد خان الكاشانى (ت ١٢١١ هـ) ، الملقب بملك الشعراء فى فن القصيدة ، وهو أصلا من كاشان ، وتوطنت أسرته أذربيجان ، وكان أبوه وجده شاعرين ، وله مشاركات فى العلوم والفنون والفلسفة ، ونهج فى الشعر منهج ما قبل المغول ، وهو أقرب شعراء عصره إلى طريقة العنصرى والفرخى ومنوجهرى والمعزى ، ويتضمن ديوانه ألفين وخمس مئة بيت .

واشتهر فى هذا العصر أيضا حسين الطباطبائى (ت ١٢٢٥ هـ) ، المتخلص بمجمر ، أقام مدة بأصفهان ، ثم رحل إلى طهران ، ويعتبر فى الطبقة الأولى من شعراء القصيدة ، مدح السلطان وولى عهده وأعيان المملكة ، واقتفى فى طريقته أسلوب السابقين وبقيت له غزليات لطيفة وقطع وموشحات ومثنوى على غرار تحفة العراقين للخاقانى ، وقطع منثورة على نمط كَلستان للسعدى ، وله باع طويل فى الألغاز وتوفى شابا .

وكان ميرزا حبيب المتخلص قاآنى (ت ١٢٣٠ هـ) من مشاهير الشعراء أيضا ، وهو من شيراز ، وينتسب فى أسرة شاعرة ، فأبو الشاعر ميرزا محمد المتخلص كلشن ، وقد سافر قاآنى فى شبابه إلى خراسان حيث حصل العلم والأدب ، وبدأ يقرض الشعر شابا ثم اشتهر ، ورحل إلى طهران ، وهو أول شاعر إيرانى عرف اللغة الفرنسية ، ولم يكن أحد على أيامه يدانيه فى جمال الوصف ، واختيار الكلمات ، وتتبع أشعار القدماء ، وبلغ فى " المسمط " والترجيع بند منزلة رفيعة ، وسما بهذين الفنين إلى مستوى رفيع ، وفى ديوانه قصائد المديح تعد أجود آثاره ، واستهل معظمها بوصف الطبيعة ، وله نثر بعنوان " بريشان " أى متفرقات ، جعله على نمط " كَلستان " للسعدى ونهج فيه منهجه ، ويضم حكايات وسير ونصائح وقصص وغيرها .

ومن شعراء هذه المرحلة فتح على خان صبا (ت ١٢٣٨ هـ) وهو من مشاهير شعراء القصيدة ، ولاّه الشاه حكومة قم وكاشان ، ثم لزم حاشيته ، وكان موضع رعايته ، ولَقّب ملك الشعراء ، ونظم شعرا كثيرا فى القصيدة والغزل والرباعى

والمثنوى ، وتتراوح أشعار ديوانه بين عشرة آلاف بيت وخمسة عشر ألفا، ونظم مثنويات وكتب رسائل ، وأهم مثنوياته الشاهنامة ، وقلد بها شهنامة الفردوسى فى الوزن والموضوع ، ومثنوية " خدا وفد مامه " على وزن الشاهنامه ، ومنظومات أخرى .

وكان ميرزا عبد الوهاب نشاط الأصفهانى (ت ١٢٤٤ هـ) الملقب معتمد الدولة ، من كبار عصره وشعرائه ، ومن عظماء رجال السياسة ، وشاعرا طيب المنبت ، حسن المشرب ، بارع النكتة ، أستاذا فى أنواع الخط ، وجعل من أصفهان موطنه موضوعا لشعره ، ويعد من مؤسسى نهضة الأدب الجديدة فى إيران ، وفضلا عن غزلياته قرض الشعر فى فن القصيدة والمثنوى والرباعيات ، وله نثر يحتوى رسائل ومناجاة وخطبا ، ويضم ديوانه أشعارا صوفية ، فقد انتظم بين جماعة الصوفية زمنا .

واشتهر ميرزا شفيع الشيرازى المتخلص وصال (ت ١٢٦٢ هـ) فى فن الغزل والمثنويات ومنها مثنويه " بزم وصال " ، وأتم مثنوى " فرهاد وشيرين " لوحشى وأجاد فى نظمه ، وترجم إلى الفارسية " أطواق الذهب " للزمخشرى . وإلى جانب الشعر كان خطاطا ممتازا ، ومن علماء الموسيقا ، وقد أطراه الشاعر على أكبر الشيرازى المتخلص بسمل ، وكان معاصرا له ، وذكره فى تذكرته ، وجاء أبناء وصال من بعده رجال علم وأدب وهم : وقار وميرزا محمود ، وميرزا أبو القاسم ، وداورى ، ويزدادى ، وورثوا عنه جودة الخط إلى جانب الشعر .

وأمضى الشاعر ميرزا عباس البسطامى المتخلص فروغى (ت ١٢٧٤ هـ) حياته فى رياضة النفس والتصوف والاعتزال ، وبلغ القمة فى الغزل ، وتبلغ أشعاره عشرين ألف بيت ، وهى مشهورة متداولة ، وتروج بين المعاصرين .

وغير هؤلاء كثيرون ، أصاب بعضهم حظا من شهرة أو كانت له مكانة ملحوظة فى النظم ، ولكن دورهم فى التجديد أو الإجادة كان محدودا .

● الفارسية فى شبه الجزيرة الهندية :

انتشرت الفارسية فى شبه الجزيرة الهندية بعد الإسلام ومنذ أن دخلها الغزنويون بخاصة ، وظهر فيها علماء وشعراء يكتبون ويقرضون الشعر بالفارسية ومن بين أشهر الشعراء هناك الأمير خسرو بن الأمير سيف الدين محمود الدهلوى (ت ٧٢٥ هـ) . أقام أبوه فى مدينة كش بتركستان ، ثم فر من المغول إلى الهند ، وحط رحاله بمدينة بتيالى ، ولما كان الأب عالما فقد سلك الإبن طريقه ، وبتوجيه من أبيه اطلع على آثار الفرس وأشعارهم حتى بلغ فيها منزلة رفيعة ، ثم أخذ يقرض الشعر فيها منذ حداثته .

أقام خسرو فى مدينة دهلى ، وكانت له منزلة كبيرة لدى سلاطين تلك الولاية ومدح جماعة منهم فى شعره ، ثم اندمج فى حلقة الشيخ نظام الدين أولياء الصوفى ، وسلك طريق الرياضة الروحية ، واقتفى فى شعره كبار شعراء إيران بعامة ، وسعدى الشيرازى فى الغزل بخاصة ، ولكن هذه المحاكاة لم تذهب بأصالته جملة . وجاء ديوانه فى خمسة أقسام : " تحفة الصغر"، وهى أشعار الشباب ، وأغلبها قصائد وموشحات . و " وسط الحياة " ، وهو ما نظمه بين العشرين والثلاثين ، وكلاهما فى مدح الشيخ نظام الدين أولياء وآخرين من السلاطين . و" غرة الكمال " ونظمها بين الثلاثين والأربعين ، وهذا القسم أكبر من سابقيه ، ويتضمن قصائد وموشحات وقطعا . و" البقية النقية " وأثبت فيها شعر شيخوخته . وأخيرا " نهاية الكمال " وتتضمن أشعاره فى أخريات حياته .

وكان الأمير خسرو يجل النظامى فألف خمسة مثنويات على نسق خمسته ، أسماها : " مطالع الأنوار " ويقابل " مخزن الأسرار " ، وأغلبه شعر دينى أخلاقى. و"شيرين وخسرو " ويقابل " خسرو وشيرين " وفيها ينصح ابنه مسعودا ، و"المجنون وليلى " وتقابل " ليلى والمجنون " . و" آيينه إسكندرى " أى مرآة الإسكندر وتقابل " إسكندر نامه " . و " هشت بهشت " أى الجنان الثمانى ، وتقابل " هفت بيكر " . وذكر الشاعر فى ختام هذه القصة أنه أتمها كلها فى

ثلاث سنوات ، وتبلغ أبياتها جميعا ثمانية عشر ألف بيت .

ولم يتوقف الأمير خسرو فى نظمه عند القصص المألوفة التى سلكها سابقوه فحسب ، وإنما نظم أيضا قصصا لأشخاص معاصرين ، كمنظومته " خضر خان ودلرانى " أى الخضر والحكام . وكانت له مكانته فى فن الإنشاء فألف نثرا "رسائل الإعجاز " . ويعتبرونه أكبر شعراء الفارسية فى شبه الجزيرة الهندية ، فقد تميز نظمه بالسلاسة ، ورقة الخيال ، وصفاء الذوق ، وابتعد عن استخدام الألفاظ والتراكيب الخاصة بالشعراء الإيرانيين ، ولكنه لم يبلغ مبلغ الشاعر النظامى الذى اتخذه قدوة فى هذا المجال .

وذاعت شهرة عرفى الشيرازى ، جمال الدين محمد (ت ٩٩٩ هـ) فى الهند، وقد استقر فيها ، واتصل بشعرائها وعلمائها ، وكان الشعراء فيها وفى تركيا يقدرون قصائده وغزلياته وقطعه المشهورة ويقلدونها . وتردد صائب التبريزى (ت١٠٨٨ هـ) بين كابل والهند ، ولما بلغت شهرته هناك أوجها استدعاه الشاه عباس الثانى وقربه إليه ، ومنحه لقب أمير الشعراء ، ويعد من أساتذة الطريقة الهندية ، وعَلَماً فى فن إيراد الأمثلة ، ويزيد ديوانه على مئة وعشرين ألف بيت.

وهناك شاعران كبيران نشأ فى الهند ، وأمضيا حياتهما هناك ، وبلغا شهرة واسعة . أولهما فيض الدكنى (ت ١٠٠٤ هـ) وبلغ فى سلاسة الأسلوب ومتانة العبارة حدا لا تستطيع تمييزه بسهولة عن شعراء إيران نفسها ، وأدى نفوذه إلى انتشار الأدب الفارسى فى الدولة العثمانية ، ويتضمن ديوانه قصائد ومراثى وتركيب بند وقطعا وغزليات ونظم عدة مثنويات ، أحدها اقتسبه من قصص هندية ، وترجم فصولا فى العلوم والآداب من الهندية إلى الفارسية مثل مهابهارتا .

والثانى ميرزا عبد القادر بيدل (ت ١١٣٣ هـ) وبلغ ما نظمه مئة ألف بيت، وبلغ منزلة عظيمة فى الغزل الصوفى والمثنويات ، وله نصائح وحكم منظومة ومنثورة .

● النثر الفارسي :

تأخر نضج النثر الفارسي عن الشعر ، بدأ متواضعا ، وكان علماء الفرس يفضلون في البدء النثر العربي لتفوقه وقوته ودقته ، وتجلى إهمال النثر واضحا في كتابات ابن سينا والغزالي بالفارسية وما أصابها من خمول ذكر نسبيا . ولكنه ارتقى خلال العصر السلجوقي ، ويتجلى ذلك واضحا فيما كتبه الشاعر ناصر خسرو في كتابه " سفر نامه " الذي سجل فيه يومياته ،وكتاب السياسة لنظام الملك ، وهو أحسن ما كتب في بابه ، والسياسة ذات صلة بالأخلاق ، ومن هنا ألف عنصر المعالي كيكاوس " قاموس نامه " ، أول كتاب في سلسلة طويلة من كتب الحكمة العلمية ظلت تتحسن مع الزمن ، وجاءت بعثا لأدب الوصايا التقليدي ، وطال احتجابه دون أن يكون قد نسي . وإلى هذه السلسلة ينتمي : "أخلاق ناصري " لنصير الدين الطوسي ، وكَلستان لسعدي ، وبهارستان لجامي ، وكتب أخرى كثيرة أقل شهرة .

كذلك عاد الإيرانيون إلي ما اعتادوه قديما من تسجيل الحوادث العظيمة للملوك الأقوياء ، فسجل الجويني ، عطا ملك ، تاريخ المغول بأسلوب فارسي رفيع ، في كتابه " تاريخ جهانكَشاه " ، وكتب حمد الله المستوفي " تاريخ كَزيه" أي التاريخ المختار ، منذ بدء الخليقة حتى عام ١٣٣٠م ، وألف رشيد فضل الله " جامع التواريخ " ، وكتب أبو عبد الله بن فضل الله الشيرازي تجزئة الأمصار أو تاريخ الوصاف ، وفيه يختفي المعنى وراء طوفان من الألفاظ يصبح معها التاريخ نفسه أمرا ثانويا بالنسبة للأسوب المتكلف الذي يستخدم في التعبير عنه ، وألف مير خوند موسوعة تاريخية ضخمة اسمها روضة الصفا .

كانت البساطة البدائية التي عليها النثر الفارسي في أعوامه الأولى ، إذا قورنت بفخامة الإنشاء العربي وأناقته ، ووراء الإكثار من المحسنات اللفظية ، وحشو الأسلوب بالتعبيرات العربية ، وهي طريقة امتدت لتشمل العربية ثم التركية والأوردية أيضا .

وكتاب التراجم يدانون المؤرخين كثرة ، ومثل الكتاب العرب يهتمون بالتفاصيل ، ويؤرخون لمجهولين ، ولو أن التراجم الفارسية موضع شك أحيانا فيما تقدم من معلومات غير أنها تقدم لمؤرخ الأدب مادة وفيرة ، على نحو ما نجد عند محمد عوفى فى كتابه " لب الألباب " أو عند دولتشاه فى كتابه "تذكرة الشعراء " ، فإليهما يرجع الفضل الأكبر فى تعريفنا بأوليات الشعر الفارسى . كما قدم لنا عوفى فى " جوامع الحكايات " فيضا من الحكايات والقصص الطريفة والمعلومات الممتعة . ومثله" جهار مقاله " لنظامى العروضى ، وإن كان أصغر حجما وأقل تخصصا ، وتعد مقدمته نموذجا حيا فى تلك الأيام للتحية التى يوجهها كاتب فقير لأمير جعلته الصدفة ولى نعمته . وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب عام ١٩٤٩ ، ونشر فى القاهرة .

كما نظم الفرس الملاحم الطويلة والقصص القصيرة ، فعلوا ذلك فى النثر أيضا وهم فى هذا بين قلة مكثرة تبغى الشهرة ، وكثرة مقلة تستهدف العمق والدقة ، وأن تبلغ بما تكتب أسمى درجات الكمال ، ويمثل هؤلاء كتاب " المناجاة " للأنصارى ، وهو دعاء رائع مزج فيه بين النثر والشعر ، وكتاب " اللمعات " للعراقى ، وهو مختصر صوفى دقيق عن نظرية المحبة الإلهية عند الصوفية ، أو كتاب " الأشراف " للزكانى ، ويختلف عن الكتابين الاسبقين اختلافا بيّنا فى طبيعته ، ولكنه مثلهما يمثل العبقرية الفارسية المتعددة الجوانب .

ثم اجتاح المغول والتتار إيران وخربوا مدنها الجميلة ، وسبوا نساءها الحسان وقتلوا علماءها ومبدعيها ومفكريها ، فظلت روحها تنزع إلى ما يرد إليها السكينة ، وهذه عند الواعظ والشاعر والصوفى ، كلٌ على طريقته ، وقام الصوفية بدور باهر فى هذا المجال ، رافعين شعار : "إن النفس الإنسانية بانفصالها عن الحبيب الحق ، وسكناها فى ذلك الجسد الفانى، لابد أن تقاسى الآلام ، ولها أن تؤمل فى العودة مرة ثانية إلى مدينة الأحلام التى فقدتها " .

يرد النقاد هذا التفاوت فى الإنتاج الفارسى ، حجما واتجاها وفكرا ، إلى

تعاور أحداث الزمان على هذه الأمة النبيلة ، فهى آونة قوة عسكرية كبرى تسيطر على كثير من الشعوب ، وآونة أخرى ضعيفة مستذلة من جديد ، ومن هنا كان أحب الموضوعات إلى قلوبهم الحديث عما يتصل بمصائر الناس وتقلبات الأيام . غير أن قلة من كبار الشعراء وعظماء المفكرين كانت ترى الحل فى الجانب الآخر ، ويلخص أبو شكور البلخى فلسفة هذا الجانب اللاأدرى عند قومه ، ونظرتهم إلى الحياة ، فى هذا البيت من الشعر :

إن الحد الذى وصل إليه علمى

هو أننى علمت أننى لا أعلم شيئا .

واتخذ الرودكي ، وهو شاعر آخر معاصر لأبى شكور وأعظم منه ، عن المذهب الخلقى الذى يرى اللذة هى الخير الأوحد فى الحياة الدنيا ، وأن واجب الإنسان الخلقى يتحقق باشباع الغرائز والميول التى تبحث عن اللذات ، فالخمرة تسعد قلب الإنسان ، والحب ينزل السكينة على نفسه ، بينما يسير هو فى ذلك الممر المظلم الذى يمتد من فناء إلى فناء . وتلك هى فلسفة عمر الخيام ، ومذهب الجنون عند حافظ الشيرازى وسياسة اغتنام اللحظة عند كل من أحب جمال هذا العالم وعرف أنه سريع الفناء :

ما فات مات ، والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

● عصر الإحياء :

فى زمن متقارب مع الإحياء العربى وانبثق فى مصر ومع التركى وموطنه الأستانة عاصمة الخلافة ، بدأ الإحياء الفارسى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، حين ضاق الناس بالمعانى المعقدة ، والعبارات المتكلفة وسلكت النهضة

الجديدة طريقها فى وهن على استحياء ، ثم استوى عودها مع الزمن ، وكانت أصفهان مركزها ، تحاول أن تمسح عن الأدب روح العصر المغولى ، ومظاهر الأسلوب الهندى ، وتدعو الشعراء والكتاب إلى احتذاء آثار المتقدمين

أمثال : منوجهرى والعنصرى والفرخى والمعزى والأنورى والخاقانى والفردوسى ، والعمل على إحياء طريقتهم فى المعانى والأساليب ، ومعها أشرق على الحياة الأدبية أسلوب قوى متين فى النظم والنثر ، فابتعد الشعراء عن المعانى المتكلفة ، والصور المكرورة ، وتجنب الكتاب السجع والحشو والتكلف والتكرار .

وفى هذا العصر بدأت الصلات الأدبية واللغوية بين إيران والعالم الغربى ، على نحو ما حدث فى مصر والشام وتركيا ، وبدأت الترجمة تتم من اللغات الأوروبية إلى الفارسية ، مباشرة أو عن طريق لغة ثالثة ، وأخذت بعض الكلمات الأوروبية والروسية طريقها إلى اللغة الفارسية . ولن نقف طويلا عند هذه المرحلة فى أىّ من الآداب الإسلامية ، لتشعبها وتعقدها ، ولن يفيها حقها فى رأيى إلا دراسة أخرى مستقلة .

اللغة التركية وآدابها

● **اللغة :**

ثالثة اللغات الإسلامية أهمية ، وانتشارا والترك من الأقوام الطورانية ، وهم من جنس المغول والمجر والفنلنديين ، أخذا من تشابه لغاتهم ، وموطنهم قلب القارة الآسيوية بين بحر قزوين وجبال التاى وأورال والتبت . وبيئتهم جبلية ، تتخللها الوديان وتكتنفها الأحراش ، وطبيعتهم شحيحة قاسية إجمالا ، تدفعهم إلى الترحال والتجوال طلبا للخير ، وسعيا وراء الرزق .

ويذكر التاريخ أنهم هاجروا فى القرن الخامس قبل الميلاد إلى حوض دجلة والفرات ، وأطلق عليهم اسم السومريين ، وشادوا حضارة زاهرة ، ويقال إن الحيثيين فرع من الشعوب التركية ، نزحوا نحوالغرب منذ عهود سحيقة ، قادمين من برارى التركستان ، واستقروا فى الأناضول ، وأقاموا هناك مدنية عظيمة .

ويمكن تقسيم الترك إلى قسمين واضحين : كوك ترك ،والأويغورو ، وقد كونّ الأولون مملكة واسعة الأرجاء فى القرن السادس الميلادى ، تنتظم منغوليا وتركستان ، وعثر العلماءعلى نصوص من لغتهم فى منغوليا ، يعود أقدمها إلى عام ٧٣١م ، وهى أقدم ما نملك من وثائق عن لغة الترك الأقدمين ، وتصف لنا الأيام العصيبة التى مر بها الأتراك ، حين اختل الحكم ، واضطرب الأمن ، وفسد الوزراء ، واستولى الصينيون على بلادهم ، ثم وفقوا بعد مدة إلى طردهم منها .

وأما الأويغورو فسكنوا شرق التركستان وحوض نهر تاريم ، ويختلفون عن كوك ترك فى اللهجة والكتابة ، وأنهم أهل حضر ، وتأثروا بما جاورهم من مدنيات ، فأخذوا عن الصين والهند وفارس ، وأصبحوا أعرق الشعوب التركية حضارة ، فشيدوا العمائر وأقاموا الهياكل ، وحذقوا الكتابة ، وبلغوا أوج عظمتهم فى القرن الثامن الميلادى ، ثم ذهبت دولتهم باستيلاء جنكيز خان عليها فى القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد وصلنا فى هذه اللغة أثر فريد يعود إلى عام ١٠٦٩م ، ألفه يوسف خاص

حاجب بعنوان " قودا تغوبيليك " أى علم السعادة . وهو منظومة فى الأخلاق وسياسة الملك ، وحق الرعية على راعيها ، وواجب المحكوم نحو الحاكم ودور الفضيلة والرذيلة فى حياة الجماعة ، وأرشد إلى كثير من أمور الدين والدنيا . ولاتزال اللغة الأويغورية ، أو لغة جغتاى ، حية تتحدثها الشعوب التركية التى تسكن حوض نهر تاريم ، ويوليها علماء اللغة الأتراك المحدثون أهمية كبرى ، ويتخذونها عونا فى تنقية لغتهم الحاضرة مما اختلط بها من ألفاظ عربية وفارسية، وهو جهد ضائع وكان أولى بهم أن يتجهوا إلى ما هو نافع ومفيد .

يتألف الشعب التركى من عشائر ، واعتنق على مر العصور أكثر من دين ، فقد عرفوا الشامانية والبوذية والمسيحية النسطورية والمزدكية والمانوية ، وفى القرن الثالث الهجرى اعتنقوا الإسلام ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، اعتنقوه عن رضا ، وتقبلوه طواعية ، يقفون عند الحدود ولا يميلون كثيرا إلى الاجتهاد ، ولايبرمون أمرا إلا إذا أفتاهم شيخ الإسلام أيام كان .

ظهر الترك فى التاريخ الإسلامى يوم استقدمهم الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢م) وأمه تركية ، من فرغانة وغيرها من مقاطعات آسيا الوسطى ليستظهر بهم على الفرس والعرب ، لأن الأولين يطمعون فى الملك ، والآخرين قبائل متنازعة ، وسرعان ما أصبح هذا الحرس مصدر فزع فى بغداد العاصمة ، فاضطر الخليفة أن يؤسس لهم مدينة جديدة هى سامراء ، واتخذها مقرا لحكمه . وبعد موت المتوكل على أيديهم عام ٨٦١ م أخذوا يمارسون نفوذا كبيرا فى الدولة ، استعلوا على الخلفاء وأذلوهم ، وخلعوهم وسملوا عيونهم وقتلوهم ، وظلت الخلافة المنهارة مدة قرنين من الزمان صورة مضطربة لحكام صوريين ، يصعدون إلى العرش ولا سلطان لهم ، ويهبطون إلى القبر غير مأسوف عليهم ، ولايتمتع أحد بالأمن والسلام إلا فى بعض المقاطعات التى يحكمها وال مستقل فعلا ، ويقبض على أزمة الأمور بيد من حديد . وكان من هؤلاء أحمد بن طولون ، الذى استقل بمصر عام ٨٦٨ م ، وأبوه تركى من فرغانه ، ويعتبر حكمه بداية ظهور

دولة مستقلة فى وادى النيل ،احتفظت باستقلالها طوال العصور الوسطى ، وضم سوريا إلى ملكه ، واتخذ من عكا قاعدة لأسطوله ، وظلت سوريا تكون جزءا من مصر بعد ذلك لقرون طويلة وعلى أنقاض الدولة الطولونية قامت دولة تركية أخرى فى مصر ، من أصل فرغانى أيضا ، هى الدولة الإخشيدية ، وأسسها محمد بن طغج الأخشيد عام ٩٣٥م .

وكما مر بنا كان الغزنويون والساماتيون والسلاجقة والمغول من الأتراك ، وبعدهم جاء العثمانيون ، وهم آخر الأبطال العظام فى تاريخ الإسلام الحربى ، وتوغلوا فى أوروبا حتى بلغوا فيينا عاصمة النمسا عام ١٥٢٩م ، وشملت إمبراطوريتهم بلغاريا والصرب وأرمينية والبوسنة والهرسك وألبانيا والقرم وتونس ومصر والجزائر وليبيا والشام والحجاز والعراق والمجر وأطارف أخرى .

وقد صبغ الأتراك ، سلاجقة أو عثمانيين ، الدين الإسلامى بصبغة صوفية ، واتخذ نظام الفتوة الذى كانت تتخذه الفروسية العربية الإسلامية معبّرا عنها ، وأعطوه شكلا جديدا ، وعُرف باسم " الأخيّات " (*) ، وكان فى أصله أشبه بالنقابات الاقتصادية ، ولقى ابن بطوطة خلال رحلاته فى آسيا الصغرى كل حفاوة وترحاب فى أحد خانات الأخية .

كان السلاجقة أتراكا اتخذوا الفارسية لغة لهم ، وبلغت فى أيامهم شأوا بعيدا واستفاضت شهرة شعرائها بعامة ، والمتصوفة من بينهم بخاصة ، فتأثر بها العثمانيون ، واتخذوا من الأدب الفارسى مثلا يحتذى ، وظلت الفارسية لغتهم الرسمية فى دواوينهم ومكاتباتهم إلى عهد مراد الأول (من ١٣٦٠م إلى ١٣٨٩م) ، وأخذ شعرهم عن الفرس أوزانه ومصطلحاته وعروضه ، والعروض الفارسى عربى فى أصله ، ومن ثم نجد عند الترك الأوزان العربية المألوفة إلى جانب الأوزان الفارسية الحديثة المبتكرة ، ثم استحدثوا أنماطا من النظم والوزن لاعهد للعرب أوالفرس بها .

* جمع أخى ، وهى كلمة تركية معناها أريحى أو نبيل .

وراء نشأة الشعر التركى رواد ثلاثة : جلال الدين الرومى ، وسلطان ولد ويونس إمره . أما أولهم وهو شاعر فارسى فقد نظم أبياتا بالتركية تعد باكورة هذا الشعر ، وكان الثانى ، وهو ابنه ينظم بالتركية إلي جانب الفارسية، ومنظومته " رباب نامه " أول محاولة جادة للنظم بالتركية العثمانية ، وأقدم أثر شعرى وصلنا فى هذه اللغة ، وفيها قلت الألفاظ العربية والفارسية فخفيت معانيها ، لأنه استخدم عوضا عنها ألفاظا تركية غريبة مهجورة بالقياس إلي لغة العصور التالية . وظهر ثالثهم ، يونس إمره (ت ٨٤٣ هـ) فى عصر نشأة الشعر التركى ، وكان أميا كما تقول كتب التراجم ، فقال الشعر منطلقا على سجيته ، وأعانه على ذلك طبع مداد ، وملكة أصلية ، وشعره فياض بالتعاليم الصوفية ، دون تكلف ، فجاء تأثيره على سواد الناس بالغا ، لوضوح معانيه ، وسهولة مراميه . وبهؤلاء الشعراء الثلاثة ظل شعراء الترك يتأثرون أجيالاً وراء أجيال .

● عصور الأدب التركى :

اختلف مؤرخو الأدب فى تقسيم الأدب التركى إلى عصور اختلافا بينا ، بعضهم قسم الشعراء طبقات : أوائل وأواسط وأواخر . أو عصرا أول وثانيا وحديثا ، أو قديما ووسيطا وحديثا ، ومن جعل من حياة كل شاعر عظيم عصرا فتعدّدت العصور بتعدد هؤلاء الشعراء حتى بلغت اثنى عشر عصرا . أو إلى :الدور الصوفى ، ودور السراى ، ودور الكمال ، ثم دور الفكر . وأخيرا هناك من جعلها ثلاثة : ما قبل الإسلام ، وما بعد الإسلام ، والحديث ، وأخبار الأول قليلة ، وتميز الثانى بالتأثير الإسلامى ، والثالث بتأثير الحضارة الغربية .

وجعلها هاختمان الألمانى أربعة عصور : عصر النشأة فى القرنين الرابع والخامس عشر الميلادى ، والعصر القديم فى القرن السادس عشر وتميز بالتأثير الفارسى ، وعصر التحول وشغل القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وعصر التأثر بالأدب الفرنسى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وهى تقسيمات - كما ترى - تسرف فى الإجمال أو التفصيل ، وقليلها يتوسط ، وربما كان هو الأفضل .

وسار العالم الجليل الدكتور حسين مجيب المصرى على أنه : عصر قديم وآخر حديث ، وأدب شعبى لايمكن تحديده بعصر ، لأنه لون من الأدب مستقل فى طابعه وظواهره ونشأته وآثرت تقسيمه وسرت عليه لدقته وبساطته .

● الأدب القديم :

وينقسم إلي دورين . الأول من عهد السلطان عثمان الأول ، ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩م، إلى عهد السلطان سليمان القانونى ، ٩٢٦ = ١٥٢٠ ، والثانى من عهد سليمان القانونى إلى عهد السلطان محمود الثانى ، ١٢٢٣ = ١٨٠٨م .

فى الدور الأول كانت الصوفية وراء نشأة الشعر التركى ، ولها يدين بوجوده وازدهاره ، فقد اتخذوه أداة تعبير لهم ، ووسيلة لنشر أفكارهم وإشاعة تعاليمهم، وازداد نفوذهم لأنهم ارتبطوا منذ البدء بالأسرة الحاكمة ، حين أصهر السلطان عثمان لأول إلى شيخ منهم وكان ذلك بداية ارتباط الصوفية بالبلاط العثمانى ، وهو ارتباط سوف يزداد مع الزمن وثوقا ، فلا غرابة أن يكون أول شاعر فى هذا العصر صوفيا ، وهو عاشق باشا (ت ٧٣٣= ١٣٣٢م) .

عاش عاشق ، وهو متخلصه ، فى مدينة قيرشهر بالأناضول ، عريض الجاه والثراء ، رفيع النسب عريق الحسب ، وخلع عليه السلطان لقب باشا، جلس إلى الدراويش ، وأخذ عن الصوفية ، وتعلم الفارسية والعربية ، وعُرف بالتواضع والزهد والعبادة ، وله منظومة تحمل اسم "غريب نامه " ، أى كتاب الغريب ، ويسميها حاجى خليفة " معارف نامه " ، وهناك من يسميها تجوزا " ديوان عاشق" ، وكتب مقدمة المجموعة بالفارسية ، وأورد فى الخاتمة ما دعاه إلى النظم بالتركية ، وأنه يتوجه به إلى بنى قومه الذين لايعرفون العربية ولا الفارسية ، واستشهد بقوله تعالى فى سورة إبراهيم :"وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه".

المنظومة من نمط المثنوى ، وجاءت فى بحر الرمل ، مثل مثنوى جلال الدين الرومى ، و " رباب نامه " لسلطان ولد ، ورتبها على عشرة أبواب ، كل باب عشرة فصول ، وفى مقدمة كل فصل عرض لفكرة الموضوع ، ثم تذييل على ذلك بالتفسير والتأويل ، ويستشهد بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، تتلوهما مختارات من كلام المتصوفة ، وكلها فى أحكام التصوف وفلسفته وأركانه . ومع ذلك يعوزها الجمال الشعرى ، وقيمتها علمية أكثر منها فنية ، لأنها مهلهلة النسيج ، شاحبة العبارة ،مضطربة اللغة ، لأن التركية لم تكن قد اكتملت فى ذلك العصر ، ولا جاوز الشعر دور النشأة ، فلم يسلس له قيادها .

ويجئ بعده سليمان جلبى من بروسه ، وكانت عاصمة الدولة حتى فتح القسطنطينية ، وليس لدينا من أخباره إلا القليل ، فهو شيخ صوفى ، عمل إماما لمسجد السلطان بايزيد ، ودخل تاريخ الأدب بمنظومته " مولد " أو "سبيليت النجات " ، وهى من المثنوى ، فى ست مئة بيت ، قالها فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أول شاعر – ربما – ينطلق على سجيته ، ويعبر عن عاطفة متقدة وحس مرهف ، فجاء شعره سهلا أنيقا رقيقا ، ولا تظهر النزعة الصوفية عنده إلا قليلا لتضفى شيئا من الروحانية والشاعرية على حبه للمصطفى .

وبعده نلتقى بشيخى (ت ٨٣٠ = ١٤٢٦م) ، ومعنى الكلمة شيخ الشعراء، وُلد وتُوفى فى كوتاهية ، ورحل إلى بروسة ، واشتغل بتحصيل العلوم ، غير أنه أراد الجديد والمزيد منها فاتجه إلى إيران ، هناك جالس شيوخ العلم ودارسهم ، ثم توفر على دراسة الطب وبرع فيه ، وتتلمذ فى التصوف رموزا وأسرارا على حاجى بايرام الأنقروى . واتصلت حياته بالأمير سليمان بن بايزيد الأول ، فأقبلت عليه الدنيا .

وحدث أن السلطان محمد كافأه على علاجه له من كآبة به ، فأقطعه ضيعة ظهر لها صاحب فيما بعد ، دافع عنها ، وقعد له بالمرصاد ، ونهب متاعبه ، وذبح رجاله ، وأفلت شيخى من المذبحة فنظم " خرنامه " ، أى كتاب الحمار ،

وفيها هجو مقذع لأعدائه ، وسخرية مريرة منهم ، ويقولون إنه احتشم أن يقدم كتابا بهذا الاسم إلى السلطان فزاد " دالا " فى عنوانه فأصبح " خرد نامه " أى كتاب الحكمة . ولو أن آخرين يرون زيادة الدال من وهم القراء أو جهل النساخ ، وأياً ما كان الأمر فان هذه المنظومة تعد بداية شعر الهجاء فى الأدب التركى .

يعتبر شيخى مجددا فى ترجمته قصة " خسرو وشيرين " ، وأمره السلطان مراد الأول بترجمتها ، فهو أول من نظم المثنوى فى بحر الهزج ، وكان شعراء الترك قبله ينظمونه فى بحر الرمل ، وهو البحر الذى نظم فيه نظامى الفارسى مثنويه ، وأدخل شيخى الغزليات فى الترجمة ، أجراها على لسان أبطال القصة ، كى يدفع السأم والملالة عن القارئ .

عاصر شيخى الشاعر أحمدى (ت ٨١٥ = ١٤١٣م) وكانت بينهما مودة ، فكلاهما من كوتاهية ، وهو الذى ترجم قصةالإسكندر لنظامى ، ورحل أحمدى فى صدر شبابه إلى القاهرة ، ودرس فيها ، ثم عاد إلى وطنه ، وعمل مؤدبا ، وتتلمذ على شيخى ، واغترف من بحره ، واشتهر بالظرف والكياسة والمنادمة . وله إلى جوار ترجمة قصة الإسكندر ديوان من الغزليات والقصائد ، ولكن شعره لم يكن أنيقا ولا طليا .

●●●

فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى كانت قبائل التركمان ، وموطنها بين أنقرة وأذربيجان ، فى حروب لا يخمد أوارها ، وتغير على ما جاورها من أقوام، ويتنازع شيوخها الرياسة ، وتبلورت الحال عن أربع قبائل كبرى ، أنشأت أربع دويلات صغيرة : قرة قويونلو فى أرض روم ، وآق قويونلو [١] فى ديار بكر ، وذو القدر فى مرعش ، وبنو رمضان فى أدرنه .

---

١ - قرة معناها سوداء ، وقويونلو أى شاة ، وآق معناها بيضاء .

بهذه الدويلات اتصلت أسباب القاضى برهان الدين (ت ٨٠٠ = ١٣٩٨م) من أرزنجان ، الذى رحل إلى حلب يطلب العلم ، وكانت تحت حكم المماليك ، وبعد أن درس الشريعة عاد إلى مسقط رأسه ، وعَين قاضيا ، ولم ينس نصيبه من الدنيا ، فارتبط مع أمير أذربيجان بأواصر الود ، وصاهره ، ثم وثب عليه وقتله وولى الإمارة بعده ، ودخل فى حروب مع جيرانه إلى أن شد عليه أحدهم فقتله .

القاضى برهان الدين غير عثمانى الأصل ، ولكنه شاعر مجيد فى التركية ، وشخصية غريبة على شعراء عصره ، فجلهم متصوفة ، وأما هو فمحب للحياة ، مفتون بمباهجها ، " يناضل ويساجل ، يطغى ويتعدى " ، يخدع ويناور ، والغاية عنده تبرر الوسيلة ، وهو أول شاعر خرج عن النغمة الصوفية التى أغرقت سابقيه، ولم يستطيعوا التحرر منها ، وأول من أيقظ أحلام الحب ، وأول ناظم للرباعيات ، وأول شاعر تركى غربى نقرأ له تنويعات ، وأول شاعر غنائى منهم ، وله شعر بالعربية والفارسية والتركية ، وتجاهله كثيرون من مؤرخى الأدب التركى ربما لأصوله غير العثمانية ، ولديوانه نسخة وحيدة فى العالم توجد فى المتحف البريطانى ، وعنها طبعه المستشرق الروسى مليورنسكى عام ١٨٩٥ .

●●●

يمثل اجتياح تيمور لنك للأناضول ، وأسر السلطان بايزيد فى موقعة أنقرة عام ٨٠٤ = ١٤٠٢م خطا فاصلا فى تاريخ الأدب التركى ، فقد بدأ الشعراء الأتراك بعده يقلدون شعراء الفرس ، لأن تيمور لنك أحب العلماء والشعراء واتخذ منهم حاشية لاتفارقه مقيما أو ظاعنا ، ولأن ندماءه من شعراء الفرس ، ثم لحق بهم شعراء الترك ، فقد تأثر هؤلاء بأولئكم ، وأول من عمد إلى تقليدهم من الترك الشاعر نيازى فأصبح مثالا احتذاه بنو جنسه إلى عصر النهضة الأدبية التركية ، وهو أول من أدخل " التخلص " على الشعر التركى ، وعَرف الكثيرون منهم به . وهناك من يرد التأثير الفارسى فى شعره إلى ما قبل غزو تيمور لنك .

ومن الشعراء الذين تأثروا بالفرس ، وظهر ذلك جليا فى شعرهم أحمد داعى (ت ٨١٥ = ١٤١٢م) ، وهو من كرميان ، وعاصر شيخى وأحمدى ، ورحل إلى مدينة أدرنه ، ويعده بعض مؤرخى الأدب أول شعراء القصور ، وكان يحذق العربية والفارسية ، وله منظومات فيهما ، وألف كتابا عن الفارسية والعربية أسماه " عقود الجواهر " ، وله ترجمة شعرية عن الفارسية لرسالة فى النحو ، من تأليف رفيع الدين الوطواط ، وألف كتابا فى أدب الرسائل يعد الأول من نوعه فى الأدب التركى .

وشهد العصر نفسه أسرة أدبية ، والدا وابنيه ، صلاح الدين الكاتب وولداه محمدا وأحمد ، وهم من أنقرة وعاش الأب فى عهد بايزيد الأول ، وكل ما لدينا من أخباره أنه كان واسع العلم بالفلك ، فنظم " شمسية" فى خمسة آلاف بيت ، وتسمى " الملهمة " أيضا . وبعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان فى ١٠٤٠ = ١٦٣٥م أعاد من يدعى جورى إنشاءها وصياغتها ، ويقول فى مقدمته إن الشيخ صلاح الدين ترجمها عن الفارسية ، ولا تسلم من مآخذ ، كما أنها مبهمة ومغلقة، وأنه أعاد نظمها نزولا على رغبة أحد أصحابه ، ولا نعرف شيئا عن جورى هذا .

أما ولداه محمد (ت ٨٥٥ = ١٤٥٢١م) وأحمد (ت ٨٥٧ = ١٤٥٣م) فجمعت بينهما أخوة العلم والأدب كما جمعتهما أخوة الدم والنسب ، وتلقيا أصول التصوف على حاجى بايرام ، وسكنا إحدى ضواحى استنبول ، واشتركا فى التأليف ، وكان محمد أشهر الاثنين ، ورحل إلى إيران مستزيدا من العلم ، ثم عاد إلى وطنه فاعتكف وتزهد ، وتوزع حياته العلمَ والدين والأدب .

خلف هذان الأخوان تراثا أدبيا يتألف من رسالة منظومة بعنوان " مغارب الزمان " نظمها محمد بالعربية ، وترجمها أحمد نثرا إلى التركية ، وسمّاها "أنوار العاشقين " وألف " الدر المكنون " ، كما نظم محمد " المحمدية " ، وهى فى ٩١٠٩ بيت ، فى بحور متعددة تبلغ السبعة ، وتتحدث عن خلق الكون ،

والبعثة المحمدية ، ونهاية العالم ، وخلق العرش والكرسى والجنة والنار ، وأن هذا الكون مخلوق من نور محمد ، وسار ذكرها واشتهرت بين الطبقات الشعبية على اختلافها ، وعادة تجتمع النساء فى مجالس لترتيلها ، ويرجعن أبياتها طربا وتنغيما طلبا للمثوبة والبركة .

●●●

واتسم هذا العصر بظاهرة جعلت البعض يطلق عليه عصر أدب السراى ، وتتمثل هذه الظاهرة فى ولع سلاطين آل عثمان وأمرائهم بقرض الشعر والأدب وأهله ، وشعرهم يتفاوت جودة ووفرة ، فمنهم صاحب الديوان ومنهم صاحب الأبيات المعدودة . وأولهم مراد الثانى (ت ٨٥٥ = ١٤٥١م) ، ورغم أنه كان مقلا ، أو أن ما وصلنا من شعره قليل ، فقد عُرف برعاية الأدب ، والإغداق على الشعراء ، ودعوتهم إلى مجلسه يومين من كل أسبوع ليقولوا ما عندهم ، يسمرون ويتحاورون والسلطان يجاذبهم القول ، ويشاركهم الحوار ، يستحسن أو يستهجن ، ويختار أو يطرح ، ويسد عوز المحتاجين منهم حتى يفرغوا من هموم العيش ، ويتوفروا على قول الشعر .

أنجب عصر مراد الثانى شعراء كثيرين ، وكتابا له عندهم شهرة مستفيضة ، يعرف باسم " حكايت قرق وزير " ، أى حكاية الوزراء الأربعين ، لمن يدعى شيخ زاده ، وضاعت أخباره وخفيت شخصيته ، فما نعرف عنه شيئا ، حتى قيل إنه مصرى لا تركى . والكتاب قصة غريبة بعنوان " أربعون صباح ومسا " ، يقال أن كاتبها مصرى أهداها إلى سلطان مصر ، ثم ترجمها عن العربية كاتب تركى مجهول ، ثمة رواية ترى أن شيخ زاده هذا كاتب تركى ترجم هذه القصة وقدمها إلى السلطان مراد ، ويعترف شيخ زاده فى المقدمة بأنه ترجم الكتاب عن العربية وأنه كان عاريا عن الزينة ، فأضاف إليه طرائف ولطائف وبدائع . وقد يكون هذا وسيلة لتقديم الكتاب دون أن يعنى أنه ترجمة حقا ، وربما كان الكتاب مجموعة حكايات هندية فارسية أقرب ما يكون إلى ألف ليلة وليلة ، صاغها العقل

الجمعي دون أن يَعرف لها مؤلف خاص ، ويذكر برنهاور وترجم الكتاب إلى الألمانية عام ١٨٥١م أن من يدعى أحمد المصرى نقله إلى التركية ، وترجمه جب إلى الإنجليزية عام ١٨٨٦م دون أن يهتدى إلى المؤلف أو المترجم ، أما بيلتيت Belletete الفرنسي فاختاره كتاب مطالعة لطلبة اللغة التركية من الفرنسيين ، وطُبع على نفقة حكومة نابليون عام ١٨١٢ ، وظل الكتاب الوحيد للمطالعة التركية فى أوروبا حتى أوائل هذا القرن ، وأصل الكتاب دُوّن عام ٨٥٠ = ١٤٤٦م .

●●●

كما رأينا بدأ الشعر التركى تعليما ، اتخذه الصوفية مركبا لأفكارهم ، وكان الشعراء فى هذه الفترة ينظمون فى لهجاتهم المحلية التى تغاير اللهجة العثمانية بعض المغايرة ، وبعد فتح القسطنطينية أصبحت هذه اللهجة هى الجارية على ألسن الشعراء ، وندر غيرها . وكان هذا الفتح بداية عصر اتسم بالاستقرار وارتقاء الحضارة ، ونهوض الأدب ، وكلها بلغت القمة فى عصر سليمان القانونى الذى استحق عن جدارة صفة العصر الذهبى ، وفيه خفت صوت الشعراء الفقهاء وأصبح الشعر يحتمل المعنى الرمزى والمعنى الحسى ، واتصلت أسباب أهل الأدب بالسلاطين ، فخرجوا عن عزلتهم ، وأقبلوا على الدنيا .

وكان محمد الثانى فاتح القسطنطينية ، والملقب بالفاتح شاعرا مجيدا ، راعيا فذا للنهضة الأدبية ، امتد حكمه ثلاثين عاما ، وشاد الكثير من دور العلم والعبادة ، وكان يجيد العربية ويداوم المطالعة فيها ، وجل مكتبته عربى ، وأغرم بمصاحبة الشعراء والعلماء ، واصطفى بعضهم وزراء له ، وأجرى الأرزاق على عدد منهم ، وأرسل مالا إلى الشاعر الهندى خراجه جهان ، والشاعر الفارسى جامى ، واستقدمهم إلى بلاطه ، يعدهم بالمناصب ، ويغريهم بالرواتب .

وكان له شعر رائق ، وهو أول سلطان ذكر " تخلصه " فى غزلياته فسمى نفسه " عونى " ، وترك ديوانا لطيفا صغير الحجم ، عثر عليه أخيرا ، وطبع فى اسطنبول عام ١٩٤٤ .

ومن شعراء محمد الفاتح وندمائه أحمد باشا (ت ٩٠٢ = ١٤٩٦م) ، من مدينة بروسه ، سليل أسرة شريفةتيتصل نسبها بالحسين عليه السلام ، وكان أبوه ولى الدين بن إلياس يشغل منصب قاضى عسكر فى زمن السلطان مراد الثانى . وبدأ أحمد حياته مدرسا فى المدرسة المرادية فى بروسه ، وتقلبت به الأحوال فأصبح قاضى أدرنه ، واشتهر بالعلم والأدب ، فاصطفاه محمد الفاتح مؤدبا ونديما ، ثم نقم منه أمرا يختلفون فيه فغضب عليه وهم بقتله ، وفى سجنه نظم قصيدته المعروفة بـ " الكرم " وأنفذها إلى السلطان فعفا عنه ، ولكن طرده من خدمته وأوكل إليه منصبا صغيرا فى مدينة بروسه .

يعد أحمد باشا أول الفحول من الشعراء الغنائيين العثمانيين ، وشعره قصائد وغزليات ، ويعكس فيهما تأثرا واضحا بالشعر الفارسى ، حتى عدّه بعضهم مجرد محاك له ، ولم يزد على أنه كسا عروس شعر الفرس ثوبا تركيا . والحق أنه كان متضلعا فى الفارسية ، كثير النظر فى آدابها ، ويستطيع النظم فيها ، وتأثر بغزليات على شيرنوائى الشاعر التركى الشرقى بخاصة ، وغزليات حافظ الشيرازى مباشرة ، أو عن طريق تأثر على به .

وكان سنان باشا (ت ٨٩١ = ١٤٨٦م) معاصرا لأحمد باشا . وهو من بيت فضل وعلم ونعمة، أبوه غزير المعرفة مرموق المكانة ، وأظهر سنان نبوغا مبكرا ، وميلاشديدا إلى الفلسفة والنظر المجرد ، واتخذ الشك مذهبا مما أوقع الجفوة بينه وبين والده ، وأعجب محمد الفاتح بعلمه وأدبه فاتخذه نديما ، وجعله مؤدبا له ، فعرف بخوجة باشا ، وولاه قضاء اسطنبول ، ثم رفعه إلى رتبة الوزارة ، وبعد عام غضب عليه فعزله وحبسه ، ثم تشفع له بعض العلماء فأطلق سراحه ، وأبعده عن العاصمة ، وألحقه بمنصب أدنى درجتومنزلة مما كان يشغل .

بعدها تصوف وزهد ، ولكن روح التأمل والشك لم تفارقه ، وهو كاتب بليغ ، ويعدونه رائد النثر فى الأدب التركى ، سلس الأسلوب ، قصير الجملة ، موفق فى اختيار اللفظ ، غير مفرط فى تزيين الكلام ، يتسم نثره بالشاعرية التى تكسبه

رونقا وطلاوة ، وإن عيب عليه عدم الربط بين الجمل ، والوثوب من معنى إلى آخر .

وله رسائل فى الشريعة والرياضيات ، وتذكرة الأولياء ، وكتاب التضرعات ، وشعره قليل وباهت ، لم يبلغ فيه شأوا يذكر ، فلم يتخذ له " مخلصا " كغيره من الشعراء ، ومن ثم فهو أدخل فى عداد الكتاب .

ويعد الأمير جم بن محمد الفاتح (ت ٩٠١ = ١٤٩٥م) أشعر أمراء آل عثمان ، وتميز عن معاصريه بالأصالة ، وعرف كيف يعبر عن داخله بصدق ، وقد درس معاصروه الشعر الفارسى ليعينهم على قول الشعر بالإغارة على معانيه ، ودرسه ليستكمل أدواته الفنية لاغير . وتعاور حياته النعيم والبؤس ، والعز والنفى ، والنصر والهزيمة ، فجاء شعره يعكس الجانبين معا ، ودوّنه مرتين ، الأولى أميرا فى قونية عاصمة السلاجقة القديمة حيث كان واليا على إقليم قرمان ، قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، والأخرى فى نيس لاجئا فى فرنسا ، بعد هزيمته من أخيه بايزيد . وله إلى جانب شعره التركى ديوان فارسى .

وكان حمدى (ت ٩١٤ = ١٥٠٨م) الابن الثانى عشر للشيخ آق شمس الدين ، الصوفى الذى اكتشف قبر أبى أيوب الأنصارى الصحابى الذى خرج فى حملة وجهها معاوية لفتح القسطنطينية عام ٤٨ هـ ، وبنى له مسجد لايزال معظما عند الترك ، شاعرا طويل النفس ، من شعراء القصص ، فنظم قصة " يوسف وزليخا " ، لأنه تصور ما كان بينه وبين إخوته وكراهيتهم له ، وحسدهم لمكانته عند أبيه ، وتمنيهم الشر له ، وتعتبر أوسع المثنويات التركية شهرة ، وأوسعها تداولا ، واعتمد فيها على منظومتين ، الأولى للفردوسى والأخرى لجامى . وقدم حمدى منظومته للسلطان بعد أن مدحه فى مقدمتها على جارى الشعراء فلم تنل تقديره ، فغضب الشاعر وحذف مديحه للسلطان ، وجردها من الأهداء . وجاء شعره فيها من السهل الممتنع ، فأعجب بها الجمهور ونفر منها القصر .

ونظم حمدى قصة " ليلى والمجنون " ، لم يهدها لأحد ، ولا ذكر سبب نظمها ، ولا يعرض لها مؤرخو الأدب التركى إلا لماما و وفى اقتضاب ، ربما لأن مثنوى يوسف وزليخا ، وفاق ليلى والمجنون روعة ، ألقى عليها ظلا من الإهمال ودفع بها إلى زاوية النسيان ، ومن المؤرخين من يرى أنها ترجمة لمنظومة نظامى .

وله من المنظومات " مولد نبى " ، ويختلف عن " مولد " سليمان جلبى ، فى أنه تضمن غزليات ، وهو مما لم تجر به عادة الشعراء على أيام الثانى . و "تحفة العشاق " ، وهى قصيرة نسبيا ، وطابعها السهولة والبساطة ، فحواها أن تاجرا عريض الثراء له ولد ، ولما بلغ العاشرة أطلع أباه على رغبته فى السياحة ليتجر ويربح ، فأقلق ذلك والديه ، وأحزنهما أنه لم ينتصح لهما ، فشاوروا وليا استخار ربه ، فلم ير بأسا أن يرحل إلى اسطنبول صحبة جماعة من عبيده ، فلما وافى المدينة علم بمقدمه أحد الوزراء فدعاه لزيارته ، وبذل له القرى ، وقصده أن يزوجه ابنته الحسناء ، وكان شرط على نفسه ألاّ يهديها إلاّ إلى شاب وسيم . وشاهد الصبى الفتاة وهو ثمل فخفق قلباهما ، فلما طلب يدها رغب إليه والدها فى أن يرتد عن الإسلام ويعبد الأصنام فقبل الصبى الشرط ، واحتفظ بمصحف بعد ارتداده ، واتفق يوما أن رأت زوجه المصحف فسألته عنه ، فثاب إلى رشده ، وحن إلى دينه ، وأناب إلى ربه ، وعاد إلى الإسلام ، كما أسلمت زوجه وحميه.

والقصة رمزية ، فالصبى فيها هو الروح الإنسانية التى تفارق موطنها الأصلى وترحل إلى الدنيا ، فتجد فيها من الشهوات والملذات ما يسدل الحجاب عليها ، غير أنها تهتدى بالقرآن أخيرا وتعود إلى موطنها .

ولحمدى رسالة بعنوان " قيافت نامه " ، أى كتاب الفراسة ، وهى من الشعر التعليمى ، وأقبل الناس عليها وتداولوها لطرافتها ، ولعلها أول منظومة فى بابها .

عاصر حمدى ، ورحل معه إلى الآخرة فى العام والشهر نفسه شاعر اسمه

التخليصى نجاتى ، وأما الأصلى فاختلف فيه المؤرخون ، هل نوح أم عيسى ، وهو فى الأصل من أسرى الحرب ، اتخذته سيدة فى أدرنة عبدا لها ، ثم قيض له من عنى به من الشعراء فأدبه وهذبه ، فقرأ وكتب ونال حظا من العلوم ، وتقلبت به الأحوال إلى أن عرف أحمد باشا فى بروسه ، فأخذ عنه واقتدى به ، وتجلت مواهبه فى نظم الشعر ، ثم اتصل بمحمد الفاتح فى أخريات حياته ، وأعجب به السلطان فبوأه منصبا فى الديوان . وأعجب بمرثيته فى ابنه عبد الله فمنحه لقب البكوية . ولكنه وقد فجع فى وفاة الأميرين اللذين صحبهما حاكمين على صاروخان، واحدا بعد الآخر ، عاد إلى العاصمة ، ورفض المناصب ، وانزوى فى داره إلى أن وافاه أجله .

يرى مؤرخو الأدب التركى أن نجاتى لم يسبقه من هو أشعر منه ، وكان مجددا لأنه جعل الفكرة من عمد الشعر ، والمعنى قبل اللفظ ، ويراه المستشرق الألمانى فون هامر أمير الشعر العثمانى ، وأنه احتفظ بهذه الإمارة خمسين عاما ، إلى أن انتهت بعده فى عهد سليمان القانونى إلى الشاعر باقى .

تأثر نجاتى بكثير من شعراء الترك ، فى طليعتهم الشاعرة مهرى خاتون (ولانعرف تاريخ وفاتها) ومهرى اسمها التخليصى ، أما الأصلى فهو " مهر وماه"[١] ، وهى إحدى الشواعر الكثيرات اللاتى يزدان بهن الأدب التركى . أصلا من أماسيه ، وابنة قاض من حملة العلم وأهل الفضل ، علمها وأدبها حتى نطقت بالشعر ، واسترعت انتباه معاصريها به ، وبسيرة تروق وتشوق ، ولا يعهدون مثلها عند غيرها من بنات زمنها ، أحبت وسلت ، وعبرت عن مشاعرها فى وضوح وصدق ، وكانت تغشى مجالس الأمير أحمد بن بايز حاكم أماسيه ، تسامر وتناظر ، وتجول مع المحدثين فى كل أدب وفن .

انطلقت فى شعرها على سجيتها ، تتحدث عن حبها ، وتذكر اسم من تحب ،

---

١ - معناه الشمس والقمر ، ومعنى مهر الحب أيضا .

على ندرة هذا في الشعر التركي ، وإن كنا نجد لها شبيها في الشعر العربي الأندلسي ، في شخص ولادة بنت المستكفي ، وحفصة الركونية وأخريات قليلات ، وأعجبت بنجاتي شيخ شعراء زمنها ، تنظم معارضات لغزلياته وتتقدها إليه، فيضيق بها ، وهذا الشعر التقليدي يمثل الجانب الأضعف في إبداعها ، وأما الجانب الآخر ، وهو الأقوى ، فيتمثل فيما نطقت به عن هواها ، وهو شاهد صدق على مشاعرها .

وشأن ولادة وحفصة تُوفيت ولم تتزوج ، لأنها ردت كل من طلب يدها بعد أن تحطم قلبها ، وخابت في غرامها ، وتركت ديوانا مرتبا هجائيا ، وبحوثا في الفقه والفرائض ورسائل منظومة .

وارتبطت زينب خاتون (ت ٨٨٦ = ١٤٨١م) ، وهي من أماسيه أيضا ، بمهري صحبة ومطارحات شعرية ، ولما شعر أبوها بأنها موهوبة علّمها العربية والفارسية فقرأت شعراء هما ، وكانت إلى جانب ذلك مولعة بالموسيقا ، وحضرت مجلس الأمير أحمد في أماسيه ، وتحاورت مع الشعراء والعلماء ، وقالت الشعر بالفارسية والتركية ، وجمعت شعرها في ديوان قدمته إلى السلطان محمد الفاتح. ولا يعرف من سيرتها إلاّ أنها كانت تعسة في زواجها ، فقد كان زوجها رجلا متزمتا ضيق الأفق ، حرم عليها أن تقول الشعر ، وحال بينها وبين مجالس الأمير، ولها غزل مشهور .

من شعراء الطليعة في هذه الفترة مسيحي (ت ٩١٨= ١٥١٢م) ، وهو ألباني الأصل ، جاء إلى اسطنبول في ريعان شبابه ، ودرس علوم الشريعة ، ومال إلى الخط فأجاده ، وبلغ فيه الغاية ، مما لفت إليه الوزير علي باشا ، وكان يرعى أهل العلم والفن ، وأسند إليه منصبا في ديوانه ، غير أنه كان خليعا ، قلما يرعى حق وظيفته ، يطلبه الباشا ليكتب فلا يجده ، فيرسل في البحث عنه والإتيان به من عند رفاق السوء ، أو ينتزعونه من بين كئوس الشراب ، فلما توفي علي باشا ساءت حال مسيحي لنضوب معين رزقه ، وبحث عمن يرعاه فلم يجد .

كان مسيحى شاعرا مجيدا ، واختار هذا " التخلص " ذهابا منه إلى أنه أحيا الشعر كما أحيا المسيح الموتى من قبل ، واتسم شعره فى الحقيقة بالمعانى البارعة، والقدرة على الابتكار ، والخيال الدقيق ، مما أبعده عن إدراك العامة وتذوقهم . وتغنى بالربيع ، وله مثنوى يسمى " شهر انكيز " ، أى منير المدينة ، كان فيه مبتدعا مجددا ، لم يحتذ مثالا فارسيا ، لأن الفرس لا يعرفون هذا اللون من الشعر ، وله منظومة أخرى تعتبر أول ما عرف الترك من الشعر الهزلى، تبسط فيها واطرح الوقار ، وموضوعها غلمان أدرنة ، وبلغت من السهولة حدا يشى بأنه قصد بها أن تكون فى مستوى العامة ، ولا تخلو من ظرف ، وقلده فيها كثيرون ترويحا عن النفس ، وتزيجية للفراغ ، حتى عند من اتصفوا بالتزمت والوقار .

واشتغل مسيحى بالتأليف ، وله مجموعة من الرسائل " كل صد برك " ، تتضمن مئة نموذج منها ، عكف عليها الكتاب والمترسلون ، ففيها تقعيد للإنشاء والترسل ، وتبويب للأساليب وأفانين النثر ، وتعريف بألقاب الناس على اختلاف درجاتهم ، وتبصرة بما يساق إليهم من ألفاظ وجمل .

لن نقف هنا طويلا عند السلطان سليم الأول ، رغم شعره وشغفه بالعلم ، وتقديره للشعراء ، لأن ديوانه كان بالفارسية ، والقليل من الشعر التركى الذى ينسب إليه يراه النقاد منتحلا ، نسبه إليه العوام .

ونلتقى فى عصره بالكاتب والشاعر كمال باشازاده (ت ٩٤١ = ١٥٢٤م) ، وزاده تعنى " ابن " ، ولهذا عُرف فى العربية بابن كمال باشا أيضا ، وهو أيضا عالم وفقيه وكاتب . وينحدر من أسرة عسكرية ، وانخرط هو نفسه فى الجندية شابا وذات يوم شهد حفلا ورأى كيف يجل الناس شخصا متواضع الهيئة لعلمه ، فأحب أن يكون مثله ليبلغ هذه الدرجة العليا من التقدير ، فهجر الجندية ، وأقبل على طلب العلم ، ورسخت قدمه فيه ، فدرّس ، ثم ولى القضاء فى أدرنه ، وأصبح قاضى عسكر فى الأناضول ، وذاعت شهرته بين مواطنيه .

يسرف المؤرخون الأتراك فى أضفاء الألقاب عليه ، فهو سلطان المتأخرين ، وخاتمة المجتهدين ، وشمس الملة والدين ، ووارث علوم الأنبياء والمرسلين ، علامة الخافقين ، ومفتى الثقلين ، مجمع العلوم ، ومفخرة علماء بلاد الروم ، وقد ألف بالعربية والفارسية والتركية ، وقيل إن تآليفه بلغت الثلاث مئة ، ويدين بشهرته إلى ما كتب فى العربية ، وله بالفارسية " نكارستان " ، أى المتحف ، احتذى فيه الشاعر الفارسى سعدى فى " كَلستان " ، وله بالتركية " دقائق الحقائق " ، وهو رسالة فى فقه اللغة الفارسية ، وتاريخ آل عثمان ، كتبه بأمر من السلطان بايزيد ، ليكون إلى جانب ما كتبه إدريس بالفارسية .

وقد صحب كمال باشا زاده السلطان سليم الأول فى حملته على مصر ، وهو فى الطريق إليها ترجم بأمر السلطان كتاب " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة " لابن تغرى بردى ، ليكون السلطان على علم بتاريخ مصر وأخبار ملوكها . وله مثنوى " يوسف وزليخا " قلل فيه من استخدام الألفاظ العربية والفارسية ما وجد إلى ذلك سبيلا من مرادف تركى ، وكان ذلك خروجا على المألوف فى أيامه ، وله كذلك ديوان غزليات . ويرون مرثيته فى السلطان سليم من أروع أشعاره ، والحق أنها شعر مناسبات ، عَنى فيها بتعداد مآثر السلطان ، وما أنجز فى حياته ، أكثر مما عنى بالحديث عن الموت وما يثير فى النفوس من عظة واعتبار .

وقد عيّنه السلطان سليمان القانونى شيخا للإسلام ، وأمضى فى منصبه هذا الأعوام الثمانية الأخيرة من عمره ، وكان إلى جانب علمه وفضله مرحا حلو الدعابة .

وتجرنا هذه الصفة الأخيرة إلى الحديث عن كتاب لم أر أحدا عرض له نفيا أو إثباتا أو تحليلا ، وهو فى الجنس ، باللغة العربية ، واسمه " كتاب الباه فى رجوع الشيخ إلى صباه " تأليف ابن كمال باشا (هكذا قرأت على غلافه وفى مقدمته) ، وهو فى جزئين ، ويتناول أدق العلاقات التى تكون بين المرأة والرجل

ويسمى الأشياء بمسمياتها الحقيقية دون احتشام أو حياء أو خجل ، ومحظور طبعه فى معظم البلاد العربية ، ولو أن ذلك لم يحل دون نشره وقراءته. وقد قرأته شابا ، ومنذ سنوات حصلت على نسخة منه فى بيروت لمستشرق إسبانى كان مهتما به ، لأن الكتاب فيما يزعم كان وراء موجة من المجون اجتاحت الأدب الإسبانى أولا ، ثم الأوروبى من بعد ، وفى رحلاتى الأخيرة إلى المغرب رأيته يباع على أبواب المساجد فى الحى الشعبى فى الرباط ، إلى جوار كتب الأوردة والأذكار والأدعية . والظاهرة ليست فريدة فيما أرى ، فهناك مخطوطة فى دار الكتب تنسب لجلال الدين السيوطى ، وسبق ابن كمال باشا تاريخا ، تعرض لهذه القضية ، وباللغة نفسها ، وإن جاءت فى أساليب مختلفة الإثارة .

كان كمال باشا زاده خاتمة الدور الأول من العصر التركى القديم .

●●●

يبدأ الدور الثانى من العصر التركى القديم بالسلطان سليمان القانونى ، مع مراعاة أن تحديد العصور بدءا ونهاية فى عالم الأدب ليس حاسما ولا قاطعا ، وإنما هى اعتبارات ذهنية خالصة تعتمد على الترجيح فحسب ، وهناك دائما بين العصرين مساحة انتقالية تلتقى فيها المؤثرات والتيارات وتتفاعل وتتصارع ، إلى أن تتحقق الغلبة الكاملة لاتجاه ما فيبدأ عصر جديد .

يعرف سليمان القانونى بالعصر الذهبى فى التاريخ التركى ، لا بحروبه ورخائه فحسب ، وإنما بدور السلطان فى الحياة الأدبية ، فقد كان أديبا شاعرا محبا لأهل العلم والفكر ،ورائد نهضة أدبية علمية واسعة ، ومع أيامه بدأ شعراء الترك يقفون على قدم المساواة مع أندادهم من شعراء الفرس المجيدين . وتجلى جديد العصر فى العناية بأسلوب الشعر ، فجزل لفظه ، وأشرقت ديباجته ، وأخذت المنظومات التاريخية قدرا أكبر من الدعاية ، ولما يعالجها الشعراء الترك من قبل إلا لماما . وأنشأ سليمان منصبا رسميا يشغله شاعر ، عُرف باسم " شاهنامجى " نسبة إلى الشاهنامة ، ووظيفته أن ينظم الحوادث التاريخية المتصلة بالترك ،

إلى جانب الشعراء غير الرسميين الذين كانوا ينظمون تاريخ العثمانيين ، ويسمون منظوماتهم شاهنامه ، أو يتحدث الواجد منهم عن سلطان بعينه ويسمي منظومة باسم من قيلت فيه ، كلاهما - الرسمي وغير الرسمي - لم يكونوا من فحول الشعراء ، ويعوز نظمهم رقة الشعر وجماله ، وفيما بعد عفا هذا النظام ، وامحى معه كل ذكر لهؤلاء الشعراء. .

وفي هذا العصر بلغ شعراء القصص حدا من الإجادة لا مزيد عليه ، وظهرت طائفة من الشعراء وقفوا جهدهم على الترجمة لزملائهم و يسردون سيرهم ، ويوردون نماذج من شعرهم ، في كتب حملت اسم " التذكرة " ، وأول هؤلاء سهى بك (ت ٩٥٥ = ١٥٤٨م) ، وله ديوان شعر ، و" هشت بهشت " ، بمعنى ثماني جنات في الفارسية ، وترجم في تذكرته لشعراء العثمانيين منذ نشأة الدولة إلى أيامه . ومثله في كتابة التذكرة لطيفي (ت ٩٥٣ = ١٥٤٦م) وعاشق جلبي (ت ٩٧٦ = ١٥٨٦م) ، وكان شاعرا فقيها ، وله ديوان مؤلفات ، وتذكرته أوسع من سابقيه وأكثر تفصيلا ، وبخاصة عن الشعراء الذين عاصروه وتوثقت صلته بهم ، وله قصيدة جميلة في نهر الدانوب .

ورابع شعراء التذكرة أحمد عهدي ، أحد ثلاثة من شعراء الترك عُرفوا بعهدي عاش في بغداد ، ورحل إلى اسطنبول وأقام فيها سنوات حذق خلالها التركية ، وتعرف إلى كثير من الشعراء ، ثم عاد إلى بغداد ، وفيها ألف تذكرته " كلبن شعرا " ، أي روضة الشعر ، ولم يتحدث فيها إلاّ عن معاصريه .

وهذا اللون من التأليف بفتح الباب واسعا للمقارنة بينه وبين نظائره في الفارسية ، وكتب طبقات الشعراء في الأدب العربي .

كان السلطان سليمان القانوني (ت ٩٧٤ = ١٥٦٦م) نفسه شاعرا ، وله ديوان شعر ، ويتميز عن معاصريه بوضوح المعنى ، وقلة العناية بالزخارف اللفظية ، وفيه يبدو هادئا رقيقا ، والفرق جلي بين الرخاوة والأسى في شعره ، والقوة في شعر أبيه . وكان إلى ذلك حريصا على رعاية الشعراء ، يدعوهم إلى

مجلسه ، ويطلب منهم أن يعارضوا غزلياته ، كما يعارض هو غزلياتهم ، وأورث بنيه حب العلم والأدب فكان خمسة منهم يقولون الشعر .

ونأتي إلى شاعر اختلف المؤرخون في أمره ، أهملته الأغلبية ، وذكرته قلة ، وخصه فون هامر بصفحات في كتابه " تاريخ الشعر العثماني " وهو لامعي (ت٩٢٨ = ١٥٣١م) ، ويعرف بمحمود بن عثمان النقاش ، من بروسه وأصبح من أتباع الطريقة النقشبندية ، ومن أكثر المؤلفين إنتاجا ، وبلغت مؤلفاته أربعا وعشرين ، وشبه بالشاعر الفارسي جامي ، فقيل عنه جامي الروم ، على طريقة الأندلسيين بشعرائهم ، حين كانوا يلقبونهم بأسماء كبار الشعراء في المشرق العربي ، حين يلتقون معهم في منحى من الأنحاء .

يقول عنه لطيفي في تذكرته إنه صاحب ديوان ، ومدوناته لا تدخل تحت حصر ولم يكن يتوخى الإجادة في الشعر كما ينبغي ، وأدت به العجلة إلى عدم الدقة، رغم أنه متعدد النواحي ، متصرف في الفنون ، ومنظومه ومنثوره يفتقد الروح ، وجله مأخوذ من عباقرة الأقدمين ، غير أن المستشرق الإنجليزي جب يراه نابغة في الشعر ، وأنه يطاول شعر باقي في الجمال والأصالة ، ويفوقه في الكثرة والغزارة.

وكان لامعي يعرف العربية والفارسية ، وترجم عن الأولى الرسالة الحادية والعشرين من رسائل إخوان الصفاء ، بعنوان " شرف الإنسان " ، ومحورها فضل الإنسان على سائر المخلوقات ، وهي من أكثر مؤلفاته ذيوعا وأوسعها شهرة ، وفي ترجمته لا يأخذ نفسه بالتزام حرفية النص . وترجم عن الفارسية " نفحات الأنس من حضرات القدس " لجامي ، وهو في تراجم الأولياء والعارفين والصالحين .وفي نثره المترجم واضح العبارة ، سهل الأسلوب ، يستعمل المحسنات اللفظية بمقدار ، وفي مجال النظم ترجم قصة " ويس ورامين " ، وقصة " سالمان وأبسال " الصوفية الجميلة .

وله منظومة في مقتل الحسين ، صور فيها تلك المأساة الحزينة التي هزت قلوب المسلمين جميعا ، والشيعة بخاصة ، وشك جب في أصالتها دون أن يقدم

برهانا ، ولأن شعراء كثيرين من الفرس تناولوا هذا الموضوع فليس من السهل تحديد الشاعر الفارسي الذي احتذاه لامعي .

ووصف لامعي مدينة بروسه وضواحيها في منظومته " شهر انكيز بروسه " ، وإنكيز تعني في الفارسية " مثير المدينة " ، وهو اسم يطلق على تلك المنظومات التي يصف فيها شاعر مدينة من المدن بما فيها من عمائر ورياض ونساء حسان ، واعتبرها فون هامر من أحسن ما نظم في هذا الفن وترجمها إلى الألمانية .

وله مناظرة الربيع والشتاء ، أو الربيع والخريف ، وهي مزيج من الشعر والنثر ، يصور فيها الشاعر الفصول تتحارب وتتنازع ، ومثلها عرفه الشعر العربي ، والأندلسي منه بخاصة ، بين ألوان الزهور ، وعرفه الفرس عن الورود أيضا . ويحتوي ديوان شعره عشرة آلاف بيت فيما يقال ، ولا يعرف له أحد مقرا لامخطوطا ولامطبوعا بطبيعة الحال .

ويعد ذاتي (ت ٩٥٣ = ١٥٤٦م) شاعرا متميزا مكثارا ، ولد لأب رقيق الحال يحترف صناعة الأحذية ، أخذ عن أبيه حرفته ، وما لبث أن مال إلى الأدب وقرض الشعر على ضآلة حظه من المعرفة ، فأنفذه أبوه إلى اسطنبول ، وكان السلطان بايزيد على عرش آل عثمان ، فمدحه ذاتي ، حتى أزلف إليه ، وانعقدت الألفة بينه وبين علية القوم ، غير أن عيشه بقي ضيقا ، فاتخذ صناعة تدر عليه رزقا ، واختار أن يكون منجما ، وقبع في دكان صغير بفناء مسجد بايزيد ليباشر حرفته ، ويجني قوت يومه ، فأصبح دكانه ملتقى أهل الشعر والأدب ، وتزاحم عليه الشداة يعرضون بواكير أشعارهم ، ويستطلعون رأيه فيها ويفيدون من تصحيحه وتنقيحه ، ويبدو أنه كان ينتحل ما يروقه منها ويثبته في ديوانه .

ومع تقدم العمر نحل جسمه ، وضعف سمعه ، وشح رزقه ، وساءت حاله ، فقضى بقية عمره يشكو الخصاصة والبلاء ، وترك هذا أثرا واضحا في شعره فتكسب به ، ومع أنه لم يتتلمذ على معلم جاء شعره حافلا بالمعاني ، وليد عبقرية فطرية .

ثم يجئ فضولى (ت ٩٦٣ = ١٥٥٦م) ، وكان أمة وحده ، فهو أشهر وأعظم شاعر فى الأدب التركى القديم ، وينتسب فى عشيرة تركمانية ، وفى رواية أنه كردى ، ومسقط رأسه كربلاء ، أو الحلة ، وقيل بغداد . وعلى أية حال أمضى عمره فى بغداد ، وعرف بفضولى البغدادى ، وباعد ذلك بينه وبين أن يكون تركيا عثمانيا ، فلهجته آذرية ، وهى التى يتكلمها أتراك أذربيجان فى شمال غرب إيران ، وتفترق قليلا عن اللهجة العثمانية ، وقد توقع فى مقدمة ديوانه أن تقع ألفاظه وتراكيبه موقع الغرابة من بلغاء الروم وفصحاء التتار فطلب المعذرة .

ويحدثنا فى مقدمة ديوانه الفارسى أنه اختار مخلّصه غريبا لايروق أحدا رجاء ألاّ يَسلب منه ، فتسمى فضولى . ومع أن معاصريه لم يوفوه حقه انعقد إجماع النقاد المحدثين الأتراك على أنه أعذب شعرائهم نبْرة ، وأصدقهم تعبيرا ، وهو الشاعر التركى الأوحد الذى استمع إلى خفقات قلبه ، فترنم بهمومه وآلامه ، ولم يقلد شاعرا قبله ، ولم يسلك طريق غيره .

كانت قصة " ليلى والمجنون " آخر ما نظم ، وتوفى بعدها بقليل ، وجاءت فى ٣٤٠٠ بيت ، وضمنها كثيرا من غزلياته يوردها على لسان شخوصها ، فأضفى عليها لونا غنائيا جميلا ، وخرج بها عن رتابة السرد القصصى . وله منظومتان أخريان : " ساقى نامه " ، و " بنك وبادة " بمعنى البنج والخمر ، والأولى بالفارسية ، والثانية ، وهى صغيرة فى ٤٤٠ بيتا ، مناظرة شعرية بين أنواع من المخدرات وألوان من الشراب ، تتعادى وتتحارب ، ونظمها فى مطلع حياته ، وقدمها إلى الشاه إسماعيل الصفوى حين كانت بغداد تتبعه ، ودلالتها الاجتماعية أكثر من قيمتها الفنية ، ويقول ناظمها إن البنج والخمر فيها جاءا إيماءًورمزا ، أراد بالأول السلطان بايزيد الثانى ، وأراد بالثانى الشاه إسماعيل .

وله " حديقة السعداء " ، وهو ترجمة حرة عن الفارسية لكتاب " روضة الشهداء " ، الذى ألفه حسين واعظ الكاشفى ، وصوّر فيه استشهاد الحسين

وغيره من الأئمة تصويرا عاطفيا ، فى نثر فنى مرصع بأبيات من الشعر . وحين أجرى عليه السلطان سليمان راتبا توجه إلى إدارة الأوقاف ليتسلم وظيفته فسخر منه القائمون بالأمر ، فأغضبه ذلك، وكتب رسالة إلى متولى الأوقاف يتظلم ويشكو ، وهى معروفة باسم " شكايت نامه " ، ونالت الرسالة شهرة فى أدب الترك ، ويرونها أجود نماذج النثر الفنى فى العصر القديم ، وهى بالتركية العثمانية ، وأضفى عليها تهكم فضولى المرير بالموظفين طرافة وجدة .

وكان يحيى بك (ت ٩٩٠ = ١٥٨٢م) شاعرا تركيا ، ألبانى الأصل ، اختطفه جند الترك ليصبح جنديا إنكشاريا ، فأخذ نفسه بالتعليم ، واتصل بأدباء عصره ، فأصبح شاعرا مرموق المكانة ، وترقى فى الجيش أيضا ، وأكسبته الجندية بأسا ومراسا وصراحة ، وحين قتل سليمان القانونى ابنه مصطفى رثاه يحيى ، وشاعت مرثيته ، واشتهرت فى الأدب التركى ، وحاول البعض أن يوقع بينه وبين السلطان بسببها ، ولكنه بذكائه أفلت من الوقيعة .

كان يحيى بك على نقيض معاصريه ، داعية أدب تركى أصيل ، يستلهم الروح التركى ، ويتحرر من التبعية الفارسية ، ونظم " يوسف وزليخا " ، و"شاه وكدا " ، أى الملك والشحاذ ، وهذه أشهر منظوماته ، وله كتاب الأصول ، وهو مجموعة من الأقاصيص المنظومة ، ذات مغزى أخلاقى .

أما أعلى الشعراء قدرا فى عهد سليمان القانونى فهو باقى (ت ١٠٠٨ = ١٦٠٠م) ، وكان أبوه مؤذنا فى جامع الفاتح ، يعيش كفافا ، فأرسل ولده ليتعلم حرفة يتعيش منها ، واختار له السراجة ، ولكن الابن آنس فى نفسه ميلا إلى العلم والأدب فمضى على سجيته ، وأصاب من المعارف ما شاء ، وتردد على حانوت الشاعر ذاتى حيث يلتقى الشادون بالأدب ، وحين ثبتت مكانته عيّن قاضيا لمكة ، ثم اسطنبول من بعد ، وقاضى عسكر الأناضول ، والروم إيلى ، وحين بلغت سنه السبعين اعتزل الوظائف . وشأن كل ذى نعمة عاش محسّدا ، ودسوا عليه عند السلطان مراد الثالث ، واتهموه فى دينه ، ولكنه أفلت من هذه الدسائس .

يختلف النقاد فى شأنه ، تبعا للفترة التى يرونه من خلالها ، شابا يدرج فى دنيا الشعر ويتعثر ، أو متمكنا يطرب ويعجب ، ولكنهم يعترفون له بقدرته على التصرف فى اللغة التركية ، وسلاسة أسلوبه ، ورنين عبارته ، وأنه أول من أدخل لهجة اسطنبول فى الأدب التركى . ولم يولع بالتصوف ، ولا وحدة الوجود ، ولا الانجذابيات الدينية ، وخلا ديوانه من الموضوعات الدينية التى لا نعدمها فى ديوان أى شاعر تركى .

ويتألف ديوانه من قصائد فى مدح السلاطين والوزراء ، ومرثيتين ، واعتبر فون هامر مرثيته فى السلطان سليمان أجمل مرثية فى الشعر التركى ، ويقول جب لو كان شعر باقى فى مستواه لعد من أعظم شعراء العالم . والحق أنه شاعر ذواقة ، وفنان متمكن ، اهتم أكثر بالصورة والشكل ، فجره ذلك إلى التلاعب بالألفاظ على عادة الشعراء فى زمانه .

●●●

كانت وفاة باقى فاتحة عصر امتد قرنا من الزمان ، وتميز بسيادة الأدب الفارسى فيه ، قبله كان شعراء الترك يشكلون المادة التركية بالطريقة الفارسية ، وفى هذا العصر أصبحوا يتباهون بثقافتهم الفارسية العالية ، وأشبعوا لغتهم بكثير من الألفاظ الفارسية ، فرقت حواشيها ، ولم يكن ذلك خيرا محضا ، فقد استبهمت التركية الشعرية على عقول العامة ، ولم يكن يفهمها غير الخاصة فكأن الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون لأنفسهم ، وظهرت فى أعمالهم النزعة الدينية واضحة أكثر مما كانت عليه من قبل .

من الشعراء الذين ينسبون إلى هذا العصر لأنه توفى فيه روحى البغدادى (ت١٠١٤ = ١٦٠٥م) ، ولد فى بغداد لأب تركى عثمانى رحل إلى هناك صحبة الوالى الذى عينه سليمان القانونى ، وأظهر شابا ولوعه بالأدب والشعر ، ثم اندمج مع الصوفية ، وفنى فى مذهبهم ، وساح حتى بلغ اسطنبول ، واتجه إلى قونية لزيارة قبر جلال الدين الرومى ، ثم حج ، وتوفى فى دمشق أثناء عودته .

لم تؤثر البيئة البغدادية فى لغة روحى ، فنظم باللهجة العثمانية ، ويبدو من شعره أنه أمضى حياته لاتشغله هموم العيش ، قانعا من دنياه بالقليل ، يتقبل الحياة كما هى لاكما يتمنى ، فولّد هذا الاستسلام اليائس التشاؤم والسخرية ، وتردد هذا في شعره كثيرا ، فدعا إلى الزهد ، ولام كل من أناط أملا بتملك الحياة .

لا يغوص فى شعره على الألفاظ البراقة ، ويورد الكلمات كيفما اتفقت ، ويعتبر " تركيب بند " خير ما قال ، وأعجب به الشعراء الترك وقلدوه ، ويحوى ١٣٧ بيتا ، تموج بمعان جديدة ، غير مستعارة ولا مكرورة . وفى كلياته مدائح كثيرة قالها فى العظماء ، فاترة إذا قيست ببقية شعره ، لأن روحه الساخرة أضعفت رغبته فى المديح . ولم يبلغ فى فى غزلياته ما بلغه باقى . وله رسائل مبتكرة يحن فيها إلى بغداد ، ويذكر خلاّنه بأسمائهم ، كل واحد فى بيت من الشعر ، فجاءت سجلا يهدى إلى جمع من صفوة القوم فى بغداد فى ذلك الزمان.

وبعده يجئ خاقانى (ت ١٠١٥ هـ = ١٦٠٧م) ونالت منظومته فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام من القداسة ما كان لشعر سليمان جلبى صاحب " مولد النبى " ، وتسمى " منظومة خاقانى " ، أو الحلية النبوية ، وهى فى مجملها تعقيب وتعليق على كل ما عرف من أوصاف النبى ، وتفصل بين أقسامها عناوين بالعربية ، وتتخللها آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، ورغم تواضع قيمتها الفنية ، فان سهولة ألفاظها ، وتبرك الأتراك بها ، جعلها تروج بين مختلف الطبقات ، وأضفت على الشعر شهرة واسعة .

ويجمع مؤرخو الأدب التركى على أن نفعى (ت ١٠٤١ = ١٦٣٢م) كان عبقريا ، خبيث اللسان ، معجزة فطرية ، فى طليعة المجيدين ، وأشعر من قال قصيدة ، وجاء شعره سويا محكم النسيج ، مدح السلطان وكبار رجال عصره ، وجره المديح إلى المبالغة أحيانا . ووصف الخيل فأجاد ، وجعل الحديث عن كرائمها مقدمة لبعض قصائده ، وحين ينصرف عن شعر المناسبات ، يدق معنى ، ويرق لفظا ، فيكون لنا معه ما يسمى بالسهل الممتنع .

وشُهر بالهجاء وذكر المثالب وطعن الأعراض ، فهو خطيئة الترك ، ولم يفلت من هجائه شريف ولا وضيع . ومن يدافعون عنه يرون أنه هجا بعض عظماء زمانه لما ساءه من أفعالهم وأقوالهم ، وما أصاب الشعراء منه فمن قبيل المداعبة وضمن مجموعته " سهام القضاء " شعره فى الهجاء . ويقال إن السلطان استتابه وأغلظ عليه الأيمان ألا يهجو أحدا ، وما لبث أن هجا الصدر الأعظم ، فغضب عليه السلطان مراد الرابع ، وكان شاعرا مثله ، وأمر بقتله فأعدم فى مخزن أخشاب ، واستنكر المؤرخون قتله ، وقالوا إن السلطان كان ينفس عليه شاعريته ، فأوعز إليه أن يهجو الصدر الأعظم ، فلما فعلها انتهز الفرصة وتخلص منه .

كان نفعى رأس مدرسة أدبية ، تتقلب فى المعانى الفارسية ، وتحتفل بالألفاظ والتراكيب الفارسية ، فشعرها أقرب إلى الشعر الفارسى ، وعاصرتها مدرسة أخرى تقف فى الجانب المقابل لها ، على رأسها شيخ الإسلام يحيى أفندى ، أدنى إلى الواقعية منها إلى الخيال ، تصف ما ترى ولا تردد ما تسمع فحسب ، ولم يقدر للمدرسة الأولى أن تبقى طويلا ، على حين واصلت الأخرى سيرها ، فهى مدرسة الفطرة والواقع ، وامتدت بها الأيام حتى عصر التحول فى الشعر التركى .

رأس هذه المدرسة الأخيرة يحيى أفندى (ت ١٠٥٣ = ١٦٤٣م)، درس علوم الشرع والأدب ، وانخرط فى سلك العلماء فأصبح قاضى عسكر الروم إيلى ، وبلغ رتبة شيخ الإسلام ، وشغله عشرين عاما ، وعظمت منزلته عند مراد الرابع ، يصطحبه فى حروبه ليأنس به ، ويعمل بمشورته ، وكان إلى رقة طبعه صليبا فى الحق ، لا يجامل ولا يصانع .

يعنينا هنا يحيى أفندى الشاعر . كان رقيقا فى غزله ، جريئا فى التعبير عن مشاعره ، جاء بصورة صوفية رمزية يغضب المؤمنين معناها القريب ، بريئا من الإسفاف ، لا يقلّد غيره ، ولم يسلم من التراكيب القديمة والضرورات الشعرية . وأصابه بعض الهوان فى أواخر حياته ، حين سيطر على السلطان إبراهيم الأول

ساحر دجال ، ومشى بالنميمة بين السلطان وشيخ الرسلام ، فأضناه مر الأسى ، واعتل ومات فى الثالثة والتسعين من عمره .

ولم يكن فهيم (ت ١٠٥٤ = ١٦٤٥م) الشاعر صاحب حرفة فتكسب بشعره ، وفد إلى مصر مع واليها أيوب باشا ، ولم تذكر مصر فى شعر تركى -لاقبله ولا من بعد - كما ذكرت فى شعره ، مع أن كثيرين منهم وفدوا إليها قبل الفتح العثمانى وبعده ، لاترد عندهم إلا عابرا ، وقلما يتجاوزون الإشارة إلى العبارة . أما فهيم فمدح أيوب باشا بقصيدة طويلة كانت مقدمتها فى وصف نهر النيل ، فياضا وأثرا وحسانا يترددن عليه . وما إن يفى الممدوح حقه حتى يعود فى القصيدة نفسها إلى الحديث ثانية عن النيل ، واصفا الاحتفال بوفائه .

وحدثت جفوة بين الشاعر والوالى لايذكر لها المؤرخون سببا ، فأصاب الشاعر بؤس ونحس ، وسخط على مصر وأهلها ، وعبّر عن غضبه فى قصيدة عالية فنيا تذكرنا بقصيدة المتنبى فى كافور . ولم يصدق ظنه السئ فى مصر ، وحين عقدة النية على الرحيل إلى وطنه أعوزه المال ، فاحتضنه سمح كريم يقال له معالى بك، سخا الشاعر فى مدحه فأجزل معالى صلته ، وألحقه بالقافلة التى تحمل الخراج من مصر إلى اسطنبول فى كل عام . وعندما بلغ وطنه أصيب بالطاعون فى إحدى مدن الأناضول ، ومات فيها . وله ديوان شعر تملك مكتبة جامعة القاهرة مخطوطة منه .

وتمتع نابى (١١٢٤ = ١٧١٢) بمكانة مرموقة ، وكانوا يضربون به المثل فى البلاغة والفصاحة ، وتصرف فى فنون الشعر ، وله ديوان كبير ، وتمرس فى كثير من أنواع الأدب ، فله فى النثر رسائل وتاريخ ورحلة وسيرة ، ويعدونه آخر الشعراء الترك المتأثرين بالشعر الفارسى .

ولد نابى فى الرها ، وقدم اسطنبول زمن محمد الرابع ،وانعقد الود بينه وبين القائد مصطفى باشا فلزمه واختص به ، ورافقه فى حرب المورة ، وبعد موت القائد حج ، وفى عودته استقر فى حلب ، وأكرمه واليها بلطجى محمد باشا ، ثم

صحبه معه حين انتقل إلى عاصمة الخلافة رئيسا للوزراء .

اختلف النقاد حول نابى شاعرا ، فوصفه بعضهم بجمود الحس وبلادة الشعور ، والتكلف والتعقيد ، وقال آخرون إنه تميز بالفكر الخصيب ، وأجاد فى الشعر التعليمى ، وهو صاحب " خيرية " نسبة إلى ولده أبى الخير ، ويتفقون على أنها أروع ما قرض من شعر ، فهى مرآة صافية تظهر عادات القوم وأخلاقهم فى القرن السابع عشر ، نظمها أيام إقامته فى حلب ، وأهداها إلى ولده ولماّ يبلغ التاسعة من عمره ، وهو فيها سهل العبارة ، لا يحفل بالمحسنات البديعية كدأبه فى منظومات أخرى ، وهو لايطرق معنى شعريا يتطلب لفظا طليا ، وإنما يبذل نصحا ويسوق حكمة ويهدى إلى سواء السبيل ، وتتراوح أفكاره بين الترغيب والترهيب. أوصى ولده أن يتعلم الطب ، وأن ينظر فى الأدب ، وأن يقرأ شعر باقى ونفعى ، وأرشده إلى المهنة التى تصلح له ، وبصره بمهالك المهن الأخرى، فحذره أن يكون باشا أو واليا ، لأن هذا المنصب العظيم يتطلب من صاحبه أن يكون ظلوما ، وإلا حبط عمله وسقطت هيبته ، وهم ينفقون كثيرا لكى يحصلوا عليه ، فاذا نالوه اغتصبوا ما استطاعوا لكى يستردوا ما أنفقوا . وزهده فى المناصب الدينية ، لأن بين رجالها من خبثت دخيلته ، وقبح إليه أن يشتغل بالسحر والتنجيم ، وحبب إليه أن يكون من كتاب الديوان .

وله مثنوى آخر يحمل اسم " خير اباد " ، أى موضع الخير ، باسم ولده أيضا ، ومضمونه قصة فارسية أخذها عن الشاعر الفارسى فريد الدين العطار ، وفيه يعنى بالمحسنات اللفظية ، وإيراد التراكيب الفارسية ، ولم يوفق فيها كما وفق فى الأولى . وهناك منظومة ثالثة عثر عليها أخيرا ، وطبعت عام ١٩٤٤م باسم " سور نامه " ، أى كتاب الاحتفال ، ونظمها عام ١٠٨٦ = ١٦٧٥م ، ليصف فيها الاحتفالات العظيمة التى أقامها السلطان مراد الثالث فى أدرنه يوم إعذار ولده ، وتتألف من ٥٨٧ بيتا ، مدح بها السلطان ، وصور ما رأى وسمع فى تلك الحفلات التى استمرت خمسة عشر يوما ، وهى تذكرنا بنظائرها فى الأندلس .

وله فى مجال النثر " تحفة الحرمين " ، يصف فيها رحلته إلى الأقطار الحجازية ، ومجموعة رسائل جُمعت بعد موته ، وتاريخ قمالجه، وذيل سيرة ويسى ، وهى تتمه لسيرة المصطفى عليه السلام ، والتى قام بها ويسى .

●●●

مع تولى السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ = ١٦٢٣م) تسرب الفساد إلى الدولة ، وشمل الضعف كافة جوانبها ، ومن بين الرماد ظهر كاتب تركى من أصل ألبانى يدعى قوجى بك ، ولانعرف تاريخ وفاته ، هبط اسطنبول حدثا ، وتربى فى قصر السلطان ، وخدم عددا منهم ، وحظى عند مراد الرابع ، استمع لنصحه ، وعمل بمشورته ، ولم يفارقه فى سفر ولا حضر ، وألف رسالة فى سياسة الدولة مبينا أسباب النهضة والسقوط ، وعوامل الضعف والفساد ، شارحا ومؤرخا ، وقدمها إلى السلطان مراد، بريئة من الملق والنفاق ، مما يشى باتصال الود بينهما وارتفاع الكلفة ، ويوليها المستشرقون الأوروبيون عناية كبيرة ، وترجمت إلى الألمانية والمجرية والروسية .

ولم تظهر بشائر اليقظة إلا مع السلطان أحمد الثالث الذى ولى عام ١١١٥=١٧٠٣م ، إذ كان مرهف الحس ، مشبوب العاطفة ، موكلا بالحسن يتبعه، عنى بالعاصمة ، فأقام العمائر والحدائق والمكتبات ، وقرب الشعراء والأدباء ، وعرف الترك فى عهده فن الطباعة للمرة الأولى .

شاعر هذا العصر يدعى أحمد نديم (ت ١١٤٢ = ١٧٣٠م) ، اشتغل فى أول أمره بالقضاء ، واتصل بعلية القوم ، ونال الحظوة عند الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، ولم يفارقه فى مصيف ولا مشتى ، وجعله على خزانة كتبه ، وأغدق عليه الصلات والعطايا بعد أن استمع إلى مارق من شعره ، ويعد أحمد نديم من أصدق شعراء الترك الأقدمين لهجة ، صور بيئته بدقة ، وعبر عن نفسه فى صراحة ، ولم ينتظم فى التصوف لأنه ليس بعابد ولا زاهد ولا محروم ، تقلّب فى النعيم وسكن القصور ، ولم يشاهد من الحياة إلا وجها بساما ، مما طبع شعره بالرقة

والعذوبة ، فهو نديم يتغنى دائما بفرحة الحياة وبهجة الدنيا ، وله أغان مما يعرف فى التركية باسم " شرقى " ، ترددت أصداؤها فى جنبات العاصمة . وترجم عن العربية صحائف الأخبار بعنوان " تاريخ منجم باشى " ، وتميز نثره بالإيجاز ، ويعنى بالمعنى قبل اللفظ ، فجاء نثره صورة من شعره .

ولما قامت الثورة ، وقُتل الصدر الأعظم ، كبس الثوار دار شاعره ، فتعلق بالفرار ، ووثب من سطح داره إلى سطح دار مجاورة ، فسقط قتيلا بين الدارين .

ونلتقى فى هذه الفترة بالشيخ غالب (ت ١٢١٠ = ١٧٩٥م) ، أوسع الشعراء الأقدمين خيالا ، وأدقهم تصويرا ، ولد فى اسطنبول ، وانتسب إلى الطريقة المولوية ، ثم رحل إلى قونية مهد الطريقة ، ولما عاد إلى العاصمة كان شيخا من مشايخها وعُرف بغالب دده ، ودده تعنى الجد أو الشيخ ، ويلقبون بها الدراويش ،وكان قد قرض الشعر فى مقتبل عمره ، وله ديوان شعر كبير ، من القصائد والغزليات ، وهو فى غزلياته واضح التأثر بمثنوى شيخه جلال الدين الرومى ، وشعره فى الغزليات والقصائد جيد ، فى مستوى شعراء الدراويش المجيدين .

وله منظومة بعنوان " حسن وعشق " ، وهى أروع ما قال ، مع أنه نظمها وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وهى قصة صوفة رمزية ، تصور المشقة التى ينبغى على الصوفى أن يكابدها قبل أن يبلغ الفناء فى الذات الإلهية ، ويبلغ فيها من التصوير غايته ، مما أكسبها جمالا شعريا بعد بها عن السرد والجمود .

وانفرد كانى (ت ١٢٠٦ = ١٧٩٢م) بأنه صاحب دعابه وهزل وإضحاك فى نفسه وفى شعره ، فميزه ذلك عن غيره ، وهو من مدينة توقات فى شمال شرقى الأناضول ، انخرط فى سلك المولوية شابا ، وأقام فى تكيتهم حتى بلغ الثامنة والثلاثين ، ثم تقدم بمدحة إلى حكيم على باشا والى طريزون حين مر بتوقات فى طريقه إلى اسطنبول ليرأس الوزارة ، فأعجبته وملكت عليه قلبه ، فاستصحبه معه إلى العاصمة ، وفيها بهرته الحضارة بروائها وزخرفها ونعيمها وطيباتها

ورفاهية أهلها ، بعد فاقة وحرمان ، كما عرف الجانب الآخر منها ، حيث المداجاة والرياء والمداهنة ، وهو الصريح الضحوك المتهكم ، فسخط على حياته الجديدة ، وكره عالم النفاق والمنافقون حوله ، وجعله الصدر الأعظم كاتبا فى الديوان ، غير أنه مل الوظيفة وسئم المقام بين أهلها ، فبرم بها ، وكره قيودها ، شأن عدد آخر من مواطنيه الشعراء ، ومن الأدباء والكتاب فى الفارسية والعربية ، واستعفى منها فى اليوم الذى استعفى فيه حكيم على باشا من رياسة الوزارة .

تقلبت الأحوال بكانى فزايل اسطنبول إلى بوخارست ، وهناك أصبح الكاتب الخاص لأحد الأمراء ، وسرعان ما احتواها فرجع إلى اسطنبول بدعوة من الصدر الأعظم الجديد محمد باشا ، وأصبح من أصفيائه وأهل أنسه ،مما أسقط الكلفة بينهما ، وذات مرة تحدث إلى الصدر الأعظم بما أغضبه ، فنسى ما بينهما من صفاء وأمر بقتله ، ولمآ تشفعوا له استبدل القتل بنفيه إلى إحدى الجزر ، حيث ساءت حاله ، وعانى مرارة الحرمان ، فعاد إلى حياة الجد والزهد ، راغبا أو كارها، لكنه لم ينس الفكاهة حتى وهو يجود بأنفاسه ، ومع أن عيوب القافية ، ووعورة اللفظ كانت تعترى شعره ، بيد أنه فى الهزل نسيج وحده ، وهو إلى جوار الشعر كاتب حسن الترسل ، يفضل نثرَه شعرَه ، وفى الكتابات الهزلية بخاصة .

ولم يخل العصر من شاعرات تجئ فى مقدمتهن فطنت خانم(١) (ت١٢١٥=١٨٠٠م) ، وهى ابنة أسعد أفندى شيخ الإسلام فى عهد السلطان محمود الأول ، وكان أخوها شريف أفندى يتولى المنصب نفسه أيام عبد الحميد الأول وكلاهما شاعر ، فتأدبت بأدبهما ، ووجدت قدوة حسنة فيهما ، وحين أيفعت زوّجها أبوها من درويش أفندى ، رجل جافى الطبع،فأساء عشرتها ونغص عيشتها ، فسادت حياتهما الفرقة والاكتئاب والشقاء ، ووجدت فى الشعر

١-خانم مؤنث خان بمعنى الحاكم والسيد فى التركية، ويقال إنها مأخوذةعن الصينية Knang ،والترك ينطقون الخاء هاء

تنفيسا عن آلامها وعذابها ، ونزعت إلى الدعابة والفكاهة ولها ديوان ينتظم معظم فنون الشعر .

وعاصرها شاعر تركى من أصل عربى ، فاضل بك الأندرونى (ت١٢٢٤=١٨١٠م) من مدينة صفد فى فلسطين (رد الله غربتها وفك أسرها!) ، وقومه من الحجاز ، توطّن جده بلاد الشام ، وغلب على صفد وعكا واقتطعهما لنفسه ، فلما انقض عليه جند السلطان تعلق بالفرار ، لكنهم أردوه قتيلا ، وحملوا ولديه إلى اسطنبول ، حيث توفى الأصغر وعاش فاضل فألحق بمدرسة الأندرون ، وهى داخل القصر السلطانى ، يختارون تلاميذها من الفتيان الذين يجمعون كل عام من البلاد التابعة ، فيظلون فيها أربعة عشر عاما ، يدرسون خلالها القرآن والشريعة والعربية والفارسية ، ويتعلمون آداب السلوك ، ويحملون عليها بقوة ، ثم تنتظرهم المناصب العالية ، ومنها جاء لقبه:الأندرونى .

استوعب فاضل الثقافة التركية ، وخالط فتيانا من كل الأجناس ، وراقب ما يدور فى أبهاء القصور وما وراء الأبهاء ، واكتسب من المعرفة والتجربة ما أهله لأن ينظم " زنان نامه " ، أى كتاب النساء ، و " خوبان نامه " ، أى كتاب الغلمان الصباح . والأول منهما فريد فى بابه ، يضم خمسا وثلاثين صورة لنساء من مختلف بقاع الأرض ، بدأه بالهندية واختتمه بالأمريكية ، مرورا باليهوديات والأرمنيات والروسيات والمصريات والتركيات والحجازيات والحلبيات والحبشيات. ويقول فون هامر إنه صنعهما على غرار كتابين بالعربية : " ألف جارية وجارية" و"ألف غلام وغلام " . والكتاب محدود القيمة فنيا ، لأن شعره متواضع ، عظيم القدر تاريخيا ، لأن قراءته تولد الأفكار ، وتدعو للتأمل والبحث والنظر . وشأنه فى كتاب الغلمان كشأنه فى كتاب النساء .

وله منظومة بعنوان " جنكى نامه " ، أى كتاب الراقص ، تدور حول الفتيان الراقصين فى استنبول ، من الغجر الذين يحترفون الرقص ، يصفهم دون احتشام

أو حياء ، مؤرخا حياة المجون والخلاعة فى عصره وبيئته . وله " دفتر العشق " ، وهو منظومة فى أحوال الحب ، يقول مؤلفها إنها الأولى من نوعها فى الشعر التركى ، ويبدو أنه لم يف بما وعد فيها ، وله ديوان أهم ما فيه مرثية قالها فى السلطان سليم الثالث ، ومع أن فى شعره ضعفا وسخفا ، لكنه يمثل لنا بيئته وعصره خير تمثيل ، حيث أفرط الترك فى اللذائذ . والمتع ، وزهدوا فى التصوف والحياة المستقيمة . وفى أخريات حياته ساءت أحواله ، ونفى إلى جزيرة رودس ، حيث كف بصره ، ثم عفى عنه فعاد إلى اسطنبول حيث لقى الله .

● ● ●

مع مطلع القرن التاسع عشر ظهرت مدرسة أدبية لم تنجب شعراء كبارا ، لكن آثارها تتيح لنا أن ندرس الناحية الإنسانية الخالصة فى المجتمع التركى .

من شعراء هذه المدرسة واصف الأندرونى (ت ١٢٤٠ = ١٨٤٥م) ، تربى فى القصر ، ثم شغل منصبا إداريا به ، ومضت أيامه فى هدوء إلى أن لقى الله ، وهو شاعر شعبى بأجمع معانى الكلمة ، توخى أن يقول الشعر سهلا باللغة التى تدور على الألسنة فى اسطنبول ، ونظم الأغانى التى يسميها الأتراك " شرقى" ، فذاع صيته ، رغم مايشوب هذه الاشعار من أخطاء فنية .

وقال الشعر فى أغراض أخرى ، كمدح المصطفى ، والسلاطين ، وتأريخ الحوادث . وله أكثر من قصيدة فى الحروب التى نشبت بين جيش سليم الثالث وجيش نابيلون فى مصر ، ومنظومتان ، إحداهما تخميس باصطلاحات النساء فى النصح على لسان والدة ، والثانية جواب طيب الأثر على لسان ابنتها الجوهرة البهية . وهو شعر يفيد ولا يمتع ، لأنه يصور أعراف المجتمع التركى وتقاليده فى تلك الأيام ، وبخاصة بين نساء العوام ، والمنظومتان إرهاص بالتحول الذى ستظهر آثاره بعد زمن قصير فى حياة الترك وآدابهم .

ومن شاعرات الترك فى هذه الفترة ليلى خانم (ت ١٢٧٥ = ١٨٤٧م) ،

وتلى فطنت خانم فى المنزلة الأدبية ، ويجمع بينهما كرم النسب ، وحرفة الأدب ، وحياة زوجية تعسة ،مبعثها ليلى نفسها ، لخشونة طبعها ، وشدة كبريائها ، وسرعان ما ضاق بها زوجها ، فطلقها بعد سبعة أيام من بنائه بها ، ودفعها ذلك إلى الاستهتار بكل شئ ، وساءت سيرتها ، لها ديوان صغير يضم شعرها التقليدى والغنائى ، والرثاء أرق أشعارها ، وفيه تعنى بالجرس والإيقاع ، ولها مع ذلك شعر ضاحك مرح ، يعكس حبها للحياة وتهالكها على اللذائذ ، ويكشف عن إمرأة لاتبالى بما تصنع ، ولا تصيخ إلى لوم أو عتاب ، ومضت مع الحرية التى استباحها شعراء ذلك الزمان لأنفسهم إلى آخر مدى .

تعد ليلى اخر أدباء العصر القديم ، وقد وصلت بالشعر إلى مالم يصل إليه أحد قبلها ، جرأة فى القول ، وحرية فى التعبير هبطت به من علم المثل إلى دنيا الواقع ، ويجمع ديوانها بين آخر ومضات المدرسة القديمة ، وأول إرهاصات المدرسة الحديثة ، فجمعت بين الماضى والمستقبل ، وكانت خاتمة عصر امتد وطال ، حملته معها لتفسح الطريق أمام نهضة جديدة ، ذات ملامح متغيرة .

اللغة الأوردية وآدابها

● اللغة :

اللغة الأوردية وتعنى الهندوستانية أيضا ، أو إن شئت لغة الهنود المسلمين ، والكلمة تركية ، معناها الجيش أو العسكر ، وظهرت لغة نتيجة اختلاط الهنادكة بالمسلمين ، غير أنهم اختلفوا فى مكان هذا الاختلاط وكيفيته ، واختلف العلماء حول البداية أيضا . بعضهم يرى أنها كانت فى الدكن حين قدم التجار المسلمون إلى الهند عبر سواحل ملبار واستقروا حولها ، فبدأت تتكون لغة جديدة نتيجة اختلاط الهنادكة بالمسلمين .

ويرى آخرون أن العرب حين فتحوا السند حدث اختلاط اجتماعى عن طريق التزاوج بين العرب الوافدين والسكان الأصليين أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية فى لغة السند ، وأن أهل البلاد تقبلوها برضا ، فظهرت الأوردية تدريجا من لغة أهل البلاد الأصليين ومن العربية والفارسية ، وقليل من التركية ، ولأنها لغة الحكام والدولة والطبقة العليا ، أصبحت لغة الأدب والثقافة والشعب أيضا .

وثمة اتجاه ثالث يرى أنها أقرب إلى البنجابية منها إلى لغة برج مهاشا ، لأن التطور النحوى والصرفى فيهما متماثل إلى حد بعيد ، وتشتركان فى كثير ألفاظا وأصواتا .

وهناك من يردها إلى الفارسية حين فتح السلطان محمد الغورى دهلى ، فحدث تزاوج بين الهندية والفارسية أثمر اللغة الأوردية . ومن يرى أنها بدأت تتشكل بدخول الغزنويون لاهور عام ١٠٢٧م ، وإن كنا لا نعرف متى كف هؤلاء عن الفارسية ، واستعاضوا عنها بالأوردية البنجابية .

ويعود الفضل إلى المتصوفة ورجال الدين فى أنهم جعلوا منها لغة أدبية ، وبفضلهم أيضا ازدادت الكلمات العربية والفارسية ، وبخاصة ذات الدلالات

الدينية ، وأدى ذلك إلى كتابتها بالخط العربى ، ولماّ تزل تكتب به ، رغم المحاولات الملحة التى جرت لاستبداله بالخط الديونكرى الذى تكتب به اللغة الهندية اليوم .

كان تأثر الأوردية بالفارسية كبيرا ، لأن كلتيهما لغة آرية ، ومتجاورتان جغرافيا ، ولهذا كثرت الألفاظ والتراكيب الفارسية فى اللغة الأوردية ، وخاصة ما تعلّق منها بالعلم والأدب ، وكان تأثير التركية فيها محدودا ، وتأثرت بالعربية كثيرا لارتباطها بالإسلام ، مباشرة أو عن طريق الفارسية ، وما أكثر ما تجاورت اللغات الثلاث فى المكان أو الأشخاص ، وكان مسعود سعد سليمان (ولد نحو ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) ثلاثى اللغة ، فله ديوان بالفارسية ، وثان بالعربية ، وثالث بالهندية ، ولم يصلنا منها إلا هذا الأخير .

يمكن القول أن ربع المعجم الأوردى ألفاظ عربية ، وقريبا من الربع ألفاظ فارسية ، والبقية تنتمى إلى لغات شبه الجزيرة الهندية القديمة ، وكلما ازدادت ثقافة الناس الإسلامية كلما ازدادت الألفاظ العربية فى لغتهم . وكانت ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأوردية بألفاظ قريبة من الألفاظ الدالة فى العربية ، حتى يفهمه مسلمو شبه القارة بسهولة ، وراء تأثير العربيةَ البيّن فى اللغة الأوردية ، على أن نأخذ فى الاعتبار أن بعض الدلالات تطورت حين انتقلت من الأولى إلى الثانية .

علينا أن نميز فى تاريخ الأوردية بين طورين : الأول وبدأ عام ١٠٢٧ م ، وهو أوردية لاهور ، وتتكون من البنجابية القديمة مع خليط من الفارسية ، والثانى بعد عام ١١٩٣م حين بلغ تأثر البنجابية القديمة بالفارسية أشده ومنهما تكونت أوردية دلهى ، وبدأ السكان والوافدون ينصرفون إليها ويتحدثون بها . وفى منتصف القرن السابع عشر لم يكن ثمة فارق حقيقى بين أوردية دلهى وأوردية الدكن .

● **الأدب :**

إن معرفتنا بالأدب الأوردى فى بدايته مستمدة من مصادر فارسية قديمة خاصة بتراجم الشعراء ، وأول كتاب فى الأوردية تحدث عن هذا الأدب هو " كَلش هند " لعلى لطفى ، المتوفى عام ١٨٠١م . وثمة صعوبة ضخمة أخرى تواجه دراسيه ، أن ما نشر منه قليل للغاية ، وبخاصة ما قبل عام ١٨٠٠ . وباستثناء قلة من الشعراء لايتعدون أصابع اليد الواحدة ، فان بقية دواوين الشعراء التى نشرت تعود إلى ما بعد عام ١٨٢٥ ، والوصول إلى مخطوطات هذه الدواوين دونه صعوبات جمة ، فهى موزعة على مكتبات أقاليم شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، وإنجلترا وربما مكتبات أخرى فى روسيا . ومع ذلك سوف نحاول .

كان الأدب الأوردى فى مراحله الأولى أدب تخاطب ، قريبا من اللغة الدارجة ، وأسهل مما سوف يصبح عليه فيما بعد ، لأن المبدعين والكاتبين الأول لم يكونوا يتكلفون على نحو ما فعل المتأخرون . ويمكن التمييز فى هذه الفترة بين مرحلتين: مرحلة الأدب الدينى وتمتد بين عامى ١٣٥٠ و ١٥٩٠ م ، وفيها كان القصد من الأدب تعليميا خالصا ، بتبيان أصول الدين وأحكامه . والثانية ، وهى الحقبة الأدبية بمعنى الكلمة ، تمتد بين عامى ١٥٩٠م و ١٧٣٠م ، وكانت الكتابة بالأوردية فى هذه الحقبة مقصورة على الدكن ، أما المسلمون فى الشمال ، فى دلهى ، فكانوا يكتبون بالفارسية .

كانت الرغبة فى نشر الدين الحنيف ، والحاجة إلى استخدام اللهجة الدارجة ، وعظم مكانة رجال الدين ، وراء شيوع الكتابة بالأوردية فى الدكن ، وظهرت بواكير التأليف فى هذا الجانب قبل أن يظهر أى كتاب بالأوردية فى دلهى بأربعة قرون ، وقيمة هذا العصر فى أنه يقدم لنا اللغة فى صورتها الأولى ، ومعها ندرك الجهود الى بذلت عبر الزمن لترتفع بها إلى لغة أدب ، حافلة بالرونق والبهاء والبلاغة ، لأن أدب هذه الفترة كتب جله معلّمون ، يكتبون عفو الخاطر ، معبّرين عما يشعرون به ، للارتفاع بذوقهم ، وصقل أرواحهم ، وقد ذهب الزمن

بمعظم ما كتبوا ، وما بقى منه فيه منظوم ومنثور ، ومعظمه بأوردية الدكن.

ومرحلة العصر الأدبى ، وبدأت فى أواخر القرن السادس عشر ، وفيها انقسمت الدكن إلى خمس ممالك ، فى اثنتين منهما بسط الملوك رعايتهما على الأدب فارسيا أو أورديا . ومن ثم وُجد مركزان للشعر ، فى كَولكندة ، وحملت اسم حيدر أباد بعد عام ١٥٨٩ م ، وهى مقر أسرة قطب شاهى ، وبيجابور مقر أسرة عادل شاهى ، وكان المذهب الشيعى غالبا فيها .

● العصر الدينى (١٣٥٠ - ١٥٩٠ م):

معلوماتنا عن هذا العصر قليلة ، وأول من نلتقى به مهمًا خواجه بنده نوازكيو (ت ١٤٢٢ م) ، وله كتابان موجزان هما : معراج العاشقين ، وهو أول ما طبع من النثر الأوردى ، وموضوعه صوفى ، وشرحه أحد تلاميذه فى كتاب بعنوان "هفت أسرار " ، أى الأسرار السبعة . والكتاب الثانى " هدايت نامه" ، .وقام حفيده عبد الله الحسينى بترجمة رسالة لعبد القادر الجيلانى فى العشق الإلهى وله شرح عليها .

وكتب بالأوردية شاه ميرانجى شمس العشاق (ت ١٤٩٦ م) ، وهو من أولياء بيجابور ، وكان يعظ بالأوردية أيضا ، وله منظومتان جعل مدار الكلام فيهما على فتاة غاية فى ورعها وتقواها تسمى خوش ، أو خوشنودى ، لها من العمر سبعة عشر ربيعا ، ولعلها من خيال الشاعر ، تعزف عن الدنيا ، وتنقطع لميرانجى ، تتلقى روحانياته ومجرداته ، وتتكون الأولى منهما من ٣٥٠ بيتا ، وتسمى " خوش نامه " أى كتاب الحسن . وجاءت الثانية لتكمل قصة الفتاة مع الشيخ ، وفيها تطرح عليه الأسئلة ، وتتلقى عنه الأجوبة ، وتسمى " خوش نكَر"، فى ١٤٦ بيتا .

وله شهادة الحقيقة ، وهى قصيدة أعظم أهمية وإن كانت أقل روعة وجاذبية ، وفى ١١٢٦ بيتا ، وفيها يفصح عن غايته من النظم بالأوردية ، لأنها اللغة التى

يفهمها الناس قاطبة . وينسب إليه كذلك شرح " مرغوب القلوب " ، وهو كتاب منثور موجز ، وأهميته لغوية خالصة ، فهو أقدم مثل للنثر الأوردى بعد كتاب "معراج العاشقين " .

ونظم شاه برهان (ت ١٥٨٢) ابن ميرانجى ، كثيرا من الشعر ، وكتب كثيرا من النثر ، وجاء تراثه فى لغة أسماها الهندية الكَجراتية ، ويعنى بالكَجراتية اللغة الدكنية الممتزجة بألفاظ وعبارات كَجراتية ، وبقى له عشر منظومات ، أغلبها قصار ، ولكن إحداها تبلغ ١٦١٠ أبيات ، وتسمى " حجة البقا " ، وأخرى بعنوان " إرشاد نامه " ، وعدتها خمسة آلاف بيت . ويذكر فيها ، كما فعل أبوه من قبل ، دافعه إلى الكتابة بالأوردية بدل الفارسية ، ومعظم الأوزان التى نظم فيها هندية ، وكثير من ألفاظها وتعبيراتها .

ويذكرون من بعده ابنه أمين الدين علاء (ت ١٦٧٥ م) ، وكان يعمل بتدريس الدين ، وله منظومة بعنوان " مجت نامه " ، وهى فى العشق الإلهى ، وأخرى تسمى " رموز السالكين " فى الاتحاد بالذات الإلهية وأغراض أخرى . وله منظومة دينية لم يجعل لها عنوانا ، ونظم أشعارا فى أوزان هندية ، وأخرى تجمع أبياتا هندية وفارسية . وله رسائل منثورة أهمها : " كلام شاه أمين " ، و" كنج مختص " ، أى الكنز المخض ، وقيمة نثره دينية أكثر منها أدبية ، وله منظومات قصصية قصيرة مخطوطة بعنوان " جواهر الأسرار " ، ومنظومتان : الأولى بعنوان " رسالة قربية " والأخرى " رسالة وجودية " ، وتتألفان من ٦٤٠ بيتا .

وفى هذا العهد وُجد من يكتبون بالعربية فى أغراض دينية ، على امتداد شبه الجزيرة الهندية ، وبخاصة فى البنجاب وكَجرات ، وأمرهم لايعنينا هنا .

● العصر الأدبى الأول فى الدكن (١٥٩٠ - ١٧٣٠ م)

كان الأدب فى هذا العصر يتحرك حول ثلاثة محاور :

● الأدب فى گولكنده ، أو حيدر أباد كما سميت من بعد ، وارتبط ببلاد القطب

شاهين ، وامتد بين عامى ١٥٩٠ و ١٦٨٧ .

● الأدب فى بيجابور ، واتصل ببلاط العادل شاهين ، وامتد من ١٥٩٠ إلى ١٦٨٦ م

● الأدب فى الدكن على عهد أورنكزيب ومن خلفوه ، وامتد بين عامى ١٦٨٧- إلى ١٧٣٠ م .

يعد محمد قلى قطب شاه حاكم گولكنده بين عامى ١٥٨٠ ، و١٦١١ أعظم شعراء حيدر أباد ، وهو الذى شيد هذه المدينة ، وجعلها عاصمة ملكه ، وأصبح بلاطه مثابة الأعيان من أهل الدين والأدب ، وكان شاعرا فى الأوردية والفارسية، وجُمع ما نظم بعد وفاته فى مخطوطة من ١٨٠٠ صفحة ، تضم مئة ألف بيت ، وهو أول من أبدع القصيدة والمرثية والشعر الغنائى والقصصى فى الأوردية ، إلى جانب الأغراض الدينية الأخرى ، وطابعه فى هذا تقليدى ، ولكن ما نظمه فى الحب يتميز فى أسلوبه بالطابع الهندى لا الفارسى . وإلى جانب مشاركته فيما شاع بين شعراء عصره من فرس وهنود ، نظم الشعر فى أغراض تتعلق بالحياة اليومية ، فوصف الأعياد والمهرجانات والأعراس ، والثمار والأطيار والأزهار ، وما شاع بين الناس من متوارث التقاليد والعادات ، وعن الحياة فى قصره .

وعاصره الشاعر وجهى ، وكان شاعر البلاط ، وله منظومة بعنوان " قطب مشترى" نظمها عام ١٦٠٩ م ، تحكى قصة أمير مغامر ، وهى هندية الأصل ، ولغتها الأوردية جيدة ، وأفكارها أصيلة ، والوصف غير متكلف ، وهى من المثنوى ، وتتضمن عددا من الغزليات .

وفى عام ١٦٣٤ أخرج قصة دينية عظيمة القيمة بعنوان " سبرس " ، نحا فيها منحى ظهورى فى مقدمته الفارسية لـ " نورس نامه " . ونثره كثير السجع والازدواج ، ويبدو أن القصة ترجمة لكتاب فارسى من تأليف وجيه الدين گرجانى

وفيها يورد أصل التصوف في سياق قصصي ، وتعد أول مثل للنثر الفنى فى اللغة الأوردية ، وشخوص القصة يحملون أسماء رمزية ، مثل : حسن وقلب وعشق ووفاء .

وكان غواصى من كبار شعراء هذا العصر أيضا ، واتصلت أسبابه بالقصر فى أواخر حياته ، وهو صاحب مثنوى بعنوان " سيف الملوك وبديع الجمال " ، ويتألف من أربعة عشر ألف بيت ، ويحكى قصة عشق الأمير المصرى سيف الملوك لأميرة صينية ، وهى ترجمة لقصة من ألف ليلة بالفارسية ، ولقى إعجابا واسعا ، وترجم إلى عدة لغات هندية ، ونعرف من مقدمته أن المؤلف كان شديد الفاقة مغرورا ، يزدرى غيره من الشعراء ، وبعد عشرين عاما أقبلت عليه الدنيا ، فاستفاض شهرة ، واتسع ثروة ، ونظم " طوطى نامه " أى كتاب الببغاء ، وهى ترجمة منظومة للشاعر الفارسى ضياء الدين بالعنوان نفسه ، مستمدة من قصة باللغة السنسيكريتية . وشعره يكابد الفقر والخصاصة أجود من شعره بعد أن أقبلت عليه الدنيا .

وعاش فى هذا العصر تابى ، وينسب إلى كَولكندة ، وله مثنوى بعنوان " بهرام وكَل اندام " ، وهو قصة عشق نظمها عام ١٦٧٠ ، وتقوم على مجموعة من القصص المنظومة للشاعر الفارسى نظامى كَنجوى ، بعنوان " هفت بيكر " ، وكان تابى يقدر وجهى تقديرا عاليا ، ورآه فى منامه يثنى على منظومته ، ويراه المثل المحتذى فى الشعر ، ويتميز مثنويه بالأصالة ، ويتألف من ٢٧٠٠ بيت ، فى أقسام متساوية الطول .

وفى عهد محمد عادل شاه عاش الشاعر خشنود وكان شاعر القصر المفضل ، وله مثنويان ، الأول منهما بعنوان " بهرام " ، وفيه حذا حذو خسرو دهلوى ، فى مثنوى " هشت بهشت " ، ويتألف من ٦٥٠٠ بيت ، والثانى " يوسف وزليخا " ، وهو مأخوذ عن خسرو دهلوى أيضا .

وكان كمال خان رستمى ابنا لخطاط خان ، الكاتب فى بلاط بيجابور ، وكتب

منظومة بعنوان " خورنامه " ، أتمها عام ١٦٤٩ ، وهى مفرطة فى القول ، وتحكى قصة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، نظمها نزولا على رغبة الأميرة خديجة ، وهى شخصية ذات منزلة أدبية مرموقة فى عصرها ، فهى أخت عبد الله قطب شاه ، وقرينة محمد عادل شاه الذى كان ملكا لبيجابور بين عامى ١٦٢٦ و ١٦٥٦ ، وهى منظومة بالغة الأهمية ، لأنها الملحمة الأولى فى اللغة الأوردية ، وهى مترجمة عن الفارسية ، سلسة الأسلوب ، واضحة اللغة .

ونبه شأن الشاعر نصرتى (ت ١٦٨٣) فى بلاط على عادل شاه بين عامى ١٦٦٥ و ١٦٧٣ ، وله ثلاث قصص منظومة : " كَلشن عشق " ، أى روضة العشق ، فى قريب من ثمانية آلاف بيت ، و " على نامه " ، ويذكر فيها تفصيلا ما أنجزه مولاه ، وماله من مناقب ومحامد ، وهى أفضل شعر قيل فى بيجابور ، وتعد أول سيرة فى الأوردية . و " معراج نامه " ، وتتخللها تعبيرات محلية دارجة أكثر من بقية أشعاره الأخرى ، مما يجعلها صعبة الفهم . وله مجموعة من القصائد ، وأخرى من الغزليات تعرف " بكَلد سنه عشق " ، أى طاقة العشق . ونصرتى بعيد الخيال ، ذو قدرة كبيرة على الارتجال ونظم الهزليات .

● ● ●

أول من نلتقى به من شعراء الأدب الأوردى فى الدكن على عهد المغول (١٦٧٣ - ١٧٣٠) محمد على عاجز ، صاحب منظومة " قصة فيروز شاه " ، أو قصة ملكة مصر ، نظمها عام ١٦٨٨ ، أو قبل هذا التاريخ ، وتقع فى ثمانى مئة بيت .

ومن أعلام الأدب الأوردي شمس الدين ولى الله (ت ١٧٤١) ، ولد ونشأ فى الدكن ، وينسب إلى أورنكَ أياد ، على ظن أنه ولد فيها ، ولانعرف شيئا عن أسرته ، وقد ارتحل إلى كجرات لتحصيل العلم فيها ، وانعقدت صلته بعلمائها ، وأمام شعراء دلهى أنشد أشعاره بالأوردية ، وكانت هذه لغتهم الدارجة ، وينظمون أشعارهم بالفارسية ، ويجهلون أن الشعراء فى الدكن ينظمون بالأوردية

منذ وقت بعيد ، فأعجبوا بأشعاره ، وترددت على الألسنة ، وأخذ الناس يتغنون بها في المحافل والأسواق . ويترنم بها الصبية في الشوارع والطرقات ، ويستقبلونه أينما حل بالإجلال والتقدير .

وقد أحدث قدومه على دلهي ثورة في شعر شمالي الهند ، وما لبث أن عاد إلى مسقط رأسه ، ثم آب إلى دلهي ثانية ، وقد حمل معه كل شعره وتراثه في الأوردية ، أشعار غزلية ، وست قصائد دينية ، ومثنويان في وصف مدينة سورت، ومنظومات أخرى .

عبارة شمس الدين سهلة واضحة ، وفي مواضع تسمو إلى مرتبة الفصاحة ، وكان رجلا متصوفا ، وشعره مرآة عصره ، وهو أحد شعراء الأوردية الكبار ، ورغّب شعراء دلهي في النظم بلغتهم القومية بدل الفارسية ، وكان يلقب بأبي ريخته ، أي أبي اللغة الأوردية .

وكان سراج الدين (ت ١٧٦٣) من أعظم الشعراء الذين التفوا حول ولي أورنكَ آبادي (نسبة إلى أورنكَ آباد) لأنه حصّل العلم فيها ، وكانت يومها نابضة بالحياة ، مفعمة بالبهجة ، مثابة الشعراء والعلماء ، يجتمعون في دار ولي ، يتجاذبون أطراف الشعر والأدب . وسراج الدين من أتباع الطريقة المشتية، وهو أعلق بالصوفية من ولي ، وكتب شعره بالفارسية أولا ثم عدل عنها إلى الأوردية ، وديوانه في قريب من عشرة آلاف بيت معظمه في الغزل والقصص ، وله كلّيات منظومتبعنوان " بوستان خيال " . ويتميز شعره بالأصالة ، وسمو الفكرة ، وأنه قريب الشبه في لغته بالأوردية المعاصرة ، وفيه وجد الصوفية بخاصة زادهم الروحي ، وله قصة منظومة تدور على بلبل ووردة ، يوضح من خلالها فكرة العلم اللدني ، وقد نعم بالشهرة الواسعة حيّا ، وانجذب إليه جمع غفير من المريدين .

وعاصر سراج الدين جملة من الشعراء المقلّين ، أمثال : غلام قادر سامي (ت١٧٨٢) ، وله منظومة بعنوان " سرو شمشاد " في قريب من عشرة آلاف

بيت ، ورغم سهولتها يكثر فيها البديع . وعبد الحى خان صادم (ت ١٧٥٨) ، واعتبط شابا . وغيرهم من المتواضعين حظا ، إنتاجاً وشهرة .

● فى دلهى :

يمكن أن نقسم الأدب فيها إلى طورين أو عصرين ، الأول من ١٧٣٠ إلى ١٨٧٠ ، والثانى وينتهى فى الثلث الأول من القرن العشرين . ونبدأ بالأول منهما .

قبل هذا العصر كان شعراء دلهى يتكلمون الأوردية ويعبرون عن مشاعرهم بالفارسية ، وقد يتبسطون تزجية للفراغ ودفع الملل بالخلط بين اللغتين ، بيت بالفارسية وآخر بالأوردية ، أو شطر من تلك وشطر من من هذه ، أو أن تكون الأفعال وحروف الجر بالفارسية وبقية الكلام بالأوردية ، أو الأسماء والصفات بالفارسية وسائر الكلام بالأوردية ، ومثل هذا لايعد شعرا فى الحقيقة .

ومع الزمن تمكنت الأوردية من النفوس ، وكره الشعراء أن يتكلموا لغة ويقولوا الشعر في أخرى ، وسمعوا بشعراء الدكن ، وقرأ لهم هؤلاء أشعارهم بالأوردية ، وجاء بعضهم إلى دلهى فكان لهم عظيم الأثر في شعرائها ، وكان شمس الدين ولى الله أبرز هؤلاء القادمين .

يمكن القول أن الشعر بالأوردية انبثق فى شمال الهند بعد عام ١٧٢٢ بزمن قصير ، حيث نلتقى بالشعراء ينظمون فى الأوردية ، لغتهم التى يتكلمونها بدل الفارسية ، وكانت الفارسية من قبل متحكمة فى الإبداع الشعرى ، فتركت صدى واضحا فى الشعر الأوردى الذى خلف الفارسى ، فى الألفاظ والتعبيرات والصور البيانية ، وحتى أساطير الفرس وملوكهم وأبطالهم ، وكان صقل اللغة الأوردية يعنى طبعها بالطابع الفارسى ، فظهر التكلف فى الشعر الأوردى ،وبدا فارسيا أكثر منه هنديا ، تطل من خلاله بساتين فارس وأشجارها وثمارها وأزهارها ، وعاداتها وتقاليدها ، وكل ما تقع عليه العين فيها ، وليس فى الهند شئ من

هذا ، ومن ثم بدا كل شئ فى الأوردية غريبا عنها ودخيلا عليها .

ظل الشعر متكلفا إلى عهد ناسخ (ت ١٨٣٨) ومريديه ، حينئذ ظهر رد فعل على جانب كبير من الأهمية ، أدى إلى أن يتحرر الشعر الأوردى من هذه القيود ، وأن يحقق ما يرتجى منه فى قابل الأيام .

وتركت محاكاة الشعر الفارسى أثرها فى مضمون الشعر الأوردى أيضا ، فوسمته بالشهوانية الحسية فى مجال العاطفة ، وكان شعراء دلهى الأوائل ، أو معظمهم ، من المتصوفة ، أو عبروا عن معانى صوفية مستقيمة ، أو انحرفوا بمصطلحاتها من عشق إلهى وغيره إلى معانٍ لا صلة لها بالتصوف ، وهو شعر ينفر منه مسلمو القارة الهندية اليوم ، ويرونه نتاج عصر مضى .

●●●

يمتد هذا العصر مئة عام أو ما يقرب منها (١٧٣٠ - ١٨٣٠) وتعكس أوائله خصائص العصر الذى سبق ، فالشعر سهل ، خال من التكلف ، ويعبر الشعراء عما رأوا بأعينهم ، وأحسوا به فى أعماقهم ، وتجئ استعاراته خالية من التكلف ، ومحسّناته اللفظية معتدله ، بعيدة عن الغلو ، وانصرف الشعراء فى أواخر القرن الثامن عشر عما عُرِف بالإبهام الهندى .

ويمكن أن نميز فى هذا العصر بين ثلاث فترات ، ارتبطت كل واحدة باسم شاعر، أو شعراء كبار عاشوا فيها ، الأولى ، وتنسب إلى حاتم ، وتتسم بعفة اللغة والأصالة الشاعرية ، وتكرار الأغراض الشعرية المعتادة حتى الملل ، وشيوع العشق ، والتلاعب بالألفاظ ، وقلة الاستعارات ، وكثرة الشعراء من المتصوفة .

والثانية ، وتنسب إلى مظهر ومير وسودا ودرد . وتتميز لغتها بما تلقته من قوة جديدة ، فقد نضج شعراؤها ، وعمقت أصولهم ، وإن بقى للتصوف أثره العميق ، وشعراؤها الذين تنسب إليهم هم من أساطين الشعر الأوردى ، ولأن الشعراء قبلهم لم يتركوا لهم جديدا فى الأغراض فقد انصرف عملهم إلى

التحسين والتجويد فى الأغراض التى طرقها سابقوهم من الشعراء .

والثالثة ، تنسب إلى أنشا ومصحفى ونصير ، وفيها ارتد الشعراء إلى طرق الأغراض التقليدية ، مع ميل إلى الهزل والدعابة ، وإدخال الريختى .

ولكن هذه الفترات تتداخل ، وشعراؤها يتعاصرون ، شباب يولد ويشب وينضج ، يعاصر آخرين أجهدهم السير ، وأنهكتهم رحلة الحياة ، يتهيأون للراحة الكبرى .

●●●

أول شعراء الفترة الأولى المهمين نجم الدين شاه مبارك ابرو (ت ١٧٤٧ م) ، وينتسب إلى لكنو ، رحل إلى دلهى شابا ، وقضى بقية عمره فيها ، وضاعت المجموعة الأولى من شعره فيما وقع من شغب وفتن ، ولكن مجموعة أخرى أقل حجما أفلتت من الضياع ، وله منظومة بعنوان " موعظة آرايش معشوق " ، وترجع أهميته إلى أنه مهد الطريق لغيره ، وكان له طائفة من التلاميذ ، ومع غرامه بالبديع ، والتورية منه بخاصة ، كانت لغته الأوردية رصينة .

ويعد ظهور الدين حاتم (ت ١٧٨١ أو ١٧٩٢ م) شاعر دلهى لأعظم ، وإليه تنسب هذه الفترة ، سبق سودا ومير ، وتأثر بالشاعر ولى إلى حد بعيد ، نظم الشعر بالأوردية ، وكان من المجيدين له ، وأسلوبه بليغ ، ووليد فطرة صادقة، وديوانه الأول " ديوان زاده " ، أى ابن الديوان ، مفرط فى الضخامة ، والأغراض التى تناولها مزيج من العشق والتصوف ، شأن شعراء الأوردية الأوائل ، وشهر بأن غيره من الشعراء تعلم على يده ، ويقول فى مقدمة ديوانه الأول ، وهى بالفارسية ، إن خمسة وأربعين شاعرا تخرجوا عليه . وتحدث عن الألفاظ والتعبيرات الهندية التى أعرض عنها ، وإلى الكلمات العربية والفارسية التى استخدمها ، واعتذر عن رسم بعض الكلمات على نحو ما تواضع عليه العوام وتضرع إلى الله ألا يجعل فى ديوانه الجديد المنتخب كلمة خالية من طلاوة ،

واعترف بأن ديوانه السابق وهو الأكبر ، تضمن ألفاظا وتعبيرات أصبح لها من الكارهين ، وتضمن " ابن الديوان " المراثى والمثنويات والغزليات التى وردت فى ديوانه الأول ، ورآها جديرة بالحفاظ عليها .

ونمضى بعده إلى أساطين الشعر الأربعة ، أو إلى الفترة الثانية إن شئت ، ونبدأ بأولهم :

ميرزا جان جانان مظهر (ت ١٧٨١) ، وهو أعظم الشعراء قبل سودا ومير ، وكان أبوه ملتحقابخدمة الأمبراطور أورنكزيب ، ومات عنه وهو حدث ، وعاش حتى بلغ الثلاثين فى منطقة تضم قبور الأولياء ، تأثر خلالها بالتصوف ، وكان حاد الطبع ، ومع ذلك حسن العشرة ، بشوش الوجه ، معتدا بنفسه ورأيه ، وبعد أن تقشف ونسك رفض كل عطاء وهبة مهما بلغت . وفى خلوته درويشا كان يلتف حوله من يتلقون عنه أصول نظم الشعر ، ومن يسألونه عن دينهم ، وكان سنيا محافظا ، واعتدى عليه جهول لنقده بعض عادات الشيعة فى شهر المحرم ، وظل فى النزع يومين رفض خلالهما أن يذكر شيئا عن المعتدى حتى لا يثير فتنة ، ومع أنهم يعدونه من أساطين الأوردية لم يبق من شعره غير القليل . ولغته فى شعره صافية ، وعبارته فى الفارسية رائعة ، ورفعه قومه إلى مكانة محمودة .

وكان محمد رفيع سودا (ت ١٧٨٠ م) صنو مظهر ، فهو من كبار الشعراء فى الأوردية . فى دلهى كان مولده ونشأته ، ودامت أيامه فيها ، ثم حدث الصراع على المدينة بين نادر شاه وأحمد شاه والمرهتا ، وأصبحت الحياة فيها لا تطاق ، رحل منها مع من رحل الشعراء ، ذهب إلى فرخ آباد أولا ، ثم إلى فيض آباد ، ومضى مع آصف الدولة عام ١٧٧٥ إلى لكنو ، حيث تلقى معاشا ، ونال لقب ملك الشعراء .

يقال إنه أول من نظم القصائد وقال شعرا فى الهجاء ، والحق أنه أول من أجادهما ، فهو و ذوق أعظم من نظما القصيدة فى الأوردية ، ولا يشق له غبار فى الهجاء ، وأجاد المراثى ، وإن كان فيهما دون أنيس ودبير اللذين جعلا لها

كيانا خاصا ، وله كثير من الشعر التعليمى والغزليات ، وهما نمطان لا يناسبان طبعه الخاص ، كما نظم كثيرا فى الألغاز ، وهو لون من الشعر مألوف فى الهندية ، ومنه ما ينسب إلى أمير خسرو ، وشعر سودا فى اللغز جيد ، ولكن مثله لا يدخل فى نطاق الشعر بمعناه الدقيق .

يتضمن شعر سودا أربعين قصيدة ، معظمها فى مدح حكام الأقاليم ، وثلثها فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام ، والبقية فى الهجاء . وله مئة مرثية تتألف كل واحدة من مئة بيت ، وكثير من الغزليات ، وتبلغ عدتها عشرة آلاف بيت ، ومنظومات ذات أنماط مختلفة .

وكان يصحب فى تنقلاته خادما يحمل قلما ومحبرة ، فاذا استاء من شئ طلب القرطاس والقلم توا ، وبدأ فى الهجاء ، فى الطريق أو فى داره ، هجاء عنيف مقذع ، فتحاشى الناس أن يجعلوا من أنفسهم غرضا لسهامه .

وقصائده فى مستوى أجود ما فى الفارسية من شعر ، يفضل أنورى وخاقانى رصانة لغة ، ويُخجل عرفى وظهورى بخياله الخصب الدقيق ، وكان فى الأوردية كاتبا أعظم منه شاعرا ، وتفوق على من سواه فى أنه جعل اللفظ يعبر بدقة عن المعنى الذى يريد ، وكان فى ذلك نسيج وحده ، لقد ارتفع باللغة إلى ذروتها .

ثالث الأربعة الكبار محمد تقى سير (ت ١٨١٠) ، وهو أصلا من أكرا ، وبعد وفاة أبيه رحل إلى الهند ، وفى الستين من عمره تركها إلى مدينة أود ، ثم زايل هذه إلى لكنو ، حيث استقبلوه بالحفاوة والترحيب ، وفيها أمضى بقية حياته ، وكان معجبا بنفسه ، ذاهبا بها ، ونظم قصيدة بعنوان " اثرد نامه " ، أى قصيدة التنين ، صور فيها نفسه تنينا عظيما يبتلع غيره من الشعراء الذين يبدون أمامه جرذانا وثعابين وعقارب . وعاش حياة مريرة ، فقرا وخصاصة وإخفاقا فى الحب ، ثم صلحت حاله بعد أن غادر دلهى ، فقد بره حكام أود ، ولكنه كان خشن الجانب فشاحن حتى أولياء نعمته .

والغزليات والمثنويات خير ما جادت به قريحته ، وقلما بلغ شاعر مستواه العالى فى الأول منهما ، وقليلون بلغوا مستواه فى المثنويات ، ويزه شاعر واحد: مير حسن . وكان رائد فن " بواسوخت " فى الأوردية ، وهو أسلوب يعبر عن العواطف الجياشة ، ويمكن أن نعده ضربا من الغزل ، ولا يتفوق عليه شاعر فيه ، لأنه يوافق طبعه الرقيق المحزون . ولم تكن القصائد عنده من عيون نوعها ، لأنها لا تتفق مع سليقته لما فيها من تعظيم وتفخيم . وقليلا ما نظم المراثى ، ولم يكن شاعر قصر ، ومثل ولى ودرد وآتش عزفت نفسه عن شعر المديح .

نظم مير مجموعات من الغزل ، مابين ثلاثين وأربعين ألف بيت ، وعددا كبيرا من المثنويات ، وأشهرها ما يدور الكلام فيها عن الغرام ، وهى " شعلة عشق"، ونثر سودا هذا المنظوم ، و " داري عشق " ، أي بحر العشق ، و "ساقى نامه " ، ونظمه فى الربيع ، ويضاهي المثنوين السابقين فى الجودة ، وإن كان أوضح نضرة، و " جوش عشق " ، أي جيشان العشق ، وهى منظومة جيدة ، وبقية المنظومات الأخرى قصيرة فى معظمها ، ولا ترقى إلى مستوى ما سبق .

وأولع كثيرا بتربية الحيوان ، فنظم فى كلب وهر ، وعنزة ، وتفوق ديك ، وفى ظواهر الطبيعة ، كالوابل الذى انهمر وهدم دراه ، وفى مرة أعاق سفره ، وفى طلب الرزق ، وفى الركون إلى الدعة ، ووصف رحلة صيد ملكية ، وبعض شعره فى الحب منحط المستوى .

جاء شعر مير فى لغة سهلة واضحة ، أشبه ما تكون بلغة المتحادثين ، قريبا من شعر عمر بن أبى ربيعة فى العربية ، وشعره فى الأوردية أجود ما قيل فيها ، وأجمل النقاد رأيهم فيه قائلين : إن منخفضاته شديد الغور ، ومرتفعاته سامقة العلو ! .

تعاصر سودا ومير ، وكلاهما شاعر عظيم ، وعاشا طويلا فى دلهى ، وكانا على طرفى نقيض : شخصية وأسلوبا فى التعبير . فمير بائس مكتئب ، متشائم معتزل ، مدقع الفقر ، منطو على نفسه ، بعيد عن حياة القصور ، وأسلوبه

سهل، يترك في نفس قارئه أو سامعه عميق الأثر ، وإذا أجاد حلّق عاليا . وسودا مترف باسم ، مبتهج رائق ، يتهافت على الدنيا ، ويأخذ بأسباب النعيم ، يميل إلى القصر ، ويخالط الناس ، وأسلوبه رصين ، محكم السبك ، يسهب ويطنب أحيانا ، ويعتبر قمة أعلام الشعر الأوردى .

وحصاد ما سبق أن مير برز في قصائد الحب والغزليات والمثنويات ، ومدحته الوحيدة وقصائده تتسم بالضعف ، وهجاؤه دون بقية قصائده منزلة . أما سودا فبرز في قصائده ومدائحه ، وجاء هجاؤه لاذعاً . وفي الغزل سرعان ما يخرج به عن حده فناً فيجعله قصيدا ، ومثنوياته في مستوى أدنى ، وتكمن روعة مراثيه في وصفه لسوح الوغى ، وجمال المشاهد ، لا في مالها من عميق الأثر .

ورابع أقطاب الشعر الأوردى العظام مير درد (ت ١٧٨٥) ، وكان صوفيا ، وغلب هذا على شعره ، ولم ينظم مثنويات ولا قصائد ولا أهاجى قط ، ولم يمدح أحدا ، فقد كان رجل دين وتقوى ، وتميز وحده بذلك في دلهى ، التى أقام فيها أربعين عاما كانت عامرة بالفتن .

بدأ جنديا ، ثم أصبح درويشا ، وفي حداثته أخذ يكتب رسائل دينية وكبقية المتصوفة أولع بالموسيقا ، وله رسالة بعنوان " حرمت غنا " ، وهى بالفارسية كغيرها من رسائله ، وهو شاعر غنائي متميز ، قد لا يفضله في الأوردية شاعر آخر ، وبلغت أشعاره من الرقة حدا عاليا ، ومارست على ذوق مواطنيه تأثيرا كبيرا .

● ● ●

وفي هذا العصر نبه ذكر محمد حسين كليم ، حول عام ١٧٥٠ م ، وجمع بين الشعر والنثر ، وترجم إلى الأوردية كتاب فصوص الحكم لابن عربي ، وصنف رسالة صغيرة في العروض الهندى ، ومجموعة أشعاره تتألف من قصائد تقليدية، وكان شعره بالغ الصعوبة فحال ذلك دون سيرورته بين الناس .

ومن شعراء دلهى محمد مير سوز (ت ١٧٩٨) ، فيها تربى ونشأ ، وأنفق شبابه لاهيا مرحاً ، ثم تبدلت حياته حين بلغ السابعة والخمسين ، فنضج عقله ، واستقام فكره ، ودفعه الفقر إلى الرحيل عن دلهى عام ١٧٧١ ، وطال به الترحال من مكان إلى آخر ، إلى أن استقر به المقام فى لكنو عام ١٨٩٧ ،وفيها مات بعد عام ، بعد أن قارب الثمانين عاما .

دون الشعراء العظام ، وإن كان يملك ناصية اللغة ، يحسن اختيار ألفاظه ، ويكتب بأسلوب مستقيم ، ولشعره بهاء ورواء ، ولكن عنايته باللفظ صرفته عن العناية بالمعنى ، ولا نملك من شعره غير سبعة آلاف بيت . وله إلى جانب غزلياته حوالى خمسين رباعية ، ومثنويان أدنى مستوى ، وتميز بقدرته الفائقة على إنشاد الشعر فى صوت رخيم ، بالغ التأثير فى السامعين ، ويقول الشعر سجية وارتجالا .

ونمر عجلين بعدد آخر من الشعراء مقلين ، أو أدنى مستوى ، ونصل إلى مير غلام حسن (ت ١٧٨٦) ، وهو من أعلام الشعر الأوردى ، ولد فى دلهى ، وأمضى صباه فى فيض آباد ، وتعلق بها ، ثم ارتحل إلى لكنو ، واستقر فيها إلى أن وافاه الأجل . وعرف بمنظومته " سحر البيان " ، وهى أشهر المثنويات فى الأوردية ، ونظمه قبل وفاته بعام ، ويحكى فى أوردية رصينة قصة عشق الأمير بى نظير لبدر منير ، ولغته قريبة الشبه بالأوردية المعاصرة ، وله عشرة مثنويات أخرى ، أجودها " كَلزار ارم " ، ويتضمن مدحا لفيض آباد ، وذما فى لكنو ، ومثنوى آخر فى الموضوع نفسه ، ومنظومة فى عرس آصف الدولة ، ويجئ بعد "كَلزار ارم " ، جودة ، وله مثنويان آخران أحدهما فى ألوان الأطعمة الهندية ، والآخر بعنوان " رموز العارفين " ، وقيمته دينية لاشعرية . ومعظم منظومات مير غلام قصيرة نسبيا ، باستثناء مثنوى " سحر البيان " ، فيتألف من أربعة آلاف وأربع مئة واثنين وأربعين بيتا .

وله سبع قصائد فى مدح الحكام وعظماء عصره ، وقيمتها الشعرية ضئيلة ،

ومير غلام شاعر غزل مجيد ، وتتألف غزلياته من عشرة آلاف بيت تقريبا ، ولها خصائص مثنوياته ، وله تذكرة بالفارسية تضم تراجم ثلاث مئة شاعر من شعراء الأوردية ، وتعوزها الدقة فى بعض المواضع . وتعبيره جيد ، وأسلوبه واضح ، رغم الزخارف التى يوشيه بها أحيانا .

وعاش غلام همدانى مصطفى بين عامى ١٧٥٠ - ١٨٤٢ ، وهو من أمرها ، وارتحل فى شبابه إلى دلهى ، وكان حاد الفطنة ، قديرا على ارتجال الشعر ، ينظمه فيما تمليه عليه الحاجة والمناسبة ، ويبيعه فقرا لمن يدفع ثمنا ، ونظم كثيرا، وضاع من شعره أكثر مما بقى ، ومع ذلك ترك ثمانى مجموعات من الشعر ، وأجود ما قاله فى الغزل ، وله قصائد وشعر قصصى ، ويشبه سوز أو مير فى سلالة أسلوبه ، وسودا فى سبك عبارته ، وتخرج على يديه تلاميذ كثيرون . ولغته خالية من الدخيل ، وبها يستشهدون مستمتعين فى وقتنا الحاضر ، وشعره خال من الفحش الذى عم عصره ، وفى كلامه رصانة ورقة ، وصنّف تذكرة بالفارسية ترجم فيها لثلاث مئة وخمسين شاعرا أورديا .

وعاصره إن شاء الله خان أنشا (ت ١٨١٧) ، ويعدونه من أعلام الأدب الأوردى أيضا ، قوى الذاكرة ، واسع المحفوظ ، ينظم فى عدة لغات ، أجهدته الفاقة ، وأنهكته الشدائد ، غير أنه واجه الحياة متهكما ساخرا ، وغلبت الدعابة والهزل على جل ما نظم ، ولم يكن شاعرا عظيما بقدر ما كان كاتبا مجيدا . وهو من مرشد آباد ، جاء دلهى شابا ثم مضى إلى لكنو ، واتصل فيها بابن الإمبراطور ، ولكن غلبة الهزل والدعابة عليه أسقطت منزلته فى البلاط ، ثم طردوه من لكنو ، وأذن له بالعودة إليها بعد حين ، فقضى بقية أيامه فى شبه عزلة . وقد وقع الخلاف بينه وبين الشعراء فى دلهى . وفى لكنو حل مكان مصحفى مرافقا للأمير سليمان ، فاحتدم الخلاف والهجاء بين الشاعرين ، وشجعهما أولياء نعمتهما على التهاجى وكان مصطفى شاعر طبع ، وأنشا شاعر تطبّع ، ينظم فى تكلف أحيانا ، أطفأت حياة البلاط وقدة شعره ، وجردته من

حيويته ، وجعلته متصنعا . وبعد طرده من البلاط مال إلى العاطفة ، وسلس نثره، وكان متنوعاً حافلا بالهزل والدعابة .

تتألف مجموعته الشعرية الأساسية من ثمانية أو تسعة آلاف بيت ، وبعض غزلياته جيد ، والبعض الآخر حظه ضئيل من الشاعرية ، وشعره المعروف بريختي شيّق إلى حد بعيد ، وقيمته اللغوية من الأهمية بمكان ، وقصائده أجود شعره ، وهي ثمان ، وشعره في الهجاء ليس عالي المستوى . وله قصة هندية بعنوان "كهاني تت هندي مين " لم يورد فيها كلمة عربية واحدة ولا فارسية ، وأعظم مؤلفاته كتابه " دياري لطافت " ، كتبه بالفارسية ، والقسم الأول منه رسالة في نحو اللغة الأوردية ، وهي أول رسالة يكتبها هندي في هذا العلم ، وفيها لا يكتفي بالنحو ، وإنما يتناول الأصوات واللهجات ، ويرى أن النطق الصحيح للألفاظ الدخيلة ، عربية أو فارسية ، نلتقي به في نطق العامة .

وكان إبداع يارخان رنكَين (ت ١٨٣٤) غزيرا ، وساعت سمعته على أنه أول من نظم الريختي ، وأدباء الأوردية يعدون هذا النمط تراثا باعثا على الأسف ، من آثار الماضي ، ولا أحد يكتبه الآن . ومع أن هناك من يرى أن هذا النوع من الشعر كان موجودا قبل رنكَين ، إلا أن أنشا يؤكد أن رنكَين أول من أبدع هذا النمط من الشعر ، وإليه وإلى أنشا وجان صاحب (ت ١٨٩٧) ينسب ، وهذا الأخير يعرضه في أقبح صوره ، ونلتقي به محتملا عند أنشا ، ويأخذ عنده قيمة أدبية حقيقية .

يتكون تراث رنكَين من عدة مجلدات ، الأول منها بعنوان " نودتن رذكَين " ، ويتألف من ست مجموعات من الشعر ، أولاها من الريختي ، وثلاثة كتب منثورة أحدها بالفارسية ، وعدة مجموعات من المثنوي ، ويقول الشاعر نفسه إنها تبلغ ستة وأربعين ، تقع في أربعين ألف بيت من الشعر ، أشهرها مثنوي دلبذير ، ومثنوي في كيفية استخدام سبعة أنواع من الأسلحة ، ومثنوي يصف فيه هزيمة المغول على يد مادهوجي سندهيا ، وآخر في الخيل وأمراضها ، وثلاثة

مؤلفات نثريه : امتحان رنكَين وفيه يحاول إثبات أنه أعظم شعراء الأوردية ، ومجموعتان من الحكايات يتحدث فيها عن نفسه ، وأهميتها أنها تلقى ضوءا على حركة العصر ، وكتب الأولى بالفارسية ، وتضم خمسا وستين قصة ، والأخرى تسمى " أخبار رنكَين " وهى بالأوردية ، وتضم ثلاثا وتسعين قصة ، وله قصيدتان ترجمهما عن العربية ، وقصيدة فى الإسلام .

ونمر بصغار الشعراء عابرين لنصل إلى ولى محمد نصير (ت ١٨٣٠) ، وكان آخر الشعراء الكبار فى هذه الفترة ، عاش حياته مغمورا ، وظل كذلك أعواما بعد وفاته ، غير أن تطور الذوق فيما بعد أنصفه ، وجعله أحد سبعة من كبار الشعراء فى الأوردية ، وارتفع به إلى مستوى سودا ، ووجده بالنسبة لشعراء عصره شاعرا غير تقليدى ، لا يأخذ بالنمط الفارسى ، ولا يقلد صور شعرائه ، ولم ينظم قط منظومات طويلة ، وأطول ما له منها فى مجلده الأول يقل عن ٤٥٠ بيتا ، وبقية منظوماته تقل الواحدة منها عن مئتى بيت ، ولم يطبع كثير مما جادت به قريحته .

كان محبا لبلده وقومه ، فعنى بوصف الحياة اليومية فيها ومشاهدها ، وعمل لفترة من حياته معلما ، وبعض قصائده تهم الصبيان وعدد من منظوماته فى الطير والحيوان ، ووصف الاحتفالات الهندية بخاصة ، وظواهر الطبيعة : الليالى الحالكة ، والأيام المطيرة ، وأنواع الأطعمة والأشياء المألوفة كالعملة من الصدف أو النحاس أو الأدوات المنزلية وما تؤلف مشاهدته فى حياة الناس اليومية ، من فقر وغنى ، ونفاق ومداهنة ، وخير وشر ، وهرم وشباب ، والأحلام والموت والكرم، وغمر الناس من الفقراء والمنجمين والتجار ، وله أحدى عشرة منظومة فى أغراض دينية إسلامية ، منها أبيات مأثورة يتغنى بها الناس حتى يومنا .

أمضى ولى محمد شبابه ما جنا ، وحين تقدمت به السن تغيرت حاله ، فاستقام سلوكا ، وحسن خلقا ، ولم يكن على صلة بالبلاط ، ولا مدح أهل الثراء ولا هجا من ينحطون عن مستوى الهجاء ، وهو نسيج وحده شاعرا ، ينظم فى

المألوف من شئون الحياة ، فى تعبير أوردى ليس له شبيه .

وجاء من بعده نصير الدين شاه نصير (ت ١٨٣٨) وكان صاحب مدرسة فى الشعر ، وتميز بعبارته الرصينة ، وجدة تشبيهاته ، وطرافة كنياته ، ويعيبون عليه ميله إلى الألفاظ المهجورة ، مما جعل الناس يعرضون عنه .

وندع أواسط الشعراء أمثال شاه عالم أفتاب ملك دلهى (ت ١٨٠٦) ، ونظام الدين ممنون (ت ١٨٤٤) ، ومن على شاكلتهم ، لنتحدث عن :

● الشعر فى لكنو فى القرن التاسع عشر :

حين لف مدينة دلهى طوفان كاسح من الفتن والشر بدأ الشعراء كافة يبرحونها إلى غيرها من البلاد ، ووجد أهل الأدب ترحيبا كبيرا من البلاطات فى حيدر آباد وبتنة ولكنو ، وهذه الأخيرة أقرب المدن إلى دلهى ، فرحبت بمن وفد عليها من الشعراء ، وسرعان ما أصبحت مثابة الشعر الأوردى ، وكانت الحياة فيها رخية ، والنعيم وارف ، ولقى الشعراء فى بلاطها حظوة ، فتأثروا به ، ومن هنا اختلف اتجاه الأدب فى لكنو عنه فى دلهى .

لقد عكس الشعر فى لكنو صورة القصر وعنايته بالمظهر ، وما يجذب النظر ويروق للأذن ، دون عناية بما للفكر من جمال خفى ، وطوّر هذا الشعر اللغة وطرق التعبير فيها ، وقعّد العلماء هذه الاتجاهات ، وابتكروا الجديدة فى العروض والمجاز ، تشبيها واستعارة وكناية ، وحدّدوا المثل الأعلى لاستخدام الألفاظ ، فى حين أن عناية دلهى بالألفاظ كانت أقل ، واهتمامها بالموضوعات والأفكار أشد ، وأصبحت غاية الشاعر أن يجئ بأفكار دلهى فى لغة لكنو . وبحثا عن هذه اللغة الجميلة زادت لكنو فى طول الغزل ، وعدد القوافى ، وانساق الشعراء وراء اللغة الدارجة ، وألفاظ العامة ، ولكن لا ننسى أن ما كابدته دلهى من محن عمّق تفكيرها ، وحلّق بخيالها ، على حين بدت لكنو فى أسلوبها هيّنة ليّنة رخوة .

أول من نلتقى بهم من الشعراء الذين يستأهلون الذكر فى لكنو شاعرين يتكاملان ، كما هو الشأن فى الأدب الأوردى : مير مستحسن خالق (ت ١٨٠٤) ، ومعاصره مظفر حسين ضمير ، كلاهما من مشهورى ناظمى المراثى ، ولكن خالق لم يكن غزير العلم بالقياس إلى غيره ، وإنْ تناهى رقة ، وكان ضمير واسع العلم عظيم الفطنة ، وإليه يرجع الفضل فى بسط مجال المرثية ، وقبلهكانت مقصورة على وصف أحداث كربلاء ، والغرض منها إعلان الحداد ، والتعبير عن الأسى ، وبعده أصبحت تتألف من ألف بيت أو يزيد ، وتتضمن سرداً لقصص الأبطال الصناديد ، وما يتصل بذلك من وصف الخيل وأسلحة المحاربين ومشاهد الطبيعة حولهم ، ووصف الوقائع والأحداث التاريخية لإثارة الغيرة فى نفوس المؤمنين . ويروى عن الشاعر آتش أنه حين سمع مرثية لدبير من هذا القبيل أن علّق عليها : " أهذه مرثية أم جولة صراع ؟ " ، واليوم فان هذه المراثى هى القاعدة التى يقاس عليها ، وليست الشاذ غير المقيس ، وضمير هو من شق السبيل إلى هذا المجال الرحيب .

كان خالق أصدق شاعرية من ضمير ، يحس اللوعة فى أعماق نفسه ، وصوّرها مستهدفا قلوب السامعين والقارئين ، ولغته سهلة منسابة ، تحرك المشاعر بجمالها ، وتثير الإعجاب بدقتها . وكان ضمير أشد تعلقا بالعلم ، وأقرب إلى التكلف ، ولغته على جودتها ، فيها إسهاب وإطناب ، وخياله بعيد محلق ، وتتطلب جهدا ومعاناة لفهمها وإدراك مراميها .

ثم نأتى إلى ثنائى آخر : آتش (ت ١٨٤٦) وناسخ (ت ١٨٣٨) ، ظهرا معا فى لكنو ، وسيطرا على الدوائر الأدبية ، وكانت لهما الكلمة العليا فيها ، إلى أن توفى ناسخ ، وكف آتش عن قول الشعر . وهما يتفقان مع سودا ومير الشاعرين اللذين ينتسبان إلى جيل سابق فى دلهى .

كان آتش شاعر السجية والسليقة ، وعبّر فى اللغة الدارجة ، وينساب عن قريحة فياّضة ، ساخط على حياة البلاط الناعمة الترفة . وهو قوى البنية ،

يحسن المبارزة ، وجاء شعره قويا فحلا فى جملته ، وأحيانا يخضع للتيار التقليدى ، ويقتصر على وصف مفاتن الحبيبة فى جمال طلعتها ، وفتور لحظها ، وسواد غدائرها ، ورخص كفيها . وارتضى خصومه من شعره صفاء لغته وصحة عبارته ، وأخذوا عليه مجافاته روعة الخيال الشعرى .

وكان ناسخ شاعر اللفظ والصناعة ، يراه أنصار آتش مسهبا غامضا ، وأن شعره سرقات من الشعر الفارسى ، كثير الجرس ، خال من الشاعرية ، وأنه أخفق فى التمييز بين القصائد والغزليات ، فوقع فيما لا تحمد عقباه ، وإذا تجافى عن اللبس وشرود الخيال وقع فى الرخاوة واللين .

والحق أن آتش من أشعر من نظموا الغزليات فى الأوردية ، وله مجموعتان من الشعر ، جمع أولاهما بنفسه ، وتتألف من ثلاثين ألف بيت تقريبا . وبعد موته جمع أحد تلاميذه الثانية ،وتقل عن ربع الأولى فى عدد الأبيات . ويتميز شعره بحمية راضية ، وشعور صادق ، وتفكير مستقيم ، ولغة صحيحة .

واقتصر ناسخ ، مثل آتش ، على نظم الغزل ، وله ثلاث مجموعات ، الأولى بعنوان " دفتر بريشان " وتتألف من ألف وثمانى مئة بيت ، وتقع الثانية فى قريب من ثلاثين ألف بيت ، وأما الثالثة فليست بذات الأهمية ، ونظم كذلك فى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام . وإجمالاً يتميز بالخيال الجامح ، واللغة الغامضة ، والأسلوب الذى يتألف صناعة لفظية . وهو مولع بالألفاظ العربية والفارسية ، وتحاشى الألفاظ الهندية جهد المستطاع . واهتم طويلا بالمذكر والمؤنث وقعّد لهما . وبينما ترخص مير وسودا وشعراء عصرهما فى قواعد العروض ، وصيغ الكلمات ، وطول المقاطع ، واللغة المهجورة ، التزم ناسخ بالقواعد الدقيقة المحكمة.

كانت اللغة الأوردية الأدبية تسمى ريخته ، ولم تكن كلمة أوردو تذكر فى شعر مصحفى وغيره من الشعراء إلاّ لماما ، أما الآن فغدت شائعة الذكر . وكان اسم ريخته يطلق على الغزل أيضا ، ومن الآن فصاعدا استَخدم اسم غزل ، وكان

سودا وجرأت ومصحفى قد استخدموه قليلا . وقد تردد بعض تلاميذ ناسخ وآتش فى كثرة إيراد الألفاظ العربية والفارسية ، والتراكيب الفارسية ، وأساليب شعر الحب فيها ، بما تتضمنه من غلو وإغراق وتشبيهات ، واستعارات وتلاعب بالألفاظ ، ويتحاشون الذكر الممل للغدائر السود ، والخيلان على الخدود ، والبلابل ، والحانة وبنت الحان ، واضطرتهم الحال الرجوع إلى كثير من الألفاظ الهندية التى لا يمكن الإعراض عنها .

الثنائيان اللذان مضيا ، مير وسودا ، وآتش وناسخ ، يذكر اننا بثنائى ثالث ، وإن اعتبره النقاد من الطبقة الثانية : على صبا (ت ١٨٥٤) ومحمد وزير (ت١٨٥٤) ، وكان صبا تلميذا لآتش ، ووزير يعد نفسه تلميذا لناسخ . ولصبا مجموعة كبيرة من الغزليات بعنوان " جنكة آرزو " ، فى أوردية جيدة ، إلاَّ أن معانيها شديدة التكلف . وجَمع شعر وزير بعد وفاته ، ويرونه جميلا بلا روح ، وجاء فى مجلد واحد حمل عنوان "دفتر فصاحت" ، وهو يفضل صبا فى الخيال والغرض الذى يقصد إلى النظم فيه ، ولكنه ينحط عنه فى اللغة والتعبير .

ثم نأتى على الثنائى الأخير فى لكنو وهما : بابر على أنيس (ت ١٨٧٤) وسلامت على دبير (ت ١٨٧٥) ، وهما أعظم شاعرين من شعراء المراثى فى الأوردية ، ومعهما بلغ شعر المراثى الملحمى فى الأوردية ذروته ، وهما متلازمان فى المجال الأدبى ، على نحو ما كان من الثنائيات الى عرضنا لها من قبل .

يعد أنيس أعظم أصالة وأعرق من صاحبه ، ويرى النقاد المحدثون أن أنيسا وغالبا ومير ، أعظم ثلاثة شعراء فى اللغة الأوردية . ويبدو أن الشعر كان متوارثا فى أسرة أنيس ، فجده الأعلى ضاحك ، والأدنى مير حسن ، وأبوه خالق من صاغة القريض ، وامتدت الموهبة لولده نفيس ، وأخيه مؤنس ، وحفيديه جالس وعارف . وأنيس أعظمهم طرا . وقد اشتهرت الأسرة بنقاء تعبيراتها الأوردية الشائعة . ويعبر أنيس بأسلوب سهل منساب ، وله قدرة على الوصف ، تتجلى أكثر حين يصف المشاعر الإنسانية كالحمية والبسالة ، أو مناظر الطبيعة ،

أو مشاهد المقاتلين وهم يقتحمون المعامع ، ويخوضون الغمرات ، ينظم وكأنه يرى بعينه ، ويعبّر كأنما ينقل ما يتحدث به الناس حرفيا . وقد نشر تراثه الشعرى فى أربعة مجلدات تتضمن أكثر من مئة مرثية ، يربو عدد أبياتها على مئة ألف ، شغلت واقعة كربلاء مجلدا منها ، يتألف من مختارات مترابطة ، تشكل قصة واحدة ، تقع بين خمسة وستة آلاف بيت .

وكان دبير أغزر علما فى شعره من أنيس ، ويفوقه سعة خيال ، ولكن يبدو الصقل فى أسلوبه ، وتوخى الألفاظ التى لها بريق ورنين ، وإن جاءت قلقة فى موضعها ، لتعبر عماً لم تقع عليه عين من المشاهد . ونظم نصف ما نظم أنيس تقريبا ، فقد جاء نتاجه فى مجلدين كبيرين ، واختص بالمراثى أيضا ، وتميز بثراء لغته ، وأفكاره تدل على الفطنة والخيال أكثر مما تؤثر فى النفس ، وحماسته للحياة أضعف من حقيقة الحزن التى صورها أنيس فى شعره .

ونعرف أن حكام لكنو جميعا كانوا يعالجون الشعر ، مثل بنى عباد فى الأندلس ، وأكثرهم شعرا هو آخر من حكم منهم بين عامى ١٨٤٧ و ١٨٥٦ ، وهو واجد على أختر ، وقد أزيح عن ملكه ، ونفى إلى كلكتا ، ويستحق القراءة ديوانه " حزن أختر " وفيه يصف ما نزل به من أهوال وشة فى منفاه ، وتلك الرسائل التى كتبها إلى زوجته الحبيبة إليه من كلكتا ، وهو فى هذا قريب الشبه من المعتمد بن عباد .

وثمة شعراء آخرين كثيرين ، من الطبقة الثانية ، من تلاميذ آتش وناسخ ، متوسطى الجودة ، يستأهل أن نشير من بينهم إلى آقا حسن أمانت (ت١٨٥٨)، وله عدد من المرثى فى الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ومجموعتان من الغزليات ، وتمثيلية شعبية تسمى " أندر صبها " ، وترجع أهميتها إلى كونها التمثيلية الأولى فى اللغة الأوردية .

● **عصر دلهى الثانى :**

مر بنا كيف دالت دولة الشعر فى دلهى ، ولكن الشعر لم ينضب كلّية ، إذ حمل رايته بعض الشعراء الذين لم يرحلوا منها . وفى الربع الثانى من القرن التاسع عشر بُعث الشعر مقترنا بأسماء مؤمن وذوق وغالب . وكان بهادر آخر ملوك دلهى شاعرا يخالل الشعراء ويستقبلهم فى قصره ، ولكنه نفى إلى بورما إثر الفتنة ، وكانت وفاته عام ١٨٦٢ .

كان محمد إبراهيم ذوق (ت ١٨٥٤) ، أول شاعر ذا أهمية بعد إحياء الأدب فى دلهى ، وضاع معظم تراثه فى الفتنة التى وقعت ، وجمع تلاميذه ما استطاعوا من تراثه ، ولدينا الآن إثنا عشر ألف بيت تقريبا تبصرنا بما فاضت به شاعريته . وَلَد لخادم فقير فى دلهى ، وظل معدما طوال حياته ، وكمعلمه نصير، وشاجره من بعد ، أقرب فى نوعية شعره إلى مدرسة لكنو منه إلى مدرسة دلهى. وهو قريب الشبه بناسخ ، يفرط فى استخدام المحسنات ويتلاعب بالمعانى ، مما غض من شاعريته ، دون أن يخرجه هذا عن دائرة شعراء الأوردية المجيدين ، ومن النقاد من يعده فى الطليعة . نظم خمس عشرة قصيدة ، كل واحدة منها فى ما يقرب من مئتين وخمسين بيتا ، وله عدة غزليات كان فيها أقل توفيقا . وقدرته على التعبير أعظم من شاعريته ، وإن كان ينظم فى اتساق وانسجام ورصانة أسلوب .

ويعد أسد الله خان غالب (ت ١٨٦٩) فى طليعة شعراء الأوردية ، ويبالغ أنصاره فيقولون إن للهند كتابين : الفيدا وشعر غالب . ودون أن نمضى معهم إلى نهاية الشوط نراه أحد شعراء الأوردية الكبار . تزوج صبيا ، وانعقدت الآصرة بينه وبين أحد البارسيين ، أى الفرس الذين لجأوا إلى الهند عند الفتح الإسلامى، واحتفظوا بدياناتهم القديمة ، يسمى هرمزد ، اعتنق الدين الإسلامى ، فلزمه غالب ، وتعلم الفارسية على يديه ، وقد تمكن منها ، ونظم فيها أكثر مما نظم في الأوردية ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى هذه ، ليثبت قدرته على الإبداع فيها ، وما

لبث أن افتتن بها ، وامتلأ زهوا بتضلعه منها ، وجاء الكثير من شعره فيها مفعما بالفارسية ، واختلف أصدقاؤه والنقاد حوله ، فمنهم من احتذاه ، ومن أخذ عليه هذا الاتجاه مفعما بالفارسية ، واختط لنفسه أسلوبا أسهل وأصفى .

كان غالب عظيم الكفاءة ، عميق التفكير ، صائب النظر ، تجاوز أفكار الشعراء القدامى ، وجاء بفكر بديع فى أسلوب جديد ، يجمع بين الجد والهزل ، فى دعابة مستملحة شيقة ، ينظم وينثر فى غير كد ولا إعنات ، وتراثه أشهر ما نظم فى الأوردية ، وهو فى أربعة آلاف بيت تقريبا ، ومجلدات من النثر ، يتضمن أولها ، وهو بعنوان " عود هندى " رسائل ونقدا وتقريظا ، والآخر بعنوان " أوردوى معلى " ، ويتضمن رسائل فحسب . ويخيل إليك فى الرسائل أن غالباً يتحدث إليك ، بساطة ويسرا وصراحة ، وحديثا عما يقع له كل يوم مما يسره أو يحزنه ، وفى هذه الأخيرة يكون أشد تأثيرا ، فقد كان الشاعر عليلا ، لم يعش له ولد ، وكابد من نكد العيش وصروف الدهر ما فوق طاقة أولى العزم . وعلى النقيض فى النقد والتقريظ ، جاء أسلوبه مسجوعا على نحو ما كان شائعا فى عصره . ووفق فى نظم الغزليات بخاصة .

ومن الشعراء المرموقين فى عصر بهادر شاه الثانى الشاعر محمد مؤمن خان مؤمن (ت ١٨١٥) ، وشغف بالتنجيم والطب والشعر ، ويعدونه من كبار الشعراء ، وإن كان دون الطبقة الأولى ، نظم كثيرا فى الغزل ، وله تسع قصائد وعدة قصص غرامية منظومة ، وبعض المنظومات والمثنويات تحمل طابع السيرة الذاتية ، ومنظومة بعنوان " مثنوى جهادية " فى الجهاد الإسلامى ، وأضفى ولعه بالتعبيرات الفارسية شيئا من الغموض على شعره ، وتميز بالخيال الجامح والصور البيانية الغامضة .

وكان بهادر شاه الثانى ظفر (ت ١٨٦٢) ، ملك دلهى من ١٨٣٧ إلى ١٨٥٨ ، صاحب مجلدات من الشعر ، وتقع فيما يربو على مئة وثلاثين ألف بيت أغلبها غزل ، وهو شاعر خير منه ملكا ، ينظم عفو الخاطر وفى

سهولة مطلقة ، فشاعت منظوماته وذاعت ، يطرق الموضوعات التقليدية أبلاها القدم فينفخ فيها روحا جديدا من عنده ، ولكنه يخفق إذا حاول أن ينظم في غرض جديد.

،من الشعراء أصغر على خان نسيم (ت ١٨٦٤) ، من دلهى ، رحل عنها إلى لكنو حيث استفاضت شهرته شاعرا مكثرا يتحلق حوله التلاميذ . ويشيد بفضله محسن على موسوى فى تذكرته " سرابا سخن " ، وفيها ترجم لأكثر من سبع مئة شاعر معظمهم من معاصريه ، ويراه قديرا على تقعيد أصول فن الشعر وله أشعار جياد ، جمع فيها بين الفكر المبدع والأسلوب المشرق ، واللغة البارعة ، تتجلى كأوضح ما يكون فى مقدماته لفصول ألف ليلة وليلة ، وهى أفضل مما للشاعر ظهورى .

وندع وراءنا عدة شعراء من الطبقة الثانية وما دونها ، لنأتى إلى الشعراء الأربعة الكبار فى بلاط رامبور ، ونبدأ باثنين منهما : أمير أحمد ميناى (ت. ١٩٠٠) ، وهما يذكران معا ، ونواب ميرزا خان داغ (ت ١٩٠٥) ، وهما يذكران معا ، وكثير مما قيل عن مير وسودا يمكن أن يقال عنهما .

كان أمير صاحب صناعة ولفظ رنان ، مثل سودا فى إجادة نظم القصيدة التى تدعو الحاجة فيها إلى العبارة الضخمة الفخيمة . على حين كان داغ موهوبا ، صاحب ملكة أصيلة ، ولغة سهلة ، مثل مير فى إجادة نظم الغزليات التى تتطلب سهولة التعبير وعمق التأثير ، وكل منهما ، وداغ على الخصوص ، توفر مع الأسف على نظم شعر ساقط أخلاقيا . ولأمير معجم يسمى " أمير اللغات " يشهد له بالعلم ، بدأه على نطاق واسع ، ولم ينشر منه غير قسمين ، وانتهى المعجم بحرف الألف ولما يبلغ نهايته . وقد نظم شعرا كثيرا فى أغراض دينية ، فى مولد النبى عليه الصلاة والسلام بخاصة ، وحياته ومماته وشمائله ، ولكن شعره لا يتميز بجودة الشاعرية ، ويحس به المؤمن فاترا سطحيا .

ضاعت مجموعة غزليات أمير الأولى خلال انقلاب وقع عام ١٨٥٧ ، واسمها

" مرآة الغيب " وبعد أن أنجز نظمها تنبه إلى أن زمان هذا اللون من الشعر قد انقضى ، وأدرك أن صديقه المنافس داغ استأثر باصغاء الناس إليه ، فعزم على تغيير أسلوبه ، وكان هذا صعبا على رجل تقدمت به السن ، ومع ذلك حاول حتى قالوا عنه : إنه كلّما تقدم فى كبره عاد إلي صغره ، وفى تقليد لداغ أصبح شعره أسهل ، كما أكثر من استخدام التعبيرات الدارجة المألوفة ، ويعدون مجموعته الثانية " صنم خانه عشق " أفضل من الأولى ، ولكنه لم يلحق بداغ ، لأن هذا تخصص فى نظم الغزل القصير بخاصة . ومجموعته الثالثة برمتها فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام . وله مجموعة رسائل ، وتذكرة تسمى " انتخاب يادكَار " تتضمن تراجم مفصلة للشعراء الذين عاشوا فى رامبور . وبعد أن قضى أعواما طوالا فى هذه المدينة غادرها إلى حيدر آباد حيث لقى الله بعد قليل من قدومه إليها .

وبلغ داغ مكانة لا تسامى عند مواطنيه ، ويراه الأكثرون أحد اثنى عشر شاعرا يمثلون الصفوة بين شعراء الأوردية ، وشعره متناسب متجاوب ، ينساب فى سهولة ، فى تعبيرات دارجة صحيحة ، ولكنه لم يستطع أن يعبر عما تموج به أعماق الشعور ، وامتد به إلى القرن العشرين ، غير أنه ينتمى إلى المدرسة التقليدية ، وتلميذ لذوق الذى يميل إلى أسلوب لكنو ، وإن كان ينتسب إلى دلهى ، ويمكن أن نقسم تراثه إلى قسمين ، تعودان إلى فترتين من الزمن مختلفتين : فترة رامبور ، وفترة حيدر آباد .

فى رامبور وجد داغ نفسه محاطا بطائفة من الشعراء الذين تناولوه بالنقد ، فبذل قصارى جهده فى شعره ، وأخرج روائعه " كَلزار داغ " و " أفتاب داغ " و"فرياد داغ " . وبعد رحيله إلى حيدر آباد أخرج " مهتاب داغ " ، و " ياد كَار داغ " مع ملحقه . ولكنه وجد نفسه فيها ، هنىّ البال ، محاطا بالمعجبين ، ليس بينهم من يتهجم عليه ناقدا ، فتراخى وأهمل ، وتجلى هذا فى شعره .

وثالث الأربعة تسليم ، واسمه الحقيقى أحمد حسين (ت ١٩١١) ويسمى

على الدوام أمير الله . ولد بالقرب من فيض آباد ، وبعد قليل رحلت أسرته إلى لكنو ، وفيها قضى معظم أيام عمره سعيا فى طلب الرزق ، لأنه ظل فقيرا معدما على الدوام ، وتأثر بالقدماء منهجا وتفكيرا وشعرا ، وله ثمانى منظومات أو فاها حظا من التقدير : " نائله تسليم " و " صباح خنده " و " دل وجان " . وله كتاب رحلة بعنوان " سفر نامه نواب رامبور " ، وتتألف من خمسين ألف بيت ، ولما تنشر ، وله خمس مجموعات من الشعر إحداها مخطوطة ، وضاعت أخرى فى " الفتنة " ونَشرت ثالث منها : " نظم أرجمند " و " نظم دلفروز " و " دفتر خيال " .

وتضم هذه الأخيرة مدائح فى قريب من ألفى بيت ، غزليات فى نحو أحد عشر ألفا ، وأشعار فى فنون أخرى تتألف من ألف وثلاث مئة بيت . ودفتر خيال يقع فى حجم " نظم دلفروز " ، ولا يضم غزليات قصيرة ، و " نظم أرجمند " يضم خير ما قال فى الغزل ، وقصائده سهلة الأسلوب تناسب شعر الغزليات . ويعد تسليم ، من بين ذلك الحشد من الشعراء الذين تجمعوا فى رامبور ، أشهر من نظم المثنويات ، ولغته سهلة واضحة ، وخياله محلّق ، وتتلمذ عليه كثير من الشعراء.

ويجئ ضامن على جلال (ت ١٩٠٩) آخر الشعراء الأربعة الكبار ، ذاع صيته فى بلاط رامبور ، لسعة علمه بمسائل النحو والعروض ، ويجئ شعره فى أربعة مجلدات ضخام ، تضم عشرين ألف بيت ، بين قصيدة وغزلية ، وألف عدة كتب فى اللغة ، بينها كتيبات صغيرة فى أقل من مئة صفحة ، منها : " مفيد الشعراء " ، وهو دليل فى المؤنث والمذكر من الألفاظ ، وآخر بعنوان " سر مايه زبان أوردو " ، وهو مجموعة مفيدة من التعبيرات الشائعة ، وكتابه " قواعد المنتخب " يدرس ما يلحق الألفاظ من تغيرات ، وصنف قاموسين للغة الأوردية .

من الصعوبة بمكان أن يدرك المرء سبب شهرة تسليم وجلال ، لأن قصائدهما وغزلياتهما تقليدية ، تتميز بروعة التعبير أكثر مما تتميز بعنف التفكير ،

وتتضمن الشكوى العامة من حبيب قاسي القلب ، يقتل العشاق ، وتصف ما يكابد المحبون من برحاء قلب كليم ، على حين تتسم القصائد بالمديح المغالى ، والمبالغ فيه . كانا نهاية العصر التقليدى ، ولم يدركا طلائع عصر الشعر الجديد.

● موازنة بين الشعر الأوردى والفارسي والعربى :

يقول الأستاذ عبد السلام الندوى فى كتابه " شعر الهند " ، موازنا بين الشعر الأوردى والفارسي والعربى : " الشعر الأوردى ظل الشعر الفارسي فى أكثر موضوعاته ، ففيه من العيوب ما يُرى فى الشعر الفارسي إذا قيس بالشعر العربى ، ويمكن أن نجمل هذه الفروق فى النقاط التالية :

● يفيض الشعر العربى بموضوعات البطولة والشجاعة والإقدام والمخاطرة ، والعزة والغيرة والحزم ، والحرية والإخاء والإيثار ، وقرى الضيف وما إلى ذلك . وكل هذه الموضوعات قليلة فى الشعرين الفارسي والأوردى .

● يصور الشعر العربى تصويرا بيّنا أحوال الحضارة والاجتماع والأسرة ، وأساليب المعيشة والأزياء ، وهى أمور لا تظهر فى الشعرين الفارسي والأوردى .

● أغرم العرب بالمرأة ، وأبانوا فى التغزل بها عن العواطف الإنسانية السامية، والشاعر فى الفارسية والأوردية يتخيل معشوقا يتحدث عنه فى جوانب كثيرة غير مستحسنة ، فينحط العاشق والمعشوق من الوجهة الأخلاقية .

وفى الشعر الأوردى مزايا الشعر الفارسي التى بز فيها الشعر العربى ، وهى:

● المثنويات ، أى المنظومات المطولة ، كثيرة فى الشعر الفارسي ، والأوردى ، ولا يعرفها الشعر العربى .

● مناظر الربيع والأمطار التى صورها شعر الفارسية والأوردية تصويرا دقيقا، لم يستطع شعراء العربية تصويرها لأنهم لم يروها .

● الفرس يفوقون العرب فى خيالات الحب والغرام ، وقد أبدع الشعر الأوردى

في بيان لطائف العشق ودقائقه محاكاة للشعر الفارسي .

● يكثر شعر الفلسفة والتصوف في الفارسية والأوردية ، ولا نظير لهما في الشعر العربي " .

وهي أحكام صادقة في جوانب منها ، وفي بعضها الآخر تحتاج لمزيد من التحرير والمراجعة .

● النثر :

سبق لنا القول ، ونحن نعرض لبدايات الأدب الأوردي ، أن ألمحنا إلى أن بوادره في الدكن كانت من النثر الديني ، فألّف عين الدين كنج العلم ، وخواجه بنده نواز ، وشاه ميراجي وابنه أهم من كتب نثرا في تلك الفترة ، ولم يكن بينها كتاب أدبي بمعنى الكلمة ، إذ كان طابعها دينيا بحتا ، وإن تميز بعضها بجودة نثره ، وذلك يعني أن الأوردية كان لها منذ البدء نثر أوردي ، لا يبعد كثيرا عن الأوردية الحاضرة .

ثم بدأت الترجمة من الفارسية إلى الأوردية تزاحم الكتب الدينية في هذه الفترة ، وتنوعت هذه الكتب المترجمة بين دينية وأخلاقية ومنظومات ، وازدهرت الترجمة أكثر حين أنشأت شركة الهند الشرقية (لصالحها طبعا !) كلية فورت وليام في كلكتا ، ووضعت على رأسها الدكتور جون بورثويك كلشرست الطبيب بها ، وكان ضليعا في اللغة الهندوستانية (= الأوردية) . حتى أنه وضع لها معجما ، وألف في نحوها كتابا ، واستدعى علماء كثيرين للعمل بها ، فجعل منها مركزا علميا ، ورغب إلى جماعة منهم ، مسلمين وهندوكيين ، أن يقوموا بالترجمة إلى جانب الدراسات الأخرى ، فنقلوا من السنسكريتية إلى الهندية ، ومن العربية والفارسية إلى الأوردية ، وأدى هذا إلى نهضة عظيمة في كتابة النثر ، وعندما رحل كلشرست عن الهند أصاب الحركة شئ من البطء والتراخي .

تراوحت الترجمة بين الشعر بأنواعه ، والنثر وكتب الدين والتصوف والتاريخ

والأخلاق ، ثم أقبل المؤلفون بتأثير من الفارسية على تأليف ما يعرف بالتذكرة ، يوردون فيها سيرة شعرائهم وكتابهم ، وكان النثر فى الأعصر الأولى مسجوعا على النمط الفارسى .

ولكن أسد الله خان غالب غيّر مجرى كتابة الرسائل فى الأوردية ، حين أحل البساطة والعفوية محل الصناعة والتكلف ، واحتذاه الكتاب من بعد ، وإن لم يبلغ أحد منهم مبلغه .

وأثر سير سيد أحمد (ت ١٨٩٨ م) فى الأوردية تأثيرا لم يكن لرجل بمفرده قط على امتداد القرن التاسع عشر ، وقد تبوأ عدة مناصب حكومية ، وأخرج كتبا عديدة ، وعاون فى تشكيل جمعيات ، وأصدر مجلة تهذيب الأخلاق . وهو يكتب فى أوردية بسيطة متدفقة ، تتجاوز أسلوب من سبقوه من كتاّب الصحافة وأثار منهجه كثيرا من ردود الأفعال ، وأدى إلى اشتباكات فكرية حادة ، أفادت الثقافة والأدب منها ، دون أن يعنى ذلك انهزام الأسلوب التقليدى المتمثل فى السجع ، إذ كانت سيطرته على النفوس بالغة .

وقام محمد حسين آزاد (ت ١٩١٠) أستاذ اللغة العربية فى كلية الحكومة بلاهور بدور شبيه ، ويراه بعضهم أكتب من كتب فى الأوردية نثرا ، فهو بديع الإنشاء ، رائق الديباجة ، يستخدم ألفاظا هندية معبرة ، وبألفاظ عربية وفارسية غير مألوفة ، ويعبر عن أفكاره بطريقة شاعرية ، دون أن يتوخى السجع والتراكيب الرنانة ، واستطاع فى كتب مبادئ القراءة التى ألفها للمطالعة أن يكتب أسهل لغة أوردية ، ومثلها مجموعته " قصص هند " . و أشهر مؤلفاته " أب حيات " ، وهو تاريخ الشعر الأوردى ، ويؤخذ عليه أنه تقبل فيه كل ما ذكره الآخرون دون تمحيص ، ويتضمن بعض النقد الأدبى ، ونشر فى كتاب أشعار معلمه ذوق . وله كتاب كبير فى التاريخ بعنوان " دربار أكبرى " . وكان إلى جانب هذا واسع العلم بالفارسية ، وأصدر فيها كتبا للمطالعة ، وكتابين فى تاريخ الأدب الفارسى هما : " سنحندان فارس " و " نكَارستان فارس " ، ودراسة رمزية بعنوان " نيرنكَ خيل " .

كان أثر آزاد واضحا فى التعليم والصحافة والأدب ، وأعظم إنجازاته فى النثر، وأسلوبه فى الكتابة لا يجاريه فيه أحد . وفى الشعر افتتح مع الشاعر حالى ما يمكن أن نسميه عصرا فكريا جديدا .

وينتمى شبلى نعمانى (ت ١٩١٤) إلى أسرة موسرة هيأت له أسباب العلم، فالتمسه فى مهابطه المختلفة ، ونعمانى نسبة للأمام أبى حنيفة النعمان ، فقد كان شبلى حنفى المذهب ، وتمسك به حتى آخر حياته ، ويعد من كتاب الهند العظام ، وقد حج ، وأقام فى المدينة المنورة مدة ، ولما عاد إلى الهند عيّن أستاذا للعربية والفارسية فى جامعة عليكرة ، فعمل بها ستة عشر عاما ، وأسندت إليه رياسة الجمعية العلمية فى لكنو . وبذل أعظم العون لندوة العلماء ، وهى مؤسسة لدراسة أصول الدين والتاريخ الإسلامى . وأسس فى أعظم كره دار المصنفين أو أكاديمية شبلى ، وكانت الغاية الأولى من تأسيسها دراسة الآداب الإسلامية ، وبخاصة الأدب العربى و الفارسى والأوردى ، وقامت هذه المؤسسة بجهد عظيم فى جمع المخطوطات والعناية بها .

كان شبلى كاتبا غزير الإنتاج فى الموضوعات التاريخية والدينية والأدبية ، ويتصل الكثير من مؤلفاته بتاريخ الإسلام ، وأهمها : سيرة النبى عليه الصلاة والسلام فى ثلاثة مجلدات ، وسيرة النعمان ، والفاروق ، والغزالى ، والمأمون ، وسوانح عمر مولانا روْم . وأهم مؤلفاته فى الأدب موازنة بين أنيس ودبير ، وبيان خسرو ، وشعر العجم ، وهو تاريخ للشعر الفارسى فى خمسة مجلدات . وله كتاب " سفر نامه : مصر وروم وشام " ، وفيه دون رحلته إلى مصر وتركيا وسوريا، وأبدى ملاحظاته على ما شاهد من مظاهر التدهور السياسى فيها ، وتبدو من خلال أفكاره المتطيرة بارقة الوحدة الإسلامية ، التى تطورت فيما بعد إلى مذهب سياسى أفضى به أخيرا إلى الاعتزال عن عليكره عام ١٨٩٨ . ونشر مجموعة من المقالات والرسائل والمحاضرات ، وله عدة دواوين شعرية ، ولكن شعره أدنى فنيا من مستوى نثره بكثير .

يعد شبلى من بين أعظم كتاب النثر فى الأوردية ، أسلوبه فخيم ، جاف أحيانا، ويناسب موضوعاته إلى يطرقها دائما ، يتحاشى الإسهاب والمبالغة ، وقد يردد الفكرة الواحدة بعينها أكثر من مرة ، ولكن فى ألفاظ جديدة ، وعبارات مختلفة .

● ● ●

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، يتجه كتاب النثر فى الأوردية ، وبخاصة نذير أحمد ، وسرشار وعبد الحليم شرر ، إلى كتابة القصة ، بسيطة ساذجة فى البداية ، وعظية هادفة فى غايتها ، تاريخية فى طورها الثانى ، ثم تبلغ القمة أخيرا ، ودراستها فيما أعتقد تتصل بالعصر الحديث ، ولم نعرض له فى أى أدب إسلامى .

والشئ نفسه يمكن أن يقال عن محمد إقبال (١٨٧٥ - ١٩٣٨) شاعر باكستان العظيم ، وفيلسوف الإسلام الأكبر ، فقد أعطى ثمرة عقله ، وروعة إبداعه فيما نعده طليعة النهضة ، أو بداية العصر الحديث .

الآداب الإسلامية فى أفريقيا

[غير العربية]

● **تحديد ضرورى :**

أفريقيا مفهوم جغرافى وليس ثقافيا ، لأنها تجمع بين أكثر من ثقافة مختلفة، ولإعطائها تحديدا ثقافيا أضيق نلتقى بمصطلحات : شمال أفريقيا ، وأفريقيا غير الإسلامية ، وهو تعبير غير دقيق ، إذ ما من بلد أفريقى إلا ويقيم فيه مواطنون مسلمون ، أو أفريقيا جنوب الصحراء ويستخدمه الأوربيون عادة ، يقصدون به عزل شمال القارة العربى عن جنوبها الأفريقى . ومع أن القسمين يتباينان ثقافيا ، وليس بينهما تاريخ مشترك ، لكن الثقافات المختلفة تبادلت التأثير فيما بينها ، وارتبطت بعلاقات قوية ، ولو أن هذه العلاقات لم تأت على هذه الاختلافات تماما .

إن مصطلح " أفريقيا الشمالية " واضح ومحدد ، فهى تنتسب إلى العالم العربى والإسلامى ، وتمتد حدودها إلى السودان بمفهومه فى العصر الوسيط ، فتشمل مالى والنيجر وتشاد ، حيث تسود الثقافة الإسلامية خالصة أو ارتبطت بمناخ ثقافى أفريقى آخر ، فخالطها شئ من الهجنة ، وأما دائرة الثقافات الأفريقية الأخرى فلا يمكن أن تكون محَددة بوضوح ، لأن مصطلح " أفريقيا السوداء " مثلا مفهوم جغرافى يعتمد على القبائل ، ولا يمكن استخدامه دون مخاطرة ، لأنه يعنى التوحيد بين الثقافة والقبيلة ، كما أن تعبير ثقافة أفريقيا السوداء ، أو أرض الأفارقة السود ، لم يعودا متطابقين منذ عدة قرون ، ففى شمال أفريقيا السوداء توجد قبائل مسلمة كثيرة تمثلت الثقافة الإسلامية جيدا ، ومن جانب آخر فان الثقافة السوداء انتقلت إلى العالم الجديد ، أى الأمريكتين ، وهو ليس أفريقيا بطبيعة الحال .

ومصطلح " أفريقيا جنوب الصحراء " طويل وبليد ، يتجنب ما هو قبلى ، ولكنه ليس دقيقا ، لأن الخط الفاصل بين ثقافتى شمال الصحراء وجنوبها ليس حاسما ، ولا يجرى مع حدود الصحراء دائما ، لأن الصحراء نفسها لا تعدم فى أركانها القاصية جماعات غير إسلامية إلى جانب سكانها المسلمين ، كما يصعب أن تصوغ من هذا المصطلح صفة سهلة جارية فتقول " ثقافة أفريقية جنوبى صحراوية " ، إنها جملة ثقيلة ، تجرها خيول كما يقول التعبير الإسبانى .

ومع ذلك ، فنحن جميعا نعرف ما تعنيه هذه المفاهيم غير الدقيقة ، إنها تعنى أرض الشعوب التى تعيش هناك وثقافتها ، فى داخل القارة ، فيما وراء جنوب الصحراء ، وأنها تملك منذ القدم تاريخها الذاتى ، ونمّت فى عزلتها النسبية ثقافات خاصة بها ، وبعامة كانت مراحل تطورها اللغوى مشتركة ، وكل لغاتها فيما يقول العالم اللغوى جوزيف هـ . جرينبرج Greenberg J . H. ، فى كتابه "لغات أفريقيا " ، وصدر فى لاهاى عام ١٩٦٣ ، تنتمى إلى العائلة " الكونغو - كردفانية " ، والتى تمتد فى ما وراء جنوب ليبيا فى أرض كانت مجهولة ، وسماها بطليموس فى مصوره بأنها أجيسمبا Agisymba .

لا يعرف أحد حتى الآن أصل هذه الكلمة أو معناها ، ويُظن أنها تتضمن هضبة تبست Tibesti جنوب فزان ، ومنطقة بحيرة تشاد ، والأراضى الواقعة جنوب خط الاستواء . وفى عصر بطليموس فان كلمة أفريقيا لم تكن تعنى غير ساحل البحر الأبيض المتوسط ، حيث تقع سرته ، وهى اليوم تونس ، وفى الغرب منها نوميديا ، وهى ما بين قرطاجنة وموريتانيا ، وكانت كلمة موريتانيا تطلق على المغرب كله ، وفى الشرق منها برقة وليبيا ومصر ، وجنوب هذه الأراضى يعرفون جتول Gètules وفزان والحبشة وبلاد النوبة ، وكل ما وراء هذا كان مجهولا ، وهو الذى أطلق عليه بطليموس اسم أجيسمبا ، ويرى جهان جانهينز Janheinz Jahn صاحب كتابى " الآداب الأفريقية Geschichte der Neo-afrikanischen Literatur وصدر فى دوسلدورف - كولون (ألمانيا)

عام١٩٦٦، وكتاب " مونتو : الثقافة الأفريقية الجديدة "Muntu : Umrise der neoafrikanischen Kultur وصدر فى المكان نفسه عام ١٩٥٨ ، أن تعريف بطليموس هو أفضل التعريفات ، ولهذا عاد إلى استخدامه فى كتابيه المذكورين، وآثرت استخدامه فى أغلب الأحيان .

أدب أجيسمبا الموروث شفوى ، ولكن منذ أن اتصل أهله بالثقافة الإسلامية أولا ، وبالغربية من بعد ، على مهل فى البدء وبعمق أخيرا ، أبدعوا أدبا مكتوبا . وبعض الذين اغتال الأوروبيون حريتهم وأخذوهم رقيقا إلى أوروبا وأمريكا أبدعوا على امتداد القرنين السادس والسابع عشر فى لغات أوروبية ، وصنعوا الشئ نفسه فى بلادهم ذاتها فى مطلع هذا القرن ، عندما انتشرت فى بلادهم البعثات التنصيرية ، تسرق منهم تاريخهم ولغتهم وثرواتهم ، وتعطيهم بدلا منها الإنجيل .

فى أجيسمبا ، أو أفريقيا غير العربية إذا كنت تسبت ، لا تستطيع أن تقسم الأدب لغويا ، لأن هذه المنطقة من أشد مناطق العالم تعقيدا فى هذا الجانب ، وبعضهم يذهب بها إلى أكثر من ثمانى مئة لغة ، وتقدرها خريطة مدرسة اللغات الشرقية فى جامعة لندن بألف وخمس مئة ، فضلا عن اللغات الأوروبية . وأياً ما كان الرقم الدقيق ، فالذى لا شك فيه أنها تضم نحو نصف لغات العالم قاطبة ، فهى أكثر من الهم على القلب (قلوب من لديهم إحساس من المسلمين !) ، وبحسبك أن تعرف أن إذاعة أوغندا تذيع بثمانى عشرة لغة ، لمساحة من الأرض تبلغ نحو ثلث مليون كيلو متر مربع ، ولعدد من السكان لا يزيدون على عشرة ملايين .

هذا لايعنى أن هذه اللغات بمعزل بعضها عن البعض الآخر تماما ، وأن أهلها لا يتواصلون ، لأن ثنائية اللسان اتسعت بفعل العلاقات التجارية ، وخلال فترة الاستعمار الأوروبى بخاصة ، حيث فرضت كل دولة مستعمرة لغتها على البلاد التى تحكمها ، فكانت هذه أداة الاتصال بينهم وبين جمهرة غفيرة من الأفريقيين

وبالتالى بين الأفارقة بعضهم البعض إلى جانب اللغة العربية التى تمثل همزة الوصل فى شرق أفريقيا ووسطها ، وكان مقدرا لها أن تصبح لغة القارة بأجمعها الثقافية على الأقل ، لولا الهجمة الاستعمارية الأوروبية الشرسة ، وبعثات التنصير المنتشرة ، وتفرق العرب وغيبة وعيهم ، وجهل بقية المسلمين وضعفهم .

ولا يمكن تقسيم الأدب جغرافيا ، وإن تركت الجغرافيا آثارا جانبية فيه ، لأن مثل هذا التقسيم لا يطابق واقع الأدب فى القارة ، فمصطلح الأدب الأفريقى يشمل الأدب العربى ، وأدب البوير وآداب أجيسمبا ، وبينها من الاختلاف أكثر مما بينها من التشابه ، ولأنه يسقط العلاقة القوية القائمة بين أدب أجيسميا والأدب الإسبانى فى جزر الكاريبى ، كوبا والدومينيكان ، أو الفرنسى فى هايتى ، وحتى ما بين الأدب العربى فى شمال أفريقيا ومتابعه فى الشرق . إن تصنيفا جغرافيا كهذا ، يتجاهل طبيعة الثقافة ، وحركة التاريخ ، وأساليب الأدب !

مضحك ، ومستحيل أيضا ، أن نصنّف الأدب تبعا للون الجلد ، أو مسقط رأس المؤلف ، لأنها تقسيمات تَقحم على الأدب من خارجه ، والذين يستخدمون تعبير " الأدب الأسود " أو " أدب السود " ، أو " أدب الزنوجة " ، فإنما يستخدمون لون الجلد ، واعين أو غير واعين ، فى تحديد نوعية الأدب ، أو طبقته، أو مستواه ، ولا صلة بين الاثنين : اللون والإبداع . ذلك يعنى – مثلا – أننا نصف أدب إنسان أسود ، ولد صدفة فى البرتغال ، وتربى هناك ، وتثقف فى البرتغالية ، وكتب مسرحياته فيها ، بأنه أديب أسود وليس برتغاليا . والشئ نفسه يمكن أن نقوله عن عنترة أو عبد بنى الحسحاس فى اللغة العربية .

إن الأدب يَصنف تبعا لنوعه ، وظواهر ونتائج تحليله ، التى تحتفظ لكل عمل بقيمته الذاتية ، ونضم الأبنية المتشابهة بعضها إلى بعض ، فى قوائم متتابعة ، أدبية ، تنظر إليها من حيث الأشكال والأفكار و التعبير ، وفى ضوئها نتابع تطور أى أدب ، ونقنن القواعد التى تحكم حركة سيره ، ونؤكد على الظواهر التى تترك أثرها فيه سلباً و وإيجابا .

يعود أدب أجيسمبا المكتوب في أصوله إلى النقطة التي التقت عندها ثلاث ثقافات : ثقافة أجيسمبا نفسها ، والثقافة العربية الإسلامية ، والثقافة الغربية الاستعمارية ، والالتقاء بين الثقافتين الأولى والثانية أنتج ما يمكن أن نسميه الحضارة الأجيسمبية الإسلامية العربية ، وتولد عن التقاء هذا المزج بالثقافة الغربية ، ما ندعوه بالثقافة الأجيسمبية الجديدة ، وهو ما يعني أن هذا الأدب يتضمن عناصر ثلاثة : أفريقية خالصة ، أو ممتزجة بالثقافة العربية الإسلامية ، أو مضافا إليهما ثقافة المستعمرين الأوروبيين . وهذه الثقافة الأخيرة هي التي يسمونها الآن تحديدا " الأدب الأفريقي الجديد " وما قبلها يطلق عليه " الأدب الأفريقي التقليدي " ، والخط الفاصل بينهما هو الخط الذي يفصل بين الأدب الشفوي والأدب المكتوب ، والأول من هذين لمّا يدرس أدبيا ، إلاّ في جانب جزئي منه ، مما يجعل مهمة الدارس عسيرة للغاية .

● الأدب الشفوي :

منذ أكثر من مئة عام بدأ الباحثون يكتشفون أدب أجيسمبا ، ويجمعون وينشرون بعض ما يقعون عليه ، أمثلة وحكما وحكايات وأغاني وقصصا وروايات ، ووجدوا أنفسهم يقتحمون عالما جديدا وغريبا ، ومثيرا للدهشة ، ويواجهون أدبا لم يألفوه من قبل ، ولم يعرض له النقد الأدبي في بلادهم ، وعليهم أن يعتمدوا على آرائهم الذاتية في تكوين فكرة عنه .

ومنذ ثلاثة أرباع قرن تقريبا عبر كارل مينهوف Karl Meinhof وهو قسيس ألماني تخصص في اللغات الأفريقية بعامة والسواحلية بخاصة عن دهشة الجمهور الأوروبي من العمل العملاق الذي قدمه ليو فروبينوس Leo Frobenius في اثني عشر مجلدا عن الأدب الأفريقي في العشرينيات من هذا القرن ، وتضمنت ثروة هائلة من الحكايات والأمثلة التي لا تقل أهمية وروعة عن حكايات الآخرين في بقية العالم ، وكشفت عن حقيقة روح الأفريقي وفكره ، عمقا وشفافية ، وكانت مفاجأة لكل الذين شغلوا أنفسهم بالأدب الأفريقي ، وبالقارة وقضاياها في تلك

الأيام ، وربما حتى يومنا هذا ، وفتحت عيون الباحثين على عوالم إنسانية جديدة وبدا واضحا أن ما هو فطرى ، أو بدائى ، ليس سيئا على الدوام .

عندما نشر أوجست سيدال August Seidal مختاراته عن الأدب الأفريقى فى برلين عام ١٨٩٦ ، وتبعه مينهوف بكتابه Die Dichtung der Afrikaner ونشره فى برلين عام ١٩١١ ، فتحا أمام الباحثين فى اللغات الأفريقية وآدابها ، والروح الأفريقى وطموحاته ، المجال واسعا للبحث والتحليل والمواصلة . يقول مينهوف فى مقدمة كتابه : " يبحر الشعر فى خطوط غير منتظمة ، بلا قافية ، ويمكن للقارئ أن يلحظ أن إيقاعه يختلف عن إيقاع النثر ، ولكن بينهما شئ مشترك من الإيقاع الشعرى ، والأمر برمته لماّ نكتشف منه غير جوانب محدودة ، ووجدت أن هناك لونين مختلفين من النبر ، جديدين فيما يتصل بالأذن الأوروبية على الأقل، ومهما يكن فان الإيقاع الموسيقى يلعب دورا بالغ الأهمية ، وقد يمر وقت قبل أن نصل إلى القواعد الدقيقة التى تحكم هذا الإيقاع ، ذلك أن الشعر الأفريقى ، شأن غيره ، ازدهر فى ظل الغناء والموسيقا ، والموسيقا الأفريقية لماّ تدرس بعد دراسة كافية ، رغم جهد كبير على امتداد سنوات طويلة ، بذلناه فى هذا المجال، لكى نعتمد عليها فيما يتصل بدراسة الإيقاع الشعرى ، وكل ما نعرفه عنها أنها تقدم لنا إيقاعاً متنوعاً ومعقدا ، ومن ثم فعلينا أن نتحقق من كل خطوة نخطوها فى هذا المجال ، إلى أن ندرس المادة نفسها بعمق أكثر ، يسمح لنا بأن نقدم فيها جديداً ".

ولكن ملاحظات مينهوف لماّ تصبح خطة تحتذى ، وفقدت الدراسات الأفريقية فى أوروبا دافعها القوى بسقوط الاستعمار الأوروبى نفسه ، وأصبحت علما مساعدا فى خدمة دراسات أخرى ، وهناك من يأتى الآن إلى أفريقيا من الغربيين ليلتقط الأشعار والقصص والحكايات ، لابهدف دراستها أدبيا ، واستخراج قوانينها الأسلوبية ، وإنما ليضعها فى خدمة علماء الأجناس واللغات ، وعلم النفس واللاهوت ، أو يضمها إلى متاحف العادات والتقاليد والنماذج الإنسانية

القائمة فى أوروبا ، يعود إليها المؤرخ والمربى والمنصّر ليجد فيها مادته الأولية ، ويغترف منها الباحثون عن الأساطير ما يشاءون ، أمادراستها أدبا بالمعنى الدقيق للكلمة ، فلما يزل حقلاً بكرا يحتاج إلى حاملى الفئوس .

عرض لى هذا السؤال : إلى أى مدى يمكن أن نعتبر النصوص الشفوية التى التقطها الأوروبيون (غيرهم لم يصنع شيئا) لغايات لغوية وعرقية وتنصيرية أدبا حقيقيا ؟ . وإذا بسطنا مفهوم الأدب ، ولابد أن نبسطه ، لكى يشمل الشفوى منه ، فهل نعد كل ما وصلنا شفاهاً أدبا ؟ مثلا : هناك الحكم التى يرسلها شيوخ القبائل المسنون فطرة ، والصيغ التى يتفوه بها المتقدمون فى الطقوس الدينية ارتجالا ؟ . وبمعنى أدق : هل المعرفة التى نتلقاها ، نعدها ثقافة أم إبداعاً ؟ والأمران جد مختلفين ، والثانى منهما فحسب هو الذى يمكن أن نعده أدبا بالمعنى الدقيق للكلمة .

هل يمكن فى حالة الأدب الشفوى أن نستبعد دور الراوى فى النقل ، حين يختار وحين يعدّل ، تبعا لمزاجه ، أو استجابة لذوق الجماعة التى يتوجه إليها ؟ . ربما كان من الأوفق أن نفرق بين حالتين : راو ينقل المادة كما هى ، بطريقة تقليدية ، وآخر يعيد خلقها ليجعلها أقوى تأثيرا ، وأشد جاذبية ، فهو بذلك يعيد تشكيلها على نحو ما ، وحينئذ تصبح أدبا ، لأن الشكل يقوم بدور أساسى وحاسم فى تحديد ماهية الفن ، فالموسيقا أنغام موقعة ، والفن التشكيلى مادة معدّله مرخمة ، والأدب لغة مصورة ، وهو فى كل الحالات مستقل عن أية وظيفة اجتماعية ، ودون العنصر الجمالى ومبدأ التشكيل لا يوجد فن ولا أدب . إن مَثَلاً ما ، أو حكمة ما ، يمكن أن تكون أدبا ، لأنه ينقل معرفة ، وإنما لأنه يعبر عن شئ ، بطريقة موحية ومثيرة ، مهما كانت الحقيقة التى يقدمها ، معرفة أو لاشئ ، مبتذلة تافهة أو جديدة مبتدعة ، ومن ثم فادراك شعور من ينطق بالمثل أو الحكمة بالغ الأهمية فى تحديد قيمته الأدبية مثل إدراك شعور من يسمعه تماما .

كتب دوك كليمانت مرتين Doke Clement Martyn في مجلة الدراسات الأفريقية [1] يقول : إن مجرد إلقاء نظرة على شكل أدب الحكمة فى أى من لغات البنتو يظهر لنا ببساطة الاختلافات الواضحة لا فى دقة التعبير فحسب ، وإنما فى طبيعة الإيقاع أيضا ، وما أكثر ما يجعل من الحكمة شعراً ، وقدم أمثلة كثيرة لهذه الحكم ، ووازن بينها فى الإيقاع والتحريف والقوافى .

● المادة :

هذه المواد التى جَمعت وكُتبت تحتاج إلى مراجعة جيدة ، نحدد معها إلى مدى احترمت الكتابةُ الأسلوب الشفوى . ونقطة الانطلاق فى مثل هذا العمل أن تكون هناك قائمة مصادر وافية للأدب الأفريقى ، لا تقف عند حد المختارات الشعرية والحكم والحكايات والأساطير والقصص والأغانى فحسب ، وإنما تضم أيضا الأبحاث التى قام بها علماء الأجناس ، والمقالات التى نشرها الدارسون حوله فى المجلات المختلفة ، والمبعثرة فى أرض الله الواسعة ، ومدونات الرحالة الى ذرعوا القارة شرقا وغربا ، شمالاً وجنوبا ، وسجلوا أخلاطا مما سمعوا وشاهدوا وقرأوا ، وأن تخضع هذا كله للتمحيص والتدقيق والتعليق .

كان الباحث الفرنسى أوجين كزالى Eugène Casalis أول من التقط مجموعة من الحكايات الأفريقية ونشرها فى باريس عام ١٨٤١ ، وتضمنت ستا وخمسين حكمة ، ترجمها إلى الفرنسية ، وهو أول كتاب يتضمن حكما أفريقية فى لغاتها الأصلية . وبعده بعامين جاء صمويل أ . أو شاجبو Samuel Adjai Crowth er de Oschagbo ، وهو أفريقى التقطة المنصرون وحرروه من الرق ، ثم نصروه وعلموه فى سيراليون ، وأدخلوه سلك الرهبنة ، وصعدوا به أسقفا لبلده ، فنشر كتابا بلغة أفريقية فى " قواعد لغة يوروبا " . وكانت هذه المختارات الأولى قليلة ، والغاية منها تعلّم اللغة ، وفى هذه المجال لعبت البعثات التنصيرية دورا

---

١ - مجلد ٦ ، عدد ٣ ، جوهانسبرج ١٩٤٧

هاما ، وأقامت لهذا الأمر مركزا في مورجا Morija في بسوتولاند ، سرعان ما أصبح أهم مكان لدراسة الأدب الأفريقي ، ونشر عام ١٨٩٣ أول مختارات منه لأحد الوطنيين ، واسمه عزرائيل سكيس Azariel Sekese بعنوان : Buka ea Pokello ea mokhoa ea Basotho يتضمن نصوصا لحكايات وحكما متوارثة .

وقريبا من نهاية القرن التاسع عشر التقط الباحثون عبر القرى أشعارا تجئ منفردة ، أو خلال حكايات ، ونشروا بعضها في كتب اللغة أو المجلات ، وقام أوجست سيدال بنشر مجموعته التي أشرنا إليها فيما قبل ، ونهض رودلف بريتز Rudolf Prietza وكارل فيلتن Karl Velten بدراسة الشعر السواحلي بجدية ، ووجداه شعرا حقيقيا ، بتأثير من الأدب العربي المكتوب الذي كان يغمر الأراضي السواحلية ، وقام أولهما بترجمة الملاحم الحماسية ، واختص الثاني بترجمة الأغاني .

وتوالى بعد ذلك نشر المختارات في مجموعات أكبر فنشر ليو فروبنيس Leo Frobenis مختاراته " الصباحات العشر السوداء " عام ١٩١٠ ، وقارن فيها بين عمله هذا وكتاب بوكاشيو الأديب الإيطالي الشهير ، ولقي كتابه هذا نجاحا واسعا شجع مينهوف على أن ينشر كتابه حكايات أفريقية عام ١٩١٧ ، مما أغرى فروبنيس بنشر مجموعته عن الأدب الأفريقي ، وبدأها عام ١٩١٢ ، وحملت اسم أتلانتيد Atlàntid ، وأنهى المجلد الثاني عشر منها عام ١٩٢٧ وفيها جمع مئات الروايات والحكايات والقصص ولأساطير والخرافات والموروثات المتنوعة .

إنها منجم لا ينفد !

وشاعت بين جمهور أوروبا مجموعة بليز سندرار Blaise Cendrars ، وحملت عنوان " مختارات سوداء Anthologie Nègre " ، ويراها النقاد أسوأ المجموعات، وكان مؤلفها مجموعة متناقضة من المواهب والرذائل والفضائل ، بحارا وبهلوانا ومرتزقا وصحفيا وشاعرا ، وجمع مواد كثيرة ، ومزج بين

موروثات شعوب مختلفة ، دون أن يشير فى أىّ منها إلى موطنها الأصلى ، أو الشعب الذى أبدعها ، وأضاف إليها كثيرا من التوابل اللاذعة ، وترجمها إلى اللغة الفرنسية ، وأقام عليها نظريته الخاصة بتكوين العالم ، ومع ذلك حظى الكتاب بأهمية لم تحظ بها بقية المختارات ، فترجم إلى الإنجليزية والإسبانية ، وبعض حكاياته تُرجم فى اللغة الواحدة أكثر من مرة . والمختارات التى تلت هؤلاء وجيلهم أفادت منهم ، وندين لهم بالكثير ، وآخر جهد فى هذا الجانب ، مما أعرف ، قام به هويتلى Whiteley , W. H. ، فقد نشر مجموعة مختارة من الأدب لأفريقى عام ١٩٦٤ ، أفاد فيها ممن سبقوه نقداً وتمحيصا ، وفتحت أمام الدارسين نوافذ جديدة يطلون منها على الأدب الأفريقى، وقدم - ربما للمرة الأولى- رأيه فيما سبق من مختارات .

بداهة القائمة التى أشرت إليها ليست كاملة ، ولا تمثل كل التراث الأفريقى ، ولا تجئ المواد فيها متساوية ، ويمكن أن تضيف إليها الأبحاث والدراسات والأشارات العامة التى نشرت فى المجلات المختلفة خلال مئة العام الماضية ، وكلها تقدم مادة خاماً ، ذات قيمة عالية ، لمن يرغب فى دراسات أسلوبية متميزة . وإلى جانب هذا فان مراكز الأبحاث الغربية تملك قدرا هائلا من الأشرطة، سجلت عليها هذا الأدب الشفوى ، وترجمته إلى هذه اللغة الأوروبية أو تلك ، حسب موطن المركز ترجمة حرفية أحيانا ، ومتحررة أحيانا أخرى ، ومصحوبة بمقدمات تعرض لدوافع النصوص ومكانها وظروفها ،ولكن هذه الدراسات بالكاد بدأت ، ومطلوب أن تستمر ، وأن يكون لنا فيها دور ، بوصفنا أفارقة ومسلمين وعربا .

● خصائص عامة ومشتركة :

الجانب العريض من الأدب الأفريقى غير العربى ، وغير المعاصر ، يتصل بقضايا إسلامية ، عقيدة وشريعة وتاريخا ، وفى مجمله يتوجه إلى جماهير غير قارئة ، تنشده وتتغنى به من الذاكرة فى قصائد موقعة ، أو تستمع إليه يقوم

بانشاده أناس محترفون من الفقراء والعميان ، يرحلون به ارتزاقا من قرية إلى أخرى ، وينشده الطلاب جماعة فى رحلاتهم ، وفى المساجد ، وتدور قصائده وهى مطولة فى الثناء على الله ، ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، ودعوة المؤمنين الطيبين إلى الاقتداء به ، واتخاذه مثلا أعلى فى حياتهم ، هو وصحابته والتابعين من بعدهم ، وتمجد عظماء المسلمين الذين اضطلعوا بنشر الدعوة ، وبناء الدولة ، والحفاظ على العقيدة .

وهو يشجب الوثنية ، والتقاليد الجاهلية ، ويدعو إلى الأخلاق الإسلامية ، ويستعين على ذلك بالحكمة والمثل والموعظة ، وليمس عواطف الجماهير ، وهى أمية ويثير حماستها بقوة ، فانه يستخدم لغة مزخرفة وموقعة ، يتوجه بها إلى عواطف الجماهير وذواكرها ، فتعلق بها ، وإلى النساء فيحفظنها ، وإلى المجاهدين الذاهبين إلى القتال دفاعا عن دين الله ، وحتى النثر جاء مسجوعا موقعا ، وتتطلب قراءة مخطوطاته جهدا وتركيزا وعناية .

وهذه الأعمال ذات الإلهام الدينى ، أو التى تقدم على أنها كذلك ، تمارس تأثيرا بالغا على الجماهير ، وهى الأكثر احتراما وتقديرا بينهم .

أما الأعمال التاريخية ، وهى أبعد غورا وأكثر قدما ، فتعود إلى فجر الإسلام فى هذه البلاد ، فتمثل فى جانب منها على الأقل تاريخ المستمع نفسه ، ولكنها تجئ ملحمة أدبية أكثر منها وقائع تاريخية حقيقية ، وإذا افتقدنا فيها صحة الحدث التاريخى فقد كسبنا روعة الخيال الأدبى ، ومع ذلك فهى تقدم لنا قدرا هائلا من المعلومات عن حركة المجتمع الأفريقى فى غابره وحاضره ، وتعكس قلقه وهمومه ، وتصور ذوقه وطموحاته ، ومن ثم يصبح الأدب إلى جانب فنيته وثيقة اجتماعية هامة .

تصاغ هذه الملاحم فى اللغة العربية أو اللغات الأفريقية نفسها ، وتجئ شعرا أو نثرا مسجوعا فى كلتيهما ، وتنشد جماعة كما قلنا مصحوبة بايقاع موسيقى ويصاغ الشعر منها مخمسا ، ويجئ فى بحر الكامل ، وقد يتغير البحر تبعا لطبيعة القصيدة : دعاء أو وصفا أو مدحا ، وغاية القائل فيها جميعا أن يقول

شيئا ، وأن يفهمه القارئ أو السامع فى نهاية الأمر .

وثمة أدب هجائى بسيط يدور حول عيوب العصر ، ورذائل رجال الدين ، وقوة المرأة وسطوتها ، وتقف مادته وموضوعاته وأفكاره فى الجانب المواجه للأدب الدينى ، وأحيانا تأخذ الأهاجى شكلا سياسيا حين تتخذ من سياسى ، أو حاكم ، أو حتى عامل أقل نفوذا ، هدفا لسهامها ، وهى بعامة لا تتجه إلى الجماهير ، ويقتصر تداولها سرا على مجموعة بعينها ، وتنسب إلى مجهول ، وفى هذه الحالة يغلب أن تكون باللغة العربية ، ويحدث أن يقوم آخرون ، فى مقاطعة أخرى ، بترجمتها إلى لغتهم الأفريقية ، وإشاعتها عن طريق العميان وجماعات الإنشاد لها .

من الصعب معرفة مؤلف هذه الهجائيات ، أو الحديث عنه ، أو معرفة مولد هذا الأدب الثورى على نحو ما ، ولكن مادتها تشى فى كثير من الأحيان بطبيعتها واتجاهها ، فقد تكون تمردا من متدين من الخاصة ضد طغيان حاكم إقطاعى أو ظالم ، فيسمونه بعدم الكفاءة ، وقلة الثقافة ، وانعدام الأخلاق . وأصحاب هذه الأهاجى يقفون بها عند الاحتجاج ، والدعوة إلى الغضب ، وقلما يتجاوزون الكلام إلى العمل ، ويكتفون بالدعاء على الطاغية ، داعين الله أن ينتقم منه . وهى عادة لاتتمرد على نظام قائم ، أو وضع مستقر ، وكل ما تريده من الحكام ، باسم الدين والعقل ، أن يؤدوا وظائفهم بأمانة ، وأن يرعوا الله فى مواطنيهم ، ومن هنا يمكن أن نعد الأهاجى الاجتماعية والسياسية صرخة مستغيث من أقلية مثقفة ، مصلحة ومستنيرة ، ومع أن مثل هذا الأدب غير ثورى بالمعنى الدقيق للكلمة ، لكنه يصنع لمبدعيه ومنشديه مجدا ، ويضفى عليهم الكثير من التقدير والاحترام .

تشترك اللغات الأفريقية المختلفة فيما سجلته من آداب بلغاتها ، أنها فى حالات كثيرة تكتب المقدمة والخاتمة والتعليقات باللغة العربية ، وتستخدم الكثير من الألفاظ العربية التى شاعت فى اللغات الأفريقية ، وتحتذى بحور الشعر العربية ، وبناء الجملة ، وتقع حتى فى بعض الضرورات اللغوية العربية .

● ● ●

بين هذا الطوفان من اللغات الأفريقية فان ثلاث مجموعات تتميز بينها بشيوعها ، واتساع مساحاتها ، وهى : السواحلية والهوسا واليوربا ، وسأعرض للأولى والثانية ، وأعتذر عن الثالثة ، لأن حكم الأقلية البيضاء ، الذى سيطر على جنوب أفريقيا ، موطن لغة اليوربا الأساسى ، عزل مواطنيها عن العالم ، وحاصرهم بالجهل والصمت ، فلا نعرف عن لغاتهم وآدابها غير القليل ، أو لا شئ ، وعبثا حاولت أن أجد مصادر فى اللغة العربية ، أو فى اللغات الأجنبية التى فى مكتنتى ، تعيننى على معرفة شئ من أدبهم ، أو يلقى عليها ولو بصيصا من الضوء .

أود أن أقول أيضا إن الحديث عن الأدب الأفريقى لا يتناول ما كان باللغة العربية فى تلك البلاد ، لأنه من وجهة نظر مقارنة أدب عربى ، يجرى عليه ما يجرى على الأدب العربى نفسه تأثيرا وتأثرا ، ولا يعرض للأدب ذى المواضيع الإسلامية ، وكتبه غير مسلمين ، لأن مجاله الأدب المقارن ، فنحن هنا بصدد الأدب الإسلامى الذى كتبه مسلمون فى لغاتهم الوطنية . ونبدأ بدراسة:

● السواحلية و أدبها :

نسبة إلى كلمة سواحل العربية ، ويقصد بها سواحل أفريقيا الشرقية ، ويطلق اللفظ أيضا على سكان هذه المناطق ، ممن ينتمون إلى الحضارة الساحلية ، وتجمعهم ثقافة واحدة .، ويتبعون الطريقة الإسلامية فى الحياة ، وإن كانت عنصريا تضم قبائل مختلفة ، من أصل عربى أو فارسى ، أو ينتمون إلى قبائل أفريقية شتى ، ومنهم سكان جزر القمر وجزيرة مدغشقر ، وآخرون فى داخل أفريقيا ، اعتنقوا الإسلام أو يتعاملون تجاريا مع أهل الساحل .

وهى إحدى لغات البنتو الكثيرة المنتشرة في هذه المناطق ، ولكنها استعارت كثيرا من ألفاظ اللغات الأخرى ، أوضحها العربية وتمثل ٤٠٪ من مجموع ألفاظها ، وبخاصة المفردات التجارية ، والمصطلحات الفقهية والحضارية ، تليها الفارسية ، ثم البرتغالية والألمانية والهندية ، وتأتى الإنجليزية أخيرا ، وهى أهم

لغات شرق أفريقيا ، وإحدى لغات العالم الرئيسية الآن ، وازدادت أهميتها بعد استقلال تلك الدول ، وأصبحت اللغة القومية فى تنزانيا وكينيا ، فهى لغة الإدارة والجيش والشرطة والتعليم الابتدائى ، ولها مناهجها فى جامعات البلدين.

وقد بدأت اللغة السواحلية بأشكالها ولهجاتها المعروفة فى الظهور منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، وانتشرت على طول الساحل ، من جنوب الصومال إلى شمال موزمبيق ، وحملها التجار معهم إلى أواسط القارة ويلغوا بها زامبيا وشرق زائير وروانذا وبورندى ، وبعض أوغندا ، وجزر القمر ، وجزيرة مدغشقر ، ويمكن القول إنها تُفهم فى موانئ البحر الأحمر الجنوبية ، وعلى طول ساحل شبه جزيرة العرب وعمان وحتى سواحل الهند الغربية .

ولا يعنى ذلك أنها لغة موحدة ، تستخدم بصورة واحدة فى كل تلك المناطق ، وإنما شأن أى لغة أخرى تتكلم فى مناطق واسعة ووسائل الاتصال المادى والفكرى بينها واهنة أو معدومة ، أو لأسباب جغرافية أو تاريخية أو سياسية أو مذهبية ، ولو أن هذا التعدد توقف ، وبدأ ينحسر ، بعد أن قامت فى تلك المناطق حكومات وطنية من جانب ، وتهاوت الحدود الفاصلة بفعل وسائل الاتصال الحديثة من جانب آخر . وحين انعقد مؤتمر التعليم فى دار السلام عام ١٩٢٥ لتدارس أمر اللغة القومية التى يتخذها الأفارقة ، انتهى رأيهم إلى اختيار اللغة السواحلية .

وبعد ذلك بأعوام ثلاثة ، أى فى ١٩٢٨ انعقد مؤتمر آخر فى ممباسا ، وحضره العالم اللغوى الألمانى المتخصص فى لغات شرق أفريقيا كارل مينهوف Kqarl Meinhof وتقرر فيه اختيار لهجة زنجبار من بين عدة لهجات تعرفها السواحلية لتكون لغة قومية لتنزانيا (وكانت يومها تحمل اسم تنجانيقا) ، وذلك قبل أن تتحرر من الاستعمار البريطانى ، وكانت بعثات التنصير وراء هذا الاختيار ، لأن

هؤلاء المنصرين كانوا ينتشرون جماعات على امتداد ساحل شرق أفريقيا وفى داخلها ، ولكن أقواها كان فى مدينة زنجبار ، وهو أمر له دلالة أخرى بعيدة ، لأن ٩٥٪ من سكان زنجبار من المسلمين ، فيسهل التعامل معهم ، وأكد هذا الاختيار أيضا أن لهجات الشمال السواحلية ، ومن بينها لهجة زنجبار ، ذات تراث أدبى وتاريخى أكثر مما عليه الحال فى لهجة الجنوب ، لاتصال الشمال بالحضارة الإسلامية مبكرا وعلى نحو أعمق .

وفى عام ١٩٣٠ وَضع قرار المؤتمر موضع التنفيذ ، واعترفت اللجنة اللغوية للمنطقة بلهجة زنجبار لغة رسمية وقومية ، للتعليم والإدارة ولأدب ، وفى الوقت نفسه قامت اللجنة بجهود كبيرة لتوحيد طريقة كتابة اللغة السواحلية ، وإعداد معجم جديد لها ، وكتابة قواعدها ، وتألفت لجنة لاختيار النصوص المدرسية وترجمة الكتب العلمية ومراجعتها ، وتشجيع المؤلفين الذين يتكلمون السواحلية أن ينشروا مؤلفاتهم بها ، وفيما بعد صدرت أول جريدة باللغة السواحلية ، وأنشئ معهد أبحاث اللغة بجامعة تنزانيا .

لم تكن مهمة تأصيل السواحلية صعبة ، ولم تجد فى طريقها عقبات لا يمكن التغلب عليها ، لأن الاستعمار الألمانى أولا ، من عام ١٨١٨ إلى ١٨٨٥ ، جعل السواحلية لغة التعامل الوحيدة مع السكان الأصليين ، واهتم بتدريب الموظفين على استخدامها فى الإدارة ، وجاء من بعدهم الإنجليز فواصلوا الطريق نفسه ، لأنهم وجدوه الأسهل فى التعامل مع المواطنين ، وإن لم يسمحوا للسواحلية أن تكون فى مستوى الإنجليزية ، فقصروا التعليم بها على المرحلة الابتدائية فقط ، وفى المحاكم الابتدائية فحسب ، والمجلات الصغيرة ، وأما الصحف الكبرى والمجلات الجادة فتصدر باللغة الإنجليزية ، وهكذا كانت لغة الإدارة ، ومن يرغب فى وظيفة عليه أن يجيد الإنجليزية .

بعد استقلال تنجانيقا عام ١٩٦١ ، وضم زنجبار [1] إليها بالقوة فى اتحاد

---

١ - يتكون الاسم من كلمتين : زنج وبَرّ ، وهما عربيتان ، ومعنى بر الساحل ، أى ساحل الزنج .

فيديرالى عام ١٩٦٤ ، يحمل اسم تنزانيا ، بدأت الحكومة تتخذ خطوات علمي وعملية لتأكيد سيادة اللغة السواحلية . فعهدت إلى جامعة دار السلام القيام بمهمة البحث فى تاريخ اللغة ، ونشر النصوص المكتوبة بها ، ولما تزل مخطوطة ، ووضعت وزارة التربية برامج خاصة بتعليمها فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، ووفرت لتلاميذها الكتب اللازمة ، وقطعت فى هذا شوطا بعيدا ، فبدأ تعليم كل المواد باللغة السواحلية ، وأصبحت هذه شرطا أساسيا للحصول على شهادة الثانوية ، وأنشأت فى الجامعة قسما خاصا بدراسة الأدب السواحلى وأصبح منذ عام ١٩٧٠ يمنح شهادة الليسانس فى هذه اللغة ، وذلك لإعداد مدرسين لتدريسها فى المدارس المختلفة ، وأنشأت الوزارة أيضا وظيفة موجه اللغة السواحلية ، يشرف على تعليمها فى مدارس الأطفال ، ويؤكد للقائمين على التدريس على أهمية تأكيد التراث السواحلى فى نفوس التلاميذ ، وعلاقة ذلك ببناء الأمة السواحلية ، وضرورة تعميقه فى نفوس الناشئة .

وقامت وزارة الثقافة بدورها فى هذا المجال ، فأنشأت قسما خاصا باحياء اللغة السواحلية ، مهمته أن يصوغ المصطلحات الجديدة التى يتطلبها التقدم العلمى ، وإعداد معجم للغة السواحلية ، يقوم على كتابته لجنة من أعضاء هيئة التدريس فى جامعة دار السلام ، وفى عام ١٩٦٧ أنشأ المجلس القومى للغة السواحلية لجنة خاصة تقوم بهذه المهمة ، قطعت فى مهمتها شوطا كبيرا .

وهناك هيئات مستقلة مهمتها تشجيع اللغة والأدب السواحلى ، مثل جمعية الشعراء السواحليين ، وجمعية تنمية اللغة السواحلية ، وجمعية تشجيع الأدب السواحلى ، وكلها تهدف إلى تحديث اللغة وأدبها ، وخلق أنواع أدبية حديثة كالرواية والقصة والمسرحية .

لكن هذا لا يعنى أن السواحلية هى الوحيدة المستخدمة فى الحياة ، وهو ما يمثل صعوبة كبيرة فى مواجهة اتخاذها لغة وحيدة ، فالحق أن ظاهرة تعدد اللغات واضحة فى تنزانيا ، ولا يمكن - مثلا - الاستغناء عن اللغة العربية ، لأنها لغة

تأدية الشعائر الدينية عند المسلمين ، وعددهم ليس بالقليل ، وهم يمثلون - مثلا- ٩٥٪ من السكان في زنجبار ، وبخاصة أن العرب لعبوا دورا حضاريا عظيما في هذه المنطقة ، فقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر تكتل الشعوب المتحدثة باللهجات المختلفة ، المختلطة باللغة العربية ، من رأس ديلاجدو في الجنوب إلى لامو في الشمال ، ومعهم سكان جنوب الصومال ، تحت سلطان آل بوسعيد في عَمان ، واتخذت هذه السيادة شكلا واقعيا منذ أن حررت عمان الساحل من سلطان البرتغاليين في نهاية القرن السابع عشر ، وأكدها حاكم قوي موهوب ، هو الإمام سيد سعيد ، وحكم من ١٨٠٦ إلى ١٨٥٦ م ، واختار زنجبار قاعدة عملياته في شرق أفريقيا ، ثم انتقل إليها من مسقط وجعلها عاصمته عام ١٨٤٠ ، وأصبحت الجزيرة بفضله مخزنا تجاريا ، وملتقى كل السفن الأجنبية ، وسوقا عالمية ، وفاق العرب غيرهم في التجارة ، لأنهم أحسن نظاما وأوفر مالا . وفي أوغندا تقابل النفوذ العماني ، قادما من الساحل الشرقي وتمثله تجارة زنجبار ، بالنفوذ المصري قادماً من الخرطوم ، مكتشفا وباحثا ومحضرا ، ولكن الاستعمار الأوروبي الصاعد في تلك الأيام ، وبخاصة البريطاني ، رأى في امتداد النفوذين خطرا على مصالحه ، فأخذ في القضاء عليهما معا .

لعب العرب دورا رئيسيا في نشر التعليم في شمال الساحل الشرقي لأفريقيا وتركت اللغة العربية أثرا واضحا في الحياة الثقافية ، فأزاحت الأمية ، وربطت بين المجموعات الأفريقية ذات القبائل واللهجات المختلفة ، وربطت بينها وبين العالم العربي ، وشاع استعمالها في كينيا وتنزانيا إلى جانب السواحلية ، والتي كانت تكتب بالحرف العربي كما أومأنا من قبل ، واكتسبت السواحلية الكثير من السمات الصوتية والصرفية والنحوية العربية ، واستقبلت فيضا من الكلمات العربية ، وتركت تأثيرها في الأدب السواحلي كما سنرى ، وأكب الناس على تعلمها لأسباب اقتصادية واجتماعية وثقافية ، إلى جانب الدينية ، ولكن

الاستعمار وجمعيات التنصير والقومية الأفريقية حاصرت العربية لكى تقتصر على الشعائر الدينية ، وانحسرت عن المجالات الأخرى التى كانت تستخدم فيها من قبل ، وحلت مكانها الإنجليزية لغة المستعمر فى التعبير عن المفاهيم الحديثة التقنية ، والاقتصادية والسياسية .

ويرى عددكبير من الوطنيين الأفارقة أن السواحلية تستطيع أن توفى بالاحتياجات التقنية الحديثة ، وأن تستخدم فى مواقف كثيرة كانت تستخدم فيها الإنجليزية من قبل ، وهو اتجاه يضعفه أن التعليم الجامعى باللغة الإنجليزية ، وأن جانبا من مواد التعليم الثانوى لا تزال تدرس بها ، وأن الطبقة العليا والمثقفة تتحدث بالإنجليزية رغم أنها تجيد السواحلية ، وأن الإنجليزية لها أهميتها فى العلاقات الدولية ، وبخاصة بعد الهيمنة الأمريكية على العالم ، ومع ذلك تحرص الحكومات على أن تتحدث أجهزة الإعلام ، مسموعة ومرئية ومقروءة ، باللغة السواحلية ، فينتشر تعليمها ، ويكثر عدد المتحدثين بها ، وتصبح أداة فعالة فى إيقاظ القومية الأفريقية ، وتوهين العلاقات القبيلة ، إلى أن يتم القضاء عليها نهائيا .

فى مجال الاقتراض من اللغات الأخرى يفضل السواحليون الكلمات ذات الأصل العربى ، وبخاصة مومباسا وزنجبار ، وحتى يفضلون نطقها فى صورتها العربية ، وبخاصة بين المسلمين ، وهم الأغلبية فى المنطقتين ، وإن كانوا ينتمون إلى مذاهب إسلامية مختلفة ، وأى شخص مسلم لابد أن يحفظ شيئا من القرآن الكريم ، قلّ أو كثر ، وبداهة فان معظم الكلمات ذات الدلالة الدينية من أصل عربى ، وأدى هذا بالطبع إلى أن قلة غير عربية ، وغير مسلمة ، تتخذ من الألفاظ العربية موقفا معاديا ، بوصفها تأثيرا إسلاميا ، وترى أن تحل محل هذه الألفاظ العربية أخرى سواحلية ، وتدعم موقفها بما يجرى فى الهند ، وفى فارس فى فترات قليلة ، ومن كلتا الدولتين توجد جاليات كثيرة العدد والنفوذ فى هذه المناطق .

في البدء كان الاقتراض اللغوى يتم عشوائيا ، حتى أنهم كانوا يقترضون أحيانا كلمات لها مرادف في السواحلية نفسها ، ولهذا صدر فى عام ١٩٦٠ نظام يمنع الاقتراض من اللغة العربية والإنجليزية ، ما دام يمكن أن تحل مكانها كلمات من لغات البانتو ، فلا يتم الاقتراض من العربية وتأتى أولا ، ومن الانجليزية وتأتى بعدها إلا عند الضرورة القصوى ، فاذا تعذر الأمر صيغت كلمة جديدة من السواحلية أو البانتو ، وفى عام ١٩٦٥ صدر قرار يعطى لغة البانتو صفة التفضيل المطلق .

إجمالا لم تبق الألفاظ العربية التى دخلت اللغة السواحلية كما هى ، وإنما تطورت لتوائم النظام الصوتى السواحلى ، عند العامة ومن لا يعرفون العربية بخاصة ، ويتمثل هذا التطور فى إضافة حركة إلى آخر أية كلمةعربية تنتهى بصامت ، وقد تكون الإضافة كسرة أو ضمة أو فتحة ، وإقحام حركة بين كل صامتين متتاليين ، ما عدا الصوامت الأنفية .

● **الأدب السواحلى :**

حتى يومنا هذا لم يستطع العلماء تحديد الوقت الذى نشأت فيه اللغة السواحلية ، ولامتى كتب السواحليون أدبهم ، وهو أمر لا يعنى الباحث فى الأدب المقارن على أية حال ، وإنما تعنيه النماذج التى يقع عليها ، وتتبع روافدها إلى حيث يجد الوثيقة التى تؤكد العلاقة أو تنفيها ، إلى جانب أن قدرا كبيرا من التراث السواحلى لمّا ينشر ، وأقدم ما عثر عليه باللغة السواحلية مكتوبا بحروف عربية مجموعة رسائل شخصية وأشعار إسلامية ، يحمل أقدمها تاريخ عام ١٧١١م ، وتوجد فى دار المحفوظات التاريخية فى يانجم فى جزيرة جوا ، وكانت هذه مستعمرة برتغالية حتى عام ١٩٦٢ .

وأقدم ما عثر عليه من الشعر المكتوب قصيدة همزية يرجع تاريخها إلى عام ١٧٢٤ ، ولو أن ذلك لا يعنى أنها كَتبت فى هذا التاريخ ، وأن المعلومات التى تتضمنها تعود إليه ، فقد يعود أصلها إلى نسخة أخرى أقدم منها ، ونقلت هذه

عنها . وإلى قريب من هذا التاريخ توجد مخطوطة أخى معروفة ، تحمل عنوان "أتندى وتبوك" ، وهى قصيدة ملحمية ، كتبها الشاعر للسلطان الليثى النبهانى، ويعود تاريخها إلى عام ١٧٢٨ .

لكن أولى المحاولات العلمية لمعرفة الأدب السواحلى تتمثل فى رسالة توجه بها لودفيج كراف Kraph إلى الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية بتاريخ ١٦ يناير ١٨٥٤ ، يشير فيها إلى عثوره على مخطوطتين باللغة السواحلية ، مكتوبتين فى حروف عربية ،الأولى منهما بعنوان : Chuo cha utenzi والثانية، فى الشعر عن ملحمة تبوك بعنوان Chuo cha Tabuka ، وقد نشرهما الدكتور كارل جوتهيف بوتينر Karl Gotthiff Buttener فى العددين لأول والثانى من مجلة اللغات الأفريقية عام ١٨٨٨ م ، ومنذ ذلك التاريخ توالى نشر عدد كبير من القصائد السواحلية .

ازدهر الأدب السواحلى خلال القرن الثامن عشر ، وواصل سيره تطورا ورقيا حتى نهاية التاسع عشر وبداية العشرين ، وفى هذه الفترة ظهر عدد من كبار الأدباء ، أمثال : موياكا بن الحاج غسانى ، وسيد أبو بكر عبد الرحمن المعروف بسيد منعب ، وسيد عيد روس ، وغيرهم .

ومع هؤلاء بلغ النتاج الأدبى ذروته ، واستكمل أغراضه وأشكاله الفنية ، واتضحت أساليبه ، واستكملت الثقافة السواحلية شخصيتها ، وتطورت اللغة نفسها ، وبلغت مرتبة عالية من القدرة على التعبير بما تهيأ لها فى العصور السابقة من شعراء وخطباء وفقهاء ومحدثين ، وسوف تصبح وسيلة التفاهم والتخاطب والتعليم ، وجاء كل هذا نتيجة لما سبقه من أحداث قومية ، فقد انحسر الاستعمار الأوروبى ، والنفوذ الكنسى ، وبرز التيار الإسلامى ، وأخذ الإسلام طريقه إلى داخل القارة ، وحمله الدعاة إلى نياسالاند ، وهضبة البحيرات ودخل أوغندة ، واستقر فى زنجبار ، وساح فى كينيا وتنزانيا ، وانتشرت المساجد فى القرى الواقعة علـى طول الطرق التجـــارية ، ولا تكـاد تخلو قريـة فى

هذه المناطق من مساجد ومسلمين ، وبدت هذه النهضة واضحة فى :

● **الشعر :**

خضع الأدب السواحلى لتأثيرات عربية قوية ومختلفة ، شفويا أو مكتوبا ، شعرا ونثرا ، فهو يمتاح أغلب موضوعاته وأفكاره من الثقافة العربية والإسلامية، لكنها فى الوقت نفسه تعكس المزاج الأفريقى والملامح الأفريقية، وبخاصة فى الأدب الشعبى الشفوى ، وليس من الضرورى أن يكون الأدب المؤثر عربيا دائما، فقد يكون أحيانا أدبا إسلاميا ، فارسيا أو هنديا أو أورديا ، وبخاصة فيما يتصل بشعر الملاحم .

يعود الشعر السواحلى الذى وصلنا إلى ثلاثة قرون خلت ، وبدأ دينيا ، وأقرب الظن أنه كان فى البدء باللغة العربية ، وتدريجا أصبح علمانيا وفى السواحلية ، وإن ظل الحرف العربى وسيلة التقييد والتدوين .

وقد حلل ليندون هريس Lyndon Harries الشعر السواحلى فى دراسة قيمة حملت الاسم نفسه ، ونشرتها جامعة أكسفورد عام ١٩٦٢ ، ووازن بينه وبين الشعر العربى ، وانتهى إلى أنه رغم اتكاء الشعر السواحلى على الشعر العربى ، فلا يمكن أن نعتبره ببساطة فرعا منه أو صورة له ، لأن وراءه خلفية أفريقية تركت طابعها فيه ، فجاء مزيجا من تقاليد متنوعة ، وإن ذهبت العربية والثقافة الإسلامية بالجانب الأكبر منها .

حظى الشعر السواحلى بالجانب الأكبر من عناية الدارسين ، وهو فى بنائه يتكئ على الشعر العربى تماما ، فتلزم القصيدة من أولها إلى آخرها قافية واحدة، وبحرا عروضيا واحدا ، وأبحره الأربعة مأخوذة من العروض العربى ، واثنان منهما تحملان اسما عربيا ، وهما : المشارى والرباعى ، والآخران هما : تيمبو ، أى الأغانى ، وتنزى Tenzi ، وهناك قصائد غير موزونة ، وغير مقفاة ، أشبه ما تكون بالنثر المسجوع ، وربما كانت بداية الشعر السواحلى قبل أن ينضج

وقبل أن يلتحم مع الشعر العربى بقوة ، وأن يحتذى عروض هذا وقوافيه .

ويمكن أن نميز بين لونين من الشعر : شعبى لا ينسب إلى شخص بعينه ، ومثقف أبدعه أفراد معروفون ، وشعر الأغانى منهما ، على اختلاف ألوانه ، يغنيه أفراد محترفون تسلية وترفيها ، أو فى المناسبات العامة ، كالحرب والحصاد والصيد وغيرها . أو يحكى قصصا وحكايات شعبية ، أو يتناول موضوعات مبتذلة ، أو يدور حول اهتمامات عامة ، وهذه الأغانى تحتفظ أكثر من غيرها بالكثير من المأثورات الأفريقية ثقافة وعادات وتقاليد ، وتجئ موزونة ومقفاة .

وإذا كانت الفلسفة الأفريقية البنتوية تقوم على مبدأ القوة والعنف ، فالقوى يستبد بالضعيف ، والغنى يظلم الفقير ، فان الإسلام يدعو إلى العدل والتراحم ، والإخاء والمحبة ، ويملأ قلب المؤمن بالأمن والسلام والاطمئنان ، فجاء الكثير من القصائد يعكس هذه المعانى ، ويُكتب فى أشكال رباعية ، وتبلغ القصيدة الواحدة منه مئات الأبيات أحيانا ، ويجئ هذا الشعر الدينى فى أشكال رباعية ، ويتضمن عادة المواعظ والعبر ، ويسبح بصفات الله وأسمائه الحسنى ، ويدعو الله ورسوله ، ويعبر عن عمق الاستجابة لأوامره ، والخضوع لإرادته .

ولكن موياكا بن الحاج غسانى (١٧٧٦ - ١٨٤٠) نقل الشعر من المسجد إلى السوق ، وجعله يهتم بالقضايا الوطنية والسياسية ، ومعظم أشعار موياكا تدور حول أحداث تاريخية وقعت فى وطنه ممباسا ، ومعه بدأ الشعر يهتم بتسجيل الأحداث التاريخية الهامة .

ومنذ بدء هذا القرن سوف تستخدم الرباعيات فى شعر الغزل أيضا ، ويشمل أغانى الحب ، وموضوعات الزواج ، وما يغنّى تحت نافذة المحبوب .

عرف الشعر السواحلى منذ مطلع هذا القرن شعراء مشهورين ، من بينهم شعبان روبرت (١٩٠٩ - ١٩٦٢) ، ومع أن إلهامه تقليدى ، وقليل الأصالة ،

أثرى المعجم الشعرى وحدثه ، وخلق نماذج أسلوبية عصريه فى الشعر والنثر على السواء ، مرتبطة بالمتطلبات الحديثة ، وترك أثرا بالغا فى من جاء بعده من الشعراء .

ومنهم الشيخ كالوتا عبيدى ، والشيخ أحمد ناصر ، ونال هذا جائزة كنياتا فى الأدب ، عام ١٩٧٢ ، وتقدمها حكومة كينيا كل عام لأحسن المبدعين . وإبراهيم حسين ، ويكتب التمثيليات إلى جانب الشعر .

يتحرك الإبداع الشعرى السواحلي فى ثلاثة محاور معروفة : القصص والملاحم والشعر التعليمى ، والشعر الغنائى .

يستمد الشعر القصصى والملحمى مادته من الموضوعات الإسلامية ، وفى مقدمتها القرآن الكريم ، والشعراء السواحليون جميعا يقرأونه باهتمام ، وبعضهم يحفظه من الذاكرة ، وله أكبر الأثر فى تفكيرهم ، ولا يمكن إدراك هذه الملاحم جيدا إلا بالرجوع إلى أصلها العربى ، وفى مقدمة هذه الموضوعات : قصة خلق الكون ، وخلق آدم وحواء ، وهى موضوعات تهدف بدءا إلى الوعظ والإرشاد ، وبيان الصلة بين الخالق والمخلوق . وحول الرسول عليه الصلاة والسلام : مولده ونشأته وزواجه وبعثته ورسالته وغزواته ووفاته ، وربما كا أوضحها وأطولها ما اتصل بالإسراء والمعراج ، وقصة المقداد ومايسة ، والملحمة العمرية ، وألفها السيد عيد روس الشيخ على من مدينة لامو ، والانكشاف وألفها السيد عبد الله بن على .

وكانت غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام نبعا ثرا لا ينفد للشعر السواحلى، يحكى قصة الحروب التى خاضها أبطال الإسلام ، وفى مقدمتها غزوة بدر ، وأحد ، وخيبر ، ينشدها الراوى على العامة ، ولا بأس أن يصلى على النبى ، أو يتلو آيات من القرآن الكريم أثناء الإنشاد . وبعضها يتناول الفتوحات التى تمت فى عهد الخلفاء الراشدين ، وأشهر هذه الملاحم ملحمة هرقل الشهيرة ، ويبدو أنها كانت شائعة جدا ، فقد وصلتنا في ثمانى مخطوطات ،

ومع أنها من أصعب الشعر السواحلى ، ولكنها من بين أجمل ملاحمه ، إحكام نظم ، وقوة تعبير ، وتماسك تأليف ، ومادتها مأخوذة من وقائع معركة تبوك الشهيرة ، والفتوحات الإسلامية الأولى التى تلتها .

واحتل مولد الرسول عليه السلام مكانا ملحوظا من عناية الشعراء ، وكان مصدرهم ترجمة للسيرة العربية للمولد وضعها جعفر البرزنجى ، وكان فقيها شافعى المذهب ، وخطيبا شهيرا مصقعا فى المسجد النبوى ، وترجم السيد مناسب هذه السيرة فى تسعة وعشرين جزءا ، بعنوان " كتاب المولد Kitabu Maulidi ". وهذه المولديات تتلى عادة فى أمسية كل خميس ليلة الجمعة ، فى المنازل والمساجد احتفالا وتبركا . كما ترجم محمد بن جامبين البكرى قصيدة " بانت سعاد " لكعب بن زهير إلى اللغة السواحلية ، وعادة تتلى قبل بردة البوصيرى ، وهى مترجمة أيضا ، ليتبرك بها الناس فى احتفالات المولد النبوى .

كانت غاية الشعر السواحلى فى البدء تعليمية ودينية ، وحتى إذا جاءت القصيدة فى شكل قصة ، تروى أخبار الأنبياء والصالحين ، كقصة أيوب ويوسف والسيدة فاطمة والسيدة عائشة ، والخلفاء الراشدين ، فإنما ليتخذ منهم ، ويدعو السامعين إلى اتخاذهم قدوة . ومثل هذا الشعر يكتسى طابع الزهد والتصوف ، والدعوة إلى ترك ملذات الحياة ، والاتجاه إلى الله والآخرة ، ونبذ الحياة ، وكبح جماح النفس ، وتحقير المال ، ومظاهر الغنى والسلطان ، وتلفه جبرية صريحة ترى أن الإنسان لن ينال أكثر مما قَدر له فى الأزل .

تبقى ملاحظة أخيرة ، وهى أن الشاعر السواحلى يتناول هذه الموضوعات فى كثير من الحرية ، مما يجعل المقارنة بين الأصل العربى والإبداع السواحلى صعبة تحتاج إلى مزيد من الدقة والتناول مما يجعل القصة الشعرية فى السواحلية تبدو كأنها أسطورة ، تحفل بالأحداث الخارقة ، والخيال المجنح ، وما لا يتصوره العقل .

● **القصة :**

شغل الشعر جل أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فجاء النثر قليلا أو معدوما ، وربما يعود هذا إلى رغبة السواحليين فى إخفاء أغراضهم وأفكارهم عن المستعمر باستخدام الشعر ، فهو أصعب فهما وأسرع انتشارا ، وأسهل حفظا ، لرقة إيقاعه ، وخفة أوزانه ، وتنوع أساليبه ، ولأنه وليد الانفعال واللحظة ، وليس نتاج فكر أو تأمل .

ومع ذلك كان هناك أدب قصصى ، وكأى أدب آخر بدأ بالحكاية الشعبية ، وأقرب الظن أنها كانت سائدة فى القرون الأولى ، حتى القرن السادس عشر تقريبا ، تتداولها الألسنة عن طريق الرواية الشفوية دون أن تتاح لها فرصة التدوين ، وتجئ قصصا وأمثالا وألغازا وأحاجى ، ويلعب فيها السحر دورا كبيرا، وفيها نلتقى بالعجوز الساحرة ، والبشر وقد تحولوا إلى حيوانات ، والطيور والزهور والأشجار والحيوانات تتحدث إلى البشر ، وتشير عليهم وتنصحهم ، وتقدم لهم المعونة .

وتمثل الغابة معلما رئيسيا فى البيئة ، تضفى عليها لونا من المهابة والجلال ، ويقف المرء أمام سحرها وغموضها معجبا وحائرا ، وقد يلجأ إلى تقديسها وتبجيلها باعتبارها رمز الأمومة والخصوبة ، أو القوى الغامضة الخفية ، وكثيرا ما يلجأ إليها القاص فيتخذ منها مصدرا للإبداع والإلهام ، لأن اللون والصوت عنصرين هامين من عناصر التشكيل الأدبى والفنى ، وكلاهما يتوفر فى الغابة ، فالصوت يصدر بشكل طبيعى عن حركة الرياح ، وحفيف الأوراق ، وخرير المياه ، ووشوشة الجداول ، كما يصدر عن الحيوانات والطيور والزواحف ، ومن ثم يجد الأفريقى نفسه أمام عالم حافل بالمثيرات ، ويحرك فى أعماقه التفكير والمحاكاة ويثير فى نفسه أعمق المشاعر والأحاشيس ، ويدفعه إلى الابداع .

ومن هنا نلتقى بالغابة كثيرا فى قصص الأفريقى وحكاياته ، إذ يختار شخوصه من الحيوان أو الطير أو النبات ، وينطقها بما شاء من تعاليم وحكم

وأمثال ، أو يتخذ من مظاهرها وغرابتها وسيلة لإثارة ملكة التخيل ، وإشاعة الخوف في بعض الأحيان .

وينهض القصص السواحلى على دعامتين : أصول أفريقية ، مردها حكايات ضاربة فى أغوار التاريخ ، تجئ ممتزجة بالخرافة والأسطورة والسحر . وأخرى عربية إسلامية ، وهى الأغلب ، وفى كلتا الحالتين أصاب الرافدين شئ من التطور . أخذت الثقافة الأفريقية طابعا إسلاميا ، واكتست الثقافة الإسلامية رداءً أفريقيا ، فلا بأس من تغيير الأسماء والأمكنة ، وحتى ترتيب الأحداث .

من الأصول الإسلامية والعربية القصص القرآنى ، وقصص السيرة النبوية ، واستغلها الأدب السواحلى على نحو لا يضارعه فيه أدب آخر ، فتناول قصة الخلق ، وخروج إبليس من الجنة ، وقابيل وهابيل ، وقصص الأنبياء ، وكليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة . وتتمثل الدعامة الأفريقية فى حكايات مستمدة من تاريخ المنطقة نفسها ، أو ترتبط بما حولهم من حيوان وطبيعة ، أو تصور ماتوارثوه من تقاليد وعادات ، أو تعكس أحوالهم الاجتماعية ، ومثلهم الحياتية، من تقديس العمل ، ونبذ الكسل ، واحترام الغير ، والتمسك بروابط الدم ، والاعتزاز بالنفس ، ومحاولة تفسير الظواهر الطبيعية تفسيرا ساذجا .

وغاية الأدب القصصى سواء أكان خرافيا أم شعبيا تعليمية ، ولا يفهم بعيدا عن سياقه ، والعلاقة بينه وبين مجتمعه قوية ، والسامع عنصر فعال فى توجيه هذا الأدب ، إقبالا وتوجيها ، وفى كل أسرة أفراد من الرجال والنساء على السواء ، يحترفون رواية القصص ، وتتخلل روايتهم لها أغان جماعية ، وفيها يركز الراوى على المضمون ، ويعتمد فى جذب السامعين على الفكاهة والكناية والتلميح والتورية ، ولابأس أن يضيف إليها بعضا من تجاربه ، وأن يلونها بشئ من مزاجه وخبراته .

التعبير فى هذه القصص موجز ، والجمل بسيطة ،بعيدة عن الإطالة أو المبالغة ليست جامحة الخيال ، وإنما تجئ فى تقريرية واضحة ، وتزاوج بين السرد والحوار

ولو أنه فيها قليل وتقليدى ، وقريب التناول والمعنى . وشخوصها سطحية ، لاتتعمق فى تحليل الدوافع النفسية أو الشعورية ، وبعضها يذهب به الخيال بعيدا حين يعرض لصفات النبى عليه الصلاة والسلام ، والصور البيانية لا تتجاوز القليل من التشبيهات .

وأول تأثير عربى فيها يقع عليه القارئ ، إلى جانب الموضوعات وسنعرض لها فى مكانها من هذا الكتاب ، الألفاظ العربية الكثيرة ، والتى لا تخلو منها قصة ولا بيت شعر، وأنها تبدأ على طريقة الحكايات العربية "كان .. ياما كان"،أو " حدث فى الزمان القديم .. "

بقى أن نشير إلى أن الذين جمعوا الحكايات الشعبية ، وهى عماد القصة الأفريقية ، ونشروها ، هم من الدارسين الأوروبيين ، بين منصر ومتعصب ، وسجلوها فى لغة حديثة ، أى أنهم حوروا وغيروا وطوروا فيها ، وما من شئ يحول دون الشك ، وواقع الحال يقتضيه ، فى أنهم حاولوا ، ولو بقدر ما ، أن ينحازوا بالمضامين الإسلامية إلى أخرى وثنية ، أو إلى ما يسئ إلى العرب والمسلمين الوافدين إلى تلك الأصقاع ، ومع ذلك يبقى دائما لهذه الحكايات دلالاتها الفنية والاجتماعية .

- **الهوسا وأدبها :**

الهوسا أصلا اسم لغة قبل أن تكون اسم قبيلة أو جماعة معينة . ثم أصبحت بعد ذلك تطلق على الشعوب والقبائل التى تسكن بين مملكة برنو شرقا ، والمنطقة الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيجر غربا ، ومن حدود مملكة أهير شمالا إلى حدود نهر بينوى جنوبا ، وتنطلق على اللغة التى تتحدث بها هذه الشعوب والقبائل .

انتشرت لغة الهوسا فى غرب أفريقيا انتشارا واسعا ، وكانت التجارة وراء هذا الانتشار ، لأن سكان هذه المناطق يعتمدون أصلا على الزراعة ، وهى تقوم

على المطر ، فاذا طال موسم الجفاف عملوا بالتجارة ، وسعيا وراء الرزق يذرعون هذه المساحة الواسعة من الأرض حتى يبلغوا غانا وداهومى وساحل العاج وغيرها، وتخصصوا فى تجارة سلع معينة ، كثمار الكولا ، وتجارة الماشية وغيرها . وحملوا لغتهم معهم أيان اتجهوا ، وأصبحت لغة المعاملات التجارية والمالية Lingua Franca ، وإحدى ثلاث لغات تجئ فى مقدمة لغات القارة وهى: العربية والسواحلية والهوسا . ويتكلمها اليوم أكثر من نصف سكان نيجيريا ، وهى اللغة الرسمية فى الشمال ، وكانت قد أصبحت لغة التعليم رسميا منذ عام ١٩٣٤ ، وحيث لايتكلمها السكان تصبح اللغة الثانية فى التعليم ، وقد تأثرت بالعربية كثيرا ، خصوصا بعد انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا ، وتوثق العلاقات بين العرب فى شمال أفريقيا والقبائل فى جنوبهم ، مما جعلها أقدم اللغات الأفريقية التى تكتب بحروف عربية .

لا يقتصر الحديث بالهوسا على سكان نيجيريا ، وإنما هناك كثيرون من الأفريقيين وغيرهم من مجاوريهم يتحدثونها بطلاقة ، حى يمكنهم العيش اقتصاديا واجتماعيا فى ذلك المحيط ، بينما اللغات الأخرى فى الجنوب لا يتحدثها أحد من غير أهلها .

● ● ●

ثمة عوامل جعلت أدب الهوسا الذى بين أيدينا قليلا للغاية ، سواء كُتب فى حروف عربية ، وهى الأكثر شيوعا ، أو كان فى حروف لاتينية وهى الأقل استعمالا ، منها : أن اللغة العربية حتى قريب من نهاية القرن التاسع عشر كانت لغة الدولة الرسمية ، بها تسجل الوثائق ، ويجىء الحوار ، وتؤلف الكتب ، وتخط الرسائل ، ويكتب المبدعون ، وتمثل بالنسبة لمن يجيدها تميزا ثقافيا وطبقيا يطمح إليه الكثيرون . وفى اللغة العربية تدفق الإبداع وفيرا ، شعرا ونثرا وتأليفا ، ورغم أن الكثير من دواوين الشعراء لمّا يطبع ، فقد اتجهت إليه عناية الباحثين بعد الاستقلال درسا وتسجيلا ، ونشرت عنه فى القاهرة أكثر من دراسة

أهمها على التأكيد تلك التى قام بها الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنت ، وعنوانها " حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا من ١٨٠٤ إلى ١٩٦٦ م " ، وصدر عن دار المعارف عام ١٩٨٢ . وكان فى البدء رسالة حصل بها الباحث على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة باشرافى ، ولكن الأدب العربى فى نيجيريا جزء من تاريخ الأدب العربى ، ولا يتصل بالأدب الهوسى إلا فى مقام الأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر .

والعامل الثانى أن الاستعمار الأوروبى والبعثات التنصيرية ، وهما وجهان لعملة واحدة ، فرض لغته على الدولة والثقافة والصفوة ، وفى لغته أخذ المبدعون والمثقفون يكتبون إبداعهم وإنتاجهم ليضمنوا له النشر والشيوع والرواج ، ولأنفسهم المكانة والجاه الاجتماعى ، وهو أدب من وجهة نظر المقارنة على الأقل جزء من أدب اللغة التى كتب فيها ، ولا يدخل معنا هنا .

غير أن الأدب الشفوى واصل سيره ، باللغة العربية آونة ، وبالهوسية فى كثير من الأحوال ، يحمل هموم بسطاء الناس وقلقهم وطموحاتهم ، شعرا أو نثرا، ولكن أحدا لم يعره اهتماما ، ولم يسجل ما كان منه فى لغة الهوسا ، وإن قام الأوروبيون حوله ببعض الدراسات ، كما قاموا بترجمة شئ من قصصه إلى لغاتهم .

أوضح الأدب الشعبى والشفوى فى الوقت نفسه ما كان يقوم به الشعراء الجوالون ، وهم الذين يعرفون فى صعيد مصر بـ " المداحين " ، وفى شمال أفريقيا بـ " القوالين " ويقدم لنا الروائى الغينى كمارا لابى صورة حية لهذا المداح ، وذلك فى روايته أو سيرته الذاتية " الولد الأسود " ، حين تحدث عن أبيه فى ورشة الحدادة التى يملكها ، يقول :

" يجلس المداح فى الورشة ، ويأخذ فى ضبط أنغام قيثارته ، ثم يشرع فى إنشاء المدائح لأبى ، وكان ذلك يمثل بالنسبة لى حدثا عظيما على الدوام . فها أنا أسمع قصة الأعمال المجيدة التى أداها أجداد أبى ، وأسماء هؤلاء الأجداد

منذ أقدم العصور ، وحين يتوقف الإنشاد أشعر كأنى شاهدت نمو شجرة نسب ضخمة نشرت فروعها بعيدا وعريضا ، وتباهت بأغصانها أمام عقلى . وتصحب الموسيقا هذه القائمة العريضة من الأسماء ، تضبط حركة الإنشاد بأنغام ترق حينا وتخشن آحيانا . من أين يأتى المداح بمعلوماته ؟ إنه صاحب ذاكرة قوية على التأكيد ، تختزن ببساطة الحقائق التى استمدها من سابقيه ، فالمعلومات الشفوية دعامة تقاليدنا . هل كان يَجمل الحقيقة ؟ من الجائز جدا ، لأن التملق بضاعة أى مداح ، ومع ذلك لم يكن مسموحا له أن يخرج عن التقاليد كثيرا ، لأن مهمته الحفاظ عليها " .

غير أن هذا الشاعر الشعبى إذا خرج عن النطاق الشخصى إلى حيز الجماعة ، وجلس إلى جمع من الناس ، فى سوق أو محفل أو منتدى أو أمام مسجد ، اتخذ شكلا مختلفا ، وانتقل من الخاص إلى العام ، وجمع بين مهمة المسلى والمؤرخ والصحفى فى عصرنا ، ومن ثم قد يتحول إلى داعية سياسى ، أو مناضل وطنى، يزكى الشعور القومى ، ويلهب فى الأعماق روح النضال ، ويقوى عزائم المجاهدين .

ويتخذ المداح المسلم ، حين يتحدث إلى مسلمين ، من سيرة الرسول عليه الصاة والسلام ، ومن صحابته ، ومن الإسلام مبادؤه ودعوته وأبطاله ، مادة يدير عليها ملحمته ، كما تلقاها وحفظها أحيانا ، ويعمل فيها ذكاؤه تطويرا وتجميلا أحيانا أخرى ، زيادة أو نقصا ، لتوائم اللحظة التى ينشد فيها ، والمستمعين الذين يتوجه إليهم . وكثيرا ما يكون الإنشاد الدينى من نصيب الطلاب ، يلتفون حول أحدهم ، وينشدونه جماعة وبعد كل بيت من الشعر يدعون الله أن يأخذ بحال المسلمين .

ولكن المديح الشخصى هو الأكثر رواجا لأنه الأوسع رزقا ، ويغنيه المداح لكل الطبقات : للملك والوزير والقائد ، ولأناس لهم مكانتهم الاجتماعية ولآخرين فى أدنى السلم الاجتماعى .

آداب إسلامية أخرى

[الأدب الأندونيسى - الأدب الألبانى]

● اللغة الأندونيسية وآدابها :

كانت اللغة الجاوية هى الشائعة فى الجزر الإندونيسية وما جاورها ، ثم حلت مكانها الملايوية فى العصر الإسلامى ، وأصولها قديمة ، اختلطت بلغات أخرى كثيرة من جراء الاندماج العنصري بين هذه الشعوب ، واتصالها بالشعوب الأخرى عن طريق التجارة والعلاقات الدينية والثقافية ، مع العرب والهنود والصينيين ، ثم دخلتها كلمات إسبانية وبرتغالية وهولندية وإنجليزية ، فى فتر المد الاستعمارى ، وبجوارها فى الأطراف النائية والجزر المنعزلة الكثير من اللهجات ، عمل الاستعمار جاهدا على إحيائها وتثبيتها ، وتختلف الواحدة منها عن الأخرى فى الكتابة والقراءة والنطق ، ولها اصطلاحاتها وأمثالها وحكمها ، وإن انتمى بعضها إلى بعض . ولكن معظم الإندونيسيين يفهمون اللغة الإندونيسية .

ورغم الأصل الواحد أصاب اللغات هناك شئ من التباين فى بناء الجملة وتطور الدلالة ، فاختلفت لغة ماليزيا ، وتأثر أهل الملايو بالثقافة الإنجليزية رغم أنهم لا يزالون يكتبون لغتهم بالحروف العربية ، وهو نفس ما كان يحدث فى إندونيسيا قبل أن تحملهم هولندا على ترك الحرف العربى والكتابة بالأحرف اللاتينية .

ولغة المنطقة الوسطى والشرقية من سومطرة أقرب إلى الإندونيسية الفصيحة، قد يحرفونها قليلا عن مواضعها ، وقد يغيرون حرفا بحرف يتشابهان فى المخرج، ولكنهم أسرع من غيرهم إلى تفهم اللغة الإندونيسية الفصحى ، وإلى إتقانها وإجادتها فى النطق والتعبير .

مرت اللغة فى إندونيسيا بأطوار ثلاثة يمكن أن نوجزها فيما يلى :

- عصر ما قبل الإسلام ، وفيه سادت الديانات القديمة إلى جانب الهندوكية والبوذية والبرهمية ، وحين ذهبت تركت شيئا من الصدى فى حياة الناس ، وعاداتهم وتقاليدهم ، ويتجلى ذلك واضحا فى فنون الرقص والرسم والنحت ، وإقامة المعابد ، وصناعة التماثيل وطريقة الغناء والإنشاد ، وبخاصة فى ما ظل من أساطيرهم ، حيث تتقاتل الآلهة ، ويتصارع الأبطال ، ويتقاتل النساء والرجال.

- العصر الإسلامى ، ويبدأ تقريبا حول عام ١٤٠٠ م ، حين دخل الإسلام جزر إندونيسيا ، وحمله التجار معهم من عرب وهنود ، وأصبحت الملايوية هى لغة التخاطب بين التجار وسكان البلاد ، وأصبحت تكتب بالحروف العربية ، وهى اللغة التى يستخدمها أهل إندونيسيا الآن لغة قومية ، وتعرضت خلال ذلك لتأثير واسع وعميق ، منطوقة ومكتوبة ، من اللغة العربية ، ودخلتها ألفاظ عربية كثيرة ، دينية أمثال : بركة وأذان ، وغيب وجهاد وعبادة وهلال ، والقيامة والإيمان والمعصية ، والحاج والقاضى والإمام والمسجد والآخرة ، وفتوى ودنيا وصلاة ومؤذن ومنبر ومرتد وروح وغيرها .

ودخلها من الألفاظ الثقافية والعلمية والفنية : عالم ، وحكاية ، وعبارة ، والعوالم ، وحكمة ، وحق ، وهواء ، ونغم ، وعلم وفلك وفكر ، ودليل ودولة ، وآلة ، وأدب وقاعدة ، ودواة ومعلم ، ومجلس ، ولفظ وفهم وفصل ، وديوان ومذهب وحاكم وعسكر ، وكلمات وخبر وفلسفة ، وفصيح ، وإجازة ، وغيرها .

وهناك ألفاظ ذات طابع اجتماعى ، مثل : محبة ، ومبذر ، ورزق ، وسلام ومسافر ، ومشكل ، ومعشوق ، وكوفية ، وعيب ، وابن وبنت وصحبة ، وبطل وهجرة وهبة ، وإخلاص وخادم وخاص . وختان ، وخيانة ، وأصيل ، وعاشق ، وقبة ، وخيمة ، وغيرها كثير .

● عصر الاستعمار الهولندى ، ويبدأ من عام ١٥٩٦ إلى ١٩٤١ ، وقامت سياسته على ربط إندونيسيا بهولندا ، لتصبح الأولى فى خدمة الثانية ، وكان الحفاظ على مصالحه يحرك سياسته .

فجعل اللغة الهولندية محور الثقافة الخاصة والعامة ، ولغة التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية على قلتها ، وأصبح لها الصدارة على اللغة القومية، ولغة الحديث بين الطبقة العليا بخاصة .

وجاء المنصّرون مع الاستعمار ، أو حتى قبله ، وبدأوا فى تنصير الفقراء والضعفاء فى منطقة سولا ويس (سليبس) ، عن طريق الغذاء والكساء والعلاج ، ثم فتحوا أمامهم أبواب الثراء والمجتمع ترغيبا لغيرهم ، وعلموهم الهولاندية منذ نعومة أظافرهم ، فأصبحوا يتكلمونها بطلاقة ، وامتزجوا بفقراء الهولنديين الذين ذهبوا إلى هناك للعمل والثراء ، وصاهروهم ، وتمثلوا عاداتهم وأخلاقهم ، وأعطوا أبناءهم وبناتهم أسماء هولندية ، وتحولوا إلى مجموعة من الخونة ، تدافع عن هولندا ، وعن وجودها ، وعن النصرانية ، وكان هذا طبعا قبل أن تغرب شمس الاستعمار ، وإن ظل لهم بعض الأثر والتأثير حتى اليوم .

كانت المدارس قليلة للغاية ، والتدريس فيها باللغة الهولندية ، والكتاب هولندى ، والأستاذ أيضا ، ولأبناء الطبقة العليا ممن هم على استعداد لأن يتعاونوا مع المستعمرين ، وقلة منهم يختارونها لتدرس فى هولندا ، وكما حدث فى شعوب إسلامية كثيرة مستعمرة ، فان هؤلاء الذين رباهم الاستعمار ، وتوهم ولاءهم له ، ما إن عادوا إلى ديارهم حتى حملوا راية النضال ضده فيما بعد .

● عصر الاستعمار الياباني ، وكان قصيرا ، ١٩٤٢ - ١٩٤٥ ، وأذل الهولنديين والأندونيسيين معا ، ورغم قصر المدة وظروف الحرب ، اختط اليابانيون لأنفسهم سياسة تتحرك على محورين : القضاء على اللغة الهولندية ، واعتبار التحدث بها جريمة ، واحياء اللغة الأندونيسية لأنها وسيلتهم العاجلة للاتصال بالشعب ، فيما يرغبون توصيله من أوامر عسكرية ، أو حاجات

اقتصادية عاجلة ، وفى الوقت نفسه التمهيد لفرض ثقافتهم ، وصبغ التعليم بالصبغة اليابانية ، ولكن زمنهم لم يطل .

- عصر الاستقلال ، وابتدأ عام ١٩٤٥ ، غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومعها استردت إندونيسيا روحها ، وحققت ذاتها ، وتحاول أن تشق لنفسها طريقا ، وأن تجد لها مكانا فى قافلة الأمم المتحضرة . ولكن الوعى باللغة القومية بدأ قبل ذلك بكثير ، بدأ والاستعمار الهولندى لما يزل جاثما على صدر الشعب الإندونيسى ، ففى ٢٠ مايو ١٩٠٨ ، تكونت أول جمعية منظمة باسم "الأخلاق الفاضلة " ، لرفع مستوى اللغة تعليما وكتابة ، وحين ألقى جايا دييننجرات Djaia Dininingrat عام ١٩٢٤ خطابا فى المجلس الشعبى الذى أسسته هولندا فى أندونيسيا قبل ذلك ، فى عام ١٩١٨ ، باللغة الملايوية لأول مرة فى تاريخ إندونيسيا اللغوى ، أحدث أثرا طيبا وبالغا فى نفوس الجماهير ، وكان بداية واضحة نحو تطور اللغة الإندونيسية ، إذ بدأ الشعب يتحمس لها ، ويحاول أن يتعمق فى معرفتها .

وفى أول مؤتمر للشباب عام ١٩٢٦ خطب الأديب الإندونيسى محمد يامين قائلا : إن معرفة اللغة الملايوية تعطى فرصة لكل شخص أراد معاشرة الشعب فى جاوة أو سوندا أو الملايو ، أو جماعة العرب المقيمين هناك . ففى التجارة والعلاقات الاقتصادية والحياة السياسية أصبحت اللغة الملايوية عنصرا هاما ولها مركز اجتماعى " .

وفى ٢٨ اكتوبر ١٩٢٨ انعقد مؤتمر الشباب الثانى واتخذ قرارا ذا أهمية بالغة فى تاريخ إندونيسيا والحركة الوطنية فيها وهو : " وطن واحد هو أرض إندونيسيا ، وشعب واحد هو الشعب الإندونيسى ، ولغة واحدة هى اللغة الإندونيسية " .

ومنذ عام ١٩٣٠ أصبحت اللغة الإندونيسية لغة التعامل والتخاطب والكتابة والتراسل ، وهمزة الوصل بين الأقطار الإندونيسية المختلفة ، وكانت هولندا

تسعى لأن تكون لغتها الرسمية ، لا فى الدوائر الحكومية كما كان الحال فعلا ، وإنما بين الناس بعضهم مع بعض ، وأن تحل تدريجا مكان اللغة القومية . ولذلك أكد مؤتمر الشباب الذى عقد فى مدينة لاهاى فى هولندا عام ١٩٣٠ قرار مؤتمر الشباب الثانى الذى عقد فى إندونيسيا وجعل شعاره " إندونيسيا .. وطن واحد، لأمة واحدة ، تتكلم لغة واحدة " .

ومن ذلك الوقت عُرفت اللغة الملايوية باللغة الإندونيسية ، واعتبرت اللغة القومية ، وحين سقط الاستعمار تقرر أن تكون لغة التخاطب فى جمهورية إندونيسيا الاتحادية ، وأسست الحكومة مجمعا لغويا يعنى بها ، ويحل المشكلات التى تعترض استخدامها فى شتى مجالات الحياة العلمية والاقتصادية والسياسية ، من اعداد المصطلحات التى تواجه سيل المخترعات ، وتيسير المعاجم ، وألا يشتق من اللغات الأجنبية البعيدة ، وإنما يأخذ حاجته من اللغات الإقليمية ، أو القديمة ، ثم من اللغة العربية أخيرا . والواقع أن العربية ساعدت كثيرا فى سد حاجات اللغة الإندونيسية ، لأنها أوسع مادة ، وأغزر معانى ، ولذلك تشيع الألفاظ العربية بكثرة فى اللغة الإندونيسية .

لقد تغلبت الإندونيسية على اللغات الإقليمية العديدة التى حولها ، والتى تتناثر فى الجزر والدول المحيطة بها ، ولكنها فى الوقت نفسه تأثرت بها ، فأخذت منها بعض المصطلحات والكلمات الدارجة من الجاوية على اختلاف لهجاتها والسومطرية مع كثرة أشكالها ، وساعد الأندونيسية على التغلب أنها سهلة ، قريبة التناول لا استثناء فى قواعدها ، وأصبحت الإندونيسية العصرية تدعى باهاسا Bahasa .

تكتب اللغة الإندونيسية بالحروف العربية ، وتعرف بالملايوية ، واللاتينية ، والعربية الآن أقل انتشارا بفعل الاستعمار الهولندى ، ولكن الكتابة بها لاتزال منتشرة فى المناطق الداخلية ، وفى القرى التى تهتم بدراسة القرآن الكريم والعلوم الدينية ، والكتب القديمة الموروثة ، ويهتم بها أهل سومطرة وكاليمنتن (سولا

ويس الآن) ، وبعض الجزر الأخرى ، لارتباط الحرف العربى بالقرآن الكريم وبالتالى بعقيدتهم الدينية . وهو على أية حال ليس مهملا فى أى منطقة ، كوسيلة لقراءة القرآن الكريم ، ومعرفة كتب الدين ، والعودة إلى الكتب القديمة التى تكتب بهذا الحرف . وتهتم وزارة الشئون الدينية بالخط العربى كفن من الفنون الجميلة ، وتحث على تعليمه وتشجيع من يتقنه .

وكان الاستعمار الهولندى والمؤسسات التنصيرية وراء الحرف اللاتينى ، فرضه فى المدارس والصحف والكتب ، وجمع بالمطابع والآلات الكاتبة ويسرها للراغبين وكل ذلك ليحل الحرف اللاتينى محل الحرف العربى ، والهدف الأخير إضعاف الدين الإسلامى والروح القومية ، وعزل الإندونيسيين فى حاضرهم عن ماضيهم وتراثهم الدينى والأدبى ، وتاريخ أبطالهم وسير رجالهم ، رغم أن الإندونيسية تواجه فى كتابتها بالحروف اللاتينية صعوبات جمة .

فى الملايو ظل الحرف العربى هو الخط الرسمى ، فيه تصدر المجلات والصحف، وتطبع الكتب ، ويستخدم فى الرسائل وسائر المكاتبات ، واقتصر التأثير لإنجليزى على نطق لغتهم القومية فحسب ، وعلى دخول بعض الكلمات الإنجليزية لتؤدى بعض المعانى الجديدة ، التى لا مقابل لها فى اللغة الملايوية الأصلية ، وكثير من التراث الملايوى من تاريخ وآداب وقصص حروب وأساطير خيالية وروايات تصويرية ، وحكايات رمزية ، مكتوب بالحروف العربية .

لايمكن أن ندك واقع اللغة الإندونيسية الآن ، وأدبها فى الحاضر ، إلا إذا أخذنا فى الحسبان الجهد الهائل الذى تبذله الدولة رغم الصعوبات والمعوقات التى مصدرها قلة المال والخبرة ، أو التى تأتى من هيئات خارجية ، ترى فى ازدهار اللغة القومية خطرا عليها ، وفى مقدمتها البعثات التنصيرية . فقد نشرت الدولة التعليم على نطاق واسع ، وهو يتخذ من اللغة القومية وسيلة وأداة ، كما تستخدم فى الإذاعة المسموعة والمرئية ، وساعد فى دعمها انتشار الصحافة بكل أنواعها ، يومية وأسبوعية وفصلية ، واستخدامها فى مختلف المجلات السياسية

والاقتصادية والأدبية ، وشيوع الكتاب إنتاجا واستيرادا . وكانت مصر إلى قريب المصدر الأول للكتب الموجهة إلى الشرق الأسيوى بأجمعه . كما نشطت حركة الترجمة والبعوث العلمية إلى مختلف دول العالم ، وجانب كبير منهم جاء إلى مصر ، وكل هذا جعل من الإندونيسية لغة شعب يقظ ، يعى ذاته ودوره ومكانته .

● الأدب الأندونيسى :

من العرض السابق لتطور اللغة الإندونيسية يدرك القارئ أنها بدأت تتشكل مع وصول الإسلام إلى هناك فى بداية القرن الرابع العاشر الميلادى ، وبعد قرنين من الزمان سقطت إندونيسيا وما حولها فى قبضة الاستعمار الهولندى ، والفترة التى سبقته لم تكن كافية لكى تطور موروثاتها الأدبية ، وتتقدم بها ، فانكفأت على ما عندها ، وما عندها بدأ مع العزل والحصار يضمر ، ولن نلتقى بأدب يذكر خارج نطاق الأدب الشعبى الشفوى جدير بالدرس والمقارنة فى هذه الفترة ، وكان هذا الأدب يدور حول محاور ثلاثة : الحكاية والسيرة والبنتون Pantun :

الحكاية مصطلح ملايوى لشكل أدبى يجئ نثرا عادة ، وفيه تلعب العناصر الخارقة دورا هاما ، وشخوصها قد تكون محلية ، أو من الخارج ، من جافا أو الهند أو فارس أو الجيرة العربية ، وقد تكون النصوص مزخرفة لغويا ، على طريقة أسلوب البانتون ، والحكايات كثيرة ، وأشهرها حكاية الأمير حمزة .

وحمزة أصلا شخصية تاريخية ، فهو حمزة بن عبد المطلب ، عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان من أعاظم فرسان المسلمين ، وأظهر شجاعة وكفاءة فى غزوتى بدر وأحد ، واستشهد فى هذه الأخيرة . وكان جبير بن مطعم قد دعا غلاما حبشيا له ، يقال له وحشى ، يقذف بالحربة قذف الحبشة ، وقلما يخطئ ، فأخرجه مع القرشيين فى معركة أحد ، وقال له : إن قتلت حمزة عم النبى ، بعمى طعيمه فأنت عتيق . فترقبه فى المعركة لا شاغل له غيره ، فأصاب منه مقتلا ،

ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وحزن عليه الرسول حزنا شديدا . وقد تحولت شخصية حمزة إلى بطل أسطورى ، أولا فى الأدب الفارسى، ثم بعد ذلك فى لغات إسلامية أخرى ، ومن بينها الإندونيسية ، وحملت الرواية اسم حكاية "أمير حمزة " ، وفى الجاوية اتخذوا لها عنوانا Wong Agung Menak أى حكاية الفارس العظيم .

وقد تتحول الحكاية إلى نوع من Wayang ، وهو اسم جاوى وإندونيسى يطلق على خيال الظل ، وكان مزدهرا فى جافا وبالى ، وقد يطلق الاسم على تمثيليات أخرى ، سواء كان مسرحا راقصا بأقنعة أم بدونها . وحكايات مسرح الظل ذات أصول أجنبية عادة ، مأخوذة من الهندية ، ومن ملحمة مهابهارتا أو رامايناء أو أصول عربية كأمير حمزة ، أو جاوية مثل حكاية Damar Wulan ، ودمر ولن اسم بطل لحلقة من الأساطير الجاوية تصف مغامرات صبى إسطبل رفعته أميرة من مجاباهيت Madjapahit إلى مرتبة ملكية ، ومعاركه مع الفارس جينجا Me-nak Djingga تستخدم غالبا موضوعا لتمثيليات راقصة ، وتمثل المغامرات المختلفة قائمة متنوعة لمسرح خيال الظل ، ولعب فى الشرق الأسيوى كله دورا فعالا على امتداد عصوره الوسطى .

ومن بين هذه الحكايات الشهيرة حكاية هانغ تواه Hang Tuah ، وتروى قصة بطل قومى من الملايو ، عانى الأسفار فى البحار وشهد عجائبها ، شئ مثل قصة السندباد البحرى فى العربية ، وهى مذكورة فى الشجرة الملايوية ، أى الحوليات Sedjarah Melaju وهذا التاريخ شبه الأسطورى مرتبط بتاريخ الأمراء الملايويين وسيرهم ، وتعود مغامرة هانغ تواه إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، حيث ساد الإسلام المنطقة ، ومثل هذه الآثار مرتبطة إجملاً بالبلاط ، وبخاصة القوم ، وكُتبت فى لغة ملايوية نقية تعتبر نموذجا للأدب الملايوى الكلاسى .

وحكاية عبد الله عبد القادر منشى Munsji ، وهو كاتب ملايوى ، مهجن من أصول عربية وهندية ، وعرفنا بسيرته الذاتية فى كتابه " حكاية عبد الله " ،

وفيها يقدم لنا معلومات هامة عن الشخصيات التى عرفها ، وعن المنصرين البروتستانت الذين انتشروا فى هذه البقعة من العالمين الإسلامى والبوذى ، وعن أحوال عصره فى ملكا وسنغافورة . ووصف سيرة حريق ذمر سنغافورة عام ١٨٤٠ ، وفيه فقد بيته وثروته وهو دقيق الملاحظة ، يكتب فى نثر قوى جذاب ، فى نطاق ما يريد أن يعبر عنه . وله مؤلف آخر أقصر بكثير ، يحكى فيه قصة رحلة قام بها عام ١٨٣٨ إلى كلينتون بوصفه مترجما ، كما أنه أعد طبعة محققة من كتاب شجرة ملايوية .

بعامة يعتبرون عبد الله عبد القادر من عصر الملايوية الكلاسية ، فقد كتب عدة سير فى أسلوب تقليدى خالص ، ولكن سيرته تظهر فضولا وتطلعا إلى كل ما هو جديد ، مما أضفى عليه فى عصره مكانة متميزة .

أما الشجرة الملايوية ، أو الحوليات الملايوية Sedjarah Melaju ، فهى تاريخ شبه أسطورى ، حرره من يدعى تون سيرى لاتانغ Tun Seri Lanang ، ويدعى أيضا تون محمد ، وكان رئيسا لوزراء جهور لاما Djohor Lama فى جزيرة ماليزيا ، وصنع ذلك اعتمادا على نص أقدم يدعى " حكاية ملايو "، والجزء الأول منها جاء أسطوريا خالصا ، وبعده نلمس تأثيرات مختلفة ، فنجد تاريخا أسطوريا، ذا أصول سومطرية ، للأسرة المالكة ، وتاريخا روائيا لمملكة سمودرا بساى Samudra - Pasai ، وانتشار الإسلام فى هذه المنطقة ، ثم تركز الرواية على كل ما يتصل بجزيرة ماليزيا وما حولها بخاصة ، حتى عام ١٥٣٥ ، وهذا الكتاب هو الذى حققه عبد الله عبد القادر فيما أشرنا .

تدور حكاية سمودرا بساى حول ملك مسلم يحمل هذا الاسم ، وجاءت فى تاريخ ملوك بساى Radja - Radja Pasai ، والمؤلف وتاريخ التأليف مجهولان ، ولكنها تعود إلى القرن الخامس عشر ، على الأقل فى جانب منها ، والمخطوطة الوحيدة لها تعود إلى عام ١٨١٩ ، وهى ذات أهمية لأنها تسبق حكاية الشجرة الملايوية ، إذ ترجع أحداثها إلى فترة ١٢٥٠ - ١٣٥٠ تقريبا ، وهى الفترة التى

بدأ فيها الإسلام يبسط رحمته على تلك البلاد ، ولو أنها لا تقدم لنا معلومات يمكن أن نصفها ، أو نطمئن إليها تاريخيا .

وهناك حكايات أخرى عديدة ، بعضها مقتبس من كليلة ودمنة ، وتذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة ، من ناحية الفن الوصفى ، والإغراق فى الخيال ، والشخوص الواقعية والأسطورية ، كالخيول الطائرة ، والمصابيح السحرية ، والجان والعفاريت ، مثل حكاية سى مسكين ، وتذير شاه ، وملحمة شَيْر راما Ramayana ، وهى ملحمة سنسكريتية الأصل ، تنسب إلى الشاعر الهندى Valmiki ، وهى أقصر من مهابهارتا ، وأشد تماسكا منها ، وجاءت فى أربعة وعشرين ألف بيت ، وتستمد عناصرها من الموروث الشعبى ، وترجمت شعرا إلى اللغة الجاوية ، ولكنها اختَصرت إلى أربعة وعشرين نشيدا ، وهناك ترجمة جاوية حديثة لها ، كما ترجمت نثرا إلى اللغة الملايوية ، وحملت عنوان حكاية سيرى راما .

والشكل الثانى من الأدب الشعبى الإندونيسى شير Sjair ، وهو شكل أدبى ملايوى الأصل يجئ شعرا ويتكون من قصائد طويلة جدا تجئ فى شكل رباعيات وكل رباعية موحدة القافية دون قواف داخلية ، وهو ما يفرق بينها وبين البنتون Pentun ، الذى يجب أن يتضمن قوافى داخلية ، ولا يستخدم فى الإنشاد الطويل ، وكل بنتون مكتف بنفسه .

أبطال الشير عادة أسطوريون أيضا ، قادرون عادة على صنع الخوارق والمستحيلات ، وأشهر هذه الشير من جاوة ، سيرة بنجى سمبراغ ، وسيرة كن تمبوهان Ken Tambuhan ، وسيرة ألف با تا Alf Ba Ta ، وثمة سير ذات طابع دينى خالص مثل سيرة معرفة Ma`rifah ، وسيرة نور محمد ، وسيرة براهو Prahu ، وسيرة حمزة فنسورى Fansuri .

وهذه السير التى تنتمى إلى النوع الأدبى شير ، يمكن أن يكون أصلها تاريخى ، ولكن الخيال الشعبى خرج بها إلى عالم الرواية والخيال . وأقدمها لا

يمكن أن نذهب به إلى ما هو أبعد من القرن السادس عشر الميلادى ، ولو أنهم عثروا على شاهد قبر فى شمال سومطرا يظهر لنا شعر الشير فى شكله البدائى ، ويعود تاريخه إلى ٢٣ مارس ١٣٨٠ ، ولكنه ظل نوعاً أدبيا يكتب فيه ، شأن الحكاية ، حتى مطلع القرن العشرين ، ثم توقف الآن ، ولم يعد أحد يقبل عليه .

ولجئ إلى الشكل التقليدى الثالث فى الأدب الإندونيسى ، ومثله الجاوى والملايوى ، وهو بنتون Pantun ، وهو اسم لشكل شعرى ، ذى ذوق شعبى ، لعب دورا هاما فى جنوب الشرق الأسيوى ، ويوجد فى الأدب الماليزى أمثلة لهذا التكوين الشعرى شبيهة بالبنتون ، وكلاهما موثق تاريخيا ، ويحتوى فى الأغلب على أربعة أبيات ، ونادرا ما تكون ستة أو ثمانية ، ويجرى فى عروضه وقوافيه على نمط خاص ، وليست له قواعد مكتوبة ، وإنما يعتمد على الفطنة الشعبية ، ومنه ما هو للأطفال ، وما هو للشباب ، وما هو للشيوخ . وفيه ما هو غامض أو للهجاء . وبعضها يؤلف لتسجيل حدث تاريخى ، وفى هذه الحالة لا يُفهم إلا إذا كان المرء مدركا المناسبة الى قيل فيها . وبعضه يصبح مع الزمن مثلا ، مفهوما من الجميع ، ويتردد على كل لسان .

يمثل البنتون مكانة هامة فى التراث التقليدى ، وفى مجتمع ماليزيا وسومطرة، ويجد المرء ما يشبهه فى بقية مناطق إندونيسيا .

وهذه الأنواع الأدبية الثلاثة تمثل محتوى العصر الكلاسى ، وتشغل القرون الثلاثة : السابع والثامن والتاسع عشر ، وإن وجد شئ منها قبل ذلك ، وهى تعطى صورة عن المستوى الثقافى والأدبى فى عصرها ، ولكنها قليلة القيمة على أية حال .

● ● ●

ذلك هو الأدب الإندونيسى التقليدى الذى يوازى بقية البلاد الإسلامية الأخرى فى عصورها الأقدم عهدا ، وخارج نطاق الآداب الشعبية لا نجد أدبا آخر

ذا أهمية ، والأسباب واضحة ، ففي اللحظة التي أشرقت فيها شمس الإسلام على تلك الأقطار ، وكان يمكن ، كما هو المتوقع ، أن ينهض بالبلاد من كبوتها وتخلفها ، ولكن ما إن استقر بها حتى وصل الاستعمار الأوروبي فأطفأ جذوة الإسلام ، ورد شعوب المنطقة إلى غياهب الجهالة ، وعزلها عن بقية العالم الإسلامي ، كما أومأنا في أمكنة أخرى ، ومع ذلك سوف أخرج عن منهجي في الكتاب ، وألقي نظرة على الأدب الإندونيسي الحديث ، في خطوطه العريضة .

بدأت بشائر النهضة في مطلع القرن العشرين ، والاستعمار الهولندي والأوروبي بعامة في أوج قوته وتمكنه وطغيانه ، وكانت البداية على يد مواطن يدعى كرتيني Kartini , R.A. (١٨٧٩ - ١٩٠٤) ، واشتهر بكتابة الرسائل ، وهو شخصية مرموقة في حركة التجديد الأدبية ، رغم أنه رحل شابا ، واشتهر بكتابة عدد من الرسائل إلى شخصيات هولندية مختلفة ، ونشرها لأول مرة ابن دانون Abendanon عام ١٩١١ ، وفيها تفكيره صادقا ، وكتابته عفوية ، فلم يكن الظن أنها سوف تنشر يوما ، وفيها يدعو إلى تعليم الفتيات ، ولم يكن ذلك منتشرا في إندونيسيا ، واستغلالهن من قبل فريق من مواطنيه ومن الهولنديين الذين يقيمون في جافا ، وقد أسس مدرسة بنات ، وتابعه في كتاباته كثيرون بعد موته ، ويعتبر رائد النهضة النسائية في إندونيسا .

وفي ٢٠ مايو ١٩٠٨ أنشئت أول جمعية وطنية تدعى Budi Utomo ، ذات وجهة أدبية ، وفي العام نفسه ، في ١٤ سبتمبر ، أنشئت دار الكتاب Bali de Pustaka ، ودعيت أولا " لجنة Commission " ، ثم أعيد تنظيمها في ٢٢ سبتمبر عام ١٩١٧ ، وأطلق عليها " مكتب القراءة الشعبية " وغايتها الأساسية دفع الأشخاص الذين تلقوا تعليما ابتدائيا على الأقل إلى مواصلة القراءة الجيدة بنفقات معقولة .

وقد تولت هذه المؤسسة إلى جانب ما سبق نشر النصوص القديمة ، أو الأعمال الأدبية المترجمة ، ولكنها اكتسبت أهمية أدبية بالغة بنشرها عام ١٩٢٢ م رواية

" ستى نور باشا " ، للكاتب مراه روسلى Marah Rusli (١٨٨٩-) ، وفيها يهاجم بعض الأوساط التقليدية فى مسقط رأسه مننجكابو ، فى سومطرة ، لأنهم يزوجون الفتيات على غير إرادتهن ، وهى أول رواية بالملايوية الحديثة نالت نجاحا فائقا ، وأثرت فى معاصريه ، ونسبت إليها حقبة أدبية ، فيطلق على الحقبة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٣ عصر ستى نور باشا ، أو عصر دار الكتب ، وهو أيضا صاحب رواية تاريخية أخرى ، تحمل عنوان " هامى Hami " ، وتجرى أحداثها فى جزيرة سومباوا .

ساعدت هذه الدار إلى حد فى تكوين الأدب الإندونيسى بنشرها روايات أخرى وقصائد حديثة ، فى مجلتها " بنجى بوستاكا Pandji Pustaka ، ولكن كأى عمل يتم فى ظل إدارة استعمارية لا يمكن أن يتنفس جوا قوميا ، وإنما لمن تسمهم بالاعتدال ، باستثناء مجموعة شعر بعنوان " مدح Madah Kelane " للشاعر سنوسى بنيه Sanusi Panè .

وبعد الاستقلال أصبح " مكتب القراءة الشعبية " مؤسسة حكومية تنشر قدرا محدودا ، دلالة حياة ، بين إبداع ودرس ، ورغم تواضع ما قامت به هذه المؤسسة، كان خطوة إلى الأمام ، وإليه ، أو إلى رواية مراه روسلى "ستى نور باشا "، ينسب العقد الثالث من هذا القرن ، كما أومأنا سابقا .

من بين الذين أفادوا من هذا المناخ المتواضع ، ومهدوا للتطور الذى سوف يأتى بعد ، محمد يامين (١٩٠٣ - ١٩٦٢ م) ، وهو شاعر وموسوعى ، وسياسى إندونيسى ، وأديبا يمثل مرحلة وسطى بين الأسلوب القديم والأشكال الحديثة التى دعت إليها حركة الأدب الجديد ، فقد ابتعد عن لغة شير و بنتون ، ومعجمه قريب . وقد نشر فى عام ١٩٢٢ مجموعة من القصائد حملت عنوان " مسقط رأسى " ، وأصدر مجموعة أخرى عام ١٩٢٩ بعنوان " إندونيسيا .. وطنى ! " ، إلى جانب بعض الروايات التاريخية وبعض المسرحيات .

وفى هذا الطور أسهم أيضا فى تغذية الحياة الأدبية عبد الله مويس(١٨٨٦-)

وهو ناثر وصحفى إندونيسى ، اشتهر بخاصة بروايته " تربية ناقصة Salah Asu-han " ، وظهرت عام ١٩٢٨ ، وفيها يصف المشكلات التى تترتب على الزواج المختلط ، حيث يتزوج طالب إندونيسى تعلم فى أوروبا بفتاة هجينة ، أبوها أوروبى وأمها أسيوية ، وله بعض الروايات التاريخية ، وصاغ كتاب " بلا عائلة " للكاتب الفرنسى هكتور مالو Hector Malot ، فى ثوب إندونيسى .

ولا نكاد نتجاوز الثلث الأول من هذا القرن حتى نلتقى بمحاولتين هامتين ، أولاهما حركة " الأدب الجديد Pudjangg Baru " ، ومهدت لها " مؤسسة القراءة الشعبية " ، والكتّاب الذين عرضنا لاثنين منهما قبل هذه السطور .

تكونت هذه الحركة فى مطلع عام ١٩٣٣ ، وأعلنت عن مبادئها ، وفى العام نفسه أصدرت مجلة تحمل اسمها نفسه ، لنشر أفكارها وما تدعو إليه ، وتبارى على صفحاتها كبار كتاب إندونيسيا ، وربطت بين أبناء الأقاليم المختلفة ، ونهضت بالدور الذي قامت به مجلة الرسالة ، أو صحيفة دار العلوم ،التى تصدرها جماعة دار العلوم ، وكلتاهما تصدران فى القاهرة ، ومن الصدف أن المجلات الثلاث صدرت فى عام واحد ، وهو ١٩٣٣ .

لم تكن حركة الأدب الجديد مجرد حركة دعت إلى تجديد الشعر فحسب ، وإنما اتسع اهتمامها فشمل قضايا ثقافية عديدة . وبخاصة قضية إلى أى حد من الضرورى أن تقبل إندونيسيا عناصر غربية فى ثقافتها الجديدة ، وكانت هذه القضية مثار خلاف شديد . فيما يتصل بشكل الأدب اتفقوا جميعا على أن وسائل التعبير الأدبى القديمة ، سواء كانت ملايوية أم جاوية ، لم تعد تصلح للأجيال الجديدة ، ولابد من العدول عن محاكاتها ، لأن الحكاية والشير والبنتون، لم تعد تلبى حاجات الكتاب والمبدعين . وطالبوا بشعر يدع " لقوالب " الجامدة المكرورة فى النصوص الكلاسية ، وبنثر بسيط سهل ، واضح ودقيق ، وصالح للتعبير عن مشاعر الرجل الحديث .

فى الموضوعات دعوا إلى تجاوز ما كان يحدث حتى أيامهم ، من الاكتفاء

بالمغامرات المهولة ، وقصص الجان وأوصاف المعارك الشبيهة بالحقيقة ، على نحو ما ، وفيها تلعب لأسلحة السحرية دورا هاما ، والأمراء الظراف ، والقصور الملكية ، وأن يلاحظ الكاتب ما حوله ، وأن يجد الإلهام فى حركة الحياة اليومية، وفى الحلم الوطنى ، وكان يبدو بعيدا فى تلك الأيام ، ومع أن كتّاب الحركة لم يكونوا يستطيعون أن يتحدثوا عن هذا الموضوع الأخير بحرية ، وأن يعبروا عن أحاسيسهم دون قيود ، إلا أنهم كانوا أول من تحدث عن أدب وثقافة إندونيسية، وهو مالم يستطع أن يقترب منه كتاب مؤسسة القراءة الشعبية فى مؤلفاتهم قبل الحرب العالمية الثانية أبدا .

التف حول حركة الأدب الجديد ومجلتها كوكبة من الكتاب والأدباء والشعراء، فى مقدمتهم تقدير على شهبانه Ali Sjhbana ، وهو شاعر وناثر ، أصدر عام ١٩٣٦ مجموعة أشعاره " صحو عابر " ، وكتبها غداة وفاة زوجته الأولى ، وعددا من الروايات ، واهتم كثيرا بتنمية الإندونيسية الحديثة ، وألف فى قواعدها ، وأصدر مختارات من الشعر الإندونيسى القديم ، وفى عام ١٩٥٣ عيّن عضوا فى لجنة اليونسكو لكتابة تاريخ الإنسانية الثقافى والاجتماعى .

ورافقه فى الحركة أمير حمزة ، وهو أحد قلة من معاصريه يعرف جيدا ملايوية سومطرة ، ومع ذلك فهو حديث فى أشكاله ، غنى فى معجمه ، وقد تبدو بعض رواياته غامضة أحيانا ، وبرع فى إثراء اللغة ، واقتبس فى إندونيسيته كثيرا من الشعر الشرقى ، وقام بترجمة رائعة لإحدى درر طاغور ، وهى Bahagwdgta ، وله كتاب موجز فى تاريخ الملايو القديم .

ولكن الاحتلال اليابانى ١٩٤٢ - ١٩٤٥ ، أوقف نشاط حركة الأدب الجديد، ومنعها من نشر صحيفتها ، غير أن الإندونيسيين وجدوا أنفسهم أقوياء حين تحرروا من الهولنديين ومن اليابانيين فى التعليم وفى الإدارة ، وظهر بعض الكتاب الجدد خلال هذه السنوات ، فى ظل الرقابة اليابانية الصارمة ، وكان يمر بها أى حرف يكتب قبل أن يرى النور . ولكن بعض هذه المطبوعات كان ينشر

سرا ، والبعض الآخر لم ينشر إلا بعد إعلان الاستقلال فى ١٧ أغسطس ١٩٤٥ .

كان محور النشاط فى هذه السنوات ، قبيل الحرب الثانية وخلالها ، مجموعة من الأدباء الشباب ، فى مقدمتهم شيريل أنور (١٩٢٢ - ١٩٤٩) ، وهو شاعر أندونيسى ، صاحب النشاط الأكثر وضوحا فى وطنه ، وكان له تأثير كبير فى تطور الحياة الأدبية ، ولو أن بعض النقاد يحاولون أن يقللوا من دوره . وقد بدأ يكتب قصائد ووطنه تحت الاحتلال اليابانى ، حيث ظروف الحرب والرقابة تحول دون النشر ، وتشغل أعماله أربعة مجلدات ، وديوان شعر أصدره بالاشتراك مع رفاى أبين Rivai Apin ، وأسرول سانى Asrul Sani ، ودون شك فان شيريل أنور أوضح الشعراء الإندونيسيين ذاتية ، وقد ترجم رواية الابن الضال لأندريه جيد.

كان أسرول سانى رفيق شيريل أنور ، وهو شاعر وناثر مسرحى ، وهما مع رفاى أبين ، عارضوا علنا تقدير على شهبانة فى اتجاهه ، وبخاصة فى مجموعتهم التى نشرها ثلاثتهم معا بعنوان " ثلاثة يتمردون على تقدير Tiga menguak Takdir " ، مع ملاحظة التلاعب بكلمة تقدير ، فهى تعنى تقدير على وتعنى فى الوقت نفسه القدر بمعناه الفلسفى ، وقد اقتبس أسرول مسرحية كاليجولا لألبير كامى فى صورة أندونيسية ، وترجم صمت البحر Le Silence de La Mer ، وهى رواية قصيرة للكاتب الفرنسى جان بريبه Jean Brullei (١٩٠٢-) ، نشرها سرا عام ١٩٤٢ ، خلال الاحتلال الألمانى لفرنسا ، بتوقيع مستعار وهو فيركور Vercors ، وفيها يرى استحالة الإخاء الألمانى الفرنسى ، لاختلاف الشعبين ذوقا وثقافة ومجتمعا ، وغاية الأديب الإندونيسى من ترجمتها واضحة ، إذ كان وطنه يعانى من احتلال يابانى يحاول أن يتقرب إلى الشعب الإندونيسى عن طريق الرابطة الأسيوية ، وأنه شئ يختلف عن الاحتلال الهولندى . كما قام أسرول ، بالاشتراك مع زوجته سيتى نور عينى Siti Nuraini ، بترجمة الأمير الصغير لسانت - إكز وبيرى .

وكان ثالث الاثنين أمل حمزة (١٩٢٢ -) وهو شاعر ، وهو أخو أمير حمزة ، ولكنهما مختلفان إلهاما ، وبدأ نشاطه خلال الاستعمار اليابانى ، وإلى جوار الشعر له عدة دراسات عن الكتاب الأندونيسيين بعنوان " كتب وكتاب Buku dan Penulis " ، وترجمة رائعة وموفقة " لرائعة طاغور Gitanjal .

ورابعهم أسمر إسماعيل (١٩٢١ -) وهو شاعر ومسرحى ، ويستمد موضوعاته من التاريخ الإسلامى أو يستلهمه ، وكان ممثلا أيضا ، وعرضت له بعض المسرحيات خلال الاحتلال اليابانى مثل Tjitra عام ١٩٤٣ ، وإجازة فنان ١٩٤٤ ، والنار ١٩٤٥ ، ونشر مجموعة بعد استسلام اليابان ١٩٤٧ ، ومجموعة أشعار كتبها أثناء الاحتلال اليابانى ولكنها نشرت عام ١٩٥٠ بعنوان " سيجارة مشتعلة " .

هذه المجموعة من الأدباء الشبان التى تكونت أثناء الحرب ، واكتوت بنارها ، واصطلت بمتاعب الاحتلال اليابانى البغيض ، ممن ذكرنا وآخرين انضموا إليهم ، سوف يكونون ما عُرف بجيل ١٩٤٥ Angkatan 45 ، ولو أن بعضهم يرفض هذه التسمية ، ويراها غير مناسبة ، وقد استخدم الاسم للمرة الأولى عام ١٩٤٩ ، وأوضح أعلامها شيريل أنور ، والناثر عدروس Idrus ، وهى تقف فى الجانب المقابل لحركة الأدب الجديد ، ودخلت مع كتابها فى حوار بلغ حد العنف أحيانا ، وسخرت من رومانسية الجيل الذى سبقهم ، وسلبيته ، واعتبروا الحوار حول مشكلة التغريب " موضة " قديمة ، وذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه أسلافهم فيما يتصل بحرية الإبداع .

غير أن منهج هذه الحركة لم يكن واضحا ولا محددا ، ولم يخطط له أحد ، والقائمون بها ليسوا معروفين جيدا ، ولا متماسكين فيما بينهم ، كالجماعات التى سبقتهم أو التي سوف تأتى بعدهم ، ولكن فقرة لشيريل أنور يمكن أن توضح مذهب هذه الجماعة : " سوف ننام على الجانب الذى يريحنا ، ونكمل الثورة ، ونحدد غايتنا بقوة ، وأن توضح المفهوم من تعبير ثورة " . إنهم مجموعة

من الأدباء ، التقوا عند غاية مجملة ، رفضوا أن يكونوا كلاسيين ، وأثار موقفهم هذا توترا فكريا خلال الحرب ، وغذى روح النضال أثناء الكفاح من أجل الاستقلال .

وشهد عام ١٩٥٠ مولد جماعتين ثقافيتين مختلفتين اتجاها . أولاهما مجموعة Gelanggan ، وتأسست فى ١٨ فبراير ١٩٥٠ ، وكان شعارها " نحن ورثة الحضارة العلمية ، ونطورها على طريقتنا " . وهو موقف كانت جماعة لكرا Lekra تهاجمه بعنف ، وتكونت هذه بعد جماعة Gelanggan بعدة شهور ففى أغسطس ١٩٥٠ ، أعلن عن تكوينها فى جاكرتا ، وLekra اختصار لتعبير "مؤسسة معهد الثقافة الشعبية Lembaga Kebudajaan Rakjat " ، وكانت تبحث عن الواقعية المبدعة ، وتنادى بفن شعبى بالمفهوم الذى كان سائدا فى الديمقراطيات الشعبية يومها .

بقى أن نشير إلى جماعة جريدة " البوصلة الاجتماعية " ، وجماعة جريدة "علم الإسلام " ، وكان القائمون عليهما قد اتجهوا إلى مصر ، تعلموا فيها ، وتأثروا بأجوائها الثقافية والأدبية ، وبالدعوات الإصلاحية الإسلامية السائدة فيها، وعندما عادوا إلى وطنهم كانوا أوفياء لثقافتهم وما تعلموه وعبروا فى إبداعهم عن اتجاه إسلامى واضح .

أيضا فان للغات الإقليمية أدبها ، كالجاوية مثلا ، فهناك بعض الروايات ، والرقص والموسيقا ، والشعر وخيال الظل والرسائل ، ولكنها أشد تواضعا من الأدب والفن الإندونيسى .

● اللغة الألبانية وآدابها :

رغم أن الألبان من أعرق شعوب البلقان ، لكن لغتهم ليست عريقة التراث ، ولا توجد نصوص تومئ إلى أصلها البعيد . وأول إشارة إليها توجد فى تقرير كتبه أحد القساوسة الكاثوليك عام ١٣٣٢ ، يقول فيه : يتكلم الألبان لغة

تختلف عن لغة الأمم الكاثوليكية ، إلا أنهم يستخدمون الحروف اللاتينية فى كتبهم " .

وفى بلد كان على الدوام هدف حملات التنصير الكاثوليكية لا نعجب إذا وجدنا أول جملة ألبانية مكتوبة فى حروف لا تينية هى صيغة التعميد المسيحية اللاتينية ، وتتألف من تسع كلمات ، ويعود تاريخها إلى عام ١٤٦٢ م .

وبعد قرن من الزمان يصدر كتب للقس الألبانى جون بوزوكو عام ١٥٥٥ م بعنوان " كتاب الصلاة " ، واحتوى على بعض الأدعية وفقرات من الإنجيل ، فى اللغة الألبانية بحروف لاتينية - قوطية مما كان يستخدم فى شمالى ايطاليا وتبدو فيه الألبانية متأثرة بالعربية فى مفرداتها إلى حد بعيد ، ومكتوبة بالحروف العربية بدل اللاتينية ، وإضافة بعض الحروف التى ترمز للأصوات العربية الأصلية فى اللغة لألبانية ، ويعتبر حتى اليوم أول كتاب طُبع فى اللغة الألبانية.

جاءت بدية التأثير العربى عن طريق احتكاك الألبان مباشرة بالأتراك واللغة التركية ، ثم أصبح أثرا مباشرا للالتقاء باللغة العربية نفسها ، حين وفدت مع الإسلام ، وبدأ تدريسها فى الكتاتيب والمدارس الابتدائية والثانوية ، والمساجد ، وشملت المدن والقرى ، وكان يجرى تدريسها قراءة وكتابة ، نحوا وصرفا ، لتمكين الأفراد من قراءة القرآن الكريم وفهمه ، وحلت العربية فى تدريس المواد الأخرى محل اللغة التركية . ولعبت المدارس الثانوية والعليا دورا أكبر فى تعميق العربية ، فهى تدرس علوم اللغة والعروض والبلاغة والنحو تفصيلا ، والتفسير والعقائد والفقه ، وتعود أول مدرسة إلى عام ١٤٤٠ م ، أنشأها إسحق بك فى مدينة سكوبيه ، وأصبحت فيما بعد أشهر مدرسة فى البلقان . وكان النابهون من خريجى هذه المدارس يكملون دراساتهم فى مراكز الثقافة العربية فى القاهرة ودمشق وبغداد .

خلال هذا الالتحام تعرضت الألبانية لأقوى تأثير من العربية ، فأخذت منها آلاف الألفاظ فى المجالات المختلفة ، دينية وثقافية ومعمارية وإدارية واجتماعية

واقتصادية وعسكرية ، بل إن جملا كاملة انتقلت كما هى ، من الحكم والأمثال ، وزادها انتشارا اعتماد المتصوفة الألبان على التعابير الصوفية العربية ، واستمر تأثير العربية فى الألبانية حتى القرن التاسع عشر ، ولم يكن التأثير عند الألبان المسلمين وحدهم ، وإنما شمل أيضا الألبان المسيحيين .

فى القرن التاسع عشر بدأت فكرة القوميات تطل برأسها فى بلاد البلقان ، وكانت جزءا من الخلافة العثمانية ، بعد أن كانت قد اجتاحت بقية بلاد أوروبا فى قرون خلت ، وساعد على بروزها وتثبيتها فى البلقان سوءات الإدارة العثمانية . ولم تكن ألبانيا بمنأى عن هذه الحركات ، وهكذا ظهر تيار قوى يدعو إلى النهوض باللغة الألبانية وتطهيرها من المؤثرات الأجنبية ، ومن بينها المؤثرات العربية بطبيعة الحال ، واشتدت الدعوة إلى كتابتها بالحروف اللاتينية بدل العربية ، وتولد عن ذلك صراع مرير بين الاتجاهين ، على نحو ما أشرنا إليه تفصيلا فى دراستنا عن رحلة الخط العربى .

● الأدب :

ثمة أدب ألبانى ثرى كُتب جله فى الأبجدية العربية ، وشئ منه فى الأبجدية اللاتينية ، كتب معظمه مسيحيون ، وأدب هؤلاء لا يعنينا هنا ، وكان ذلك فى البداية أو بعد عام ١٩٢٠ . وكان الشعب الألبانى حول هذا التاريخ مضيّعا ، تتناوشه الضغوط الأوربية من كل جانب ، وشغل الاحتلال الإيطالى سنوات منها ، والحرب العالمية الثانية سنوات أخرى . وبعدها سقطت ألبانيا فى قبضة شيوعية متزمتة ، وجهت الأدب بقوة إلى ما يخدم أيديولوجيتها ، وأحكمت قبضتها على الإبداع والفكر ، فانطفأ ما تبقى من وهج فى أحاسيس الناس وعقولهم ، ومن هنا لا نجد للألبان المقيمين فى وطنهم أدبا لافتا لافى الحروف العربية ولا اللاتينية . ولكن يحمد للشيوعية أنها وقفت من الأدب المكتوب بالحرف العربى على الحياد ، لم تحاربه فى ماضيه ، وإن لم تشجع عليه ، وتركت الذين يبحثون عنه أحرارا .

أهمل التراث الألباني المكتوب في الحرف العربي بسبب هذا الحرف ، ولأنه يحتوى على كثير من المفردات العربية ، فضاعت مخطوطاته أو تلفت في الجانب الأكبر منها ، ولم تجيء معاداته من جانب مراكز التنصير ومن المسيحيين وحدهم ، وإنما أسهم فيها المسلمون المتغرّبون والمغيّبون أيضا ، غفلة وجهلا . لأن أضخم عمل أرّخ للأدب الألباني ، وصدر في تيرانا العاصمة في جزئين عام ١٩٤١ بعنوان "الكتّاب الألبانيون " ، وتناول الأدب الألباني من عام ١٤٦٢ إلى ١٨٧٨ ، وتضمن واحدا وأربعين كاتبا وأديبا من مختلف المناطق ، لم يعرض سوى لأديبين مسلمين من الجنوب ، مع أن المسلمين يشكلون غالبية السكان والكتاب ، وفي الفصل الخاص بأدب المسلمين اكتفى يذكر أربعة شعراء .

هذا الإهمال الشائن والمتعمد أدى بداهة إلى رد فعل عند الجانب الآخر ، فبدأ يبحث عن أدبه في تواضع منذ ثلاثينيات هذا القرن ، فنشرت مجلة " الصوت السامي Zami i Naltë " ، وهي دينية ثقافية ، نداء موجها إلى الألبان المسلمين تدعوهم إلى جمع الوثائق التي تبين إسهام أسلافهم في تطور الأدب الألباني . وكان من نتائجه أن المجلة نشرت عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ديوانا نادرا للشاعر نظيمي . وانضمت مجلة " الثقافة الإسلامية Kultura Islame " إلى هذه الجهود ، فنشرت بعض الدراسات عن هذا الأدب ، وبعض القصائد الشعرية . وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت أكبر عملية تنقيب عن المخطوطات لألبانية المكتوبة في حروف عربية ، وأشرف عليها العالم عثمان مدرّسي ، وخلال سنوات ثلاث ، ١٩٥٠ -١٩٥٣ ، تم اكتشاف أدب واسع ومجهول ، يتضمن القصص الشعرية والملاحم والدواوين والقصائد المختلفة ، مما أدي إلى كتابة تاريخ الأدب الألباني من جديد ، فصدر كتاب " تاريخ الأدب الألباني " عام ١٩٥٩ ، والذى أعاد إلى الأدب الألباني في الحرف العربي اعتباره .

وامتد الاهتمام إلى أدب الألبان الذين يشكلون قسما من يوغوسلافيا سابقا ، في منطقة كوسفو ، بمبادرة من مارك كراسنشي ، الذى خدم هذا الأدب دون أن

يعرف اللغة العربية أو أبجديتها . وفى الخمسينيات قام المستشرق الألبانى حسن كلشي بدراسة هذا الأدب فى المنطقة الألبانية من يوغوسلافيا السابقة ، وواصل العمل من بعده محمد بيراكو ، ومع ذلك بقى الكثير من هذا الأدب ، فيما كان يُدعى يوغوسلافيا من قبل ، يتطلب مجهودا متواصلا للكشف عنه .

● البداية :

لا نملك شيئا مدونا من الأدب الألباني حتى القرن الخامس عشر سوى بعض الكلمات والجمل المتفرقة . ومع استقرار الإدارة العثمانية فى البلقان ، وانتشار الإسلام فى أوروبا ، وامتداده إلى المناطق الألبانية ، بدأ رجال الدين الكاثوليك يصدون أتباعهم عنه ، بنشر بعض الكراسات الدينية ، مثل كتاب القس جون بوزوكو ، وأشرنا إليه من قبل . وترجم ليك مترنغا ، وهو قس آخر ، فى نهاية القرن السادس عشر كراسا صغيرا يتضمن التعاليم الأساسية للمسيحية ، ونشره فى روما عام ١٥٥٢ ، ليستفيد منه الألبانيون المقيمون جنوبى إيطاليا ، لأن المترجم كان يعمل فى صقلية ، وتعود أهميةُ هذه الكراسة إلى أنها تضمنت مقطعا شعريا دينيا من ثمانية أبيات ، تعتبر أول أبيات شعرية مكتوبة فى اللغة الألبانية .

وبعد هذا ظهر القس بيتر بودى (ت ١٦٢٣) ، فترجم ونشر بعض الكتب الدينية ، وتضمنت ثلاثة وعشرين قصيدة مترجمة تتناول موضوعات مسيحية ، منها قصيدتان له ، إحداهما فى مدح البابا ، والثانية فى مناجاة العذراء ، وإذا صرفنا النظر عن قيمة شعره الفنية والموضوعية ، فهو أول شخص نعرفه نظم شعرا باللغة الألبانية .

وفى هذا القرن عاش رجل دين آخر ، بيتر بوغدانى (ت ١٦٨٩ م) ونشر فى بادوفا فى إيطاليا عام ١٦٨٥ كتابا بعنوان " جماعة الأنبياء " فى اللغتين اللاتينية والألبانية ، وفيه تحدث عن قصة خلق العالم كما وردت فى التوراة ، وعن الأنبياء ، وعن حياة السيد المسيح ، وختمه بالحديث عن عراقة عائلته ،

وهو أول كتاب ألف مباشرة فى اللغة الألبانية ، وضم فى مقدمته ثلاث قصائد باللغة الألبانية ، الأولى والثانية كتبهما صديقان للمؤلف تقريظا للكتاب ، والثالثة فى مدح أحد رجال الدين .

إلى هنا نكون قد قاربنا نهاية القرن السابع عشر ، ومعها توقف النشاط الكاثوليكى أو كاد . وسمات الأدب فى هذه المرحلة ، إذا أمكن أن نسميه أدبا أنه اتسم بطابع محلى بحت ، كتب فى الشمال وكان مجهولا فى الجنوب ، ولدى المسلمين الألبان بعامة ، وهو تعليمى بحت ، قصد به تمكين المسيحيين من كاثوليكتهم ، ليمكنهم الوقوف فى وجه تيار الإسلام الزاحف ، وولد فى ضوء تأثير إيطالى لاتينى واضح ، فى اللغة والأسلوب ، ويتجلى ذلك بينا فى أبجديته الإيطالية اللاتينية .

● المرحلة الأولى : القرن الثامن عشر ●

فى هذه الظروف انبثق الأدب الألبانى الذى اتخذ الأبجدية العربية وسيلة تدوين ، جديدا فى الشكل والمضمون ، نتاج حياة ترسخت لدى الألبانيين منذ القرن الخامس عشر ، ومنه ما كتب فى اللغة العربية نفسها ، وهو جيد وغير قليل ، وينتظر من يبحث فيه ، ولكن الاعتناء به له مكان آخر ، وإنما يهمنا ما كتبه مسلمون فى اللغة الألبانية نفسها ، وإن اتخذ الحرف العربى وسيلة تقييد ، وعرف فى التاريخ لألبانى باسم " الأدب الألبانى فى الأبجدية العربية " .

قام هذا الأدب أساسا على الشعر ، وله مكانة رفيعة فى المجتمع الألبانى ، أدت إلى تشكيل تقاليد شعرية فى المناطق الألبانية منذ القرن السابع عشر ، وتميزت كبريات المدن بأنها مهابط لعدد كبير من الشعر ، فاشتهرت مدن بريزرن ، وسكوبيه ، وإلباسان ، المكتوب فى الحرف العربى . وأصبحت مدينة بيرات فى الجنوب أهم مراكز الثقافة الشرقية فى المناطق الألبانية ، طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وزارها الرحالة أولياء شلبى عام ١٦٧٠ وترك لنا وصفا مثيرا لما شاهده فيها ، فقد وجدها تضم المساجد الجميلة ، والتكايا الكثيرة ،

والمدارس العالية ، وتحدث باحترام عن الشعراء الذين كانت تغص بهم المدينة ، والذين يجتمعون فى المقاهى ليتناقشوا فى الأدب والعلوم المختلفة ، وكانت مركز القضاء ، ومقر " فخر القضاة " و " قدوة القضاة " و " داعى القضاة " ، وكانوا يتمتعون بنفوذ كبير ، وأسسوا مدرستين عاليتين تخرج فيهما مثقفو العصر فى ألبانيا ، من الجنوب والشمال على السواء . وقد انتقل تقليد الإنشاد من المدن إلى القرى وأصبح للشعراء دور مؤثر فى الحياة الاجتماعية ، وقصيدة هجاء تذهب بمكانة المرء ، وقصيدة مديح ترتفع به إلى الذروة ، فهاب الناس الشعراء واحترموهم ، وانتقلت الظاهرة إلى البيوت ، فكانت السهرات فيها منتديات شعرية ، يستمعون إلى أفضل القصائد ، ويسهم المشاركون فى تبادل إنشادها ، فيقول كل فرد بيتا ، ملتزمين ببحر واحد وقافية واحدة ، حتى تكتمل ، والمبرز فى هذا المجال يكتسب مكانة متميزة فى المجتمع وبين أصدقائه.

وفى هذا المناخ الاجتماعى برز الشعر الذى يدور حول سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، منظوما فى الأوزان العربية ، وقصصا يقرأ فى ذكرى المولد ، فى حفلات حاشدة ، وتنافس الأدباء الألبان فى نظم الشعر ، فكثرت القصص المولدية ، وارتفع مستوى الإبداع .

أقدم شعر عثر عليه فى الأبجدية العربية قصيدة لشاعر لا نعرف غير اسمه : موتشى اده ، وتعود إلى عام ١٧٢٥ م ، فى سبعة عشر مقطعا ، وكل مقطع فى أربعة أبيات ، وفى المقطع الرابع يشير إلى أنه كتبها فى شيخوخته ، مما يعود بها إلى نهاية القرن السابع عشر ويبدو الفارق واضحا بينها وبين مرحلة الأدب الكاثوليكى ، فهى ليست دينية ولا تعليمية ، وإنما تقدم لنا شاعرا مهووسا بشرب القهوة ويصف معاناته حين يفتقدها .

فى أواسط القرن الثامن عشر نلتقى بأهم إبداعات هذا العصر ، وترتبط باسم الشاعر إبراهيم نظيمى (ت ١٧٦٠) ، وهو أصلا من قرية فاركولا ، ولد لأب من الأعيان ، ونشأ واشتهر فى بيرات ، تخرج فى مدارسها العالية ، ثم سلك

طريقه إلى استنبول ، حيث عمق معرفته بالعربية والفارسية والتركية ، وأفاد من الجو الثقافي الذى كان يسود عاصمة الخلافة ، ويبدو أنه تجول فى بعض البلدان العربية والإسلامية ، وحين عاد إلى العاصمة أخذ يقول الشعر فى اللغات الثلاث، ولم يصلنا من أشعاره هذه إلا ديوانه فى اللغة التركية .

ثم عاد إلى بيرات حوالى ١٧٣١ ، وفيها بدأ يكتب الشعر باللغة الألبانية فى الأبجدية العربية ، وكما يحدث دائما بين أبناء المهنة الواحدة ، احتدمت المنافسة بينه وبين رفاقه ، ولكنه بمواهبه بزهم جميعا ، وفرض عليهم نفسه كأفضل شاعر ، ثم دخل فى مواجهة شعرية مع مفتى المدينة الملا على ، شارك فيها سكان المدينة ، وانقسموا حزبين متعارضين ، أحدهما معه والآخر مع المفى ، وكانت من القوة بحيث بلغ صداها استنبول ، واضطر شيخ الإسلام أن يتدخل لتهدئة الوضع بفصل المفتى " لأن تصرفاته وتدخله أديا إلى إثارة الفوضى فى المدينة " .

كان فصل المفتى فوزا ساحقا لنظيمى ، وزاد من شعبيته وشهرته فى مختلف المناطق الألبانية ، فتضايقت منه بعض الأوساط فأبعدوه خارج الوطن لفترة من الزمن ، ولما عاد اختلف مع الوالى فاعتقله وأرسله إلى عاصمة الخلافة حيث سجن ، وبقى فى السجن إلى أن توفى ، فرثاه زملاؤه الشعراء ، واشتهرت من بين قصائد الرثاء هذه قصيدة مؤثرة وجريئة لصديقه فيضى .

خلف نظمى بعد هذه الحياة الصاخبة مئات القصائد فى عدة لغات ، أهمها ما كان فى الألبانية ، استقرت فى وجدان الألبانيين وظلوا يحفظونها لوقت طويل ، ولكن معظمها ضاع للأسباب التى عرضنا لها من قبل ، ولم يصلنا منها إلا عشر قصائد ومئة ، ويراها النقاد كافية للتعرف على تجربته الشعرية ، ودوره فى تطور الشعر الألبانى ، وفيها نلقاه متعلقا بالحب والطبيعة والحياة ، وهو ما يمثل المرحلة لأولى من حياته . وبعد أن تغلبت عليه الليالى ، وكابد النفى ، واعتزل المجتمع ، غلب على شعره الإحساس بالغربة ، وأن الناس وأصدقاءه تخلو عنه ، فبدأ

يحتج فى شعره ضد " حالة العصر " ويصف " أصحاب النفاق " .

مع شعر نظيمى تخلى الشعر الألبانى عن أنماطه المسيحية الأولى ، وكانت تعرض لقضايا بعيدة عن الإنسان ، واتجه إلى الفرد آماله وهمومه ، إحباطاته وأشواقه ، وأدخل فى الألبانية فن السخرية للمرة الأولى ، ولا يقف تجديده عند الموضوعات وإنما يتجاوزها إلى الشكل ، حيث نلتقى بالحوار الشعى الطويل ، وهو بداية الشكل الدرامى فى الأدب الألبانى فيما يرى بعض الباحثين .

تجاوزت أشعار نظيمى نطاق وطنه ، فاهتم بها الباحث الألمانى هان Hanan ، وترجم منها إلى الألمانية ست عشرة قصيدة ، مع ملاحظات عن الشاعر ، فى كتابه "دراسات ألبانية " وصدر عام ١٨٥٤ . ووصفه بأنه أحدث شاعر مسلم ألبانى يحفظ شعبه قصائده من الذاكرة ، ومن بعده جاء الإيطالى كاماردا Ca-marda فقرأ كتاب هان ، وأعجبته قصائد نظيمى فترجمها إلى الإيطالية ، فى كتابه عن " الأدب الألبانى " ، ونشره عام ١٨٦٦ ، وأخذ عليه (طبيعى ومفهوم !) أنه يستخدم ألفاظا عربية وتركية وفارسية ، ولولاها - فيما يرى - لكان لألبانيا ما كانه الشاعر الغنائى آناكريون عند الإغريق .

من جانب آخر ، جنى عليه فى وطنه كتابته بالأبجدية العربية ، فحين قويت شوكة المتغربين ، دعاة الحرف اللاتينى والتوجه الغربى أهملوه ، حتى أن المؤلف الضخم " الكتاب الألبانيون " ، وصدر فى تيرانا عام ١٩٤١ ، لم يشر إليه الا فى عجالة ، ولكن ما لبث أن استرد مكانته حين أعيدت كتابه هذا التاريخ ، وشغل المكانة الى يستحقها .

ونلتقى فى هذه الفترة بشاعر آخر ، سليمان نائبى (ت ١٧٧١) ، وهو من المعاصرين لنظيمى ، وعاش معه فى بيرات ، وكان يتمتع بمكانة شعبية بين مواطنيه ، وقصائده ما زالت تنشد حتى اليوم فى المدن الألبانية ، وبعضها أصبح جزءا من التراث الشعبى الغنائى ، وكان الجديد الذى قدمه تعبيره عن حالات الحب والعشق والتغنى بجمال المرأة ، وترك ديوانا وصلنا ، وهو الثانى فى الأدب

الألباني ، وجرى مع صديقه نظيمي في خط واحد ، فلقي من إهمال المتغربين ما لقي صاحبه ، ومع أن لديوانه أكثر من مخطوطه فانه لماّ يطبع .

ثم نلتقي بالحاج عمر كاشاري ، من تيرانا عاصمة ألبانيا اليوم ، وكانت قد نشأت في القرن السابع عشر ، واكتسبت طابعا شرقيا . وكل ما نعرفه عنه أنه ولد في بداية القرن الثامن عشر ، وأنه أصبح شيخا للطريقة القادرية ، ويقول الشعر في الألبانية والتركية ، وتمثل قصيدته " الألف " نمطا أسلوبيا جديدا ، فقد جعل كل بيت منها يبدأ بحرف من الحروف العربية متوالية كما في هجائها ، ومن هنا جاءت في ثمانية وعشرين بيتا ، وسوف تصبح فيما بعد تقليدا نجد له نظائر متعددة في الألبانية والعربية والتركية والفارسية ، وهي أول نص ألباني يكتب في لهجة تيرانا . وترك معجما ألفه للغتين العربية والتركية ، تحتفظ منه المكتبة القومية في تيرانا بنسخة مخطوطة تعود إلى عام ١٨٠٤ م .

من شعراء النصف الثاني من القرن الثامن عشر الأكثر أهمية حسن زيكو كاميري ، ويعدونه أفضل من قال الشعر في الأبجدية العربية ، ولد في قرية قيبا من مدينة كولونيا Kolonja في الجنوب ، ولا نعرف شيئا عن نشأته ودراسته ومصادر ثقافته الواسعة ، وكلما ما نعرف عنه أنه اشترك في الحرب التركية النمساوية عام ١٧٨٩ ، من خلال قصيدة يصف فيها أهوال الحرب التي رآها و أخذ بجانب منها ، صنيع الشاعر المصري محمود سامي باشا البارودي ، فهو يصف حرب كريت التي شارك فيها ، وحرب الروس حين ذهب مع الحملة المصرية ، لدعم جيش الخلافة .

ونعرف أنه في أواخر حياته تصوف وانضم إلى الطريقة البكتاشية ، وتوفي في أواخر القرن الثامن عشر ، أو أوائل تاليه ، وأقام له أهالي القرية ضريحا تحول إلى تكية ، لأنه أصبح في نظر الناس وليا ، ودمرها اليونانيون حين اجتاحوا جنوب ألبانيا عام ١٩١٤ ، ولكن الأهالي أعادوا بناءها .

ندرك من قصائده أنه قضى معظم حياته في قريته ، وتمتع بشهرة واسعة ،

وكانت قصائده تنتشر سريعا شفاها ، وهو مثل حافظ الشيرازى لا يهتم بكتابة قصائده ، وإنما يتحلق الناس حوله ، ويحفظونها عنه ، فأصبح جانب منها تراثا شعبيا ، وأصبح من العسير تمييز ما له عن غيره ، ووصلنا ديوانه ، واهتم به الحافظ على ، وأرسله للطبع فى مدينة مناستير ، ففقد هناك ، ومع ذلك بقى الكثير من أشعاره التى تكفى لتقييم مكانته .

يرى النقاد أن أشعاره يمكن تقسيمها إلى : غنائية واجتماعية وواقعية ، وأخرى دينية .

والقسم الأول منها تبلغ قصائده خمسين ، وتعود إلى ما قبل الشيخوخة ، قبل أن يلوذ بالتصوف والدروشة ، وفيها يعبر عن الحب وحالات العشق ، وهذه تعود إلى فترة مبكرة من حياته فيما يبدو . أما أشعاره الاجتماعية الواقعية فتعبر عن وعى اجتماعى متقدم بالنسبة لعصره ، وعن اتجاه واقعى مبكر فى الشعر ، ومرد هذا أن الشاعر قضى معظم حياته فى القرية مفضلا العمل والبقاء مع الفلاحين على الاسترزاق بشعره فى المدن ، وشارك مع هؤلاء البسطاء فى الحرب التركية النمساوية عام ١٦٨٩ ، وقاسى فيها كثيرا ، وجاء نتاجها قصيدة " الحرب الإمبراطورية " ، وفيها يصف أهوال الحرب ، ومعاناة البسطاء ، ولا مبالاة الضباط بمصير الجنود الذين يتساقطون كالذباب ، ومن تصوير الهم الجماعى إلى تصوير الهم الفردى ، ناقما على الحرب التى تذهب بكل شئ حتى جبته لم تسلم منها ، فيما يقول أحد الأبيات .

فى الجانب لاجتماعى يتناول التقاليد والعلاقات السائدة فى الريف الألبانى ، ويرفض ما هو متخلف منها ، منتقدا فى قصيدته " ليلة الزفاف " حرمان الفتيات من اختيار الزوج الملائم لهن ، مصورا نفسية الفتاة وقد استبد بها القلق ، وهى تنتظر زوجها الذى لم تكن رأته من قبل ، وليس لها رأى فيه ، ولا تعرف عنه أى شئ ، وفيها يرثى للعريس نفسه ، حيث تدفعه التقاليد إلى إنفاق مالا حاجة إليه، ولا قدرة له عليه ، ويتمنى أن يوفر لنفسه كل هذه النفقات ، كما عرض فى

قصيدة " الدينار " لتفسخ العلاقات الاجتماعية بسبب المال ، وكأنما يتحدث عن أيامنا هذه ، ويتناول جماع المال ، وتهافت الناس عليه ، بنقد لاذع أليم ، ولا يعفى من سخريته أحدا : السلطان والوزير وشيخ الإسلام ورجال الإفتاء ، والباشوات والبكوات والقضاة وغيرهم .

أما الأشعار الدينية ، وتمثل الجانب الآخر من إبداعه ، فأقرب الظن أنه انتهى إليها حين تفرغ للعبادة فى أواخر حياته وتدور حول محاور ثلاثة : المولد النبوى ، والشعر القصصى الدينى ، والشعر الشيعى . ومن الواضح أن هذا المحور الأخير بدأه بعد أن انضم إلى الطريقة البكتاشية ، وكانوا شيعة فيما أشرنا من قبل . أما الاهتمام بالمولد النبوى فى ألباتيا فقد كان مقصورا إجمالا على أهل السنة ، وكان شعره فى المولد النبوى أول شعر من هذا النوع فى اللغة الألبانية .

جاء المولد فى قصيدة تتألف من إحدى وخمسين مقطعا ، كل مقطع من أربعة أبيات ، وتتحدث عن مولد النبى عليه الصلاة ولسلام وحياته ومعجزاته ، فى إطار شعرى جذاب ، وتوجد منه مخطوطة واحدة فى الدار القومية فى تيرانا ، ويتميز بواقعية بسيطة ، وبهذا أرسى هذا التقليد الشعرى فى اللغة الألبانية ، وأصبح مناط منافسة بين الشعراء حتى القرن العشرين .

وترك لنا حسن زيكو قصائد أخرى ذات محتوى دينى وتاريخى كقصيدته الطويلة عن " تاريخ إبراهيم مع هاجر وسارة " ، واكتشفها الكاتب الألبانى ف . دودانى V . Dodani عام ١٨٢٢ فى إحدى التكايا ، فنسخها واعتبرها قمة فى الإبداع .

وحين تصوف الشاعر انتسب إلى الطريقة البكتاشية ، وكانت شيعية فى جوهرها ، فترك هذا صدى واضحا فى أشعاره ، ويتجلى ذلك واضحا فى قصيدته " معاويه " فجاء رأيه فيه كما يراه غلاة الشيعة ، وله أشعار أخرى تناول فيها وقعة كربلاء وما حدث فيها .

ومن شعراء النصف الثانى من هذا القرن الشيخ سليمان تيمانى ، وهو من بيرات ، وكان شيخ الطريقة الخلوتية فى المدينة ، وبعد وفاته تحول ضريحه إلى مزار يشد الناس إليه ، وضاعت أشعاره فى معظمها فلا نعرف له إلاّ عددا من القصائد ، نشرت منها مجلة الثقافة الإسلامية فى الأربعينيات قصيدة دينية ، وجاءت فى تسعة وعشرين بيتا ، وتتخذ من العروض العربى قالبا ، ونشرت له قصيدة أخرى يمدح فيها الإمام عليا .

●●●

فى هذا القرن أيضا امتد الأدب الألبانى فى الأبجدية العربية إلى الشمال ، وانتشر هناك ، وأصبح أداة تواصل قومى ، ولم يعد قاصرا على منطقة بعينها ، وأصبح الشعر يروى شفاها ، وتحولت مدينة شكودرا عاصمة الشمال إلى مركز ثقافى ينافس بيرات فى الجنوب ، وازدهرت اقتصاديا وثقافيا ، وأصبحت مركز باشاوية (ولاية) ألبانية شبه مستقلة فى ذلك الوقت ، تحت حكم عائلة بوشتالى Buchatali التى فتحت بلاطها للشعراء . بعضهم لم يصلنا شئ من شعره ، وآخرون وصلتنا قصائد لهم فحسب ، ونعرف منهم الشاعر حسين شكودرا وصالى باتا ، واشتهر بقصائده الساخرة ، وما زالت أشعاره تروى فى شكودرا .

من شعراء الشمال المعروفين حسين دوبراتشى ، وعاش فى مدينة شكودرا ، وذاعت شهرته فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ويشكل الحب اهتمامه الأول فى قصائده ، وظل يتمتع بالشهرة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولفت نظر الباحثين الغربيين فاهتم به هكورا Hecqura الفرنسى أولا ، وتحدث عنه فى كتابه " تاريخ ووصف شمالى ألبانيا " وصدر فى باريس عام ١٨٥٧ ، واعتبره الباحث الإيطالى جوباتى Jubany فى كتابه " مختارات من الشعر الغنائى الشعبى والنثر الألبانى " ، وصدر فى تريستا عام ١٨٧١ " شاعرا معروفا فى ألبانيا " ، وأصبح جزء من أشعاره أغانى شعبية ، وأصبحت مع الزمن جانبا من الموروث الشعبى فى شمالى ألبانيا .

● المرحلة الثانية : القرن التاسع عشر ●

ظل الأدب الألبانى فى الأبجدية العربية مزدهرا حتى العقد الثامن من هذا القرن ، ثم جدت أحداث أضعفته ، من اشتداد حركة القومية الألبانية ، وقوة دعاة التغريب ، وانقسام المسلمين حول الأبجدية التى يكتبون فيها ، وانحياز المسلمين المنتمين إلى الطريقة البكتاشية إلى دعاة الكتابة بالأبجدية اللاتينية ، على نحو ما عرضنا للأمر فى مكان آخر ، وكل ذلك سوف يضعف من حركة الأدب ، إلى عوامل سياسية خارجية أخرى .

أول من تلتقى به من شعراء القرن التاسع عشر طاهر تصيبى (ت ١٨٣٥) ، وهو من آباء بكتاشية الجنوب ، وزار العراق فى شبابه حسب تقاليد طريقته ، وأقام هناك فترة من الزمن ، ولدى عودته أنشأ تكية فى قرية فراشر ، وقامت بدور كبير فى الحياة الثقافية ، وعنه تحدث " قاموس الأعلام " لمؤلفه شمس الدين البارودى ، الذى نشأ فى القرية نفسها ، وقال عنه إنه يكتب الشعر بالألبانية والتركية والفارسية . وفى طريق عودته من العراق توقف فى مدينة ليسكوفيك Leskovik حيث أحاط به العلماء لاختباره فرد عليهم شعرا ، لكن أشعاره لم تصل ، ولا يعرف أحد ماذا حل بها .

ومن شعراء النصف الأول من هذا القرن محمد تشامى (ت ١٨٤٤) ، وقدم أهم إبداعات الأدب الألبانى فى هذا القرن ، ولا نعرف من حياته إلا القليل : ولد فى أقصى الجنوب ، فى مدينة كونيسبول Konispol ، وأنهى دراسته الأولى فيها ، ثم جاء إلى القاهرة ليدرس فى الأزهر ، وبقى فيها إحدى عشرة سنة ، ورافقت إقامته ظهور محمد على باشا فى الساحة المصرية . وعاد بعد تخرجه إلى مدينته ، حيث أصبح شيخها إلى أن توفى . وقد ساعدته إقامته فى القاهرة ، ودراسته فى الأزهر ، على تعمقه فى اللغة العربية وآدابها ، وتجلت آثار ذلك واضحة فى أعماله الى بقيت مجهولة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وظلت غير منشورة حتى اليوم ، ومن مخطوطاتها يتبين أنه كان غزير الإنتاج شاعرا ،

ويدور إنتاجه حول محاور ثلاثة : الترجمات والقصائد والقصص .

ترجم قصيدة " البردة " للبوصيرى ، واكتُشفت الترجمة أخيرا فى مخطوطة من أربعين صفحة تعود إلى عام ١٨٨٤ م . وثمة قصيدة أخرى مترجمة عن العربية فى أربع مئة بيت ، وتحمل عنوانا عربيا " تارك الصلوات " ، ونسخها أحد أقرباء الشاعر ، ولا يوجد ما يشير إلى شاعرها الأصلى ، ولا إلى المصدر الذى ترجمت عنه .

أما شعره نفسه فيدور حول محورين : قصائد ذات طابع دينى ، وأخرى تدور حول موضوعات ذاتية وتاريخية مختلفة .

من المحور الأول ، أى الدينى ، مجموعة شعرية كاملة ، فى سبعة وثلاثين قصيدة ، تضم ثلاثة آلاف وسبع مئة بيت . منها قصيدة طويلة فى عدة مئات من الأبيات ، وجاءت احتجاجا على شيوع شرب الخمر بين المسلمين ، وهو تساهل عرفه جنوب ألبانيا حيث تشيع الطريقة البكتاشية ، وكانت تسمح لأتباعها بتناول الخمر . وإلى جانب هذا المحتوى الموضوعى فانها ذات قيمة فنية ، لأنها تصور لنا عالم المخمورين والحانات تصويرا جيدا ، وقصيدة ثالثة ، فى مخطوط من ست عشرة صفحة ، تدور حول وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

فاذا تركنا الجانب الدينى إلى المحور الثانى ، ويتضمن الموضوعات الذاتية والتاريخية ، فأوضحها قصيدة " المغتربون " وتتألف من مئة بيت ، جاءت وليدة تجربة الشاعر خلال إقامته الطويلة فى مصر ، وبدء تدفق الألبان عليها ، ويصف لنا التمزق الذى يعانى منه هؤلاء الألبان الوافدون ، ومشكلات التوافق مع البيئة الجديدة ، والشوق إلى أوطانهم الأولى ، وشاعت القصيدة بين الألبان لكثرة المهاجرين منهم فى هذا القرن شرقا وغربا ، ولذا حفظتها الذاكرة الشعبية من الضياع . وثمة قصيدة أخرى طويلة ، تتألف من ست مئة بيت ، عن معارك الجيش المصرى وبطولاته فى بلاد اليونان ، بقيادة إبراهيم باشا .

غير أن شهرته تعود ، فيما يبدو ، إلى شعره القصصى ، وأوضح أعماله فى هذه الجانب قصته " أروى " فى ستة وخمسين وثمانى مئة بيت ، وكتبها حوالى عام ١٨٢٠ م ، واقتبسها من ألف ليلة وليلة ، ولقيت رواجا فى ألبانيا على امتداد القرن التاسع عشر ، وطغت على بقية أعماله الأدبية الأخرى . وقد قام الكاتب الألبانى يانى فريتو (١٨٢٢ - ١٩٠٠) باعادة كتابتها بالحرف اللاتينى ، بعد أن أساء إلى الأصل بتصفيته من الكلمات العربية والتركية ، وطبعها للمرة الأولى فى بوخارست عام ١٨٨٨ م ، ومَسْرحها أحمد تشيزى ، وعُرضت لأول مرة عام ١٩٦٧ فى المسرح الشعبى الإقليمى فى مدينة بريشتينا ، عاصمة أقليم كوسوفا ، وكان جزءا من يوغوسلافيا السابقة ، واعتبرت حينذاك مفاجأة الموسم ، وحصلت على عدد من الجوائز ، من بينها الجائزة الأولى لمهرجان المسرحيات اليوغوسلافية فى العام نفسه ، ولاتزال تعرض .

يعتبرون قصة أروى أول عمل قصصى شعرى فى الأدب الألبانى . وللشاعر قصة أخرى ضاعت فى زحام شهرة الأولى ، وهى يوسف وزليخة ، وطالت حتى بلغت ثلاثين وأربع مئة وألفى بيت ، وهى ذات قيمة فنية أكبر إذا قورنت بأروى وفيها تتجلى مهارة الشاعر فى تحليل شخوص قصته نفسيا ، ونالت هذه القصة شعبية واسعة ، ظلت تنتقل شفاها ، ومازالت تسمع وتنشد حتى اليوم .

وكان عبد الله كوينسبولى ، نسبة إلى مدينة Konsipol ، من شعراء هذه الفترة ، وعاصر محمد تشامى ، وكان مواطنا له ، ويعتبر عبد الله أول من اهتم بالمولد فى هذا القرن ، وجمع بينهما أن كلا الرجلين كان شيخا وشاعرا معروفا ، واهتما بالترجمة من العربية إلى الألبانية ، وبقى من أعمال عبد الله " المولد " ، وانتهى منه عام ١٨٣٠ ، وهو أهمها ، وكان محدود الانتشار فى الجنوب ، لأن "مولد " حسن زيكو سبقه إليه ، وشغل وجدان الناس هناك .

فى الفترة نفسها اشتهر أدهم مولاى (ت ١٨٤٨) ، من تيرانا ، وينتمى إلى عائلة عريقة ثرية فى وسط ألبانيا ، وقد أتم دراسته فى مسقط رأسه ، وفيه

لقى الله ، ودفن فى مسجد أقامه فى مدينته ، وينسب إليه حتى اليوم ، وهو يكتب الشعر بالألبانية والتركية ، ويذكرون له فى هذه الأخيرة أربعة دواوين ، وترك فى الألبانية مجموعة من القصائد يغلب عليها الطابع الدينى ، إلى ديوان شعر ، ولم يعثر على شئ منها حتى الآن .

وفى أقصى الشمال من منطقة كوسوفا نلتقى فى هذه الفترة بالشاعر طاهر جاكوفا ، وكانت هذه المنطقة منذ القرن الماضى تكتب فى الأبجدية العربية . ونعرف عنه أنه أكمل دراسته فى استنبول ، وبعد أن عاد إلى مسقط رأسه أصبح مدرسا فى مدارسها العليا ، وألف عدة كتب من بينها " عادة الثأر عند الألبانيين " ، وطُبع له منها كتابه " وهيبة " فى استنبول عام ١٨٣٥ ، وهو أول كتاب يطبع فى الأبجدية العربية ، ونشر مرة ثانية فى صوفيا عام ١٩٠٧ فى الأبجدية اللاتينية ، وهذه الطبعة نفسها أعاد إدريس آيتي نشرها عام ١٩٦٠ مع مقدمة بين فيها قيمة الكتاب التاريخية واللغوية .

وكتاب " وهيبة " يجمع بين الشعر والنثر ، ويبلغ الشعر فيه عدة مئات ، وأوضح الشاعر فى الصفحة لأولى منه البحر الذى اعتمد عليه فى شعره ، وهو بحر الرمل ، وأورد تفعيلاته : فاعلاتن فاعلاتن فاعلن . وجاء نثره مسجوعاً ، وقد تنوعت موضوعاته ، وعبر فيه عن آرائه فى الحياة والناس وغيرهما ، وهو فى ذلك يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مما يشى بأن الشاعر كان يتمتع بثقافة عربية وإسلامية واسعة .

وفى هذه الفترة عاش الشاعر داليب فراشرى ، ودخل عالم الأدب بملحمته الضخمة " الحديقة " ، وهى أطول ملحمة فى تاريخ الأدب الألبانى ، وما نعرفه عن حياة هذا الشاعر قليل ، ولكن لقبه يومئ إلى أنه من قرية فراشر ، حيث توجد تكية للطريقة البكتاشية ، وفيها قضى معظم حياته بعد أن أصبح من أتباعها . وتتألف هذه الملحمة من ست وخمسين ألف بيت ، وتدور حول فاجعة كربلاء ، انتهى من كتابتها فى ٢١ من ربيع الآخر عام ١٢٥٨ هـ = ١٨٤٢ م .

ولأخيه الأصغر شاهين فرشراي ملحمة أخرى انتهى منها فى ١٨٦٨ م ، حملت اسم " مختار نامه " ، نسبة إلى المختار ، وكان من شهداء كربلاء ، وجاءت فى اثنى عشر ألف بيت من الشعر ، وهى الثانية بعد " الحديقة " فى الأدب الألبانى.

وفى النصف الثانى من هذا القرن نلتقي بالشيخ يونس (ت ١٩٠٩) ، وهو من قرية بالقرب من مدينة توبليسا فى أقصى شمال كوسوفا ، وأطلق عليه أبوه اسم حيدر ، وهاجر مع عائلته إلى مدينة فوتشيرنا ، وتابع دراسته على يد الحافظ عارف أستاذ اللغة العربية وأدبها ، ثم ذهب إلى استنبول ، وتخرج فى كلية علوم الدين ، وبعد عودته التقى فى مدينة سكوبيه بمحمد عرب هوجا ، وهو صوفى مصرى ينتسب فى الطريقة الملامية ، وجاء لنشرها فى هذه المناطق ، فأجازه فى طريقته ، وأسماه يونس ، وعهد إليه بنشر هذه الطريقة بين الألبانيين الذين بنوا له تكية فى قرية سوهادول ، سرعان ما تحولت إلى مركز ثقافى تلقى فيه الدروس اللغوية والدينية .

بقى تراث يونس فى ذاكرة أتباعه ، بين قصائد دينية ، أشهرها " الإلهيات " فى ست مئة بيت ، وتعكس روحه الصوفى داعية عدل ومحبة ، وأخرى تعليمية أشهرها قصيدته " ألف " ويهدف من ورائها إلى تسهيل تعليم الحروف العربية ، وتتألف من ثمانية وعشرين مقطعا ، طبقا لعدد حروف الأبجدية العربية ، وفى كل مقطع يشرح أحد الحروف بالصورة والمثل والمقارنة ، وأخرى بعنوان " نقطة البيان " من أربع مئة وعشرة أبيات ، أراد بها ، كما جاء فى مقدمتها ، أن يوضح معنى " الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة " .

ومن شعراء هذه الفترة اسماعيل فلوتشى ، نسبة إلى مدينة Floqi فى جنوبى ألبانيا ، ولا نعرف عنه غير أنه من شعراء القرن التاسع عشر ، ولولا " المولد " الذى كتبه لبقى مجهولا تماما ، وكانت مجلة " الصوت الإسلامى " الناطقة بلسان الهيئة الإسلامية الألبانية وجهت عبر صفحاتها عام ١٩٣٧ نداء تدعو فيه إلى الاهتمام بجمع التراث الألبانى المكتوب فى الأبجدية العربية ، فاستجاب لها

الشيخ إسترف شاكرى إمام مدينة فلوتشي وأرسل لها نسخة مخطوطة من "مولد" هذا الشاعر ، ولكن أحدا لا يعرف ما حل به بعد عام ١٩٤٢ .

غير أننا نملك معلومات وافية عن الشاعر والعالم الحافظ على رضا أو لشيناكو Ulqinaku ت ١٩١٣ ، فقد كتب موجز سيرة حياته بنفسه ، ونعرف منها أنه ولد فى مدينة أولشين Ulqin التي تقع الآن على بحر الأدرياتيك ، فى جنوبى ما كان يدعى سابقا يوغوسلافيا عام ١٨٥٥ م ، وفى مدرستها العليا درس العربية والتركية ، وشغل فى البداية منصب مفتى المدينة ، فلما استولت قوات الجبل الأسود عليها عام ١٨٨٠ التجأ إلى مدنية شكودرا ، ومنها إلى مدينة دورس فى شمالى ألبانيا ليشغل منصب مفتى المدينة إلى وفاته . وكان إلى شعره عالماً ، وألف معجمين شعريين : ألبانى تركى ويحتوى على ثمانى عشرة ألف كلمة ، وتركي ألبانى ويحتوى على خمسة آلاف .

ومن شعراء " المولد " المشهورين طاهر بوبوفا Popva (ت ١٩٤٩) ، وهو من منطقة كوسوفا جنوبى ما كان يدعى يوغوسلافيا ، وانتقل إلى استنبول شابا حيث تابع دراسته الدينية على الشيخ الداغستانى ، وكان أماما معروفا فى عاصمة الخلافة ، ثم انتقل إلى المعلمين الليا فتخرج فيها بتفوق ، وعندما عاد منها عمل مدرسا لفترة طويلة فى مدينة نوفى بازار ، فى جنوبى يوغوسلافيا ، وفى الثلاثينيات انتقل إلى تيرانا حيث توفى هناك . وقد خلّف لنا عدة مؤلفات لا نعرف منها غير مولده لشهير ، وصدر له خلال إقامته فى استنبول ، وسنعرض له بتفصيل أكثر عند الحديث عن المولديات فى العالم الإسلامى .

● **فى القرن العشرين :**

لا نكاد نصل إلى نهاية القرن التاسع عشر حتى تتبلور الدعوة إلى القومية ، ومعها كتابة الألبانية بالأبجدية اللاتينية ، وهكذا بدأ الأدب العربى المكتوب فى الحرف العربى يتراجع ، ويحل مكانه الحرف اللاتينى ، ويسبق أدب هذا ذاك نضجا فى الفن ، وتنوعا فى الموضوعات ، وارتباطا بهموم السياسة الطاغية ،

دون أن يتقاطعا ، فقد كان الأول قاعدة الثانى . على أن أدب القرن العشرين كان قليلا ومحليا وغير لافت ، فقد عانت ألبانيا كثيرا خلال هذا القرن ، فبعد الحرب العالمية وويلاتها ، فقدت طبقا لمعاهدة فرساى كثيرا من أراضيها ، ضَم بعضها إلى اليونان ، وبعضها الآخر إلى ما كان يدعى يوغوسلافيا ، وفقدت ألبانيا نصف سكانها ، ومع ذلك لم تسلم من أطماع الدول النصرانية وطمعها فيها ، ثم جاء الاستعمار الإيطالى قبيل الحرب العالمية الثانية ، والحرب العالمية نفسها ، وحين انتهت هذه عام ١٩٤٥ ، سقطت ألبانيا فى قبضة الشيوعية الصارمة ، فمسخت قوميتها ، وعزلتها ، ولم يعد أحد يعرف شيئا مما يدور بداخلها ، إلى أن سقطت الشيوعية نفسها فى الثمانينيات .

لكن هناك بعض الظواهر الجديرة بالملاحظة ، منها أن الأدب الألبانى فى الأبجدية العربية واصل سيره فى مهاجره الجديدة على استحياء نعم ، ولكنه لم يتوقف ولم يندثر ، حمله الذين هاجروا إلى سوريا أو تركيا ، أو الذين أصبحوا رعايا يوغوسلافيين أو يونانيين ، وكان تعليم الألبانية محظورا عليهم ، ولم تكن ثمة جرائد أو مجلات تقبل أن تنشره ، فأصبح الشعر يقال شفاها ، وتحفظه الذاكرة ، وسيلة تواصل وتفاهم .

من هؤلاء الذين واصلوا الكتابة بالألبانية فى حروفها العربية ، من ألبان يوغوسلافيا (سابقا) حسن الخلوتى (ت ١٩٢٦) ، والخلوتى نسبة إلى الطريقة الخلوتية ، وهو من مدينة بريزرن . تخرج فى مدارسها العليا ، وأصبح إماما لجامعها ثم تصوف ، وأصبح شيخا لإحدى تكايا المدينة ، واشتهر بأشعاره الصوفية .

ومن معاصريه ، واحتذى طريقه مواطنه حلمى ماليتشى Maliqi (ت١٩٢٨)، وأتم تعليمه فى بريزرن ، وعمل إماما لجامع راهو فيتش ، ثم تصوف على الطريقة الملامية ، وكانت قد انتشرت بين الألبان ، على نحو ما أومأنا من قبل ، وبنوا له تكية بقى فيها حتى وفاته ، وأقام فى التكية مدرسة مجانية يدرس

فيها الدين واللغة والجغرافيا ، ويركز علي تعليم اللغة العربية بخاصة ، ويقرأ مع طلابه عددا من الكتب العربية التى قادته إلى التعرف على الفلسفة القديمة .

فى مجال الشعر ترك ديوانا يضم تسعا وتسعين قصيدة ، ويبدو فيه متأثرا بالأسلوب العربى إلى أبعد حد ، فى العروض والقافية ، وترتيب الديوان هجائيا حسب قوافيه . وإلى جانب الشعر الصوفى له شعر ذاتى ، كقصيدته " الفراشة " ، كما ترك فى تكيته ست عشرة قصيدة طويلة ، يسمى كل واحدة منها رسالة ، فى موضوعات صوفية وتاريخية ووجدانية متنوعة .

ومن ألبان يوغوسلافيا أيضا إسلام بيتيشى Bytci (١٩١٠ - ١٩٣٤) ، وهو من قرية تتبع منطقة لابوشا ، وفيها أنهى دراسته الابتدائية ، ثم تابعها فى مدينة جاكوفا ، حيث درس اللغة العربية ، وحمل لقب " حافظ " ، وكان يَطلق على الذين يحفظون القرآن من الذاكرة ، ونمت مواهبه الشعرية فى سن مبكرة ، ولكنه توفى خلال تأديته الخدمة العسكرية ، والقليل الذى وصل من شعره يعكس هم إنسان فى ميعة الصبا ، يحلم بالحب ، ويغنى له .

ولدينا شاعر آخر هو فائق مالكو (ت ١٩٣٥ م) ، ولد فى مدينة بريشتينا ، عاصمة إقليم كوسوفا ، حيث أنهى دراسته الابتدائية ، ثم تخرج فى المدرسة الدينية العليا ، وعمل فيها نفسها مدرسا ، إلى أن أغلقتها السلطات اليوغوسلافية عام ١٩٢٧ م ، فانتقل إلى منطقة بوديبفا القريبة ، حيث أصبح مديرا لمدرسة دينية ، غير أن السلطة أغلقت هذه المدرسة أيضا عام ١٩٢٩ ، وبعدها بقى بلا عمل ، ولكن ذلك لم يثنه عن النضال من أجل الحقوق الثقافية للألبان المسلمين ، ومنها المدارس الدينية ، وكانت يوغوسلافيا قد تعهدت باحترامها فى معاهدة فرساى ، ومن أجل نضاله تعرض لثلاث محاولات اغتيال ، نجا فى اثنتين منهما وسقط فى الثالثة .

كان فائق ممن واصلوا قول الشعر وكتابته فى الأبجدية العربية ، واتخذوه أداة يحض بها قومه على المقاومة ومكافحة الجهالة ، وكانت السلطة حريصة على

بقائها وتعميقها ، ولذلك اتسم شعره بالبساطة التى تقترب من النثرية ، فقد كان يخاطب جماهير تتسم بالأمية ، مستغلا العواطف الدينية ، ومستخدما القرآن الكريم فى تحريضها على طلب المعرفة . ونجد فى أشعاره كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأدى هذا إلى أن تتضمن أشعاره كثيرا من الألفاظ العربية ، وحتى بعض التراكيب الدينية .

وفى فترة ما بين الحربين نلتقى بالشاعر عمر شمسى (ت ١٩٤٥ م) ، من مدينة بريشتينا ، وفيها حفظ القرآن الكريم ، وتعلم اللغة العربية ، ثم عيّن إماما لأحد الجوامع ، وافتتح فى قرية سازلى كتابا ليعلم أطفال القرية اللغة العربية ويحفظهم القرآن الكريم ، واشتهر بأشعاره الدينية فى اللغة الألبانية بالأبجدية العربية ، وفيها يحض الناس على الالتزام بأوامر الدين ، وتغنى بالشخصيات المجاهدة التى اغتيلت فى العهد اليوغوسلافى القديم ، وتحولت أشعاره هذه إلى أغنيات شعبية .

بوفاة هذا الشاعر وصل الأدب الألبانى فى يوغوسلافيا السابقة إلى نهاية الطريق ، فخلال الحرب العالمية الثانية تكونت " ألبانيا الكبرى " حيث ضمت إليها المناطق الألبانية التى منَحت ليوغوسلافيا طبقا لمعاهدة فرساى ، وفى الحال فَتحت فيها المدارس على نطاق واسع ، تعويضا لها عما فاتها ، ولأن الحرف اللاتينى كان قد تقرر رسميا كان التعليم يجرى به ، فلما انتهت الحرب ردَت هذه المناطق ، دون أى مبرر جغرافى أو قومى أو سند قانونى ، إلى يوغوسلافيا ثانية فأبقت حال الكتابة على ما هو عليه ، ولكنها أغلقت المدارس الدينية التى لاذ بها الحرف العربى .

غير أن الشاعر شعيب ذوراجى (ت ١٩٥١)، يستحق الإشارة ، من قرية راهو فيتس ، وفيها تعلم ، ثم تابع دراسته الدينية فى بريزرن ، وحين عاد إلى مسقط رأسه عين إماما لأحد الجوامع ، وهو من أبناء الطريقة الملامية ، وإنتاجه الشعرى غزير ، وكان يكتبه فى الألبانية والتركية والسلافية المحلية ، وفى

الأبجدية العربية فيها جميعها ، في الوقت الذى كانت فيه الأبجدية العربية قد انتهت في تركيا نفسها ، ولكن معظم إنتاجه الشعرى ضاع حينما هاجرت عائلته إلى تركيا في الخمسينيات ، وإن بقيت له بعض القصائد التى تتمتع بأهمية خاصة ، بعضها دينى وجدانى ، وفى الحب بخاصة .

وكان آخر هؤلاء الشعراء فيصل جلال الدين غوتا (١٩٠٥ -) ، وهو من قرية قرب مدينة فريزاى ، وفيها درس العربية وحفظ القرآن فى بعض الكتاتيب ثم تابع دراسته فى مدينة بريزرن ، وكان للغة العربية والأدب العربى فيها مكانة خاصة ، وبعد تخرجه عاد إلى منطقته ليعمل إماما لأحد الجوامع ، ويعلم الناشئة اللغة العربية ويحفظهم القرآن ، ويدرس لهم العلوم الأخرى ، كالتاريخ والجغرافيا والرياضيات ، وكان تدريس الألبانية فيها يتم بالأبجدية العربية ، ولكن الحكومة اليوغوسلافية حولتها فى مابعد الحرب إلى مدرسة رسمية ، وذلك يعنى إلغاء دورها الدينى ، وخصوصيتها فى تعليم العربية والألبانية بالحرف العربى . أما الشاعر فيصل فظل أماما ، فلما تقاعد ذهب إلى قرية حسن بك فى مقدونيا ليقضى بقية أيامه .

شغل تخلف المسمين الشاعر ، وانعكس ذلك فى قصائده ، فهو يحرض المسلمين فى ألبانيا ويوغوسلافيا على التخلص من ضعفهم ، ومن وهم أنه قدر كُتب عليهم ، ويدعوهم إلى التشبث بالأرض وعدم الهجرة ، وكانت الهجرة أكبر عامل فى ضياع أوطان المسمين التى اجتاحها الأعداء فى هذا القرن ، وهو درس يعيه مسلمو البوسنة والهرسك الآن جيدا ، فهم فى وطنهم ، على أرضهم ، صامدون ثابتون لا يتزحزحون ، رغم كل البلايا والمآسى والمحن ، والحصار والجوع والموت ! .

للجالية الألبانية التى هاجرت إلى سوريا فى زمن مبكر من هذا القرن ، نشاط أدبى ملحوظ باللغة الألبانية ، فى أبجديتها العربية ، ولكن موطن دراسته ليس هنا ، لأن أصحابه سوريون سياسة ، ويتخذون اللغة العربية لسانا أيضا ، شأن مزدوجى اللغة فى أوطان إسلامية كثيرة .

الموروث الدينى المشترك

● المديح النبوى والمولديات :

يمثل الرسول عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى والإنسان الكامل لكل المسلمين، حتى حين ينظرون إليه بشرا سويا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ويمثل جهاده من أجل دعوته والتضحية فى سبيلها نموذجا يقتدونه فى حياتهم ، أو يأملون ، من أجل نشر راية الإسلام والدفاع عنه . وهو أمر تشترك فيه كل الشعوب الإسلامية ، تلتقى عند الغاية ، وتختلف فى الوسيلة ، ويعبر الفنانون عن إجلالهم للرسول ، ولكن هذا التعبير لا يجئ بمعزل عن مزاج الفنان فردا ، وعن نمط البيئة جماعة ، وعن تقاليد الفن الذى يتخذونه مركبا للتعبير عما يريدون .

سلك التعبير عن إجلال الرسول طريقتين مختلفتين و متفاوتين : المديح والمولديات .

أما المديح فقديم منذ حياة الرسول نفسه ، وإن جاء فى صورة هينة لينة ، بسيطة متواضعة ، عرض له شعراء قريش وذب عنه شعراء المدينة ، فى مقطوعات أو قصائد قصيرة . فلما كانت العصور التالية ، الأموية والعباسية شغل الشعراء بالصراع السياسى والقبلى ، وما نتج عنه من مديح وهجاء ، ولا يعرضون للرسول إلا إذا اقتضت المناسبة ، فلما كانت الحروب الصليبية ، وهوجم المسلمون فى عقر دارهم ، وتعرضوا للهزيمة أحيانا ، وجدوا فى مدح الرسول وسيلة يشحذون بها مشاعر الجماهير ، ويحثونهم على الصمود والثبات ، وربما عكست على غير وعى منهم إحساسا كامنا بتقصير المسلمين فى حق ربهم ودينهم ووطنهم ، واعتذارا إلى الله ورسوله عما اقترفوا من آثام يراها بعضهم ، أو حتى كلهم ، وراء الهزيمة . ومع الزمن نسوا مرارة الهزائم ووخز الضمير ، وأصبح المديح

غاية عاطفية وفنية ، تشيع فيه المشاعر الدينية حينا ، ويتجرد منها أو يكاد حينا آخر ، ومثالنا الواضح على الأولى مدائح البوصيرى فى الماضى ، وما نسجه أمير الشعراء أحمد شوقى على منوالها فى العصر الحديث . ويتجلى الثانى ، أعنى التجرد ، فى البديعيات ، اختار شعراؤها بحر " البردة " ورويها ، ولكنهم التزموا فى كل بيت محسنا بديعيا ، من جناس أو طباق أو غيرهما ، وأسرفوا على أنفسهم فالتزموا بأن يشمل ذلك البيت اسم اللون البديعى الذى اختاروه له ، ومن أشهرها بديعية ابن حجة الحموى .

كان مدح الرسول فى خطوطه العريضة يدور حول عدة اتجاهات : تعظيم أمر الرسول ووضعه فى المرتبة العليا بالنسبة لبقية الأنبياء والرسل ، والتعبير عن العواطف الخاصة التى يجيش بها صدر الشاعر ، والحديث عن معجزاته ، وهو باب انفتح على مصراعيه ، وجرى به الخيال إلى أبعد مدى ، فتصور ما كان وما لم يكن أبدا، وما يعنينا منه ليس الواقع التاريخى فى صدقه وواقعيته ، وإنما النموذج وتطوره، وما يعكس من رموز وتفسيرها ، وتعبيره عن الجماعة التى ينتمى إليها الشاعر، وحين تتعانق العقيدة والفن ، ويلتحمان فى بناء واحد ، يكون لهما من التأثير الفعال فى المجتمع ما ليس لغيرهما .

ثم التوسل بالرسول ، شفاعة فى الآخرة ، أو تطلعا إلى مأمول فى الدنيا ، وقد يكون سلما إلى حياة روحية مطمئنة ، تحلق معها النفس فى أجواء صافية شفافة ، تتجاوز الماديات إلى ما وراءها ، وتنتهى بصاحبها إلى التصوف ، أو إلى الزهد واختصار الحياة ، أو إليهما معا وقد لا يجتمعان .

لم يتوقف مدح الرسول على امتداد تاريخ الإسلام ، وإن جاء فى الأعصر الأولى هينا لينا كما أومأنا ، ومع الحروب الصليبية بدأ ضرورة ثم واصل سيره تقليدا ، ومن يومها شغل حيزا كبيرا من الإبداع العربى ، وتم ذلك كله بأسلوب واحد لا يتغير ، قصائد عمودية ، قصيرة طورا ، وطويلة حينا ، ومتوسطة فى أغلب الأحيان ، وقد تجئ معارضة لقصائد أخرى سبقت واشتهرت ، والمعانى

نفسها تتكرر دون جديد ، ولا تحديد لوقت إنشادها ولا مكانه ، ولا لمن تُنشد لهم ، وقد يبدعها الشاعر لنفسه ، ويطويها فى صحائفه ، ولا ينشدها أحدا ، فلا تُعرف إلا فى ديوانه بعد موته ، وقد ينشدها جمعا من صحبه ورفاقه ، ويطلب رأيهم أو استحسانهم إذا شئت ، وهو فى ذلك كله غير مقيد بزمان معين . ومع الزمن اقتضت السياسة على ما سنعرف أن يقولها الشعراء ، وأن يسمعها الخليفة أو الأمير أو الوزير ، وأن يكون ذلك فى جمع ، أو احتفال بهيج ، فى يوم معين ، يحتشد له أكبر عدد من الشعراء ، وكان ذلك اليوم هو مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبدأ الشعر الذى يلقى فى هذه المناسبة يُعرف بشعر المولديات ، وعم العالم الإسلامى كله ، وإن اختلف من بلد إسلامى إلى آخر .

لانعرف على التأكيد أين بدأ الاحتفال بالمولد النبوى ومتى ، وإن غلب على الظن أنه بدأ فى مصر الفاطمية ، وأن التقاليد الموروثة ، ونظام الحكم القائم ، ساعدا على تبلور هذه الفكرة والخروج بها إلى حيز الواقع ، فمصر ما قبل الإسلام تعرف شيئا من مثل هذه الاحتفالات ، ارتبطت بحياة القديسين ، ولا تزال تجرى حتى يومنا هذا ، فالتفت إليها الفاطميون وحاكوها ، وكان عندهم من دواعى السياسة ما يدعوهم إلى شغل الرعية بمثل هذه المناسبات ، وساعدهم على هذا اقتصاد مزدهر ، وحضارة متقدمة ، وفلسفة دينية تسمو بالرسول سيرة ومولدا وجهادا وبيتا ، وتجل الأئمة من بعده خلفاء على الأرض ، ولهذا لم يقتصر احتفالهم بالمناسبات الدينية فى مصر على عيدى الأضحى والفطر كما كان سائدا قبلهم ، وإنما أضافوا إليها الاحتفال بمولد الرسول ، وأول العام الهجرى ، ويوم عاشوراء (ذكرى مقتل الحسين) ومولد الإمام على ، والحسن والحسين وفاطمة ، رضى الله عنهم جميعا . ومولد الخليفة ، وليلة أول رجب ومنتصفه ، وأول ليلة فى شهر شعبان ، وجبر الخليج ، ويوم النيروز ، ويوم الغطاس ، وأول العام الميلادى ، وعيد النصر ، وهو يوم دخول الفاطميين مصر .

وقد وصف لنا المقريزى احتفال الآمر بأحكام الله بمولد النبى سنة

٥١٧هـ=١١٢٣م ، وذكر أنه كان معروفا من قبل ، ثم أبطله الأفضل بن أمير الجيوش ، وأبطل معه المولد العلوى والفاطمى ومولد الخليفة ، حتى نَسى ذكرها، لكن الآمر بأحكام الله أعادها ، وهذا يعنى أن الاحتفال بالمولد كان قائما فى مصر قبل ذلك التاريخ . وفيه كانت توزع الصدقات والهبات ، ويقرأ القرآن ، ولكننا لا نجد للشعراء أثرا .

ومن مصر انتقل الاحتفال بالمولد النبوى إلى العراق ، وكان مظفر الدين كوكبوى صاحب أربيل (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م) أول من احتفل بالمولد النبوى احتفالا عظيما ، وكان يفد إلى هذا العيد الذى يقيمه الأمير طوائف الناس ، من أنحاء مختلفة من العراق وفارس ، منهم العلماء والمتصوفون والوعاظ والقراء والشعراء ، ويقضون فى أربلا من المحرم إلى أوائل ربيع الأول ، ويقام فى الشارع الأعظم مناضد ضخمة من الخشب ، ذات طبقات كثيرة ، بعضها فوق بعض ، تبلغ الأربع والخمس ، ويزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الخيال حتى أعلاها ، ولم يكن للناس شغل إلا التمشى أمام تلك المناضد والتمتع بما يقدم لهم . وكان الأمير فى ليلة المولد نفسها يركب فى الشارع ومن بين يديه الشموع العظيمة ، كل منها مربوط فى بغل ، وكان العيد ينتهى بموكب ووليمة ، والعادة الجارية فى ذلك العيد قراءة السيرة النبوية ، مع إيثار الكلام فى قصة المعراج .

وقريبا من هذا التاريخ نجد ما يشير إلى أن المغرب بدأ يحتفل به بتأثير من مصر على التأكيد ، فيذكر ابن عذارى عن أبى القاسم العزفى : " ومن مآثره العظام قيامه بمولد النبى عليه السلام من هذا العام - يعنى عام ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م الذى ملك فيه أبو القاسم سبتة - فيطعم أهل بلده ألوان الطعام ، ويؤثر على أولادهم ليلة يوم المولد السعيد ، بالصرف الجديد من جملة الإحسان عليهم والإنعام ، وذلك لأجل ما يطلقون المحاضر والصنائع والحوانيت يمشون فى الأزقة يصلون على النبى عليه السلام ، وفى طول اليوم المذكور يَسمع المسمعون

لجميع أهل البلد مدحَ النبى عليه السلام بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام، جارٍ ذلك على الدوام فى كل عام من الأعوام ... "

ويشير ابن عذارى فى عجالة إلى الاحتفال بالمولد النبوى فى مراكش ، فيقول عن الخليفة المرتضى : " وكان يقوم بليلة المولد خير قيام ، ويفيض فيه الخير والإنعام ، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفى ، لأنه لماّ ألّف كتاب " الدر المنظم فى مولد النبى المعظم " بعث به إليه ، وأشار بذلك الرأى عليه ... "

ولدينا إشارة صريحة لابن خلدون فى كتابه " التعريف بابن خلدون " ينص فيها على أن ملوك غرناطة احتفلوا بالمولد النبوى اقتداء بالمغاربة ، ربما بأهل سبتة على التحديد ، يقول وقد كان فى مملكة غرناطة من ١٣٦٢ م إلى ١٣٦٥ م ، فى عهد محمد الملقب الغنى بالله : " ثم حضرت المولد النبوى لخامسة قدومى ، وكان (يعنى السلطان) يحتفل فى الصنيع فيها والدعوة وإنشاد الشعراء اقتداء بملوك المغرب ... "

لدينا معلومات وافية قدمها لنا لسان الدين بن الخطيب عن احتفال محمد الخامس الغنى بالله بالمولد النبوى عام ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م ، وهو الاحتفال الذى أومأ إليه ابن خلدون ، وهو نص فريد فى بابه ، ولا مثيل له فى أى مصدر آخر ، ولم نقع عليه إلا أخيرا ، حين عثر على مخطوطة الجزء الثالث من كتابه " نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب "، ونشرته محققا الدكتورة السعدية فاغية فى المغرب عام ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م ، وقد وقف ابن الخطيب على هذا الحفل الفصلين التاسع والعاشر من كتابه ، فتناول الطريقة التى تم بها ، وأورد طائفة هامة من الأشعار التى قيلت ، وشارك فيها كبار الشعراء : ابن الخطيب نفسه ، وابن زمرك ، وابن خاتمة ، وألقى ابن خلدون قصيدة فى الحفل نفسه ، إثباتا للذات فحسب ، فهو لا يتعاطى الشعر عادة ، وغير هؤلاء شعراء آخرون من طبقات أقل .

فى البدء وصف ابن الخطيب قصر " المشور " الذى أقيم فيه الحفل ، وكلمة

المشور فى الاصطلاح الأندلسى والمغربى تطلق على المكان الذى يجلس فيه السلطان فمن دونه من الحكام للحكم ، ولاتزال الكلمة مستخدمة فى المغرب حتى يومنا هذا . ثم أتى على وصف الحفل تفصيلا :

لما كمل جمع الناس خرج إليهم السلطان فى خاصته ، واقتعد أريكة الملك ، ثم أذن للناس على طبقاتهم ... ثم أقيمت الصلاة جامعة ، وبعدها أحكم الخدمة والعرفاء ونبهاء المماليك ترتيب الناس ، يكون قربهم من مجلس السلطان بحسب مكانتهم : شيوخ القبائل ، والأشراف بنو الفواطم ، ونسباء الملوك وأهل العلم ، وبين يديه دون مجلسه : الصوفية " والفقراء " ، وهم كثيرون من المتسببة والمتجردين وأرباب الحرف المسافرين ، والأعجام الواردين ، ويتلوهم التجار وهم كثيرو العدد ، من المشارقة والتونسيين ، وغص المشهد الرحب بسائر الطبقات ، وكل الناس فى فاخر ثيابهم ، وأجمل زينتهم .

ثم كان الشروع فى ذكر الله ، والإنصات لأعشار القرآن وبالغ الوعظ ، ثم اندفاع الأغانى وزفير اليراع الأجوف .

ويفصل القول فى إطناب عما كان يقدم من أطاييب الطعام ، وألوان اللحوم ، وفاخر الفاكهة والحلوى ، فى صنوف لا تخطر على البال ، وفى حفل العام الذى يصفه ابن الخطيب أهديت للسلطان ساعة ليلية يقاس بها الوقت .

ثم يبدأ الذكر تتجاوب به الجهات والأصداء ، ولف الذاكرين " الوجد " ثم كانت الإفاقة ، واغمامت السماء بدخان العنبر الشحرى ، ثم سَكب ماء الورد...ثم اندفع " المزمزم " ، وهو المخصوص بالمداعى الملكية ، المتميز بالإعراب وقراءة القريض ، وكلما مر بمعنى مثير " للوجد " لبته لصوفية و " الفقراء " بين واجد ومتواجد ... و" المسَمع " يواصل القصائد المنظومة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام والإشادة بميلاده ، وذكر معجزاته ، ثم التخلص إلى مدح السلطان وذكر خلاله ، وإطراء تحفيه بهذه الدعوة ، ويبلغ عدد القصائد فى هذه الليلة ما يناهز ربع المئة ، مما يدل على عراقة هذا الصنيع فى العروبه ، ومحله من اللسان ،

وكمون البلاغة بين أطلاله ، منهم المجيد والمتصف بما دون ذلك ، شأن أولى الصنائع ومعاطى المدركات ويستمر الحفل الليل كله إلى صلاة الفجر .

" ثم أفيض فى الذكر ، ثم كان الأكل ، ثم الطيب ، ثم أذن فى الانصراف ، وأجمع الإخباريون وشيوخ الرحلة ، وأهل الجولة ، وأرباب الدول ، ومن شارك من ذكر الأعمار ، فى أن هذا الصنيع مابين محله وطعامه ، ومسموعه وآلته ، بكر الزمان لم ينسج له على منوال ، ولا سبقه إلى غاية " .

طال الليل ، وامتد الحفل ، وكان الوقت شتاء فيما يبدو ، وينهض ابن الخطيب ، رئيس الوزراء والشعراء ، بعد كل ساعة فيلقى مقطوعة فى عشرة أبيات يمدح فيها السلطان ، وبلغت عدة هذه إحدى عشرة مقطوعة ، تخللت حفلا دام إحدى عشرة ساعة ، كما نبه على ذلك . وكل مقطوعة تتفق ومعانيها واللحظة التى أنشدت فيها ، وجاءت ارتجالا فيما أرجح ، وكان ابن الخطيب شاعرا مقتدرا .

أما القصائد النبوية التى قبلت فكانت طويلة ، وجاء ابن الخطيب فى كتابه بقصائد سبعة عشر شاعرا ممن أنشدت قصائدهم ، جاء بقصائد ثلاثة منهم كاملة قصيدته نفسه فى ستة وتسعين بيتا ، وقصيدة ابن خلدون فى واحد ستين ، وقصيدة أبو اسحاق بن الحاج فى ثمان وعشرين ومئة بيت . وفى بقية القصائد كان يأتى بالبداية ، وهى مقدمة غزلية ، وقد تتضمن أبياتا قليلة فى مدح السلطان ، ثم يحذف ما يتصل بالحديث عن المولد نفسه ، لأن المعانى مكررة عند الشعراء جميعا ، ثم يعود فيأتى بالنهايات ، وهى فى مدح السلطان ، قائلا : "منها بعد كثير يرجو عفو الله فيه ... " أو " ومنها بعد استكثاره من المعجزات ، أو " ومنها ... " ، أو " ومنها وهى طويلة ... " ، أو " ومنها ولا حول ولا قوة إلا بالله ... " ، أو " ومنها بعد المعجزات ... " . وأبدى ابن الخطيب رأيه موجزا فى أكثر القصائد التى أوردها مثنيا أو ناقدا ، يعلق على قصيدة بأن " معانيها جيدة ، ولكن ألفاظا دون ذلك "، وعلى ثانية بأنها " متقاصرة عن النمط المعهود

فيه " ثم يعتذر عنه ، وهو ابن خاتمة ، بأنه قالها وهو مريض .

فاذا تركنا الأندلس إلى المغرب نجد وصفا مفصلا ، وإن كان دون تفصيل حفل غرناطة ، لاحتفال بالمولد أقامه أبو حمو موسى صاحب تلمسان عام ٧٧٨ هـ = ١٣٣٦ م ، أى بعد حفل غرناطة بأربعة عشر عاما ، ووصفه لنا أبو عبد الله التنسى فى كتابه " راح الأرواح ، فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح ، ويوافق ذلك على حسب الاقتراح " ، يقول :

" كان يقيم ليلة الميلاد النبوى - على صاحبه الصلاة والسلام - بمشوره من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة ، يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وبسط موشاة ،ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالإسطوانات ، وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقباب ، يخالها المبصر تبرا مذاب ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفس ، وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر ، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ومكفرات ترغب فى الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فيها من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجانة قد زَخرفت كأنها حلة يمانية ، لها أبواب موجفة ، على عدد ساعات الليل الزمانية ، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت منه جارية صورت فى أحسن صورة ، فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدى السلطان بلطافة ، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة . هكذا حالهم على إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداْء المنادى حى على الفلاح " .

وأعطى التنسى وصفا آخر للحفل نفسه فى كتاب آخر له ، وهو " الدر

والعقيان ، في شرف بني زيان ، وذكر ملوكهم الأعيان " ، وقدم فيه بعض التفصيل لما أجمله في كتابه الأول ، والكتابان لايزال مخطوطان ، وأورد المقرى في كتابيه " نفح الطيب " و" أزهار الرياض " هذا الوصف نقلا عن التنسى في كتابيه ، واعتمادنا هنا على المقرى ، وأورد قصيدة لأبي زكريا يحيى بن خلدون، أخي ابن خلدون صاحب المقدمة والتاريخ ، قالها في هذه المناسبة ، وهي في أربعة وستين بيتا ، ولا تختلف في معانيها ولا نهجها عن أي قصيدة أخرى قيلت في مثل هذه المناسبة في غرناطة .

لاشك أن حفل تلمسان كان بتأثير ما يحدث في غرناطة ، لا لأن احتفالات هذه كانت أسبق تاريخا فحسب ، وإنما أيضا لأن أبا حمو كان يعرف غرناطة جيدا، فقد ولد بها ، حين كان أبوه لاجئا إليها .

ثم نلتقي بوصف لحفلات بني مرين في فاس ، وكانت في الفترة نفسها تقريبا، في كتاب متأخر ، في لغة أجنبية ، لمؤرخ غرناطي أصلا ، وهو إبراهيم الوزان (١٤٨٣ - ١٥٥٤) اختطفه النصارى صغيرا ، ونقلوه إلى روما ، وحملوه هناك على اعتناق الكاثوليكية ، وأخذ اسم ليون الأفريقي ، ومن مؤلفاته بالإيطالية كتاب " وصف أفريقيا " ، يقول : " إن الشعراء في فاس كانوا سنويا ينظمون قصائد في مدح الرسول ومولده ، ويذهبون جميعا حيث حاكم المدينة ، منذ لصباح الباكر ، ويجلسون في منصة عالية أعدت لهذا الغرض ، ويتبارون في إنشاد مدائحهم ، وتحضر الحفل جماهير غفيرة ، وصاحب أعذب القصائد وأشدها تأثيرا ينادون به أمير الشعراء لهذا العام ، وخلال حكم بني مرين كان الأمير يدعو سنويا كل العلماء والشعراء الذين في المدينة ، ويستقبلهم في قصره بحفاوة بالغة ، وينشد كل واحد منهم قصيدة في مدح النبي ، من على المنصة العالية ، ومن يخرج فائزا في هذا المهرجان ، بعد تحكيم محايد ، يتلقى من الملك هدية جوادا عربيا أصيلا ، وجارية ، ومئة دينار ذهبي ، والزى الذى كان الملك يرتديه أثناء الحفل .

كأي فن عظيم يولد بين الخاصة فتقلده العامة ، أو تبتدعه العامة فتصقله الخاصة ، لم يعد الاحتفال بالمولد النبوى قاصرا على الحفلات الرسمية يقيمها

الملوك والأمراء ، وينشد فيها قصائدهم أعاظم الشعراء ، وإنما أصبح احتفالا شعبيا تشارك فيه العامة بابداعها وقدراتها ، ويذهب شعراء العامة بصفات النبى ومعجزاته بأبعد مما يذهب إليه شعراء الفصحى .

وإلى جانب شعر المولديات هناك شعر المديح النبوى ، والفرق بينهما أن الأول مرتبط بتاريخ ومناسبة ، وأما الثانى فيصدر عن مزاج صاحبه وظروفه النفسية ، وإحساسه بالحاجة إلى من يلوذ به ، أو يناجيه ، مستجيبا إلى فيض دينى غامر أو مدفوعا " بوجد " صوفى هائم ، وأمثلة الأول كثيرة تملأ دواوين الشعر العربى على اختلاف عصوره ، وشتى بقاعه ، ونضرب المثل للثانى بقصيدة " البردة " للبوصيرى ، وما عورضت به من شعر حتى يومناهذا .

تدور معاني كلا النوعين حول المحاور التالية:

مدح الرسول عليه الصلاة بذكر محاسنه الحسية ، وقلة تبالغ فيها أحيانا مبالغة يمجها الذوق السليم ، وشمائله الخلقية ، ومعجزاته ، وهذه الأخيرة تشغل الجانب الأكبر من القصيدة ، ثم التشوّق إلى زيارة قبر الرسول ، والتوسل إليه أن يكون شفيع قائل القصيدة يوم القيامة ، وأن يعين على تجاوز كربه فى الدنيا ، ثم يختمها بالصلاة على النبى والترحم عليه .

وقف الشعراء فى المولديات والمديح النبوى عند المعجزات الحسية ، لأنها تلهب خيال العامة ، وقلما انتبهوا إلى المعجزات المعنوية كالقرآن أو أن الرسول صنع أمة عظيمة من حفنة من البدو بلا ماض ولاتاريخ ، وأقام دولة وأرسى شرائع ، وجاء بعقيدة فرضت نفسها على الزمان والمكان ، وهذه المعجزات الحسية يختلف عندها العلماء اختلافا شديدا كما سنرى ، ولكن مايعنى دارس الأدب ليس الواقع التاريخى ، وإنما التأثير الشعورى ، وماكان يحس به السامع فى أعماقه عند مايسمع ، أو القارىء عندما يجرى نظره بين السطور .

هذه المعجزات الحسية مأخوذة فى الأعم الأغلب من كتب الشمائل والدلائل ، أو ما ندعوه أحيانا كتب « المناقب » وهى تسرف إسرافا شديدا فى الحديث عن

الخوارق والمعجزات ، والحسى منها بخاصة ، وتوزعها فى سخاء وكرم أحيانا ، لمن تتحدث عنهم من الأنبياء والصلحاء والأولياء ، وترى فى ذلك عبادة ، وتمضى مع خيالها إلى مالانهاية .

يهمنا هنا ما نسب من معجزات إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسألتقطها من كتاب تاريخى ، لفقيه عالم معتدل ، سنى أشعرى المذهب ، لايذهب به الشطط بعيدا قبولا أو إنكارا ، وهو القاضى عياض اليحصبى السبتى (ت ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) ، فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » ، وعاش المؤلف حياته فى العصرين المرابطى والمَوحدى ، فهو أندلسى ومغربى فى الوقت نفسه ، وترديد المعجزات التى أوردها لم يكن وقفا على هذا الجانب من العالم الإسلامى ، وإنما كانت شائعة بين عامة المسلمين .

من المعجزات الحسية التى نسبها المؤرخون والقصاص ، ويرددها الشعراء والعامة : إنشقاق القمر على عهد رسول الله فرقتين ، حتى رؤى الجبل بين فرجتى القمر .

ومعجزة حبس الشمس ، استجابة لدعاء الرسول ، وتمثل ذلك فى حادثين ، أما أولهما " أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر علىّ ، فلم يصلِّ العصر حتى غربت الشمس ، فقال رسول الله : أصلّيت ياعلى ، قال : لا ، فقال: اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس » . قالت أسماء : " فرأيتها غربت ، ثم رأيتها طلعت بعد ماغربت ، ووقفت على الجبال والأرض ، وذلك بالصهباء فى خيبر " . وأما ثانيهما فرواه ابن اسحاق : لما أسرى برسول الله وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العين ، قالوا : متى تجىء ؟ قال : يوم الأربعاء . فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولّى النهار ولم تجىء ، فدعا رسول الله ، فزيد له فى النهار ساعة ، وحُبست عليه الشمس " .

ومعجزة نبع الماء من بين أصابعه ، وتجلت فى أكثر من حادث يروى ، ونكتفى

منها بحدثين رواهما القاضي عياض . أولهما : روى أنس قال : رأيت رسول الله وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأتى رسول الله بوضوء فوضع فى ذلك الأناء يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه ، قال فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس جميعا ، وسأله سائل : كم كان عدهم ؟ قال زهاء ثلاث مئة .

وفى يوم الحديبية عطش الناس عطشا شديدا ، ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا : ليس عندنا ماء إلا مافى ركوتك ، فوضع النبى يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون . قيل : كم كنتم ، قال الراوى : لو كنا مئة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مئة .

ومن هذا القبيل معجزة تكثير الطعام ببركة النبى ودعائه ، أو تفجر الماء وانبعاثه ، وكلام الشجرة ، وشهادتها له بالنبوة ، وإجابة دعوته حين طلبها ، وتسبيح الطعام ، وأنين الجذع ، واحياء الموتى وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة ، وإبراء المرضى وذوى العاهات .

وهناك معجزات حسية أخرى ارتبطت بمولده ، أوردها القصاص والنسابون ، ففى ليلة ميلاده انهد إيوان كسرى ، وانطفأت نار فارس ، وفاضت بحيرة ساوة ، وكَبّت الأصنام على وجوهها .

بقى ان أشير إلى أن هذه المعجزات الحسية لم تكن موضع اتفاق بين المسلمين ، فهناك من ينكرها أصلاً ويضعّف رواتها ، ومن يتأولها ويجد لها مخرجا ، ومن يتقبلها كما هى . ويتجلى ذلك واضحا فى الجهد الكبير الذى بذله القاضى عياض فى الرد على منكريها ، وإن لم يورد من آرائهم شيئا .

من بين المدائح والمولديات النبوية ، وهى كثيرة ثنتان مترجمتان إلى عدد كبير من اللغات الإسلامية هما : قصيدة كعب بن زهير « بانت سعاد » ، والأخرى «البردة » للبوصيرى ، وكانت هذه موضع معارضة لعدد كبير من الشعراء ،

منذقالها حتى يومنا هذا . ونعرف أن الشاعر الألبانى محمد تشامى ترجمها إلى اللغة الألبانية ، وجاءت ترجمته لها نتيجة إقامته الطويلة فى مصر .

●●●

كان صدى المولد النبوى والمدائح النبوية خافتا فى عالم الشعر الفارسى ، ولا يجىء فيه إلا تابعا ، بعضا من كل ، جزءا فى قصيدة طويلة تتناول أغراضا إسلامية متعددة ، ومرد ذلك فيما أرى سببان : الأول أن الحديث عن فاجعة كربلاء ، واستشهاد الأمام الحسين ، وآخرين ، استغرق الجانب الأكبر من اهتمامهم ، وإن كانت القصة تبدأ عادة بالحديث عن المصطفى عليه السلام .

والثانى : أن التصوف الإيرانى ، وهو شيعى فى جملته ، اختلف عن مثيله فى العالم العربى وبقية العالم الإسلامى من غير الشيعة ، وسلك طريقين مختلفين ، طريقا يحمل بصمات هندية ، ويدعو إلى الإعراض عن الدنيا ، والرياضة الروحية وقتل الشهوات ، والقناعة ، وترجيح الفقر واكتساء الصوف ، وربما جاءت كلمة « صوفى » من هذا الجانب .

والطريق الثانى : وهو إيرانى بحت ، يعنى السلوك والجد والطلب ، وطى مراحل الإخلاص والعبادة ، والتواضع والإيثار وخدمة الغير ، والتأمل والسكوت ورياضة النفس ، والمحبة واكتساب المعرفة ، وبلوغ مقام العشق الإلهى ، والفناء فى الوجود ، والقيام بأوامر الله ، والاجتهاد بلا منة ، والخدمة بلا رياء . والصوفى الكامل هو الذى يطوى مراحل التقليد والتوسل إلى أن ينتهى منها ويقطع إلى الحقيقة طريق الكشف والتذكر والرياضة ، ويجعل قلبه مستقر العشق والمحبة والتجلى ، وأن يسمو بفكره من العالم السفلى إلى مقام العالم العلوى ، وأن يجلى مرآة الضمير حتى يرى الله فى نفسه ، ويبلغ إليه بالمعرفة ، وأن يجعل فكره وقوله وفعله فى سبيل الوصول إلى الحقيقة .

وفى كلا الطريقين فان الحديث عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن ، منذ البداية ، لا الغاية ولا الهدف .

فى الأدب التركى أصبح النظم فى المولد النبوى فنا شعريا مرموقا وشائعاً . وجرت عادة المتقين من الأتراك أن يجتمعوا فى المساجد والمنازل ، فى شهرى ربيع الأول والآخر من كل عام ، ليستمعوا إلى من ينشدهم قصة المولد ، فيستخفهم الطرب ، ويقع فى قلوبهم الخشوع ، فيترحمون على صاحب المولد صلوات الله عليه ، ويقرأون الفاتحة على روحه .

كان الشاعر سليمان جلبى أو من نظم فى المولد ، فكان مثنويه « مولد شريف أو « سبيلت النجات » وهو فى ست مئة بيت ، ولأن صاحبه كان إماما لمسجد السلطان بايزيد ومتصوفا ، جاء ينضح روحانية ورقة وعذوبة ، وحباً للمصطفى .

ويذكرون فى سبب نظمه أنه حضر يوما فى مدينة بروسة مجلس وعظ ، واتفق أن قال الواعظ : إن الرسل جميعا بمنزلة سواء ، واستشهد على ذلك بآية قرآنية . وكان فى المجلس رجل شامى استشاط غضبا حين سمع هذا القول ، واتهم الواعظ بالجهل ، واشتد عليه ألاَّ يفضل محمدا على جميع الرسل . ومضى الرجل إلى الشام ، واستفتى فى قتل الواعظ فأفتوه ، وعاد إلى بروسة وقتله ، وتأثر سليمان جلبى لذلك فنظم رائعته فى سيد الخلق ، فيها سرد سيرته ، وعبّر عن فرط محبته له .

تعد منظومة سليمان جلبى أروع أمثلة الشعر التركى القديم ، وما من تركى إلا ويحفظ أبياتا منها ، وبعدها أصبح النظم فى المولد النبوى فنا شعريا مرموقا فى الأدب التركى ويقول الرحالة التركى أوليا جلبى (١١٦١ - ٤٨٦١) : إنه اطلع فى أسفاره وسمع أكثر من مئة مولد ، كانت جميعها دون مولد سيمان فى فصاحته وروعته .

ونظم محمد صلاح الدين « المحمدية » فى تسعة آلاف ومئة وتسعة أبيات ، من بحور متعددة تبلغ سبعة ، وفيها يعرض لسيرة الرسول الكريم وشمائله العطرة وعرض فيها لقصة الخلق ، والبعثة المحمدية ، ونهاية العالم ، والجنة والنار والعرش ، وأن هذا الكون مخلوق من نور محمد ، وجرت العادة أن تجتمع النساء

لترتيلها ، وترجيع أبياتها موقعة منغمة ، طلبا للمثوبة والبركة .

ونالت منظومة « حلية خاقانى » ، أو « الحلية النبوية » للشاعر خاقانى ومانالته منظومة سليمان جلبى من القداسة والتبجيل ، وهى تعقيب وتعليق وتفسير لكل ماعرف من أوصاف النبى ، وجاءت فى أقسام متعددة ، تفصل بينها عناوين بالعربية ، وتتخللها آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، ويتبرك بها الأتراك فراجت بين شتى الطبقات ، ولا تُعد عالية المستوى فنيا ، ولكن سهولة ألفاظها ، وتبرك القوم بها ، دفع بها إلى عالم الشهرة والخلود .

وحين فرغ من نظمها خاقانى قدمها إلى الصدر الأعظم الذى أعجب بها ، ودفعها إلى الوزراء والعظماء ليروا روعتها ، وأراد أن يجزيه بها فأمر بقدومه إلى ديوانه ، وقدم خاقانى دون أن يركب فرسه مراعاة للتقاليد التى تفرض ذلك على أمثاله من الضعفاء ، ولما سئل عما يتمنى أجاب : لقد بلغت من الكبر عتيا ، فلست أقوى على المجىء من باب أدرنه إلى باب الباشا ماشيا ، وأتمنى أن يسمح لى بركوب فرسى فى قدومى وعودتى ! .

ولم يكن ذلك ممكنا ، فمَنح دارا على مقربة من مقر الحكومة بديلا عن داره البعيدة ، التى تقع فى أطراف العاصمة ، ولعل أمنيته الأولى كانت كناية عن حاجته هذه ، وأن الصدر الأعظم أدرك مايريد .

يختلف مدلول « المولد النبوى » عند الترك عنه عند العرب ، فعند هؤلاء فرح وبهجة ، واحتفالات باذخة ، وتوزيع الصدقات على الفقراء ، وإنشاء قصائد متوسطة ، فى حدود التقاليد الأدبية العربية ، وفى العصر الحديث ، خلال المد الاستعمارى الغاشم ، كان المولد مناسبة طيبة بعيدا عن الرقابة والملاحقة ، ينشد فيها الشعراء قصائدهم ، تتحدث عن المولد نعم ، ولكنها تتخذ منه مناسبة للتذكير بأمجاد الماضى ، وهوان الحاضر ، وبث الحماسة والأمل فى نفوس المواطنين ، وتأليبهم على المستعمر الأجنبى ، ولاتخرج القصائد فى بنائها عن بقية الشعر العادى ، قافية ووزنا .

أما عند الترك فيعنى منظومة طويلة ، تتناول حياة النبى ومعجزاته ، وتنشد فى الاحتفال بالمولد وفى المناسبات الأخرى ، وتشمل على معنى المأتم ، حيث تتلى القصيدة أو بعضا منها ، واحتل منذ القرن الخامس عشر مكانة عظيمة لدى الأتراك ، بتأثير من العمل العظيم الذى قام به سليمان جلبى عام ١٤٠٩ .

●●●

وبتأثير من مصر أو تركيا ، أو هما معا ، اهتم الألبان بالمولد النبوى ، وهم يكتبونه عادة فى لغتهم ، فى إطار شعرى جذاب ، وفى لغة قريبة من واقع الجماهير ، حتى أن الأميين منهم يستطيعون أن يحفظوها غيبا . وكان هذا النتاج الشعرى ينظم فى البحور العربية ، وتقرأ هذه القصائد فى ذكرى مولد الرسول ، فى اجتماعات حافلة ، ومع الزمن أصبحت تجمع الناس فى مناسبات مختلفة ، مثل شهر رمضان أو رجب أو شعبان ، أو الاحتفال ببناء بيت ، أو إعذار الأولاد وذكرى الأربعين للأموات . وأدى هذا إلى تنافس الشعراء فى نظم أفضل ماتجود به قرائحهم من قصص شعرية .

ليس لدينا مايشير إلى الوقت الذى بدأ فيه الألبان يحتفلون بالمولد النبوى ، ويبدو أنهم فى الأعوام الأولى كانوا يعتمدون على إنشاد « مولد » سليمان جلبى لأنه الأكثر شهرة ، مما أدى بالشاعر الألبانى حسن زيكو كامبيرى ، أن يكتب مولده فى اللغة الألبانية ، لكى يستخدمه الألبانيون فى احتفالهم بالمولد النبوى وهو قصيدة طويلة ، فى واحد وخمسين دورا ، وكل دور من أربعة أبيات ، يتحدث عن مولد النبى وحياته ومعجزاته فى إطار شعرى جذاب ، ويتميز هذا المولد بواقعيته البسيطة ، وكتبه فى إطار شعرى جذاب ، ولغة قريبة من واقع الجماهير ، ولذلك يحفظه الأميون غيبا ، أو أدوارا منه على الأقل ، وبه أرسى هذا التقليد الشعرى فى اللغة الألبانية ، واستمر الشعراء يتنافسون حوله حتى القرن العشرين ، فكان فاتحة تراث شعرى حول المولد النبوى تضخم مع الزمن ، وأصبح يشكل إحدى سمات الأدب الألبانى الهامة .

كان القرن التاسع عشر حافلا بالشعراء الألبان الذين ينظمون « المولد النبوى» أمثال : عبد الله كونيسبولى ، وإسماعيل فلوتشى ، وحاجى تشيتشكويا ، ولكن موالدهم إمّا ضاعت وإمّا لاتزال مخطوطة حتى اليوم . ولكن مولد الحافظ على رضا أولشبناكو ، وصلنا كاملا ، وهو فى سبع مئة وأربعة عشر بيتا كلها فى بحر الرمل ، ونشر فى استنبول علم ١٨٧٨ بعنوان عربى : « ترجمة المولود على لسان الأرنئود » ، ولقى رواجا كبيرا لدى الألبانيين فى الشمال ، وفى الجبل الأسود وفى شمال ألبانيا ، وهم ينشدونه حتى اليوم . وفى عام ١٩٣٣ صدر فى تيرانا فى الأبجدية اللاتينية ، وكان مكتوبا فى طبعته الأولى بالأحرف العربية ، ومن طبعته الثانية صدرت طبعة ثالثة عام ١٩٧٥ فى مدينة تيتوغراد عاصمة الجبل الأسود .

وبعد صدور مولد الحافظ على بعام واحد ، أى فى سنة ١٨٧٩ صدر فى استنبول باللغة الألبانية ، فى عنوان عربى « منظومة المولود فى أفضل الموجود بلسان الأرنئود » للشاعر طاهر بوبوڤا ، من كوسوفا ، جنوب يوغوسلافيا (سابقا) ، وثمة فارق بين مولد طاهر ومولد سليمان ، رغم أن الأول كتب مولده فى عاصمة الخلافة ، وتأثر بأجوائها فى بعض جوانب إبداعه على التأكيد ، ولذلك يعتبرونه عملا أصيلا إلى حد ، ولقى هذا المولد رواجا فى إقليمى كوسوفا ومقدونيا ، وفيهما لايعترفون بغيره مولدا ، وهو أكثر الموالد طباعة ، فى الأبجدية العربية أولاً ، ثم اللاتينية فيما بعد ، وآخر طبعة له صدرت فى مدينة بريشتينا ، فى جنوب يوغوسلافيا عام ١٩٦٠ م .

واصلت كتابة الموالد فى الألبانية سيرها خلال القرن العشرين ، وأصبحت تكتب فى الأبجديتين العربية واللاتينية ، وتتميز موالد هذا القرن بأنها تخلصت من التأثير الطاغى لمولد سليمان جلبى . وأظهرها مولد الحافظ على ، وصدر فى الأبجدية العربية أول مرة عام ١٩٠٠ ، ثم أعاد المؤلف كتابته ونشره بالأبجدية اللاتينية خلال سنوات ١٩٠٨ - ١٩١٠ . وأخيرا نعرض لمولد ألبانى له قصة

يستحق معها أن تشير إليه ، وأن نورد القصة نفسها .

كتب هذا المولد حافظ إسلام ، وهو من مدينة بريشتينا جنوبي يوغوسلافيا ، وهاجر مع أسرته إلى سوريا عقب الحرب البلقانية ١٩١٢ - ١٩١٣ ، وفى سوريا كتب مولده ، إلى جانب أشعار دينية أخرى ، ثم أرسله إلى مسقط رأسه ليفيد منه الألبانيون فى تلك المناطق ، وتلقى هذه النسخة الشيخ عبد الله بيرامى ، وكان معروفا بنشاطه فى حقل التعليم الدينى فى منطقة بودييفا خلال العهد اليوغوسلافى القديم ، وأصبح هذا المولد ينشر فى المناسبات المختلفة ، على حين احتفظ الشيخ عبد الله بالنسخة الأصلية فى مكتبته الغنية بالمخطوطات والكتب العربية والإسلامية ، وفى سنة ١٩٥٤ تعرض بيت الشيخ عبد الله للتفتيش وأخرجوا كل مكتبته ، وكانت تضم ثلاثة آلاف مخطوط وكتاب ، إلى ساحة الدار وأسلموها كلها للنيران ، فاحترقت بأجمعها ، ولم يبق لنا منها إلا هذا المخطوط خبّأته كاملة بيرامى زوجة الشيخ فى ذلك اليوم ، وبقيت لديها فترة من الزمن ، ثم سمحت لمركز الوثائق فى كوسوفا أن يقوم بتصويرها .

يقع هذا المولد ضمن مخطوط يتألف من ست وأربعين صفحة ، يحتل المولد منها أربعين ، ويتألف المولد على غرار بقية الموالد من قصيدة الحمد ، ثم قصيدة المولد فى حوالى أربع مئة بيت ، ثم دعاء المولد .

أما آخر مولد ألبانى فى الأبجدية العربية فكتبه الشاعر زين الله أوزيشار فى تركيا ، بعنوان « منظومة المولود فى فضل الموجود بلسان الأرنؤد » ، وجاء فى أربع وستين صفحة ، ونظمه أولا بالألبانية فى أبجدية تركية ، ونشره فى أنقرة ١٩٤٤ ، ثم أعاد كتابته بالأبجدية العربية فى دمشق ونشره فيها عام ١٩٧٠ . ويتألف هذا المولد من « قصيدة المولد » فى اثنى عشر بيتا ، ثم قصيدة الحمد التقليدية فى أربع مئة واثنتين وعشرين بيتا ، وقصيدة مناجاة فى ثمانية وعشرين بيتا ، وأخيرا دعاء المولد ، ومن الواضح أن الشاعر استهدف به الألبان الذين يقيمون فى البلاد العربية ، لأن الألبان فى مواطنهم الأصلية : ألبانيا ،

وجنوب يوغوسلافيا (سابقا) أكرهوا منذ زمن طويل على نسيان الأبجدية العربية ولاتعنى هناك بالنسبة لهم أى شىء .

●●●

أول ما نلتقى به فى الأدب الأوردى متصلا بالرسول عليه الصلاة والسلام مرثية مطولة ، للشاعر محبوب عالم المعروف بجوان ، والجديد فيها أنه أجري الكلام على لسان عائشة وفاطمة رضى الله عنها .

وخصص الشاعر محمد رفيع سودا ثلث مدائحه للنبى وآل بيته عليهم رضوان الله ، دون أن يرتبط ذلك بمناسبة معينة . ووقف أمير أحمد ميناى جانبا كبيراً من شعره على أغراض دينية ، وبخاصة ما اتصل منها بالنبى عليه السلام ، مولده وحياته ووفاته وشمائله ، غير أن له مجموعة شعرية كاملة مما يُسمى فن «النعت فى مدح النبى » . وسَمى غلام إمام شهيد بمدّاح النبى لكثرة مانظم فى مدحه من الشعر الأوردى . كما عَرف بعاشق الرسول ، وأشعاره فى مولد النبى تحمل عنوان « مجموع مولد شريف » .

جاء الشعر الذى نُظم فى الأوردية فى المولد النبوى قليلا ، واقتصر الشعراء علَى التعبير عن مشاعر دون الارتباط بمناسبة معينة ، ويمكن تعليل القلة بأن جانبا كبيرا من شعراء الأوردية من الشيعة ، وهؤلاء كانت عواطفهم الدينية المتدفقة تصب فى قنوات أخرى ، والثانى أن البلاد التى تتكلم الأوردية لم تعرف الاحتفالات الرسمية بالمولد النبوى ، ولا المهرجانات العامة ، فجاء حديث الشعراء عنه ذاتيا خالصا ، لايرتبط بمناسبة معينة .

● الإسراء والمعراج :

من بين الآثار الإسلامية الأشد الإسلامية إجمالا ، والأكثر سحرا وجاذبية وإثارة : قصة الإسراء والمعراج ، وفيها أريق مداد غزير ،وقيل كلام كثير ، واختلط الواقع بالإبداع ، إبداع فردى أحيانا ، وجماعى أحيانا أخرى . وجاء

أمرهما فى المصادر الإسلامية الحقة : القران الكريم والسنة الصحيحة قصيرا وموجزا للغاية .

عرض القرآن للإسراء فى آية واحدة من سورة الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

وأما المعراج فورد فى سورة النجم على النحو التالى : « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علّمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ماأوحى ، ماكذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى ، مازاغ البصر وماطغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى» .

وفى سورة التكوير : « إنه لقول رسول كريم ، ذِى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاعٍ ثَمّ أمين . وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين » .

أما الأحاديث النبوية فكثيرة ، وتتفاوت طولا وقصرا ، ويكمل بعضها بعضا وجاءت فى روايات متعددة ومتفاوتة ، منها الصحيح ومنها الحسن ، وسنكتفى منها برواية الأمام أحمد ، قال : حدّثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أتيت بالبراق : وهو دابة بيضاء ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته ، فسار بى حتى أتيت بيت المقدس ، فربطت الدابة فى الحلقة التى يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت ،

فأتانى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال جبريل : أصبت الفطرة .

قال : ثم عرج بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فاذا بآدم فرحب بى ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ففتح لنا ، فاذا بابنى الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا بى ، ودعوا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فاذا أنا بادريس ، فرحب بى ودعا لى بخير ، يقول الله تعالى : « ورفعناه مكانا عليّا » .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فاذا أنا بهارون ، فرحب بى ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فاذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بى ، ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فاذا أنا بابراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لايعودون إليه .

ثم ذهبت إلى سدرة المنتهى ، فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها ، قال : فأوحى الله إلىّ ما أوحى ، وقد فرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى . قال : مافرض ربك على أمتك ؟. قلت : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لاتطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم .

قال : فرجعت إلى ربى فقلت : أى ربِّ خفف عن أمتى ، فحط عن أمتى خمسا . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فقال : مافعلت ؟ فقلت : حط عنى خمسا ، فقال : إن أمتك لاتطيق ذلك ، فارجع إلى ربك اسأله التخفيف لأمتك .

قال : فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ، ويحط عنى خمسا خمسا حتى قال: يا محمد ، هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشرة ، فتلك خمسون صلاة ، ومن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فان عملها كتبت له عشرا ، ومن هَمّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له ،فان عملها كتبت سيئة واحدة .

فنزلت حتى انتهت إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فان أمتك لاتطيق ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت » .

وهناك رواية أخرى ، وهى أطول الجميع ، تنسب إلى ابن عباس ، وأخالها من تأليف كاتب مصرى من القرن الثالث الهجرى ، هو إسماعيل بن وهب ، وهى فى

ست وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، ولا إسناد لها ، وهى التى تنشد فى المواسم الدينية والحفلات ، قراءة أو تواشيح ، وأحيانا مصحوبة بالموسيقا ، وهى حافلة بتفاصيل وحوارات وأوصاف لاتوجد فى غيرها ، وليس ثمة شك أن الجانب الأكبر منها يعود إلى خيال القصاص وإضافاتهم ، وفقرة من البداية فحسب ، تعطى فكرة واضحة عن غلبة الجانب القصصى عليها :

« عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« كنت فى بين أم هانىء ، بنت أبى طالب رضى الله عنها واسمها فاختة ليلة الإثنين ، ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة . وكان عندها فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وعمرها تسع سنين ، ولم تكن تزوجت بعلى رضى الله عنه ، لأنه تزوجها بالمدينة المنورة ، وإذا بالباب قد طرقه طارق ، فخرجت فاطمة لترى من بالباب ، فرأت شخصا عليه الحلى والحلل ، وله جناحان أخضران قد سد بهما المشرق والمغرب ، وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجواهر ، مكتوب على جبهته « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، فقالت فاطمة : ماتريد؟ قال : أريد محمدا صلى الله عليه وسلم . فرجعت ، ودخلت على رسول الله ، وقالت : يا أبت ، بالباب شخص قد هالنى وأفزعنى ، ما رأيت مثله أصلا ، قال لى أريد محمدا .

« قال : فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فلمّا رآه فاذا به جبريل عليه السلام ، فقال الصلاة والسلام عليك يا حبيب الحق ، وسيد الخلق . فقال : فقلت يا أخى جبريل أوحى نزل ، أم وعد حضر ، أم أمر حدث ؟ . قال ياحبيبى قم وألبس ثيابك ، وسكّن قلبك ، فانك فى هذه الليلة تناجى ربك الذى لا تأخذه سنة ولانوم . قال النبى صلى الله عليه وسلم فلما سمعت كلام أخى جبريل عليه السلام نهضت قائما فرحا مسرورا ، وشددت على ثيابى ، وخرجت إلى الصحراء فاذا بالبراق قائما وجبريل يقوده .

« وإذا هو دابة لاتشبه الدواب ، فوق الحمار ودن البغل ، له وجه كوجه ابن

آدم ، وجسده كجسد فرس ، وهو دابة خير من الدنيا وما فيها ، عَرفها من اللؤلؤ الرطب ، منسوج بقضبان الياقوت يلمع بالنور ، وأذناها من الزمرد الأخضر ، وعيناها مثل كوكب درى يوقد لها شعاع كشعاع الشمس ، شهباء بلقاء ، محجّلة الثلاث مطلقة اليمين ، عليها جلّ مرصع بالدر والجوهر ، لايقدر على وصفها إلا الله تعالى ، نفسها كنفس ابن آدم ... »

على هذا النحو من الوصف الحسى المسرف تمضى القصة ، وهى تعرض لنا الدنيا التى رآها الرسول فى رحلته إلى بيت المقدس ، والأنهار التى تجرى فى السماء ، وجهنم وتخومها ومن يعذبون فيها ، والجنة ومافيها من نعيم مقيم ، والديك الملائكى ، والبيت المعمور ، والملائكة ، وغير ذلك كثير . ومع شىء من التحليل الداخلى للنص أرجح أنها من صنع القصاص الوعاظ الذين فاض بهم العصر العباسى ، وأسهم فى بنائها عديدون ، وتعكس فى وضوح نفسية القائل ومن يتوجه إليهم ، وعلى أية حال فان خيال أصحابها محدودة ، لايتجاوز الإسراف فى وصف الأشياء حسيا ، والغاية الأولى منها التأثير فى السامعين .

جمهور العلماء على أن الإسراء والمعراج حدثا فى ليلة واحدة ، أنهما كانا بالجسد والروح . أقول جمهور العلماء لأن هناك من يرى غير مايرون ، فى تفصيلات ليس هنا مجالها ، ولاتعنينا ، لأن مايهمنا هو الجانب الإبداعى ، والتأثير الأدبى ، وكيف تطور وتشكّل فى الآداب الإسلامية المختلفة .

●●●

لاشك أن نص القصة كان فى البداية موجزا ومركزا ، على نحو ما جاء فى القرآن والسنة الصحيحة ، ولكن الخيال الأدبى المبدع أدخل عليها الكثير ، ومضى بها بعيدا ، فى البدء تعليقا وتفسيرا ، مالبثا أن اندمجا فى النص الأصلى ، ثم دخلها التحسين اللفظى والتعبيرات المجازية ، وبدأ المبدعون يصوغونها شعرا إلى جوار النثر ، نثر مرسل أو مسجع ، وأفعموها بالحوار والنقاش والأفكار الهامة ، وشخصوا كثيرا من الجوامد كالعرش ، أو الحيوانات

السماوية كالحية والدابة ، وأنطقوهما ، ووصفوا ممالك الحياة الأخرى وصفا غنيا بالتفاصيل المستمدة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بالجنة والنار .

ثم تبع ذلك مرحلة دخل القصة خلالها حشد من التعابير الرمزية والصوفية ، تجاوزت إسراء الرسول عليه السلام ومعراجه ، وهو حقيقة تاريخية ، إلى عروج مخلوقات أخرى مادية أو روحية ، أرضية أو سماوية ، حقيقة أو مجازا ، فثمة مخلوقات عرجت إلى سماوات النعيم ، ومرت بالمراحل نفسها التى مر بها الرسول الكريم ، وأشهر هذه القصص قصة عروج الروح إلى السماء بعد الموت ، يقودها الملك المكلف بها ، فتفتح لها أبواب السماوات إلى إن تقف بين يدى الله ليقاضيها . فاذا كانت نفسا طيبة مطمئنة استقبلت بالترحاب ، وإن كانت نفسا خبيثة مزعجة كان مآلها الجحيم ، واستقبلت باللعنات .

عند كل سماء لايسمح الخازن للملك حافظ الروح بالمرور إلا بعد أن يكشف له عن نفسه وعن الروح التى معه ، وتجتاز الروح فى كل سماء من السموات السبع اختبارا فى ركن من أركان الإسلام ، وفى قاعدة من قواعد السلوك فيه : الاعتقاد والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وطاعة الوالدين ، وحب الإخوان ، والحمية فى الدين ، ونقاء القلب ، وعندما تصل الروح إلى سدرة المنتهى تصعد لتقف بين يدى الله ، خلال بحر من النور ، ثم من ظلمة ، ثم من نار ، ثم من ماء ثم من ثلج ، ثم ترفع الحجب التى تحجب عنها العرش ، وتبدأ الروح فى تَلَقى أوامر الله ذاته .

وقد فسر الصوفية قصة المعراج بأن الله رفع محمدا إلى السماء ليشهد بنفسه أقصى درجات النعيم الذى يسرى من ذلك الجمال الأقدس ، عندما يتجلى له الله وليتحرر لبه من جميع القيود الأرضية . وما لبثوا أن عمموا هذا التعبير وطبقوه على عروج الروح ، حقيقة أو مجازا ، التى تحطم قيودها الأرضية عبر السموات لتصل إلى الله .

كان الصوفية المسلمون أول من فطن إلى المفهوم الحقيقى للمعراج النبوى ،

واعتبروه مثالا للرقى الروحى ، ولم تستطيع البشرية فى عصور تطورها أن تأتى بنظير له ، ولهم مفهومهم الذى يرى أن الهدف من المشاهدة الفناء التام فى نور الذات ، مثل ماتفنى القطرة فى البحر ، وأما الفلاسفة المسلمون المحدثون فلهم رأى آخر . إن الفيلسوف إقبالا مثلا يرى أن الهدف من المعراج هو البقاء لا الفناء والخلود لا العدم .

أول معراج غير نبوى تعرفه العربية ، ولو أن صاحبه من أصول فارسية ، لأبى يزيد البسطامى (ت ٢٦١هـ - ٨٧٤ م) ، وهو من شيوخ التصوف فى خراسان ومن القائلين بوحدة الوجود ، وهو عبارة عن رؤيا منامية ، سميت معراجا فى بعض الكتب العربية والفارسية ، وأشار إليها أبو نصر السراج فى كتابه «اللمع» ورواها فريد الدين العطار فى كتابه « تذكرة الأولياء » وترجمها إلى الفارسية . وأقدم نص لها ورد فى كتاب « القصد إلى الله » ، من تأليف العارف بالله إبى القاسم ، الذى ينقله بدوره عن كتاب « مناقب أبى يزيد » ، ونشرها المستشرق الإنجليزى نيكلسون مع ترجمته إلى الإنجليزية فى مجلة إسلاميكا عام ١٩٢٤ ، وخلاصته أن أبا يزيد قال :

« رأيت فى النوم كأنما عرج بى إلى السماء بغية أن أصل إلى الله ، وأن أبقى معه إلى الأبد ، وفى كل سماء عرض الله علىّ أنواع العطايا ، ولكنى غضضت الطرف عنها وقلت : يا إلهى إن مطلبى ومرادى غير ماتعرضه على . فسأل أبا يزيد خادمُه عن الأشياء التى عرضها الله عليه فوصفها أبو يزيد بالتفصيل واحدة .. واحدة ، قال :

فى السماء الأولى بسط طائر أخضر اللون جناحيه وحملنى حتى أوصلنى إلى صف الملائكة ، ومن هناك صعدت إلى السماء الثانية ، وأتت أفواج الملائكة فنظرت إلى ، وكان أميرها يسمى « لاويذ » فقال : إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : مادمت تحبنى فأنا أحبك ! . ثم حملنى إلى حديقة فسيحة يجرى فيها نهر وعلى ضفافه ملائكة ذوو أجنحة ، ينزل كل واحد منها إلى الأرض مئة ألف مرة

كل يوم ليرى أولياء الله . وهذه الملائكة كانت قد رأتنى على الأرض وعرفتنى ، فأتت إلىّ وحيتنى .

ويطوى أبو يزيد السموات واحدة وراء الأخرى ، ويتحدث بالتفصيل عن كل واحدة ، وعن النعم التى تعرض عليه ، ومن السماء السابعة يعبر إلى حيث يكون الكرسى ، ومن هناك يمر إلى المحيط الأعظم الذى يستقر عليه العرش الإلهى ، وكان مقاله فى الحالات لايتغير : هذا الملك الذى تعطينى إياه لا أريده ! ، إن مرادى غير هذا .

وحين يرى الله صدق رغبته فى الوصول إليه يدعوه إلى جواره ، ويقول له : أنت صفيىّ وحبيبى ، وخيرتى من خلقى . وفى آخر الأمر تظهر روح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى جانب أبى يزيد ، وتحييه وتطلب إليه أن يبلغ سلامه إلى أمته ، حين يعود إلى الأرض ، ويعظهم ، ويدعوهم إلى عبادة الله .

ويأتى بعده تاريخيا وأهمية معراج محيى الدين بن عربى (ت ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م) أمير صوفية الأندلس ، ورمى من وراء معراجه إلى كشف مغزى أخلاقى خفى ، وعالج الموضوع على أنه مذهب مقصور على فئة قليلة من الناس يتعلق بالأسرار التى تتكشف لروح الصوفى أثناء صعودها إلي الله ، وهو معراج لماّ يزل مخطوطا ، بعنوان : « الإسرا إلى المقام الأسرى » .

يقرر ابن عربى فى مقدمة هذا الكتاب أن الموضوع الذى يعالجه هو عروج الروح إلى السماء ، وكتبه شعرا ونثرا ، وخلط فى أسلوبه بين الحقيقة والمجاز ، ويبدأه قائلا :

« خرجت من أرض الأندلس متجها إلى القدس اعتمد على دين الإسلام ، فراشى الزهد ، وزادى نكران الذات » . ويروى لنا أنه قابل شابا ذا طبيعة روحانية ، أرسلته السماء ليقوده ، غير أن شخصا آخر يقوده فى أثناء صعوده إلى السماء من القدس ، ويصفه بأنه « مبعوث العناية الإلهية الذى صعد معه

إلى السموات السبع حتى وصلا إلى الحضرة الإلهية .

ثم يمضى فيقرر أن الصوفية هم ورثة الأنبياء ، يسيرون على سنتهم ويتبعون تعاليمهم ، وهم إذ يكرسون حياتهم للتأملات الروحية ، وتأمل أسرار القرآن ، ولايكفون عن ذكر الله حبيبهم ، يصلون فى النهاية إلى الحضرةالعلية ، والبراق ، تلك الدابة السماوية تحملهم إلى أطباق السموات فى رحلتهم إليها ، وهى رمز الحب الإلهى ، أما القدس ، تلك المدينة المقدسة ، فرمز النور والحق ، وعندها تبدأ أولى مراحل العروج . وهنا يمكث الصوفيون قليلا إلى جانب الحائط حيث مهبط الأنبياء كما كانوا يفعلون . وهو يمثل صفاء القلب ، ولا يقربه المدنسون . وبعد تناول اللبن رمز الفطرة ، يطرقون أبواب السماء ، فاذا دخلوا رأوا الجنة والنار ، وعندئذ يشاهدون بعيونهم اليمنى سعادة أصحاب النعيم ، ويبكون بعيونهم اليسرى مايرون من أهوال الجحيم ، ويصلون إلى سدرة المنتهى أخيرا رمز الإيمان والفضيلة ، ويأكلون ملء بطونهم من ثمرها ، ساعتها تبلغ أسمى قوى الإنسان ذروة كمالها . ثم يصلون بعد هذا الإعداد إلى آخر مرحلة فى رحلتهم ، وينكشف عنهم الحجاب ، وتظهر لهم المعانى الباطنية الكامنة فى سر الأسراء » .

ولايكتفى ابن عربى بهذا المعراج ، وإنما يكرره فى عدد من مؤلفاته ، خلال قصص رمزية شبيهة ، وتشكيلات صوفية للقصة ، وخصه بفصل كامل فى كتابه الشهير « الفتوحات المكية » ، وفيه عرض تفسيرا صوفيا مختصرا لقصة المعراج النبوى ، وشكّل القصة على نحو يمكن معه تطبيقها على عروج الصوفيين والأولياء إلى السماء ، ومايتمتعون به من لذة روحية ، وتخيل لهم معراجا طويلا قد رفع بين الأرض والسماء ، صعد فيه المؤلف ، وناقش الأنبياء هناك طويلا ، فى مسائل العقيدة والشريعة والتصوف .

واستخدم ابن عربى فكرة المعراج ثانية فى الكتاب نفسه ، وجعلها الموضوع الرئيسى لفصل كامل أعطاه عنوانا : « فى معرفة كيمياء السعادة » ، وضمن قصته الرمزية فيه أفكارا عدة ، يمكن أن نأتى على خطوطها الرئيسية على النحو التالى :

إن الغرض الذى ترمي إليه النفس منذ اليوم الأول الذى امتلكت فيه تدبير البدن بأمر الله ، هو طلب العلم بذلك الذى استخلفها ، وهو الله . وتلتقى النفوس وهى فى طلب الطريق الموصلة لهذه الغاية برسول من جنسها ، مبعوثا من الله ليبين لهم طريق العلم الموصل إليه ، والذى فيه سعادتهم . فتقبل بعض النفوس عن طيب خاطر أن يعرفها الرسول بذا الطريق حتى تسلكه ، وترفض نفوس أخرى بدعوى أنه لا فرق بينهم وبين هذا الرسول فى المعرفة ، وأنها تريد أن تتعرف على الطريق إلى معرفة الله من ذاتها لا عن طريق التقليد . فيتبع الأولون الرسول ومقلديه فيما أخبر به من العلم ، ويتبع الآخرون الأدلة العقلية من النظر الفكرى .

ثم تبدأ القصة الرمزية الصوفية ، وبطلاها رجل دين ، يسميه ابن عربى المقلد أو التابع ، وفيلسوف يسميه صاحب النظر ، يعكفان على رياضة النفس وتهذيب الأخلاق والمجاهدة ، ومختلف ألوان المشاق البدنية ، من الجوع والعطش والعبادات العملية البدنية ، كأداء الصلاة والحرص عليها ، والقيام طول الليل ، والزكاة ، والصيام ، والحج والجهاد ، الأول بما شرع له أستاذه ومعلمه المسمى شارعا ، والثانى بالنظر العقلى ، وفى هذه المرحلة تتطابق تعاليم الدين والفلسفة من الناحية العملية ، وينجح كا منهما فى كبح جماح نفسه ، والتغلب على تحكم الشهوات الطبيعية والعنصرية فيه .

ثم يبدأ العروج الفعلى إلى السماء ، ويشمل المراحل السبع الأولى صعودا إلى السموات السبع : القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل ، يزورها المسافران بالتتابع ، وبينما يركب الفيلسوف براق الفكر ، يمتطى المقلد ، أو التابع إن شئت ، جناح العناية الإلهية ، ومع أنهما وصلا معا إلى أبواب السماء جاء استقبالهما مختلفا . فأنبياء كل سماء يستقبلون التابع بالبشر والترحاب ، وينتظر الفيلسوف مضطرا إلى أن يستقبله الملائكة الروحانيون ، الذين يقتصر دورهم على خدمة الأنبياء ، ومن ثم يسر التابع ويزداد الفيلسوف

غما ، كما لايستطيع أن يدرك؛ إلاّ نتفا من الأسرار التى تبوح بها الأنبياء للتابع ومع ذلك فان الملاك الروحانى المكلف بكل سماء يرشده فيما يتصل بمشكلات العلوم الطبيعية والكونية ، التى تخضع للتأثيرات الطبيعية التى يباشرها الكوكب المختص بها . ويدرك الفيلسوف أن الأنبياء يشرحون معانى هذه المشكلات للتابع من وجهة نظر أرقى وأوضح مما يمكن أن تفسره العلوم الطبيعية وحدها .

وقد أدخل ابن عربى بطريقة بارعة أفكارا كثيرة فى معراجه من مذهبه ، مما جعل مؤلفه موسوعة حقيقية فى الفلسفة والعقيدة والفلك ، جاء فى صيغة حوارات تجرى مع الأنبياء .

فى سماء القمر يقف التابع من علم آدم على التأثير الخلقى للأسماء الإلهية ، ويقف صاحب النظر من الملاك الروحانى على ما للقمر من تأثير على كل ما يوجد تحت فلكه ، على الأجسام المركبة من الطبيعة العنصرية ، وتأثير هذه فى تدبير الأبدان ، وعلل الزيادة والنمو والنقصان فى الأجسام القابلة لذلك . ويعلم التابع سببها الأول الذى لايدركه العقل ، ويكمن فى التأثير الخفى لأسماء الله .

ثم يرتقيان إلى سماء عطارد ، حيث ينزل صاحب النظر عند الكاتب الروحانى الموكول به أمر هذه السماء ، وينزل التابع عند عيسى ، وعنده ابن خالته يحيى ، ويتحدثان فى أمر المعجزات ، وشرف جوامع الكلم ، وحقيقة كلمة « كن » واختصاصها بالأمر ، لا بالماضى ولابالمستقبل ولابالحال . ويكشف عيسى لحواريه التابع عن أسرار المعجزات التى صنعها فى أرض يهوذا . ويتضح للتابع أن كل معجزات عيسى تدور حول الشفاء وإحياء الموتى من تأثيرات السماء الثانية وتابعة لها . وسببها ما يتمتع به عيسى من قوى كيماوية خارقة للعادة ، ويعلم صاحب النظر من الكاتب أن مثل هذه الأمور عندما تحدث بصورة طبيعية تكون أثرا للقوى التى يتمتع بها هذا الملك على الأجسام التى تحته فى العالم العنصرى ، وهذا كل ما تلقاه صحب النظر فى هذه السماء من علم .

وتستمر الرحلة على هذا المنوال .

فى سماء الزهرة يتلقى التابع من يوسف ماخصه الله به من العلوم المتعلقة بصور التمثيل والخيال ، ويفسر له نظام الكون وجماله وتناسقه . ويتلقى من إدريس فى سماء الشمس الأسباب الفلكية لغشيان الليل النهار ، والنهار الليل ، وسر الالتحام بينهما ، ومايتولد عن ذلك . وفى سماء المريخ يتلقى عن هارون حديثا طويلا فى حكم الشعوب ، وأن فى ألواح موسى الهدوء والرحمة لا القهر ولا المذلة .

فى سماء المشترى يشرح موسى مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود ، ويفسر معجزته عندما تحولت عصاه حية تسعى ، موضحا أن الأعيان لاتنقلب ، العصا لاتكون حية ، والحية لاتكون عصا ، ولكن الجوهر الذى قبل صورة العصا يقبل صورة الحية ، فهى صورة يخلعها الحق القادر الخالق عن الجوهر إذا شاء ، ويخلع عليه صورة أخرى ، وأما الاستحالات فأمر محال ، ولاتحدث إلاّ فى عقل الرائى حينما يدرك بعينه أن العصا صارت حية ، فى حين كونها عصا .

وأخيرا يلتقى التابع فى سماء زحل بابراهيم ، مسندا ظهره إلى البيت المعمور فيجلس التابع بين يديه ، ويفسر له إبراهيم مشكلات الحياة الأخرى ، وينزل صاحب النظر فى بيت « كيوان » ملك هذه السماء ، وهو بيت قفر موحش ، وعندما يسأل إبراهيمَ التابعَ عن صاحب النظر ويعلم أنه ليس مسلما يرفضه ، ويأمر التابع بدخول البيت المعمور دون زميله ، الذى يقف منكّس الرأس حزينا ، ويخرج التابع من الباب الذى دخل منه ، ثم يرتحل طالبا العروج ، ويبقى صاحب النظر هناك يقال له : قف حيث أنت حتى يرجع صاحبك . فيقول : أسلم وأدخل تحت مادخل فيه صاحبى ، فيقال له : ليس هنا موضع قبول الإسلام ، وإنما هناك فى موطنك الذى جئت منه نأت وصاحبك ، يمكنك أن تسلم وأن تؤمن ، وأن تتبع سبيل من أناب إلى الله ، هناك يقبل منك كما قبل من صاحبك .

بعد ذلك تبدأ مراحل العروج ، وهى بعامة تعبر ، ماعدا مايحدث بين سماءين

من سماوات النظام الفلكى ، عن حوارات تتعلق بالأفكار الصوفية ، والنظريات الإلهية . رحل التابع أولا إلى سدرة المنتهى ، وهى ترمز إلى أعمال السعداء من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ،وهناك يعاين أربعة أنهار كبار ، منها نهر أعظم تتفجر منه ثلاثة أنهار كبار ، أما النهر الكبير الأعظم فهو القرآن ، والأنهار الثلاثة الأخرى هى : التوراة والزبور والإنجيل .

ثم يرقى التابع إلى فلك المنازل ، أو فلك النجوم الثوابت إذا شئت ، فتلقاه الملائكة والأرواح الكوكبية ، ويرى آلاف المنازل التى تسكنها هذه الأرواح ويزورها ، ويعاين درجات الجنات ، ويذوق كل ألوان النعيم التى أعدها الله لعباده الصالحين .

ويشاهد من فلك البروج ، وهو آخر الأفلاك ، عجائب الجنان ، ويعلم أن التكوينات التى تتشكل فى الجنان إنما هى من حركة هذا الكوكب . وبعد ذلك يصل إلى الكرسى فيرى القدمين اللتين تدلتا إليه ، فينكب من ساعته إلى تقبيلهما ، وتعطى إحداهما ثبوت أهل الجنان فى جناتهم ، وهى قدم الصدق ، وتعطى الأخرى ثبوت أهل جهنم فى جحيمهم على أية حال أراد ، وهى قدم الجبروت .

ثم يزج به فى النور الأعظم فيغلبه « الوجد » ويسمع حركة الأفلاك ، ولها نغمات طيبة تلذ لها الأسماع ، ثم يخرج من ذلك النور إلى موضع الرحمة العامة التى وسعت كل شىء ، وهوالمعبر عنه بالعرش ، الذى يظهر له وقد حمله خمسة ملائكة ، هم : إسرافيل وجبريل وميكائيل ورضوان ومالك . وثلاثة أنبياء ، هم: آدم وإبراهيم ومحمد . ومنهم يقف على أسرار الكون الخفية التى يشتمل عليها العرش وحملته .

وبانتهاء هذه المرحلة فان كل ماتبقى بعدها ينتمى إلى عالم الروحانيات : المادة والطبيعة والروح وعالم المثل . وأخيرا ينتقل إلى العماء وهو أول مراتب «الأنا » ، وهو الحق المخلوق به كل موجود سوى الله . وهو بمثابة تجل إلهى أزلى

ونمط للمادة الأولية العامة للخالق والمخلوق ، فيما يرى ابن عربى . ومن هذا العماء يبدأ فى الترقى والمعراج فى أسماء التنزيه إلي أن يصل إلى الحضرة التى يشهد فيها أن التنزيه يحده ويشير إليه ويقيده ، ويستشرف على العالم بأسره : المعنوى والروحانى والمادى . وتنتهى الرحلة بهذه الرؤية . ويعود إلى زميله صاحب النظر فيجده أسلم ، وأصبح قادرا على أن يشارك فى نعم التأملات الصوفية .

أطلت فى عرض معراج ابن عربى لأنه يمثل لونا غير عادى فى بنائه ورمزيته وأفكاره ، وهو يغنى نموذجا عن " معارج " عربية أخرى كثيرة فى الأدب الدينى العربى ، وإن لم يغن عنها دراسة موسوعة لمن يريد ، ويحسبى أن أشير هنا إلى العلاقة الوثيقة التى بين هذا المعراج الرمزى ، وبين قصة « حى بن يقظان » لابن طفيل ، وهو فيلسوف أندلسى أيضا .

●●●

ونمضى إلى عالم الأدباء لنعرف مافعلوا بها .

أشهر هؤلاء أبو العلاء المعرى (ت ٤٤٩هـ= ١٠٥٨م) ، فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة ، فى رائعته « رسالة الغفران » ، وجاءت محاكاة بارعة لتلك الروايات البسيطة التى دارت أحداثها حول قصة الإسراء والمعراج .

وهى رسالة كتبها أبو العلاء المعرى إلى على بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، جوابا على رسالة بعث بها إليه يذكر فيها شوقه إلى لقائه ، ويسأله عدة أسئلة تتعلق بالأدب والفلسفة والتصوف والتاريخ وأمور الدين والفقه والنحو واللغة ، وغير ذلك .

ويبدو أن أبا العلاء رمى من وراء رسالته أن ينتقد بطريقة بالغة اللطف والرقة قسوة أولئك الذين يتمسكون بالفضائل والأخلاق التى تتناقض واقعا مع رحمة الله الواسعة ، واحتج ضد إدانة كثيرين من رجال الأدب ، ومن الشعراء بخاصة ،

قبل الإسلام وبعده ، رغم أن بعضهم كانوا مشركين .

أراد أبو العلاء ، من غير أن يشير إلى رحمة الله الواسعة ، أن يبين عن طريق عمل أدبى متميز ، أن كثيرين من الشعراء المتحررين ، أو حتى الوثنيين ، تابوا فى النهاية ، وعفا الله عنهم وأدخلهم الجنة . ولم يسرف أبو العلاء فى الحديث عن قضايا العقيدة ، وإنما جاءت هذه فى المرتبة الثانية من الأهمية ، وإنما كانت غايته الأولى تفسير أعمال الكتاب الذين تعرض لهم ونقدها . واستطاع أن يحقق هذا الغرض المزدوج الذى يرمى إليه بطريقة بارعة ، نسّق فيها بين ثنائه وقدحه . وتنقسم الرسالة إلى قسمين كبيرين :

القسم الأول ،رحلة ابن القارح إلى السماء حيث يدخل حديقة تظلها أشجار طوال ضخمة ، واسع ظلها ، لذيذ جناها ، يستند إليها التائبون ، وتجرى فى حدائقها الأنهار ، أنهار من ماء ولبن وعسل مصفى وخمر لذة للشاربين ، تشفى صدور الشعراء الذين يعيشون فيها ، فى سلام وأمان واطمئنان ، بعد أن شفيت قلوبهم من الحسد الذى كان يعكر عليهم صفو حياتهم فى الأرض ، وتجمعوا حلقا ، شعراء ونحويين ونقادا وفلاسفة ، يتحاورون فى ود ، وعندما إقترب منهم ابن القارح سمع أبا عبيده يتحدث عن الفروسية فى الجاهلية ، ويذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان ، والأصمعى ينشدهم الجيد من الشعر ، ويشارك ابنَ القارح فى هذه المناقشات ، ويأسف لأن بعض شعراء الجاهلية لم يدخلوا الجنة لأنهم لم يسلموا .

ثم يركب نجيبا من نجب الجنة ، خلق من ياقوت ودر ، يسير فى الجنة على غير هدى ، ينشد أشعارا جاهلية ، وفجأة يسمع صوتا يسأله : لمن هذا الشعر ؟ فيجيب بأنه للأعشى الهجاء ، الذى يظهر حينئذ ويخبر ابن القارح بأن النبى تشفع له وأنجاه من النار رغم حبه للخمر ، وبعده يقابل كثيرين من شعراء الجاهلية ، وسعتهم رحمة الله فدخلوا الجنة ، رغم وثنيتهم ، ويدور بينهم حوار طويل حول إبداعهم .

ويحضر المسافر حفلة سمر فى الجنة ، تغنى فيها وترقص كواعب يرفلن فى وشى الجنة على أنغام الموسيقا ، ويجد نفسه بين صورتين من الحور العين بهره جمالهما ، فيقبل على كل واحدة منهما يرتشف رضابها ، ويتمثل بأبيات لامرىء القيس ، فتستغرق إحداهما ضاحكة ، فيسألها عمّ تضحك ؟ فتسأله إن كان عرفها ؟ فيقول : أنت من حور الجنان اللواتى خلقهن الله جزاء للمتقين . غير أنه يعلم منهما أنهما امرأتان كان يعرفهما جيد المعرفة على الأرض ، احداهما حمدونة أقبح نساء حلب ، التى تزوجها رجل يبيع سقط المتاع وطلّقها لرائحة كرها فى فمها ، والأخرى توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار المعلم ببغداد ، وتحمل الكتب للنسخ ، فصارت فى الجنة أنصع من الكافور . وخلال هذا يمر بهم ملك من الملائكة ، يبين له كيف يتميز أصحاب النعيم ، ويخبره بأنه يوجد فى الجنة نوعان من الحوريات : اللائى خلقن فى الجنة ، واللائى أصلهن من أهل الأرض ، ودخلن الجنة جزاء فضلهن وتوبتهن .

أثارت ضروب النعيم التى تمتّع بها المسافر فى الجنة رغبته فى أن يزور النار ، حتى يرى أهلها وما هم فيه ، فيعظم شكره لله ، ومن ثَمّ بدأت رحلته الثانية .

فى البداية رأى مدائن ليست كمدائن أهل الجنة ، ليست غارقة فى ذلك النور المشع ، فلمّا سأل بعض الملائكة أخبروه أنها جنة العفاريت الذين آمنوا بأن محمدا رسول الله ، وإذا بالخيتعور ، شيخ من بنى الشيصبان الذين سكنوا الأرض قبل ولد آدم وليسوا من ولد إبليس ، يجلس على باب مغارة ، فيسأله المسافر عن أشعار الجن ويناقشه فيها ، وفى اللغة التى يتكلمونها فيشبع الخيتعور فضوله وينشده ملحمة الجان البطولية .

ويلقى المسافر أسدا وذئبا ...

ويتخلص من هذا الخطر ، ويقابل عند أقصى الجنة شاعرين من شعراء الجاهلية هما : الحطيئة الذى يخبره بأنه وصل إلى الشفاعة ودخل الجنة بالصدق ، والخنساء التى أخبرته أنها أحبت أن تنظر إلى أخيها صخر ، فرأته كالجبل

الشامخ تضطرم النار فى رأسه .

وعند الحدود الفاصلة بين الجنة والنار يرى إبليس يضطرب فى الأغلال ، فيقول: الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو أوليائه . فيسأله أبليس : من الرجل ؟ فيخبره أنه رجل من حلب صناعته الأدب ، فيرد إبليس : بئس الصناعة ، تهب عيشا قليلا لا يقيم أود العيال ، وكم أهلكت أمثالك ، فهنيئا لك إذ نجوت ، ويرجوه أن يخبره عن أخبار الجنة ، لأنه يريد أن يعرفها .

ثم يرد ذكر بشار بن برد ، وفضّل أبليس على آدم فى بعض أشعاره ، فيخرج من أعماق النار ، وقد أعطى عينين ليرى بهما مانزل به من النكال ، والزبانية تفتح عينيه بكلاليب من نار ، وبعد أن يرثى ابن القارح لحاله ينتهز الفرصة ليستفهم منه عن بعض المعانى الغامضة فى شعره ، ولكن بشار لم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بالكلام فلم يجبه .

ويسأل بعد ذلك عن امرىء القيس فيلقاه ، وتجرى بينهما مناقشة طويلة حول ماغمض من قصائده ، وخلال ذلك يلمح عنترة يتلفت فى السعير يمينا وشمالا ، ومع ذلك أجابه عن جميع الأسئلة التى وجهها إليه فيما يتعلق بشعره . ويلقى علقمة بن عبدة ، وطرفة بن العبد ، ويسألهما عن حياتهما على الأرض ويثنى على شعرهما ، غير أن طرفة يرفض ثناءه ، وود لو أنه لم يقل مصراعا واحدا ، ودخل الجنة مع الهمج والرعاع . أما أوس بن حجر شاعر الحرب والصيد والقنص فقد غلب عليه الظمأ ، فلم يستجب لأسئلته . كذلك لم يلق أى جواب من أبى كبير الهزلى على أسئلته ، لأنه كان يقاسى عذابا شديدا .

ثم . إذا هو برجل يتلوى من ألم الضرب يقال له الأخطل ، وقد أدت به قصائده السافرة وأشعاره اللاذعة ضد الإسلام إلى هذا المصير ، يتأمله المسافر ويوبخه بطريقة مهينة على فسقه وفجوره مع الخليفة يزيد بن معاوية ، فيزفر الأخطل زفرة تعجب لها الزبانية ، ويتحسر على أيام يزيد ، يتذكر ضروب العربدة والمساخر التى كانت تجرى فى قصر الخلافة فى دمشق ، حيث تردد

حوائطه أهاجيه البذيئة فى الإسلام ، وأشعار الخليفة نفسه منتهكا مقدسات الدين ، وتطر به الذكريات ، فيتغنى باحدى هذه الأهاجى ، فيثور إبليس عليه ، ويؤنب زبانيته على تركهم هذا الفاسق يردد هذا الكلام .

حين مل المسافر خطاب أهل النار انصرف إلى قصره المشيد ، ومالبث أن تذكر أنه لم يسأل مهلهلا ، ولا المرقشين ، وأغفل الشنفرى وتأبط شرا ، فرجع أدراجه ونادى المهلهل ، فقيل له : هو يسمع حوارك ، ويسأل عن المرقش الأكبر فإذا هو فى أطباق العذاب ، وعن المرقش الأصغر والشنفرى وتأبط شرا فلا يردون عليه إلا بشق الأنفس ، فيدرك ألا جدوى من حوارهم ويعود إلى الجنة .

وهو عائد يلتقى بآدم ، ويسأله عن بعض الأشعار المنسوبة إليه ، فيرد آدم فى لطف ودماثة ، أنه كان يتكلم العربية فى الجنة فلما هبط منها تكلم السريانية ، ولم ينطق بغيرها إلى أن هلك ، فلما رده الله إلى الجنة عادت إليه العربية ، فى حين أن الأشعار التى يسأله عنها قيلت على الأرض كما تدل على ذلك معانيها .

فى بساتين الجنة يلقى الجارية التى كانت تنتظره ، فتسأله عن سبب تأخره ، وتقرعه على ذلك بلطف ، فيذكر لها رغبته الجامحة فى أن يتحدث إلى الشعراء فى النار ، فلما قضى من ذلك وطرا عاد إليها ، وهو الآن على استعداد تام لأن يلقى بنفسه فى أحضان النعيم الذى ينتظره فى الجنة ، فيسيران معا فى وديان الفردوس ، وتنشده ابياتا رقيقة لامرىء القيس ، حينئذ يعرض له قصة امرىء القيس فى يوم " دارة جلجل " ، فينشىء الله حورا عينا يلعبن فى نهر من أنهار الجنة ، وفيهن من تفوق صاحبة امرىء القيس جمالا .

ويمر ببيوت منخفضة ، دون ارتفاع بيوت الجنة ، فيسأل عنها ، فيقال : هذه جنة الرجز ، فيناقش شعراء الرجز ، ثم يتكىء على فرش من السندس ، ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفرش ، فيضعه على سرير من سرر أهل الجنة ، من زبرجد أو عسجد ، ويقدر له أن يعيش فيه إلى الأبد .

فى القسم الثانى من « رسالة الغفران » يتناول المعرى الأسئلة التى وجهها إليه ابن القارح ، فيجيبه عنها واحدا واحدا ، ويعرض خلال ذلك لمسائل أخرى لم يسأله عنها ، فنراه يتكلم عن الزمان والمكان والتناسخ والقرامطة ، ومذهب الحلول وغير ذلك ، مما سئل عنه ، أو مما أراد هو إثارته وتوضيحه .

إذا أردنا أن نوازن فى عجالة بين قصتى الإسراء والمعراج وبين « رسالة الغفران » تبين لنا ، قبل أى شيء أن عنصر ماوراء الطبيعة ، وهو أوضح معالم قصة الإسراء والمعراج اختفى فى رسالة الغفران ، فالبطل فيها مجرد شخص عادى ، وبقية الشخصيات الثانوية لأناس عاديين ، ليسوا أنبياء ولا أولياء ، وإنما كفرة تائبين غالبا ، ولجأ أبو العلاء إلى حيلة بارعة يحقق بها غايته من الجمع بين الأفكار الدينية والأدبية فى الوقت نفسه ، فجعل ابن القارح بطل روايته يقابل عددا كبيرا من الأشخاص من الرجال والنساء ، مسلمين ونصارى ووثنيين ، نبلاء ودهماء ، أغنياء وفقراء ، شبانا وشيوخا ، وأغلبهم آثمون ، وكلهم على وجه التقريب من الشعراء ورجال الأدب ، لأن غاية المعرى الأساسية نقدية أدبية ، إلى جانب فكرة ثنوية تمثل فى شجب الزفق الضيق لبعض رجال الدين فى عصره ، وكل شخصياته تقريبا تاريخية ، وأغلبهم من مشاهير الكتاب والشعراء ، بعضهم معاصرون له ، أو عاشوا قبل عصره بقليل

كان البطل يقابل هؤلاء الأشخاص فى الجنة فى جماعات صغيرة ، تكون كل واحدة منها طبقة : علماء فقه اللغة ، أو شعراء الحماسة ، و الرجز . وفى النار يظهرون فرادى ، وكثيرا ما يسأل عن الذين يريد رؤيتهم ، فيدلونه على مسكنه أو يرسلون معه دليلا ، وأحيانا يظهر الشخص المطلوب من تلقاء نفسه ، وقد يخفق المسافر فى معرفته ، فيضطر إلى أن يسأله عن اسمه . وانحصرت المناقشات فى الجنة أو النار فى القضايا الأدبية المتعلقة بهؤلاء الأدباء ، إلى تلميحات عن الرذائل أو الفضائل التى أدت بهذا أو بذاك إلى الجنة أو النار .

أثار أبو العلاء العامة وبعض رجال الدين حين أدخل النار أناسا تقدرهم العامة

ويجلهم رجال الدين ، وأدخل الجنة آخرين يرونهم فسقة مذنبين ، ورأوا ذلك ضربا من انتهاك المقدسات . ومع ذلك ، يمكن القول بأن أبا العلاء تعاطف مع بعضهم أدبيا ووجدانيا ، وكان منظر الهالكين فى جهنم يثير شفقته فى كل الأحوال تقريبا فيرثى لحالهم .

يتسم نقد أبى العلاء الأدبى فى رسالته بالسخرية والتهكم ، ويتناول المعانى والمبانى ، فى الأولى يحمد الابتداع والابتكار والاتزان وعدم الغلو ، فيمتدح أبا تمام مثلا لأنه « صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ يستخرجها من غامض بحار » . ويأخذ على ابن هانىء غلوه الشديد فى مدح المعز ، وعلى الوليد بن يزيد أشعارا فيها كفر ، ويرميه بقوارص الكلم ، ويقول إن عقله عقل وليد وقد بلغ سن الكهل ، ويأخذ على الشعراء جميعا تزلفهم .

وأما المبانى ، أى الشكل ، فيعيب على بعض الشعراء استعمالهم ألفاظا نافرة ، وقوافى غير رائقة ، ويأخذ على رؤبه العجاج مثلا صنعه رجزا عى الغين والطاء والظاء ، كما يأخذ على غيره بعض الضعف العروضى .

جاء إلى الحياة بعد المعرى ، ورحل قبله إلى الآخرة ، ابن شهيد الأندلسى ، أبو عمرو (ت ٤٢٦هـ = ١٠٣٤م) ، وهو شاعر وناثر وناقد ، ويهمنا هنا منه رسالته « التوابع والزوابع »(١) ، ولم نعثر على نصها كاملا حتى الآن ، ولكن ابن بسام حفظ لنا جنبا منها فى كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » . ولم يشر ابن شهيد إلى تاريخ تأليف هذه الرسالة ، ولكن من النصوص التى وصلتنا نرجح لها تاريخا حدود عام ٤١٤هـ . ومن ثم يمكن الظن أنه سبق بها رسالة أبى العلاء ، وقصد بها أن يلتمس التقدير والتكريم ممن يعتقد أنهم أكرم منزلة من معاصريه ، وكان هؤلاء يتحيفونه حقه .

---

١ - التوابع جمع تابع ، وهو الجنى . والزوابع جمع زوبعة ، وهى الشيطان أو رئيس الجان .

وهى رحلة إلى وادى الجنّة ، صحبة جنى اسمه زهير ، حيث يلتقى هناك بتوابع الشعراء والكتاب البارزين ، وبشياطين معاصريه ، فالتقى بتوابع امرىء القيس وطرفة وقيس بن الخطيم ، والبحترى وأبى نواس والمتنبى ، ومن الكتاب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان . وقد لقى ما أمل ، فاستحسن كل الذين قابلهم شعره وأثنوا عليه . وثمة مشاهد فى هذه القصة تلتقى بمثيلتها فى رسالة الغفران وبعيد أن يكون أبو العلاء قد أطلع عليها ، وإن لم يكن مستحيلا ، والأقرب أن كليهما تأثر بقصص الإسراء والمعراج . ولو أن المستشرق الفرنسى هنرى بريس Henri Pérés، كالعادة ، يخمن فى كتابه « الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف» وترجمناه إلى العربية ، أن ابن شهيد استلهم الوسط الأندلسى الذى عاش فيه ، وأنه كان كثير الاختلاط بالمستعربين وبالقسس المسيحيين ، وبيهود قرطبة ، وأنه استطاع بتداخله معهم أن يقرأ ترجمة غير كاملة دون شك لكتاب «محاورات لوسيان » أو كتاب Cratyle، أو فيدون لأفلاطون . وتحرير هذه القضية ليس مكانه هنا .

كذلك عرف الأدب العربى ثلاث قصص شهيرة ، ذات نمط فلسفى ، تأثرت بقصة المعراج مباشرة أو بواسطة ، وحملت كلها اسم « حى بن يقظان » ، أولاها لابن سينا ، والثانية لابن طفيل الأندلسى ، وهما فيلسوفان ، والثالثة قام بها السهروردى ، شهاب الدين يحيى ، ويجمع بين الفلسفة والتصوف ، وكان تأثير الرسائل الثلاث فى غيرها من الآداب قويا ، عربية وإسلامية وعالمية ، وتتبع هذه التأثيرات والمؤثرات يقدم موضوعا جيدا لمن يريد .

●●●

فاذا تركنا الأدب العربى إلى الأدب الفارسى فأول من تلتقى به يتناول هذا الجانب الشاعر سنائى ، فى منظومته « سير العباد إلى المعاد » ، وتقوم فكرتها الأساسية على « بعد النفس عن خالقها ، وما ركب فيها من شوق العودة والرجوع إليه » ، وظلت هذه المنظومة مهملة لايلتفت أحد إليها ، لكثرة رموزها

وصعوبة أفكارها ، إلى أن عثر أخيرا على شرح مخطوط لها فى أحدى مكتبات تركيا ، كتب سنة ٦٧٤هـ ، أى بعد وفاة الشاعر بنحو مئة وخمسين عاما ، وشاعت نسبته إلى الإمام الفيلسوف فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦هـ) ، ولولا هذا الشرح لما أمكن الانتفاع بهذه المنظومة والوقوف على أسرارها ، وبعده شاع أمرها ، ويرى المستشرق الانجليزى أرتولد نيكلسون أن من الصعب أن يقرأها الإنسان دون أن يتذكر الكوميديا الإلهية لدانتى ، لأن الشبه بينهما لايمكن أن يكون عرضيا ، مما يؤكد أن وراءهما مصدرا ثالثا ، هو الروايات الإسلامية المتصلة بأدب الاخرة .

تحكى منظومة « سير العباد » قصة النفس الإنسانية فى نزولها إلى الأرض بالأمر الإلهى ، وهذه النفس مهيأة للقيام بدور مزدوج : استلهام فيوضات العالم العلوى ، والانفعال بالعالم السفلى ، والإخلاد إليه ، وعليها أن تغلّب جانبا منها على الاخر ، إما أن تسمو إلى أعلى أو تنحط إلى أسفل .

لكن النفس تغالب نوازعها المادية ، وتعرب عن استعدادها للعروج ، لكنها تشعر بحاجتها إلى مرشد ياخذ بيدها من هذه الظلمة المطبقة ، وينقذها من هذه الحيرة المخيفة ، فاذا بشيخ نورانى يجمع بين الطبيعة الروحانية والشكل الإنسانى البهى الوقور ، حيى الوجه ، متمهل الخطو ، ثابت القدم ، متقدم السن ، هرم لكنه فى نضارة الربيع ، يأخذ بيدها إلى عالم العناصر الأربعة : التراب والماء والهواء والنار . وفى هذا العالم يمر الرجل بصنوف من الرذائل التى تنتمى إلى كل عنصر مجسدة فى شكل هوام وحيوانات وبشر ، ومروره بها بمثابة التخلى عنها والتطهر منها .

تبدأ الرحلة بعنصر التراب لأنه أثقلها ، وهو إقليم ضيق مظلم ، مليء بالمستنقعات ، تسرح فيه قطعان الذئاب وجوهها وقلوبها من حديد ، وتمرح الكلاب ، يقطر من مخالبها الدم ، وثمة فيران تأكل صغارها ، وثعابين تأكل الروث والقاذورات ، ويترأس الجميع خنزير كسول .. وهذه المشاهد تمثل رذيلة الشره .

ويرى فى ناحية رذيلة البخل تتمثل فى مجموعة من البشر ، رؤسها منحنية إلى الأمام ، ومشيتها إلى الوراء ، فى شجار دائم مع ظلها وخوف مسيطر عليها من نفسها ، يرسمون فى الخيال صورة الشيطان ، ثم يخافونها ، ويجعلون من «لا » صليبا يتوجهون إليه بالعبادة ، يتضورون جوعا وأوكارهم مليئة بالجيف ، تحوطهم عن يمين وعن شمال .

وبعد الحسد يشاهد البغض ممثلا فى مجموعة من الشياطين ، عيونها فى أقفيتها ، وألسنتها فى قلوبها ، ووجوهها كحوافر الخيل ركّب فيها الحديد ، وقلوبها كحلوق التماسيح مليئة بالأسنان . وتمثل الطمع مجموعة من البشر توجد فى مكان صخرى ، سوداء كالغربان ، يعلوها دخان الجحيم ، ذاهلة حائرة ساكنة ، ينظر بعضها إلى بعض ، وحولها مجموعة من القرود ، لها رؤس القطط وذيول الكلاب ، بعضها يثب ويتحرك ، وبعضها ثقيل بطىء ، وعد يده كالسنارة ، وكل جسمه يد .

وبعد التراب يتجه إلى عنصر الماء ، فيبلغ الرجل ومرشده شاطىء البحر ، ويفزع الرجل من اتساعه ، ويتردد فى المضىّ ، فيشجعه الشيخ قائلا : لكى تجتازه عليك أن تترك على الشاطىء كل مايمت إلى عالم التراب بسبب .

وقبل أن يتقدم الرجل يسأل مرشده عن حاكم الإقليم ، أو العنصر ، الذى انتهيا من اجتيازه ، فيشير المرشد إلى كوكب زحل الذى ينظم الحياة على الأرض كما يقول أهل الفلك ، إنه هندى ، بعيد النظر ، معمر تجاوزت حياته مئة ألف سنة ، هو مالك الأرض ويسكن فى السماء السابعة .

فى داخل البحر يرى الرجل جماعة يمثلون الكسل ، صغار السن ، غافلين عما حولهم ، فاقدى العقل بلا وجد ، يفتحون أفواههم فى بلاهة فى انتظار قطرات الندى ، تخالهم يقظين بينما هم مستغرقون فى الغفلة ، وهذه لون من الكسل العقلى ، يراها الرجل داخل الماء كالحاكم ، فى شكل تماثيل ضخمة ، تقتل الحاكم وتأسر محدثه ، بأمر الله ، وتلتهم الملك مع الشيطان ، وعلى نقصهم ليوا شرهين ويرجى صلاحهم .

ويسأل الرجل عن الحاكم الذى يسيطر على الماء فيجيبه الجواب ، فى إشارة إلى القمر ، هذا الأقليم يقع فى دائرة رسول السلطان .

ويخرج السائحان من الماء ، فيخاف الرجل من اتساع الهواء أمامه ، ويبدو له عبور الهواء أشد خطرا مما سبق ، يتردد ، ولكن المرشد يشجعه ، لأن الخيال يمكن أن يقوم بعمل الجناحين ، وأن يرد كل شىء إلى أصله : اليبوسة إلى التراب ، والرطوبة إلى الماء ، والطاقة إلى الهواء ، والحرارة إلى النار ، وبذلك يمكنه الاندفاع فى خفة ويسر نحو الهدف .

فى الهواء عنصرا توجد القوى المتخيلة التى انحرفت عن طريقها ، توحى للنفس بالخبيث من الأفكار ، والسيء من الأعمال ، كما توجد الشهوة .

ويصلان إلى وادى النار فيريان مجموعة من السحرة ، يرسمون صورا شيطانية ، ثملين بالماء والقطران المغليين ، تحيط بهم جبال من العقارب والحيات يحملون فى أيديهم رماحا وسيوفا نارية ، يفسدون بها مايرسمون من صور ، حين يجعلون الملاك شيطانا ، وحين يصيحون كأنهم الغيلان . ويمثل السحرة فى لغة الشاعر القوى النفسية عادة ، وهنا يمثلون القوى الغضبية ، التى تثير فى النفس مشاعر شريرة ، ويحاول الرجل أن يتجنب هذا المكان ، فيجد أمامه جبلا من نار ودخان يسدان الأفق ، ويرى عند سفح الجبل عددا من الحفر العميقة ، ويشجعه الشيخ كالعادة ، ويخبره ألاّ سبيل إلى النجاة من هذا الهول إلا بالتهام ما أمامه من عقبات ، وحين يفعل ما أمره الشيخ يرى مكان الجبل آلافا من الحفر ، يتصاعد منها الدخان ، وتملؤها آلاف الشياطين ، والحيوانات ، لها وجوه الآدميين ، وتتنافس فيها بينها فى ادعاء الفضل .

وحين يسأل الرجل : لمن هذا الإقليم ؟ يجيبه الشيخ ، بأنه مقسم بين سلطان النجوم ، وسيد الفلك الخامس .

وبعد اجتياز عالم العناصر يصلان إلى عالم الأفلاك ، ويمثل الوسيط بين عالم

الكون والفساد وعالم الملكوت ، فيه من الأول قابلية الفناء ، ومن الثانى عدم التغير والاستحالة ، باعتباره وحيد الطبيعة ، تلك التى يسمونها الطبيعة الخامسة ، كأنها تالية للعناصر الأربعة .

ويتحدث الرجل ، وقد انطلق لسانه ، عن مشاهداته فى الكواكب : فى القمر رأى الزنادقة ، طبيعتهم مرحة ، ووجوههم مضيئة ، ولكنهم لايبصرون ، وفى عطارد رأى المقلّدين ، حلقا من الكهول ، يثبت الواحد منهم نظره فى الآخر ، ويرى كل واحد صاحبه قدوة ، أرواحهم مظلمة ، كثيرو الرضا ، قليلو القلق . ويجد الدهريين فى كوكب الزهرة ، يتعلقون بالطبائع الأربعة يفسرون بها كل ظواهر الحياة ، وفى الشمس يرى المنجمين ، عبدة الكواكب ، نفوسهم مظلمة ، ووجوههم مضيئة .

فى المريخ يرى أرباب الظن ، ولعلهم جماعة الفلاسفة ، ينتهون بسلسلة الخلق إلى العقل الكلى ، وينكرون الخالق بعده ، ويصفهم بأنهم أمراء صغار ، من أولاد الملوك ، يحيط بهم الخلفاء ، قضاة ولكنهم فى السجن ، وهم قصار النظر ، يقولون مثل فرعون : ماعلمت لكم من إله غيرى .

وفى المشترى يرى المرائين « الجسم أسفل والقلب أعلى » ، وكل منهم قد اتخذ قبلته وجه الآخر ، ومنهم مضيء النظر مظلم الجوهر ، يتغزلون فى حبيبين معا ، ويصلون إلى قبلتين فى آن واحد . وفى زحل رأى المعجبين بأنفسهم ، وهنا يستمد من المرآة مادة صوره وتشبيهاته .

ومن عالم الأفلاك إلى عالم الملكوت ، وهو روحى تماما ، يمثل المرحلة الثالثة والأخيرة من الرحلة ، والنماذج التى سوف يلتقى بها صوفية، تتفاوت فيما بينها بدرجة قربها من الله .

فى تلك البروج يرى طائفة المقلّدين ، وفى فلك الأفلاك يرى الروحانيين صحبة النفس الكلية ، ويليهم « الكروبيون » و « السالكون » و « أهل التوحيد » وهؤلاء الثلاثة فى صحبة العقل الكلى .

ثم يوجه نظره إلى نور يبدو من بعيد ، ملك يبهر نوره الأبصار ، ولم يكن هذا الملك سوى النفس الكلية ، العلة الفاعلة للأبواب والكواكب ، ومرجع النفس الجزئية التى تنشر الحياة على الأرض ، ملك يجمع العدالة إلى العلم ، والحكمة إلى الحلم ، وهو الوسيط بين العقل الكلى والمخلوقات .

ويصل السائحان أخيرا إلى دائرة العقل الكلى ، الملك الذى كان ، بعد الأمر « كن » ، أصل الكون ونتاج الروح ، " معلول علة الكلمة « كن » " ، مع أنه علة ظهور كلمات الله ، صامت ولكنه ترجمان الأمر والنهى .

وقددرس الدكتور رجاء عبد المنعم جبر معراج سنائى فى رسالته التى تقدم بها للدكتوراة إلى جامعة باريس وعنوانها : « رحلة الروح بين ابن سينا وسنائى ودانتى » ، ونشر موجزا لها فى القاهرة بهذا العنوان عام ١٩٧٥ .

●●●

وهناك معراج آخر بالفارسية ، هو منطق الطير للصوفى فريد العطار ، وهى منظومة مطولة ، فى أربعة آلاف وست مئة بيت ، وموضوعه بحث الطيور عن الطائر الوهمى المعروف " بالعنقاء " ، والطيور هنا ترمز إلى السالكين من أهل الصوفية ، والعنقاء ترمز إلي « الله الحق » ، وتبدأ المنظومة كما هى العادة بجملة من المدائح ، فى حمد الله ، ومدح الرسول ، والخلفاء الراشدين الأربعة ، والجزء المتعلق بالحكاية نفسها يبدأ بالبيت ٥٩٣ من المنظومة ، ويشتمل على خمسة وأربعين مقالا تنتهى بخاتمة .

وتبدأ القصة بتوجيه الخطاب والترحيب بثلاثة عشر طائرا ينعقد بهم المجلس ، فيقررون أنه لابد لهم من أن يخضعوا أنفسهم لواحد منهم يجعلونه مرشدا لهم أثناء بحثهم عن العنقاء ، حتى يوفقوا فى العثور عليها . ثم يختارون الهدهد ، وهو من الطيور التى وردت فى القرآن الكريم ، فقد كان رسول سليمان إلى بلقيس ملكة سبأ .

ولم تكد الطيور تصمم على الوصول إلى العنقاء حتى عادت فوجدت الطريق إليها طويلة متعبة ، فأخذ كل طائر منها يلتمس لنفسه عذرا ، فاعتذر البلبل بأنه مشغول بحب الوردة النضيرة ، واعتذرت الببغاء بأن جمالها جعلها أسيرة الأقفاص ، واعتذر الطاووس بالخجل والتواضع ، لاقتران اسمه باخراج آدم من الجنة ، واعتذرت البطة بعدم استطاعتها البعد عن الماء ، والحجلة بأنها لا تستطيع البعد عن الجبال والأودية ، والبجعة بعدم استطاعتها مغادرة البحيرات الصافية ، والبومة بعدم قدرتها على مغادرة الأماكن الخربة التى اعتادت أن ترتادها ، وأبدى طائر الـ « هما » [1] إعجابه بقدرته على منح الملوك ألقابهم ، واعتذر الصقر بأنه لايستطيع أن يترك مكانه الممتاز على أكف الملوك ، واعتذرت الصعوة بأنها ضعيفة هزيلة يقعدها الوهن .

وترمز هذه الأعذار كلها إلى أعذار الآدميين التى يبدونها عندما يقعدون عن التماس عالم الروح ويعجزون عن المضى فيه . وقد أخذ الهدهد الحكيم يجيب عليها واحدا واحدا ، ويتمثل بطائفة من الحكايات للتدليل على آرائه وأفكاره ، ثم أخذ الهدهد يصف لهم الطريق الخطرة التى يجب على الطيور إجتيازها حتى تصل إلى « العنقاء » ، ويعرض أثناء ذلك حكاية طويلة تتعلق بالشيخ صنعان الذى أغرم بفتاة مسيحية غراما شديدا ، وعرفت الفتاة حبه لها فامتنعت غيّا وتيها ، واضطرته إلى إطعام خنازيرها ، مما جعل تلاميذه وأصدقاءه يتنكرون له وينكرونه .

وتقرر الطيور عند ذلك أن تخرج فى رحلة صيد للبحث عن " العنقاء " ، ولكنها سرعان ماتلتمس الأعذار أو تقيم العقبات حتى يأخذ الهدهد من جديد فى الإجابة عن أعذارها مؤيدا إجابته بطائفة من الحكايات والنكات . وهنا نلتقى بتفاصيل أعذار الطيور ورد الهدهد عليها .

---

١ - طائر وهمى ، فى الأساطير إذا وقع ظله على أحد أصبح ملكا .

ثم تأخذ الطيور فى سيرها بحثا عن " العنقاء " ، حتى إذا سلكت أودية السلوك السبعة ، ومرت على التوالى بالوديان التالية : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والاستغناء ، والتوحيد ، والحيرة ، والفقر والفناء ، استطاعت بعد مجاهدات طويلة أن تتطهر من أدران النفس والجسد ، وجدت أخيرا طلبتها ، ووصلت إليها ، وحققت بوجوده وجودها .

والأبيات الأخيرة من المنظومة تمثل فكرة الصوفية المتعلقة بـ « الفناء فى الله» تمثيلا حسنا .

نكتفى من الأدب الفارسى بهذين المعراجين ، ولعل من يقلب بين كنوزه يجد المزيد ، نظما أو نثرا ، منظومات طويلة أو قصيرة .

●●●

ولم أقع فى تاريخ الأدب التركى على من وظف قصة المعراج أدبيا أو فلسفيا نظما أو نثرا ، رغم شيوع التصوف ، وغزارة الأدب الصوفى ، ربما لأن متصوفى الترك حاولوا الابتعاد بتصوفهم عن الفلسفة ، أو لم يتعمقوا فيها على الأقل ، وعاشوا القصة فى صورتها العربية ، فى لغتها الأصلية أو مترجمة إلى الفارسية.

والشىء نفسه يمكن أن يقال عن الأدب الألبانى ، وهو أمر منطقى ، لأن ألبانيا تاريخا وجغرافيا أقرب ماتكون إلى تركيا ، وبالتالى إلى الأدب التركى ، ومعظم التأثيرات العربية والفارسية فى الأدب الألبانى تلقاها عن طريق الأدب التركى .

ولم ينته إليها الأدب الأوردى ، وكان أول من اتخذها مركبا لأفكاره الفيلسوف العظيم محمد إقبال (١٨٧٧ - ١٩٣٨) فى ملحمته العظيمة «جاويد نامه » أو رسالة الخلود .

تعد رسالة الخلود أعظم أعمال إقبال ، وهى كوميديا إلهية شرقية ، عبر فيها

عن أفكاره المتعلقة بمختلف القضايا التى تجابه الناس فى حياتهم اليومية ، ويقدم من خلالها تفسيرا لحقائق الخلود، ويناقش أشد القضايا حساسية وتأثيرا بالنسبة للإنسانية ، وكل ذلك في شعر رائع ، وهى « قصة متكاملة ، موحدة الأجزاء ، يربطها خيط واحد ، وتتدفق فيها الأحداث والأفكار فى مجرى واحد ، وتنتهى جميعها إلى غاية واحدة » .

اتخذ إقبال من المعراج وسيلة تعبير ، وصحب فيها الرومي مرشدا ، ويعنى به جلال الدين محمد بن الحسين البلخى ، المعروف بمولانا جلال الدين الرومى ، وهو من أعاظم شعراء الفرس ، وعرضنا له فى تاريخهم الأدبى ، وكان جلال لإقبال ماكان فرجيل لدانتى فى الكوميديا الإلهية ، وظل معه من أول الرحلة إلى آخرها تقريبا حيث افترق عند قبيل المثول فى الحضرة الإلهية .

لم يجىء اختيار الرومى اعتباطا ، وإنما تقديرا من الشاعر الإسلامى الكبير ، لهذه الشخصية الجليلة ، لا بوصف صاحبها شاعرا مبدعا فحسب ، أو صاحب طريقة صوفية متميزة ، وإنما بوصفه أيضا مصلحا ومجددا إسلاميا .وثمة سبب آخر ، فقد عاش جلال الدين فى القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، وكانت حالة العالم الإسلامى يومها شبيهة بحالته التى يعيشها اليوم ، أو إذا شئنا الدقة قبيل الصحوة الإسلامية الأخيرة التى نشهدها الآن ، تكالبت عليه القوى البربرية المغولية من جهة الشرق ، ومزقت أوصاله ، على حين تدافع عليه الصليبيون فى القلب والأطارف ، يقتطعون مدنه واحدة وراء الأخرى ، وأخذت الثقافة الإسلامية بتأثير من الثقافة الإغريقية تأخذ اتجاها عقليا محضا ، وتبتعد عن الروح مصدرا للهداية الإسلامية . على حين أخذ التصوف من ناحية أخرى يدعو إلى الإستسلام والخنوع ، يقول إقبال فى رسالة لصديق له :

« كل شعر التصوف ظهر فى زمان ضعف المسلمين السياسى ، وكل أمة يصيبها ضعف كالذى أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل أنظارها ، ويجمل الضعف فى أعينها ، وتركن إلى ترك الدنيا ، وفى هذا الترك تخفى الأمم ضعفها وهزيمتها فى تنازع البقاء » .

في هذه اللحظة قام جلال الدين يدعو المسلمين من جديد إلى العشق ، وإلى طرح الفلسفة جانبا ، وإلى الاندماج فى حياة عقلية وجدانية كاملة ، وكشف عن الأخطاء الفلسفية والكلامية فى فهم القدر وغيره ، وجعل التوفيق بين العقل والعشق بمثابة سلم للتقدم المادى والروحى ، بل جعله شرطا أساسيا لهذا التقدم .

وهذه هى أسس دعوة إقبال فى العصر الحديث .

وازن الدكتور خليفة عبد الحكيم إجمالا بين جلال الدين الرومى وإقبال فى دراسته عنهما باللغة الإنجليزية ، وصدرت فى لاهور عام ١٩٦٦، يقول :

« هناك تشابه كبير بين مولانا جلال الدين الرومى والعلامة إقبال : كلاهما شاعر على أعلى مستوى ، وشاعر إسلامى كبير ، والشعر عند كليهما فلسفى ، وكلاهما يفضل التجربة على العقل ، ويعمل على دعم الذات بدلا من إنكار حقيقتها ، وكلاهما اقتنع بأنه لاتعارض مطلقا بين إثبات الذات ونفيها ، وكلاهما يختلف مع مفهوم القدر الشائع بن الناس ، فهما يؤمنان بأن القدر ليس معناه أنّ أفعال العباد قد تقررت من جانب الله سلفا ، وإنما القدر ليس سوى قانون الحياة ، وكلاهما مفكر ثورى .. وكلاهما يؤمن بأنه لا حدود لرقى الإنسان وكلاهما يؤمن بالخلود .... » .

ويضيف الدكتور محمد سعيد جمال الدين فى دراسته القيمة لرسالة الخلود ، وقام بترجمتها للعربية أيضا ، وعليه كان اعتمادنا ، إنه بعد أن تصفح " مثنوى" جلال الدين الرومى ، وقراءته العابرة لكتاب « خلاصة مثنوى » لبديع الزمان فروزا نفر ، يمكن أن يقرر أنهما يلتقيان فى الأفكار التالية : « الإحساس بالغربة وقرب الذات الإلهية ، وقوة العشق ، والجنون بالعشق ، وتحقيق الخلود ، وحقيقة الموت ، ورجل الحق ، والفرق بين الحكمة الإيمانية والحكمة اليونانية ، ومبدأ الحركة »

تأثر إقبال فى رسالته مضمونا وشكلا بالثقافة الإسلامية ، وفى مقدمة هذه

العناصر الإسلامية النصوص المتصلة بقصة الإسراء والمعراج ، فى القرآن والسنة ، وفى البدء كان يريد أن يسمى رسالته « معراج نامه جديد » ، أى رسالة المعراج الجديد ، ولكنه مالبث أن عدل عن ذلك إلى « جاويد نامه » أى رسالة الخلود .

ولأنه آخر من كتب فى هذا الجانب ، فقد أفاد على التأكيد من بقية المعارج الأخرى التى عرضنا لها قبله ، وربما من معارج أخرى لم نعرض لها ، فقد كان واسع الثقافة بلا حدود .

وقد عقد الأستاذ جودهرى محمد حسين مقارنة بين معراج ابن عربى ومعراج إقبال ، فى مقدمته لرسالة الخلود ، رغم الفروق الكثيرة فى الدوافع والأهداف ، وخلاصة رأيه :

كان ابن عربى صوفيا من أصحاب الطريق ، فكشف عن وارداته ومكاشفاته ، والفتوحات المكية مرآة لسلوكه الروحى ، ويزخر معراجه بالألغاز التى تستعصى على الفهم ، وهو أمر ليس فى رسالة الخلود . وحاول ابن عربى أيضا الكشف عن حقائق الحياة بعد الموت ، ولكن إقبالا صب إهتمامه على الخلود كلية ، حيث تعرض لحقائق الحياة والموت على لسان السلطان تيبو الشهيد فى الفردوس الأعلى .

ويضيف الدكتور محمد السعيد جمال الدين إلى الملاحظات السابقة : أن إقبالا ، على العكس من ابن عربى ، جعل عروج الإنسان بالجسم والروح أمرا ميسورا إذا تم له التغلب على الزمان والمكان . وأن نجب الفناء ليست هى التى تسير بالإنسان إلى حضرة الرحمن ، وإنما هو دافع مختلف تماما ، لأنه دافع إيجابى إلى الخلود والبقاء .

غير أننا نظلم إقبالا إذا وقفنا بمصادره عند المصادر الإسلامية وحدها ، فقد كان الرجل ، إلى صدق إسلامه وقوة إيمانه ، عالمى الثقافة والنظرة والفكر ، فليس ثمة مايمنع من أنه أفاد من ملاحم غربية شبيهة ، يذكر الدارسون له أن من

بينها : « الفردوس المفقود » للشاعر الإنجليزى ملتون ، و « فاورست » لشاعر ألمانيا الأكبر جوته ، والكوميديا الإلهية لدانتى ، وتابع الحوار العنيف الذى دار حول تأثرها بالثقافة الإسلامية فى الربع الثانى من هذا القرن ، والذى بدأ بالدراسة القيمة التى أعدها المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس عن «الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية » ، وفى النية أن أترجمها إلى اللغة العربية .

● القصص القرآنى :

أدرك القرآن دور القصة فى إثارة الوجدان ، وتحريك العواطف ، وجذب انتباه القارىء والسامع ، فجعلها إحدى وسائله فى تحقيق غاياته ، من إثبات الوحى ، وتأكيد الرسالة ، وتأصيل الدعوة الإسلامية ، ولكنها لاتجىء عملا فنيا مستقلا ، وإنما تخضع للغايات التى تهدف إليها .

وتجىء القصة القرآنية على أنواع :

هناك القصة التمثيلية ، ويقصد بها الإيضاح والبيان ، أو الشرح والتفسير ، فليس يلزم فى الأحداث أن تكون وقعت ، أو فى الأشخاص أن يكونوا وجدوا ، أو فى الحوار أن يكون صدر ، وإنما يكتفى فى كل ذلك بالفرض والخيال ، و «القرآن كثيرا ما يصور المعانى بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية ، لما فى ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعانى ، كقوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » . فليس المراد أن الله يستفهم منها وهى تجاوبه ، وإنما هو تمثيل لسعتها ، وكونها لاتضيق بالمجرمين مهما كثروا . ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء : « وقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » « والمعنى فى التمثيل ظاهر »ـ.

ثم القصة التاريخية ، وتدور حول شخصيات من الماضى ، أنبياء ومرسلين ،

وهى تستخدم التاريخ لكنها ليست عرضا له ، وتقصد غير مايقصد ، وتعرض لغير ما يعرض ، وقد تغفل قصدا تحديد الزمان ، وذكر المكان ، وتسمية الشخصيات ، أو تعيد ترتيب الأحداث على نحو يحقق الغاية من إيراد القصة ، فهى تطلب التأثير ، وتستهدف الإقناع . ويعلق الإمام محمد عبده عند تفسير هذا النوع من القصص فيقول : « إن كثيرين من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص ... والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارا فى قصص الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن ، وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها ، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ، ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها ، وبيان النقم بعللها لتتقي من وجهتها ، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير » .

ويقول الفيلسوف محمد إقبال : « إن القرآن يحور القصة تحويرا ملموسا ليجعل لها معنى جديدا مختلفا عن معناها السابق فيه كل الطرافة ، وطريقة القرآن فى تحوير القصص تحويرا جزئيا أو كليا ليبعث فيها معانى جديدة يلائم بينها وبين روح التقدم فى الزمن أمر له خطره ، ولكن دارسى الإسلام من المسلمين وغير المسلمين على سواء كادوا يهملونه على الدوام ، وهدف القرآن من هذه القصص قلّ مايكون العرض التاريخى ، بل يكاد دائما يهدف إلى أن يجعل لها مغزى عاما أو مضمونا فلسفيا . ويحقق قصده هذا بحذف أسماء الأشخاص والأمكنة التى من شأنها أن تحدد معنى القصة ، بصبغها بصبغة حادثة تاريخية معينة ، وكذلك بحذف التفصيلات التى ليست مألوفة فى عرض القصص ، فهى شائعة فى الأدب الذى لايعالج الموضوعات الدينية ، فمن ذلك قصة فاوست ، فقد أضفت عليها عبقرية جوته معنى جديدا تمام الجدة » .

وهناك ألوان أخرى من القصة القرآنية ، وملامح وسيمات ، ليس هنا مكانها ، وعرضت لها فى شىء من التفصيل فى كتابى « القصة القصيرة : دراسة

ومختارات » ، وإنما يهمنا على التخصيص القصة التاريخية .

يأتى القرآن بالأحداث مجملة فى أغلب الأحيان ، ومن هنا عمد كثيرون من المفسرين إلى بسط القول فى هذا المجمل ، وملء الفراغ والفجوات ، بروايات يلتقطونها من القصاص حولهم ، أو من كتب الديانات الأخرى ، وهو ما اصطلحنا على تسميته بالإسرائيليات ، وبعضهم جرى مع خياله بلا حدود ، وماذا يهم مادام لايحل حراما ، ولايحرم حلالا .

والتقط الأدباء فى مختلف لغات العالم الإسلامى هذا القصص ، فصاغوه فنيا فى أنواع أدبية مختلفة ، ليلبى حاجات شعورية فى أعماقهم ، أو ليخدم غايات خارجية يودون تحقيقها ، والتعبير عنها . فكتب الشاعر الألبانى حسن زيكو قصدة طويلة عن « تاريخ إبراهيم مع هاجر وسارة » .

● **قصة يوسف وزليخا :**

ذهبت قصة يوسف من بين القصص القرآنية كلها بالنصيب الأوفر من عناية المبدعين ، شعراء وكتابا ، متصوفة وغيرهم ، فى مختلف الآداب الإسلامية ، ،بخاصة الفارسية والتركية ، وربما لأنها تتناول جوانب عاطفية تتصل بعلاقة الرجل بالمرأة ، هذه العلاقة الأبدية التى كانت وراء أول حادثة قتل فى تاريخ الإنسانية . وفى القرآن الكريم سورة تحمل اسم « سورة يوسف » وتضم قصته كاملة ، وإن جاءت مجملة فى بعض الجوانب ، واختلف مفسرو القرآن فى شرحها تكثيفا وإطالة ، وذهابا مع الخيال إلى حد بعيد أو قريب ، واخترنا من بينها رواية ابن كثير ، أبى الفداء اسماعيل ، من القرن الثامن الهجرى (٧٠١ - ٧٧٤ هـ) ، لتوسطها فى الشرح ، واعتدالها فى الحجم ، نقلا عن كتابه «قصص الأنبياء » ونوجزها فيما يلى :

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا

، إن الشيطان للإنسان عدو مبين . كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم ، اسحاق ، إن ربك عليم حكيم » .

ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج « رفقا » بنت بتوابيل فى حياة أبيه ، كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقرا ، فدعا الله لهما فحملت ، وولدت غلامين توأمين « عيصو » وتسميه العرب « العيص » ، وهو والد الروم ، وخرج الثانى بعقب أخيه فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذى تنتسب إليه بنو إسرائيل .

وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب لأنه الابن الأكبر ، وتحب الأم يعقوب لأنه الأصغر .

فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاما ، وأمره أن يصطاد له ، وأن يطبخ صيده ، ليبارك عليه ويدعو له ، وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغى ذلك ، فأمرت " رفقا " ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاما كما اشتهاه أبوه ، ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له ، ثم قامت فألبسته ثياب أخيه ، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين ، لأن العيص كان أشعر الجسد ، ويعقوب ليس كذلك . فلما جاء به وقربه إليه قال : من أنت ؟ قال : ولدك فضمه إليه وجسه وجعل يقول : أما الصوت فصوت يعقوب ، وأما الجس والثياب فالعيص . فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر أخوته قدرا ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به أبوه ، فقربه إليه ، وقال له : ماهذا يابنى ؟ ، قال : الطعام الذى اشتهيته ، فقال : أما جئتنى به من قبل ساعة ، وأكلت منه ، ودعوت لك ؟ فقال : لا ، والله . وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد عليه فى نفسه ، وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما ، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى ، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم .

فلما سمعت الأم مايتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت هذا أن يذهب إلى أخيها « لابان » الذى بأرض حران ، وأن يسكن عنده حتى يسكن غضب أخيه ، وأن يتزوج من بناته ، وطلبت زوجها إسحاق أن يأمره بذلك ، ويوصيه ، ويدعو له ، ففعل .

فخرج يعقوب من عندهم آخرة ذلك اليوم ، وأدركه المساء فى موضع فنام فيه فرأى فى نومه معراجا منصوبا من السماء إلى الأرض ، والملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ، ويقول له : سأبارك عليك ، وأكثر من ذريتك ، وأجعل هذا الأرض لك ، ولعقبك من بعدك .

فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر لئن رجع إلى أهله سالما ليبنينّ فى هذا الموضع معبدا لله ، وأن جميع مايَرزقه يكون لله عشره .

فلما قدم يعقوب على خاله فى أرض حران ، إذا له ابنتان : ليا وراحيل ، وهى الأصغر والأجمل ، فطلب من خاله أن يزوجها له ، فأجابه شرط أن يرعى غنمه سبع سنين ، فلما انتهت المدة صنع طعاما وجمع الناس عليه ، وزف إليه ليلا ابنته الكبرى ليا ، وكانت ضعيفة العينين ، قبيحة المنظر ، فلما أصبح يعقوب اكتشف أمرها ، فقال لخاله : غدرت بى ! ، فقال : ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فان أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجها لك ، فاستجاب لطلبه ، فزوجها له مع أختها ، وكان ذلك سائغا فى ملتهم ثم نسخته التوراة ، ووهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية . وهب " زلفى " لليا ، ووهب " بلهى " لراحيل .

وجبر الله ضعف ليا بأن وهبها أولادا ، فولدت ليعقوب على الترتيب : روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا . فغارت راحيل ، وكانت لاتحبل ، فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فحملت منه ، وولدت له غلاما جميلا أسماه " دان " ، ثم جاءت بآخر اسمه " تفتالى " ، وعند ذلك وهبت ليا جاريتها زلفى ليعقوب أيضا ، فولدت له جاد وأشير . ثم حملت ليا منه فولدت له غلاما خامسا : " إيساخر "

وسادسا أسمته " زابلون " ، وبنتا أسمتها دينا فصار لها سبعة من يعقوب .

ثم سألت الله راحيل أن يهبها غلاما من يعقوب فأجاب دعاءها ، وولدت غلاما عظيما شريفا حسنا جميلا سمته : « يوسف » .

كان ليعقوب إذن إثنا عشر ولدا ذكرا ، الذين أشارت إليهم الآيات القرآنية السابقة ، وهذه التفصيلات مستمدة من التوراة ولم يرد منها شيء فى القرآن الكريم ، وكان يوسف وحده النبى بينهم . وهو يفسر لنا الرموز فى الاية ، فالأحد عشر كوكبا هم أخوته ، والشمس أبوه والقمر أمه .

لقد حسد الأخوة أخاهم يوسف وشقيقه لأمه بنيامين ، واشتوروا فيما بينهم على قتله ، أو إبعاده إلى أرض لايرجع منها ، ليخلو لهم وجه أبيهم ، واقترح شمعون فى رواية ، ويهوذا فى ثانية ، وروبيل فى ثالثة ، أن يتخلصوا منه بإلقائه فى الجب :

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ، إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » .

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

« وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعلمون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن

ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكّنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » .

لما استشعر أخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم ، وقالوا هذا غلامنا ، ولكن السيارة اشتروه منهم بعشرين درهما .

وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها ، وهو الوزير بها ، وبيده خزائنها ، ويمضى محمد بن اسحاق فى تفسيرات وأرقام ويقدم أسماء لاسند لها من التاريخ. فالذى باعه فى مصر اسمه : مالك بن زعر بن تويت بن مديان بن إبراهيم . واسم عزيز مصر : أطفير بن روحيب ، وملك مصر يومها اسمه : الريان بن الوليد ، واسم امرأة العزيز راعيل بنت رمايل ، وقال آخرون اسمها زليخا ، والظاهر أنه لقبها ، وقيل اسمها فكا بنت ينوس .

ويبالغون فى الثمن الذى دفعه العزيز فى يوسف ، قالوا : عشرين دينارا ، أو يوزنه مسكا ، أو يوزنه حريرا ، أو يوزنه ورِقا .

وما أن استقر فى بيت عزيز مصر حتى دعته زليخا إلى نفسها ، وكانت غاية فى الجمال والشباب والمنصب ، وغلّقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيأت له وتصنعت ، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها ، وهى زوجة الوزير ، وبنت أخت الملك ، ولكن يوسف صدها ، بعد أن هم بها ، مخافة سيده ، فهو عبد ، وبعدا عن المعصية . وبعض كتب التفسير اعتمادا على مافى التوراة وشروحها ، والقصاص الذين ينهلون منها فيخالون ويتخيلون ، تمضى مع هذا الحوار بين امرأة راغبة ، ورجل يوشك أن يستجيب ، إلى أبعد مدى ، وتجعل منه رواية عاطفية ، لايكتب أشد الروائيين تحررا اليوم فى مثل صراحتها ، والجانب الذى يقف أمامه الناقد والباحث هنا أننا أمام امرأة أخذت زمام المبادرة ، وكان دورها إيجابيا ، فهى طالبة لا مطلوبة ، وراغبة فى مواجهة متردد ، ومثل هذا الموقف ، قبل هذا الربع الأخير من القرن الذى نعيشه ، لايرد إلا قليلا ، فى الأدب القديم والحديث على السواء .

عندما حاول الهرب لحقت به ، وأمسكت به فشقت ثوبه من خلف ، وعند الباب لقيت زوجها فمثلت دور المعتدى عليها ، ولكن رجلا قريبا من الحديث ، وقيل صبى فى المهد ، أدلى بالشهادة « إذا كان تمزق الثوب من أمام فهو الذى أراد ، وهى التى دفعته ، و إن كان من خلف فهى التى غصبته ، وحاول النجاة بنفسه ، وهى التى أمسكت به »

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلّقت الأبواب ، وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون . ولقد همّت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى ، وشهد شاهد من أهلها ، إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » .

وشاعت قصة امرأة العزيز ويوسف فى المدينة ، ،وأصبحت حديث الطبقة العليا وأرادت زليخا أن تعتذر لنفسها ، وأن تبرر فعلتها ، بأن تريهن إياه ، فدعتهن إلى قصرها ، وأخرجته إليهن جميلا باهرا فى السابعة عشر من عمره ، تتمناه أى أنثى ، فأثملهن جماله ، وفقدن صوابهن ، وعذرنها ، وقالت هى مؤكدة ، ما إلى تركه من سبيل ، أما أن يستجيب لها وإما أن ترسل به إلى السجن حيث يلاقى الذل والهوان .

« وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، واعتدت لهن متكأ وأتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فى ذلك

الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ماآمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلى مما تدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » .

وقد رأى العزيز وزوجه أن أفضل شيء لإسكات ألسنة الناس ، وإظهار براءة زليخا وتأكيد أنه راودها عن نفسها فرفضت ، أن يودع السجن ، وكان ذلك من جملة ماعصمه الله به ، إذ أبعده وهو فى هذه السن الفتية عن معاشرتهن ومخالطتهن ، ومن هذا الموقف استنبط الصوفية مبدأ : إن من العصمة ألا تجد . وأما اللذان دخلا معه السجن فهما : " نبوا " ساقى الملك ، و " مجلت " خبّازه ، استراحا إلى يوسف سمتا وهديا وسلوكا ، ورأيا فى ليلة واحدة رؤيا منام :

رأى الساقى كأن ثلاثة قضبان من حبلة ، أورقت وأينعت عناقيد من العنب ، فأخذها واعتصرها فى كأس الملك وسقاه . ورأى الخباز كأن على رأسه ثلاث سلال من خبز ، وضوارى الطير تأكل من السلة الأعلى .

قصّا عليه رؤياهما ، وطلبا منه أن يعبّرها لهما ، فقال لهما : إنه قادر على أن يخبرهما بالطعام الذى يأتيهما قبل مجيئه حلوا أو حامضا بفضل تعليم الله له لأنه مؤمن وموحد ويتبع ملة آبائه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم دعاهما إلى التوحيد ، ومن كان أمره كذلك فليس عسير عليه أن يفسّر لهما مارأيا . أما الساقى فسوف ينجو ويعود إلى مكانه ، وأما الخباز فسوف يصلب . وطلب من الساقى عندما يعود إلى سيرته من الملك أن يذكره بالخير عنده ، ويشهد له على مارأى من برائته وحسن خلقه ، ولكن الساقى بعد أن أفرج عنه نسيه بضع سنين:

« فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ، ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان ، قال أحداهما إنى أرانى أعصر خمرا ، وقال الاخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال لايأتيكما طعام

ترزقانه إلا نبأتكما بتاويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ماكان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون . ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا الله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب ، فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » .

ورأى ملك مصر الرؤيا التى أوردتها الآيات بعد ، وتعطيها التوراة ومفسّروها مزيدا من التفاصيل والحواشى ، فيقولون إن الملك رأى كأنه على حافة نهر ، خرج منه سبع بقرات سمان ، فجعلن يرتعن فى روضة هناك ، فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن ، فاستيقظ مذعورا ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن ، فاستيقظ مذعورا .

لم يكن بين قومه من يحسن تعبير هذه الرؤيا ، وقالوا أخلاط من أحلام الليل لاتعبير لها ، عند ذلك تذكر " الناجى " ، يوسف الذى التقى به فى السجن . وقدرته على تعبير الرؤيا ، وماأوصاه به ، فأسر بأمره إلى الملك ، واستأذنه فى أن يذهب إليه ، وقص عليه مارأى .

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتوى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام ، ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع

إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» .

فلما عرف الملك ما قال يوسف أمر بإحضاره إلى مجلسه ، ليكون من خاصته ، فقال يوسف : لاأحب أن أخرج قبل أن أتبين براءتى ، وأن يثبت أنى حُبست ظلما ، وأن يُسأل فى ذلك " النسوة اللاتى قطّعن أيديهن " ، وكيف دفعننى إلى قبول المراودة وكيف رفضت ، فلما سئلن اعترفن بما وقع من الأمر ، واعترفت زليخا بأنها راودته ، ولكن الأمر لم يتجاوز هذا ، تريد أن تعلم زوجها أنها لم تخنه واقعا . فلما تبين الملك براءته عينه وزيرا له ، وأصبحت له الكلمة ، بعد أن عزل قطفير ، وحين مات هذا زوّج امرأته زليخا ليوسف ، فوجدها عذراء لأن زوجها كان لايأتى النساء ، فولدت له إفرايم ومنسا ، واستوثق ليوسف ملك مصر ، وعمل فيهم بالعدل ، فأحبه الرجال والنساء :

« وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم . قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين . وماأبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم » .

« وقال الملك أئتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولانضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ثم قدم أخوة يوسف إلى مصر يمتارون طعاما ، بعد سنى الجدب وعمومها ،

وحين دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ، ولم يخطر ببالهم ماصار إليه من المكانة ، ورواية التوراة أنهم لما قدموا عليه سجدوا بين يديه ، فأغلظ لهم القول ، وقال : أنتم جواسيس جئتم لتأخذوا خير بلادى ، فقالوا : معاذ الله ... إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ، ونحن بنو أب واحد كنعان ، اثنا عشر رجلا ، ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبينا ، فحبسهم ثلاثة أيام ليستعلم عن أمرهم ثم أخرجهم ، واحتبس شمعون عنده حتى يأتوه بالأخ الآخر فى رحلتهم القادمة ، فأخبروه بأنهم سوف يحاولون :

« وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرين . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلاكيل لكم عندى ولاتقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

فلما عادوا إلى أبيهم أخبروه أنهم بعد عامهم هذا لن يحصلوا على مايريدون من طعام ، إذا لم يرسل معهم فى المرة القادمة أخاهم بنيامين ، وكان أبوه ضنينا به ، ولكن حاجته وحاجة قومه إلي الميرة جعلته يوافق على إرساله معهم ، بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق ، وأمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ، حتى لاتصيبهم العين ، لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة :

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا ، وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا مانبغى ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ، ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ، فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ، وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ،

وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ماكان يغنى عنهم من الله من شيء ، إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

فلما دخلوا عليه فى مرتهم هذه ، ومعهم أخوهم بنيامين ، احتال على أخذه منهم ، وأن يبقى معه دونهم ، ثم كانت قصة السقاية :

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذّن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليه ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وماكنا سارقين . قالوا فماجزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذى علم عليم . قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون . قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمون » .

فلما استيأسوا من أخذه ، خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال روبيل ، وهو كبيرهم : لقد أخذ عليكم أبوكم موثقا ، وها أنتم فرطتم فى بنيامين كما فرطتم فى أخيه يوسف من قبل ، فلم يبق لى وجه أقابله به أذهبوا إلى أبيكم وقولوا له إن ابنه سرق ، وشهر أمره فى مصر ، وكل العير تعرف أمره . واتهمهم يعقوب بأنهم بيتوا أمرا ، فلاذ بالصبر ، وحزن على ابنيه حتى ابيضت عيناه . وأمرهم أن يعودوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه وألا ييأسوا من روح الله :

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل مافرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وماكنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون . قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، إنه هو العليم الحكيم ، وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتؤا تذكروا يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ، قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالاتعلمون . يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولاتيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ثم عادوا إلى مصر ثالثة ، وهم أضعف حالا وأسوأ بضاعة :

« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، إنه من يتقى ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لاتثريب عيكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين » .

فلما خرجت العير من مصر هاجت الريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف :

« ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجه أبيه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم ، إنى أعلم من الله مالا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا من الخاطئين . قال سوف استغفر لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وأخيرا جاء يعقوب مع أسرته كلها إلى مصر ، وهو فى طريقه خرج يوسف لتلقيه عند بلبيس ، وركب معه الملك وجنوده تعظيما ليوسف ، وكان جملة من قدموا ثلاثة وستين إنسانا ، أقاموا بمصر سبع عشرة سنة ، ثم توفى يعقوب ، وكان قد أوصى أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق ، وعندما مات يوسف أوصى أيضا أن يدفن عند آبائه :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين أخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

تقدم قصة يوسف مثلا جيدا للفن القصصى فى القرآن الكريم ، جاءت مكتملة ، تتضمن ألوانا متعددة من الصراع النفسى ، وبين قوى الخير والشر ، ونوازع الفرد والجماعة ، وتصور فى إيحاء كاف طبيعة الرجل وطبيعة الأنثى . وفيها مشاهد حياتية مختلفة : حيل وكيد ومآس ورغبات ، وعواطف سامية وأخرى دنيا . وإذا كان القرآن جاء بالقصة مكثفة وموجزة ، ووقف عند خطوطها الرئيسية ، فإن التوراة وشراحها أسرفوا فى هذه التفصيلات ، وأثقلوها بأسماء الأمكنة والشخوص والأحداث بما يجعل منها رؤية كاملة ، وذهبوا مع خيالهم بعيدا فى الخلق والابتكار ، وابتعدوا عن الواقع كثيرا ، وعنهم أخذ بعض مفسرى القرآن الشىء الكثير ، فصّلوا ماجاء مجملا ، وخصصوا ماكان عاما ، وأضافوا من خيالهم إلى ما أخذوا . ومن يتتبع ما فى هذه المصادر سوف يذهل من وفرة المادة المتصلة بالقصة ، مما يفتح أمام المبدع والباحث على السواء مجال الدرس والابتكار واسعا وعريضا ، ولعل هذا كان وراء شيوعها فى الآداب

الإسلامية كلها ، وتوظيفها بطرق متعددة ، للتعبير عن أفكار مختلفة .

فلنر لآن ، كيف رأتها هذه الآداب الإسلامية .

●●●

تعد قصة يوسف وزليخا من أكثر الموضوعات التى طرقها الشعراء الرومانسيون فى الآداب الإسلامية الكبرى ، فقد وجدوا فيها عبرة وتذكرة ، وتقدم مادة طيبة للرمز والإيماء والتمثيل والتأويل ، وهى أمور يفضلها شعراء الصوفية .

سبق بها أدباء الفرس ، وكان أول من نظمها شاعران أحدهما من بلخ ، ويكنى أبا المؤيد ، والآخر من الأهوار ويدعى البختيارى ، ولكن منظومتيهما ضاعتا ، أمّا أول منظومة وصلتنا فى هذا الموضوع فهى منظومة الفردوسى .

نظم الفردوسى قصة يوسف وزليخا بعد أن نظم الشاهنامه فى ستين ألف بيت من الشعر ، سرد فيها تواريخ الفرس وسير أبطالهم منذ أقدم العصور إلى الفتح الإسلامى ، وعكف على هذا النظم ثلاثين عاما ، وقدمها إلى السلطان محمود الغزنوى ، أملا فى نواله فأعطاه قليلا ، فندم الفردوسى ، وآسى على ما ضيع من عمره ، وأضاع من جهد ، وكره الملوك ، وساء ظنه بهم ، وانصرف عن خدمتهم ، والتمس لنفسه العزاء والسلوى فى نظم قصة قرآنية ، بعد أن أفنى شبابه ورجولته فى التغنى بمحامد الملوك الفرس الكفرة ومناقبهم ، ورق قلبه لسرد هذه القصة ، وهى حافلة بالقيم الإنسانية والمثل الإسلامية ، فوجد فى نظمها السكينة تغمر قلبه ، والإطمئنان يملأ رحاب نفسه ، ولم تكن للفردوسى نزعة صوفية ، ولكن الشعراء الذين أتوا بعده ضمنوها هذا المعنى ، فأصبح يوسف عندهم مثال الصوفى الواصل .

غير أن النقاد الفرس يرون أنه نظمها بعد أن غاض شبابه ، وذوى عنفوانه ، وانحطم لبه بسبب النكد الذى استولى عليه لنظم الشاهنامه ، كما أنه صاغ قصة

يوسف وزليخا فى نفس البحر والقافية والأسلوب الذى صاغ فيه الملحمة ، وهى لاتصلح لنظم القصص الرومانسية .

ومن بعده نظمها عبد الرحمن جامى عام ٨٨٨ هـ ، ونظمها فى القالب الذى نظم فيه الشاعر نظامى قصته خسرو وشيرين ، ولكنه فيما يتصل بالموضوع اعتمد على ماجاء فى القرآن الكريم ، وهى أروع تراثة الأدبى ، واحتذاها الشعراء من بعده .

ونظمها فى التركية الشاعر حمدى ، وقدمها إلى السلطان بايزيد ، وكان باعثه على نظمها ماوجده فى نفسه من شبه بيوسف الصديق ، إذ وجد نفسه مجفوا من إخوته ، يكيدون له عند أبيه ، فنفّس عن كربه بنظمها .

إذا قارنا بين هذه المنظومات الثلاث الكبرى ، نجد أن منظومة الفردوسى ضئيلة الحظ من المحسنات اللفظية ، وفيها حدث الفردوسى طويلا عن طفولة يوسف وماناله من أذى إخوته . وكان جامى مولعا بالصناعة ، وصرف معظم همه إلى ماكان بين يوسف وامرأة العزيز ، ومن ثم فهو أشد تأنقا من الفردوسى فى ألفاظه ، وأرق منه ذوقا فى معانيه .

وأفاد حمدى من الاثنين بطريقتين مختلفتين ، فنقل عن الفردوسى ، أو ترجم منه بحرية لايلزم فيها دقة ولاترتيبا ، من أول قصة يوسف إلى أن بيع عبدا فى سوق الرقيق بمصر ، وترجم من منظومة جامى ما بعد موت يعقوب فى دقة لاتدع منها شيئا ، ويمكن القول إذن إن قصة حمدى مزيج من منظومتى الفردوسى وجامى ، وعرف كيف يصنع قصة من قصتين ، فيأخذ من كل واحدة ماليس فى الأخرى ، ثم أضاف إليها كثيرا من الغزليات والرباعيات والحكايات جريا على عادة الشعراد فى تزيين المثنويات ، ليدفع السأم عن القارىء ، من تلك المثنويات المتطاولة ، الرتيبة النغم ، وإدماج الغزليات فى هذه المنظومات من صنيع الترك فيما يغلب على ظن الدكتور حسين مجيب .

ويجمعون على أن مثنوى يوسف وزليخا لحمدى لايفضله فى التركية مثنوى قبله ، فهو أعذب نبرة ، وأسلم ذوقا ، وأقل تكلفا ، لاكتمال اللغة بمرور الزمن ، وسلاستها بعد شموسها . واختار لمنظومته بحر الخفيف ، وبذلك يكون أول من استخدمه فى المثنويات ، أما الفردوسى فنظم قصته فى بحر المتقارب واستخدم جامى بحر الهزج .

نظم القصة فى الفارسية آخرون أقل شهرة ، أولم تصلنا منظوماتهم ، فقد نظمها الشاعر نظامى الهروى ، ولايعرف عن صنيعه هذا غير الاسم ، كما أن الصوفى الشاعر عبد الله الأنصارى صاغها نثرا ، فى كتاب يحمل عنوانا بعيدا عن المضمون ، فقد عنونه : " أنيس المريدين وشمس المجالس " .

كما نظمها آخرون فى التركية ، من بنهم يحيى بك ، ويقول إن الباعث له على نظمها أنه خرج للحج ، فمر فى بلاد كنعان ، وهناك ذكر القصة ، وتحركت فيه الرغبة إلى سردها ، كما أن مشاهدته القاهرة مدينة يوسف كانت ذات أثر فى نفسه ، ورغم أن كثيرين غيره سبقوه فيها ، حتى بدا ألا جديد يمكن أن يضاف إليها ، فقد تناولها بطريقة لانجدها عند من سبقوه .

كما نظمها ابن كمال باشا ، وتعمد فى قصته الاّ يستخدم لفظا عربيا ولافارسيا ما وجد له مردافا في اللغة التركية ، وكان ذلك خروجا على مألوف الشعر فى زمانه ، وتحكما نفّر الأدباء والجمهور من قصته .

كان ميران هاشم أول من نظم فى الأدب الأوردي قصة يوسف وزليخا ، عام ١٦٨٧ ، وجاءت فى اثنى عشر ألف بيت من الشعر ، وجعل زليخا تعبر عن نفسها بنفس الكلام الذى تعبرَ به بنات جنسها ، ولذلك يعده بعضهم أول من كتب ريختى فى الشعر الأوردى . وبعده بعشرة أعوام نظم الشاعر أمين القصة نفسها ، ودامت شعبيتها زمنلا طويلا .

ونجد فى اللغة الألبانية قصة شعرية بعنوان « يوسف وزليخة » ، للشاعر

محمد تشامى ، وتتميز بطولها ، فقد جاءت فى ألفين وأربع مئة وثلاثين بيتا ، وأوحت له بها إقامته الطويلة فى مصر ، ويبدو ذلك واضحا من قصته ، فيؤكد على المحيط المصرى الذى تدور فيه أحداث القصة ، وتتجلى فيها موهبته الفنية أكثر من قصته " أروى " التى سبق بها هذه ، إذ تتجلى مهارته فى التحليل النفسى ، وتصوير عوالم شخوصه من الداخل ، ولقيت هذه القصة شعبية واسعة فى ألبانيا ، ومازالت تسمع وتنشر حتى اليوم .

أظن القارىء ، وقد تتبع هذا التناول لحظ أننا لم نشر إلى الأدب العربى ، إذ الواقع أنه جاء خلوا من القصائد الطويلة التى تتناول قصصا بعينها ، تاريخية أو دينية ، ومرده غياب التقليد الموروث أولا ، وعدم التطلع إلى ماعند الآخرين ثانيا ، ولست أظنها تعود إلى خصائص نفسية ، أو إلى القوالب الشعرية ، فكل هذه القصائد الطويلة فى اللغات الإسلامية الاخرى ، التزمت فيها العروض والقافية .

● مراثى أهل البيت : الحسين وكربلاء :

كانت واقعة كربلاء مثار غم وحزن فى نفوس كثير من المسلمين ، وتلتها وقائع زادت هذه النفوس غما وحزنا ، ووجدت هذه الوقائع أول ترجمان بليغ لها فى الشاعر العربى الأسدى الكميت بن زيد ، وقفّى على أثره شعراء العربية ، وكان أبعدهم صيتا فى هذا السيد الحميرى من القرن الثانى الهجرى ، ودعبل الخزاعى من القرن الثالث ، والشريف الرضى من القرن الرابع ، وكلهم أبدعوا فى تقاليد القصيدة العربية ، غنائية وذاتية ومحدودة الطول ، ولم تتوقف مسيرة الشعر العربى على امتداد سنواته التى تجاوزت ألف عام وثلاث مئة منذ هذا الحادث عن بكاء شهدائه ، واستحضار نتائجه ، وقام جواد شبّر بجمع هذه لأشعار منذ القرن الأول الهجرى حتى القرن الرابع عشر ، فى مجلدات بلغ عددها سبعا ، أو هذا ماحصلت عليه منها ، بعنوان : أدب الطف ، أو شعراء الحسين ، وكلها تحمل طابع الشعر العربى الخالص ، وهم ينتمون إلى شعراء من كل أقطار العربية . كما

أن الشاعر العربى المعاصر عبد المنعم الفرطوسى ، نظم ملحمة فى آل البيت جاءت فى خمسة وعشرين ألف بيت شعر ، من بحر واحد ، وقافية واحدة ، وحركة روى واحدة ، ونشرها للمة الأولى عام ١٩٧٧ - ١٩٧٨ ، وأتى فيها على جوانب من العقيدة الإسلامية ، وحياة النبى وأهل بيته ، وشغلت ثلاثة مجلدات .

لكن الأدب الفارسى هو الذى أفسح مكانا واسعا لهذا الفن ، متأثرا فى البدء ببواكير الشعر العربى ، ثم بعقيدة الشيعة أنفسهم ، وبخاصة منذ أصبحت الشيعية مذهبا رسميا لإيران من بعد العصر الصفوى ، ومصر فى عصر الفواطم وعادة متوارثة فى المناطق التى يقطنها الشيعة .

وكان حديثهم عن آل البيت يأخذ وجهتين ، الأولى مدح الإمام على رضى الله عنه ، والأئمة من بعده ، ولا يعنينا فى هذه الفقرة ، والثانى ، وهو الأهم ، إحياء ذكرى مصرع الحسين فى كل عام ، وآل بيته بعامة فى العشر الأوائل من شهر المحرم ، وفى هذه الذكرى قيل شعر أكثر ، وأرق ، وأعلى مستوى من الوجهة الفنية .

فى هذه الأيام العشرة من المحرم يحتفل الشيعة « بالتعزية » ، وهى عرض تمثيلى لمصرع الحسين وأهل بيته فى كربلاء ، مع تلاوة المراثى التى قيلت فى سبط الرسول . ومن المألوف فى هذه الأيام أن يتسابق الناس إلى تهيئة الأفنية والساحات لإقامة هذه " التعزية " ، ويقيمون فيها خياما مبطنة بالسواد إعرابا عن عميق الأسى والحداد ، والخيام وماتحويه يشير فى صراحة إلي تلك الفاجعة ، وماخلفته فى نفوس المسلمين بعامة ، والشيعة بخاصة ، من جزع لاينسى مع الأيام .

ينفق علي هذه الخيام من الأموال التى يقدمها أصحابها إلى الله . وفى اليوم الثامن من المحرم يقدم عرض تمثيلى لمصرع الحسين ، فيجتمع حشد كبير من الناس فى ثياب الحداد ، منكسين رءوسهم تعبيرا عن حسرتهم ، ثم يقوم من يذكر الحاضرين بأن كل من اشترك فى هذه الذكرى يلقى المثوبة من الله ، ثم

تنهمر الدموع من العيون ، ويطوف على الباكين من يجفف دمعهم بقطعة قطن يعصرها في قارورة تبركا بهذه الدموع الغوالى ، وفى معتقدهم أن القطرة منها إذا صبت فى فم من يحتضر ردت عليه حياته .

ويصّعد هؤلاء المحزونون الزفرات تلو الزفرات ، ثم يدقون صدورهم دقات تتناغم موسيقيا مع صوت أحد المنشدين ، ثم يبدأ العرض التمثيلى ، فتساق أربعة جياد مسرجة بالفاخر من المعدن والقماش ، ويتبعها رجال فى قمصان بيض ملطخة بحمرة الدماء ، يرفعون أصواتهم بصيحات تشق عنان السماء ، على أنهم أصحاب الحسين الذين هلكوا دونه ، فهم يعبرون عن فجيعتهم ونكبتهم ، وبعد ذلك يظهر خمسة رجال فى صفين ، يصرخون ويصفقون ويدخل من يمثل شخصية الحسين رضى الله عنه مع نسائه وذوى قرباه ، ويدور بينه وبينهم الحوار إلى أن يرقد رضى الله عنه فى إخبات واستسلام لما جرى به قضاء الله .

ثم يظهر من يمثلون قتلته ، وقد شدوا عليه فى عنف شدة رجل واحد كأنما يريدون أن يجهزوا عليه ، وما إن يرى المشاهدون هذا حتى تمتلىء نفوسهم بأشد مايكون من غضب وحقد ، وتبلغ به حفيظتهم حدا يرجمون فيه من يمثلون تصوير القتل ، ثم يختم هذا المشهد بحريق كربلاء ، ويرمزون إلى هذا باضرام النار فى أكواخ من قصب .

ومن المشاهد التى تهتز لها النفوس فى قرارتها ، ويثير الشجن فى قلوب المسلمين بعامة ، والشيعة بخاصة ، مشهد تبدو فيه أشلاء قتلى معركة كربلاءويكون ذلك بأن يدفن بعض من يقومون بتمثيل هذا المشهد أنفسهم بحيث لايظهر منهم إلا الرءوس وبعض الجوارح ، وذلك إيهاما للمشاهد بأنه يشاهد الأشلاء على الحقيقة ، وماتقع العيون على هذا حتى يجرى الدمع مدرارا ، ويرتفع نحيب المنتحبين ، وعويل من تقطعت نفوسهم حسرات من محبى آل البيت رضوان الله عليهم أجمعين .

تبقى هناك ملاحظتان : الأولى أن بعض مؤرخى المسرح يردون أصول المسرح

الإسلامى إلى مشهد « التعزية » هذا . والثانى : أن الاحتفال بهذه الذكرى ليس وقفا على الشيعة وحدهم ، وفى قبائل المطاعنة ، فى مركز إسنا ، أعلى صعيد مصر ، يحتفل الناس بيومى " تاسوعاء " و " عاشوراء " ، وفيهما ينحرون ويوزعون الصدقات على الفقراء ، ويترحمون على شهداء آل البيت ، ويشعلون النيران ، وأذكر أننى ، وكنت طفلا صغيرا ، كنت أحمل حبلا ضخما ، مع رفاقى من الصبيان ، فى رأسه كتلة نيران مشتعلة ، نلوح بها فى الهواء ، ونطوف شوارع القرية نترنم بأهازيج لم نكن نفهم معناها فى أغلب الأحيان .

فى هذه الذكرى ينظم الشعراء قصائدهم ، راثين باكين يرققون القلوب ، فى شعر رصين ، رقيق النغم ، فخيم المعانى ، يلقى فى هذه الاحتفالات ، وهى قصائد سرعان ماتطورت ، واستطالت وأخذت قالبا معينا .

أول الشعراء المشهورين برثاء أهل البيت محتشم الكاشانى ، وكان يعمد فى قصائده إلى مدح الإمام مباشرة دون مقدمات ، بادئا بذكر الصفات الحسية ، متذكرا ومذكرا بالكوارث التى أصابت أهل البيت ، مما أضفى على قصائده شهرة واسعة ، وأشهر مراثيه " هفت بند " ، وجاء فى ستة وتسعين بيتا ، مقسمة على اثنتى عشر قسما ، فى كل قسم سبعة أبيات على روى واحد ، والثامن مطلق .

جاء رثاء محتشم كاشانى للحسين غاية فى الروعة والصدق ، ووجد من إقبال الناس ما يستحق ، ومرد ذلك فيما أرى للظروف التى أحاطت به إبداعا وسيرة . يروى الشاعر نفسه أن الإمام عليا زاره فى المنام ، وقال له : أنت يامن نظمت هذا الدر الفريد فى رثاء أخيك عبد الغنى ، لم لاتنظم مثل هذا فى رثاء ابنى الحسين .

ولروعة هذه المرثية أخرج عن منهجى مرة ، فأقدم منها المقدمة والخاتمة ، وأربعة أقسام أخرى ، وهى من ترجمة المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام ، وقد يفتح ذلك الباب أمام المقارنين ، لمقارنتها بقصائد أخرى عربية أو تركية أو غيرها:

- ١ -

ماهذا الهياج فى العالم ، وماذا النواح والبكاء والمأتم ؟

ماهذه القيامة الهائلة تصعد إلى العرش من الأرض ، ولم ينفخ فى الصور اليوم العرض؟

من أين تتنفس هذا الصبح المظلم ؟ فماج به الناس والعالم فى غم ؟

أترى الشمس قد طلعت من المغرب ، فذرات العالم كلها تهيج وتضطرب ؟

إنها قيامة الدنيا لا جرم ، هذه القارعة المسماة بالمحرم

إن ملكوت القدس وليس مكان جزع ، سمدت فيه الملائكة من الهلع ؟

والملك والجن فى نواح دائم ، يشاركون فى مأتم أشرف بنى آدم

شمس السماء والأرض نور المشرقين

ربيب صدر رسول الله الحسين

إلى أن يقول :

- ٢ -

ليت سرادق السماء خوى ، وليت هذا السقف الرفيع هوى

ليت سيلا أسود عم الأقطار ، وطلا وجه الأرض بالقار

ليت شعلة من آهات أهل البيت المحرقة ، رمت هذه السماء بصاعقة

ليته ، وقد تحرك الفلك بهذا المصاب ، ظل وجه الأرض كالزئبق فى اضطراب

ليته حينما دخل جسمه فى الرغام ، خرجت أرواح الخلائق من الأجسام

ليته حين فلك أهل البيت انحطم ، غرق العالم فى بحر من الدم

إن لم يقع هذا الانتقام بالدهر ، فكيف تكون مؤاخذة الدهر يوم الحشر

إن بيت النبى حين يرفع أيديه يتظلم

يزلزل أركان العرش الأعظم

ثم يقول بعد أربعة أقسام :

- ٣ -

ولما بلغت هذه القافلة الميدان ، ثارت ضوضاء الحشر فى السكون والمكان

ودوت بالنواح ست الجهات ، وعم البكاء ملائك سبع سموات

لم يبق فى البادية غزال إلا شلت رجله ، ولاطائر إلا هوى من عشه

وكانت قيامة تنسى القيامة الأخرى ، حين وقعت عيون آل البيت على القتلى

فما تقلبت العين من أجسام الشهداء ، إلا على ضربة أو طعنة نكراء

ووقعت بغتة عين بنت الزهراء ، على جسد إمام الزمان فى العراء

فصاحت : " هذا الحسين " ، بغير اختيار ، فاشتعلت فى العالم كله النار

ثم رجعت شاكية بضعة البتول

إلى المدينة تقول يا أيها الرسول

- ٤ -

هذا القتيل الملقى فى البيدا ، حَسَينك ، هذا الصيد المضرج بالدماء حسينك

هذه الشجرة الناضرة التى بنار العطش، صعدت الدخان من الأرض إلى العرش، حسينك

هذا القمر الساقط فى بحر من الدم ، وجروحه تَربى على عدد الأنجم ، حسينك

هذا الغريق فى محيط الشهادة ، وقد تورد من موج دمائه وجه البادية ، حسينك

هذا الظمآن المحروم من الفرات الميمون ، وقد صارت الأرض من دمه جيحون حسينك

هذا الملك القليل الجند الذى خرج من الدنيا الخدوع ، بجيش الآهات والدموع ، حسينك

هذا القالب الملقى بغير كفن ، الملك الشهيد الذى لم يدفن ، حسينك

ثم توجهت شطر البقيع تخاطب الزهراء

فاحرقت سمك البحر وطير السماء

- ٥ -

يا أنس القلوب الكسيرة إلينا انظرى ، غرباء بغير صديق ولاعشيرة ، إلينا انظرى

انظرى أولادك شفعاء المحشر ، فى صولة قلوب قاسية كالحجر ، انظرى

لا لا ! تعالى كالسحاب الراعد إلى كربلاء ، وإلى طغيان سيل الفتنة ، وموج البلاء ، انظرى

انظرى أجساد القتلى ورؤس الرؤساء على الحراب،انظرى ذلك الرأس الذى كان مكانه رأس المصطفى ، فصلته من كتفه طعناة العدى ، فانظرى

وذلك الجسد الذى كان صدرك مرباه ، يتدحرج فى تراب كربلاء ، ،بلاه ، فانظرى

ويختم التركيب بها القسم :

- ٦ -

صمتا محتشم ! فقد ذاب قلب الحجر . وزلزل العزاء وعيل المصطبر

صمتا محتشم ! فمن هذا الكلام الذى يقطر الدماء ، احترق طائر الهواء وحوت الدأماء

صمتا محتشم ! فمن هذا الكلام ذى الشرر ، فاضت عيون السامعين بصافى الدرر

صمتا محتشم!فمن الشعر المثير البكاء، تخضب وجه الأرض بدموع مازجتها من القلوب دماء

صمتا محتشم ! فمن هياجك صار نور الشمس ، كاسفا كالقمراء فى الحندس

صمتا محتشم ! فقد بكى الفلك بالدم ، حتى جاش البحر بحباب كالعندم

صمتا محتشم ! فمن غبار غم الحسين القتيل ، احتجب من وجه الرسول جبريل

لم يقترف الفلك الغادر كهذا الأثم منذ كان

ولم يقس هذه القسوة على مر الزمان

عنى محتشم بهذه المراثى المبكية ، الغارقة في النواح والبكاء ، والدموع

والدماء ، ويسيطر فيها الغلو والإغراق ، وسار كثيرون من الشعراء على نهجه ، وافتنوا في الرثاء ، وعنوا بالحوار في المراثي ، ويسروها للتمثيل ، فنشأت قصص منظوم تمثيلية كمل تطورها مع الزمن ، ومارست على العامة تأثيرا بالغا ، يبكون لسماعها وينوحون ، ويلطمون الخدود ، ويبلغ بهم الهياج أحيانا حد الجنون ، وهؤلاء الشعراد كثيرون ، أمثال : أهلي شيرازي ، وبابا فغاني ، ومحمد قلي سليم ، ووحشي ، وعرفي ، ونظيري ، ومير رضى ، وعرضنا لكل هؤلاء في عرضنا لتاريخ الأدب الفارسي .

وألف حسين واعظ الكاشفي ، " روضة الشهداء " ، وصور فيه مأساة استشهاد الحسين وغيره من الأئمة تصويرا عاطفيا ، في نثر فني موصع بأبيات الشعر ، وكان احتفاء الشيعة به عظيما في إيران ، فاذا احتفلوا بهذه الذكرى في المحرم من كل عام ، قرأوا فقرات منه في مجلس عزائهم ، وتسمى " روضة خواني ، بمعنى قراءة الروضة ، ويعرف قارؤها بـ " روضة خوان " ، أي قارىء الروضة . وهي من أشهر كتب النثر الفني عند الفرس ، وكان حسين واعظ نفسه واعظا مشرق البيان ، ولم يكن أحد يدانيه في سمو منزلته ، وتضلع في جميع العلوم ، بخاصة علم النجوم ، وكان مجلس وعظه يغص بالناس إلى الحد الذي يخشى فيه على بعضهم من الموت ، لجمال صوته ، ورقة وعظه ، وبلاغة كلامه .

يقول حسين واعظ في مقدمة كتابه إنه ألفه ليصف فيه حال أهل البلاء من الأنبياء والأصفياء والشهداء وسائر المبتلين ، وضمنه أبياتا من الشعر مست الحاجة إلى ذكرها ، وقرنها بترجمتها ، فضلا عن الأبيات الفارسية . وكسره على عشرة أبواب سبقتها مقدمة وأعقبتها خاتمة ، وهي : في ظهور بعض الأنبياء ، وفي الجفوة التي أظهرتها قريش للنبي ، واستشهاد حمزة وجعفر الطيار ، وفي وفاة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام ، وفي ذكر أحوال فاطمة رضي الله عنها ، وفي أخبار علي كرم الله وجهه إلى شهادته ، وفي بيان فضائل الإمام الحسين رضي الله عنه وبعض أحواله منذ ولادته إلى شهادته ، وفي مناقب الإمام الحسن

، وفى شهادة مسلم بن عقيل وقتل بعض أولاده ، وفى وصول الإمام الحسين إلى كربلاء ، وقيام الحرب بينه وبين أعدائه ، واستشهاده وأولاده ، مع ذوى قرباه ، وفى الأحداث التى وقعت لأهل البيت بعد حرب كربلاء ، ثم جاءت الخاتمة فى ذكر أولاد السبطين وسلسة نسب بعضهم .

ترجم الشاعر التركى فضولى " روضة الشهداء " إلى اللغة التركية ترجمة حرة ، وأعطاها عنوانا : " حديقة السعداء " ، وأشار إلى دوافع ترجمته ، وهو أنه يريد للترك أن يعرفوا ماحاق بآل البيت ، أسوة بما يعرفه عنهم الفرس والعرب ، ويشعر بأنه مقصر كل التقصير فى حق الأئمة إن لم يقم بهذا الواجب ، ومن هنا جاءت ترجمته رائعة حتى قيل ان النقل يفضل الأصل . يقول فى مقدمة ترجمته: إن أشراف العرب وأكابر العجم يجتمعون فى مجالسهم ليشنفوا السمع بما يلقى عليهم بالعربية والفارسية من أخبار الشهداء ، أما أعزة الترك ، وهم السواد الأعظم من أهل الدنيا ، فلا يفقهون مايسمعون ، ويفوتهم من ذلك خير كثير ، ويخرجون من صفوف المستمعين ، وماأشبههم بالسطر الزائد فى كتاب . فساءته تلك الحال ، وأسف ألاّ يشترك الناس جميعا فى مأتم آل البيت ، وتمثل المأتم رجلا يمسك بتلابيبه وهو يلومه لوما وجيعا على التقصير فى حق آل البيت ، مع أنه طعم من خوان سلطان كربلاء ، وتقلب فى نعمته ، فكان الأولي به أن ينشىء " مقتلا " تركيا يقع موقع الإعجاب من فصحاء الترك ، ويغنيهم عن سؤال العرب والعجم عن معنى مايقال .

وقد قام الدكتور حسين مجيب المصرى بموازنة بين الأصل والترجمة ، وانتهي إلى أن صاحب " الحديقة " يميل إلى الإيجاز والتبسيط ، واقتضب عناوين بعض الأبواب فلم تعد لها دلالتها الدقيقة على محتواها ، وأن الترجمة لم تكن حرفية لأن لكل لغة أسلوبها ، ولكل متلق ذوقه . وكان فضولى يؤدى المعنى بعبارة أجمل ، ويعرضه فى أسلوب أجزل ، ويتأنق فى الإنشاء باعتدال ، وإذا صادف شعرا لم يترجمه ، ولا يلتزم بأن يأتى بشعر يماثله فى المعنى ، ولكنه نظم فى

"الحديقة" أشعارا تركية جيادا ، تكون وحدها ديوانا .

●●●

كان الأتراك فى جملتهم من أهل السنة ، فشاعت بينهم المدائح النبوية ، وقلت مراثى الحسين ، رغم تأثرهم البالغ بالأدب الفارسى ، ولكن الأمر هنا لايكفى فيه التأثر بالأدب ، وإنما يحتاج إلى الوهج الداخلى ، وفضولى الذى ترجم " روضة الشهداء " إلى التركية . وكان شاعرا تركيا عظيما ، كان فى الوقت نفسه ينظم بالفارسية والعربية ، وعاش أغلب حياته فى بغداد . ومع ذلك يجب أن نأخذ فى الحسبان دائما أن الذين يمدحون النبى يوقرون أهل بيته ولاينسونهم ، ويذكرونهم بالفضل دائما ، ومن يبكون الحسين يذكرون أول فضل له ، وهو أنه حفيد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن هنا يبدأون حديثهم بمدح النبى ، والصلاة عليه ، وذكر دعوته وجهاده .

ومع ذلك لايخلو الأدب التركى من تصوير مأساة كربلاء ، فقد أبدع الشاعر لامعى منظومة جميلة ، صور فيها مأساة مقتل الحسين التى هزت مشاعر المسلمين جميعا ، ولأنه كان يجيد الفارسية وينظم فيها فليس ثمة شك في أنه احتذى شعراء الفرس ، وإن كان الوصول إلى شاعر معين احتاذه ، أو حتى جمع من الشعراء ، يحتاج إلى بحث دءوب ، لأن شعراء الفرس الذين عرضوا لهذه المأساة كثيرون .

●●●

وإذا كان الأدب الأوردى نشأ وترعرع فى ظل الأدبين الفارسى والتركى ، فنحن نلتقى بمراثى آل البيت فى زمن مبكر من حياته ، وكانت هذه إحدى خصائصه المميزة ، وبدأ ظهورها فى الدكن ، وكان قلى قطب شاه أول من نظم هذه المراثى وتلا تلوه من جاء بعده ، خصوصا فى بيجابور ، حيث معظم الملوك من الشيعة . وفى مكتبة ايدبرج مخطوطة تتضمن مئتين وثمانى وثلاثين مرثية

لهاشم علي ، ومئتين وتسعا وثمانين مرثية لثلاثة وستين شاعرا دكنيا ، ومن هؤلاء الشعراء من لم يرد لهم ذكر في أي كتاب مخطوط أو مطبوع . وهم في درجة متواضعة ذكرا ، وربما فنا ، لأنهم حصروا شعرهم في واقعة أو واقعتين تتصلان بتاريخ كربلاء ، ومعظمهم يعود إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر

من هؤلاء الشعراء هاشم علي (ت ١٧٦٠ م) ، وهو من كجرات ، وله مجموعة من المراثي بعنوان " ديوان حسيني " . ورضا الكجراتي ، وله خمس عشرة مرثية تتكون من سبع مئة وستين بيتا . وغلامي الكجراتي ، وأدخل الحوار على مراثيه ، وهو الشاعر القديم الوحيد الذي استخدم هذه الطريقة . ولكن البقية تدور في الفلك نفسه معاني وتعبيرا .

ولاتكاد نترك القرن الثامن عشر وراءنا حتى تبدأ مراثي أهل البيت تأخذ طابعا جديدا بفضل ثلاثة من الشعراء العظام : مظفر حسين ضمير ، وبابر علي أنيس ، وسلامت علي دبير ، فطالت ، وأصبحت فنا ، بعد أن كانت شعرا قصيرا يقوله من يتعبدون ، وأضحت ملحمة تدور في نطاق يتسع على الدوام ، وتذكر بما حدث للحسن والحسين وآل بيتها ، وكان هذا التطور بالغ الأهمية ، وذلك لأن اللغة الأوردية لاتعرف من الملاحم غير ماقيل في هذه المراثي ، رغم المكانة التي تحتلها الملحمة الهندية في تاريخ الأدب العالمي .

تحولت مأساة كربلاء " ورثاء الحسين " ملاحم تتضمن قصصا تاريخيا ، وتعاليم أخلاقية وتربوية ، ووصفا للطبيعة ، وتعبيرا عن مكامن الشعور الإنساني ، ولو أن حركة الشخوص فيها غير متطورة ولانامية ، فالشخص إما عدو أو صديق ، خيّر أو شرير ، والعنصر الملحمي فيها أضعف من العنصر العاطفي ، وهذا هو الشعور الذي تفيض به فاجعة كربلاء ، ومع هذا كله ليس في الشعر الأوردي مايثير الإعجاب كما تثيره أشعار المراثي .

كان ضمير غزير العلم ، مرهف الحس ، إليه يعود الفضل في بسط مجال المرثية ، وقبله كانت وقفا على وصف أحداث كربلاء ، والغرض منها إعلان

الحداد ، والتعبير عن الأسى بتصعيد النحيب . ولكنها معه وبعده أصبحت تبلغ الألف بيت أو يزيد ، وتتضمن سردا لقصص أبطال صناديد ، ومايتصل بذلك من كرهم وخليهم وسلاحهم ، والمشاهد الطبيعية فى عمومها ، ولم يتقبلها الناس فى البدء قبولا حسنا ، حتى أن الشاعر آتش حين سمع مرثية لدبير تنشد قال : أهذه مرثية أم جولة مصارعة ؟ ولكنها أصبحت اليوم هى القاعدة .

جدير بأن نشير إليه فى هذا المقام الشاعر بابر على أنيس ، فمن بين نتاجه الشعرى الضخم الذى خلّفه مجلد كامل عن وقعة كربلاء ، يتألف من مختارات مترابطة ، تشكل قصة واحدة ، وتقع فيما يقرب من ستة آلاف بيت ، وفيها يجرى كلاما على لسان الحسين يرقق كل قلب ، وقد ينطقه بكلام وعيناه تقطران حزنا ، فهو عنده مظلوم برىء يقتل فى غير جريرة ، ولايصوره بطلا مغوارا يقاتل وإن غُلب فلا بأس عليه ، ففى الحروب يوم لك ويوم عليك .

هناك ملاحم لم تنشد رثاء لشهداء كربلاء ، وإنما كُتبت تكريما للإمام على رضى الله عنه ، تحكى قصته كاملة ، مثل ملحمة " خور نامه " ، ونظمها كمال خان رستمى عام١٦٤٩ م ، وهى مفرطة فى الطول ، ونظمها نزولا على رغبة الأمير خديجة ، وكانت شخصية ذات منزلة أدبية مرموقة فى ذلك العصر ، فهى أخت عبد الله قطب شاه ، وقرينة محمد عادل شاه الذى كان ملكا لبيجابور بين عامى ١٦٢٦ و ١٦٥٦ ، وهى تذكرنا بعلوية الشاعر المصرى محمد عبد المطلب على الرغم من طول تلك وقصر هذه .

●●●

بتأثير من الآداب الإسلامية الأخرى ، العربية والتركية والفارسية من جانب ، والطريقة البكتاشية وأتباعها وهم شيعة من جانب آخر ، عَنى الأدب الألبانى بفاجعة كربلاء ، واستشهاد الإمام الحسين ، وكان الشاعر كامبيرى ، فيما أعرف أول من استثمر هذه الواقعة فى الشعر الألبانى ، والتى سوف تتحول إلى رافد رئيسى فيه خلال القرن التاسع عشر ، وقام بها بعد عدة محاولات تمت لترجمة

كتاب حديقة السعداء إلى اللغة الألبانية ، ليقرأ فى هذه المناسبة ولكنها لم تنجح

ويرتبط بهذا الاتجاه مدح الإمام على ، كما نجد عند الشاعر سليمان تيمانى فى قصيدة غير طويلة ، ويبلغ هذا الاتجاه قمته فى القرن التاسع عشر عند الشاعر داليب فراشرى ، وكان بكتاشى الطريقة ، فقد انتهى فى يوم الجمعة ٢١ من ربيع الآخر ١٢٥٨هـ = ١٨٤٢ م من كتابة ملحمته الضخمة " الحديقة " التى تتألف من ستة وخمسين ألف بيت من الشعر ، حول فاجعة كربلاء ، وقد حاول أن يتجاوز بها ما قام به الشاعر فضولى فى كتابه " حديقة السعداء " ، وهو ترجمة عن الفارسية كما أومأنا من قريب ، وجاء نظما ونثرا ، أما الشاعر الألبانى فجاء بها كلها شعرا ، وقسم عمله إلى عشرة فصول ، تسبقها مقدمة وتعقبها خاتمة . فى المقدمة يستعرض تاريخ البكتاشية فى ألبانيا ، ويتحدث عن أهم الشخصيات التى ساهمت فى نشرها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، وماصحب انتشاره من تطورات إلى أن يبلغ معركة كربلاء ، فيصف تفصيلا ما حدث فيها ، ويرثى شهداءها ، وعلى رأسهم الإمام الحسين .

تعبر هذه الملحمة عن التطور الذى أصاب المجتمع الألبانى فى القرن التاسع عشر ، فقد انتشرت الطريقة البكتاشية فى ألبانيا كما لم تنتشر فى قطر إسلامى آخر ، وكانت تجمع بين التصوف والتشيع ، وأدى انتشارها إلى تشكيل تقاليد شيعية فى العادات والاحتفالات منها عادة المآتم ، ويقام فى الأيام العشرة الأولى من شهر المحرم فى كل سنة ، احتفاء بذكرى شهداء كربلاء ، وخلال هذه الأيام يمتنع الألبانيون عن شرب الماء كمعايشة للعطش الذى عانى منه شهداء كربلاء ، ويذهبون إلى التكايا لاستذكار هذه الأيام ، وهم يرددون فى الطريق : " يا إمام ! ... يا إمام ! ... " . وفى التكايا تَقسم الأيام العشرة لسرد الأحداث حتى الليلة العاشرة ، التى يجرى فيها الحديث عما جرى فى كربلاء فقط ، كما تُنشد القصائد التى ترثى شهداء هذه المعركة . ومن الواضح أن تقسيم الملحمة إلى

عشرة أقسام لتوائم تقليد المأتم الذى يمتد عشرة أيام .

وقد قام أخوه الأصغر شاهين فراشرى بكتابة ملحمة أخرى ، انتهى من كتابتها عام ١٨٦٨ ، واعطاها عنوانا " مختار نامه " ، نسبة إلى المختار ، وكان من شهداء كبلاء ، وتتألف من حوالى اثنى عشر ألف بيت من الشعر ، وتعتبر الثانية فى الأدب الألبانى بعد الحديقة . وهى آخر ملحمة كتبت فى الأبجدية العربية ، لأن البكتاشية تخلوا بعد هذه الفترة عن الحرف العربى ، وبدأوا يستخدمون الأبجدية اللاتينية .

كلا الملحمتين ترك أثرا واضحا فى الأدب الألبانى ، وحتى فى عصر النهضة القومية كان حضور كربلاء واضحا فى الأدب ، وألف شاعر النهضة القومية نعيم فاشرى ملحمة " كربلاء " ، وحاول فيها أن يوفق بين حماسته القومية الطاغية وعواطفه الشيعية ، مما دفعه إلى التفكير فى تأليف ملحمة قومية . جاءت ملحمة كربلاء فى عشرة آلاف بيت من الشعر ، وصدرت عام ١٨٩٨، وفى نهايتها يكشف عن دافعه القومى ، حيث يحرض القارىء الألبانى على أن يستلهم أحداث كربلاء لصالح قومه ووطنه .

●●●

ويعرف الأدب السواحلى كثيرا من القصائد المتصلة باستشهاد الحسين وفاجعة كربلاء ، فإلى جانب تأثره بالأدب العربي ، والفارسى أحيانا ، كان شرق أفريقيا مهبط أعداد كبيرة من الشيعة ، جاءوا من إيران والهند ومدن الخليج . ولكن الأدب هناك فى أكثره ، والقليل الذى نشر منه قام به المستعمرون والمنصّرون ، واستغلوه لإشاعة الفرقة بين المسلمين ، وشحن النفوس بالعداوة والبغضاء ، ولكنهم خدموا العلم على أية حال ، فلنأخذ منهم الجانب الخيّر ، ولنترك لهم أحقادهم وشرورهم .

وصلتنا من الشعر السواحلى ، ولعل هناك قصائد أخرى مطولة كثيرة ،

قصيدة " سيدنا الحسين بن على " للشاعر حميد عبد الله بن سعد بن عبد الله بن مسعود البهرى ، والعائلة أصلا من جزيرة بمبا ، استقرت هناك فى القرن الثامن عشر ، ولكن سعيدا جد الشاعر هاجر إلى ساحل كينيا الجنوبى ، ويبدو أن الأسرة كلها كانت تتعاطى الشعر ، ولحميد قصائد أخرى غير هذه القصيدة التى نحن بصددها .

جاءت هذه المنظومة فى ألف ومئتين وتسعة أبيات ، فى شكل موشحة ، أو فى القالب المسمى فى السواحلية Tenzi ، ونشر نصها السواحلى ، وترجمه إلى اللغة الإنجليزية ، وعلق عليه ج . و . ت . ألن J . W . T. Allen ، مكتب أدب أفريقيا الشرقية ١٩٦٥ . كما أن الدكتور محمد إبراهيم محمد ، فى قسم اللغات الافريقية فى كلية اللغات والترجمة فى جامعة الأزهر ، قام بنشر نصها بالسواحلية وترجمه إلى اللغة العربية ، ولكنه بدل أن يقف عند القصيدة شعرا ، وأن يدرس جوانبها الفنية ، ومكانتها من حركة الشعر هناك ، أسرف على نفسه وعلينا فى مناقشة أفكارها الشيعية ، وهو أمر ليس مكانه الأدب ولايتسع له ، ولكنه قام بجهد مشكور ومقدر على أية حال ، وقد نشر الدراسة فى القاهرة عام ١٠٩ هـ= ١٩٨٩ م .

كأية قصيدة تعرض لمأساة الحسين رضى الله عنه ، تبدأ بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على أول خلقه ، محمد بن عبد الله ، ثم تذكر الخلفاء الراشدين الأربعة بالخير ، وتعترف بأن معاوية أحسن معاملة آل البيت ، وأوصى ابنه يزيد بحسن معاملتهم ، وحتى أوصاه بالتنازل عن الخلافة للحسين ، لأنه جده المصطفى ، وطاعته واجبة علينا .

ثم يمضى مع ذلك بالأحداث إلى نهايتها ، تلتزم الخط التاريخى فى تتابعها ، ولكن أرقام القتلى والجيوش تحتمل الكثير من المبالغة ، وذلك شأن الفن دائما ، كما أنه يوشيها بشىء من الخوارق ، فحين كان الحسين فى طريقه إلى الكوفة ، تهبط عليه الملائكة مرسلة من ربها تعرض المساعدة ، ولكنه يرفض ، ويجيئه نفر

من الجن مدججين بالسلاح بقيادة « فيجادومو » ، يضعون أنفسهم تحت إمرته ، ولكنه يأبى الاعتماد إلا على الله ، ثم تأتيه الحشرات السامة والطيور المختلفة تعرض خدماتها ، ولكنه يرفض أى عون من غير الله .

ويصل الحسين إلى الكوفة ، ثم يكون استشهاده ، وأسر أهله ، وعندما تعلم المدينة بخبره تبكيه بكاء مرا . ومن ساعتها يدخل التاريخ الإسلامى والأدبى من أوسع أبوابه .

أتيت على الأفكار الرئيسية لهذه الملحمة الحسينية لأنها مثل طيب ، لما يمكن أن يكتبه شيعي مثقف معتدل ، فالأخبار فى جملتها صحيحة ، إذا ما تجاوزنا حديث الأرقام ومافيه من مبالغة يقتضيها الفن أحيانا ، والشاعر معتدل فى عقيدته ، فلا يتناول أحد من الخلفاء الأربعة بسوء ، ولاحتى معاوية نفسه ، وهو مالانعهده ، فى كثير من قصائد رثاء الحسين الشبيهة ، وإن شابها شيء من الخوارق ، من عروض الجن والملائكة والحشرات ، وهى فيما يبدو سمات أفريقية ، إذ لانلتقى بها فى القصائد المثقفة الشبيهة ، عربية أو فارسية أو تركية أو أوردية أو ألبانية .

الأخذ والعطاء في المجال الأدبي

● العروض والموشحات :

منذ أقدم العصور التى استخدم فيها مصطلح الشعر أو مايعادله فى أية لغة للدلالة على فن من الفنون ، ارتبط مفهومه بالوزن . يقول أفلاطون فى رسالة أيون نقلا عن سقراط ، الذى يعد الإلهام أساس قول الشعر ومحركه : " إن الشعراء عندما ينشدون أشعارهم العذبة يكونون فى حالة من الوجد ، فتفتنهم أوزانها وموسيقاها وتأخذ بمجامع قلوبهم " ، وإذن فهو يرى أن الشعر ملازم للوزن والموسيقا ضرورة .

ومن بعده ألف أرسطو رسالته الشهيرة فى الشعر ، وأصبحت أساسا لكل الأبحاث التى تتناول فن الشعر ، فى الشرق والغرب على السواء ، ويفهم منها أن أرسطو يجعل الشعر فى مقابل النثر ، وأنه يعنى بالشعر الكلام الموزون ، وأن الشعر فى نظره لاينفصل عن الوزن .

واتفق أكثر النقاد العرب على أن الشعر يقوم على أربعة أركان : اللفظ والوزن والمعنى والقافية ، والوزن أولها خصوصية ، وتشاركه القافية ، ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية . ويشاركهم فى هذا العلماء أيضا فى تعريفهم للشعر ، يقول ابن سينا عن فن الشعر ، فى باب المنطق من كتابه " الشفاء " ، وهو ينقل عن رسالة الشعر لأرسطو : " إن الشعر كلام مثير للخيال ، يُعمل من أقوال موزونة ومتساوية " . ومثله قال كل العلماء الآخرين ، فهم يقيدون الشعر بالوزن .

والحق أنه إذا وجد شعر فى أى لغة من لغات العالم فهو موزون ، والشعر المنثور الذى يتحدثون عنه الآن فى العربية ليس جديدا ، فى غير لغتنا على الأقل ، وأسباب الدعوة إليه لاتختلف . فى القرن الثامن عشر ثارت جماعة من

الكتاب والأدباء فى فرنسا على الوزن والقافية ، واعتبروها قيودا زائدة لاطائل من ورائها ، وأنها تحول دون مايريد أن يقوله الشاعر ، فهو يضطر إلى ترك جزء من أفكاره من أجل الوزن والقافية ، ويزيد بعض الكلمات لأنهما يتطلبانها ، ومن الممكن إذا لم توجد هذه القيود أن يقول الشاعر مايريد فى يسر وسهولة . وكانت زوبعة فى فنجان ، أخمدها فى بصقة ظهور عظماء شعراء الرومانسية ، حين قالوا شعرا جميلا رائعا موزونا جيدا ومقفى .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت حركة أخرى فى أوربا تدعو إلى " الشعر الحر " ، قام به الشعراء أنفسهم فى هذه المرة ، ولم يكن هدفها مخالفة الوزن ، لأنهم يعترفون بأن الوزن أساس قول الشعر ، وأن صلته القرابة بين الشعر والموسيقا قوية ، ولكنهم يرون قواعد الوزن المتوارثة أضحت قيودا تحول بين الشاعر وبين الاستفادة من هذه الوسيلة كما ينبغى ، وأنها جعلت الشعر يسير على وتيرة واحدة ، وأنها مدعاة للكسل ، ولابد أن يكون الشاعر حرا ، يختار فى كل موضع الوزن الذى يراه مناسبا للمعنى المقصود ، حتى يصبح كلامه أكثر تأثيرا ، وتحل الرابطة بين المعنى والوزن محل الرابطة بين اللفظ والمعنى ، وهى دعوة صمدت أكثر من سابقتها ، ولكنها تترنح الآن ، وفى طريقها إلى التلاشى ، ولايتشبث بأذيالها إلاّ عديمو الموهبة ، والعجزة ، والفقراء فى معجمهم اللغوى ، والذين لايتوفرون على خلفية كافية ، من تراثهم الأدبى .

أصل العروض فى كل أشعار الأمم الإسلامية عربى ، وحين ألف شمس الدين محمد بن قيس الرازى كتابه « المعجم فى معايير أشعار العجم » جعله فى العروضين معا ، العربى والفارسى ، وكتبه بالعربية ، واختار أمثلته فيها ومن الفارسية ، ثم لامه بعض أدباء الفرس فقسم الكتاب إلي قسمين ، أحدهما خاص بأشعار العرب والثانى بأشعار العجم ، لكنه بعد هذا هذا كله اضطر وهو يتكلم فى العروض الفارسى أن يستند إلى شرح العروض العربى ، لأن صناعة الشعر ، فيما يقول هو عن نفسه ، من اختراع العرب ، والعجم فى كل الأبواب تابعون لا واضعون ، وناقلون لا مستقلون .

ابتدع الخليل بن أحمد العروض العربى ، والابتداع هنا لايعنى الخلق ، وإنما يعنى أنه كان أول من تأمل الشعر العربى منذ شأته حتى أيامه ، لينتهي إلى القوانين التى تحكم ايقاعه ، مستخلصا لها من الشعر نفسه ، وجاءت قوانينه التى انتهى إليها كاملة ودقيقة ومذهلة ، ولم يترك لمن جاء بعده إلا أقل القليل يستدركه عليه ، ولروعة عمله هذا ، وانبهار أهل زمانه به ، جاءت الخرافة تفسره وتوجد له سببا . فزعموا أنه كان رجلا زاهدا متعبدا (ولا شىء فى هذا) ذهب إلى الكعبة ، ودعا الله أن يهبه علما لم يعطه لأحد من قبله ، وأن الله استجاب دعاءه ، وعند ما عاد من الحج وضع علم العروض ، وهكذا ظل الكثيرون من علماء العربية يعتقدون أن الخليل بن أحمد وضع العروض العربى على غير سابقة يعرفها .

ثم جاء أبو الريحان البيروتى فألقى على قصة إكتشاف العروض العربى ضوءا كاشفا فى كتابه " تحقيق ماللهند من مقولة " ، فهو يرى أن الخليل بن أحمد استفاد من أصول علم العروض عند الهنود ، وهى إشارة لاتمس جهد الخليل ولاعبقريته فى شىء ، فما من أحد يبدأ من فراغ ، والفارق كبير بين اللغتين والعلمين ، فهو لاينقل عن الهنود عروضهم ، وإنما عرف أن لهم هذا العلم ، فحاول أن يوجده فى العربية وأوجده ، والغريب أن إشارة البيرونى هذه لم ينقلها أى كتاب عربى آخر..

ويزيد البيرونى فكرته تفصيلا ، وكلامه لا يأتى من فراغ ، فقد عاش فى الهند زمنا ، ودرس السنسكريتية ، فيعقد مقارنة بين العروضين ، السنسكريتى والعربى ويبين أوجه الشبه بينهما :

يستعمل الهنود صورا في إحصاء الحروف كتلك التي يستخدمها الخليل بن أحمد والعروضيون العرب للساكن والمتحك . وكما جعل أصحابنا قوالب من التفاعيل لتوضيح أبنية الشعر ، ووضعوا أرقاما للمتحرك والساكن فى كل قالب يعبروا بها عن الموزون ، كذلك وضع الهنود أيضا ألقابا لأنواع التركيبات الخفيفة

والثقيلة ، وتقديمها وتأخيرها ، وحفظ أنواع الوزن دون عد الحروف ، فيبنون بتلك الألقاب الوزن المفروض . وهناك تشابه بين المصطلحات اللغوية والعروضية السنسكريية ، وبين ماكان يستعمل فى العروض العربى ، ثم يعطى أمثلة على ذلك من اللغتين .

ويختم البيرونى حديثه: " والسبب فى أننى فصلت الحديث فى هذا الباب هو أن يعلم القارىء إلى أى حد وُفّق الخليل بن أحمد فى إبداع قواعد الأوزان ، ولو أنه من الممكن ، كما ظن بعض الناس ، أنه من الجائز قد سمع بأن الهنود يستخدمون بعض الموازين فى قول الشعر " .

انتهى الخليل فى دراسته إلى أن هناك خمسة عشر بحرا عروضيا هى : المتقارب والكامل والرجز والرمل والهزج والطويل والبسيط والوافر والخفيف والسريع والمنسرح والمديد والمجتث والمضارع والمقتضب . واستدرك عليه الأخفش بحر المتدارك ، وهو من البحور النادرة الاستعمال ، ومع ذلك شهرته وثبتت سمعته قصيدة الحصرى القيروانى الذائعة ، وهو من شعراء القرن الخامس الهجرى : " ياليل الصب متى غده " ، وسوف يعارضها أمير الشعراء أحمد شوقى فى عصرنا الحديث بقصيدته الجميلة ، والتى لاتقل روعة عن الأولى ، إن لم تفقها ، ومطلعها " مضناك جفاك مرقده " .

" وكل بحر من هذه البحور له عدة صور مختلفة ، اعتبروا صورة واحدة منها هى الأصلية ، ووضعوها فى دائرة وقسّموها إلى أجزاء ، واعتبروا هذه الأجزاء أيضا إما أصلية أو سالمة . ولهذا فمن الممكن حدوث أى تغيير فى هذه الصورة الأصلية أو السالمة للبحر دون تغيير كلى فى الوزن ، وعدوا هذه الصورة صورة فرعية منه أو مزاحفة أو معلولة ، واعتبروا الأجزاء التى حدث فيها التغيير أجزاء مزاحفة ، وبينوا كيفية اشتقاقها بواسطة قواعد الزحاف والعلل من الأجزاء الأصلية " .

وقد استحدثوا بعد زمن الخليل بحورا أخرى مستخرجة نظريا من الدوائر

العروضية ، دون أن يكون لها مايقابلها فى الواقع الشعرى الجيد ، والأشعار القليلة التى وردت فيها تنبىء عن نشاز فى إيقاعها ، فلا تقبلها الأذن بسهولة وربما لو أتيح لها شاعر عبقرى لصنع منها شيئا ، فنحن نعرف أن شوقى نظم قصيدة عام ١٩٠٤، بعنوان " مرقص " ، يصف فيها حفلة راقصة أقيمت بقصر عابدين ، وهى لاتخضع لنظام بحر معين ، ومع ذلك فهى رقيقة عذبة ، وإليك أبياتا منها :

مال واحتجبْ	وادعى الغضبْ
ليت هــاجرى	يشرح السبب
عــتبهُ رضى	وليتــه عتب
عـــلّ بيننا	واشيـا كذب
مـــن لمدنف	دمعه سَحب
بات متعبـا	همــه اللعب

إلى آخر القصيدة وجاءت فى وزن فاعلن فعلْ ، فاعلن فعلْ ، وهو وزن مستحدث ، ويبدو أنه لم يعجب الشاعر حافظ إبراهيم ، فنظم فيه أبياتا ساخرة :

شال وانخبط	وادعى العبطْ
ليت صاحبى	يبلع الزلط

أود أن أقول : إن الشعراء عبقرى ونابغة وشعرور . الأول يبدع ويبتكر جديدا ويطور ذوق القارىء أو المستمع ، ولكنه لايبعد به عما يحبه ، وقادر على التقاط مايتمناه الناس ولايجدونه ، وأما الثانى فبحسبه أنه يحسن السير فى الطرق الممهدة ، ويجيد الوصول إلى الغاية ، والثالث لامكان له إلا أن يثير الضحك أو يبعث على الغثاثة .

ونشأ العروض الفارسى محاكيا العروض العربى فى دوائره وبحوره

ومصطلحاته ، وإن آثر شعراء الفرس بعض الأوزان العربية ، لأنها أكثر طواعية فى لغتهم ، وأقرب إلي طباعهم ، وزادوا على بعضها الآخر ونقصوا منه . فقد أضافوا إلى البحور الستة عشر المعروفة فى الشعر العربى ثلاثة أبحر سموها : الغريب والقريب والمشاكل . وأطالوا فى بعض الأوزن ، فأجازوا فى بحر الرمل أن يكون من ثمانية أجزاء ، وهو في العروض العربى ستة أجزاء ، وقد يجىء مجزوءا فيصبح أربعة ، وتصرفوا فى الزحافات والعلل تصرفا أدى إلى توليد أضرب مستقلة عن الأوزان العربية العربية كما نجد فى الرباعى .

هناك بحور أكثر العرب من النظم فيها ، وعلى النقيض جاء نظم الفرس فيها قليلا ، كالطويل والكامل والمديد والوافر والبسيط ، على حين أكثر الفرس من النظم فى البحور التى قلل العرب منها ، كالمجتث والمضارع والمقتضب . وثمة بحور أكثر منها الفرس والعرب على السواء كالهزج والرمل والخفيف والمتقارب .

أما القافية فقد حاكوا العرب فيها ، ونقلوا عنهم مصطلحاتهم ، إلا أنهم أكثروا من القافية المزدوجة وسموها " المثنوى " ، وهو الذى يعرف فى العربية بالمزدوج ، وفيه جاءت كل المنظومات الطويلة فى اللغة الفارسية ، سواء كانت قصصية أم تعليمية ، كالشهنامة ، " وهفت أورنگ " أي العروش السبعة ، لجامى ، و " المثنوى المعنوى " لجلال الدين الرومي ، وغيرها . وهو أحب الأنماط الشعرية إلى الفرس ، ولم يمل الترك إلى النظم فيه ، ونظم العرب المتأخرون فيه وبخاصة الصوفية ، وربما بتأثير فارسى ، ولكنهم لم يبلغوا فيه مستوى عاليا ، فابن الفارض له رباعيات ، ولكنها لاتأتى فى القمة من شعره .

وعن الفارسية انتقل العروض العربى فى بعض أبحره إلى اللغة الأوردية ، كما استخدم فى اللغة السواحلية بتأثير مباشر من العرب أنفسهم .

●●●

ظلت قواعد الشعر العربى عروضا وقافية موضع الرعاية والتقدير حتى نهاية

القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، حين حدثت ثورة حقيقية على بنائها ، فيما عرف بالموشحة ، وينسب ابتداعها إلى مقدم بن معافى ، شاعر ضرير من قرطبة ، عاش فى أواخر هذا القرن ، وتوفى فى السجن فى مطلع القرن العاشر الميلادى ، ويبدو أن آخرين من معاصريه ساروا معه فى طريقه ، كابن عبد ربه ويوسف الرمادى ، وربما آخرين لانعرفهم . ويلفت النظر أن أيًا من موشحات القرن الرابع الهجرى لم تصلنا ، ربما لأنها لم تكن نضجت ، أو لأن الناس لم يتقبلوها بوصفها خروجا عن الأعراف المألوفة . وعلى أية حال فإن أول موشحة وصلتنا تعود إلى الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .

من أين جاء مقدم ببنائه الجديد ؟ . قلة تفترض وجود نماذج رومانثية شبيهة كانت شائعة بين المستعربين فى قرطبة ، تركت أثرها فى الشاعر الأندلسى فاحتذاها ، وصنع منها هذا النموذج العربى . ولكن يأتى على فرض هذه القلة ، ويذهب بقيمته تماما ، أنها لم تستطيع أن تقدم لنا نموذجا واحدا لهذه الأغانى التى افترضت شيوعها فى قرطبة ، عاصمة الأندلس خلال عصور الإمارة والخلافة والحجابة . وترى أغلبية الباحثين أن شكل الموشحة يعود فى جوهره إلى القصيدة المسمطة ، وأقدم أشكالها يعود إلى أبى نواس ، وهناك من يبالغ فيعود به إلى امرىء القيس ، ومن هذا الشكل خلق أعمى قبرة نوعا أدبيا جديدا ، ابتداع أندلسى خالص لم يسبق إليه ، سوف ينمو ويتطور ويزدهر فى القرن الحادى عشر الميلادى على أيدى كبار الوشاحين : عبادة القزاز ، وبنى زهر ، والأعمى التطيلى والفيلسوف ابن باجة ، وآخرين كثيرين .

يتكون الموشح من أدوار ، وكل دور من أجزاء ، لكل جزء منها اسم خاص ، وتختلف المصادر القديمة والحديثة فى تسميتها ، وسوف أوثر التسمية التى اتخذت شكلا عالميا ، تسهيلا لمن يودون المقارنة بين الموشح فى أية لغات إسلامية ، وبينه فى اللغات الأخرى غير الإسلامية ، التى ترك فيها تأثيرا واضحا فى نهاية العصر الوسيط وأوائل عصر النهضة الأوربيين ، كالإسبانية

والبروفنسالية والبرتغالية والكتالونية والإيطالية والعبرية ، وربما لغات أخري ، ولنذكر الأبيات التالية من موشح لابن شرف (ت ٤٦٠ هـ) :

- ١ -

شمسٌ قارنتْ بدرا راح ونديم

أدرْ أكؤسَ الخمرِ

عنبريّة النشر

إن الروض ذو بشر

وقد درّع النهـــرا هبوب النسيم

- ٢ -

وسلتْ على الأفقِ

يد الغرب والشرق

سيوفاً من البرق

وقد أضحك الزهرا بكاءَ الغيومْ

هذه الفقرة من موشح ابن شرف تمثل دورين ، الموشح يتكون عادة من عدة أدوار ، فى البدء كانت لاتزيد على سبعة ثم استطالت مع الزمن حتى جاوزت الثلاثين . والدور الأول فى الموشح البسيط إذا كان كاملا يتكون من سبعة أبيات ذلك لأن شطر البيت فى القصيدة العادية يسمى فى الموشح بيتا ، ومابعده من أدوار تجىء فى ستة أبيات . ونَلاحظ أن ابن سعيد وابن خلدون يسميان الدور بيتا .

فى الدور الأول البيتان الأوّلان ، يسميان اصطلاحا بالمركز أو المطلع ، ويلى المركز ثلاثة أبيات متحدة القافية فيما بينها ، أسميها الأغصان ، ويستخدم ابن

سناء الملك مصطلح البيت بدل الأغصان ، ثم نأتى إلى البيتين الأخيرين ، وقافيتهما تتفق مع قافية المركز ، وتختلف عن قافية الأغصان ، وأسميها القفل ويسميها ابن سعيد وابن خلدون وابن سناء الملك بالسمط .

ويتكرر الدور علي هذا النحو ، أغصان متفقة القافية فيما بينها ، ولكنها مستقلة فى قافيتها عن الأغصان التى سبقتها والأغصان التى تأتى بعدها ، يعقبها قفل تتفق قافيته مع القفل الذى سبقه ومع المركز ، فمهما تعددت الأقفال فى الموشحة ، ولكل دور قفل ، فان قافيتها تكون واحدة ، ونلحظ فى هذا البناء البسيط ، أن مابعد الدور الأول لامركز له ، وإذن ينقص عددها بيتا ، وأعداد الأبيات فى كل دور لابد أن تكون واحدة ، لاتزيد ولاتنقص ، وآخر قفل فى الموشحة يسمي خرجة ، وأعطى اسما خاصا به لأن له طابعا محدّدا عند بعض الوشاحين : أن تجيء كلماته عامية ، أو رومانثية ، وحتى سوقية .

قلت هذا أبسط شكل للموشحة ، ولكنها مع الزمن تطورت ، وتعقّدت ، زادت أبيات المركز ، وأبيات الأغصان ، وأبيات الأقفال تجيء بالضرورة فى عدد أبيات المركز ، وأصبحت الأبيات أحيانا تتضمن قوافى داخلية ونعطى لها مثالا دورا من موشحه لابن زهر (ت ٥٩٥ هـ) ، تتضح الفكرة من خلاله :

ماللملـــــوله — من سكـره لايفيــقْ — يالـــــه سكرانْ
من غير خمــر — يا للكئيب المشــوق — يندب الأوطان

هل تستعــــادْ — أيامنـــــا بالخليج — وليـــــــالينا
إذ يستفــــادْ — من النسيـم الأريج — مسك دارينـــا
وإذ يكـــــادْ — حسن المكان البهيج — أن يحييـــــنا

نهر أظلـــــهْ — دوح عليــــه أنيقْ — مورقٌ الأفنــانْ
والماء يجـــرى — وعائــــم وغريقْ — من جنى الريـان

يعتبر الموشح كاملا إذا تضمن مركزا ، ويسمونه أقرع إذا جاء بدونه ، ويبدأ بالأغصان مباشرة وابن عربى يسمى المركز " رأسا " ، وأحيانا " منقالا " .

بحكم العلاقة والجغرافيا انتقل الموشح فى البداية إلى المغرب ، إذ كانت العلاقة بين البلدين قوية دائما ، وأوائل الوشاحين من شمال أفريقيا ، من أفريقية وصقلية ، كانوا لائذين بالأندلس ، وفى عصرى المرابطين والموحدين أصبح الأندلس مقاطعة مغربية ، فآثر بعض الأندلسيين الحياة فى المغرب ، ولو لزمن ، حيث العاصمة السياسية ، أو إلى أفريقية أو المغرب الأوسط ، فى قلعة بني حماد ، حيث وجدوا حظوة ورعاية ، ووجدت موشحاتهم إقبالا شعبيا ورواجا لأن الموسيقيين الشعبيين اتكأوا عليها ، ولايزال الفن الذى يتخذ من الموشحات أغانيه مزدهرا على امتداد شمال أفريقيا كله حتى يومنا هذا .

وعرفت مصر الموشحات فى زمن مبكر ، ربما فى أواخر العصر الفاطمى ، إذ كانت محط الأندلسيين الذاهبين إلى الحج والعائدين منه ، ومركزا هاما للمبادلات التجارية بين الأندلس والمشرق ، كما أن الفنانين المصريين قاموا بدور هام فى الحركة الفنية فى الأندلس ، وبخاصة فيما يتصل بخيال الظل ، والتفتوا إلى الموشحات فى زمن باكر ، ومن مصر إلى الشام ، وكانت هذه جزءا من الدولة المصرية ، وجاء كتاب « دار الطراز فى عمل الموشحات » لابن سناء الملك ، المتوفى عام ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م ، شاهدا على هذه العناية المبكرة ، فهو أقدم مصدر أرّخ لهذا الفن ، ولو أن المصطلحات اضطربت بين يديه بعض الشىء ، فهو أولا وأخيرا مصرى وليس أندلسيا .

كان الصوفية هم الذين حملوا الموشحات شرقا وغربا ، ونقلوها إلى شتى اللغات الإسلامية ، وفيها كتب الزهاد مكفّراتهم ، وكان ابن عربى أول متصوف عظيم وظف الموشح دينيا ، وشهر بأنه عارض كثيرا موشحات مواطنيه ، وحتى أزجال ابن قزمان موشحات صب فيها أفكاره الدينية ، ويليه الششترى (ت٦٦٨هـ) وله ديوان موشحات كامل نشره محققا الدكتور على سامى النشار

وهو أقرب إلى الأزجال منه إلى الموشحات ، وشاعت موشحاته على نطاق واسع طوال القرون التى تلته .

فى خط مواز تام اشتهرت موشحات كُتبت فى عامية أهل الأندلس ، وحملت اسم « الزجل » ، وهى والموشحات صنوان ، بناء وتركيبا ومصطلحات ، ولايفترقان إلاّ فى اللغة فحسب ، الموشح كتب فى العربية الفصحى ، والزجل كُتب فى العامية الدارجة ، ووصلنا منه ديوان كامل لابن قزمان الشهير ، المتوفى حول عام ٥٥٥ هـ = ١١٥٩ م ، ويعكس عامية قرطبة فى القرن الثانى عشر الميلادى كأوضح مايكون .

لم تدرس بعد أوزان الموشحات دراسة منهجية علمية تقوم على الاستقراء ، والسبب واضح ، فمثل هذا العمل الضخم أكبر من طاقة أى فرد ، ولابد أن تضطلع به هيئة تخطط وتنظم وتوجه ، وتوزع الأدوار ، وتستخدم منجزات العلم الحديث فى الجمع والحفظ واسترداد المعلومات ، لأن الموشحات كثيرة بلا حدود ، وأنواعها صعبة الحصر ، وجانب كبير منها لمّا يزل مخطوطا ، ومزعا على مكتبات العالم المختلفة .

بدهى أن جانبا لا بأس به منها التزم البحور العربية المعروفة ، ولكننا نلتقى بمن خرج عليها بزيادة حرف أو كلمة فى موضع أو مواضع ، يقول ابن بقى الوشاح الأندلسى الشهير :

صبرت ، والصبر شيمة العانى   ولم أقل للمطيل هجرانى : معذبى كفانى

فالبيت من المنسرح ، وعبارة « معذبى كفانى » زائدة ، ويمكن اعتبارها تضمينا نثريا ، أو توظيفا جديدا لظاهرة الخرم ، التى تعنى اصطلاحا زيادة فى أول البيت لايعتد بها فى التقطيع .

وقد حاول المستشرق الألمانى هارتمان فى كتابه عن « الموشحات » ، وهو أول دراسة فى العصر الحديث يقوم بها باحث ، عربى أو أجنبى ، أن يحصر أوزان

الموشحات التى تأخذ شكلا شعريا ، فانتهى إلى مئة وستة وأربعين موشحا فاذا عرفنا أن المؤلف وكتابه ينتميان إلى القرن الماضى ، وأن مئات المخطوطات التى تتضمن موشحات كانت مجهولة له ، وعُرفت الآن ، أدركنا أن أوزانا أخرى كثيرة يمكن أن تضاف إلى ما انتهى إليه .

وهناك نوع من الموشحات كُتب بدءاً ليغنى ، فارتبط بالتلحين الموسيقى ، فإذا قرأته مستقلا عن سماعه موقعا لم تجد له نغما ولا إيقاعا ، لأن المعول فيه طريقة الأداء ، وما يحدثه المغنى من تغييرات حين يمط الحروف التى ليس من حقها هذا المط ، أو ما يضيف من كلمات أو حروف إلى النص أثناء الغناء ليستقيم اللحن ، من مثل : آه ... آه ... ياليل ، ولعل هذا هو ماعناه ابن سناء الملك حين يقول :

" والقسم الثانى من الموشحات هو مالا مدخل لشىء منه فى شىء من أوزان العرب . وهذا القسم منها هو الكثير ، والجم الغفير ، والعدد الذى لاينحصر ، والشارد الذى لايضبط . وكنت أردت أن أقيم لها عروضا يكون دفترا لحسابها ، وميزانا لأوتادها وأسبابها ، فعز ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر ، وانفلاتها عن الكف ، وما لها من عروض إلا التلحين ، ولاضرب إلا الضرب ، ولا أوتاد إلا الملاوى ، ولا أسباب إلا الأوتار " . ومثاله قول الوشاح الأندلسى الشهير عبادة القزاز (ت ٥٠٠هـ) :

رُحْ الراح وباكر بالمُعلَم المُشوق غبوقاً وصبوح على الوتر الفصيح

ليس اسم الخمــــر عندى مأخوذا فاعلـــم

إلا من خـــاء الخــد ومیم المبســـم

وراء ريــق الشـــهد العاطر الفـــم

فكن للهم هاجر وصل هذى الحروف كى تغدو وتروح بجسم له روح

بالله سقّنيـــــــــــها	فى ود الواثـــــق
إن منه فيـــــــــها	شبه الخلايـــــق
من أعدم الشبيـــــــها	فى المجد الباســـق

له من المفاخر تليد وطريف دَوْحٌ من عهد نوح وروضة تفوح

وقد انتقل بناء الموشحات إلى كل الآداب الإسلامية ، عن طريق استخدام الصوفية له ، عن الفارسية أو عن العربية مباشرة ، ونحن نلتقى به فى التركية والأوردية والسواحلية فضلا عن الفارسية ، وهو فى العربية يجىء كاملا وأقرع ، أى دون مركز ، ولكنه فى الآداب الإسلامية يجىء أقرع دائما ، وهو نوعان : أن يتكرر القفل بعينه فى نهاية كل دور ، وحينئذ يسمى « ترجيع بند » ، أما إذا كان القفل بيتا جديدا ولكنه متفق القافية مع كل الأقفال فيسمى " تركيب بند ".

أبيات الأدوار فى العربية متساوية العدد ، أما فى الفارسية فقد تتفاوت ، كما أن القفل فيها يكون على الدوام بيتا واحدا ، على حين أنه فى العربية يأخذ أشكالا مختلفة ، والمطلع فى الفارسية ، شأن الشعر الحق ، يكون مصرعا ، والتصريع ليس شرطا فى الموشحة العربية .

وقد استخدم الشعراء الترك الموشحات فى الرثاء على حين أن هذا نادر فى العربية ، وأظهر مثل لها عند الترك مرثية الشاعر محمود عبد الباقى فى السلطان سليمان القانونى ، وتعد عندهم من خرائد الشعر التركى .

● المقامات :

المقامة شبه قصة قصيرة ، تدور حول بطل وهمى ، يروى أخباره راوية ، وهمى أيضا ، وبطلها رجل أحكم التحيل ، وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق فأخباره تدور حول الكدية والخداع ، والاحتيال والتمويه ، لاتربطها وحدة موضوعية ، ولا تحييها شخصية حقيقية ، وإنما هى ميدان لعرض النكتة ،

وإظهار البراعة فى التخلص من مآزق الحياة ، وإظهار المقدرة اللغوية . تجمع شوارد اللغة ، ونوادر التراكيب ، فى أسلوب مسجوع أنيق ، يعجب أكثر مما يؤثر ، ويلذ أكثر مما يفيد .

تدور المقامة حول حدث عادى ، يُسند إلى شخص معين ، يسمى فى اصطلاح الفن القصصى بالبطل ، كأبى زيد السروجى فى مقامات الحريرى ، وأبى الفتح الإسكندرى فى مقامات البديع . وبين هذا البطل ورجل آخر صلة وثيقة ، ومعرفة قديمة ، فهو يراه فى كل حادث ويسمعه فى كل مجلس ، ثم يروى للناس ما عليه من خير أو شر . ذلك الراوى هو عيسى بن هشام فى مقامات البديع ، والحارث بن همام فى مقامات الحريرى : لكنت المقامة تخلو من الصراع والعقدة ، وهما أهم مميزات القصة ، وتجاوزت الرواية الشخصية تحلل نفسيتها ، وتدرس أخلاقها فهى إجمالاً حِيَل تفسر حياة منكد ، ألفت على صورة واحدة ، وانصرف كاتبها عن الموضوع إلى الأسلوب ، يعرض للموعظة ، ويهتم بالنكتة المستملحة ، وينثر بين سطورها الألغاز اللغوية والنحوية ، وكل ذلك فى لغة جزلة ، كثيرة الغريب ، وأسلوب سجع محكم الوزن .

على غير الشائع بين الكتاب والنقاد فإن مبتدع المقامات هو ابن دريد الأزدى وقول الحصرى القيروانى ، وهو من مؤرخى القرن الخامس الهجرى ، فى كتابه «زهر الآداب » : إن بديع الزمان الهمذانى « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارض أعجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولاترفع له حجبها الأسماع ، وتوسع فيها ، إذ صرّف ألفاظها ومعانيها ، فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضتَها بأربع مئة مقامة فى الكدية و تذوب ظَرْفا ، وتقطر حسنا ، لامناسبة بين المقامتين لفظا ولامعنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها بين رجلين سمّى أحداهما عيسى بن هشام

والآخر أبا الفتح الإسكندرانى ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر ، فى معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص الآخر بالرواية » .

ربما كان وراء إغفال ابن دريد أنه أسماها أحاديث ، وأنها ضاعت ، لم يبق منها إلا ما قبله الرواة ، على حين أن الناس حين قبلوا هذا اللون الأدبى وفتنوا به أسموه مقامات ، فراج فى ظل هذه التسمية ، وأهملوا ماكان من ألوان أخرى شبيهة به ولكنها لاتحمل اسمه . غير أننا نظلم ابن دريد حين نريده أن يبلغ فى أحاديثه مبلغ الذين احتذوه ، لأنهم جاءوا بعده ، ووجدوا الطريق ممهدا ، فأفادوا منه وحسنوا أعمالهم وطوروها ، بعد أن مهد لهم السبل وذلل الصعاب ، إلى جانب أن ابن دريد كان موزع العقل والعاطفة ، فهو شاعر مجيد ، ولغوى فذ ، ونحوى متميز ، والفن يتطلب من صاحبه تفرغا كاملا له ، واهتماما به وحده دون غيره .

جاءت مقامات بديع الزمان (٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م) فى إحدى وخمسين مقامة ، وبطلها أبو الفتح الإسكندرى عاقل ذو ثقافة واسة ، يقول الشعر الرائع ، ويسلك أوعر المسالك فى اللغة والنقد والأدب ، ويخرج منها مطمئنا إلى علمه ، معتمدا على سداد رأيه ، ولاتصرعه صعوبة ، ولا تفوته حيلة ، وقد خبر الحياة وذاق حلوها ومرها ، وسعى فى الاحتيال على الدهر القاسى ، بشتى طرق الكُدية وعرَض نفسه لشتى المواقف ، فهو خطيب يتحدث إلى الجماهير تارة ، وهوَ مشعوذ يضحكهم بألاعيبه ومكره وكذبه تارة أخرى ، تراه فى المقامة الساسانية زعيما لجماعة من بنى ساسان ، وفى الخمرية إماما يصلى بالناس ، وفى القزوينية فى زى الغزاة المجاهدين ، وفى القردية قرّادا يرقص قرده ، وفى الموصلية دجالا يدعى إحياء الموتى ، عملا بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، لقد قسا عليه الدهر كما قسا على غيره من أهل العلم والأدب ، فتصعلك وتسوّل ، وامتهن الكدية ، ولم يترك مدينة فى ما حوله إلا رحل إليها يطلب الرزق ، وعاد فى كل الأحوال خاوى الوفاض .

بعض مقامات الحريرى جاءت فى أسلوب شائق ، يكسف بهجته أحياناً الإطناب المتكلف ، والزخرفة المصنوعة ، والرغبة الملحة فى التعليم ، وينطوى بعضها على قصص طريف نابض بالحياة ، ولايخلو من روعة ومتعة ، ويعكس ظرف المؤلف وخفة روحه .

ووضع الحريرى (ت ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) خمسين مقامة ، وبطل مقاماته أبو زيد السروجى من أهل الكدية الذين احترفوا التسوّل ، ووسيلته فيها فصاحة لسانه وسحر بيانه ، وتشبه مقامات الهمذانى من حيث النزعة التعليمية ، وتفوقها فى ذلك ، ولكن مقامات الهمذانى أسهل مأخذا ، وأقل تكلفا ، وأكثر ابتكارا للحوادث ، على حين يغلو الحريرى فى السجع والتعقيد ، وتحفل مقاماته بالكنايات التى تشبه الألغاز ، وبالأحاجى النحوية ، والمسائل الفقهية ، والفتاوى اللغوية ، والغريب من الألفاظ ، واستحدث فيها من فنون العبث اللغوى الجمل التى تقرأ طردا وعكسا من غير أن يتغير معناها ، مثل قوله : « كبّر رجاء أجر ربك » ، واستخدم أحيانا جملا كاملة خلت حروفها من الإعجام ، أو جاءت معجمه كلها ، وخلب بهذه الأساليب عقول معاصريه ، ومن أتوا بعده من هواة الألغاز والأحاجى فى عصر الاحتضار .

كانت المقامة تجديدا فى القرن الرابع الهجرى ، ومعها بلغ النثر الفنى فى اللغة العربية قمة الإحكام والصنعة ، فى ذوق العصر الذى شهد مولدها ، وكان انتشارها عبر بقية العالم الإسلامى سريعا ، فقد بلغت الأندلس أقصى حدوده فى الغرب شمالا عام ١٠٠٨م ، أى نفس العام الذى توفى فيه الهمذانى ، حملها إليه يوسف بن على القضاعى ، وفى الأندلس كتب أحمد بن عبد المنعم القيسى الشريشى أو فى شرح لمقامات الحريرى حتى يومنا هذا ، وحاول كثيرون تقليدها ولأغراض شتى ، ولاتزال تكتب فى العربية حتى يومنا هذا ، وإن اختلف

●●●

المقامات من الأنواع الأدبية التى لم تنتشر فى اللغات الإسلامية باستثناء

الأدب الفارسى ، رغم أنها كانت ذات أثر واضح فى الآداب الأوربية ، والأدب العبرى . وكانت وراء نشأة أدب الصعلكة Picarisque فى إسبانيا أولا ، وفى بقية البلاد الأوربية آخرا ، وهو الأدب الذى وضع الرواية الأوربية على الأرض الواقع ، وانتشلها من عالم المغامرات والجن والسحرة .

كان طبيعيا أن يتأثر الأدب الفارسى بفن المقامة ، ويبدو أن هناك أذواقا ومواطن تتقبلها بسهولة ، فعلى حدود فارس كانت البداية ، لأن ابن دريد ، وهو أزدى أصلا أمضى جل حياته فى البصرة ، وهى على الحدود الإيرانية العراقية ، وقضى جانبا منها فى إيران نفسها ، والهمذانى من همذان وهى مدينة فارسية ، لكن يلفت النظر أيضا أنها لم تنتشر على النحو الذى انتشرت عليه فى اللغة العربية .

أول مقامات فى اللغة الفارسية وضعها القاضى حميد الدين أبو بكر البلخى (ت ٥٦٠ هـ = ١١٦٤ م) ، من قضاة بلخ وأدبائها المشهورين ، وأراد بها أن يناظر مقامات الحريرى وبديع الزمان ، ويعترف بهذا فى مقدمة الكتاب ، وتعتبر نموذجا للبلاغة وجودة الأسلوب فى عصرها . وهى لاتبلغ مابلغته المقامات العربية من حيث الموضوع ، وقوة السبك ، والبراعة فى الأداء ، ومع ذلك حازت إعجاب الفرس وتقديرهم .

بعض هذه المقامات أقرب إلى أن يكون ضربا من المناظرات ، كالمقامة المتعلقة بالمشيب والشباب ، أو المتعلقة بالسنى والشيعى ، أو بالطبيب و المنجم ، وبعضها يتحدث عن موضوعات مختلفة كالربيع والحب ، والخريف والجنون ، والبعض الآخر عبارة عن ألغاز أو أحاج أو معميات ، أو يتناول موضوعات فقهية ، أو تأملات صوفية ، وهناك مقامتان من النوع الوصفى ، وصف فيهما المؤلف مدينتى بلخ وسمرقند .

تختلف مقامات الحميدى عن المقامات العربية فى عدة أمور ، منها : أنه لايروى عن شخص معين كما روى بديع الزمان عن عيسى ابن هشام ، أو كما

روى الحريرى عن الحارث بن همام ، وأن مقاماته لاتدور حول بطل معين كما دارت مقامات البديع على أبى الفتح الإسكندرى ومقامات الحريرى على أبى زيد السروجى ، وإنما تحتل شخصية المؤلف المكان لأول ، ويروى الأحداث عن كثير من أصدقائه لم يذكر أسماءهم ، ويتعدد الأبطال فى مقاماته وتتغير أحوالهم .

● **كليلة ودمنة :**

كتب قليلة فى العالم فرضت نفسها على الآداب كلها ، فترجمت إلى أندر اللغات وأغربها ، ودخلت فى نسيج قصصها ، كما كان لكليلة ودمنة .

أصل الكتاب هندى ، جاءوا به إلي إيران فى القرن السادس الميلادى أثناء حكم كسرى أنوشروان ، ثم ترجموه إلى اللغة البهلوية ، وزاد عليه الفرس عدة أبواب منها " باب بعثة برزويه " و " باب ملك الجرذان " ، كما أنهم لخصوا القصص أو حوروها لتطابق مزاجهم ، ثم نقلت هذه مباشرة إلى السريانية القديمة عام ٥٧٠م .

كما قام ابن المقفع بترجمة الكتاب إلى العربية حوالى عام ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م ، وكل ترجمات كليلة ودمنة التى فى العالم منقولة عن الترجمة العربية مباشرة أو عن طريق لغة وسيطة ، ماعدا النسخة التبتية ، فقد نقلت عن النسخة السنسكريتية مباشرة . وقد ترجم كاملا إلى الفارسية وإلى التركية ، أما بقية اللغات الإسلامية الأخرى فنقلت منه قصصا بعينها .

أقدم الترجمات الفارسية قام بها الردوكى السمرقندى ، وترجمها نظما ، وأجيز عليها من الأمير نصر بن أحمد الساماني بأربعين ألف درهم ، وفقدت تلك المنظومة ، ولكن وصلتنا نبذ منها فى كتاب " فرهنگ لغات فرس " أى قاموس الكلمات الفارسية لأبى نصر على بن أحمد الأسدى الطوسى ، وفى كتاب " تحفة الملوك " . كما قام بترجمتها أيضا أبو المعالى نصر الله بن عبد الحميد سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م، فى عهد السلطان بهرامشاه الغزنوى ، وقدم نصر الله الكتاب

إلى السلطان ، وزاد عليه أمثالا وأشعارا فارسية وعربية ، وصاغها فى أسلوب من النثر الجيد ، حتى أنها لتعد من كتب الأدب الفارسى ، ولقيت إعجابا كبيرا فى إيران ، راعتبرها بعضهم مثالا للفصاحة والبلاغة .

أفضل الترجمات الفارسية هى التى قام بها حسين واعظ الكاشفى ، وأسماها " أنور سهيلى " ، باسم الأمير أحمد سهيلى ، من أمراء هراة ، وفرغ من ترجمتها عام ٩٠٠ هـ ، ويبدو أنه كان يهدف إلى تبسيط نسخة أبى المعالى نصر الله وإذاعتها ، فأعاد كتابته ، وغير أسلوبه ، وعرضه فى عبارة جيدة وسبك متين ، وتوخى أن يجعله من السهل الممتنع ، وأحلّ أشعارا فارسية محل أشعاره العربية وزوّده بأمثلة تتردد على ألسنة الفرس . على أن هناك من يرى غير هذا الرأى من مؤرخى الأدب ، تبعا لموقفهم من الرجل نفسه ، فهم يرونه أكثر تكلفا ، وفيه زيادات ومبالغات ، وكلمات غامضة ، ومجازات بعيدة ، وهو مثل حى لأسلوب التكلف والتصنع .

وعن نسخة حسين واعظ قام بإعادة صياغته فى أسلوب فارسية الهند ، وتتسم بزخرفة القول ، والمحسنات اللفظية ، وحملت عنوان " عيار دانش " ، وقام بها أبو الفضل الهندى للسلطان أكبر عام ٩٩٦ هـ .

وله فى التركية تراجم متعددة ، ولكن أفضلها هى التى قام بها على جلبى للسلطان سليمان الأول ، باسم " همايون نامه " ، أى الكتاب الملكى ، ومترجمه من أدباء القرن العاشر الهجرى .

فى اللغة السواحلية لم يترجم الكتاب كلاً ، ولكن بعضا من حكاياته ترجمت ، بعد تحوير القصة بما يلائم البيئة الأفريقية ، فهم - مثلا - يستبدلون شجرة جوز الهند بشجرة التين ، ونجد ترجمة لقصة " حمار العسال " و " القرد والغيلم " و " البوم و الغربان " ، وحكايات أخرى . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن أدب الهوسا ، فأنه يعرف حكايات كليلة ودمنة مترجمة ، تروى شفاها ، وقد تتناثر فى عدد من الكتب ، ولم يجمعها كتاب واحد .

بقى أن نشير إلى أنه إلى جوار ترجة ابن المقفع النثرية ، عرف عددا من المنظومات فى اللغة العربية ، فقد ظمه شعرا إبان اللاحقى وضاعت هذه الترجمة ، وبقي منها فى كتاب " الأوراق " للصولى نحو ثمانين بيتا ، وابن الهبارية ، وسهل بن نوبخت وجلال الدين الحسن بن أحمد النقاش ، وعبد المؤمن بن الحسن بن الحسين بن الصاغانى ، وهذا الأخير أعطى كتابه عنوان " غرة الحكم فى أمثال الهنود والعجم " .

يتضمن كتاب كليلة ودمنة حكايات على ألسنة الطير والحيوانات ، غير أن هذه كانت سبيلا لغايات أخرى ، يجىء فى مقدمتها توضيح قوانين العمل للحكام ، ملوكا أو أمراء أو سلاطين ، وقد فصل القول فى هذا ، وقدم لهم نماذج مختلفة ، لكى يجد كل واحد منهم نفسه فى الكتاب فيأخذ درسا مما يرويه ، وبعض أبواب الكتاب تضمن قانونا كاملا لتصرف الملوك ، كباب الأسد وابن آوى .

وهو يوصى الحاكم ، أيّا كان اسمه ، أن يتسم بالحلم والعقل ، والتأنى عند الغضب ، وحفظ العهد والوفاء ، ووضع المعروف والإحسان فى موضعهما ، وحسن السيرة ، وحسن السياسة الداخلية فى انتخاب الأعوان ، والحرص على الأمناء منهم ، وعدم الإكراه فى انتخاب العمال ، والوقوف على صفات العمال والأعوان ومواهبهم وتوجيه كلٍّ إلى مايوافقه ، وتفقد العمال والأعمال والمكافأة ، والاستشارة ، وتحصين الأسوار ، والعدل ، وحسن السياسة الخارجية ، وتفضيل السلم على الحرب ، وحسن اختيار السفراء ، وأن يعلم مايجرى فى دولته .

كما تحتل الصداقة مكانا واضحا فى الكتاب ، وباب " الحمامة المطوقة "يمثلها أحسن تمثيل ، ويوضحها أجمل إيضاح ، ويعرض إلى ضرورة الصداقة ومنافعهافى الحياة ، وشروط عقدها ، وطرق تقويتها ، ويذكر ثلاثة أشياء تزداد بها الصلة بين الأصدقاد وتقوى : المؤاكلة ، والزيارة فى البيت ، ومعرفة الأهل والحشم . ويراها نوعين : بتبادل ذات النفس ، أى السريرة المضمرة ، أو بتبادل

ذات اليد ، أى المساعدة ، والأولي هي المصافاة ، وهى أفضل من الثانية . ثم يميز بين الصداقة الخالصة والصداقة الكاذبة ، ويجعل الغدر بين الأصدقاء كفرا ، ويطلب أن يُفضل الصديق على الذات كما فعلت المطوقة .

وتتجلي قيمة الكتاب التاريخية فيما يعكسه من أخبار واضعية ومترجمة وعقلياتهم ، من هند وفرس وعرب ، فمنه نعرف كيف ينظر الهنود إلي الدنيا والآخرة ، ويكشف لنا عن الكثير من عاداتهم ونزعاتهم ، وأحوالهم الاجتماعية ، كالعداوة بين البراهمة والبوذية ، وتحريم اللحم والتغذى بالفاكهة والنظرة السيئة إلى المرأة . فى حين يقدم لنا الفرس من خلال نظرتهم الزهدية ومثلهم العليا ، وفتوحات الأسكندر وما خلّفت فى الشرق من أساطير ، وعلى بلاطات الملوك القدماء وما كان يحدث فيها من نميمة وسعايات ومكائد ، وعلى بعض أحوال الأمة العربية فى عهد ابن المقفع وماكانت تحتاجه من إصلاح .

من الناحية الفلسفية يمكن القول إنه كان يهدف بدءا إلى توقير العقل ، وتهذيب السيرة ، وحكمته فى مجملها غير مادية ، وإنما هى مبنية على الرحمة وحب الخير ، وبث الفضيلة ، ومساعدة الناس . وفيها تلتقى الفلسفات القديمة ، يونانية وهندية وفارسية ممتزجة ومتكاملة ، فالعقل اليونانى تقسيمه ومنطقه ، والهندى والفارسى بمثله العليا ، ونزعته إلى الزهد والتصوف . والقدر عنده أصل كل شيء ، ويسوّد التشاؤم صحيفة الملوك ، وهو يسيء الظن بالناس عموما وبالمرأة بخاصة ، ويجعل الفقر أصل كل بلاء . وهو لايخلو من بعض التناقضً فيما يدعو إليه . أليست الطبيعة الإنسانية نفسها متناقضة ؟

جاء أسلوبه جديدا فى اللغة العربية ، كما يقول ابن المقفع نفسه فى الأدب الصغير : " إذا جُعل الكلام مثلا ، كان ذلك أوضح للمنطق ، وأبين فى المعنى ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعُوب الحديث " . وعلى هذا الأسلوب أتى كتاب كليلة ودمنة ، فأدخل فى الأدب العربى ، وفى الآداب كلها إذا شئت ، تفصيل القصص على ألسنة الحيوان ، ووضع الحكم على لسانها ، وتقديم العلم والنصح فى ثوب

من الفكاهة و اللهو ، وكثرت فيه الحكايات المتواصلة وتداخلت ، وأصبحت فنا من فنون البلاغة ، تحمل القارىء على ألاّ يقف عند مثل واحد ، وإنما يتابع بقية الأمثلة ليقف على نتيجتها كلها .

وجاء هذا الأسلوب القصصى ممتزجا بالمنطق ، وبالحوار ، فبعث فيه هذا حيوية تدفع الملل عن قارئه ، فقد يثقل المنطق أحيانا ، ويطول الاستطراد فيمل ، وترتيب الأبواب ، وبداياتها تتشابه ، فتصبح رتيبة ثقيلة ، ويجد المثل مكانا فسيحا عبر كل الحكايات ، يجىء قصيرا متوترا غالبا ، ويطول فيفقد بهجته أحيانا .

المأثورات الشعبية

● مجنون ليلى :

تجيء قصة مجنون ليلى وسطا بين التاريخ والقصة الشعبية ، وهي إلى هذه أقرب ، ولذلك جئت بها في هذا الفصل ، وحتى الواقع التاريخي الذي تقوم عليه يجيء غائما ، ضائعا في ضباب الروايات المختلفة والمتناقضة ، لايلتقي اثنان عند جزئية منه . أما شعبيا فقد شغلت القصة مساحة واسعة من الاهتمام والأخبار ، وقد اختلف الرواة في وجود المجنون وصحة نسبه ، وفي كثير مما رووا من أشعاره ، هم في هذا يتفاوتون تفاوتا بعيدا .

منهم من يؤكد أنه لم يصح له اسم ولا نسب ، ولم يعرف إلا بالاسم فحسب ، وأن قبيلة بني عامر سئلت عنه بطنا بطنا فأنكرته ، وشعره منحول عليه . وآخرون يرون أنه لم يكن هناك مجنون واحد ، وإنما مجانين كثيرون ، استخف عقولهم العشق فعرف كل واحد منهم بالمجنون ، فما روي من أخبار وأشعار في هذا الباب ليس لواحد ،إنما لجماعة منهم .

وهناك من يرى المجنون شخصية حقيقية ، ولكن نسب إليه من الشعر أكثر مما قال . يقول الجاحظ : " ماترك الناس شعرا مجهول القائل قيل في ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ، ولا شعرا هذه سبيله قيل في لبنى إلا نسبوه إلى قيس " .

تاريخيا نحن نستمد أخبارنا عن المجنون من الروايات المستفيضة التي وردت عنه في " الأغاني " ، والأقل استفاضة في كتاب " الفهرست " ، وهما متعاصران والكتاب الوحيد الذي احتفى بالقصة ، واختص بها هو كتاب " حكاية قصة المجنون " لأبي بكر الوالبي ، وبلغ شهرة واسعة في البلاد العربية وفارس ، وتوجد له مخطوطات عديدة ، يتضمن بعضها ترجمة فارسية مكتوبة بين السطور ، ومع ذلك فالقيمة الحقيقية للكتاب لاتناسب شهرته ، فلم يصلنا شيء عن المؤلف ، ولو أنه لاسبيل إلى الشك فيه ، ولا عن تاريخ تأليف الكتاب ، وإن كان الظن

أنه يعود إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، أو النصف الأول من القرن الذى يليه . وعلى أية حال فيه الكثير من الخيال ، فهو يحمل المجنون فى رحلة إلى بابل ، وأشعاره خليط مأخوذ اعتباطا من مختلف المصادر ليكون مستهلا لقصائد متفردة تطول إلى درجة كبيرة ، ويبدو عليها بوضوح أن هذا التطويل مصطنع ومزيف .

نعرف عدا كتاب الوالبى سيرتين أخريين مكرستين أساسا للمجنون ، وكل واحدة منهما وصلتنا فى مخطوطة فريدة . الأولى منهما مؤلفها يوسف بن الحسن المبردى الحنبلى الدمشقى (ت ٩٠٩ هـ= ١٥٠٣ م) ، وعنوانها " نزهة المسافر فى ذكر بعض أخبار مجنون بنى عامر " ، وتوجد فى مكتبة جوتا ، ومن عنوان الكتاب ، وفهرسه فى قائمة المخطوطات ، واهتمامات المؤلف ، وهى متعددة ، يجعلنا لانتوقع منها شيئا ذا بال . والمخطوطة الثانية لانعرف مؤلفها ، ولاالتاريخ الذى كُتبت فيه ، وهى موقوفة على ثلاثة من المحبين : جميل بثينة ، وقيس بن الملوح « مجنون ليلى » ، وقيس بن ذريح ، وعنوانها " أحسن ما يميل ، من أخبار القيسيْن وجميل " ، وسجعه يعنى أنها تعود إلى عصر الزخرفة اللفظية فى الأدب ، ونسختها الوحيدة توجد فى جامعة كمردج ، وأية دراسة وافية لمجنون ليلى لايمكن أن تسقط هاتين المخطوطتين ، مهما كانت المواد التى فيهما ، ورأينا فى المؤلفين .

على أية حال شخصية المجنون الحقيقية لاتعنى كثيرا فى دراسة القصص الذى أدير حوله ، ومايعنينا تصور كل أدب له ، وبخاصة أنه تنقل فى آداب ثلاثة كبرى : العربية والفارسية والتركية . وغاية مايمكن أن نقوله حول هذه الشخصية إن الذين يرونها حقيقة تاريخية يجعلون له نسبا : قيس بن الملوح من بنى عامر بن صعصعة ، وليلى التى هويها هى بنت مهدى بن سعد بن كعب بن ربيعة ، وكانت قبيلة عامر أسمى منزلة من قبيلة ربيعة ، ويفهم من أشعار قيس أنه كانت بين القبيلتين عداوة .

إذا صدقنا الروايات التى بين أيدينا كان أبوه سيد الحى ، وهو أجمل الفتيان وأكثرهم رواية للشعر ، كلفا بمحادثة النساء ، صباً بهن ، ومع ذلك كان أبوه يفضل أخوته عليه . وكانت ليلى من أجمل الفتيات وأظرفهن ، وأحسنهن جسما وعقلا ، وأملحهن شكلا ، فلمّا وُصفت ليلى لقيس ارتحل إليها وتعارفا ، ولم تكن العرب ترى بأسا فى محادثة الفتيات والفتيان ، فجلس إليها يحادثها . تروى كتب الأدب :

" فلم يزالا كذلك حتى أمسيا فانصرف إلى أهله فبات بأطول ليله شوقا إليها حتى إذا أصبح عاد إليها ، فلم يزل عندها حتى أمسى ، ثم انصرف إلى أهله فبات بأطول من ليلته الأولى ، واجهد أن يغمض فلم يقدر على ذلك " .

وغلبت قيسا حاسته الفنية فعبر عن حبه شعرا ، ولذّ له هذا التعبير فأكثر منه ، وطارت أشعاره بين القوم تشبيبا ، وكان ذلك مما تنقمه العرب وتعده عارا ، وتحرم على من يشبب بفتاة الزواج بها ، فكان شعره فى التغزل بليلى مبعث ما انتهى إليه أمره من مأساة ، ولذلك عندما تقدم أهله إلى أهلها يعرضون زواجه منها رفض والدها ، غير أن قيسا لم يستسلم لذلك الحرمان ، فكان يأتى غفلات الحى ، ويتصيد الفرص للقائها ، وضاق أهل ليلى به فشكوه إلى السلطان فأهدر دمه ، لكنه لم يبال الخطر ، فكان يغشى الحى ويقول : الموت أروح لى ، فارتحل أهل ليلى عن مكانهم وأبعدوا ، فكان يحاول أن يتردد حيث هى ، فى مواطن كثيرة .

عندما رفض أهل ليلى قيسا أخذ يهيم فى الحى ، مهملا ثيابه ، فلفت الأنظار إليه ، وأصبح حديث القبائل ، وعطف عليه كثيرون ، فقد عرف من قبل بالعقل والذكاء ورواية مايطيب سماعه من الأخبار والأشعار ، ويبلغ به البلاء أشده حين خطبت ليلى إلى أهلها . وجزعت هى بدورها لما أصاب قيسا من تولهه بها ، فسقمت ، وحج بها أهلها رجاء أن تشفى ، وهناك رآها ثرى من بنى ثقيف يدعى وردا فأعجب بجمالها ، وطلب يدها من أبيها ، وبرح اليأس بَقيس عقب

زواجها ، وطارت الصدمة بوعيه ، فأخذ يضرب فى الأحياء والصحراء على غير هدى ، وحج به والده رجاء أن يشفى ، وطلب منه أن يتعلق بأستار الكعبة ، وأن يسأل الله العافية من حبها ، ولكن دعوته كانت : " اللهم زدنى لليلى حبا ، وبها كلفا ، ولاتنسنى ذكرها أبدا " .

عندما ضاق بقومه وبالناس اعتزلهم جميعا ، ووجد فى رحاب الصحراء متنفسا ، يقيم فيها على مقربة من أهله ، ويأنس إلى سكانها من وحش وطير ، يذهبون إليه كل يوم بطعام ، يضعونه له حيث يراه ، فإذا انصرفوا جاء فى أكله ، وأحيانا يهيم على وجهه ، ويأتى جبل التوباد ، ويتذكر أيام كان يرعى الغنم مع ليلى فيجزع ، ويضرب فى الصحراء من جديد لايدرى أين هو ، فيبلغ فى سيره تخوم الشام شمالا ، أو يبلغ مشارف اليمن جنوبا ، ثم يعود ليكون على مقربة من أهله . وخلال ذلك أهمل نفسه ، فطال شعره ، ونمت أظفاره ، وصار الوحش إليه أقرب ، وألفه حيوان الصحراء ، وصار يرد معها الماء ، ويأنس إليها ، ويفتدى الظباء التى تقع فى أشراك الصائدين .

هذه صورة موجزة له ، مقتبسة من الروايات المختلفة ، من الشعر المنسوب إليه ، ويمكن القول فيما يتصل بحبه أنه يتحرك فى نطاق دينى إسلامى ، وليس له غايات فلسفية يمكن أن يقال إنه فتح به الصلة بين الحب الإنسانى والحب الإلهى ، غير أن هذا الحب نفسه هو الذى مهد الطريق ، فى آداب غير عربية ، كى يكتسب الموضوع صيغة فلسفية صوفية .

لم يوظف أحد القصة فى الأدب العربى توظيفا فنيا عاليا ، وإن ظلت تنتقل عبر الرواة ، ثرثرة مجالس ، وسمر منتديات ، وفى كل مرة تضاف إليها الحكاية اللاذعة ، أو الأبيات الغزلة ، وتأخذ عند كل جماعة فى كل عصر شكلا مختلفا ، وكان أمير الشعراء شوقى وحده هو الذى التفت إلى القصة فى عصرنا الحديث فصنع منها مسرحية بالغة الروعة والجمال .

●●●

كثيرون من الفرس تحدثوا عن المجنون ، وبخاصة بين المتصوفة ، وعرضوا له في إيداعهم شعرا ونثرا ، في أعمال كبيرة مستقلة ، أو خواطر قصيرة تجيء خلال أعمال أخرى ، وسنكتفي هنا بأصحاب الأعمال المستقلة حسب .

كان الشاعر الكبير نظامي أول من تناول القصة في مثنوى ضخم مستقل ، وجاءت ثالثة مثنوياته ، ونالت مكانة عظيمة بين الخاصة والعامة على السواء ، وذاعت شهرتها بين قصص الحب المشرقية ، وطغت على ماعداها ، وفازت بالمكانة الأولى في إيران وفي تركيا .

وقصة نظامي لاتقع حوادثها في إيران ، وإنما في بلاد العرب ، ومع ذلك استطاع نظامي أن يضفي عليها صبغة فارسية ، وهي تقع في أكثر من أربعة آلاف بيت من الشعر ، واختار لها عروضا بحر الهزج المسدس الأحزب المقبوض (مفعولُ مفاعلن فعولن) . وموجزها :

نما الحب بين قيس وليلى منذ كانا صغيرين ، قويا طاهرا منذ الطفولة ، وشغلا بهذا الحب عن الدرس وكانا يختلفان إليه ، ولما علم والد ليلى بذلك حجبها ، فجن قيس ، وكان جنونه تعلة لوالد ليلى كي لا يزوجها له ، ولما توسط نوفل لقيس عند والد ليلى لم تجد وساطته شيئا ، وتزوجت ليلى ابن سلام الذى تقدم لخطبتها إثر فشل نوفل ، ولكن ليلى بقيت في حماه عذراء ، حتى قضت ، فعلم المجنون بموتها فهام في القفار . وفيما يبدو كان نظامي مطلعا على ترجمة كتاب أبي بكر الوالبي ، وأنه نقل عنه فقرات كثيرة .

ومن بعده نظم أمير خسرو الدهلوى القصة نفسها ، واحتذى فيها نهج نظامي ولم يأت بجديد يذكر سوى أنه جعل والد قيس هو الذى يرجو الأمير نوفل أن يتوسط لدى والد ليلى كي يزوجها ابنه ، ثم جعل قيسا هو الذى يتزوج لا ليلى ، وجريا على عادة أدباء الفرس الذين اتخذوا الهند مقاما غلبت على قصته النزعة الأدبية ، مستخدما الأسلوب المعهود في بيئته ، وقلما تظهر النزعة الصوفية في ثنايا عمله هذا .

تأثر عبد الرحمن جامى بالقصتين اللتين ألفتا فى الموضوع قبله ، لنظامى وخسرو ، واعترف فى مقدمته بأنه اقتفى أثرهما ، ونسج على منوالهما ، وكان تأثره بخسرو أقل من تأثره بنظامى ، إذ ينحصر تأثره به فى بعض المعانى والمحاورات المتناثرة فى قصته ، وإن تكن طريقة جامى فى المحاورات أقوى أسلوبا ، وأغزر أفكارا ، وفى فصل كامل يجعل قيسا يحنو على كلب لليلى يحتضر .

ظهر تأثر جامى بنظامى واضحا فى الصبغة التى أضفاها هذا الأخير على القصة ، وبلغ بها الجامى أقصى ماوصلت إليه فى الأدب الفارسى ، وكذلك فى طريقة عرض الفصول المتوالية للقصة ، وفى افتتاحها غالبا بمدح الراوى أو الناظم ، وتأثر به كذلك فى بعض الفصول التى قلد فيها جامى قصة نظامى تقليدا كاملا . كالفصل الذى يذكر فيه جامى مناقب من سبقه من الأصدقاء إلى الدار الآخرة ، وفى الفصل الذى يصف فيه الخريف واحتضار ليلى ، ولجامى الفضل فى أنه أضفى على الموضوع صبغة جديدة ، ظهر فيها طابعه الشخصى ، وكان فيه مجددا أكثر منه مقلدا ، وذلك فى طريقة اختيار الحوادث التى على أساسها يعرض قصته ، ثم فى أفكاره الصوفية والأدبية التى غمر بها القصة .

وكان يعتمد فى كثير من الفصول التى انفرد بها على أصول عربية من أخبار قيس أو من أخبار العذريين ، بعد أن يصوغها فى أسلوبه ، ويضيف إليها كثيرا من معانيه ، ويضعها فى مكانها من بناء قصته . كما ساق كثيرا من آرائه فى التصوف على لسان المجنون ، وآراء فى العشق على طريقة المتصوفة ، وكيف كان الجمال سببا فى وجود الكونِ ، وكيف يكون الهيام به سبيل القربى إلى الله . وأدرك أن الحب الإنسانى طريق الحب الإلهى ، حين يشتد الوجد بالمحب ، ويتخذ من محبوبته رمزا لغايته العظمى ، من الهيام بالجمال الأزلى ، فينطق باسم محبوبته وغايته المعشوق الأزلى .

وقد خالف جامى سابقيه فى ترتيب الحوادث وعرضها فجعل المجنون يتعرف

على ليلى وهو شاب ، بعد أن أحبها من قبل ، وجعله يموت فى الصحراء بائسا بعد زواج ليلى ، وقبل موت والديه ، ثم تموت ليلى فى ريعان شبابها ، ويشيعها والدها إلى قبرها ، وتدفن مع قيس فى قبر واحد .

وتأثر هاتفى فى مثنويه " ليلى والمجنون " بنظامى أكثر من تأثره بجده جامى ، فهو يقص كيف أن ملكا من العرب تقدمت به السن قبل أن يعقب ، فجاهد فى سبيل أن ينجب ورزق ولدا أسماه قيسا ، وكان من الخير ألاّ يرزقه .

وكان قيس من طفولته لا يستريح مع مربيته ، فهو معها دائم البكاء ، وهى لاتدرى سببا لبكائه ، حتى حملته يوما حسناء بارعة الجمال فكف عن البكاء ، ثم ضمته إلى وجهها فصاح متهللا مسرورا ، وتعلق بها ولم يرد أن يعود إلى أحضان مربيته ، فعرف القوم أنه إنما يستريح إلى الوجه الجميل والصوت الجميل ، وتنبأ كل من عرفه أنه سوف يجن جنونه من الحب حين يكبر .

ويضفي هاتفى على المجنون صيغة المتصوف الذى اهتدى إلى الحقيقة عن طريق العشق ، وهو فى هذا يقلد نظامى وجامى .

وقد تأثر هاتفى بمكتبى الشيرازى فى تجديده المحدود فى القصة ، حين جعل ليلى تطلق من زوجها قبل وساطة نوفل ، ويذهب زوجها ليغتال قيسا فى الصحراء ، ولكن الوحوش تفترسه ، ويتأثر به أيضا فى جوانب كثيرة من قصته ، فيتخيل أن الأمير نوفلا فكر فى الاستئثار بليلى من دون قيس بعد انتصاره فى الحرب ضد قبيلة والدها ، وأنه أراد أن يدس السم لقيس ، ولكن يسهو عليه فيشرب السم .

هناك شعراء كبار جاءت القصة فى قصائدهم عرضا ، فقد عرض لموضوع ليلى والمجنون سعدى الشيرازى فى قطعتين من كتابيه " بستان " و " گلستان " ، ويأتى بها شاهدا على المحب الذى لايفكر فى الوصال وإنما يقنع من حبيبه بالخيال ويربط ذلك بالحب الصوفى ، حيث يهيم العاشق بجمال الله ، ويصف مايتعرض

له سالكو الطريق إلى الله من نوبات الوجد ، ومايتهجونه من اعتزالهم الخلق ، ومن التفكير في الخالق ليلا نهارا ، حتى لتبدو مظاهر الوجد الإلهي عندهم شبيهة بمظاهر الوجد في الحب المجازي ، أي الحب الإنساني الذي هو مجاز إلى الله .

وكان لمكتبي الشيرازي مثنوي كامل عن " مجنون ليلى " ، ولكن مثنويات الكبار الذين سبقوه كسفت شهرته ، فلم يجد طريقه إلى الذيوع كالآخرين .

●●●

عرف الأدب التركي قصة مجنون ليلى منذ القرن الخامس عشر ، ونظمها في التركية الجغتائية مير علي شير نوائي ، ومن بعده نظمها حمدي آق شمس الدين ، ولو أن مؤرخي الأدب التركي لايعرضون لكليهما إلا عرضا ولماما وفي حديث مقتضب .

أما الذي أعطاها شهرة مستفيضة في الأدب التركي فكان الشاعر فضولي ، وكانت آخر مانظم ، وتوفي بعدها بقليل ، وجاءت في ثلاثة آلاف وأربع مئة بيت ، وضمنها كثيرا من رقيق غزلياته ، يجريها على ألسنة شخوص القصة ، حتى تدفع عن قارئها الملل . وموجز القصة عند فضولي :

كان في العرب سيد لاوجود لمن يدانيه ، دائم الترحال ، كثير المال ، له دار كأنها بستان ، ولكنه لم يعقب ، مما كدّر عليه عيشه ، فدعا الله أن يهبه ولدا ، فولد له طفل محزون لايكف عن البكاء ، وسارت به مربيته لتهدىء من روعه ، فشاهدته حسناء فتوجعت لحاله ، وضمته لصدرها فهش لها ، وأنساه حسنها البكاء ، وتعلق بها ، فعرفوا أنّ هذا الطفل يميل إلى الحسن ، وأن العشق يجرى عينه بالبكاء . وشب الطفل ، ثم أرسله أبوه إلى المكتب ، وفيه فتيات جميلات وفتيان ملاح ، والتقى هناك بليلى فوقعت في قلبه ، وتطارحا هواهما بلغة العيون ، وتزاملا في الدرس ، فكان يشرح لها ما استبهم عليها ، وشاع أمر

العاشقين ، وساء ذلك أم ليلى ، وخشيت عليها من كلام الناس ، وبكت ليلى ، وقالت لأمها : أنت تحديثينني عن العشق وليس لي به علم ، اكشفي لي عن سره الخفي ، فقد غم الأمر علي . وغيّر الوجد أحوال قيس حتى سموه المجنون .

وذات يوم ربيعي التقى في البستان مع نفر من صحبه ، حاولوا أن يردوه إلى صوابه ، وينفسوا عن كربه ، ودعوه إلى المفازة ، ليعاقر معهم الكأس ويطرح الهم عن النفس ، وفيها لقي ليلى ، وسرعان ما افترقا ، فاختلط عقله ، ولامته أمه على ماصنع بنفسه ، وانتهى خبره إلى أبيه ، فخرج إلى الصحراء باحثا عنه ولما وجده طلب إليه أن يبوح له بسره ، وسوف يعرض عليه حسان القبيلة يختار أجملهن زوجة له ، فلم يصغ إلى نصح أبيه ، قائلا : إن العشق غالب عليه ، وهذا قدره ، ورأى أبوه أن يخطب له ليلى ، ولكن أباها لم يرتض المجنون زوجا لابنته .

وحار الأب في أمر ولده ، وسأل الأطباء ، ودعا الله ونذر ، وحج به ، وفي البيت الحرام طلب الأب من ابنه أن يدعو الله كي يتوب من حب من ليلى ، ولكنه دعا الله أن يزيده بحبها تمسكا ، وفي طريق االعودة كان يناجي مايلقى من جبال وحيوان ، وافتدى غزالا في شبكة صياد .

وتذكر القصة ليلى والهة ، تناجي المصباح والفراشة والقمر ، والصَّبا والسحاب ، بينما هي محزونة تنتحب .

وكان ابن سلام من أشراف العرب ، وخرج يوما يتصيد ، فوقعت عيناه على ليلى فتقدم يطلب يدها ، ولم يجد والدها بأسا من الاستجابة له .

وسمع نوفل بأمر المجنون فخرج إلى الصحراء يسأل عنه ، ووجده بين الطير والوحش ، فسمع منه شعره ، وكان قد أعجب به من قبل ، فمنّاه وأمّله ، وكتب إلى أهل ليلى يطلب منهم أن يقبلوه لابنتهم زوجا ، ومنّاهم بالذهب إن قبلوا ، وبالحرب إن رفضوا ، فردوا : لاحاجة بنا إلى مجانين ، ولدينا من الذهب

مايكفينا ، ومن الفرسان مايحمينا .

وقامت الحرب ، وتمنى المجنون الغلبة لقوم ليلى ، ليقدم لها روحه ، فاما قتلته وإما أسرته ، وكادت الدائرة أن تكون على نوفل وقومه ، وأيقن أن دعوته هى التى أوشكت أن تهزمه ، فآلى على نفسه ألاّ يذكر اسم ليلى إن كتب الله له النصر . ولكنه أخلف وعده وعاد للقتال ، وهزم قبيلة ليلى ، وقال له والدها : من العار أن يكون لامرأة رجلان ، فتراجع نوفل ، وأمّن أباه على نفسه وما يملك.

وظل قيس يحتال ليرى ليلى ، حتى أنه عصب عينه ، وادعى العمى ، ومر بدار ليلى فى هيئة متسول ، وظفر بلقائها بعد طول فراق .

عرف قيس بزواج ليلى ، وخرج أبوه يبحث عنه فى الصحراء ، ولكنه عجز عن إصلاحه ، واعتل ابن سلام وأدركته المنية ، وعادت ليلى إلى دار أبيها ، وكانت دائمة البكاء ، وذوى عودها ، ودعت ربها أن يقيلها ، لأن الفناء طريق الحق ، وعندما دنت ساعتها نادت أمها ، وأوصتها بالذهاب إلى المجنون وإحاطته علما . وحمل زيد إلى المجنون نعى ليلاه ، وخرج المأمون معه لزيارة قبرها ، وهناك بكاها ، وأسلم روحه ، ودفن إلى جوارها .

إذا وازنا بين هذه القصص نجد البيئة والزمن أحدثا أثرهما ، فنظامى يجعل ليلى والمجنون يتعارفان وهما فى المكتب ، على حين أنهما فى القصة العربية تعارفا وهما يرعيان البهم .

وعند نظامى أن ليلى جالست أترابها فى البستان ، واستمعت إلى شعر المجنون فاستخفها الطرب ، وأن خال المجنون جاء مع أمه ، ولاوجود لهذا في الأصل العربى . وفيها يموت زوج ليلى ، ولايرد لموته ذكر فى الرواية العربية ، وفى هذه دخل نوفل بن مساحق على قوم ليلى بالسلاح ، ولكنه لم يقاتلهم . على حين عند نظامى تقع حرب شعواء بين القبيلتين ، ويفتن الشاعر فى وصفها . أما النزعة الصوفية فجعلت الشاعر الفارسي يبتكر فى القصة ويحوّر ، ويذكر أن

المجنون وجد اسمه مع اسم ليلى فمحا اسمها لأنهما أصبحا واحدا ، وهى إشارة إلى فناء الصوفى فى محبة الله ، فيتطهر من الإثرة ، وتتحد روحه بالحقيقة العلوية أو السرمدية .

ورغم أن جامى كان مقلدا لنظامى لكنه تميز بأنه ضمّن قصته مظاهر الحياة اليومية إلى جانب العناصر الصوفية .

ونسج فضولى ، كغيره ، على منوال نظامى ، ولكنه فاقهم فى الابتكار ، وخالفهم جميعا فى أنه جعل ليلى تقع أسيرة فى يد نوفل ، وأنه أراد الاستئثار بها ، وما تبع ذلك من شروعه فى قتل قيس ثم موته ، كما تحدث عن نفسه حديثا مفصلا ، وتميز بالغزليات التى أجراها على لسان المجنون وليلى ، فجاءت منظومته مزيجا من الشعر الغنائى والقصصى ، لأنه تخفى وراءها ليتغزل .

وتميز فضولى أيضا بحديثه مع الساقى بين حين وآخر ، مما أضفى لونا صوفيا روحانيا جميلا ، إذ المراد بالساقى شيخ الصوفية ، وشرب المدام عندهم هو الاستغراق فى مقام التجلى .

وقد نظمها فى الأوردية شعرا أحمد دكنى بعنوان « ليلى ومجنون » أتمها عام ١٦٠٠ م ولكنها ضاعت ، ولم يصلنا منها غير ألف بيت ، ولم يتيسر لى أن أقرأ عنها شيئا .

● ألف ليلة وليلة :

لعبت دورا بالغ الأهمية فى الحياة الأدبية العربية بعامة ، والإسلامية بخاصة ، وفى كافة الآداب العالمية . وكان فى أصله ترجمة عن أصل فارسى قديم يدعى " هزار أفسانه " ، أى ألف حكاية ، وترجع فى نشأتها إلى أصول هندية ، وقام الجهشيارى (ت ٩٤٢ م) صاحب كتاب " الوزراء والكتاب " بكتابة أول مسودة له فى العراق ، وأضاف إليها حكايات أخرى نقلها عن بعض القصاص من مواطنيه ، أما كتاب " هزار أفسانه " فأمده بالفكرة العامة ، وهيكل الكتاب ،

وأسماه الشخصيات الرئيسية ، رجالا ونساء ، بما فى ذلك شهر زاد ، وفى البدء كان يسمى " ألف حكاية " ، ثم أصبح " ألف ليلة " ، ثم " ألف ليلة وليلة ؛ فيما بعد .

ومع الزمن أضيف إليه قصص من مصادر مختلفة ، مابين هندية ويونانية وعبرية ومصرية وغيرها . وفى آخر القرن العاشر أضيفت إليه قصة كانت تتحرك مستقلة وسط أندية بغداد الثقافية ، وهى " رحلة السندباد البحرى " ، وجاء صدى لاتساع الدولة الإسلامية وفتوحاتها فى المحيط الهندى ، وهى ذات أهمية كبرى لما تقدمه من معلومات عنصرية ، ومأثورات شعبية ، وألوان ثقافية ، تفتح الباب واسعا أمام الأدب المقارن ، ولكنها من وجهة الأدب الخالص ليست شيئا عظيما ، فالمغامرات فيه تقوم على نسيج متشابه ، فالبطل غاية ، يتلهف على الثروة ، ويواجه الخطر ، ويحتمل الصدمة ، وصامد إزاء الفشل والانتصار على السواء ، وقصص " عجائب الهند " ، وأضيفت إلى " ألف ليلة وليلة " فى هذه الفترة ، أروع فنا وجمالا وأسلوبا .

ونقل إلى هذا الكتاب ، قبل أن يأخذ صورته الأخيرة فى مصر ، مختلف القصص الشرقية التى مرت عليه خلال القرون ، وكان بلاط هارون الرشيد معينا لاينضب للقصص الفكاهية والحكايات الغرامية ، وأخذ الكتاب شكله الأخير فى مصر ، فى القرن الخامس عشر ، ورتّب ليلة ليلة ، والنسخة التى بين أيدينا منه ، قام بتحريرها يهودى مصرى اعتنق الإسلام فى القرن نفسه ، وأختار مجاراة للذوق السائد فى عصره ، فيما يبدو ، أقل حكاياته احتشاما .وصيغة الكتاب غير متجانسة ، حملت أحد النقاد المحدثين إلى أن يصفه فى ألفاظ ملؤها الدعابة ، بأنه مجموعة قصص فارسية َ، روتها على الطريقة البوذية ، الملكة أستير اليهودية ، لهارون الرشيد فى القاهرة ، خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، ولكن ذلك لم يقف حائلا دون أن يغزو الكتاب العالم كله ، مجملا أو قصصا منفردة ، على أمتداد العصر الوسيط ، وبخاصة بعد أن بدأت ترجمته إلى اللغات الأوربية

فى القرن الثامن عشر ، وأصبح أشهر كتاب عربى يعرفه العالم كله .

أسلوب الكتاب مختلف باختلاف الزمان والمكان والشخص . فالأسلوب الهندى سلس فى قصصه ، متماسك الحلقات ، والأسلوب العربى يأتى بالقصة مستقلة عن الأخرى ، ويتميز أبطاله لسبب لم أهتد إليه بعد بالزوجية . فهناك دنيا زاد وشاه الزمان ، وقمر الزمان وابن الملك شهرمان ، والأمير خلف وأمير الصين ، وغيرها . ويقدم لنا المرأة حلوة عذبة ، ذات ثقافة واسعة ، وقادرة على إثارة روح الحماسة عند الخليفة ، بحيلها الدقيقة الماهرة ، ومناقشاتها البيزنطية ، ولا تطلب منه مقابل ذلك إلا أن يرضى رغائبها كديك ، وأن يكون معها فحلا ، وستعرف كيف تسعده فى عطائها فنا واستسلاما أكثر من كل أولئك اللاتى سبقنها . ويتظاهر الخليفة على نحو مايصنع كل الحكام بأن يكون عادلا ، بارعا فى الحكم ، يخرج متخفيا بين الشعب ، ليتسلى بمتابعة حركة الحياة عن قرب ، أو ليرى كيف يؤدى المسئولين مهامهم . هل كان هذا دعوة إلى الحكام ليقوموا بهذا العمل ؟ ربما لأنهم فى الواقع كانوا يعملون عكس هذا تماما .

وأسلوب الكتاب سهل المأخذ ، مبسوط العبارة ، سوقى اللفظ ، كثير الاستطراد والتضمين ، جرىء الإشارة ، لايعرف الكتابة ولايقنى الحياء ، ولايصطنع التحفظ ، ومن الصعب أن يقرأه الإنسان كله دفعة واحدة ، بحالته الراهنة ، أما إذا تسقّط قصصه واحدة وراء أخرى ، فسيجد فيه متعة بالغة الجمال .

استَغل " ألف ليلة وليلة " من المبدعين العرب أوسع استغلال ، فاستمدوا منه مسرحيات وقصصا وروايات ، وحكايات للأطفال ، وحتى مسلسلات لإذاعة مسموعة ومرئية ، من موضوعاته أحيانا ، ومن شخوصه أحيانا أخرى ، ووظفوها للتعبير عن الهموم المعاصرة ، ولازال فى الكتاب الكثير مما لم يكتشف ولم يستغل بعد ، ولم تكن الآداب الإسلامية الأخرى أقل احتفاء به ، وخارج عن منهج الكتاب أن نتتبع تأثيره فى الآداب الأوربية ، قصة ورواية ، ودوره فى

نشأتها بخاصة .

●●●

عدما حددنا خصائص " لف ليلة " قلنا إنه كتاب ضخم ، حكاياته بلا حصر ، واستطرادته كثيرة ، ومن هنا فرغم ترجمته كلا ، إلاّ أنه راج على نحو أوضح قصصا منفصلة ، تقص حكاياته شفاها ، فى عالم أغلبيته لم تكن قارئه ، بعد أن دون الكتاب ، ولم يؤثر بموضوعاته فحسب ، وإنما بطريقة بنائه أيضا .

نجد ذلك واضحا عند الشاعر الفارسى الكبير نظامى الكنجوى ، ففى مثنويه " هفت بيكر أو بهرام نامه " ، أى الصور السبع أو كتاب بهرام ، والصور السبع هذه هى التى اكتشفها بهرام كور فى غرفة سرية فى قصره المعروف بالخورنق ، وتبين له أنها صور سبع أميرات يمتزن بالحسن والجمال : أولاهن ابنة ملك الهند ، والثانية ابنة خاقان الصين ، والثالثة ابنة شاه خوارزم ، والرابعة ابنة ملك الصقالبة ، والخامسة ابنة شاه إيران ، والسادسة ابنة امبراطور بيزنطة ، والسابعة ابنة ملك المغرب .

فلما رأى بهرام صورهن وقع فى حبهن جميعا ، فلما مات أبو يزدجرد وتولى لعرش مكانه ، كان أول مافعله آن جد فى طلب هؤلاد الأميرات من آبائهن ، واستطاع أن يحقق رغبته بالزواج منهن جميعا ، وقد أسكن كل واحدة من هؤلاء الأميرات السبع فى قصر مستقل ، جعله فى لونه يمثل إقليما من الأقاليم السبعة التى ينقسم إليها الكون ، ثم أخذ فى زيارتهن بالتناوب فى سبع ليال متتالية ، بادئا فى يوم السبت بزيارة القصر الأسود الذى خصصه لابنة ملك الهند ، ومنتهيا بيوم الجمعة بزيارة القَصر الأبيض الذى تسكنه ابنة ملك المغرب ، وتستقبله كل أميرة فى احتفال فائق ، وتحتفى به خير احتفاء ، بأن تسرد له ليلة مبيته عندها جملة من الحكايات الممتعة ، كالتى نجدها عادة فى قصة " ألف ليلة وليلة " .

ويلفت النظر أن الأديب الإيطالي بوكاشيو (ت ١٣٧٥ م)، من رواد الرواية والقصة الحديثة الأوائل ، تأثر بألف ليلة وليلة فى بناء روايته " الديكاميرون " ، أو الليالى العشر على هذا النحو ، فقد ضمنه مئة حكاية ، أسندها إلى سبع رجال وثلاث سيدات ، اعتزلوا مدينة فلورانس بعد أن اجتاحها الطاعون ، وفروا إلى الريف ، وأقاموا فى قصر أحدهم ، ولكى ينسوا ماخلّفوا وراءهم من مناظر الموت وآثار الدمار ، ورغبة فى أن ينسوا آلامهم ، وتزجيةً للفراغ بينهم ، فرضوا على كل واحد منهم أن يقص على أصحابه كل ليلة حكاية ، وأنهوها فى عشرة أيام .

غير أنى لم أقف على من ترجمها كلها ، رغم أن أصلها فارسى ، أترى لما خالطها من ألفاظ صريحة غير محتشمة فيما بعد ، ومن ذوق عامى ، فآثروا أن يتبادلوا حكاياتها شفاها ، والناس يترخصون فى الحديث مالايترخصون فى التدوين ، والمثقفون جدا يقرأونها فى العربية ، وجل مثقفى الفرس يعرفون العربية ، وكثرتهم تجيدها .

فى اللغة الأوردية أول من ترجمها شانكر كاول نسيم (ت ١٨٤٣ م) ، وهو عالم هندوكى من كشمير ، وبعد ذلك بعامين ترجمها الشاعر عبد الكريم ، لتدخل فى مناهج التعليم ، وجاء أسلوبه سهلا ، لا أثر فيه للمحسنات اللفظية ، كما أن أصغر على خان (ت ١٨٦٤) قام بكتابة مقدمات لفصولها تتجلى فيها براعته اللغوية . ثم قام على بيك سرور (ت ١٨٦٧) بترجمة مجموعة من حكاياتها نشرها بعنوان : " شيستان سرور " .

وللشاعر غواصى مثنوى بعنوان " سيف الملوك وبديع الجمال " ، ويتألف من أربعة عشر ألف بيت ، وهو يسرد قصة عشق الأمير المصرى سيف الموك لأميرة صينية ، وهى ترجمة لقصة فارسية من قصص ألف ليلة وليلة ، ويتفاوت تاريخ نظمها فى مخطوطاتها بين عوام ١٦١٦ و ١٦١٨ و ١٦٢٤ ، ولقيت هذه القصة إعجابا شديدا وترجمت إلى عدة لغات هندية .

من الصعب على بلد كألبانيا أن ينهض بترجمة ألف ليلة وليلة كاملة ، أن إنجاز هذا العمل الضخم يتطلب وقتا وجهدا ، ونشره مطبوعا يتطلب إمكانيات مادية ضخمة ، ولكن ذلك لايعنى أن الكتاب لم يكن معروفا ، وأن حكاياته لم تكن رائجة بين عامة الناس ، وبخاصة أنه كان مترجما كله ، أو أجزاء منه ، أو حكايات مفردة ، إلى لغات عديدة من تلك التى تحيط بألبانيا .

وفعلا قام الشاعر الألبانى محمد تشامى ، وعاش فى مصر زمنا كما ألمحنا من قبل ، باستغلال إحدى حكايات ألف ليلة وليلة ، وصاغها شعرا فى ثمانى مئة وستة وخمسين بيتا ، وكتبها عام ١٨٢٠ ، وأعطاها عنوان : " أروى " .

وموضوع القصة كما ورد فى ألف ليلة وليلة يدور حول امرأة كتب عليها أن تعانى كثيرا فى سبيل حب زوجها ، فقد تركها زوجها القاضى أمانة لدى أخيه إلى أن يعود من عمل له ، إلاَّ أن الأخ حاول أن يغريها بحبه فى غيبة أخيه ، وحين يواجه رفضها العنيف يستدعى شهود زور ليشهدوا عليها بالزنا ، مما يعرضها لعقوبة الرجم ، وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة أنقذها عابر سبيل ، ويأخذها إلى بيته . ولكن المشكلات تظل تلاحقها من بيت إلى بيت ، ومن مكان إلى آخر دون أن تستسلم ، إلى أن تلتقى أخيرا بزوجها الذى لاقت فى سبيله كل هذه المتاعب . والحكاية نفسها سوف تشكل منها الأديبة السورية وداد سكاكينى رواية حديثة ، بعنوان " أروى بنت الخطوب " .

وقد انتشرت القصة الشعرية الألبانية فى كل مناطق ألبانيا خلال القرن التاسع عشر ، وطغت على أى عمل أدبى اخر ، ولم تنتشر بين أوساط المثقفين والأدباء فحسب ، وإنما فى الأوساط الشعبية أيضا ، وأصبح من الشائع تسمية الفتيات فى جنوب ألبانيا أروى ، ومن جانب آخر ، دخلت القصة الأدب الشعبى ، وأصبحت جزءا منه . فنلتقى بها فى كتاب " حكايات ألبانية " للدكتور كورتى بعنوان " عهد عقد الزواج " ، وفى مجموعة الفلولكلور الألبانى " النثر الشعبى " والقصة الثانية تحمل عنوان " زوجة الحاج " ، ويرويها الألبان الذين يعيشون فى

ألبانيا سابقا.

في هذا التناول الشعبي للقصة توجد بعض الفروق غير الجوهرية ، المستمدة من الوسط الذى تروى فيه ، فى قصة " عهد عقد الزواج " ، يضطر الزوج لفراق زوجته بحثا عن العمل ، وكان شائعا بين الألبان فى الجنوب خلال القرن التاسع عشر . وفى " زوجة الحاج " يتركها بسبب ذهابه إلى الكعبة لأداء فريضة الحج . وتحولت هذه القصة إلى مسرحية ، ونالت المسرحية إقبالا عريضا ، وتقديرا متميزا .

كذلك تخلتف عن وداد سكاكيني في بعض مشاهدها ، حيث تجعل أروى تباع إلى صاحبة قافلة فى الصحراء ، ولكن فى ألبانيا حيث لاصحراء ولاجمال ، ينقل الشاعر هذا المشهد إلى شاطىء البحر ، وألبانيا تع على البحر الأدرياتيكى ، ويجعل عملية البيع تتم لصاحب مركب قرب الشاطىء .

تروج حكايات ألف ليلة وليلة فى الأدب السواحلى ، دون أن يعرف ترجمة كاملة للكتاب كله ، وإذا كان وراء تضخم الكتاب نفسه الحكايات التى التقطها الرحالة العرب والملاّحون حين يذهبون حاملين التجارات المختلفة إلى شواطىء الهند وشرق أفريقيا ، فمن البديهى أن يحملوا هذه الحايات معهم فى رحلاتهم المتعددة ، حين يهبطون الموانىء المختلفة ، ويضيفون إليها الكثير من تجاربهم وخيالهم وتصوراتهم حين يواجهون رعب البحار ، وعصف الرياح ، وإطباق المخاطر ، ومن هنا نجد فى الأدب السواحلى حكايات كثيرة مما فى ألف ليلة وليلة .

هناك حكاية أبى محمد الكسلان ، وهى تحكى قصة هارون الرشيد ومغامراته مع سيّافه مسرور للحصول على جواهر الملكة زبيدة . والغشاش والحمال ، وحسيبو كريم الدين والثعابين ، كما أن شعبان روبرت كتب روايته " عديلى وأخوته " معتمدا على قصة " عبد الله بن فضل " فى ألف ليلة وليلة .

لكن لابد أن نأخذ فى الحسبان أن هذه القصص حين انتقلت إلى السواحلية اكتست طابعا أفريقيا ، فاستبدلت أسماء الشخوص ، وظروف الأحداث بما يتلائم وهذه البيئة . مثلا مايضيفه القاص على روايته مراعيا عادة السواحليين ، فى زنجبار بخاصة ، بجعل التاجر ، أو البحار ، حين يعود إلى بيته يقوم باشعال النار فى كانونه ، وهى عادة ليست عربية ، ولاتوجد فى الأصل العربى ، ومن نافلة القول أن نشير إلى هذه القصص ذات الأصل العربى تضم من الألفاظ العربية أكثر مما يضمه غيرها من بقية النصوص الأدبية ، ذات الأصل الأفريقى الخالص .

● جحا :

ربما كانت أول إشارة فى الأدب العربى إلى جحا لجدها فى بيت لعمر بن أبى ربيعة المتوفى عام ٩٣ هـ حيث يقول :

دلّهت عقلى وتلعّبت بى حتى كأنى من جنونى جحا

ولكن هذا البيت لايوجد فى ديوان عمر بن أبى ربيعة المطبوع بين أيدينا ، وفى طبعاته المختلفة ، ولو أن هذا لايعنى شيئا كثيرا ، فنحن نعرف يقينا أن دواوين معظم الشعراء لاتضم كل ماقالوه ، لأن بعضها خطرات تأتى على غير موعد ، وقد تند عن الرواية أو الراوى أو المدوّن ، أو أن الشاعر نفسه أسقطها لسبب أو لاخر ، حين راجع قصائده ورتب ديوانه .

ثم نلتقى باسم جحا عند الجاحِظ (ت ٢٥٥ هـ) فى كتابه " القول فى البغال" فى نادرة بطلها جحا ، مما يعنى أنه كان معروفا على أيامه . وعندما حقق المستشرق الفرنسى شارل بيلا كتاب " القول فى البغال " شك فى نسبته إلى الجاحظ ، لأن الاسم لم يتردد فى الكتاب ثانية ، ولم يرد فى بقية مؤلفات الجاحظ الأخرى . وفكر مرة فى أنها يمكن أن تكون من إضافات النساخ ، ولكن

ما إن وقع على اسم جحا فى كتاب الفهرست للنديم [١] حتى عدل عن رأيه هذا .

وبعد النديم نلتقى بالجوهرى (ت ٣٩٣ هـ) فى معجمه الصحاح يقول لنا : إن أبا غصن كنية جحا .

إذن كانت نوادر جحا شائعة ومعروفة فى القرن الرابع الهجرى ، وأن هناك من عنى بجمعها فى كتاب ، وأن هذا الكتاب ، وإن لم يكن له مؤلف ، كان معروفا لمؤلف ورّاق ، ركز جهده فى أن يؤلف فى الكتب فهرسا جامعا .

وقد اتكأ عليه اثنان ممن عنيا بجمع الحكايات والأمثال ، وهما : الآبى ، أبو سعيد منصور بن حسين (ت ٤٢٢ هـ) ، فى كتابه " نثر الدرر ونفائس الجوهر فى المحاضرات " ، وهو مختارات من الشعر والنثر فى قطع قصيرة ، رتبت على أساس المحتوى ، وتنوعت فيها الأغراض ، ولايزال مخطوطا ، ومخطوطاته موزعة بين القاهرة ، وييل ، وبرلين ، وليبزج ، وليدن ، والمتحف البريطانى ، وبطرسبرج ، وأمكنة أخرى ، ونقل عن الجاحظ ، دون أن نجد هذا فيما بين أيدينا من مؤلفاته ، خبرا يقول : " حكى الجاحظ أن اسمه نوح ، وكنيته أبو الغصن ، وأنه أربى على المئة ، أدرك أبا جعفر ، ونزل الكوفة " ، ثم أورد له مجموعة من النوادر .

والثانى الميدانى (ت ٥١٨) فى كتابة " مجمع الأمثال " ، وطبع أكثر من مرة ، وإذا كان الأول قليل الذيوع والنتشار فان الثانى يعرفه كل من له صلة بالأدب ، ونسب إليه فى كتابه عددا من الأمثلة ، وأشار إلى أنه رجل من فزارة

نلحظ أن النوادر المتصلة بجحا عند كليهما متشابهة ، من حيث الاختيار والترتيب ، مما يشى بأنهما استقيا مادتهما عن جحا من مصدر واحد ، وهو

---

١ - الشائع فى الكتب العربية " ابن النديم " ، وهو خطأ ، وقد صححناه فى كتابنا " دراسة فى مصادر الأدب " الطبعة السابعة .

احتمال وارد ، ولو أن هذا المصدر ليس بين أيدينا . لكن لاينبغى أن نسقط أيضا أن الميدانى متأخر عن الآبى ، فلعله أفاد من كتاب هذا الأخير ، بعد أن أضاف إليها ماسمع فى عصره من نوادر وأمثال كان جحا بطلها .

ولانكاد نبلغ القرن الثامن الهجري حتى نجد ابن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـ) فى كتابه عيون التواريخ يترجم لمن توفوا عام ١٦٠ هـ من الأعيان ، ومن بينهم جحا ، ويقدم لنا سلسلة نسبه كامة : دجين أبو الغصن بن ثابت اليربوعى البصرى ، المعروف بجحا ، رأى أنس بن مالك ، وروى عن أسلم مولى عمر بن الخطاب ، وهشام بن عروة ، وروى عنه ابن المبارك ، ومسلم بن إبراهيم والأصمعى ، وآخرون . قال النسائى : ليس بثقة . وقال الشيرازى فى الألقاب : إنه جحا ، والذى يقال فيه مكذوب عليه ، وكان فتى ظريفا ، وله جيران مخنثون يمازحونه ، ويزيدون عليه . وقال ابن حيان : والدجين ، يتوهم أحداث أصحابنا أنه جحا ، وليس كذلك ، ولكن وفاتهما فى سنة ستين ومئة ، وأما جحا فاسمه نوح قال الحافظ ابن عساكر : عاش أكثر من مئة سنة .

إذن فنحن هنا فى القرن الثامن الهجرى أمام من يرى أن جحا كان محدثا ، ومن ينفي وجود أية علاقة بين الاثنين ، ومن بعده يمضى كتاب السير والتاريخ ، يجمعون بينهما أحيانا ويفرقون أخرى ، دون براهين مقنعة فى الحالتين . وعلى أية حال انتقل جحا من الواقع التاريخى إلى الواقع الفنى ، وأصبح رمزا ونموذجا ، وغدا عالمه الجديد يتسع لكل شيء ، الخلْق والتزيّد والحذف والتناقض .

إن من الصعب تحقيق شخصيته ، من هو ؟ ومتى عاش ؟ لأن مثل هذه الشخصية حين تدخل دائرة اتخاذ المثل تفقد هويتها ، فتطلق على أكثر من إنسان ، وينسب إليها الناس كل ما يريدون أن يقولوه دون أن يتحملوا تبعيه ، وأن الأمثلة التى نسبت إليه تطورت ، وأن الرواه زادوا فيها ، أو أنقصوا منها ، وأنهم كانوا يوظفونها ليعبروا عن ضيق الناس على أيامهم ، وليحملوها هموم مجتمعاتهم ، ومن هنا فان ماجاء عنه فى كتب الأدب العربى متناقض ، وليس

في الإمكان أن يكون كل مانقل عنه من عمل رجل واحد ، وإلاّ لزم أن يكون لاعمل له إلا إثارة الضحك بنوادره ، ولاعمل للرواة إلاّ أن ينقلوا عنه هذه المضحكات . ومن المحتمل أنهم نسبوا إليه نوادر الغباء والغفلة التى كانت أصلا تنسب إلى قراقوش عامل صلاح الدين الأيوبى على مصر . وعلى أية حال فان ما صنع مع جحا ، لم ينفرد به ، وإنما صَنع مع كثيرين قبله ، وأخرين جاءوا من بعده ، مثل حاتم الطائى ، ومجنون ليلى غيرهم .

●●●

وقد شاعت نوادر جحا فى إيران ، وهم يؤكدون أنه فارسى الأصل من أهالى أصفهان ، وكلمة جحا ينطقونها جحى (بكسر الحاء) ، وأن اسمه فى الأصل مشهدى ، ثم عُرف من بعده باسم الملا نصر الدين ، والملاّ هو الخوجة ، والخوجة هو المعلم ، وجمعت نوادره فى كتاب " كليات فكاهيات الملا نصر الدين " .

تدور نوادر الملا نصر الدين على ألسنة الناس جميعا فى فارس صغارهم وكبارهم ، على تباين درجاتهم ، وأشهرها قصته مع ابنه وحماره ، وهى مشهورة فى العربية أيضا ، وتهدف إلى تصوير أن رضا الناس غاية لاتدرك .

يذكر شعراء الفرس فى القرن الخامس الهجرى اسم جحا ، فنجده عند منوجهرى ، وكان هذا ملازما للسلطان مسعود الغزنوى ، وعند ناصر خسرو ، وهو من دعاة المذهب الإسماعيلى ، ويتضمن شعره الجم من المواعظ ، والدعوة إلى الزهد ، والإعراض عن مفاتن الدنيا .

كما أن جلال الدين الرومى ، اكبر شعراء الفرس فى القرن السابع الهجرى ، ذكر له قصة منظومة فى مثنوية ، وألفه عام ٦٦٦ هـ ، ومن ثم فإن الدكتور حسين مجيب المصرى يحاول أن يفرق بين جحا الذى عرفه الفرس مابين القرنين الخامس والسابع ، ويراه شخصية عربية انتقلت إليهم من الأدب العربى ، وبين الخوجة ملا نصر الدين الفارسى ، لأن الفرس حين عرفوا جحا لم يكن لأدبهم

الشعبى كيان ، وعلى أية حال فإن الأقرب إلى المنطق أن يكون الملا نصر الدين تطورا لجحا العربى .

● ● ●

وصل جحا إلى الأتراك عبر الأدب الفارسى ، وحمل اسم نصر الدين خوجة أو خوجة نصر الدين ، وهو الأكثر احتمالا ، لأن مولانا جلال الدين الرومى أمضى معظم حياته فى الأناضول ، وفى قونية بخاصة ، وكذلك صنع والده بهاء الدين الملقب بسلطان العلماء ، وكان جلال الدين يسخدم جحى ، كما تنطق بالفارسية ، ليوضح آراءه الهامة .

ولكن الترك لايسوون بين جحا ونصر الدين ، والشخصيتان عندهم تفترقان تماما ، فالشخصية التركية أقل إثارة للجدل ، وأدخل فى واقع التاريخ ، وأقرب إلى التصديق ، وهو عندهم أهم شخصية فى الأدب الشعبى ، ولهم ولع بالاستماع إلى نوادره وفكاهاته ، حتى ليقال إن مجموعة نوادره أكثر الكتب تداولا بينهم ، بعد القرآن الكريم . وهم لايتهمونه بالحمق ولا اختلاط العقل ، لأنها صفات تتعارض مع ماشاع عنه بين الشعب من صلات تربطه بأصحاب المذاهب والمشايخ ،والأولياء . وكما اهتم به الشعب اهتمت به الحكومة فجددت ضريحه فى آق شهر ، ويتبرك العامة بزيارته ، ويطلبون رضاه ، وينسبون إليه الكرامات . ويقولون إنه كان فقيها حنفيا ، يشتغل بتدريس الفقه ، أحبه تلاميذه ومريدوه : وتفرض تقاليد المدينة التى فيها ضريحه زيارة قبره على كل عروسين قبل ليلة زفافهما .

وعند التركمان أن كل من روى له نادرة ملزم برواية ست نوادر أخرى ، لأنه أوصى برواية سبع من نوادره دفعة واحدة ، وإذا لم يعمل الراوى بتك الوصية فأمه طالق .

وقد ألف العالم التركى گولبينارلى كتابا عن نصر الدين ، وعقد فيه فصلا

عن نوادره مع تيمور لنك ، وهى تلقى بعض الضوء على شخصية هذا الطاغية ، فكما أن العرب حملوا جحا كل ماعجزوا عن التصريح به ، فكذلك صنع الترك فى عهد تيمور لنك ، فنفسوا عن أنفسهم على لسانه ، ونطق نيابة عنهم فى رمز وإيماء ، وفسر الحقيقة بالمجاز ، وستر الجد بالهزل المعهود فيه .

وحاول الأتراك بدورهم أن يقيموا له تاريخا ، واختلفوا حوله ، بعضهم رجع به إلى عصر هارون الرشيد ، وبعضهم جعله يعيش بعد هذا بكثير ، فى عصر خوارزم شاه علاء الدين وحكم بين ١١٧٢ و ١٢٠٠م ، وحاول الدراسون المحدثون أن يحققوا الأمر على نحو أفضل ، فوضعته مجموعة فى آخر القرن الرابع عشر الميلادى ، وبداية القرن الذي يليه ، زمن بيازيد الأول وتيمورلنك وقرمنيد الثانى علاء الدين ، واستمدوا أدلتهم من لقاء جحا لتيمور . على حين رأت مجموعة أخرى أن مكانه القرن الثالث عشر ، زمن سلجوقى علاء الدين ، ويعتمدون على قصيدة للشاعر التركى لمعى (ت حول ١٥٣٢م) فى ديوان " اللطائف " ، يؤكد فيها أن نصر الدين كان معاصرا لشاهياد حمزه ؛ وهذا عاش فى القرن الثالث عشر .

ويقولون إن القرن الثالث عشر كان عصيبا فى حياة الترك ، شهد الصراع الدموى العنيف بين تيمورلنك وسلاجقة الروم العثمانيين من ناحية والأتراك أنفسهم من ناحية أخرى ، وحيث سادت الحروب الداخلية والخارجية ، وانعكس كل ذلك على الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فى ظل نظام عسكرى بغيض ، وثورات لاتتوقف هدت كيان الدولة نفسه ، ومثل هذه الظروف تنتج شخصية جحا ، حتى يتنفس الشعب من خلال حكاياته ولطائفة ونوادره ، ويتخذ منها أداة تعبير وسخط واحتجاج حتى لو كانت سلبية النتائج ، ولهذا يرى عباس محمود العقاد أن شخصية نصر الدين خوجة التركية نموذج أصيل غير منقول عن أية أمة أخرى ، يقول :

" إنه نشأ فى آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدينيين من قبل

الإسلام ، حيث يعهد فى آحاد من هؤلاد الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب ، ويفتوا فتوى أحيانا بغية السلامة من بطش الحكام المغيرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس إيمانا بكراماتهم وشفاعاتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطغاة ، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول ، أو بالتخليط الذى ينالون به مايلبوه من الحاكم إذا أضحكوه ، واستطاعوا فى وقت واحد أن يلمسوا فى نفسه موطن التقوى والخوف من الله ، وموطن الرضى والسرور "

و " الفرق بين الجليل الرهيب والمضحك المغرب قيد شعره أو لمحة عين ، ولاشك فى هذه الحقيقة من الوجهة النفسية ، لأن الهول يتحول فجأة إلي الضحك بطارىء من طوارىء التغيير والتبديل التى تتعاقب فى أيام النصر والهزيمة ، والقيام والسقوط بين الجبابرة وأصحاب الدولات ، ولا شك فى هذه الحقيقة أيضا من الوجهة التاريخية ، إذا رجعنا إلى عصر تيمورلنك وأشباهه فى تواريخ المشرق والمغرب ، فليس أحفل بالأضاحيك من عصر التقلب وعصور الشدائد والأهوال ".

والواقع أن كلام العقاد يحتاج إلى تحرير وفضل بيان . فان كان يريد له ملامحه التركية الخاصة به التى لاتتوافق مع جحا العربى ولا مع نصر الدين الفارسى ، فذلك مالاسبيل إلى إنكاره ، لأن الواقع والتاريخ يرفضانه ، وأما إن كان يقصد أن الترك ابتدعوه من عدم ، دون أن يكون فى حسبانهم أحد ممن عند جيرانهم ، فذلك ماينافى طبيعة الحياة الأدبية فى هذه الأقطار كلها ، فقد كانت ثقافتها متقاربة ، وحتى مشتركة ، فى خطوطها الرئيسية ، طوال تلك القرون ، على الرغم من قيام الحدود السياسية واختلاف اللغات .

وهكذا التقى الاثنان وتقارضا : جحا العربى ونصر الدين التركى ، لأن الأدب الشعبى لايعترف بالحدود ، وعندما جاءت المطبعة وانتقلت الحكاية من الرواية الشفوية إلى التدوين ، جمعوا بينهما فى كتاب واحد ، فقيل : نوادر الشيخ نصر الدين المعروف بجحا .

وتبقى ملاحظتان : إن حكايات نصر الدين نُظمت فى التركية شعرا ، ويقول

ناظمها إنه ترجم قصص لافونتين إلى التركية شعرا ، فزين له صديق أن ينظم حكايات نصر الدين أيضا ، لكى تستوعبها الذاكرة فى سهولة . وأن بعضا من نوادر جحا ترجم إلى التركية وبعد فترة من الزمن أعيدت ترجمته من التركية إلى العربية .

●●●

شاعت قصص جحا فى الأدب السواحلى الشفوى ، وفى اللهجات المختلفة ، ولأمر لم أتبينه فان جحا عندهم يحمل اسم أبى نواس ، وفى البدء ظننت الأمر مقصورا عليهم ، وأهمنى أمر تفسيره ، وبدا لى أن أبدأ الأمر من المنبع نفسه ، وهو اليمن وعُمان ومنطقة الخليج ، فحاولت أن استقصى الأمر عندهم خلال رحلاتى إلى بلادهم ، فوجدتهم يجهلون جحا ، وينسبون حكاياته إلى أبى نواس ربما لأن شخصيتة شهرت بالمرح والفكاهة والتخفف من القيود ، لأن شرق أفريقيا تلقى جل تياراته الثقافية من جنوب الجزيرة العربية فقد شاع بينهم اسم أبى نواس ، وحل مكان جحا ، والعجيب أن الفارسية رغم علاقاتها الوثيقة بالخليج وبشرق أفريقيا لم تترك تأثيرا فى هذا الجانب ، فلا تعرف السواحلية شيئا عن الخوجة نصر الدين .

وإذا كانت شخصية أبى نواس حلت مكان جحا ، فان جانبا كبيرا من الحكايات يدور حول علاقاته بهارون الرشيد ، ويدرك المرء أن هذه الحكايات بسيطة فى جملتها ، وأنها للإضحاك والإمتاع أكثر منها للتعبير عن هموم مكتومة .

يبقى أن نقرر أن الحكايات الهزلية فى الآداب الشعبية تختلط بشدة ، ومهمة الباحث المقارن أن يتتبع روافدها فى الآداب الإسلامية المختلفة ، وأن يردها إلى منابعها ، وأن يتبين خصائص كل شعب وذوقه ومزاجه من خلال التغييرات التى تطرأ عليها .

المحتوى

• المصادر والمراجع

• أولا المصادر العربية

• **ابراهيم حمادة :**

خيال الظل وتمثيليات ابن دنيال ، دراسة وتحقيق ، القاهرة ١٩٦٣ .

• **إبراهيم علي طرخان :**

إمبراطورية غانا ، القاهرة ١٩٧٠

دولة مالي الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٣ .

• **الأبشيهي ، شهاب الدين محمد :**

المستطرف في كل فن مستظرف ، القاهرة ١٣٧٩ هـ .

• **أحمد أمين :**

حي بن يقظان ، لابن سينا وابن طفيل والسهروردي ، تحقيق أحمد أمين ، القاهرة ١٩٥٤ .

• **أحمد أمين و زكي نجيب محمود :**

قصة الأدب في العالم ، القاهرة ١٩٥٥ .

• **أحمد الخولي :**

من شعراء إيران الكبار : وحشي البافقي ، القاهرة ١٩٧٨ .

• **أحمد محمود الساداتي :**

تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٠ .

• **إسحاق موسى الحسيني :**

الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٥٢ .

• **أبو الأعلى المودودي :**

نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ، بيروت ١٩٨٠م .

• **أمين عبد المجيد بدوي :**

القصة في الأدب الفارسي ، القاهرة ١٩٦٤ م .

● البيضاوى ، أبو سعيد عبد الله بن عمر :

أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، مصر ١٣٤٤ هـ .

● البكرى ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز :

المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، باريس ١٩٦٥م .

● الجاحظ :

كتاب القول فى البغال ، تحقيق شارل ملاّ ، القاهرة ١٩٥٥م.

● الجبرتى ، عبد الرحمن بن الحسن :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعة بولاق ، القاهرة .

● جمال الدين سيد محمد :

الأدب اليوغوسلافى ، االكويت ١٤٠٤ هـ= ١٩٨٤م .

● جمال زكريا قاسم :

الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، القاهرة ١٩٧٥م.

● حسن الترابى :

تجديد الفكر الإسلامى ، جدة ١٩٨٧م.

● حسن مكى محمد :

حركة الإخوان المسلمين فى السودان ١٩٤٤ - ١٩٦٩ ، معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ، الخرطوم ١٩٨٩ م .

● حسين مجيب المصرى :

تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١ .

فى الأدب الإسلامى ، فضولى أمير الشعر التركى القديم ، القاهرة ١٩٦٧ .

فى الأدب الشعبى الإسلامى المقارن ، القاهرة ١٩٨٠ .

● حيدر إبراهيم على :

أزمة الإسلام السياسى ، القاهرة ١٩٩١ .

● رجاء عبد المنعم جبر :

رحلة الروح بين ابن سينا وسنائى ودانتى ، القاهرة ١٩٧٥ .

● زكى محمد حسن :

الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ، القاهرة ١٩٤٠ .

● سمير عبد الحميد إبراهيم :

اللغة العربية وقضية التنمية اللغوية فى باكستان ، القاهرة ١٩٨٢ .

● شيخو أحمد سعيد غلادنت :

حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

● الطاهر أحمد مكى :

الأدب المقارن : أصوله وتطوره ومناهجه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٨ .

دراسات فى الأدب المقارن نظرية وتتطبيقية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٩ .

● عباس محمود العقاد :

الحسين أبو الشهداء ، طبعة دار الهلال ، القاهرة .

جحا الضاحك المضحك ، كتاب الهلال ، أغسطس ١٩٥٦ ، القاهرة .

● عبد الستار فراج :

أخبار جحا ، القاهرة ١٩٥٤م .

● عبد النعيم محمد حسنين :

نظامى الكنجوى شاعر الفضيلة ، عصره وبيئته وشعره ، القاهرة ١٩٥٤م .

● عبد الله لجيب محمد :

دراسات فى الأدب السواحيلى ، القاهرة ١٩٨٧م.

● عثمان بن محمد فودى :

إحياء السنة وإخماد البدعة ، القاهرة ١٩٦٢م .

- **أبو العلا عفيفي :**

الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، القاهرة ١٩٤٥م .

- **أبو العلاء المعرى :**

رسالة الغفران ، تحقيق وشرح بنت الشاطىء ، القاهرة ١٩٥٠م .

- **علوى بن طاهر بن عبد الله :**

المدخل إلى تاريخ الإسلام بالشرق الأقصى ، القاهرة ١٣٩١ هـ= ١٩٧١م .

- **القاضى الفع محمود ... الكرمى التنبكتى :**

تاريخ الفتاش فى أخبار البدان والجيوش وأكابر الناس ، باريس ١٩٦٤م.

- **القشيرى ، أبو القاسم عبد الكريم :**

كتاب المعراج ، تحقيق على حسن عبد القادر ، مصر ١٩٦٤م.

- **ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل :**

تفسير القرآن العظيم ، طبعة الحلبى بمصر .

قصص الأنبياء ، الأسكندرية ١٤٠١ هـ= ١٩٨١م.

- **المحبى :**

خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، القاهرة . بلا تاريخ .

- **محمد حافظ دياب :**

سيد قطب : الخطاب والأيدلوجيا ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٧ .

- **محمد حرب عبد الحميد :**

الأدب التركى الحديث ، القاهرة ١٩٧٥م .

العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، القاهرة ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان ، القاهرة ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م .

- **محمد الحسين آل كاشف الغطاء :**

أصل الشيعة وأصولها ، ط ١٠ ١٣٧٧هـ= ١٩٥٨م .

● محمد رجب النجار :

جحا العربى ، الكويت ١٩٧٨م.

● محمد السعيد جمال الدين :

الأدب المقارن ، دراسات تطبيقية فى الأدبين العربى والفارسى ، القاهرة ١٩٨٩ م.

دراسات فى تاريخ المغول والعالم الإسلامى ، القاهرة ١٩٨٧م.

● محمد السعيد عبد المؤمن :

الظواهر الأدبية فى العصر الصفوى ، القاهرة ١٩٧٨م.

● محمد ضياء الدين الريس :

النظريات السياسية الإسلامية ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٦٧م .

● محمد كرد على :

الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٥٠م.

● محمد محمود أحمد :

دراسات فى الأدب الصومالى ، القاهرة ١٣٩٣هـ= ١٧٣م .

● محمد موفاكو :

الثقافة الألبانية فى الأبجدية العربية ، الكويت ١٩٨٣م.

● الميدانى :

مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محيى الدين ، القاهرة ١٩٥٤م

● ابن النديم :

الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨ هـ.

● وحيد الدين بهاء الدين :

أعلام من الأدب التركى ، بغداد ١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م .

● ثانيا : المصادر والمراجع المترجمة إلى العربية :

● إدوارد براون :

تاريخ أدبيات إيران ، جـ ٢ من الفردوسى إلى السعدى ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى ، القاهرة ١٩٥٤م .

- **أرمنيوس فامبرى :**

تاريخ بخارى ، ترجمة أحمد محمود الساداتى ، القاهرة ١٩٦٥م .

- **بارتولولد ، ف . :**

تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزه طاهر ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٣م.

- **پرويز ناتل خانلرى :**

أوزان الشعر الفارسى ، ترجمة د. محمد نور الدين عبد المنعم ، القاهرة ١٩٧٨م.

- **توماس أرنولد :**

الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون ، مصر ١٩٤٧م.

- **جراهام بيلى :**

الأدب الإسلامى فى شبه القارة الهندية ، ترجمة د. حسين مجيب المصرى ، القاهرة ١٩٨٨ م.

- **جلال الدين الرومى :**

المثنوى ، الكتاب الأول ، ترجمة محمد عبد السلام كفافى ، بيروت ١٩٦٦م.

- **جوستاف جرينباوم :**

حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٥٦م.

- **دونالد ولبر :**

إيران ماضيها وحاضرها . ترجمة د . عبد النعيم حسنين ، القاهرة ١٩٥٨م.

- **رشيد الدين الوطواط :**

حدائق السحر فى دقائق الشعر ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى ، القاهرة ١٩٤٥م.

- **رضا زاده شفق :**

تاريخ الأدب الفارسى ، ترجمة محمد موسى هندارى ، القاهرة ١٣٦٦هـ= ١٩٤٧م .

- **روبرت ب . داونز :**

كتب غيرت وجه العالم ، ترجمة أحمد صادق حمدى ، القاهرة بلا تاريخ .

- **كريستنسن :**

إيران فى عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧م.

كتب أخرى للمؤلف

- امرؤ القيس ، حياته وشعره

الطبعة السادسة ، دار المعارف ١٩٩٠ م

- دراسة فى مصادر الأدب

الطبعة السابعة ، دار المعارف ١٩٩٢ م

- ملحمة السِّيد ، دراسة مقارنة

الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨٣م

- مع شعراء الأندلس والمتنبى

ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ١٩٩١م

- بابلو نيرودا ، شاعر الحب والنضال

دار روز اليوسف ، ١٩٧٤ م . [نفذ وتعاد طباعته الآن]

- طوق الحمامة لابن حزم ، تحقيق

الطبعة الخامسة ، دار المعارف ١٩٩١ م

- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة

الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٩٣

- القصة القصيرة ، دراسة ومختارات

الطبعة الخامسة ، دار المعارف ١٩٩٢ م

- الشعر العربى المعاصر ، روائعه ومدخل لقراءته

الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٩٠ م

- الحضارة العربية فى إسبانيا

ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى ليفى بروفنسال ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٩٢ م

- الفن العربى فى إسبانيا وصقلية

ترجمة لكتاب المستشرق الألمانى فون شاك ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٨٤ م

- التربية الإسلامية فى الأندلس ، وأصولها المشرقية ، وتأثيراتها الغربية

ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا ، دار المعارف ط ٢ ، ١٩٩٣ م

- الأخلاق والسير فى مداواة النفوس لابن حزم

(تحقيق) ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م

- فى الأدب المقارن : دراسات نظرية وتطبيقية

الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٩٢ .

- مناهج النقد الأدبى (ترجمة)

ط ٢ ، دار المعارف ، ١٩٩٢ .

- الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية

(ترجمة) دار المعارف ١٩٩٠ .

- الرمزية ، دراسة تقويمية

(ترجمة) ١٩٩٤ .

رقم الإيداع ٩٤/٩٨٨٥

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 19 - 6

طبع بمطابع دار روتابرينت